

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
المركز الجامعي بغيرداية



مَجَلَّةُ الْوَأَحَاتِ لِلْبَحْثِ وَالدِّرَاسَاتِ

مجلة أكاديمية دورية محكمة تصدر عن المركز الجامعي غرداية - الجزائر

العدد الرابع عشر



عدد خاص بأعمال الملتقى الوطني الأول حول الشيخ اطفيش القطب
حياته وآثاره وفكره (1332هـ / 1914م)
المنعقد يومي: 27 - 28 ذو القعدة 1432 / 25 - 26 أكتوبر 2011م
ذو القعدة 1432هـ / أكتوبر 2011م
طبع الطبعة العربية 11 نهج طالب أحمد غرداية

أثر قطب الأئمة في علم الصرف مقال (أحمد في الصرف) (أحمد في)

عائشة يطلو

جامعة مستغانم

مقدمة

يعدّ قطب الأئمة امحمد بن يوسف اطفيش (1236-1332 هـ / 1818-1914م) من أعظم الرجال الذين أنجبهم هذا الوطن؛ كان أمة في فرد، ورجلا وهب حياته للعلم وإصلاح ما أفسده الدهر، فكان حلقة في سلسلة العلماء الذين يتّوا بذور النهضة في ميزاب والجزائر عامة.

وحريّ بنا أن نحكي ذكرى علمائنا، ونتقبّل ما خلفوه بقبول حسن، بالمحافظة على تراثهم؛ جمعا، وفهرسة، وتحقيقا، ودراسة، ونشرا. وما أحسب ذلك إلّا فرضا على أهل الاختصاص.

مكانة الشيخ اطفيش العلمية: كان مبرزا في جميع العلوم وبخاصة الشرعية منها واللغوية، مغرما بجمع الكتب. وما سيأتي من أقوال لدليل كاف على صحّة ما أوردها:

* قال عنه الدكتور أبو القاسم سعد الله بعدما تحدّث عن تفاسيره الثلاثة، وعددها، وتاريخ طبعها: "كان الوحيد عندئذ الذي ألف في هذا العلم على ما نعرف، وكانت له من الإمكانات الأدبية واللغوية والمواهب العقلية ما أهله لخوض هذا البحر، فقد كان ولوعا بالأدب واللغة والتاريخ والبلاغة والحديث، وله اطلاع واسع على الحضارات ومساهمات الشعوب"¹.

* قال عنه الشيخ دبور: "إذا نظرت في كتب التفسير التي وضعها، ورأيت مباحثه النحوية وإعرابه فيها، وحفظه لمذاهب النحاة في مشاكل النحو؛ علمت أي بحر هو في علوم العربية"².

* استطاع بجده وعزيمته الفولاذية، وغرامه وشغفه بالعلم أن يملك من الكتب النفيسة في أعماق الصحراء، في وقت الفتن وصعوبة المواصلات، وقلة المطابع ما لم يملكه أغلب العلماء الجامعين اليوم، ودرس ما لم يدرسه³.

* أثر عن تلاميذ القطب أنّ شيخهم يعرف ما في ابن عقيل، والأشموني، والمغني، وسعد الدين التفتازاني في البلاغة، وشروح السمرقندية كما يعرف داره التي نشأ فيها؛ لا يحتاج في تدريسها إلى إعداد ومراجعة، وذلك لحافظته القوية وذكائه النادر، وشغفه بالعلم شغفا جعله ينكب

على العلوم فيتقن درسها⁴.

* اعتمد الشيخ اعتمادا شبة كليّ على نفسه في أخذ العلوم؛ فهو لا يكاد يبدأ كتابا في فنّ جديد، ويدرس فيه بابا أو بابين على الأستاذ، ويعرف موضوعه حتى يختم الكتاب بنفسه. لقد درس الآجرومية على أخيه إبراهيم، غير أنّه ما إن أتمّ الباب الثاني منها وهو في علامات الإعراب، حتى ختم الكتاب بنفسه وفهم الآجرومية كلّها وحفظها؛ وقال لأستاذه: "حسي من دروسك فيها، إن شئت قرّرت لك الأبواب كلّها وشرحت لك ما فيه"⁵.

مؤلفات القطب اللغوية: القطب رجل موسوعي شبيه بجلال الدين السيوطي من حيث كثرة التأليف؛ فقد خلف آثارا عديدة ثرية ومتنوعة كمّا وكيفاً، ضاع منها الكثير لعوامل مختلفة، وما تبقى فهو متفرّق بين مكبات كثيرة، خاصة في وادي ميزاب، ما يزال أغلبها مخطوطا، وبعضها طبع في الجزائر وفي سلطنة عمان.

تنوّع هذا التراث بتنوّع ثقافته، كتب في جميع العلوم تقريبا، أغلبها في العلوم الشرعية واللسانية. واختلفت هذه التأليف من حيث طبيعتها؛ فهناك الذاتية الإبداعية، وهناك المختصرات والشروح، وهناك الحواشي والتقارير، إلى جانب القصائد والرسائل والخطب والردود والمراسلات⁶.

عناية القطب بالتأليف منذ صغره نابع من إدراكه لأهمية الكتاب المتمثلة في كونها وسيلة تثقيفية خالدة ومتنقلة. أضف إلى ذلك استشعاره النقص الذي يشكوه طلاب العلم، وضعف المستوى الثقافي. وما إلى ذلك من صعوبة مؤلفات السلف مع تقاعس الكثير من العلماء عن التصنيف في علم من العلوم⁷.

ولا يمكن أن نناسي أنّ الشيخ قد عاش فترة عصيبة تمثلت في الحماية الفرنسية على وادي ميزاب منذ عام (1853م)، ثمّ احتلاله عسكريا في (1882م)،؛ فترة خيم فيها الجهل، وكان للإدارة الاستعمارية دور في تعميم الجهل. وبذلك ندرك أهمية الجهود التي قدّمها المترجم له وأمثاله من أعلام هذه الفترة في ميدان العلم والإصلاح.

مؤلفات الشيخ في مجال اللغة:

- الكافي في التصريف: وهو موضوع هذه المداخلة.

- شرح لامية الأفعال: مطبوع⁸؛ انتهى من شرحها عام (1260م) كما جاء في ختام هذه النسخة⁹.

- حاشية على شرح لامية الأفعال لابن الناظم: مخطوط¹⁰.

- كتاب الرسم: مطبوع¹¹؛ هو مختصر في الخط العربي، وقد جاء في صفحة العنوان¹²:

"يوجد في نسخة المؤلف بخطه: ولمشايع الحرم الشريف اعتناء بهذا التأليف وطلبوه من مؤلفه إذ ألفه فيه".

وضع المصنف كتابه هذا في إحدى حجّتيه؛ الأولى منهما كانت في (1873م)، حيث جاور بمكة عاما كاملا درّس خلاله وألف. أمّا الثانية فكانت في (1886 م)¹³.

- مختصر ثان في علم الخط: مخطوط¹⁴؛ جاء في صفحة العنوان ما نصه: "تأليف ثان مختصر في علم الخط شارح لما جاء في جمع الجوامع للسيوطي في علم الخط، وقبله تأليف بسيط في ذلك الفن متن ليس بشرح لشيء، كلاهما تأليف للقطب الرّباني الذي حاز الدرجة الثالثة من الاجتهاد".

ولعلّ قوله: "وقبله تأليف بسيط في ذلك الفن متن ليس بشرح لشيء"، تلميح إلى كتاب الرسم الذي ذكرناه آنفا.

- المسائل التحقيقية في بيان التحفة الآجرومية: مخطوط¹⁵.

- شرح شرح أبي سليمان داود التلاتي على الآجرومية: مخطوط¹⁶؛ شرح أبي سليمان داود التلاتي الجري (ت: 967 هـ) على الآجرومية شرح مختصر¹⁷.

- حاشية صغرى وأخرى كبرى على شرح أبي القاسم الداوي على الآجرومية: مخطوط¹⁸؛ شرح أبي القاسم بن يحيى الغرداوي المصعبي (ت: 1129 هـ) واسع مقارنة بشرح التلاتي¹⁹.

- نظم مغني اللبيب لابن هشام: مخطوط²⁰؛ ويسمى (قصيدة الغريب)، أرجوزة عدد أبياتها خمسة آلاف، وضعها وعمره ست عشرة سنة²¹.

- حاشية على شرح المرادي على ألفية ابن مالك: مخطوط²²؛ وشرح المرادي هذا هو المسمى (توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك). الموجود من الحاشية هو جزء واحد خصّ الموضوعات الآتية: لأسماء الموصولة، العدد، الحكاية، التأنيث، المقصور والممدود.

- شرح مختصر للقصيدة اللغزية: مخطوط²³؛ القصيدة اللغزية في المسائل النحوية وشرحها لأبي سعيد بن لبّ الأندلسي (ت: 783 هـ).

- مختصر شرح ابن لبّ على القصيدة اللغزية: مخطوط²⁴؛ هو من مؤلفات القطب في صغر سنّه ترجيحاً.

- نظم في مثلثات الكلام: مخطوط²⁵.

- إيضاح الدليل إلى علم الخليل: مخطوط²⁶؛ هو حاشية على شرح الخزرجية في العروض، والموسوم بـ "فتح ربّ البرية بشرح القصيدة الخزرجية" لأبي يحيى زكرياء بن محمد الأنصاري (ت: 926 هـ).

- شرح على شرح عصام الدين في الاستعارات: مخطوط²⁷؛ الشرح المشروح هو لإبراهيم بن محمد عصام الدين الإسفراييني (ت: 944 هـ) على متن الاستعارات لأبي القاسم السمرقندي (ت: حالي 888 هـ)، وضعه القطب قبل شرحه للغز الماء (1283م)، أو خلال هذه السنة لإحاطته عليه فيه²⁸.
- بيان البيان: مخطوط²⁹.
- تخلص العاني من ربة جهل المثاني³⁰.
- ربيع البديع: مخطوط³¹.
- الانشراح في بيان شواهد التلخيص والمفتاح: مخطوط³².
- شرح شواهد القزويني: مخطوط³³.
- تسهيل الاجتهاد في تفسير أشعار الاستشهاد: مخطوط³⁴؛ هو شرح لثلاثة شروح على الآجرومية: شرح الشريف محمد بن أحمد بن يعلى الحسيني (ت: 760 هـ)، وشرح أبي سليمان داود التلاتي، وشرح أبي القاسم يحيى بن أبي القاسم الغرداوي.
- شرح شواهد قواعد الإعراب: مخطوط³⁵.
- شرح شواهد الوضع: مخطوط³⁶.
- حاشية التمرين: المقصود بها (تمرين الطالب في صناعة الإعراب) لخالد الأزهري (ت: 905 هـ). ذكرها القطب في شرحه على لامية الأفعال³⁷ مرة بهذا العنوان، ومرة بـ "حاشية على إعراب الألفية".
- حاشية الشذور وشرحه: شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، لابن هشام الأنصاري (ت: 761 هـ)، ذكرها القطب في شرح شرح التلاتي على الآجرومية³⁸. وهي من المفقودات.
- حاشية القطر وشرحه: ذكرها في شرحه على لامية الأفعال³⁹. وتعدّ من المفقودات أيضا.
- حاشية على التصريح: ذكرها في حاشيته على شرح الرائية⁴⁰.
- شرح على العيني: ربّما يكون شرحا على كتاب "المقاصد النحوية" أو مختصره "فرائد القلائد في مختصر لشواهد"، لمحمود بن أحمد العيني (ت: 855 هـ)⁴¹.
- والملاحظ أنّه يحيل على حواشيه في النحو جملة، دون تعيين، كما فعل في شرحه على لامية الأفعال⁴².
- كتاب (الكافي في التصريف): هو واحد من المؤلفات التي ظلّت مجهولة لسنوات طويلة

مع وجوده على رفوف بعض خزائن وادي ميزاب⁴³.

هذا المصنّف متوسط الحجم، من المصنّفات الإبداعية التي ليست بشرح ولا بمختصر ولا بحاشية. قمت بتحقيقه ودراسته في إطار رسالة ماجستير عام (2002 م).

سيكون التركيز في حديثنا عنه على العناصر الآتية:

أ- تاريخ تأليفه: لم يرد ذكره في النسخ الخطية التي اعتمدتها في التحقيق⁴⁴، غير أنّ إحالة القطب في (الكافي) على شرحه على اللامية⁴⁵ يفيد أنّ تأليف الكافي تمّ بعد (1260 هـ) وهو تاريخ الانتهاء من شرح اللامية⁴⁶. كذا إحالته على تفسيره⁴⁷ بعبارة عامة وهي "تفسيرنا". وكان أول تفسير له هو "هميان الزاد إلى دار الميعاد"، قد أنهى مسودته عام (1271 هـ)⁴⁸.

تمّ الكشف عن نسخة جديدة من (الكافي في التصريف) منسوخة حوالي (1274 هـ)⁴⁹، ممّا جعلنا نستنتج أنّ (الكافي في التصريف) تمّ تأليفه في هذه السنة، أو لنقل ما بين (1271 هـ) و(1274 هـ).

ب- دواعي التأليف: لم يبيّن القطب في خطبة كتابه الأسباب التي جعلته يضع هذا لمصنّف، كم جرت عادته في بعض مصنفاته. غير أنّ المستقرئ لجملة "ينتفع به المبتدئ فإلى غيره يهتدي"⁵⁰ الواردة في تلك خطبة الكتاب، كذا عبارة "الصرف أم العلوم، والنحو أبوها" التي صدر بها مقدّمته، سيستخلص بعض الدواعي، نحو:

* ندرة المؤلفات الصرفية المناسبة لهذا الصنف من المتعلّمين في معهده؛ لأنّ أغلب المؤلفات الصرفية لا تناسب إلاّ المتخصّصين، وهي أيضا من لمطوّلات. فاضطرّ إلى وضع هذا المختصر ميسر الأسلوب، ليناسب هذه الفئة، به يهتدي إلى كتب أخرى في الفن نفسه. والقطب قد أثر عنه أنّه كثيرا ما وضع كتباً تناسب مستوى تلامذته، إن هو لم يجد كتباً تناسبهم.

* عدّه علم التصريف من العلوم الضرورية الواجب التأليف فيها، وتعليمها وتعلّمها، يتّضح ذلك من خلال قوله أيضا: "رأيت علم التصريف فرضا من فروض الكفاية، وكذا يجب القصد عليه بأكمل العناية"⁵¹.

* انصراف كثير من الناس عن تعلّمه، وهو ما جاء صريحا في مقدّمة شرحه على اللامية: "رأيت أهل هذه البلاد وما والاها جاهلين له كلّ جهل، وغامضا عنهم كلّ بحث من مباحثه صعب أو سهل، لجهلهم فوائد العلم صغارا، واستكافهم عن تعلّمه كبارا"⁵². وقد كان ذلك مدعاة إلى البدء بمقولة: "الصرف أم العلوم، والنحو أبوها"⁵³.

ج- المحتوى العلمي: تناول القطب في كتابه جملة من الموضوعات الصرفية، تمثّلت في المصدر وما اشتقّ منه. وجاء تبويبه لهذه الموضوعات على الشكل الآتي: مقدمة وسبعة أبواب:

- المقدمة: عرّف فيها علمي الصرف والنحو، ثم علم الاشتقاق، مفصّلاً الحديث فيه، لأنّه مدخل مهمّ لفهم المشتقات⁵⁴.

- الباب الأوّل⁵⁵: خصّه للمصدر؛ فهو الأصل في الاشتقاق عند الشيخ. تحدّث عن أدلّة البصريين والكوفيين في مسألة الأصل في الاشتقاق. حوى أربعة عشر فصلاً، هي: فصل في أبنية مصادر الأفعال، فصل في أبنية الأفعال، فصل في الفعل الماضي، فصل في الفعل المضارع، فصل في فعل الأمر، فصل في اسم الفاعل، فصل في الصفة المشبهة، فصل في اسم التفضيل، فصل في صيغة فيعل بمعنى فاعل وبمعنى مفعول، فصل في اسم الفاعل من الرباعي وغيره، فصل في اسم المفعول، فصل في اسمي المكان والزمان والمصدر الميمي، فصل في اسم الآلة، وفصل في اسمي المروّة والهيئة.

- الباب الثاني⁵⁶: خاص بالمضاعف؛ عرّفه وذكر أبوابه. وتناول موضوع الإدغام.

- الباب الثالث⁵⁷: خاص بالمهموز؛ تناول موضوع الهمزة بين الصحة والإعلال، وتخفيف الهمزة المفردة، وحذف الهمزة، وصوغ اسم الفاعل والمفعول منه، وبعض المشتقات الأخرى. حوى فصلاً في أبواب المهموز، وآخر في كتابة الهمزة، وثالثاً في كتابة همزتي القطع والوصل في نسخ المغاربة.

- الباب الرابع⁵⁸: خاص بالمثل؛ عرّفه وذكر أبوابه وإعلاله.

- الباب الخامس⁵⁹: خاص بالأجوف؛ عرّفه، وذكر أبوابه، وشروط إعلاله. في فصل في حكمه قبل الإسناد وبعده، وفصل في إبدال الواو والياء همزة، وفصل في المبني للمفعول واسم المفعول وباقي المشتقات.

- الباب السادس⁶⁰: خاص بالناقص؛ عرّفه وذكر أبوابه وكيفية تصريفه والمشتقات منه. وقد حوى هذا الباب فصلاً واحداً تناول فيه الكلام عن الإبدال.

- الباب السابع⁶¹: خاص بالفعل اللفيف بنوعيه؛ عرّفه وذكر حكمه، الأمر منه، وتوكيده، والمشتقات منه، وحكم الجمع بين إعلايين.

إنّ حصر التصريف في هذه الموضوعات يرجع سببه إلى كون الكلمة في العربية لا تخلو من حرف علّة، فتكون من المثل أو الأجوف، أو الناقص أو اللفيف. وربّما حوت ملحقا بحرف العلّة فتكون من المضاعف أو المهموز. وإذا خلت منهما فتكون من الصحيح. وهذه الأبواب جميعها حواها الكافي في التصريف.

أمّا الباب الأوّل الذي جعله للمصدر، وما تضمّنه من فصول؛ فيعلّل بكون المصدر هو الأصل في الاشتقاق عند المؤلّف، لذلك خصّه بالباب الأوّل. ويشتقّ من هذا المصدر أفعال

وأسماء. وهذه الأفعال قد تكون إخبارية أو إنشائية. أما الإخبارية فربما خلت من الزوائد فنستسي ماضية، وربما حوت زيادة سموها مضارعة. وأما الإنشائية فهي دالة على طلب الفعل سموها أمرا، أو دالة على تركه سموها نهيا.

وللأسماء المشتقة دلالات كثيرة، منها:

* دلالة على ذات من قام به الفعل: أسماء الفاعل وما اتصل به من صفة مشبهة، وصيغ مبالغة، وأسماء تفضيل.

* دلالة على ما وقع عليه الفعل: أسماء المفعول.

* دلالة على ما وقع الفعل فيه: أسماء الزمان والمكان.

* دلالة على ما وقع الفعل بسببه: أسماء الآلة⁶².

د- منهج التأليف: إنَّ الكافي باعتباره مرجعا للمبتدئين، اعتمد صاحبه منهجا خاصا، معالمة:

* شرح الألفاظ: ساق المؤلف كثيرا من الأمثلة لتوضيح ما قرره من قواعد، واهتم بشرحها شرحا لغويا. ونادرا ما كان يترك الشرح⁶³.

* الاختصار: اختصر الحديث عن بعض المسائل كان قد عرض لها بتفصيل له أو لغيره؛ مثال ذلك محيء المصدر على أوزان معينة: (فاعلة، مفعول)، وساق شواهد قرآنية، مختصرا الكلام، محيلا على تفسيره وغيره من التفاسير، بقوله: "وفي هذه الآي بحث في تفسيرنا وغيره"⁶⁴.

وقد أحال على شرحه على لامية الأفعال لمعرفة معاني (أفعل)، بقوله: "وغالب هذا النوع للتنعية. وقد يكون للصيرورة... ولغيرها، كما بسطته في شرح اللامية"⁶⁵ لأنه اكتفى في الكافي بذكر معنيين، وهما التنعية والصيرورة.

* تجنّب التكرار: يؤكّد ذلك إيراد عبارات مختلفة من نحو: على ما مرّ، كما مرّ، قد مرّ⁶⁶.

* الاستطراد: تمثّل خاصّة في حديثه عن الاشتقاق؛ ساق تعاريف كثيرة محاولة منه الإحاطة بالموضوع، واستيفاء حقّه من البحث، لإفادة المتعلّم المبتدئ⁶⁷

* عدم عزو الأقوال: أغلب النصوص المنقولة في الكافي غير منسوبة إلى أصحابها، تجدها مصدّرة بعبارات مثل: قال بعضهم، قال بعض، قيل، عن بعض...

وأرجعت ذلك إلى أنّ هدف الشيخ هو الرغبة في اشتغال المتعلّم بالنصوص لا بأسماء قائلها.

يظهر للمطلع على كتاب الكافي ملامح أخرى، تكشف عن شخصية هذا العالم، منها؛ تصريحه باستنفاذ طاقة البحث كلها، من خلال عبارة كررها في عدة مواضع، هي "هذا ما ظهر لي في تحقيق المقام"⁶⁸، وما ذلك إلا تواضع العالم المدقق. إضافة إلى ذلك تجده يستعمل الأسلوب الجريء، جرأة لا ترتقي إلى الغرور؛ تمثل ذلك في مناقشة آراء الغويين الكبار من جهة، وفي استعماله بعض الأساليب، تنم عن رغبته في دفع المتعلم إلى الاكتفاء بما قرره من جهة أخرى؛ نحو قوله في مسألة الإدغام في حالة سكون الثاني: "هذا تحقيق المقام، ولا تلتفت إلى ما سواه من الكلام"⁶⁹. تلك جرأة العالم المصلح، المعتد بعلمه، وقد وقفت على هذا النوع من الأساليب في شرحه على لغز الماء؛ قال: " لا تلتفت لما قاله غيري مما يخالف ذلك"⁷⁰.

هـ- مصادره: اعتمد المؤلف مصادر له وأخرى لغيره، فنصّل الكلام عنها على النحو الآتي:
* مصادر له: استفاد القطب من مباحثه السابقة، ظهر ذلك من خلال ما صرح به من أسماء كتبه وما لم يصرح به. وقد حاز شرحه على لامية الأفعال السبق في الاعتماد، يليه حاشيته على المرادي، وتفسيره هميان الزاد وكتبه في النحو.

من إحالاته على شرح لامية الأفعال، ماتعلق بمسألة حسب⁷¹؛ قال: "عندي أن يحسب - بالكسر - مضارع حسب - بالفتح - فذلك من التداخل. فانظر شرحي على اللامية"⁷². وفي مسألة نيابة المفعول عن الفاعل وأسباب ذلك، كذا أوزان اسمي الزمان والمكان الشاذة، نجده يذكر عنوان المسألة ويحيل على الشرح⁷³.

إحالاته على حاشيته على المرادي مرة واحدة، حينما عرض لتعريف علم الصرف؛ ذكر بعض التعاريف وأحال على حاشيته لمعرفة الباقي⁷⁴.

أما كتبه في النحو فلم يصرح بعناوينها، إنما ذكرها جملة بعبارة "النحو"؛ من حلال قوله: "مباحث ذكرتها في النحو"⁷⁵، و"بسطت في النحو"⁷⁶. وقد تمكنت من الوقوف على كتابه "المسائل التحقيقية في بيان التحفة الآجرومية" لمراجعة وتحقيق بعض المسائل مثل: نيابة المفعول عن الفاعل وأسباب حذف الفاعل، وأسباب بناء الفعل الماضي.

كانت الموضوعات المحال عليها تخص: بناء الماضي، وفعل الأمر، وهمزة صحراء، والضميران (هو، هي).

أما ما تعلّق بتفسيره، فقد أحال عليه في باب المصدر الذي يأتي على وزني فاعلة ومفعول، نحو: كاذبة ومفتون، واستشهد لذلك بآيات قرآنية، ثم أردفها قائلا: "وفي هذه الآي بحث في تفسيرنا وغيره"⁷⁷، ولم يخصص. لكنّا رجّحنا كونه تفسيره هميان الزاد؛ ففي الكافي اختصار وفي تفسيره توسّع.

* مصادر لغيره: رجع إلى العديد من مصادر اللغة، غير أنه لم يصرّح بأيّ واحد منها، عدا شرح المرادي على الألفية المسمى توضيح المقاصد والمسالك، في موضعين: الأول بقوله: "انظر المرادي"، والثاني: "ذكر المرادي"⁷⁸. أمّا المسائل التي أحال فيها عليه فتمثّلت في تعريف علم الصرف، وتعداد حروف الإبدال؛ فقد أورد خمسة عشر حرفاً وقال بأنّ المرادي ذكر ذلك وزيادة.

إنّ المتمعّن في قائمة أسماء الأعلام التي ذكرها، يدرك أنّه راجع مصنفاتهم مباشرة أو بواسطة؛ فهناك آراء للخليل، وسيبويه، وابن جني، وأبي عمرو بن العلاء، والكسائي، والأخفش الأوسط، والمازني، والمبرد، وثعلب، والسيرافي، وأبي علي الفارس، والزمخشري، وابن الحاجب، وابن عصفور، والجاربردي، والمرادي، وسعيد قدورة، واللقاني، والسيد. وكان أكثرهم ذكراً سيبويه والزمخشري.

و- موقفه من مسائل الخلاف: لم يكتف القطب بمجرد عرض الآراء، إنّما ناقشها، فأيد أحياناً وعارض أحياناً أخرى؛ يختار لنفسه مذهباً يتبنّاه عن قناعة. وكثيراً ما يصدر أحكاماً على بعضها، من نحو: حسن، مقبول، ليس بشيء، صحيح، أولى، ليس كذلك، لا وجه له، باطل، ليس برشد. وقد لا يعلّق تماماً.

من أمثلة ذلك:

* مسألة الأصل في الاشتقاق، هل هو الفعل أم المصدر؛ بسط المؤلف بعض أدلّة البصريين القائلين بأصلية المصدر في الاشتقاق، وساق أيضاً أدلّة الكوفيين القائلين بأصلية الفعل في ذلك. أمّا عن موقف الشيخ من هذا الخلاف فكان موافقة البصريين، بدليل تصريحه في المقدمة: "الصرف... اصطلاحاً تحويل الأصل الواحد -وهو المصدر- إلى صيغة أو صيغتين أو صيغ..."⁷⁹، وأنّ المصدر أصل اشتق منه الفعل، والصفات، وأسماء المكان والزمان، والآلة، والكثرة⁸⁰.

* مسألة همزة (اسم)؛ أصل هذه الهمزة عند البصريين (سُمُو) من (السُمُو) أي الرّفعة، حذفت الواو وعوّضت بهمزة وصل. أمّا الكوفيون فعندهم مشتق من (وَسَم) أي العلامة، حذفت الفاء وعوّضت بهمزة وصل. وكان رأي القطب هو رأي البصريين، وإن لم يصرّح بذلك، لقوله في تعريف الإبدال: "الإبدال جعل حرف مكان حرف لغير إدغام، فخرج ب (مكان) نحو: ابن، واسم؛ فإنّ همزتيهما أولاً عوض عن لام الكلمة آخرها. وقيل المحذوف في (اسم) فاء الكلمة"⁸¹. وربّما يكون تقديم رأي البصريين على رأي مخالفيهم دليلاً على تبنّيه، كذا إيراد حكم الكوفيين بعد (قيل) تبيان لضعفه. وفي شرح المؤلف على لامية الأفعال: مذهب البصريين هو القياس، لأنّ حذف اللام عوضاً بهمزة أولاً بخلاف دخول همزة الوصل على ما حذف صدره، وهو غير

مألف في كلام العرب⁸².

* مسألة الهمزة المتطرفة المتحركة بعد ساكن؛ يرى فيها المشاركة عدم إثبات صورتها المحدثّة، في نحو: (جَا)، وصرّح الشيخ أنّ قولهم ليس برشد. أمّا المغاربة فنصّوا على كتابتها، وهو الصواب في نظره⁸³. ولعلّ العذر في ذلك هو رفع اللبس عن القارئ.

* مسألة الوزن تفعّل؛ قال فيه البصريون هو بناء لتكثير مصدر الثلاثي نحو: (التّهذار) لتكثير (الهُدَر). وعند الكوفيين مصدر (فَعَل) الدال على الكثرة لمشابهته (التفعّل) في الحركات والسكنات والزوائد. أمّا القطب فذكر (تفعّل) ضمن أوزان الثلاثي المجرد، معلقاً في الختام: "وما ذكرت من أنّ تفعال مصدر للثلاثي مذهب البصريين. وقال الكوفيون مصدر الرباعي بالتشديد للمبالغة، وهو الراجح عندي"⁸⁴. فهو مع الكوفيين فيما ذهبوا إليه.

* مسألة أوزان الآلة: إنّ لاسم الآلة أوزان مقيسة: مِفْعَل، ومِفْعَال، ومِفْعَلَة. وقد شدّ عن ذلك بعض الأوزان: مَفْعُل، مَفْعَلَة. ولا يعدّ سيبويه هذه الأسماء من الآلات، إنّما هي أسماء أوعية لم يذهب بها مذهب الفعل. وكان تعليق الشيخ على هذا الرأي بقوله: "وهو الصحيح"⁸⁵، لكنّه استثنى (الْمُنْخُل) من ضمن ما أورده سيبويه، لأنّه آلة للتلخ.

* مسألة البناء (فَعَل)؛ اختلف حول الزائد فيه. قال الجمهور الزائد هو الثاني، لقربه من الطرف، وهو أولى بالتغيير، والتكرار حصل به، وهي التي تعقبها الياء في المصدر. أمّا الخليل فقال بزيادة الأوّل لسكونه، لأنّ الساكن حرف فقط والمتحرك حرف وحركة، والأوّل قليل الزيادة. أمّا القطب فأخذ برأي الجمهور لتصريحه: "وهو الصحيح عندي"⁸⁶ لأنّ أدلتهم ترجّح قولهم "والمصير إلى الراجح متعين"⁸⁷.

* مسألة اسم المفعول من الأجوف؛ فمثلاً (مَقُول) اسم مفعول من الأجوف أصله (مَقُول)، نقلت ضمة الواو الأولى إلى القاف فالتقى واوان ساكنان؛ رأى سيبويه حذف الثانية لزيادتها، أمّا الأخفش الأوسط فقال بحذف الأولى لأنّ الثانية علامة، والعلامة لا تحذف. وقد عقّب الشيخ في موضع ذكر فيه قاعدة حذف أحد الساكنين المجتمعين الأوّل منهما معتلّ والثاني صحيح، بقوله: "الأصل حذف الثاني إلّا إن كان له معنى على حدة"⁸⁸.

* مسألة أصل اللغة؛ قال عنها الأشاعرة إنّها توقيف، وهو الرأي الذي أيّده القطب عند حديثه عن مسألة التفريق بين الأمر والماضي والمبني للفاعل والمبني للمفعول من باب (باع) للإنانث. ذكر أنّه يكون بالتقدير، وإلّا فالقول أنّ واضع اللغة قد غفل عن الفرق بينهما إن كان مخلوقاً، غير أنّ الصحيح كونه الخالق المنزه عن الغفلة⁸⁹.

ز- شواهد: شواهد الصرف قليلة مقارنة بشواهد النحو في المصنفات عامة، وبناء على

ذلك فنحن نجد في الكافي مجموعة من الشواهد القرآنية والشواهد الشعرية وشواهد من الأحاديث، وشواهد من الأمثال. وقد تفاوت عددها؛ فشواهد من القرآن بلغت واحدا وستين، والشعرية عشرة، وحديث واحد، ومثال واحد.

* الشواهد القرآنية: إنّ عدد الشواهد متفاوت من باب لآخر، تبعاً لما اقتضته حاجة المسائل المطروحة للنص القرآني. ولأحظنا كذلك تكرر بعض الشواهد، كان مجموعها خمسة⁹⁰.

اختلف منهج المؤلف في إيراد هذه الشواهد؛ ففي فصل المضارع مثلاً استشهد بقوله تعالى: (وَإِذَا الرِّسَالُ أُتِّتْ)، والشاهد فيه (أُتِّتْ) التي أصلها (وُتِّتْ)، أورده دليلاً على عدم زيادة الواو أول المضارع، وإن هي زيدت مضمومة أو مكسورة لا تثبت بل تقلب همزة. وقد علق عليها ببيان أصلها قائلاً بقوله: "أي وقتت"⁹¹.

ونجده يستدل بمحل الشاهد فقط، نحو ما ورد في باب المثال من مناقشة مسألة عدم ورود وزن (فعل) في كلام العرب، بسبب النقل الناتج عن الانتقال من كسر إلى ضمّ. ساق لفظة (الجُك) وهي قراءة شاذة نسبها بعضهم إلى أبي مالك الغفاري وبعضهم إلى السّمّال. وراح القطب يشرح الشاهد، ويسوق ما جاء فيها من آراء متعدّدة⁹².

إنّا وجدنا الشيخ يذكر الآية تامة أحياناً، وأحياناً جزءاً منها، وأحياناً أخرى محلّ الشاهد فقط. وقد يعلّق على هذه الشواهد باستطراد أو باقتضاب، وقد لا يعلّق إذا انتفى الإشكال في الشاهد. كذلك لا يعنى بنسبة كثير من القراءات. ولعل مرد ذلك معرفة المتعلم بهذا الجانب من خلال تفسير شيخهم وتفسير أخرى، ومصادر سابقة في علم الصرف. فمن القراءات غير المنسوبة: قوله تعالى: (وَلَا الضَّالِّينَ). الفاتحة 7. (وَأَنْ يَصْلِحَا). النساء 128. (وَتَسَاقُطُ عَلَيْكَ رُطْبًا). مريم 25.⁹³

* شواهد الحديث الشريف: ذكرنا أنّ القطب أورد حديثاً واحداً، هو قوله عليه الصلاة والسلام: "هل أنتم تاركو لي صاحبي"⁹⁴ استدلل به على كون المجرور الظاهر قد يفصل قليلاً عن جازه، والأصل فيه ألا يفصل عنه ولا يتقدّم عليه.

إنّ هذا الإقلال من الاستشهاد بالحديث مردّه عند البعض روايته بالمعنى، ولربّما يكون الشيخ من أصحاب هذا المذهب⁹⁵.

* الشواهد الشعرية: لم يكن للشعر حظ كبير في كتاب الكافي، لعدده الضئيل، وهذه الشواهد غير منسوبة، علق على بعضها فأطال حيناً واختصر أحياناً أخرى. وقد لا يعلّق تماماً بحسب مقتضى الحال. من أمثلة ذلك:

قوله في موضوع إبدال الباء من الناء: "ومن الناء المثلثة ك (الثالي) في (الثالث)، ومنه:

قد مرّ يومان، وهذا التالي وأنت بالهجران لا تبالي"⁹⁶

هذا شاهد من الرجز قائله مجهول.

وشاهد آخر على ورود مصدر الثلاثي على وزن فاعل وهو رجز قالته امرأة من العرب؛ قال:
"وقد يجيء بوزن فاعل كقوله:

قم قائما، قم قائما أصبت عبدا نائما

أي قم قياما. ويجوز أن يكون وصفا حالا مؤكدة لعاملها"⁹⁷.

خلاصة القول:

إنّ الكافي في التصريف مؤلف مختصر مقارنة بشرح اللامية الذي اعتنى فيه بالإكثار من المسائل دون تحقيقها، كما صرح هو بذلك في إحدى مراسلاته، فهو من المطولات المصنفة في صغر سنه، بينما الكافي متأخر عنه يختلف منهجه عن منهج الأول؛ يظهر من خلاله ذلك المجتهد والناقد البارع لأنّه حقق كثيرا من الآراء، وأبدى بآرائه الشخصية في أغلبها.

أفاد صاحب الكافي من شرحه على اللامية، التي أحال عليها كثيرا، ومن خلالها أفاد من موضوعات اللامية وبعض شروحيها المشهورة، كذلك أفاد من شرح مراح الأرواح، يبنى هذا عن سعة اطلاعه.

إلى جانب ذلك، فالكافي يعتبر من الكتب القليلة التي وضعت في فن الصرف في الجزائر يمدنا بمعلومات عن الطرائق التعليمية التي كانت تتبع في تدريس هذه المادة الحيوية. إنّ القطب كان رجلا معطاء دائم التجديد؛ يضع المصنفات المناسبة لتلامذته، ثمّ يعيد النظر فيها؛ إن وجد فيها قصورا أعاد التصنيف وفق الطلب. إنه بحق عالم مجدد.

الهوامش:

- ¹ - تاريخ الجزائر الثقافي من 1830 إلى 1954 م، ط 1، دار الغرب الإسلامي، (1998م): ج 7 ص 9
- ² - نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ط 1، المطبعة التعاونية، (1965 م): ج 1 ص 302
- ³ - ينظر: المرجع السابق: ج 2 ص 308
- ⁴ - ينظر: المرجع السابق: ج 1 ص 302
- ⁵ - ينظر: المرجع السابق: ج 1 ص 300
- ⁶ - ينظر: آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقدي، لمصطفى ويتن. رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، معهد الدعوة وأصول الدين، قسم العقيدة، قسنطينة، (1995 / 1996 م). مخطوطة: ص 390 ومابعده.
- ⁷ - ينظر: محمد بن يوسف اطفيش ومنهجيته في تفسير التيسير، لمحمد عكي علواني. رسالة ماجستير في العلوم الإسلامية، المعهد الوطني العالي لأصول الدين، الجزائر، (1990 / 1991 م). مخطوط: ص 79
- ⁸ - هو أحد منشورات وزارة التراث بسلطنة عمان، طبع بمطابع سجل العرب عام 1986 م في أربعة أجزاء.
- ⁹ - ينظر ج 4 ص 482
- ¹⁰ - نسخة في خزانة الشيخ بيانو ببني يزجن، غرداية، رقمها (ب 93)
- ¹¹ - طبع بمصر عام 1349 هـ، وبالجزائر عام 1986 م، وبسلطنة عمان عام 1984 م
- ¹² - ينظر كتاب الرسم (طبعة الجزائر)
- ¹³ - ينظر تفصيل الكلام عن رحلتي القطب إلى الحجاز في: رحلة القطب الشيخ امحمد بن يوسف بن عيسى اطفيش الشهير بقطب الأئمة، دراسة وتحقيق: يحيى بن بوهون حاج امحمد، المطبعة العالمية، الجزائر، ط 1، 2007 م: ص 40. 57
- ¹⁴ - نسخة في مكتبة القطب ببني يزجن رقمها (أ ز/ 3. 6)
- ¹⁵ - نسخة في المكتبة البارونية بجزيرة تونس رقمها (107)
- ¹⁶ - نسخة في الخزانة العامة بمؤسسة عمي سعيد، غرداية رقمها (م 4)
- ¹⁷ - ينظر بحثنا: الحركة اللغوية عند الإباضية في المغرب الإسلامي من ق 10 هـ إلى ق 13 هـ، رسالة دكتوراه في اللغة العربية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية والدراسات القرآنية، (2009 / 2010 م). مخطوطة: ص 117 ومابعدها
- ¹⁸ - إحداهما في الخزانة العامة رقمها (م 23)
- ¹⁹ - ينظر: الحركة اللغوية عند الإباضية: ص 69
- ²⁰ - نسخة في مكتبة القطب ببني يزجن رقمها (أ و 6)
- ²¹ - ينظر: نهضة الجزائر: ج 1 / ص 302
- ²² - نسخة في مكتبة القطب ببني يزجن رقمها (أ م 1)

- 23- نسخة في خزانة الشيخ حمّو بغرداية رقمها (حد غ 10) ، نسبت لمجهول، لكنّ المفهرس رجّح كونها للقطب
- 24- نسخة في مكتبة آل فضل بني يزجن رقمها (خ دغ 185)
- 25- نسخة في مكتبة الاستقامة، الخزانة الأولى، ضمن مجموع رقمه 86
- 26- نسخة في مكتبة القطب رقمها (أم 4)
- 27- نسخة في مكتبة القطب رقمها (أس 1)
- 28- ينظر: شرح لغز الماء ، ص16.
- 29- نسخة في مكتبة القطب رقمها (أس / 2.1)
- 30- نشرته وزارة التراث بسلطنة عمان، محققاً من قبل الأستاذ محمد زمري
- 31- نسخة في مكتبة القطب رقمها (أس 3)
- 32- ينظر: الآراء العقديّة: ص 393
- 33- نسخة في مكتبة القطب رقمها (أ ع 1)
- 34- نسخة في مكتبة الحاج سعيد، بغرداية، رقمها (2)
- 35- نسخة في مكتبة الحاج سعيد رقمها (14)
- 36- نسخة في مكتبة القطب رقمها (أ ع 3)
- 37- ينظر: شرح لامية الأفعال: ج 1 ص 168 ؛ ج 2 ص 140، 152 ؛ ج 3 ص 23
- 38- ينظر: الآراء العقديّة: ص 403
- 39- ينظر: شرح لامية الأفعال: ج 3 ص 259
- 40- ينظر: الآراء العقديّة: ص 404
- 41- ينظر: المرجع السابق: ص 404
- 42- ينظر: شرح لامية الأفعال: ج 1 ص 17
- 43- الخزائن التي وجدت بها النسخ الخطية للكافي، هي: مكتبة الحاج صالح لعلي بني يزجن، ومكتبة القطب، ومكتبة الإصلاح بغرداية.
- 44- النسخ محفوظة في المكتبات المشار إليها سابقاً، إضافة إلى نسخة مصوّرة بحوزة الأستاذ محمد بن بكير ارشوم بيريّان، غرداية.
- 45- ينظر: الكافي في التصريف: ص 75، 84، 130، 147، 148، 195 .
- 46- ينظر: شرح اللامية: ج 4 / ص 482
- 47- ينظر: الكافي في التصريف: ص 64
- 48- نسخة مخطوطة من هميان الزاد تبدأ من تفسير سورة الفتح إلى سورة الناس، محفوظة في خزانة الشيخ حمّو بغرداية، رقمها (ح ك 6) .
- 49- بخط تلميذ المؤلف أيوب بن عبد الله بن أيوب بن حمّ بن أيوب. هذه النسخة محفوظة في خزانة الشيخ بيانو، ضمن مجموع رقمه (ب 93)
- 50- الكافي: ص 46

- 51- شرح لامية الأفعال: ج 1 / ص 9 . 10
- 52- ج 1 ص 9 . 10
- 53- الكافي: ص 47
- 54- ينظر: المصدر السابق: ص 47 وما بعدها
- 55- ينظر: المصدر السابق: ص 55 . 149
- 56- ينظر: المصدر السابق: ص 150 . 168
- 57- ينظر: المصدر السابق: ص 169 . 192
- 58- ينظر: المصدر السابق: ص 169 . 192
- 59- ينظر: المصدر السابق: ص 169 . 192
- 60- ينظر: المصدر السابق: ص 219 . 231
- 61- ينظر: المصدر السابق: ص 232 . 234
- 68- ينظر: شرح مراح الأرواح في فن الصرف، لأحمد المعروف بديكوز، وابن كمال باشا. مطبعة البابي الحلبي وأولاده، مصر، (1346 هـ): ص 5
- 63- ينظر: الكافي (فهرس الألفاظ المفسرة في المخطوط): ص 303 – 308.
- 64- المصدر السابق: ص 64
- 65- المصدر السابق: ص 75 وشرح اللامية: ج 2 ص 177 وما بعدها.
- 66- ينظر المصدر السابق: ص 77، 168، 225 .
- 67- ينظر المصدر السابق: ص 48 – 54
- 68- الكافي: ص 50 ، 179
- 69- الكافي: ص 157
- 70- شرح لغز الماء: ص 31
- 71- ينظر: الكافي: ص 75
- 72- ج 1 ص 219
- 73- ينظر: الكافي: ص 130 ، 146
- 74- ينظر: الكافي: ص 47 . 48
- 75- ينظر: المصدر السابق ص 89 ، 102
- 76- ينظر: المصدر السابق ص 117 ، 130 ، 225
- 77- المصدر السابق: ص 64
- 78- ينظر: المصدر السابق: ص 47، 231
- 79- الكافي: ص 47
- 80- ينظر: المصدر السابق: ص 55
- 81- المصدر السابق: ص 223
- 88- ينظر: شرح اللامية: ج 1 ص 11

- 83- ينظر الكافي ص 190
- 84- المصدر السابق: ص 65
- 85- المصدر السابق: ص 148
- 86- المصدر السابق: ص 76
- 87- المصدر السابق: ص 76
- 88- الكافي: ص 215
- 89- ينظر: المصدر السابق: ص 209
- 90- ينظر: الكافي: ص 272
- 91- ينظر: الكافي: ص 113
- 92- ينظر: الكافي: ص 196 . 197
- 93- ينظر: المصدر السابق: ص 165، 225، 226
- 94- ينظر: المصدر السابق: ص 102
- 95- يراجع: الحركة اللغوية عند الإباضية: ص 123
- 96- الكافي: ص 229
- 97- الكافي: ص 63 . 64

أحب الرحلة عند القطب أطفئش، قراءة في قديمه الجازل أنصوب

يحي بن بهون حاج امحمد

قسم اللغة العربية وآدابها المركز الجامعي غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000، الجزائر

1- رحلاته وأسفاره:

لما ذاع صيت القطب امحمد بن يوسف أطفئش (و: 1236هـ / 1820م - ت: السبت 23 ربيع الثاني 1332هـ / مارس 1914م) وبرز في المنقول والمعقول، تهافت الطلبة عليه من كل مكان، وطلب الملوك والأمراء لقائه كذلك، فأرسل إليه الكثير منهم يطلبون تشريفه بزيارة بلدانهم.

إلا أن اشتغاله المستمر والمتواصل بالتربية والتعليم أخذًا جُلَّ وقته، فاستعاض عن الرحلات إلى الأمصار البعيدة بالمراسلات المختلفة إلى أولئك الملوك والوجهاء والأعيان، فمن خارج الجزائر راسل شخصيات من البحرين والحجاز، وعمان ومصر وتونس وجبل نفوسة، والقُسطنطينية وبعض العواصم الأوروبية، ولو جمعت تلك المراسلات لكونت مجلدات ضخمة فيها من أنواع المعارف والأخبار التاريخية فوائد كثيرة مهمة.

ومع ذلك فهو يزور مدن وادي مزاب باستمرار لإلقاء الدروس والفتوى، مثل عادة زيارته لمدينة بريان والتي غالبًا ما تكون مرتين في السنة في فصلي الربيع والخريف، وبسبب التصيق والحصار الذي فرضه المستعمر الفرنسي على الشيخ ومنعه من التنقل فقد اهتدى أهل بريان لاقتناء بستان باسمه، وجعل يطلب رخصة السفر إليه في الربيع لأشغال التأبير وتلقيح عراجين التمر، وفي الخريف لجني الثمر وقطع العراجين، وما كان الهدف الأسمى هو لقاء أهالي بريان وإلقاء الدروس والوعظ والإفتاء لهم... كما زار مدينة القارة مرارًا.

وقد زار القطب أيضًا وارجلان (ورقلة) سنة 1320 هـ / 1902م، فلتقاه أهلها من خارج المدينة بطلقات البارود احتفاءً بوصوله إليهم، ومكث بها أسبوعين⁽¹⁾.

ويعود سبب قلة رحلات القطب كما أسلفت إلى أوضاعه الشخصية، كاشتغاله منذ سنٍّ مبكرة بالتدريس الذي تطور من حلقات إلى طبقات، وما يتطلبه ذلك من التفريغ والتحضير الجيد،

أضف إلى ذلك سياسة التصديق الممارسة عليه من طرف المستعمر الفرنسي وأذنا به والتي عانى من ويلاتها القطب وطلبته الكثير، ولعل من أحقرها إجبارية طلب رخص التنقل بين قرى مزاب وخارجها وتعسف الحكام العسكريين لمزاب بمنحها.

2- رحلاته الحجازية:

تُجمع كل المصادر التي بين أيدينا اليوم على أن القطب أطفئش قد حجَّ مرتين في حياته أما الأولى، فقد كانت حوالي سنة 1290هـ/1873م وهي التي تردد ذكرها كثيراً في مؤلفاته، وقد مكث في مكة مُجاوراً⁽²⁾ سنة كاملة، درَّس خلال وجوده هناك كتاب: "السوسية في عقائد المالكية"، وإن كان شرح هذا الكتاب من طرف القطب لم يصل إلينا بعد⁽³⁾، وقد دَوَّن عن تلك الرحلة معظم ملاحظاته ولقاءاته مع الشخصيات والعلماء، وألَّف فيها كتابه الشهير في المنطق وهو: "إيضاح المنطق في بلاد المشرق"⁽⁴⁾، وقد كتب القطب على وجه الورقة الأولى ما يأتي: "إيضاح المنطق في بلاد المشرق، أَلْفَتْهُ في مكة، ولعلماء مكة تناول إليه، وذلك في عهد الشيوخ الشافعيين دحلان ومحمد حَسَبِيَّ الله وَرَحْمَةُ⁽⁵⁾، والشيوخ الحنفيين عجمًا وعربًا، فمن العجم التركيين الشيخ محمد حقي بن علي بن إبراهيم⁽⁶⁾ مؤلف "حزب الأبرار وحصن الأخيار" وغير ذلك، وكلهم محبُّون لي ولأموري"، وقد أعار القطب هذا الكتاب لملك زنجبار سعيد بن علي الصقري وهذا بعد عودته من الحج ليقوم بطبعه على نفقته الخاصة، وهو ما ورد في عبارة صغيرة على جانب الورقة الأولى نفسها بخط القطب نفسه وهي: "إلى الشيخ سعيد بن علي الصقري يطبعه ويردّه إلى مؤلفه امحمد بن الحاج يوسف مع نسخة من مطبعة، لأنه لما يُنسخ".

أما رحلته الحجازية الثانية فقد كانت سنة 1303هـ/1886م والتي أرخ لها بأن كتب فيها "قصيدته الحجازية" وذكر فيها مسلك رحلته تلك إلى الحجاز ذهابًا وإيابًا، وأهم المدن التي نزل بها، والناس الذين اجتمع بهم في كلِّ مرحلة، وقد عاد منها مع بداية سنة 1304هـ.

أما عن تاريخ الرحلة الحجازية الأولى _نقلًا من ثانيا بعض مؤلفاته_ فيقول: "...وكتابة العلوم بالقلب⁽⁷⁾ فإنه أحدثت سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف (1138هـ) فتشاور علماء اسطنبول بينهم مرارًا واتفقت آرائهم على جوازها، وأفتى به قاضي القضاة عبد الله أفندي وأمره السلطان أحمد الغازي، ذكره الشيخ محمد حَقِّي بن علي بن إبراهيم التركي الحنفي في "منبع الحقائق" والتقيت معه في مكة عام ألف ومائتين وتسعين تقريبًا (1290هـ/1873م) وكان يُحِبُّني ويقبل يدي في المسجد الحرام بحضرة الناس، حتى قام عليه الناس ونَبَّهوه أنني لست من الأشعرية، فترك ذلك خوفًا منهم مع بقاء رغبته في..."⁽⁸⁾.

كما أشار إليها أيضًا في جوابه للْعَقْبِي وهو الرد الشهير بـ"إن لم تعرف الإباضية" إذ فيه يقول: "...وإن لم تعرف الإباضية فقد عرفهم الشيخ إبراهيم حَقِّي العالم التركي المؤلف إذ خدمني

في المسجد الحرام حتى حسدني أهل مكة وقد عرف أنني إباضيٌّ وطلب أن أعطيه حكمة في علم الجدول⁽⁹⁾.

إلى أن يصل إلى القول: "...وإن لم تعرف الإباضية فقد عرفهم دحلان وحسيبي الله الشافعيان، الحاضر أحدهما في إقراي في المسجد الحرام تأليف السنوسي في التوحيد بحواشيه وأبحاثه وشروحه لجماعة في أئمة عظيمة من أهل عُمان ومُضاب وأهل الجبل جبل نفوسة من أعمال طرابلس الغرب..."⁽¹⁰⁾.

ويقول في كتاب تعليم الرّسم: "أما المصاحف الكبار فلا تغير عن الإمام وهي كتب كبار بخط غليظ جدا متفاسح السطور والحروف، لا تحتل الحمل إلى المحاضر والكتاب، تجعل على محامل وقد شاهدتها في المدن الكبار بتلك الصفة ككتب السلطان في مصر وفي وكالة الجاموس للإباضية قرب مسجد ابن طولون في مصر جزء منها ولم يكن في رواقهم الذي في الجامع الأزهر وهو رواق لهم عند رواق المالكية في الجامع الأزهر قريبا من رواق السعد التفتازاني وهو مالكي لا شافعي، ولذلك تراه يشرح كتب المالكية ويحشّي عليها كما حشّي على شرح العضد على مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه..."⁽¹¹⁾.

وقد وقفت بعد ذلك على وثيقة تاريخية مهمة وشهادة من ابن الشيخ حمزة الرفاعي إمام المدينة نقلها عن والده مباشرة لبعض إخواننا المزيين من الحجاج عندما زاروا المدينة المنورة وأرادوا التعرف على المزيد من أخبار القطب حينما زار البقاع المقدسة والتقى بعلماء الحجاز، فقلت لابد من نقلها للأمانة التاريخية ليحصل بعض الفائدة العلمية لمن أراد الإطلاع عليها، وليطمئن الشاك ويتحقق من صحة المعلومات التي ذكرها القطب من إكرام أهل الحجاز له ولمن كان معه.

يقول كاتب الرسالة أحمد بن حمزة الرفاعي:

1/ "...وبعد، لقد طلب مني بعض الأفاضل الإباضية أن أكتب لهم نذرة عن زيارة العلامة الجليل الإمام الحاج الشيخ محمد بن يوسف الطيفيش⁽¹²⁾ الإباضي المزيي الجزائري حينما قدم إلى المدينة المنورة سنة 1298هـ _على ما أذكر_ لزيارة قبر النبي ﷺ، فلبّيت طلبهم بما سمعته من والدي المرحوم الشيخ حمزة الرفاعي المديني وطنا الشافعي مذهبا، الذي ترجم عنه في رحلته الحجازية المطبوعة سنة 1333هـ فضيلة العلم يدرّ الحاج أحمد⁽¹³⁾ قاضي الإباضية في بلاد معسكر إيالة الجزائر عمالة وهران _رحمه الله_..

احترام وتقدير

.. 4/ قد كان العلامة الجليل الشيخ الحاج محمد بن يوسف الطيفيش _رحمه الله_ مدّة إقامته نزيلا ضيفا عزيزا مُحاطا بحفاوة وإكرام ومن معه من الطلبة لدى والدي الراحل في دارنا

باب المجيدي لقربها من المسجد النبوي الشريف الذي كانت قديماً تُزَلَّ لجميع حجاج الإباضية من ميزاب وذلك قبل أن تكون لهم دار وقف لسكانهم بالمدينة المنورة على سكانها أفضل الصلاة وأتم السلام.

* ملحوظة *

قد طلب الشيخ الحاج محمد بن يوسف الطفيش من والدي أن يلقي درساً تبرُّكاً من تفسير القرآن العظيم في المسجد النبوي الشريف، وبما أن القاعدة الجارية المتبعة في عهد حكومة الدولة العثمانية هو أنه لا يسوغ لأي عالم يقدّم من الخارج أن يلقي درساً في المسجد النبوي الشريف إلا بعد صدور الإذن له من مُفتي المدينة المنورة حينذاك، فذهب والذي منفرداً لفضيحة مُفتي المدينة المنورة العلامة الجليل الشيخ محمد بالي المدني الحنفي -رحمه الله- لطلب الإذن لضيفه الشيخ محمد بن يوسف الطفيش السالف الذكر، فكان سؤال الشيخ المفتي لوالدي ما هو مذهب ضيفكم؟ فكان جواب والدي: مذهبه إباضي، فأجاب الشيخ المفتي لوالدي: لا يسوغ لأي عالم يأتي من الخارج مذهبه خارجاً عن المذاهب الأربعة أن يدرس في المسجد النبوي الشريف كما هو الجاري والمعتاد.

فأجاب والدي -رحمه الله- للشيخ المفتي: عندي ملحوظة وهي إذا استحسن نظر فضيلتكم عَيَّنوا خلف درسه علماء، فإذا ظهر منه في درسه ما يخالف الكتاب والسنة، يَمْنَعُوهُ حالاً، فوافق المفتي على طلب والدي وأذِنَ للشيخ الطفيش المذكور بالتدريس في المسجد النبوي الشريف، فابتدأ الشيخ الطفيش بتفسير آخر بتفسير آخر سورة البقرة الشريفة، "الله ما في السماوات والأرض" إلى آخر السورة فابتدأ ساعة واحدة في اليوم الأول وساعة واحدة في اليوم الثاني وساعة واحدة في اليوم الثالث وختمها بالدعاء للإسلام والمسلمين، ولم يعترض عليه أحد من العلماء لمنعه، وكان موضوع درسه بالقرب من الموضوع الذي يصعد إليه المؤذن ليبلغ إقامة الصلاة للمسلمين".

هذا ما سمعته من والدي -رحمه الله- يقول محرره: ما أسعدها من رحلة من حرم إلى حرم، بقلم أحمد بن حمزة الرفاعي المدني وطناً الشافعي مذهباً، خادم خدام الحرم النبوي الشريف ومنبره -عفى الله عنه-⁽¹⁴⁾، تمت الرسالة.

هذا فيما يتعلق بالرحلة الأولى، ونلاحظ تنوع أحداثها العلمية خاصة وانتشارها في عديد الكتب، أمّا الثانية فقد كثر الحديث عنها حتى تضارب بعضه، خاصة فيما يتعلق بالأسباب الداعية إليها والوفد المرافق له وتفاصيل الرحلة وغيرها..، ذلك لأن القطب -رحمه الله- لم يفصل كثيراً في قصيدته ولم يترك آثاراً نثرية تدل عليها مثلما فعل في الأولى، ولعل ملاحظاته النثرية عنها قد ضاعت مع عوادي الزمن، إلا أنَّ المميز لرحلته الثانية تلك هو ما سجله من الملاحظات التي

وردت في ثنايا قصيدته الحجازية المتطاوله، وهو أصدق تعبير وأدق دليل يمكن أن نعلق عليه فتشبت بذلك صحته.

3- رحلته الثانية من خلال "قصيدته الحجازية":

تذكر معظم المصادر الشفوية المعتمدة أن من أهم بواعث رحلة القطب الثانية إلى الحجاز هو: تصحيحه للمفهوم الخاطي الذي ساد مزاب ردحاً من الزمن، والذي كان يقضي بعدم السماح للمرأة بالسفر خارج مزاب إلا للضرورة قصوى ملحة كالعلاج مثلاً، أمّا ما سوى ذلك فلا، حتى أسقط بسبب ذلك الركن الخامس في الإسلام وهو الحج، طيلة عقود من الزمن.

وللإشارة فإن هذه الظاهرة لم تكن بعيدة عن زمن القطب فقد ذكر قبله بعقود قليلة الشيخ إبراهيم بن بَحمّان الشميني اليمسني⁽¹⁵⁾ هذه الظاهرة التي عرفها عصره بمزاب وما حولها، وقد أرجعها إلى تشبث الناس بعرض الحياة الدنيا ونقص الوازع الديني عندهم، فاضحاً تحججهم وتستترهم بانعدام الأمن في الطريق، قائلاً: "...هذا وإن الناس قد استخفوا بحق الله في الحج في هذا الزمان، فصار عندهم كأنه تطوعٌ وفضيلة، وأسقطوا فرضه وطرحوه بزواية الهجران، وتقولوا فيه بعض الأقاويل الكاذبة، وتعلّلوا بالعلل الواهية الساقطة، فقالوا: إن طُرقه مشحونة بالآفات، مسدودة بالمخافات من كل الجهات، أولاً ينظرون إلى الناس في كل عام يرجعون من زيارة البيت والمقام سالمين الأجساد والأبدان، في كل سبيل وبلد من طوائف الدهر ونوائب الزمان؟! ...فلو قيل لهؤلاء إنكم قد ورثتم بمكة أو أقصى بلد منها مثلاً ألف درهم أو مائة دينار، لقطعوا إليها سهل المفاوز ووعرها آناء الليل وأطراف النهار، وخلعوا عن أنفسهم حينئذ ثياب العجز والكسل، وأسرعوا إليها المشي خفاة الرؤوس والأرجل، وبلغوا إليها فرحين بلا مهمة وتوانٍ مستبشرين..."⁽¹⁶⁾.

لعل القارئ يستدل من كلام الشيخ ابن بَحمّان على أن الناس بالفعل قد استخفوا بفريضة الحج بسبب الجهل ونقص الوازع الديني، وهو ما بقي عالقاً في اعتقادات الناس إلى زمن القطب، إلا أنني لا أستبعد كذلك العامل الأمني فهو أحد الأسباب الفعلية المباشرة والقوية لتراجع قوافل الحجاج إلى بيت الله الحرام طيلة عقود من الزمن، فقد كانت بالفعل وفود الحجاج إلى الحجاز تعقد قبل انطلاقها في الرحلة أحلاقاً وتجمع إليها ما أمكنها من القبائل في قوافل كبيرة يردون بها وحشية اللصوص والمغيربين الذين لا يرحمون صغيراً ولا كبيراً، والذين لا يتورعون عن إزهاق الأرواح في سبيل سرقة كلّ ما خَفَّ وَغَلَى من متاع الحجاج المسافرين.

لقد اصطحب القطب أطفيس في رحلته هذه بعض تلاميذه النجباء المخلصين، كما أخذ معه زوجة مريامة فرطاس⁽¹⁷⁾، بعد أن استعان ببعض قَاديّه ممن هيأ له بغلاً يحمل هودج زوجته، ولعل من أبرز أنصاره وأقربهم إليه في هذه الرحلة الشيخ عمر بن حمو بكلي العطفي وفي رواية مع

والده الشيخ حمو بن باحمد بكلي العطفي، غير أنني لم أجد ما يثبت ذلك، وقد تكفلوا بتوفير معظم ظروف الرحلة ومنها الزاد والسلاح والحماية...، غير أن "ساعد القطب الأيمن" الشيخ عمر بن حمو بكلي كما جاء ذكره ومدح خصاله في بداية القصيدة الحجازية⁽¹⁸⁾، قد كان له دور أساسي وفعال في نجاح هذه الرحلة الطويلة والشاقة، ولا شك أن سبب اعتماد القطب على هذا الرجل راجع لما يتمتع به هذا الأخير من ذكاء وحصافة في الرأي مع البسالة والإقدام التي ورثها عن أبيه البطل الشيخ حمو بن باحمد بكلي، وهذا مطلع القصيدة:

- 01 هَجَرْنَا مَسَاقِطَ الرُّؤُوسِ وَمَا نَرَى سِوَى الْحَجِّ إِنَّ الْحَجَّ⁽¹⁹⁾ قَدْ حَانَ أَنْ
- 02 وَغَيْرَ اعْتِمَارٍ وَالزَّيَارَةَ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ زَهَا التَّرَى
- 03 فَلِلَّهِ حَمْدٌ حَمْدٌ فَإِنْ لِدِي الْبَقَا وَحَمْدٌ فَقِيرٍ لِلْغَنَى عَنِ الْوَرَى
- 04 خَرَجْنَا بِضُحْوَةِ الْخَمِيسِ بِمِثْلِ مَا خَمِيسٍ، وَنَحْنُ فِي خِلَاءٍ عَنِ الْمَرَا
- 05 وَفِينَا فَتَى الْفَتَيَانِ أَشْجَعُ مَنْ أَرَى وَأَصْدَقُهُمْ حُبًّا وَأَيَقُظُ مَنْ سَرَى⁽²⁰⁾
- 06 وَأَتَقَبُّهُمْ ذَهْنًا وَأَطْوَلُهُمْ يَدًا وَمَجْرَى أَبِيهِ⁽²¹⁾ فِي شَمَائِلِهِ جَرَى
- 07 أَلَا إِنَّهُ ابْنُ السَّيِّدِ الْمُتَنَحِّي عُمَرُ⁽²²⁾ تَعَبَدَ مَرَّتَيْنِ لِلْخَيْرِ مَصَدَرًا
- 08 فَبَا لَيْتَهُ فِي صُحْبَتِي كُلِّ رَحْلَةٍ إِلَى مَكَّةَ الْعَرَاءِ فَاتِحَةَ الْقُرَى⁽²³⁾

ولا ندري كم رافق وفد القطب من أهل بلده يسجن، إلا أنه يكون قد اختار لموعد رحلته أقربهم إليه وأوثقهم صلة به، لأن الكثير من المعارضين لهذه الرحلة قد وقفوا له بالمرصاد خاصة في مسألة سفر الزوجة خارج مزاب حتى قيل إن هناك من استعد لإيقافه ومنعه من أخذ زوجته معه وإن اضطر في ذلك إلى استعمال قوة السلاح⁽²⁴⁾.

لقد ضَرَبَ القطب لمرافقيه موعدًا هو ضحى يوم الخميس للخروج من يسجن ثم من مزاب، وقد اختار وقت الضحى لاشتغال الناس بأعمالهم وبساتينهم، كما أنه من عادة الفلاحين الخروج مبكرًا لخدمة الأرض وسقي المزروعات...، ومعظم أهل بلده آنذاك يسترزقون بالفلاحة في بساتينهم الموجودة في الجهة الغربية من البلدة، في حين أن باب الخروج الشيخ وزوجه إلى الشمال أي من الباب الشرقي، وبهذا انشغل عنه معارضوه عند انصرافه من بلده، وتلقاه أصحابه مع زوجته خارج سور بني يسجن فحملوها في هودج على بغل كانوا قد أعدوه لذلك، وقد جاء ذكر صاحب الهودج والبغل في آخر القصيدة الحجازية وهو عيسى بن صالح⁽²⁵⁾، وقد دعا له الشيخ بالخير والبركة...، وفي هذه الأبيات ما يؤكد إلزامية الحج على الرجل والمرأة كما أشار إليها

القطب:

- 12 فَنَّا اللَّهُ، إِنَّ الْحَجَّ فَرَضَ وَلَوْ عَلَى اللَّهِ سَاءَ إِنْ اسْتَطَعْنَ حَقًّا بِلاَ افْتِرَا
13 مَعَ الزَّوْجِ أَوْ مَعَ مَحْرَمٍ أَوْ جَمَاعَةٍ ثِقَاتٍ وَأَقْوِيَاءَ فِي حَدَثٍ عَرَا
14 وَحَجُّ امْرِئٍ بِالزَّوْجِ سَبْعُونَ حَجَّةً وَوَاحِدَةً وَالْحُكْمُ مِنْ أَثَرِ طَرَا
15 فَقَدْ جَاءَ أَنَّ فِعْلَ ذِي الزَّوْجِ مُضَعَّفٌ بِسَبْعِينَ وَالِدَّاعِي كَفَاعِلٍ مَا احْتَرَا

انطلق الركب في سريّة تامة وتحت حراسة مشددة من مرافقي القطب باتجاه بلدة بريان التي تبعد عن مزاب بـ 40 كم إلى الشمال، ونجحت بذلك الخطة المُسطرة، وحُجِبَ القطب -بحفظ الله- عن عيون حراس أسوار المدينة ومن كل من يكيد له العداء، ليصل إلى بريان في صباح يوم الجمعة.

وقد لاقى استقبالا مميزا من أهلها وكرما حاثميا منهم، إن لم يتعرض له في القصيدة إلا أنه اكتفى بنمط من الوصف سيسبغه على كل الأماكن التي ترد في القصيدة والتي ينزل بها بأن يشرح أصل تسميتها بداية من بريان، ومثال ذلك في رحلة الذهاب إلى الحج اسمي بريان والأغواط في هذه الأبيات:

- 21 فَرَيَانٌ هُوَ اسْمٌ لِحَافِرِهَا وَقَدْ أَصِيفَ إِلَيْهِ الْبَيْرُ تُطَوَّى وَتُبْتَرَى
22 وَقُلْ إِنْ تَشَأْ مَعْنَاهُ: بَرٌّ قَدْ ارْتَوَى بِوَصْفٍ وَمَوْصُوفٍ وَتَرْكِيئِهِ اجْتَرَى
23 وَمِنْ بَعْدِهِ الْأَغَوَاطُ⁽²⁶⁾، أَغَوَاطُ مَنْ وَشَرِقٍ، وَقَدَمَا كَانَ مِنْ أَهْلِهَا الْقَرَى
24 تُسَمَّى لِأَنَّ أَرْضَهُ بَعْضُهَا سَفَلٌ وَبَعْضُ عَالٍ، وَاللَّهُ مَا يَشَأُ بَرًا⁽²⁷⁾

لم يكد يوم الخميس ينتهي ببلدة يسجن حتى كان خبر سفر القطب مع زوجه إلى الحج قد بلغ أقاصي المدينة، فسارع المعارضون إلى جمع شتاتهم من أجل اللحاق بركب المسافرين قبل وصولهم إلى بلدة بريان، في تلك الأثناء كان القطب ومرافقوه ينعمون بالراحة التامة استعدادا لمواصلة الرحلة في تلك الليلة، وهم متيقنون من أن المناوئين لاشك سيلحقون بهم، وفعلاً صار الأمر كذلك ووقع المحذور، حيث وصلت إلى بريان مساء الجمعة جماعة من الخيالة تطلب لقاء القطب وتُلحُّ في الطلب.

استسمحهم وجيه القوم أو قائد البلدة قائلاً بأن القطب ضيف بريان وهو متعب الآن وسيروى في أمرهم في صباح اليوم الموالي، وفي رواية أخرى قال لهم بأن القطب جالس يُفتي

لأهل بريان في مسائل قدّموها إليه، ولن يستقبل أحداً من غير سكان بريان حتى يأتوا بجميع ما عندهم من المسائل، وقد جرت العادة أن يسافر القطب إلى بريان مرتين في السنة من أجل إلقاء الدروس والإفتاء، ومن ثمّ فإنّ حظهم من نصيب الشيخ قد حضر ولن يشاركهم فيه أحد من أهالي مزاب، فافتتح الخيالة بذلك وجلسوا ينتظرون طلوع الشمس.

في تلك الأثناء كان القطب ومن معه قد جددوا الرحلة إلى الشمال بعد أن حضر لهم أعيان البلدة الزاد والدليل الذي يفتح لهم الطريق باتجاه مدينة الأغواط التي وصلوها بعد مسيرة يوم وليلة.

مرّ يومان على انتظار الخيالة القادمين من مزاب لدورهم في مقابلة القطب، حتى جاءهم الخبر بأن القطب قد جدد الرحلة منذ يومين وهو الآن على مشارف مدينة الجلفة التي تبعد عن بريان بحوالي 270 كم إلى الشمال، عندئذ سقط في أيدي أولئك الخيالة ما دبّروا وخطّطوا، ولما علموا بأنه قد أحيط بهم استسلموا عائدين إلى مزاب وهم أذلة خائعين، لأن بُعد المسافة وقلة الزاد والرفيق سيُجبرهم حتماً على العودة من حيث أتوا؛ وبهذا طويت صفحة المعارضين لرحلة القطب مع زوجه إلى الحجاز، ليكمل بذلك ركب الحُجّاج بقية الرحلة بسلام.

لقد تلقى القطب والركب المرافق له في كل محطة يصلون إليها كرمًا حاتميًا، وحفاوة في الاستقبال والتوديع منقطعة النظير، وهو دون شك اعترافٌ صريح بمكانته العلمية ومركزه الديني والاجتماعي المرموق، فحين دخل مدينة الأغواط استقبله أهلها بحفاوة كبيرة، ثم ما لبث أن التفت به الجموع للتحية والسلام، واغتنم بعض الحاضرين فرصة وجوده لإلقاء بعض الأسئلة والاستفسارات في حضرته، فأجابهم القطب مستبشراً كعادته، مرتاحاً لسؤال الناس عن شؤون دينهم وتحيرهم عليه كحيرتهم على شؤون دنيائهم.

أما عن اسم الأغواط فيقول القطب: "تسمى كذلك لأن أرضها بعضه منخفض وبعضها الآخر عالٍ.." (28).

بعد مسيرة يوم وليلة دخل ركب القطب مدينة الجلفة العامرة، فحضي وفده باستقبال كبير من سكانها لاسيما منهم جموع بني مزاب من التجار، فهم متواجدون بها بكثرة منذ قديم الزمان وخاصة منهم تجار بلدة العطف (تجنيّت)، الذين انصهروا في المجتمع "النّابلي" وكونوا علاقات حميمة مع سكان المدينة تماما كما توطدت علاقاتهم مع البدو الذين يقصدون محلات المزايين بكثرة لشهرتهم بالصدق والأمانة.

نزل القطب ومرافقوه ضيوفاً عند المدعو باحمد بن صالح السماوي (29) وهو من التجار المزايين المرموقين بالجلفة، وقد استدعى هذا الأخير للضيافة أيضاً عنده -بمناسبة حضور القطب- بعض أعيان المدينة وأشرافها ومنهم أشراف عرش أولاد نايل (30) وأشراف بن

لحسن⁽³¹⁾، وأحد الكرماء الأسخياء ويدعى بلقاسم من أولاد بلحش⁽³²⁾ ومن غيرهم أيضا، وقد أمضى القطب معهم ساعات طيبة، كما مدحهم طويلاً وذكر مناقبهم الجليلة.

وعن تسمية الجلفة يقول القطب: "تسمى كذلك لأن أهلها من طبيعتهم القُلف في السخاء والكرم، والقُلف من العيش: الرغد الناعم، ومنها سَنَّة قُلْفَاء: أي مُخَصَّبة وعَامٌ أَقْلَفُ مُخَصَّب كذلك.." ⁽³³⁾.

بعد يوم أو يومين جدد الركب الرحلة إلى الشمال باتجاه مدينة المدية، وفي طريقه إليها ذكر الشيخ بعض ما شاهده من طبائع الأقوام المنافية للشرع الحنيف، ومنها حلق اللحية والاستطالة في الشوارب، وقد بين وجه الدين في ذلك، وذكر ما يلزم صاحبها من أداء الكفارات مع التوبة والإنابة.

وغير بعيد عن المدينة جاء الخبر بأن الأوربيين يتحدثون عن كروية الأرض ويتمارون في ذلك فحاججهم بقوله تعالى: "والشمس تجري لمستقر لها، ذلك تقدير العزيز العليم" سورة يس، آية 38. وهو الدليل الواضح على كروية الأرض وعدم استقرارها، وبدورانها حول نفسها وحول الشمس.

ولما دخل المدينة صادف ردّ الفرنسيين مسجداً للمسلمين كانوا قد احتلوه أو احتله أغياظ اليهود، فوقف فيه مخاطباً المسلمين مهتئاً لهم على استرجاعهم له⁽³⁴⁾.

بعد مسيرة يوم وصل مدينة البليدة وفيها تلقى ترحيباً جماهيرياً كبيراً من سكانها ومن التجار المزايين بها كذلك، وقد اغتنم بعض الطلبة الفرصة للسؤال وطلب الفتوى فكان القطب يجيبهم مستبشراً من دون تردد.

سار الأمر مع القطب والوفد المرافق له تماماً كما عهد في كل مرحلة فعندما دخلوا مدينة الجزائر التي تُعرف قديماً بجزائر بني مزغنة، تسارعت إليه الوفود بأنواع الاحتفال ومجالس الأُنس والذكر وطلب الفتوى.

أياماً بعد ذلك أكثرى وفد الحجاج سفينة إسبانية أصحابها من سكان جبل طارق، لتُقلّهم عبر البحر المتوسط إلى الحجاز، وقد مرت السفينة بجزر صقلية وسردينيا التي تقابل تونس في البحر، كما وصفها بذلك.

وصلت السفينة التي تقلّ وفد الحجيج إلى ميناء الإسكندرية بعد أيام قليلة، فرست هناك بعض اليوم ثم شقت طريقها باتجاه بحر القلزم أو البحر الأحمر عبر قناة السويس، وقد وصف الشيخ أطفيش كيف شُقت الجبال الراسيات وصار بها معبر كبير للسفن المتنوعة.

مسيرة أيام حتى حل الركب في ميناء جدة وهم فرحين مستبشرين بوصولهم سالمين غانمين

إلى أرض الحجاز، فساروا إلى البيت الحرام وكلهم شوق إلى رؤيته وتقبيل الحجر الأسود، فصادف دخولهم إليه نزول أسراب الحمام إليهم واقترباها منهم وكأنها جاءت تسلم عليهم، كما نفت بهم وفود الحجيج من مختلف الأصقاع ولاسيما الموافقون⁽³⁵⁾، وقد كانت فرصة مواتية للتعارف والتواصل بين مختلف المشايخ والعلماء، ومن بعض ما طرح من المسائل على سبيل المثال: قضية جرّ اليد على البيت الحرام حين الطواف به، وأول من بدأ النطق بلغة العرب، وقصة وضع التشكيل والنقط على آيات القرآن الكريم، ومسألة الإشارة إلى الحجر الأسود حين الزحام هل تُجزى عن اللمس أم لا؟.. وغيرها من المسائل الفقهية المتعلقة بأداء مناسك الحج، ومنها قوله:

87 دَنَوْنَا فِدَانَانَا الْحَمَامُ كَمَنْ أَتَى يُسَلِّمُ وَهُوَ آمِنٌ إِثْرَ⁽³⁶⁾ اسْتَرَا

88 وَقَدْ أَكْثَرَ السُّؤَالَ فِي مَكَّةَ الْمُوَا فِقُّونَ وَأَصْحَابُ الْمَذَاهِبِ وَاحْتَرَا⁽³⁷⁾

89 فَعَنْ جَرٍّ بَعْضِ الطَّائِفِينَ يَدًا عَلَى جِدَارِ الْحَظِيمِ قُلْتُ: جُورٌ بِحَرْفٍ رَا

90 لِأَنَّ الطَّوْفَ عِنْدَ ذَلِكَ يَعْضُهُ عَلَى بَعْضِ بَيْتِ اللَّهِ فَالْقَرَضُ قَدْ حَرَى

91 سِوَى مَا نَشَاءُ وَقَوْلِ أَرْبَعٍ أَذْزِعَ وَسِعَ ثَلَاثٌ أَوْ سِوَاهُ فَبِالْمِرَا

92 وَنَاوِي الْمَقَامِ⁽³⁸⁾ قِبَلَهُ لَا صَلَاةَ لَهُ وَلَا لِبَسُ ثَوْبٍ وَاصِفٍ مِثْلَ مَنْ سَرَى

وقد عرف علماء مكة مكانة القطب العلمية فتسارعوا إلى الجلوس إليه مباشرة عقب انتهاءه من أداء جميع المناسك، حتى قربوه إليهم وقدموه للدرس في حضرة الناس بالمسجد الحرام.

تناقش الشيخ أطفيش مع علماء مكة أمثال رحمة الله الهندي وزيني دحلان ومحمد حسي الله الكثير من القضايا الفقهية، فتبين له الموافقة والتقارب في أغلبها، كما كانت فرصة للاستزادة من معارفهم وتنقيح الكثير من الأفكار، وقد تلقى القطب وتلاميذه في كل ذلك إحساناً كبيراً من أهل مكة ومن مختلف العلماء الأعلام، واختلفوا بعد ذلك وقلوبهم متعلقة بتلك الأماكن الجليلة وعيونهم تسيل من فراق البيت الحرام

140 وَلَمَّا اعْتَرَفْنَا وَامْتَنَيْنَا⁽³⁹⁾ وَوَادَعُوا مَعِيَ الْبَيْتَ بَيْتَ رَبَّنَا افْتَرَقُوا افْتِرَا

141 وَأَبْكَى فِرَاقُ الْبَيْتِ عَيْنِي وَأَحْرَقَا بِهِ الْقَلْبَ إِذْ وَادَعْنَهُ أَيَّمَا احْتِرَا

اتجه ركب الحجاج قاصداً المدينة المنورة مروراً بجعرانة وعُسفان، وفي هذه الأخيرة التقى القطب ببعض الأشاعرة الذين بادروا بطرح بعض الأسئلة عليه فلم يكن من الشيخ إلا أن يجيبهم

بما علم في الموضوع، ومنها إلى صُغرى وبها قوم من الصفرية أو أتباع زياد بن الأصغر، ثم منها إلى عيون بدر ثم وادي حُنين فالطائف، وصولاً إلى طيبة أو المدينة المنورة.

نزل الحجاج ومعهم القطب أطفَيْش ضيوفاً على المدينة المنورة وزاروا قبر الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وما كانوا ليخرجوا منها لولا موعد الرحلة، فقد تعلقوا بأرواحهم بها فصاروا كطامع في وصل ما انفصل، وخرجوا منها ودموعهم تسيل إلى وجهة ينبع أو ينبوع وهي مدينة على ساحل البحر الأحمر تقابل المدينة المنورة في نفس الخط بينهما مسيرة ليلة.

ركب وفد الحجاج السفينة التي أقلَّتْهم من ميناء ينبع مروراً بقناة السويس فميناء الإسكندرية نزولاً بميناء تونس الخضراء.

نزل وفد الحجاج من السفينة بأرض تونس وساروا فيها أياماً، زاروا خلالها الجامع الكبير أو جامع الزيتونة، كما انعطفوا عند بعض المزابيين المقيمين بتونس ومنهم طلاب العلم والتجار الذين فرحوا كثيراً بلقائهم، ومن بين من ضفر بضيافة القطب عنده إبراهيم بن عمر وهو أحد أعيان المزابيين بتونس، وقد أحسن إكرام القطب وأنزله منازل الخلفاء، وفعل كذلك مع جماعة الطلبة الذين معه، فأحبَّ القطب لقائه حتى إنه عندما جدد للرحلة صعب عليه كثيراً فراقه.

بعد مسيرة أيام دخل القطب أطفَيْش مدينة بونة وهي المعروفة اليوم بعنابة إحدى عواصم الشرق الجزائري الساحلية، فتلقوا ترحاباً وإكراماً من الناس في كامل طريقهم، وقد نزل القطب ضيفاً على المدعو يحيى بن صالح وهو حفيد الشيخ ضياء الدين عبد العزيز الشميني، وأحد أعيان بني مزاب البارزين في مدينة عنابة، وفيها أيضاً الأجودان عيسى بن صالح وعيسى بن الحاج، وهما كذلك من تجار بني يسجن المرموقين بعنابة.

ذكر القطب بعد ذلك أن الركب سار يريد الخروج من عنابة فتلقاهم عساكر الاحتلال قصد تفتيشهم، ففتشوا الجميع إلا القطب وزوجه فإنهم لم يقتربوا منهم بتاتاً، وذلك بحفظ الله ورعايته سبحانه.

بعد مسيرة أيام وصل الوفد مدينة قسنطينة، وهي إحدى عواصم البلاد الشرقية الداخلية، ومنها إلى فالمة فباتنة ثم جيب الأمير فبسكرة، وكلها مدن داخلية في الجهة الشرقية من الجزائر، وصولاً إلى شط الجريد حيث البواير التي تعمل على استخراج الملح وتجفيفه ونقله، ومنها قوله:

213 أَقَمْنَا وَسِرْنَا وَالْأَنَامُ بِمَنْظَرٍ إِلَيْنَا عَلَى الْإِحْسَانِ حَتَّى النَّصِيرَى

214 بِقَسَنْطِينَةٍ⁽⁴⁰⁾ وَالْأَصْلُ قَسَنْطِينُ وَهُوَ بَنَاهَا وَزَيْدُ النَّا جَلَّتْهُ الْعَبَوْتَى

215 وَقَالَمُهُ⁽⁴¹⁾ وَأَصْلُهَا قَلَّ مَاؤُهَا أَوْ قَطَعَتْ أَصْلَ الْعِدَا بِالْحَبِيكَرَى

- 216 وَبَيْنَا⁽⁴²⁾ وَأَصْلُهُ بَقِينَا مَبَاتَنَا فَحُرِفَ وَأُكِّدَ رَاسِمُهَا أَيَّمَا كَدَرَا
217 بِحَبِيبِ الْأَمِيرِ الْجُنْدِ: إِنَّ مَبَاتَنَا مَبَاتٌ بِأَمْسِنَا الَّذِي اخْتَرَمَ اخْتَرَا
218 وَذَاكَ زَمَانُ فَتَحِ مِصْرَ هَتَاكَ فِي يَسَارِ الَّذِي يَمْضِي لِسُكْرَةٍ اقْتَرَا
219 بَفَتْحٍ وَكُسْرِ الْبَاءِ وَاللَّفْظُ مِنْ كَرَبٍ جَرِيدٍ يَمَامَ فَوْقَهُ وَالْحَبِيرَا

ولم يفصل القُطب بعد ذلك في المراحل التي تلي هذه المرحلة، ولا ندرى لماذا؟ غير أنه من الممكن أن يكون قد سلك نفس طريق الذهاب أي دخل الجلفة ثم الأغواط فبريان فمزاب، أو أنه سلك طريق الجنوب أي من بسكرة باتجاه توفرت وصولاً إلى القارة فبريان فوادي مزاب.

دخل القُطب مدينته بني يسجن مطمئناً وسط احتفال جماهري حاشد محتفٍ بعودة عالمهم سالماً غانماً، فأثنى القُطب طويلاً على كل من ساهم في إنجاح رحلته التاريخية تلك، ولا سيما يوسف بن عيسى بن صالح صاحب الهودج والبغل الذي نقل زوج الشيخ إلى الحجاز ذهاباً وإياباً، وهذا آخر القصيدة:

- 221 فَعَوَّضَنِي رَبِّي كَرِيمًا لَهُ أَبُّ كَرِيمٍ وَأَجْدَادُ كِرَامٍ لَهَا اَنْدَرَى
222 جَوَادٌ ثَلَاةُ الْجُودِ مِنْ سِتَّةٍ وَقَدْ فَدَتْهُ نَفُوسٌ حَاسِدِيهِ عَلَى اعْتَرَا
223 إِذَا هُمْ أَمْضَى هَمَّهُ فَيُصِيبُ مَا يَرُوقُ الْعُقُولُ فَهِيَ فِيهِ بِغَيْرَا
224 كَهَوْدَجِهِ الَّذِي عَلَى بَعْلِهِ رَسَا كَقَبْضَةِ حِصٍّ أُحْكِمْتَ فَوْقَ
225 فَرْوَجِي فِيهِ مِثْلَهَا فِي أَرِيكَةِ فَلَمْ تَخْشَ وَقْصَا⁽⁴⁴⁾ أَوْ سُقُوطًا بِزَيْغَرَى⁽⁴³⁾
226 إِلَى أَنْ وَصَلْنَا بِلَدَةِ الشَّيْخِ قَاسِمٍ وَأَشْيَاعِهِ فِي الدِّينِ فِي لَيْلَةِ الْبَرَا
227 هُنَاكَ تَلَقَّانَا بِوَجْهِ مُقَسِّمٍ يُنَوِّرُ بِالتَّقْوَى الدُّجَى وَالْعَمِيدِرَا
228 فَمَا لَبِثْتُ أَنْ شَاهَدْتُ دَارَ يُوسُفَ بَنِ عِيسَى بَنِ صَالِحٍ⁽⁴⁵⁾ يَسْجَنُ ذَا
229 جَزَى اللَّهُ عِيسَى ذَا الْكَرَامِ وَهَوْدَجٍ وَبَغْلٍ وَأَبْقَى فِي وَلَايِدِهِ⁽⁴⁶⁾ كَرَا
230 غِنَى وَاعْتِزَارَا جَامِعَا وَكَرَامَةً وَسْتَرَا وَحَفْظًا لَيْسَ يَأْسَى وَلَا سَرَا
231 أَوْلَيْكَ أَحْبَابِي نَاوَا فَأَصِيدُهُمْ بِأَشْرَاكِ أَحْلَامٍ فَبِالْيَقْظَةِ اِنْخَرَا

232 فَوَاهَا وَلَكِنْ تَسْتَرِّتِ السَّمَاءَ فَأَطْمَأْنَنَا فِي اللَّهِ إِذْ نُورُهُ وَرَى

تمت في 232 بيتاً

4- من فوائد الرحلة:

لقد أولى الكثير من السلف رحمهم الله عناية كبيرة لتدوين الرحلات، فصنفوا لها وسجلوا دقائقها، ومنهم من بدل جهداً لا يستهان به فنظم رحلته شعراً حتى تنال مكانها في عقول وقلوب السامعين، وحاول تسجيل تفاصيل الأحداث بكثير من التحري والصدق في عرض الوقائع، وتفقد أوضاع البلاد الإسلامية تعبيراً عن تواصل المسلمين مع بعضهم البعض، وحتى وإن تباعدت الأمصار وطالت المسافات، إلا أن معظمهم استطاع التواصل مع كل من تعرف عليهم في رحلته، فطور فرصة اللقاء في الحج إلى مراسلات أدبية وعلمية متنوعة وإلى تبادل الكتب وغيرها..

وأعني بمثل هذه النماذج الخالدة الشيخ امحمد بن يوسف أطفيش الذي سجل لنا تاريخه الماجد استثماراً مميّزاً لرحلته في توطيد العلاقات التي كونت أجواء مفعمة بالنشاط ووطدت العلاقات بينه وبين علماء المشرق من معاصريه، ولم يكن في أقرانه بالتواصل فيما بينهم بل نقلوا ذلك إلى طلابهم ومورديهم كذلك، وفتحوا مجالات جديدة من صيد العلوم بإنشائهم فضاءات أرحب أو ما عرف بعد ذلك بنظام "البعثات العلمية"، فقامت بعض التنظيمات والمؤسسات بإشارة من علمائها بفتح معاهد تقوم برعاية شؤون الطلبة الوافدين إليها للانتقال من معين علمائها، ومن تلك البلدان التي أقام بها الطلبة الجزائريون على سبيل التمثيل مصر حيث جامع الأزهر، وتونس حيث جامع الزيتونة، والحجاز حيث الحرم المكي والمدني.

لقد مكث القطب في مكة مجاوراً سنة كاملة، ودرّس خلالها كتاب: "السنوسية في عقائد المالكية"، ولو أن درس هذا الكتاب وشرحه من طرف القطب أطفيش لم يصل إلينا، كما دَوّن في تلك الرحلة أيضاً معظم ملاحظاته ولقاءاته مع الشخصيات والعلماء، وألّف فيها إلى جانب ذلك كتابه الشهير في المنطق وهو: "إيضاح المنطق في بلاد المشرق"، وقد زار مصر بعدها وجلس إلى علماء الأزهر فيها وإلى الطلبة المغاربة المتمدرسين هناك من الإباضية والذين كانوا يقيمون بوكالة الجاموس قرب مسجد ابن طولون، كما اقتنى من رحلته تلك ما استطاع من الكتب، وبعث ببعضها إلى سلطان زنبار ليطبّعها ويعيد نشرها..، إذ كان الشيخ أطفيش مهتماً أشد ما يكون بنشر العلم في كل البلاد الإسلامية..

كما أنّ من أهم ما يمكن التعليق عليه والوقوف عنده من الفوائد العديدة لرحلة القطب هو لقائه بالعلماء الأعلام وتدريسه الناس بالحرم المكي والمدني، والثغاف الطلبة على اختلاف

مشاربهم من حوله، من أجل اقتناص الفوائد العلمية المتنوعة، ولم يكن القطب في منهجه متعصباً لفكرة ما أو اتجاه مذهبي معين بل كان متفتحاً على الجميع يسمع كل الآراء ويهتم بشؤون المسلمين في كامل البلاد الإسلامية، وأكثر من ذلك فقد انبرى مهاجماً الاستعمار الفرنسي فاضحاً لكل دسائسه في استعباد الشعوب، ومبصراً في ذلك المسلمين في مختلف الأقطار التي زارها أو راسل علمائها، تماماً كما وطد علاقاته مع علماء الجزائر في مجابهة الاستعمار الفرنسي، إذ اجتمع مع مجموعة من علماء الجزائر في منطقة "بريش" التابعة لمنطقة مسعد بالجلفة، دعا إليه الشيخ عبد الرحمن طاهري في مطلع سنة 1914 بعنوان "ثلاث ليال في الصحراء"، وقد كرس الملتقى لتوحيد صفوف الجزائريين ودعوتهم لانتفاضة عارمة يقودها المغاربة والجزائريون والليبيون ضد الاستعمار الفرنسي والإيطالي، وأوفد سفيرا هو الشيخ المبروك الأخضرى للزعيمين اللبيين الشيخ السنوسي وعمر المختار ودعاهم للتعبئة العامة، لكن المستعمر اعتقله في حدود توقرت وأعدم بعد ذلك في العاصمة⁽⁴⁷⁾، والشيخ أطفئش قضى مسموماً في مارس من نفس السنة..

ومن فوائد رحلة القطب الجليلة أيضاً إنهائه لمرحلة تاريخية عvisية وتصحيحه لمفهوم خاطئ ساد مزاب وما حولها ردحاً من الزمن، والذي كان يقضي بعدم السماح للمرأة بالسفر إلاً لضرورة قصوى ملحة كالعلاج مثلاً، أمّا ما سوى ذلك فلا، وقد كانت حجتهم في ذلك انعدام الأمن في الطريق، ولم يكن الداعي إلى التمسك بمثل هذه الأفكار إلاً تشبث الناس بعرض الحياة الدنيا ونقص الوازع الديني واستشراء الجهل ومظاهر التخلف.

12 فَنَّا اللَّهَ، إِنَّ الْحَجَّ فَرَضٌ وَلَوْ عَلَى اللَّهِ سَاءَ - إِنْ اسْتَطَعْنَ - حَقًّا بِلَا افْتِرَاءٍ

13 مَعَ الزَّوْجِ أَوْ مَعَ مَحْرَمٍ أَوْ جَمَاعَةٍ ثِقَاتٍ وَأَقْوِيَاءَ فِي حَدَثٍ عَرَا

5- الخلاصة:

يمكن القول إنّ ما أثبتته القطب أطفئش في رحلته من ملاحظات وما أورده من معلومات وما وضعه من تعاليق يتّصف بمميّزات يمكن أن تُحدّد القيمة التاريخية والاجتماعية والأدبية لهذه الرحلة، كما يمكن أن تحدد ملامح "الموسوعية" التي اشتهر بها القطب وتميز.. ولعل من فوائد رحلته ما يأتي:

إن أسلوب القطب في كتابة رحلته وخاصة في نظمها شعراً على ما في شعره من جوازات- ما يشبهها بمقصورة ابن دريد، وهو ما يبرز رقي أدبه في عصر تخلّفت فيه علوم العربية بسبب توالي النكبات على الجزائر فمن هيمنة تركية أعجمية دامت قارت خمس قرون انتهت باحتلال فرنسي بغرض.. وهو ما تسبب في تدني المستوى الثقافي عموماً، وجعل كثيراً من الرّحالة يدونون رحلاتهم ممزوجة بكثير من الألفاظ العامية أو شاب أدب الحشو والإطناب الشبيه بأدب

فترة عصور الضعف والانحطاط، غير أن القلّة ومنهم القُطب التزم في نظمه باللغة العربية الراقية، مع الفن والإبداع فيها، لذلك فإنه يمكن اعتبار رحلته من المصادر الأساسية في التعرف على أوضاع اللغة العربية في تلك الفترة، والجو العلمي والفكري في ذلك العهد وفي مختلف الأمصار.. كما كانت رحلتيه الحجازيتين فرصة سانحة وموفقة بعثت أجواء التواصل الهادف بين المشرق الإسلامي ومغربه، خاصة لما كانت بيد العلماء الأعلام، ومن هنا فإنه يمكن اختصار آثار رحلة القُطب في بعث التواصل بين المشرق والمغرب فيما يأتي:

- 1- التأريخ لثراث الجزائر خصوصًا والعالم الإسلامي عمومًا.
 - 2- التواصل بين العلماء والأعلام عند التقائهم في الحجاز ومصر وتونس وغيرها.
 - 3- تفقد أوضاع المسلمين في الجزائر ومعظم أقطار العالم الإسلامي.
 - 4- عرض العلماء لجديد القضايا والتعرف والاعتراف بجهود بعضهم البعض.
 - 5- استعراض أهم وقائع المسلمين في كل فترة تاريخية ومحاولة تصحيح بعضها.
 - 6- التعرف على مختلف الجوانب الحياتية وبخاصة الأدبية والسياسية والاقتصادية.. في مختلف الأمصار.
 - 7- التعريف بمؤلفات العلماء وما اشتهر منها وذاع صيته في كل فترة تاريخية.
 - 8- خلق أجواء من التواصل الفعال من خلال المراسلات المختلفة وتبادل الكتب وغيرها..
 - 9- التفاف الطلبة بشيخهم ونصرتهم له بمساعدته والوفاء له في أداء رسالته العلمية النبيلة.
- هذه بعض أهم الملاحظات التي وقفت عليها من خلال قراءتي المتأنية لرحلة القُطب الحجازية، ولاشك أن هناك غيرها من الآثار الكثير، قد يتوصل المتأمل والقارئ لـ "رحلة القُطب" لاستخراجها والتعليق عليها بما يثري.
- لنقل أخيرا وليس آخراً إن "رحلة القُطب" الحجازية قد ضربت لنا مثلاً آخر في التواصل بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وعكست جوانب فاضلة من أخلاق العلماء، ونقلتنا لنا صورة حية عن طبائع المسلمين في تلك الحقبة التاريخية المهمة، وإن كان معظمها ما يزال بحاجة إلى المزيد من الدراسة والتحقيق.

الهوامش:

- ¹ - ينظر: إبراهيم بابيز، كلمة ألقاها بمناسبة مهرجان القطب، حول رحلة هذا الأخير إلى وارجلان، أعمال المهرجان، مكتبة الحاج سعيد محمد، جمعية الشيخ أبي إسحاق لخدمة التراث غرداية، الجزائر.
- ² - عادة ما يلقب الحاج الماكث في الحجاز بالمجاور لبيت الله ومن هؤلاء تلقب الزمخشري صاحب الكشف بهذا فيقال له "جار الله الزمخشري".
- ³ - يوجد متن السنوسية نظماً في بعض الكتب الحجرية، أما شرحه من طرف القطب فلم يصل إلينا بعد..
- ⁴ - لقاء مع الحافظ الحاج سليمان بكاي، قيم مكتبة الاستقامة، بني يسجن، بتاريخ: 2007/07/17.
- ⁵ - ويوجد هذا الكتاب مخطوطاً بمكتبة الاستقامة ببني يسجن، رقمه في الخزنة (1): 18، وفي الفهرس: 212، ويقع في 239 صفحة، قياس 19×27سم، كامل، وهو بخط القطب أطفيش رحمه الله.
- ⁶ - أحمد بن زيني دحلان: (1232_1304هـ/1817-1886م)، فقيه مكي مؤرخ تولى الإفتاء والتدريس بمكة، وفي أيامه أنشئت أول مطبعة بمكة فطبع فيها بعض كتبه ومات بالمدينة، من تصانيفه: "الفتوحات الإسلامية". ينظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط11، 1995، ج1، ص130.
- محمد حسب الله بن سليمان المكي الشافعي فهو: (1244_1335هـ/1828_1917م)، فقيه أصولي، من آثاره: "الرياضة البديعة في أصول الدين وبعض فروع الشريعة"، وحاشية على مناسك الحج للخطيب الشربيني. ينظر: نفسه، ج6، ص152.
- رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي الحنفي: (ت: 1303هـ/1888م)، نزيل الحرمين، باحث، عالم بالدين والمناظرة، جاور بمكة وتوفي بها، له كتب منها: "إظهار الحق"، جزآن، وهو من أفضل الكتب في موضوعه. ينظر: نفسه، ج3، ص18.
- ⁶ - محمد حقي بن علي بن إبراهيم النازلي: (1301هـ/1884م)، فاضل متصوف من علماء "آيدين" توفي بمكة، له مؤلفات عديدة منها: "السنوحات المكية" و"تفهيم الإخوان تجويد القرآن". ينظر: السابق، ج6، ص108.
- ⁷ - يعني بداية العمل بالطباعة الحجرية.
- ⁸ - ينظر: القطب أطفيش، الذخر الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، طح، ص240.
- ⁹ - ينظر: القطب أطفيش، إن لم تعرف الإباضية، طح، ص10 و11.
- ¹⁰ - ينظر: نفسه، ص11 و12.
- ¹¹ - ينظر: القطب أطفيش، كتاب تعليم الرسم، طح، ص10 و11.
- ¹² - هو القطب أطفيش امحمد بن يوسف، والرجل إن لم يعرف اسمه كاملاً فلأنه لم يدركه ولم يتصل به.
- ¹³ - من أعيان بني يسجن بميزاب، تولّى القضاء بها رداً من الزمن، شغل بعد ذلك نفس المنصب في القضاء بالمذهب الإباضي بمدينة معسكر الواقعة بالغرب الجزائري، كان له اهتمام كبير بالعلوم الشرعية واللغة العربية، وجمع المخطوطات والنقش من الكتب، اشترى بعضها واستنسخ الآخر، حتى كون مكتبة ثرية في مختلف الفنون، جعلها بعد ذلك حبوساً في سبيل الله، سجل رفقة صديقه الحاج بكير

بن داود بزملا والـحاج عيسى بن موسى كتاباً فيه تفاصيل رحلتهم إلى الحج بعنوان "التحفة البهية في الرحلة الشرقية"، تم طبعها طبعة حجرية في رجب 1332هـ/1914م، تقع في 134 صفحة، يذكر أنه توفي في الأربعينات من القرن 14هـ وفي العشرينات من القرن 20م.. معجم أعلام الإباضية، ج2، ص 80، 81.¹⁴ رسالة من الشيخ أحمد بن حمزة الرفاعي إلى قاضي الجماعة الإباضية في أيلة مُعسكر عمالة وهران، 3 صفحات، نسخة مصورة بحوزة الباحث.

¹⁵ - إبراهيم بن بَـحمان: (ت: 1832هـ/1817م)، عالم جليل عاصر الشيخ ضياء الدين عبد العزيز الثميني، له مؤلفات عديدة ومراسلات تاريخية مهمة مع داي الجزائر حسن باشا الدُولاتلي بخصوص قضية صالح باي، وله رحلة حجازية أيضاً... ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج2، ص22.

¹⁶ - إبراهيم بن بَـحمان الثميني، مختصر المناسك ومهذب المسالك، مكتبة القطب، بني يسجن، مخ، ص4، 5.

¹⁷ - هي زوجة القطب الثالثة، من عائلة فرطاس من بني يسجن، لقاء مع الحاج سليمان بكاي، 2007/07/17.

¹⁸ - لقد مدحه القطب كما مدح أهل قريته العطف، الأبيات من 5 إلى 10، ينظر: القصيدة الحجازية.
¹⁹ - إيذان من الشاعر بانطلاق موسم الحج، وبالتالي الرحلة لأداء الركن الخامس من أركان الإسلام.
²⁰ - السرى: كَالْهُدَى: سَيْرُ عَامَّةِ اللَّيْلِ. وفي قول القطب "وأصدقهم حُبًّا.." تأكيد على مكانة الشيخ عمر بن حمو في قلب شيخه وأستاذه، وتذكر مختلف الروايات أنه كان يناديه بـ"أمين السرى".

²¹ - هو القائد المغوار حمو بن باحمد العطف، آخر من تولى إمامة للدفاع بمزاب لما أراد بشوشة الزحف على مزاب قادماً من وارجلان بعد تخريبها في 1871م. ينظر بتفصيل: دور المزابيين في تاريخ الجزائر، حمو عيسى النوري، دار البعث قسنطينة، ط1، 1970، ج1، ص295 وما بعدها.

²² - ورد شرح على الهامش هذا نصه: [الحاج عمر بن حمو العطاوي]، قلت هو ابن الشيخ حمو بن باحمد العطاوي، وقد مر ذكره في التقديم.

²³ - يريد كونها أم القرى كما جاء وصفها بذلك في القرآن الكريم.
²⁴ - همّ بذلك أفراد من أقاربها، ذكر لي ذلك الحاج سليمان بكاي، في نفس اللقاء بتاريخ:

2007/07/17.
²⁵ - لعله من آل عشو من بني يسجن، ذكر لي ذلك الحاج سليمان بكاي، في نفس اللقاء بتاريخ:

2007/07/17.
²⁶ - الأغواط: مدينة حاضرة عامرة، تبعد عن وادي مزاب بـ 200 كم إلى الشمال الشرقي.

²⁷ - ينظر: القصيدة الحجازية، القطب أطفَيْش، البيت 21، 22.
²⁸ - ينظر: القصيدة الحجازية، القطب أطفَيْش، البيت 24.

²⁹ - باحمد بن صالح: من آل السماوي من العطف، من تجار مدينة الجلفة المرموقين على عهده، وقد ورد على هامش النسختين (ع) و(ب): [هو جد حمو السماوي]، وهو ما أكدته لي بعض آل سماوي. وهو سليل عائلة مرموقة، شارك معظم أبنائها في الثورة التحريرية المضفرة، ولا زال لبعضهم تجارة وعقارات بالجلفة ومسعد. لقاء مع الأستاذ المحامي: سماوي عمر بن عيسى، بمكتبته بغرداية، بتاريخ: 2007/07/15.

- ³⁰ - أولاد نايل: من أكبر القبائل في تنحدر من أصول عربية، تنسب هذه القبيلة إلى محمد بن عبد الله بن الأمير مؤسس دولة "الأدارسة" بالمغرب الأقصى هو عبد الله الكامل بن الحسن المتن بن الحسن السبط من ذرية "الإمام علي بن أبي طالب" و"فاطمة الزهراء" بنت رسول الله .
- ³¹ - أولاد بن لحسن: نسبة إلى السبط الحسن بن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وهو عرش شهير بالجلفة إلى اليوم.
- ³² - أولاد بن لحرش: من أعرق العروش في مدينة الجلفة وأشهرها، ينحدر منها آل بن شريف المعروفين.
- ³³ - ينظر: القصيدة الحجازية، القطب أطفيش، البيت 24.
- ³⁴ - هذا المسجد هو المسجد الحنفي بمدينة المدية، وهو من أعرق المساجد بها، وقد ذكر لي الباحث الشيخ المختار اسكندر بأن المسجد الحنفي كان قد اغتصب من طرف الفرنسيين ثم ردّ للمسلمين في 1886 وهي السنة التي حج فيها القطب، لقاء مع المختار اسكندر بمنزله بحي المصلي بالمدينة في ديسمبر 2007.
- ³⁵ - الموافقون: عبارة يرددونها القطب أطفيش ويقصد بها أصحاب المذاهب الإسلامية السنية وهي توافق مذهبه الإباضي.
- ³⁶ - في ن(ب): أبر.
- ³⁷ - إن كثرة السائلين عن الدين من حول القطب لدليل واضح على مكانته العلمية كما مرّ في التقديم.
- ³⁸ - المقام: مقام إبراهيم عليه السلام، يريد أن من أرادته لصلاته فلا صلاة له لأن الأصل استقبال الكعبة.
- ³⁹ - يريد: وقفنا بعرفات ودخلنا منى، وهما مشعران من مناسك الحج شهيرون.
- ⁴⁰ - قسنطينة: هي سيرا، من أشهر مدن الشرق الجزائري، حافلة بآثارها الإسلامية وعلمائها المرموقين.
- ينظر: أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المطبعة العربية بالجزائر، ط1، 1350هـ، ص231 وما بعدها.
- ⁴¹ - فالمة: مدينة ابتناها البربر والفينيقيون، شهيرة بحماتها المعدنية، ينظر: نفسه، ص230.
- ⁴² - باتنة: اسمها القديم رأس العيون، وفي سنة 1849 صارت رسميا باتنة. ينظر: نفسه، ص195.
- ⁴³ - شبه مظهر اليهودج على البغل، كقبضة حصّ وهي مادة للبناء والطلاء صلبة، أحكمت فوقه بشدة.
- ⁴⁴ - وقصّ عُنُقَه: كسرها، يريد: أن زوجه لم تخش السقوط من بغلها فينكسر عنقها وتموت..
- ⁴⁵ - يوسف بن عيسى بن صالح: الأرجح أنه من آل أطفيش. نفس اللقاء مع الحاج سليمان بكاي.
- ⁴⁶ - يريد: في أولاده وذريته.
- ⁴⁷ - ينظر: تحفة السائل بباقة من تاريخ سيدي نايل، تخريج عامر بن المبروك المحفوظي، ط1، 2002، ص25.

الشَّيْخُ الْإِسْلَامِيُّ = الْقُرْبَابُ = وَجْهٌ فِي التَّوَالِدِ الْخِطَابِ بَيْنَ الْجَزَائِرِ وَعُمَانَ

محمد جهلان

قسم اللغة العربية وآدابها المركز الجامعي غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000، الجزائر

مدخل: مشروعية البحث ومرجعياته

إنَّ البحث في العلاقات الوطيدة التي تربط أقطار البلاد الإسلامية وشعوبها قد يعد من تحصيل الحاصل، غير أن افتراق الشعوب العربية والإسلامية في العصر الحديث وظهور بوادر الشقاق والخلاف والصراع التي زرع بذورها الاستعمار البغيض لمدة تزيد عن قرن من الزمان تقتضي من المؤرخين والباحثين إعادة النظر في هذه العلاقات وأصولها، وإزالة غبار النسيان والجهل عن صفحات نيرة من التاريخ تؤكد التواصل والوحدة والتآخي بين شعوب البلاد الإسلامية مهما نأت بهم الديار وبعدت بينهم الشقة، فإن رابط الأخوة الإسلامية قد جمع قلوبهم على كلمة الله امتثالاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء. 92]، وقوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران. 103]. من هذا المنطلق يؤسس البحث مرجعيته ويحقق مشروعيته، فالعلاقة بين الجزائر وعمان هي في الأساس علاقة الانتماء المشترك إلى الإسلام، وهذه هي أوثق عرى التواصل بين البلدين، وإن تعددت تحت مظلتها وبفضلها أنواع العلاقات؛ فكانت سياسية أو ثقافية أو اقتصادية أو إدارية... وإن شئنا تحرّي الدقة فإننا نقول بأن علاقة الجزائر وعمان هي في أمّتنا أنواعها علاقة إسلامية مذهبية⁽¹⁾، إذ يجد الباحث أن الجغرافيين والمؤرخين يتفقون على أن أهل عُمان وأهل بعض مواطن المغرب العربي كجبل نفوسة بليبيا، وجزيرة جربة بتونس، وقسطنطينية من بلاد الجريد بتونس، وتاهرت ووارجلان ووادي ميزاب بالجزائر، كلهم يجمعهم مذهب واحد باختلاف تسميات المؤرخين لهذا المذهب بين "إباضية" و"وهبية" و"خوارج" و"شراة" و"نكار"...⁽²⁾

إن هذه العلاقة الإسلامية الوطيدة بين إباضية المشرق والمغرب الإسلاميين وبين إباضية عمان والجزائر بشكل خاص، يمكن أن يلحظه الدارس في الأصول التي تربط شعبي البلدين، من حيث نشأة المذهب وتطور أفكاره وحركتها مشرقا ومغربا، ومن خلال الشعور العاطفي بالارتباط الإيماني والمذهبي، فهذه العلاقة كما قال الدكتور الجعبري «انطلقت من منطلق عقدي واحد، ازداد تعمُّقا عبر الزمن»⁽³⁾.

كما يسجل الدارس اعتراف إباضية المغرب العربي بفضل عُمان في رعايتهم والعناية بهم، والاستعانة بهم في تأصيل الفكر الإباضي وإرساء قواعده في بلاد المغرب، من خلال طلب الدعم العلمي والمادي والمعنوي لحل مشاكلهم السياسية والمادية والمذهبية؛ فعمان هي الموطن الأم للإباضية في العالم الإسلامي⁽⁴⁾، وبالمقابل فإن الدارس يلاحظ استمداد عُمان الدعم الروحي والمعنوي والتأييد من المغرب في فترات الفتن والخطوب التي مر بها المذهب في عمان، فكانت هذه العلاقة تواصلا روحيا وماديا، أخذا وعطاء، رعاية ونصحا، سببا في تشكل نظرة حب واحترام وتقدير بين إباضية الجزائر وعمان، وفي هذا الصدد تقول الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف: «ولاشك أن الدين الإسلامي ورباط الإسلام كان أعظم أسباب حفظ الوحدة بين المشرق والمغرب، وجعل العالم الإسلامي جسما واحدا متراس الصفوف والبيان».

ويبين تاريخ الإباضية في بلاد المغرب بوضوح صلة المغرب العربي الإسلامي بالمشرق العربي الإسلامي. وكان إباضية عُمان وعلماءها يقودون هذه الصلة دائما ويحرصون عليها، وأصبحت [بلاد] المغرب بفضل هذه الصلة القوية أصيلة في العروبة والإسلام»⁽⁵⁾.

في الصفحات الآتية سنحاول عرض نموذج من نماذج العلاقة والتواصل الحضاري بين عُمان والجزائر، هذه العلاقة المتجذرة في التاريخ والتي امتدت إلى القرون الأولى للهجرة، وما زالت تشهد استمراريتها إلى اليوم، سوف نرى كيف توطدت أكثر وأكثر بفضل أحد أعلام المذهب وأقطابه؛ إنه الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش (قطب الأئمة)، إذ نعتقد أنَّ علاقة الشيخ بعمان وأثره في توطيد التواصل الحضاري يعد أمرا مجهولا إلى حد كبير رغم شهرة الشيخ وسيطه الذي ذاع مشرقا ومغربا، فلم تسلط على هذا الجانب بالذات أضواء البحث والمساءلة، إلا ما نذر، خاصة وأنَّ الشيخ لم يزر عُمان في حياته، فكيف أسهم في هذا التواصل وما الأثر الذي تركه في علاقة الجزائر بعمان في عصره ومن بعد وفاته؟

أولا: السياق التاريخي للتواصل بين الجزائر وعمان:

أ) من البصرة وعمان إلى بلاد المغرب... جذور التواصل

لقد اختار الإباضية عند نشأتهم تسمية معبرة عن الروح التي يتأسس عليها مذهبهم، وهي «أهل الدعوة»⁽⁶⁾ شعورا منهم بضرورة الدعوة إلى الحق الذي يحملونه، ومعلوم أن صاحب الدعوة لا يمكن أن يقرّر له قرار حتى يبذل ما بالإمكان لنشر دعوته في كل الأصقاع. بل إن الدعوة إلى دين الله في الفكر الإباضي واجبة إن تحققت الاستطاعة، يقول أبو المؤثر الصلت بن خميس (ت: 278هـ)⁽⁷⁾: «فإن استطاعوا أن يتعدّوا مصرهم إلى غيرهم وجب ذلك عليهم كلما قدروا عليه، فليدعوا الناس إلى الدخول إلى دين الله والتسليم للعدل»⁽⁸⁾. على أن الإباضية قد مروا بطروفي عصيبة فقد اضطهدوا وشردوا، وصودرت آراؤهم، وشوهت صورتهم عند بعض كتاب المقالات، فاضطروا إلى العمل بسرية وكتمان، وساروا في الأرض وارتحلوا من مكان إلى مكان، لنشر أفكارهم والدعوة لمذهبهم.

كان مركز الدعوة الإباضية ومنطلقها في البصرة بالعراق على يد مؤسس المذهب وإمامه جابر بن زيد الأزدي العماني (و: 18هـ / 639م – ت: 93م / 711م) إذ اتخذ من البصرة مقرا له ينشر فيها العلم، فلقد كان منبت إمام المذهب في عُمان، ولقد كانت البصرة آنذاك عمانية لكثرة طلبة العلم العمانيين فيها، وكان لهذا الرعيل الأول فضل تأسيس أول إمامة إباضية في عُمان، لذلك تعدّ عُمان هي موطن الإباضية الأول، وما زالت إلى اليوم. وشعورا بهذه المكانة فإن بعض العمانيين يعبر عنها بقوله: «باض الدين بمكة، وفرخ بالمدينة، وطار إلى البصرة، ونهض إلى عُمان»⁽⁹⁾.

كان لأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي (القَفَّاف) (ت: ~: 145هـ / 762م) أمام الإباضية الثاني بعد جابر بن زيد، أكبر فضل في نشر أفكار أهل الدعوة في الآفاق، ففي مدرسته بسرداب بالبصرة تخرج على يده أشهر أئمة الإباضية ودعاتها، فكان من المشاركة: الربيع بن حبيب بن عمر الأزدي الفراهيديّ العُماني (ت: 170هـ)، وأبي سفيان محبوب بن الرحيل بن سيف (ت: 2هـ)، وأبي يزيد الخوارزمي (ت: 2هـ)، وأبي حمزة المختار بن عوف الشاري (ت: 130هـ)، وعبد الله بن يحيى الكندي طالب الحق (ت: 130)، والجلندى بن مسعود بن جيفر (ت: 134هـ)، وأبي الخطّاب عبد الأعلى بن السّمح المعافري اليميني (ت: 144هـ)، وسلمة بن سعد الحضرمي (حي في 135هـ) وهو أول من جاء من البصرة بمذهب الإباضية ليدعوا إليه في بلاد المغرب الإسلامي، ولعلّ توجّه محمّد بن عبد الحميد بن مغطير النفوسي (حي بعد 160هـ) إلى البصرة من آثار دعوته؛ ثمّ تلاه فوج آخر بعد عودة ابن مغطير يتكوّن من أربعة مغاربة، وهم: أبو المنيب إسماعيل بن درار الغدامسي من ليبيا (حي في 212هـ)، وأبو داود القبلي النفراوي (حي في 140هـ)، وعبد الرحمن بن رستم من القيروان (ت: 171هـ)، وعاصم

السدراتي (ت: 141هـ)⁽¹⁰⁾.

توجّهوا إلى البصرة سنة 135هـ/752م، واستقرّوا بها إلى سنة 140هـ/757م، لتلقّي العلم من منيعه على يد أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة؛ ثمّ عادوا إلى بلاد المغرب ومعهم أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليميني، عُرفوا في المصادر وكتب التاريخ «بَحَمَلَة العلم إلى المغرب».

وقد نجحت جهود سلمة بن سعد في الدعوة الإباضية، وكان يقول مع نفسه قبل ذلك: «وددت أن لو ظهر هذا الأمر من أوّل النهار إلى آخره فلا أبالي إن متُّ بعد ذلك». وكلّ ذلك حرصاً في الدعوة، وإيماناً بالمذهب وصواب نهجه؛ فانتشرت الإباضية في بلاد المغرب الإسلامي منذ ذلك اليوم.

كما عرفت الإباضية تحت إمامة أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة لأوّل مرّة في تاريخها نشأة دولها في المشرق والمغرب، كدولة طالب الحقّ باليمن والحجاز، ودولة الجندى بن مسعود في عُمان، ودولة أبي الخطّاب عبد الأعلى بن السمح المعافري في إفريقية.

ولما قامت دولة أبي الخطّاب عبد الأعلى بن السمح في طرابلس سنة 140هـ حرص إباضية المغرب على توطيد علاقتهم بإمام المذهب الثاني أبي عبيدة وإياخوانهم في المشرق، فمما تحفظه كتب التاريخ أن إباضية المغرب وجهوا رسالة إلى أبي عبيدة يخبرونه فيها بقيام الدولة واستقرار شؤونها ويسألونه فيها بعض مسائل، فأجاب أبا الخطاب الخطاب المعافري برسالة جاء فيها: «أتانا كتابكم تذكرون فيه ما منّ الله به عليكم من جمع كلمتكم وائتلاف أمركم في كثرة من بحضرتكم من أهل الخلاف لكم، ولعمري ما كثرتم وإن كثروا بأكثر ممن كان قبلهم على من كان قبلكم من سلفكم، فافتدوا بهم تهن عليكم كثرتهم».

(...) فلعمري سرّني ما انتهيت إليه من أمركم، وإن كان ذلك لم يخفَ عنا، غير أننا لم نظنّ الذي كتبتم به إلينا، والله سيّتم لكم الخير كلّه بعونه وتوفيقه»⁽¹¹⁾.

إن هذه الرسالة تكشف عن مدى توطد العلاقة الروحية بين إباضية المشرق والمغرب، وكيف أن عُمان قد أخذت مركز القيادة والإشراف بالنسبة للإباضية مشرقاً ومغرباً، فإمام المذهب عماني كما رأينا، وعلماءه الأوائل من أصول عمانية، وحتى انتشاره في البصرة كان بين عمانيين أو ينحدرون من أصول عمانية، ولقد رأينا قبل حين أن كل من قام بالتعليم والإعداد وإرسال حملة العلم من البصرة إلى المشرق والمغرب كانوا كلهم عمانيين.

(ب) صور من رعاية إباضية عُمان والمشرق لأهل المغرب:

إن صور تعلق المغاربة بإباضية عمان والمشرق كثيرة، ومن بين هذه الصور أن إمام الدولة الرستمية الثاني عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (ت: 208هـ) (حكم: 171-208هـ / 787-823م) عاصر الربيع بن حبيب إمام الإباضية بالبصرة بعد أبي عبيدة وجابر بن زيد. ولما كان شغوفاً بالعلم توافاً للتفقه في الدين أرسل إلى إباضية البصرة ألف دينار ليشتروا له بها كتباً، فابتاعوا له ورقاً ونسخوا له وقر أربعين بعيراً كتباً، فلمّا وصلته قرأها كلها⁽¹²⁾. هذا دليل واضح على تأثر الفكر المغربي بتأليف المشاركة، بل إن الإمام عبد الوهاب كان في كثير من الأمور يستشير علماء المشرق، ومنها استفتاء الإمام الربيع بن حبيب في شأن أدائه لفريضة الحج إذ اعترض عليه علماء المغاربة بسبب الفن وانعدام الأمن في الطريق، فأجابه الربيع بن حبيب قائلاً: «من كان مثلك في العناء بأمر المسلمين وحمل أمانتهم، وخاف على نفسه من المسودة، أن يبعث بحجة وهو حي» فلما قدمت عليه رسله أخذ بقول الربيع فأرسل رجلاً من أهل "تمزدا" يحج عنه⁽¹³⁾.

كان علماء المغرب وأئمتهم المتعاقبون يلحّون على الطلبة وعامة الناس في دراسة كتب إخوانهم العمانيين والمشاركة، فهم يرونها جدية بأن تكونهم وتعلمهم، وأن تقوي ارتباطهم بمذهبهم، ومن صور هذا الإلحاح نجد دعوة الإمام أفلح بن عبد الوهاب ثالث الأئمة الرستميين (ت 258هـ) (حكم بين: 208-258هـ / 823-871م) إلى دراسة كتب المشاركة، فقال: «عليكم بدراسة كتب أهل الدعوة ولا سيما كتاب أبي سفيان»⁽¹⁴⁾. ولقد خصص الإمام سيرة أبي سفيان محبوب بن الرحيل لرغبته الملحة في اطلاع المغاربة على منابع الأولى والأصول الصحيحة للمذهب، فهو من الرعيل الأول الذي أخذ العلم عن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، وعن الربيع بن حبيب الفراهيدي العماني. من هنا يبدو فضل علماء عمان على أهل المغرب وأئمتهم جلياً واضحاً، واستفادتهم من علمهم وسيرهم ما تقوى به أواصر المحبة والانتماء على بعد الديار واختلاف الأزمان.

ويمكن أن نضيف صورة ثالثة من صور تعلق المغاربة بالمدد العلمي والفكري المشرقي، وحرصهم على التكون على أيديهم وعلى كتبهم، ما أورده صاحب الطبقات عن أبي العباس أحمد بن محمد بن بكر الفرستائي النفوسي (ت: 504هـ) أنه قال: «كنت أقرأ على الشيخ سعدون فجازت مسألة ذبيحة الأكلف قال في أكلها قولان فلم ينسبها، فدخلت إلى الديوان، وكان بجبل نفوسة ديوان اشتمل على تأليف كثيرة، فلازمت الدرس أربعة أشهر لا أنام إلا فيما بين أذان الصبح إلى صلاة الفجر، فتأملت ما فيه من تأليف أهل المشرق فإذا هي تقرب من ثلاثة وثلاثين ألف جزء كلها لأهل المذهب فتخيرت أكثرها

فائدة فقراته»⁽¹⁵⁾.

هذه الرواية تدل دلالة واضحة على اعتماد لإباضية المغرب على تأليف المشاركة في تكوينهم وترسيخ مذهبهم، وهذا يؤكد فضل عمان على أهل المغرب بوجود هذا العدد الهائل من المؤلفات في المنطقة، فعدد ثلاثة وثلاثين ألف جزء عدد عظيم جداً تنقاصر عنه كبرى المكتبات الحديثة! بينما سعى المغاربة لجمع هذه المؤلفات المشرقية إقراراً بفضل أصحابها وتمكنهم في شتى العلوم.

(ج) إمامة عُمان ودعمها للدولة الرستمية:

استعرضنا صورا من أشكال تأثير إباضية المشرق ورعايتهم لإخوانهم المغاربة، ويمكن أن نعتبر قيام الدولة الرستمية في تاهرت (تيارت بالجزائر حاليا) كان سببا وعاملا قويا لتوطيد هذه العلاقة، فقد رأينا كيف كان الإمام الثاني للدولة عبد الوهاب يستشير علماء المشرق في شؤون الحكم والدين، وكيف حث الإمام الثالث أفلح بن عبد الوهاب على مطالعة كتب المشاركة وفقههم وسير أعلامهم وكان قدوة لرعيته في الوفاء والولاء لأئمة المشرق وعلمائهم.. وإذا عدنا إلى سيرة الإمام الأول للدولة الرستمية ومؤسسها عبد الرحمن بن رستم، الذي كان من بين حملة العلم من المشرق إلى المغرب، فإننا نجد تأسيسه لهذه الدولة إنما هو من ثمار رعاية المشاركة إذ مكّنه شيخه الإمام أبو عبيدة مسلم بأن يفتي بما سمع منه وبما لم يسمع⁽¹⁶⁾، فأجاز له ما لم يجزه لأقرانه الآخرين من حملة العلم لمزيد ذكائه وسعة علمه.

وما إن استقامت إمامة عبد الرحمن بن رستم في المغرب حتى تلقت الدعم الكامل والتأييد المادي والمعنوي من إباضية عُمان والمشرق، فرغب أهل عمان في إمامته واعتبروها فرضا عليهم، حتى قال بعضهم: «لا أعلم من يُخرج مسائل دماء أهل القبلة في زماننا هذا غير عبد الرحمن ابن رستم بالمغرب»⁽¹⁷⁾ يعني لا تقدم على سفك الدماء إلا بفتيا ابن رستم في بلاد المغرب لغزارة علمه وورعه وتحفظه.

وتوالى دعم المشاركة للدولة الرستمية ربطا للصلة وتوثيقا لعرى التواصل بين المشرق والمغرب، ونال عبد الرحمن بن رستم عندهم حظوة خاصة لما أظهره من كفاءة في إمامة المسلمين، ولما وجدوا في إمامته من عوض لما فاتهم من سقوط إمامة الجلندی بن مسعود سنة 134هـ، فكانوا يعقدون آمالا عريضة على الدولة الرستمية بالمغرب في النهوض بالمذهب وانتشاره، أو على الأقل ضمان بقائه.

ومن طريف الأخبار التي تؤكد صلة أهل عمان بالدولة الرستمية واعترافهم بإمامته على إباضية المشرق والمغرب على السواء، ما أورده ابن الصغير في أخبار الأئمة الرستميين، ونقله

عنه الشماخي في سيره أنه لما اشتهر عدل ابن رستم واتصلت أخباره بذلك وتواترت أخباره بالمشرق والمغرب بعث له أهل المشرق بثلاثة أحمال فلما بلغت الرسل إلى تيهرت ألقوا الإمام فوق دار يطينها فنزل إليهم وغسل الطين واستقبلهم وأكرمهم قبل أن يعرفهم، فلما ثبت لديهم حسن سيرته وعلموا أنه على مسلك الخلفاء الراشدين والأئمة الصالحين وافوه بما جاؤوا به مما يقوِّي به أمر الدولة، فقبله منهم بعد استشارة ذوي الرأي والفقه فأشاروا عليه أن يفرقه في ذوي الحاجات ففعل وذلك بمحضر الرسل، فلما رجعوا إلى المشرق أخبروا علماءهم بما رأوا وشاهدوا من عدله فأرسلوا إليه بما يقرب من عشرة أحمال أو يزيد فما كان من ابن رستم إلا أن قال: «أرجعوا بمالككم فإن أربابه أحوج إليه منا لأننا في أرض قد استولى عليها العدل وهم في بلد غلب عليهم الجور يدارون به على أنفسهم ومالهم ودينهم»⁽¹⁸⁾.

زاد هذا الموقف أهل المشرق إكبارا للإمام عبد الرحمن بن رستم، فتعجبوا من زهده في الدنيا ورغبته في الآخرة، واعترف كل إباضي بإمامته، ووصلوه بكتيبهم ووصاياهم⁽¹⁹⁾.

ويكفي نص الشماخي في تبيان الصلة الراسخة بين المشرق والمغرب، ولا شك أن صدى إمامة عبد الرحمن بن رستم قد دوى في عُمان، فكان له الأثر الطيب في تقوية الصلات بتبادل الرحلات والزيارات، وتوارد الرسائل بين المغرب وعمان والبصرة، لتفقد الأحوال، وتقديم العون والدعم والفتوى.

إنَّ ما قدمه المشاركة العمانية لإباضية المغرب من دعم مادي ومعنوي شجّع أهل المغرب على تمتين الروابط بإخوانهم في المشرق، وحفّزهم على بذل مزيد من الجهد لإيجاد الوسائل الكفيلة بتدعيم تلك الصلة، كما كان المشاركة يفكرون التفكير نفسه. ولم تنقطع هذه الصلة على مرور الزمن بل تعمقت أكثر وأكثر بواسطة اللقاءات والزيارات والرحلات العلمية وتبادل الكتب والرسائل والأخبار...⁽²⁰⁾

الباب الثاني: التواصل بين الجزائر وعمان قبيل عصر القطب

(أ) تواصل مشايخ القطب مع أهل عُمان:

قدّمنا أن من أهم وسائل اللقاء والتواصل بين إباضية المغرب والمشرق الرحلات والزيارات، وكان موسم الحج من المناسبات التي اتخذها الإباضية وسيلة من وسائل اللقاء، وسببا مهما لانتشار المذهب الإباضي عن طريق إلقاء الدروس والمواعظ، وتبادل الأخبار والمؤلفات، وشهود حلقات العلم والمناظرة. وقد كان المغاربة أشد حرصا على اللقاء في هذه المناسبة، يؤكد ذلك مقرين بن محمد البغطوري النفوسي (حيّ في: 599هـ / 1203م) في كتابه سير مشايخ نفوسة بأن أهل المشرق يزورون أهل المغرب، ويزورهم أهل المغرب، وكانوا إذا رجع حجاج المغرب من البقاع المقدسة لا يفترقون حتى يتفقوا في مكان يسمى

"تمسرة" على موعد المسير إلى الحج في الموسم القادم. وبعد سقوط تاهرت أصبح حجاج إفريقيا وطرابلس وجربة يجتمعون في موضع يسمى "أماسن" للاتفاق على موعد المسير للحج في الموسم القادم، يقول البغدادي: ولقد بلغنا أنهم يجتمعون في نحو ألف رجل، أو أقل أو أكثر، لا يكون الكلام بينهم في المجلس إلا بالترجمان»⁽²¹⁾.

مما سبق ندرك أن حرص المغاربة على أداء مناسك الحج مرات عديدة رغم بعد المسافة بين المغرب والحجاز، إنما كان نابعا من الشعور الديني القوي بالتقرب إلى الله بالتوافل من جهة، ومن الرغبة في الاستزادة من العلم ولقاء العلماء والأئمة وتبادل الأخبار والفتاوى والتفقه في الدين من جهة ثانية، فكان موسم الحج أحسن فرصة لتحقيق هذه الغاية.

ولقد شكلت الزيارات المتبادلة والرحلات بين المشرق والمغرب وسيلة أخرى مهمة من وسائل توطيد العلاقات بين الشعبين، وأمثلة هذه الزيارات والرحلات يتعذر حصرها، إذ نجد فيها رحلات طلب العلم أو تدريسه، وزيارات تفقد الأحوال، واستطلاع الأخبار، وكتب السير والطبقات تفيدنا بكثير من الأخبار عن هذه الرحلات والزيارات.

ومن مشايخ الجزائر الذين ارتحلوا إلى عمان قبيل ظهور القطب، ونهلوا من العلوم فيها، وكانت رحلتهم إلى هذه البلاد سببا في انتقال كثير من المصنفات والكتب العمانية إلى مكتبات وادي ميزاب، وإطلاع طلاب العلم على فكر المشرقيين وفقههم نجد عددا لا بأس به يمكن أن نذكر منهم اثنين كان لهما أثرا واضحا في تكوين القطب اطفيش شخصية هذا البحث، وفي مسار التواصل بين الجزائر وعمان بشكل عام:

1- محمد بن عيسى ابن عبد الله، "أزباز" وصلته بأهل عُمان

من علماء بني يسجن بميزاب، توفي في العقد الأول من القرن الرابع عشر الهجري (كان حيا في: 1301هـ / 1883م)⁽²²⁾ تتلمذ على يد علماء عصره بمسقط رأسه ومنهم الشيخ عبد العزيز الشميني، ثم هاجر إلى المشرق للاستزادة من علوم النقل والعقل وربط أواصر التواصل مع أهل عمان، رفقة الشيخ إبراهيم بن يوسف اطفيش الشقيق الأكبر لقطب الأئمة.

استقر بعُمان مدة طويلة ينهل من معين فقهاءها وكبار علمائها، ثم عاد إلى وطنه، فعين شيخا على مسجد بني يسجن، ثم تولى منصب مشيخة وادي ميزاب.

كانت رحلته إلى عمان خيرا عميما على ميزاب فقد جلب معه من عمان نفائس الكتب، وأنفق في سبيلها أموالا طائلة؛ وتعد خزائنه اليوم من أهم خزائن الكتب في ميزاب، وهي أغنى مكتبة في ميزاب بالتراث العُماني، فهو الوحيد الذي ملك موسوعة بيان الشرع

في 72 مجلدا، وكتاب الضياء، وفيها نسخة من كتاب: «كشف الغمة الكاشف لأخبار الأمة» بخط مؤلفه سرحان بن سعيد الأزكوي العُماني. وقد ذكر محمد علي دبوز أنه أهدي إليه من عُمان وقر بعير من نفائس الكتب⁽²³⁾.

كانت للشيخ ازار صلة وثيقة بعلماء عُمان حتى بعد عودته إلى ميزاب، فكان يستنسخ الكتب من العمانيين ويراسل مشايخهم، وكانت صلته وثيقة بالشيخين: سعيد بن علي بن عيسى بن علي الصقري⁽²⁴⁾، ومحمد بن سليم بن سالم الغاربي⁽²⁵⁾، إذ كانا يتكفلان بإعداد الكتب وإرسالها إلى ميزاب، وكان ذلك بين سنة 1289هـ و1292هـ⁽²⁶⁾.

تلمذ علي يد الشيخ ازار جملة من أعلام ميزاب، منهم الشيخ الحاج صالح بن عمر لعللي، وقطب الأيمة الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش. ولقد صارت خزانة المخطوطات إلى الشيخ اطفيش بعد وفاة معلمه، فانتفع بها انتفاعا كبيرا.

2- إبراهيم بن يوسف بن عيسى اطفيش ورحلته إلى عُمان:

هو إبراهيم بن يوسف بن عيسى بن صالح بن عبد الرحمن بن عيسى اطفيش (ت: 1303هـ/ 1886م)⁽²⁷⁾ من علماء بني يسجن بميزاب، هو أخو القطب امحمد بن يوسف اطفيش وهو أكبر منه عمرا، وجد أبي إسحاق إبراهيم اطفيش.

تلمذ على الشيخ عبد العزيز الثميني ببني يسجن بميزاب، ثم رحل عُمان، فأقام فيها مدة يتعمق في علوم الشريعة واللغة العربية على علمائها الأجلاء. ثم رحل إلى مصر فأقام بها أربع سنين يأخذ العلم في جامع المؤيد، يدرس علم الفلسفة والكيمياء.

زار الحجاز وتونس للتعلم، واستقر بالمغرب الأقصى بضع سنوات حيث اشتغل مدرّساً بإحدى مدارسها، وعند وفاة والده عاد إلى ميزاب محمّلاً بالكتب التي اشتراها أو نسخها في مختلف المعارف كالشريعة والفلسفة والمنطق والرياضيات والعلوم، وبها درّس ووعظ في مسجد بني يسجن. عالمٌ بالكيمياء، مهتمٌّ بجمع ونسخ الكتب النفيسة، ويُعتبر من علماء النهضة وممن حارب الجهل والفساد في ميزاب.

كان أخوه امحمد بن يوسف اطفيش قطب الأيمة من أبرز تلامذته، إذ احتضنه أخوه تعليماً وتنقيفاً، فوجد فيه بحراً زاخراً، عذباً يروي غلته من العلم والمعرفة، فأخذ حظه منه في سائر العلوم. وعلى ضوء هذا فإن إبراهيم قد كون في القطب الرغبة الخالصة في المعرفة مع التوجيه السليم؛ حيث درس عليه العلوم الشرعية كالعقيدة والفقه، وعلوم القرآن والمنطق والتاريخ. ثم أن أخاه الكريم قد منح له كلّ كتبه التي جاء بها من المشرق العربي، فدرسها دراسة علمية.

وكان القطب عصامياً في تعلمه بدون أستاذ حتى تمكن فيها كل التمكن، ففقه مسائلها وأدرك أسرارها. ولقد استفاد القطب أيما إفادة من الكتب التي حملها أخوه معه من رحلاته، وبخاصة كتب أعلام المذهب في عُمان فكانت هي الأخرى مُعلماً آخر نهل منه القطب معارفه بعد وفاة أخيه إبراهيم، وكانت وسيلة اطلع من خلالها القطب على الفكر المشرقي، ورسمت المعالم الأولى لعلاقة متجذرة بين القطب وأهل عُمان ظلت راسخة حتى وفاته.

وقد كان من بين الرحالة إلى عمان من وادي ميزاب، والمترددین عليها كثيراً في عصر القطب اطفيش أحمد بن الحاج أحمد بن عمر النوري الإباضي (ق: 13هـ / 19م)، من أعيان بنورة بميزاب. متضلّع في مسائل الخلاف من علم الكلام والفقه. رحل إلى عُمان، ومكث بها عامين يطلب العلم. ثم عاد إلى مسقط رأسه، وتولّى مشيخة عزّابتها أربعين عاماً.

كان كما قدّمنا كثير التردّد على عُمان، فكان وسيطاً في مراسلات قطب الأيمة الشيخ اطفيش مع أهل عمان وعلمائها، وكثرة ما حمل من رسائل وكتب إلى ميزاب أو منه إلى عمان فإنه كان يلقّب بـ«صاحب عُمان»⁽²⁸⁾.

من خلال تتبعنا لعلاقة بعض مشايخ القطب ومعاصريه مع أهل عُمان، فإننا بإمكاننا أن نجيب عن سؤال محوري في هذه الدراسة: ما الذي حال دون القطب ودون زيارته لعمان طلباً للعلم، واتصالاً بالأئمة هناك؟

إن الجو العلمي أو الوعاء الحضاري الذي وجد القطب نفسه ترتع فيه، والرعاية التي أولاها إياه أخوه الأكبر إبراهيم، وخزائن الكتب الثمينة التي انفتحت بين يديه من آثار المغاربة والمشاركة وتحفهم، لهي عوامل قوية أقعدت القطب عن الترحال مشرقاً ومغرباً، فكان منشغلاً بما بين يديه، وبما يصله من مؤلفات المشاركة وأجوبتهم، وكان يعوّل كثيراً على مراسلة العمانيين خاصة؛ يمدّهم بمؤلفاته ويطلب منهم ما عندهم من المصادر، وكان الحجاج الميزابيون واسطة بينه وبين العمانيين وأهل زنجبار، وكانت رحلته إلى الحجاز فرصتين مهمتين اقتنى فيهما عدداً لا بأس به من الكتب من مكة والمدينة ومصر وغيرها من الحواضر⁽²⁹⁾.

على أن القطب وقبل أن يشتد عوده قد استساغ حلاوة العلم، فشمر عن ساعديه واعتمد على نفسه في طلبه، فأقبل على هذه الرياض المشرقية والمغربية يلتهم المعرفة من بطونها، فكان لا يسمع بخزانة حافلة إلا ويتخذ كل الوسائل للاطلاع عليها فيستعير نفائسها ليدرسها. وإذا تعلّدت الاستعارة بذل أكبر الأجور لمن ينسخها له من أهل البلدة. ومن حسن حظه أن دعاه نجل الشيخ عبد العزيز الثميني ليقدّم له خزانة والده قائلاً له:

هذه كتب والدي ومؤلفاته تحت تصرفك فخذ منها ما شئت وفي أي وقت شئت⁽³⁰⁾. وهكذا وجد الشيخ نفسه أمام عدد من خزائن الكتب الثرية، فلم تنق نفسه إلى الرحيل خارج الوطن طلباً للعلم، واكتفى بما لديه وما حوله وما يأتيه من مصادر العلم والمعرفة.

الباب الثالث: الشيخ اطفيش القطب وعلاقته بأهل عُمان:

ترجمة موجزة للشيخ اطفيش "القطب"⁽³¹⁾:

هو: امحمد بن يوسف بن عيسى ابن صالح بن عبد الرحمن بن عيسى ابن إسماعيل بن محمد بن عبد العزيز بن بكير الحفصي، اطفيش. الشهير بقطب الأيمة.

ولد بغرداية سنة 1237هـ / 1821م⁽³²⁾، وتوفي ببني يسجن - عن عمر يناهز 96 عاماً - يوم السبت 25 ربيع الثاني 1332هـ / 1914م. من عائلة شهيرة بالعلماء من بني يسجن، من عشيرة آل بامحمد، وينتهي نسبه إلى أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه⁽³³⁾.

عاش القطب طفولته الأولى بغرداية إذ انتقل إليها والده، وتوفي عنه والده وهو في الرابعة. حفظ القرآن وهو ابن ثمان سنوات، وأخذ مبادئ النحو والفقه عن أخيه الأكبر: إبراهيم بن يوسف الذي عاد من عُمان ومصر حيث كان يتلقى العلم. كما تلقى مبادئ المنطق عن الشيخ سعيد بن يوسف ويتن (ت: ~1296هـ / 1872م)، وكان يحضر حلقة الشيخ عمر ابن سليمان نوح (ت: 1292هـ / 1875م) مع أخيه إبراهيم، وحلقة الشيخ الحاج سليمان بن عيسى اليرجني آل الشيخ (حي بين: 1230-1265هـ / 1814-1848م) في دار التلاميذ اليسجنيين، كما كان يحضر دروس الشيخ بابا بن يونس (ت: 1280هـ / 1863م) في مسجد غرداية.

بعد أخذه لهذه المبادئ، اعتمد على نفسه في توسيع مداركه، وتحصيل مختلف العلوم، فنشأ عصامياً، إذ لم يسافر قط للدراسة خارج موطنه، وجعل دأبه الحرص على اقتناء الكتب واستنساخها، يجتهد في طلبها واشترائها من كل البلدان، رغم قلة ذات اليد، وعسر الاتصال.

فتجمعت لديه بمرور الزمن مكتبة غنية، تعتبر فريدة عصرها بالنظر إلى ظروف صاحبها، ويُعدّه عن مراكز العلوم والعمران.

وممّا ساعده على التحصيل: اقتناؤه لبعض خزائن العلماء، منها خزانة الشيخ ضياء الدين عبد العزيز الثميني. وزواجه من عائشة بنت معلمه الذي تقدم ذكره عمر بن سليمان نوح (ت: 1357 / 1938م) وكانت امرأة عليم تملك مكتبة ثرية ورثتها عن أبيها. كما أنه تزوج كريمة معلمه الشيخ محمد بن عيسى ازابار بعد وفاته إكراماً لشيخه وإكباراً، ولربط الصلات الحسنة الوثيقة بأسرته، وليطلع على خزانة صهره الحافلة ويتنفع بها⁽³⁴⁾.

وما كاد يبلغ السادسة عشرة، حتى جلس للتدريس والتأليف، وكما بلغ العشرين أصبح عالم وادي ميزاب، ثم بلغ درجة الاجتهاد المطلق في كهلته، كما يذكر ذلك بنفسه في كتابه: «شامل الأصل والفرع».

أنشأ القطب معهدا للتدريس ببني يسجن، فكان يدرس بالنهار والمساء ويخصّص اللّيل للتأليف والإجابة عن الرسائل والاستفتاءات المتهاطلة عليه؛ وكان غزير المادّة، طويل النّفس، متفانيا في العلم، يدرّس أحيانا أحد عشر درسا مختلفا في اليوم الواحد.

تخرّج على يد القطب علماء ومصلحون ومجاهدون، انبثوا في أقطار المغرب والعالم الإسلامي، وبلغ عدد تلاميذه العشرات، من أشهرهم: إبراهيم بن امحمد بن إبراهيم اطفيش، أبو إسحاق: نزيل القاهرة العالم المحقّق (و: 1305هـ/1886م - ت: 1385هـ/1965م). وإبراهيم بن عيسى الأبريكي (و: 1273هـ/1857م - ت: 1329هـ/1911م)، وإبراهيم بن عيسى أبو اليقظان: رائد الصحافة العربيّة في الجزائر (و: 1306هـ/1888م - ت: 1393هـ/1973م)، وصالح بن عمر بن داود لعلّي (و: 1287هـ/1870م - ت: 1347هـ/1928م). وصالح بن يحيى بن سليمان آل الشيخ (ت: 1367هـ/1948م) الوطني الغيور ومن المؤسسين للحزب الدستوري التونسي، والمجاهد الليبي سليمان بن عبد الله بن يحيى الباروني باشا (و: 1287هـ/1870م - ت: 1359هـ/1940م)، والمؤرخ التونسي سعيد بن علي الصديغاني الحربي، ابن تعاربت (و: 1289هـ/1872م - ت: 1355هـ/1936م)، أحمد الرفاعي من المدينة المنورة... وغيرهم كثير ممن بلغ المشيخة.

إن من أهم آثار الشيخ اطفيش تأليفه التي أغنى بها المكتبة الإسلاميّة، كما ونوعا، فقد عدّها بعضهم وقال: إنّها تبلغ الثلاثمائة مؤلّف، ما بين كتاب ورسالة، لا يتسع المجال لعدّها أو حصرها. واتسع له العمر، لترك هذا التراث الجليل، فقد عمّر ستّة وتسعين عاما، وكان حريصا على الكتابة، لا يتركها في حضر ولا سفر، وصفه تلميذه أبو اليقظان بأنّه «لا يُعرف إلّا في تدريس علم، أو تأليف كتب»، فألّف في بني يسجن، والقرارة، ووارجلان، وبريان، والحجاز، وفي السفينة قاصدا الحجّ.

ولم يقصر الشيخ جهوده في مجال التعليم والتأليف فحسب، بل اهتمّ بالإصلاح الاجتماعيّ، ومحاربة الجهل والبدع، وتولّى رئاسة مجلس العرّابة ببني يسجن. كما تولّى منصب القضاء، ثمّ اعتزله لما بسط الاستعمار الفرنسي نفوذه على منطقة ميزاب سنة 1882م.

كان القطب عدواً عنيدا لفرنسا، وممن وقف بقوة في وجه الاحتلال، ودعا إلى مقاطعة المستعمر وعدم التعامل معه، ويذكر أنّه نصب خيمة في حومة الدبدابة بين غرداية وبني يسجن، احتجاجا على دخول فرنسا المنطقة. وكان حريصا على وحدة المسلمين،

يعصره الألم على ما آل إليه أمرهم، من فرقة وهوان، وذلل واستعمار، يدعو للنصر للمجاهدين في كل بلاد العالم الإسلامي. وكان مؤيداً للخلافة العثمانية على ما داخل نظامها من انحراف لأنّها كانت تمثل وحدة المسلمين.

له مراسلات مع السلطان عبد الحميد الثاني، وغيره كسلطان زنجبار، وإمام عُمان. وسنقف عند بعض هذه المراسلات مع علماء عمان في الصفحات القادمة من البحث.

شهد له بالرسوخ في العلم علماء كثيرون: منهم رائد النهضة الإصلاحية في المشرق الشيخ محمد عبده وبعض علماء الحجاز. ولقّبه مجدّد العلم بعُمان الإمام نور الدين السالمي (و: 1286هـ / ت: 1332هـ)⁽³⁵⁾ بـ«قطب الأئمة».

أطال الله في عمر القطب فقضى قرابة قرن من الزمان في الجهاد العلمي، والإصلاح الاجتماعي إلى أن توفي سنة 1332هـ / 1914م.

تواصل القطب اطفيش مع أهل عمان:

رأينا فيما سبق كيف كانت لذخائر الكتب العمانية دورا في تكوين شخصية القطب وتفتيق مواهبه، وكيف تشكلت عصاميته على هدي مكتبي معلمه الشيخ ازار وأخيه إبراهيم، وكان كلاهما قد نهل من معين العلم والفقه في عمان... فجاز أن نقول بأن القطب كان يدين للعمانيين بالفضل والرعاية الفكرية، فإن للشيخ القطب امحمد بن يوسف اطفيش بزغ نجمه وبرّ في باب العلم والإصلاح أقرانه، نال العمانيين فضله، ووصلهم عطاؤه، فكانت له أيادي بيضاء على العُمانيين ونهضتهم العلمية والسياسية، فأهل عمان يعدّونه أب النهضة العُمانية في الجانب العلمي، وعلى يديه تكوّن صديقه الشيخ نورالدين السالمي الذي أشرنا إليه قبل حين، وغيره من المشائخ العمانيين على كثرتهم كما تشير المراسلات الكثيرة الموجودة بين أيدينا وسوف نفرّد لها حيزا من البحث بعد حين. فللعمانيين كتاب «كشف الكرب بأجوبة القطب»، وللمغاربة مجموعة مراسلات القطب التي حفظها تلميذ القطب ونساخه الشيخ حمو بن باحمد بابا اوموسى (ت: 1376هـ / 1957م)⁽³⁶⁾، وغيرها من المجموعات المتنوعة التي لم تر النور بعد، وتعد في أغلبها أجوبة للقطب وجهها إلى علماء عُمان وأئمتهم وعامتهم.

1- التعاون في التأليف والردود بين القطب اطفيش وعلماء عُمان:

ألف القطب كتباً وشرح أخرى نزولا عند رغبة العُمانيين، الذين أقر بحبهم وإجلال علمائهم، وقد ذكر ذلك ذكر صريحا في الجزء الثاني من موسوعته شرح النيل وقال: «أَخَذْتُ هَذِهِ الْجَامِعَةَ مِنْ كُتُبِ أَصْحَابِنَا مِنْ أَهْلِ عُمانَ لِمَا فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَلِشِدَّةِ حُبِّي لِأَهْلِ

عُمَانُ وَأَهْلُ زَنْجَبَارَ مِنْ أَصْحَابِنَا، وَهُمْ أَصْحَابُ الْعُلُومِ حَدِيثًا وَقَدِيمًا وَلْتَمَسْكِهِمْ بِالْمَذْهَبِ، وَشِدَّةَ بُغْضِهِمْ لِلْمُخَالِفِينَ، وَلِنَقُصِّعَهُمْ إِيَّايَ بِإِرْسَالِ الْكُتُبِ أَكْثَرَ مِنْ وَقْرِ الْجَبَرِ، وَلَا هِدَايَتِهِمْ إِلَيَّ أَشْيَاءَ جَلِيلَةٍ، وَلَا تَبَاعِهِمْ إِيَّايَ فِي أَقْوَالِي وَتَرْجِيحَاتِي، وَمَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ، فَبِرَكَّةِ اسْمِكَ الْأَعْظَمِ يَا رَبِّ زِدْهُمْ عِلْمًا وَمَالًا وَجَاهًا وَاجْمَعْنَا مَعًا فِي الْخَيْرِ»⁽³⁷⁾.

هذا إقرار من القطب بتعلقه بأهل عمان في موسوعته الفقهية «شرح كتاب النيل»، هذا السفر العظيم الذي كان وما يزال من أعظم كتب الإباضية مغربا ومشرقاً وهو المعتمد والأساس في المغرب اليوم، لأنه استوعب ما كتبه من تقدمه من فقهاء المغرب وزاد عليه، ومع ذلك فإننا نجد الحضور المشرقي العماني فيه واضحا، و«لا بد أن تكون الموسوعات المشرقية المتوفرة في مكتبته، وفي مكتبة الحاج عيسى ازيار، قد ألقت بثقلها عليه، وأغرته باختصارها، أو وضع الحواشي عليها... لكنه، كان واضح المنهج، وباختصار: يريد الاستقلال بمؤلف أصيل وجديد. إلا أن هذه الموسوعات لا ولن تغيب من مؤلفه هذا، بل إنها من المواد التي استوعبها، ووعى ما فيها، فاتخذها مصادر أساسية لكتابه، وهذا ما يفسر استشهاده بها في كثير من الأحوال»⁽³⁸⁾.

كما نسجل حضوراً قويا لآراء العُمانيين في مؤلفات القطب الفقهية بشكل عام، إذ اعطى هذا الحضور صبغة واضحة ميّزت منهجه المقارن في التأليف، وإن المتتبع لتوظيف القطب لآراء المشاركة في شرح النيل وحده يسجل: ذكر اسم ابن بركة⁽³⁹⁾ صاحب كتاب «الجامع» أكثر من ستين مرة، وذكر أبي المنذر العوتبي⁽⁴⁰⁾ صاحب كتاب «الضياء» أكثر من 20 مرة، كما استفاد القطب من «بيان الشرع» لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم الكندي، ومختصره «منهاج الطالبين» لخميس بن سعيد الشقصي، و«قاموس الشريعة» لجميل بن خميس السعدي، وغيرها مما وصلت إليه يد القطب من الموسوعات المشرقية المطولة أو المختصرة.

وبالمقابل فقد وجد العمانيون في مؤلفات القطب معينا علميا لا ينضب، إذ استطاع القطب بفكره الموسوعي أن يجمع فقه المغاربة المتقدمين، وكفى بذلك المشاركة مؤونة التنقيب وراء مؤلفات المغاربة، بل كان في شرح النيل كما رأينا يجمع بين اجتهادات المغاربة وأقوال المشاركة، ما حدى بالشيخ محمد بن شامس البطاشي العُماني (ت: 1420هـ) نظم كتاب القطب شرح النيل في عدة مجلدات ضمت 124 ألف بيت، وسَمَّاه: «سلاسل الذهب في الأصول والفروع والأدب». وجاء فيه:

وَبَعْدَ فاعْلَمْ أَنَّ سِفْرَ النَّيْلِ وَشَرْحَهُ لِقُطْبِنَا الْجَلِيلِ
أَنْفَعُ مَا صُنِّفَ فِي ذَا الْمَذْهَبِ مِنْ كُتُبِ الشَّرْقِ مَعًا وَالْمَغْرِبِ⁽⁴¹⁾

هذا غيض من فيض تأثر القطب بالعمانيين وتأثر العمانيين بالقطب في مجال

التأليف، والكلام يطول على هذه العلاقة التي استفاد منها العمانيون كثيرا وكانت سببا في إقامة صلاة الجمعة بعمان، بل وفي إقامة الإمامة من جديد.

اهتم القطب بكتب المشاركة العمانيين فشرح بعضها ولخص بعضها الآخر، ومن بين مؤلفات العمانيين التي اعتنى بها الشيخ، وكثير منها ما يزال مخطوطا نذكر ما يلي على سبيل التمثيل:

* - شرح الدعائم: وهو شرح لمنظومة ابن النظر العماني⁽⁴²⁾ في العقيدة والفقه المسماة: "الدعائم" مطبوع.

* - شرح الدعائم الموسع: مخطوط مكتبة القطب. بني يسجن. رقم (أ و2)

* - شرح لامية ابن النظر: شرح اللامية في الحج والمناسك مخطوط في مكتبة القطب. بني يسجن. رقم (أ. ث: 1)

* - إيضاح الدليل إلى علم الخليل: في علم العروض الذي وضع أسسه الخليل بن أحمد الفراهيدي العماني. مخطوط في مكتبة القطب. بني يسجن. رقم (أ. م: 4)

ومن حب العمانيين وإجلالهم للقطب وجهوده الموسوعية في التأليف فإنهم كانوا - على بعد المسافة وصعوبة وسائل التواصل - يستفتونه في كثير من النوازل والأحكام، وكانوا يطلبون منه التأليف في مواضيع محددة، فقد طلب منه فيصل بن حمود بن عزّان (ت: 1328) شرح قصيدة «العبيرية» في وصف الجنة للشيخ محمد بن إبراهيم بن سليمان الكندي (ت: 508هـ)، فأجابه لذلك الطلب وألف كتاب: «الجنة في وصف الجنة»، يقول القطب في مقدمة الكتاب: «وبعد فقد دعاني الشيخ الرئيس الأصيل الفصيح البليغ الكاتب الجليل فيصل بن حمود العزّاني الإباضي الوهبي العُماني أن أشرح العبيرية (...) ودعا لي دعاء كاملا يعُمُّ الدنيا والآخرة، فأجبتة إلى ما دعا رجاء الانتفاع بموافقة الأخ في الدين، وسألت الله أن لا يعاقبنا بذنب، وأن يتقبل كل ما فيه من الخير سعينا»⁽⁴³⁾.

عاصر القطب شيخين عمانيين بارزين وهما: الشيخ سعيد بن خلفان بن أحمد الخليلي الشيخ المحقق (ت: 1287هـ)، وبعد وفاته، في كهولة القطب توطدت علاقته بالشيخ عبد الله بن حميد السالمي «نورالدين» (ت: 1332هـ)⁽⁴⁴⁾ مع صغر سنه، وبمشايخ آخرين كالشيخ عيسى بن صالح بن علي الحارثي (حي 1920)، والشاعر الشيخ محمد بن شيخان بن خلف السالمي (ت: 1346هـ) الذي لقبه القطب بـ «شيخ البيان»، وغيرهم ممن سوف نتحدث بعد حين عن مراسلات معهم.

2) مراسلات القطب اطفيش مع علماء عُمان وعامّتهم:

قد لا نكون مبالغين إن قلنا بأن المراسلات بين المشرق والمغرب كانت من أهم وسائل التواصل وتوطيد العلاقات، وأن مراسلات القطب مع أهل عُمان هي من القيمة والأهمية بمكان يجعلها تستحق دراسة مستقلة مستفيضة لا يمكن لهذه الدراسة أن تقوم مقامها، فعمل من هذا القبيل يستلزم أولاً وقبل كل شيء تتبع هذه المراسلات، وجردها في مكاتب وادي ميزاب وفي مكاتب وخزائن المخطوطات في عُمان، عند المرسلين أو المرسل إليهم، بل إن بعضاً من مراسلات القطب مع العُمانيين قد تمت من وإلى خارج عمان، فينبغي تحصيلها في زنجبار ومصر وغيرهما من أماكن تواجد الإباضية، ثم إن هذه المهمة تستلزم عملاً آخر لا يقل أهمية وهو تصنيفها موضوعياً ووضعها في إطارها الزمني خاصة وأن ما طُبِع منها أكثره غير مؤرخ - حتى تتم الاستفادة العلمية منها⁽⁴⁵⁾.

وحسي من هذا الدراسة أن أثر الموضوع للبحث وأن أوضح مدى حرص القطب على توطيد عرى التواصل مع إخوانه العُمانيين، ولقد توصلنا إلى عدد من مجموعات الرسائل والجوابات في مكاتب وادي ميزاب دون مكاتب عمان، وهي كالآتي حسب المكاتب:

أ- في مكتبة القطب بني يسجن:

منها ما هو بخط القطب نفسه، ومنها ما هو بخط الناسخ إبراهيم اشقبقب، الشيخ عمر بن يوسف عبد الرحمن اليسجني (ت: 1417هـ/1996م):

*- مجموع الرسائل: مخطوط في مكتبة القطب رقم (أ. 6). (بخط الشيخ اشقبقب وغيره)

*- مجموع قصائد وأجوبة: مخطوط في مكتبة القطب رقم (أ. 7).

*- مجموع أجوبة للقطب: مخطوط في مكتبة القطب رقم (أ. 10). (بخط الشيخ اشقبقب)

ب- في مكتبة الاستقامة بني يسجن:

*- أجوبة لأهل عمان: مخطوط في مكتبة الاستقامة. بني يسجن. رقم (ج: 27)

ج- في مكتبة الأستاذ محمد بن أيوب الحاج سعيد بغرداية:

وأغلبها مراسلات بخط تلميذ القطب، الشيخ حمو بن باحمد بابا وموسى (و: 1280 /ت: 1376هـ):

*- جواب إلى محمد بن عبد الله الخليلى: مخطوط في مكتبة محمد الحاج سعيد، غرداية رقم

(141)

*- حاشية على جواب ابن خلفان [الشيخ سعيد بن خلفان الخليلى] مخطوط ضمن

مجموع في مكتبة الحاج سعيد محمد. غرداية. رقم (38).

د- أما مؤسسة الشيخ عمي سعيد فقد قام الأستاذ بشير بن موسى الحاج موسى⁽⁴⁶⁾ مع فريق عمل برقم عدد كبير من مراسلات القطب بعد جمعها من عدة مكاتب داخل الوطن وخارجه (سلطنة عمان)، وهم بصدد تحقيقها.

هـ - كما أن كثيرا من مراسلات القطب مع العمانيين تم جمعها في كتاب: «كشف الكُرب في أجوبة القُطب»: يقع في جزأين، رتب مسائله أبو الوليد سعود بن حميد بن خليفين المضيربي العماني (ت: 1373هـ)، وحقق الجزء الثاني منها: محمّد علي الصليبي. نشر وزارة التراث القومي والثقافة. عمان. 1406هـ / 1986م.

ولا شك أن كثيرا من المراسلات في هذا الكتاب في أخذها أبو الوليد من عند الشيخ عيسى بن صالح بن علي الحارثي (و: 1290هـ / ت: 1365هـ)؛ لأنه راسل القطب في عدّة مناسبات، وهو الذي طلب من الشيخ أبي الوليد سعود أن يقوم بترتيبها⁽⁴⁷⁾.

1- قائمة بأسماء العمانيين الذين راسلهم القطب (مرتبة ترتيبا ألفبائيا)⁽⁴⁸⁾:

اسم العلم (الذي راسله القطب)	مصدر الرسالة (مطبوع أو مخطوط)
أحمد بن سعيد بن خلفان الخليلي السمائي [ت: 1354هـ]	مجموع رسائل وأجوبة، (مخ) (مك. الحاج سعيد) مجموع رسائل بخط عمر بن يوسف، (مكتبة القطب)
راشد بن عزيز بن خلفان الخصيبي، أبو الرشيد [و: 1263هـ / ت: 1347هـ]	كشف الكرب ج 1 و ج 2
سالم بن محمد بن سالم الرواحي [مراسل القطب من زنجار. حي في 1355هـ]	كشف الكرب ج 2
سعيد بن خميس بن حويسن الهنائي [ت: 1351هـ]	مجموع رسائل وأجوبة، (مخ) (مك. الحاج سعيد) مجموع رسائل بخط عمر بن يوسف، (مكتبة القطب)
سليمان بن محمد بن أحمد بن عبد الله الكندي	كشف الكرب ج 1

اسم العلم (الذي راسله القطب)	مصدر الرسالة (مطبوع أو مخطوط)
[و: 1298هـ / ت: 1337هـ]	
سيف بن ناصر بن سليمان الخروصي [ت: 1341هـ]	كشف الكرب ج1
الشيخ سالم بن سلطان	مجموع رسائل وأجوبة، (مكتبة القطب)
عامر بن خميس بن مسعود المالكي [و: 1280هـ / ت: 1346هـ]	مجموع رسائل وأجوبة، (مخ) (مك. الحاج سعيد) كشف الكرب ج2
عبد الله بن حميد السالمي، نور الدين [و: 1286هـ / ت: 1332هـ]	مجموع رسائل بخط عمر بن يوسف، (مكتبة القطب) مجموع رسائل وأجوبة، (مخ) (مك. الحاج سعيد) كشف الكرب ج1 وج2 المادة رقم 71 مكتبة عمي سعيد المادة رقم 72 مكتبة عمي سعيد
عبد الله بن راشد [قاضي الإمام محمد بن عبد الله الخليلي]	مجموع رسائل وأجوبة، (مخ) (مك. الحاج سعيد) كشف الكرب ج2
علي بن خميس بن راشد [؟؟]	مجموع رسائل وأجوبة، (مخ) (مك. الحاج سعيد) كشف الكرب ج2
عيسى بن صالح [بن علي] الحارثي [و: 1290هـ / ت: 1365م]	مجموع رسائل بخط عمر بن يوسف، (مكتبة القطب) مجموع رسائل وأجوبة، (مخ) (مك. الحاج سعيد)

اسم العلم (الذي راسله القطب)	مصدر الرسالة (مطبوع أو مخطوط)
	كشف الكرب ج1 وح2 المادة رقم 71 مكتبة عمي سعيد المادة رقم 72 مكتبة عمي سعيد
فيصل بن تركي بن سعيد البوسعيدي (سلطان عمان) [ت: 1331هـ / 1912م]	مجموع رسائل وأجوبة، (مخ) (ملك.الحاج سعيد) كشف الكرب ج2
محمد بن شيخان بن خلف السالمي [ت: 1346هـ]	مجموع رسائل بخط عمر بن يوسف، (مكتبة القطب) مجموع رسائل وأجوبة، (مخ) (ملك.الحاج سعيد) كشف الكرب ج1 وح2
محمد بن عبد الله بن سعيد بن خلفان الخليلي، أبو عبد الله [و: 1299هـ / ت: 1337هـ]	مجموع رسائل بخط عمر بن يوسف، (مكتبة القطب) مجموع رسائل وأجوبة، (مخ) (ملك.الحاج سعيد)
محمد بن مسعود البوسعيدي [ت: 1320هـ]	كشف الكرب ج2
ناصر بن مسعود [؟؟]	كشف الكرب ج1
نبهان بن سيف بن سعيد البكري العماني [ت: 1368هـ]	مجموع رسائل وأجوبة، (مخ) (ملك.الحاج سعيد)

2- قائمة بأسماء العمانيين الذين راسلوا القطب (مرتبة ترتيباً ألفبائياً)

اسم العلم (الذي تلقى القطب رسالة منه)	مصدر الرسالة (مطبوع أو مخطوط)
راشد بن عزيز بن خلفان الخصيبي، أبو الرشيد [و: 1263هـ / ت: 1347هـ]	وثيقة بدون رقم، (مكتبة القطب)
سالم بن سلطان بن قاسم بن ناصر الريامي [؟؟]	وثيقة بدون رقم، (مكتبة القطب)
سيف بن بشير الحبشي رسول شيخه نورالدين عبد	وثيقة بدون رقم، (مكتبة القطب)

اسم العلم (الذي تلقى القطب رسالة منه)	مصدر الرسالة (مطبوع أو مخطوط)
الله السالمي [؟؟]	
عبد الله بن حميد السالمي، نور الدين [و: 1286هـ/ت: 1332هـ]	ظهر الجريدة الأولى من مخطوط رقم: 5 غ (مكتبة القطب)
محمد بن سلطان بن قاسم بن ناصر الريامي [؟؟]	بطاقة بريدية دون رقم (مكتبة القطب)
محمد بن عبد الله بن سعيد بن خلفان الخليلي، أبو عبد الله [و: 1299هـ/ت: 1337هـ]	وثيقة بدون رقم، (مكتبة القطب) كشف الكرب ج1

3- مراسلات القطب تأكيد للتواصل الحضاري بين الجزائر وعمان:

تكتسي مراسلات القطب مع العمانيين أهمية بالغة في سياق توطيد علاقات التواصل بين إباحية الجزائر وعمان، ليس في جانبها الفقهي أو العقدي فحسب - وإن كان هو المحور الأساس الذي تدور حوله أغلب المراسلات- وإنما تكمن كذلك في الجانب التاريخي والسياسي والحضاري بشكل عام، فمن خلال تأملنا للرسائل المتبادلة بين القطب والعمانيين لا نجد الفتوى أو الجواب الفقهي مفصلاً عن تفقد الأحوال، وتبادل الأخبار، واستحضار التاريخ، ورفع المعنويات، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر... فهذه المراسلات تقدم للباحث معلومات مهمة قد لا يجدها في المصادر المكتوبة المطولة، خاصة إن كانت سرية أو تحمل حساسية سياسية أو دينية أو اجتماعية، فهي مراسلات بين أئمة المغرب والمشرق، وبين قمم العلم والفتوى والسياسية الشرعية والإصلاح الاجتماعي والتربوي في البلدين.

كما أنَّ المراسلات بين العلماء «غالباً ما تكون عفوية وغير متكلفة؛ لأن صاحبها ربما لم يكن يفكر في نشرها إبان كتابتها، فيودعها عواطفه وأحاسيسه، وأشجانه وأحزانه، دون تكلف. بخلاف المؤلفات الموجهة للنشر، فغالباً ما يراعي فيها المؤلف قارئه، ويتوقع ردود أفعاله، ويستحضر الآثار المترتبة عما ينشره»⁽⁴⁹⁾.

إن مراسلات القطب مع العمانيين من أفضل الوسائط التي تمكنا من رصد "حرارة" التواصل بين الجزائر وعمان في بواكير عصر النهضة، فإن دراسة هذه المراسلات - أو ما بقي منها - من شأنه أن يسلط الضوء على فترة بقيت إلى عهد قريب خارج دائرة اهتمام الباحثين، قبل أن تتوفر وسائل الإتصال والتواصل الحديثة عناء الترحال ولمعرفة الأحوال...

ومن طريف ما نقرأ في مراسلات القطب مع العمانيين أننا نجد القطب مهتماً أياً اهتمام بإبقاء الروابط بين الطرفين والحرص على عدم انقطاعها، فنجده يقول "شيخ البيان" محمد بن شيخان: «كيف أحوالك وأحوال من معك، وأنا توخّشت من انقطاع كتبكم عني بعد ترادفها وتواليها، فأخبروني ما السبب في ذلك»⁽⁵⁰⁾، وقال لصاحبه نورالدين السالمي وعيسى بن صالح الحارثي: «وصلني كتابكم، وفرحت به لبقاء المحبة والاتصال في أمر الدين»⁽⁵¹⁾، وقال: «اعلمنا أنه وصلني كتابكم وفرحت به فرحاً كبيراً لطول الفترة، وضيقى بعدم وصول الكتابين إليكما في ظني، والحمد لله إذ وصلا»⁽⁵²⁾.

لطالما مثل العمانيون للقطب مرآة لنهجه الفكري ودعماً معنوياً قوياً لآرائه الإصلاحية التي قبولت بالرفض في وطنه، كما أسلفنا في أول هذا البحث، فقد عبر عن حبه الصريح للعمانيين في شرح النيل: وَلِشِدَّةِ حُبِّي لِأَهْلِ عُمَانَ وَأَهْلِ زَنْجَبَارٍ مِنْ أَصْحَابِنَا، (...) وَلِنَفْعِهِمْ إِيَّايَ يَرْسَالُ الْكُتُبَ أَكْثَرَ مِنْ وَفْرِ الْبَعِيرِ، وَلِإِهْدَائِهِمْ إِلَيَّ أَشْيَاءَ جَلِيلَةٍ، وَلَا تَبَاعُهُمْ إِيَّايَ فِي أَقْوَالِي وَتَرْجِيحَاتِي...»⁽⁵³⁾.

ولذلك كان القطب يشعر بالأريحية مع العمانيين وبخاصة مع الإمام نورالدين السالمي، ومع الشيخ عيسى بن صالح الحارثي، ومع الشاعر ابن شيخان السالمي. فهو ييئسهم شكواه من الظروف الاجتماعية العvisية التي يعيش فيها القطب، من سياسة تجهيل استعمارية، ورفض اجتماعي لأفكاره الإصلاحية، وهذا كله مقترن بحالة مادية مزرية... ففي بعض رسائله لابن شيخان يقول: «.. فليس تأخير الجواب تغريظاً مني، ومع ذلك يا أخي لو علمت ما بي من الأشغال وفتن الأعداء لعذرتني»⁽⁵⁴⁾. وقال للإمام السالمي: «واعذرنى يا أخي في تأخير الجواب بعض تأخّر، وما ذلك إلّا لأهوال عظام عليّ من النصارى وأهل بلدي»⁽⁵⁵⁾، وقال للإمام محمد بن عبد الله الخليلي شيئاً قريباً من ذلك: «وافاني سؤالك في حال اضطراب أهل البلد عليّ وعدم الانقياد للحق، أعانني الله عليهم وعلى أهل الشرك»⁽⁵⁶⁾.

ويمكن أن نستنتج من كلام القطب المتقدم في شرح النيل أنه قد وجد في العمانيين بعض الدعم المادي إضافة إلى الدعم المعنوي، فلم يكن القطب يخفيهم ظروفه المادية الصعبة، وكان في كثير من الأحيان يستجديهم لينسخ لهم مؤلفاته، يقول في بعض رسائله: «لو وجدتُ مالا لأسرعتُ في حاجتك، وأنت تظنُّ بي أن الناس يعينوني! والله إني لأطلب في الإعانة عشرين ريالاً فلا أجد من يُعطي خمسا (...) وإني أستحي من الطلب، والله إني أطلبُ فلا أُعطى، وقد أيسست منهم، والله إني راغب في نشر كتبتي نفعاً لكم (...) وطلباً لثواب الله جل وعلا، فأمهّل لعلّي أجد شيئاً فشيئاً من مالي أو مما عند الله المستعان...»⁽⁵⁷⁾.

ولقد وصل الوضع المادي المزري بالقطب أن يرفض زيارة العمانيين له واستضافتهم في بلده، رغم حبه لهم، وإجلاله لشأنهم، وما ذلك إلاً تحرجا من عدم المقدرة على إكرامهم، وإعراض قومه عن رعاية الضيف وإعطائه حقه... يقول في إحدى رسائله: «وإما أن تزورني أنت أو غيرك من أهل عُمان فلا، رحمكم الله، فإن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه؛ لأنني في قوم لا يقومون بي، والإباضية في المغرب أشحاء إلاً ما شاء الله، وإن كنتم تقبلون ضيافتي فمرحبا بكم ألفا، ولست أبخل بالموجود».

إنها الصراحة التي لا حدَّ بعدها ! ونحن نفهم من هذه الرسالة أمرين؛ أولهما ظروف القطب الاجتماعية الصعبة مع قومه وتحرجه من عدم إكرام ضيوفه، وثانيهما اتساع قلب القطب ليحدث مراسله من عمان بكل صراحة وإخلاص، ومن المؤكد أن الشيخ لم يصل إلى هذه المرحلة من المكاشفة مع إخوانه العمانيين إلا بعد نسجت بينهم خيوط المحبة والتواصل ومدت جسور الإخاء والود.

إن تحليل مراسلات القطب مع العمانيين معهم يحتاج إلى دراسة مستقلة، دراسة تستخلص العبر من بين ثنيا الفقه والعقيدة والفتوى، تستخلص التاريخ والوضع الاجتماعي والديني والسياسي والاقتصادي في ميزاب وفي عمان كذلك⁽⁵⁸⁾، فكما أن القطب قد كشف للعمانيين كثيرا من معاناة وظروف إباضية الجزائر، فإن مراسلاته تعطينا صورة عديدة من مشاكل العمانيين الاجتماعية والسياسية؛ كالفتن، الصراع القبلي، ووالخلافا السياسية والنزاع على السلطة، والخلافات الفكرية بين العلماء، التي حفظتها المراسلات بصدق وأمانة قد لا تتحقق في الكتب والمؤلفات.

الخاتمة:

في نهاية هذا البحث الذي لا نشك بقصوره وعدم إحاطته بجزئيات الموضوع، إذ أنه لم يصل بعد إلى غايته التي من أجلها تأسس.. فإننا نستخلص بأن التواصل الحضاري بين الجزائر وعمان، قبل عصر القطب وفي عصره وحتى اليوم أمر ذو أهمية بالغة في مسيرة الفكر الإباضي والعلاقات الأخوية الطيبة بين البلدين، وقد ساعد على وجود هذه العلاقة تشكُّل فكر "أهل الدعوة والاستقامة" الذي انبثق من البصرة ووصل شعاعه عُمان والمغرب والآفاق رغم المضايقات، ومحاولات التشويه والمحاصرة. وقد توصلت دراستنا من خلال تأمل الفترة التي عاش فيها قطب الأئمة وعلاقته وعلاقة مشايخه بأهل عُمان إلى استخلاص النتائج التالية:

1- لقد كان التواصل بين عُمان والجزائر امتدادا للعلاقة الوطيدة التي ربطت إباضية المغرب والمشرق منذ القرن الثاني للهجرة، وشعورُ المغاربة بالولاء والارتباط بمنع الفكر

الدعوي الإباضي جعلهم حريصين على إبقاء عرى التواصل والمحافظة عليها، وكان ذلك سببا رئيسياً مهماً للمحافظة على كيان المذهب الإباضي وبلورة آرائه وتفاعل أفكاره مشرقاً ومغرباً.

2- رعاية عُمان للجزائر وبلاد المغرب متجذرة في التاريخ ولا ينكرها إلا جاحد، فحملة العلم إلى المغرب، وقيام الدولة الرستمية، ودعم شوكتها مادياً وأدبياً، كلها عوامل شددت أهل المغرب ليقبوا في اتصال تام مع أهل المشرق: بالاستفتاء، والاستشارة، والتكوين، والرعاية والشعور الأخوي الإسلامي المتبادل.

3- إن من أهم أسباب اتصال الشيخ اطفيش "القطب" بعُمان وبعلمائها وبالفكر المشرقي بشكل عام، تلك المكتبات الغنية بالكنوز المشرقية العُمانية التي حُظي بها، وتفتحت بين يديه من شيخه عبد العزيز الثميني، وكذا من مُعلِّميه الشيخ اربار وأخيه الأكبر إبراهيم، اللذين نهلا من العلم في عُمان، وخلفاً بين يدي القطب ذخائر ما جلباه من مؤلفات العُمانيين، فكانت سببا في انفتاح القطب على الفكر المشرقي واحتوائه. فتواصل القطب مع عُمان ليس طرفة في الزمن، وإنما هو ثمرة لجهود سابقه، وبناء فكري متجذر بين المشرق والمغرب، قد يضعف أحيانا وقوى أخرى، ولكنه لم ينقطع أبداً.

4- بعد أن تمثل القطب الفكر المشرقي والمغربي معا وألف أعماله الموسوعية الشهيرة كهيمان الزاد، وشرح النيل، وتيسير التفسير، فإنَّ العُمانيين استقبلوا تلك الأعمال بحفاوة كبيرة واجلال منقطع النظير، فكان حضور الشيخ اطفيش القطب قويا في الفكر العُماني منذ ذلك الوقت؛ أي منذ مطلع القرن الرابع عشر الهجري، ولقيت تأليفه صدى كبيرا في عُمان وزنجبار والمشرق فأقبل العلماء عليها شارح واختصارا ونظما، وكان العُمانيون يرون في القطب عالم المشرق والمغرب، عالم الإباضية جميعاً، فكانوا يستفتونه ويستكتبونه، وكان القطب يجيبهم إلى ما يدعونه إليه من تأليف، ويردُّ على أسئلتهم، ويتكبد نسخ مؤلفاته وإرسالها إليهم، حباً لهم وإكراماً، وحفاظاً حبل التواصل، رغم الظروف المادية والأدبية العصبية التي كان يعيشها القطب والجزائر تحت نير الاستعمار والجهل والفقر والفتن.

5- إن تراث القطب الكبير من الرسائل والجوابات المبتوثة في خزائن ميزاب وعُمان، وغيرها من البلدان، والتي لم ير أغلبها نور المطابع والتحقيق والدراسة، تحتاج إلى عناية خاصة قبل ضياعها، ومن المهمّ بمكان النظر إليها على أنها وثائق شاهدة على عصر عصب مرّت به البلاد العربية، فمن المهم استخلاص العبر من بين ثنايا الفقه والعقيدة والفتوى في هذه المراسلات، واستخلاص عبر التاريخ من الوضع الاجتماعي والديني والسياسي والاقتصادي في ميزاب وفي عمان آنذاك، فمن يعرف

تاريخه ويفهم مجراه ومُحرِّك أحداثه، فإنه سيتحكَّم في حاضره، ويبني على تجارب الأجداد وأخطائهم مستقبه.

لقد كان للشيخ اطفيش أثراً عميقاً في الثقافة العُمانية، ولا نكون مبالغين إن قلنا بأنه كان أكثر الجزائريين حظوة بالاهتمام والدراسة والحبِّ والإجلال من قبل العُمانيين في فترة حياته وبعد وفاته. وكان لتلاميذ القطب دوراً كبيراً في توطيد علاقة الجزائر بعمان، ولعل سيرة الشيخ المجاهد سليمان الباروني باشا، والشيخ أبي إسحاق اطفيش، والشيخ إبراهيم أبي اليقظان، خير دليل وشاهد على ذلك... كما أن فضل القطب على المشرق والمغرب قد امتد بعد وفاته، من خلال تلاميذه ومؤلفاته التي أبقت العلاقة بين عُمان والجزائر متألقة قوية متجددة. ونحن نرى أنَّ مواصلة البحث في مؤثرات استمرار هذه العلاقة حتى عصرنا الراهن أمراً بالغ الأهمية، ونأمل أن تنصب جهود الباحثين لدراسة هذه العلاقة في جوانبها المختلفة أدبياً وفقهياً وسياسياً واجتماعياً. والله الموفق للصواب.

الهوامش:

- ¹ - ينظر : الجعبري، فرحات: «العلاقة بين إباضية المغرب وإباضية البصرة وعمان، من القرن الأول إلى القرن الحادي عشر الهجري / 8-17 م». سراس (Cérès) للنشر. تونس، 2005. ص: 10
- ² - ينظر : الحموي، ياقوت: «معجم البلدان». دار صادر، بيروت 1977. ج4، ص: 296. الإدريسي: «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» تح/ مجموعة من المستشرقين. نابولي. د.ت.ن، ج2، ص: 93
- ³ - الجعبري، فرحات: «علاقة عُمان بشمال إفريقيا». ط1. المطابع العالمية، روي، سلطنة عمان. د.ت.ن. ص: 55
- ⁴ - ناصر بوحجام، محمد: «التواصل الثقافي بين عُمان والجزائر». ط1. نشر مكتبة الضامري، السيب، سلطنة عمان. 1423هـ / 2003م. ص: 6
- ⁵ - كاشف، سيدة إسماعيل: «حصار ندوة الدراسات العُمانية». (البحوث والدراسات التي قدمت في الندوة ذو الحجة 1400هـ / نوفمبر 1980م). ط2. نشر وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان. 1406هـ / 1986م. مج3، ص: 265
- ⁶ - ظهرت التسمية وانتشرت منذ القرن الثاني للهجرة، "أهل الدعوة" أو "أهل الدعوة والاستقامة"، أما تسمية الإباضية فقد أطلقت عليهم نسبة إلى عبد الله بن إباض المري التميمي (ت 86هـ) لمواقفه السياسية المعلنة ضد مخالفتي الإباضية، ولم تظهر هذه التسمية في مؤلفات أهل الدعوة إلا في نهاية القرن الثالث الهجري، ولكنهم رضوا بهذه النسبة بعد ذلك. راجع مزيدا من التفصيل في: مجموعة من الباحثين: «معجم مصطلحات الإباضية». نشر وزارة الأوقاف والشؤون الدينية. سلطنة عمان. ط1. 1429هـ / 2008م. ج1. ص: 2-8، 80، 81.

- ⁷ – عالم فقيه من قرية بهلا بعمان، من علماء الأزد الخروصيين البارزين في القرن الثالث الهجري، ترك عدة مؤلفات وجوابات. تنظر ترجمته في، جمعية التراث: «معجم أعلام الإباضية» (قرص مدمج) (ترجمة لأكثر من 2500 علم من أعلام المغرب والمشرق وخراسان) نشر جمعية التراث 2005. رقم الترجمة: 717
- ⁸ – مجهول: «السير والجوابات لأئمة وعلماء عُمان». تح/ سيدة إسماعيل كاشف. نشر وزارة التراث القومي والثقافة. ط2. 1410هـ/ 1989م. ص: 14.
- ⁹ – سالم بن حمد الحارثي: «العقود الفضية في الأصول الإباضية». نشر وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان. 1403هـ/ 1983م. ص: 148. ولقد سمعت العبارة عدة مرات من أستاذي المرحوم الشيخ الناصر بن محمد المرموري (ت: 2011/05/16) بتحويل مقصود لآخرها: (ونهض إلى الآفاق) بدل (ونهض إلى عُمان).
- ¹⁰ – تفاديا للاستطراء، فإننا اقتصرنا على ذكر تاريخ وفاة هؤلاء الأعلام، ولمزيد من التفاصيل حول تراجم الأعلام الواردة في هذا القسم يرجى مراجعة «معجم أعلام الإباضية» (قرص مدمج) (ترجمة لأكثر من 2500 علم من أعلام المغرب والمشرق وخراسان) نشر جمعية التراث 2005.
- ¹¹ – أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة: «رسالة مسلم بن أبي كريمة في الزكاة للإمام أبي الخطاب المعافري». سلسلة "تراثنا". عدد: 34. نشر وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان. سنة 1982. ص: 3.
- ¹² – ينظر: الدرجيني، أحمد بن سعيد أبو العباس: «طبقات المشايخ بالمغرب»، تح/ إبراهيم طلاي، دار البعث قسنطينة، ط1، ج1، ص: 56، 57. وينظر: يحيى بن أبي بكر أبو زكريا: «السيرة وأخبار الأئمة» تح/ عبد الرحمن أيوب، الدار التونسية للنشر، تونس 1986. ص: 89، 128. وينظر: معمر، علي يحيى: «الإباضية في موكب التاريخ» (الحلقة الرابعة: الإباضية في الجزائر). صححه أحمد أوبكة، المطبعة العربية، غرداية، 1986م. القسم الأول، ص: 65-68.
- ¹³ – الشماخي، أحمد بن سعيد بدر الدين أبو العباس: «كتاب السير»، نشر وزارة التراث القومي والثقافة. سلطنة عمان. ط2. 1407هـ/ 1987م. ج1، ص: 158
- ¹⁴ – الدرجيني: «طبقات المشايخ بالمغرب»، ج2، ص: 82
- ¹⁵ – الشماخي: «كتاب السير»، ج2، ص: 445
- ¹⁶ – م ن، ج1، ص: 145
- ¹⁷ – م ن، ج1، ص: 161
- ¹⁸ – م ن، ج1، ص: 142، وينظر: الدرجيني «طبقات»، ج1، ص: 47.
- ¹⁹ – الجعيري: «العلاقة بين إباضية المغرب وإباضية البصرة وعُمان»، ص: 83.
- ²⁰ – لمزيد من التفاصيل حول وسائل التواصل الثقافي بين عمان والجزائر ينظر ناصر بوحجام: «التواصل الثقافي بين عُمان والجزائر»، ص: 32 – 64.
- ²¹ – البغطوري، مقرين بن محمد: «سيرة مشايخ نفوسة»، تح/ توفيق عياد الشقروني. نشر مؤسسة تاوالت الثقافية. 2009. (نسخة رقمية مصورة من الكتاب) ص: 31.
- ²² – جمعية التراث: «معجم أعلام الإباضية». (مدخل إلى التاريخ والفكر الإباضي من خلال تراجم لأكثر من ألف علم من أعلام المغرب الإسلامي، منذ القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر). نشر جمعية التراث. القرواية، غرداية، الجزائر. 1420هـ/ 1999م. مج4. رقم الترجمة: 847. ذكر الدكتور باباعمي محمد بأنه توفي سنة 1296هـ /

1872م، ينظر باباعمي، محمد: «المخطوطات العمانية في مكتبات وادي ميزاب، قراءة في الشكل والمحتوى» (مارس 2001/ نسخة مرقونة بحورتنا)، ص: 09. وذكر غيره بأنه توفي يوم 15 شوال 1307هـ / 04 جوان 1890م، ولم يتسنى لنا التأكد من تاريخ الوفاة من مصدر دقيق.

²³ - دبو، محمد علي: «نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة». المطبعة التعاونية، ط1، 1358هـ/ 1965م، ج1، ص: 284.

²⁴ - لم نعر على "الصوى" في ألقاب الغمانيين في أي مصدر من المصادر العمانية، ونرجح بأنه قد وقع تصحيف في المخطوط الذي نقل منه الدكتور باباعمي في بحثه (المخطوطات العمانية) فقرأ "سعيد بن علي الصوى" بدل "سعيد بن علي الصقري"، فسعيد بن علي بن عيسى الصقري المتوفى سنة 1301هـ من علماء الشرقية، قال عنه السالمي: «كان رجلاً فاضلاً يؤوي الأخيار ويحب العلماء وبينه وبين علماء المغرب مكتبة وله عندهم خصوصية» وقد كانت مراسلات وعلاقة وطيدة مع القطب أيضاً، يقول السالمي: «أيت له مكاتبات مع شيخنا قطب الأئمة وكان يرسل إليه بعض تأليفه ليبرزها إلى عالم المطبوعات منها كنهه الثلاثة في البلاغة، كتب على كل منها بخط القطب: يرسل إلى الشيخ سعيد الصقري ليطلع به ثم يرده» فليتأمل (السالمي: تحفة الأعيان، ج2، 277).

²⁵ - يبدو أن الشيخ الذي كان يرسل الشيخ إزار من عمان لم يكن اسمه "سليم" كما أورد باباعمي في بحثه (المخطوطات العمانية) بل هو العالم محمد بن سليم بن سالم الغاري الذي توفي سنة 1301هـ من علماء الباطنة، وقبره في النخبة بالباطنة، أدرك إمامة عزّان بن قيس. وله مراسلات مع القطب أيضاً (السالمي: تحفة الأعيان، ج2، 278). ولقد وجدنا ناسخ الجزء 60 من بيان الشرع الذي أرسل إلى الشيخ إزار كتب في آخر الجزء: «قد أخرجني على نسخ هذا الجزء الشيخ العالم الورع الزهري الزاهد، وحيد عصره وفريد دهره محمد بن سليم بن سالم الغاري (...) في مسجد من مساجد قرية المنده من الباطنة». والله أعلم.

²⁶ - باباعمي، محمد: «المخطوطات العمانية في مكتبات وادي ميزاب...» ص: 11

²⁷ - جمعية التراث: «معجم أعلام الإباضية». مج1. رقم الترجمة: 057.

²⁸ - جمعية التراث: «معجم أعلام الإباضية». مج1. رقم الترجمة: 068. وانظر بوحجام: «التواصل الثقافي»، ص: 44.

²⁹ - ويتن، مصطفى بن الناصر: «آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقيدية». نشر جمعية التراث. القارة، الجزائر. ط1، 1417هـ / 1996م، ص: 48.

³⁰ - دبو، محمد علي: «نهضة الجزائر الحديثة...». ج1. ص: 303، 304.

³¹ - اعتمدنا في ترجمة القطب اطفيش بشكل كبير على ما ورد في «معجم أعلام الإباضية». مج 4. رقم الترجمة: 864. فمجال البحث لا يسمح بالتطويل في سرد حياة القطب التي تملأ بطون عدد من الكتب. وعلى الراغب في الاستزادة مراجعة المصادر المذكورة في آخر الترجمة في معجم أعلام الإباضية.

³² - ينظر اختلاف الكتاب في مولد القطب بين 1236 و 1237 و 1238هـ ويتن: «آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقيدية». ص: 24، 25.

³³ - حفار، إبراهيم بن بكير: السلاسل الذهبية في الشمائل الطفيفية. إخراج: محمد بن الحاج محمد بن الشيخ امحمد اطفيش. نشر مكتبة القطب. بني يسجن. 2007. ص: 33، 34. وانظر: حمدي أبو البقطان، إبراهيم بن عيسى: ملحق السير. (مخ) ج2، ص: 153.

- 34- دبور: «نهضة الجزائر الحديثة». ج1. ص: 305.
- 35- ينظر: جمعية التراث: «معجم أعلام الإباضية» (قرص مدمج) (ترجمة لأكثر من 2500 علم من أعلام المغرب والمشرق وخراسان). رقم الترجمة: 789.
- 36- جمعية التراث: «معجم أعلام الإباضية» (قسم المغرب). مج1. رقم الترجمة: 270.
- 37- اطفيش، محمد بن يوسف، القطب: «شرح النيل وشفاء العليل» (باب زكاة الفطر). ج6، ص: 456. (قرص: المكتبة الإباضية الشاملة). نشر جمعية التراث. الإصدار الثاني. 2010.
- 38- باباعمي، محمد: «الحضور المشرقي في فقه المغاربة، قراءة في المنهج (شرح النيل نموذجاً)» بحث مقدم لملتقى التأليف الموسوعي والفقهاء المقارن في عُمان (يومي 25-27 محرم 1426هـ / 6-8 مارس 2005م). ص: 04.
- (قرص: ندوات تطور العلوم الفقهية في عُمان. نشر وزارة الأوقاف والشؤون الدينية. سلطنة عُمان. (د.ت.ن).
- 39- أبو محمد عبد الله بن محمد بن بركة السليمي البهلوي، الشهير بابن بركة، من كبار علماء القرن الرابع الهجري في عُمان. ينظر: «معجم أعلام الإباضية» (قسم المشرق). رقم الترجمة: 833.
- 40- سلمة بن مسلم العوتي أبو منذر، عاش في عُمان بين القرن الخامس والسادس الهجري. اشتهر بموسوعته الفقهية «الضياء» في أربعة وعشرين جزءاً. ينظر: «معجم أعلام الإباضية» (قسم المشرق). رقم الترجمة: 569.
- 41- البطاشي، محمد بن شامس: «سلاسل الذهب في الأصول والفروع والأدب». نشر وزارة التراث القومي والثقافة. عمان. (د.ت.ن) ج1، ص: 10.
- 42- أبو بكر أحمد بن النظر السمولي العُماني (ق 5هـ / 11م)
- 43- اطفيش، امحمد بن يوسف (القطب): «الجنة في وصف الجنة». نشر وزارة التراث القومي والثقافة. سلطنة عمان. 1405هـ / 1985م. ص: 2.
- 44- لتوطد علاقته الشيخ اطفيش به فإنه أطلق عليه لقب نورالدين واشتهر به عند المغاربة والمشاركة، كما أن الإمام السالمي هو من أطلق على الشيخ اطفيش لقب «القطب». ينظر (معجم أعلام الإباضية) قسم المشرق. ترجمة السالمي رقم: 789. وللاستاذ الباحث مصطفى شريفي رأي مخالف في الموضوع، ينظر كتابه: «الشيخ نورالدين السالمي مجدد أمة ومحبي إمامة». نشر جمعية التراث. القارة. ودار الخلدونية. الجزائر. ط1. 1432هـ / 2011م. ص: 84-86.
- 45- هناك جهود قيمة يبذلها بعض الباحثين لجمع مراسلات القطب ودراساتها نرى من الأمانة الإشارة إليها، منها جهود الأستاذ بشير بن موسى الحاج موسى وفريق العمل الذي يشرف عليه في مؤسسة الشيخ عمي سعيد بغرداية، لجمع أجوبة القطب تحقيقها، ونأمل أن يصدر العمل في وقت قريب، ومنها جهود فريق العمل بجمعية أبي إسحاق لخدمة التراث بغرداية لتصوير جوابات الشيخ ورسالته في مكاتبات وادي ميزاب، ومنها بعض الجهود الفردية لباحثين وأساتذة كالباحث باحمد بن باسعيد الحاج سعيد "النشاشيبي" المهتم بالتراث ومساعد امحمد بن الحاج محمد اطفيش (الحفيد) قيم مكتبة القطب على إخراج بعض آثار الشيخ، ومنها كذلك جهود الأستاذ الباحث مصطفى بن محمد شريفي الذي أعد دراسة مطولة مهمة تعد الأولى من نوعها، بعنوان: قراءة في نماذج من مراسلات القطب إلى أهل عمان. وقد أفدنا منها إفادة عميقة في هذا البحث.

- 46- بشير بن موسى الحاج موسى: عضو في حلقة العزابة، باحث، محقق بمؤسسة الشيخ عمي سعيد بغرداية.
- 47- ينظر: اطفيش، امحمد بن يوسف (القطب): «كشف الكرب»، ترتيب أبو الوليد سعود بن حميد المصيري، تح/ محمّد علي الصليبي. نشر وزارة التراث القومي والثقافة. عُمان. 1406هـ/1986م. ج2، ص: 380.
- 48- استعنا في وضع هذا الجدول بشكل كبير على بحث الأستاذ مصطفى بن محمد شريفي: «قراءة في نماذج من مراسلات القطب إلى أهل عمان» الحلقة الأولى مجلة الحياة. دورية فكرية يصدرها معهد الحياة وجمعية التراث. القراة، غرداية. الجزائر. العدد 14. سنة 1431هـ / 2010م. ص: 30-45.
- 49- شريفي: «قراءة في نماذج من مراسلات القطب إلى أهل عمان». (الحلقة الأولى)، ص: 24.
- 50- اطفيش، «كشف الكرب». ج1. ص: 9.
- 51- م ن. ج1. ص: 5.
- 52- م ن. ج1. ص: 45.
- 53- اطفيش: «شرح النيل» (باب زكاة الفطر). ج6، ص: 456. (قرص: المكتبة الإباضية الشاملة).
- 54- اطفيش: «كشف الكرب». ج1. ص: 86.
- 55- اطفيش: «كشف الكرب». ج2. ص: 55.
- 56- اطفيش: وثيقة بعنوان: «جواب القطب للشيخ محمد بن عبد الله بن سعيد الخليلي وأبيه والشيخ أحمد بن سعيد، والأخ علي (؟) والأصحاب من عُمان وزنجبار، في مسائل نحوية وبيانية ولغوية». بدون تاريخ. ص14. مكتبة القطب. بني يسجن.
- 57- اطفيش: «كشف الكرب». ج1. ص: 10.
- 58- شريفي: «قراءة في نماذج من مراسلات القطب إلى أهل عمان» (الحلقة الثانية) مجلة الحياة. دورية فكرية يصدرها معهد الحياة وجمعية التراث. القراة، غرداية. الجزائر. العدد 15. سنة 1432هـ / 2011م. ص: 252-265.

الشيخ العلامة قطب الأئمة أطفيش، عالمنا ومجاهدنا

إبراهيم حاج محمد

باحث غرداية

عاصر الشيخ العلامة قطب الأئمة أطفيش فترة الاستعمار الفرنسي البلاد الجزائرية والجنوب الكبير، ووقف في وجهه وقفة العالم العابد الذي يأبى الخضوع والخنوع للعدو المشترك؛ فكان يدعو ويحرض على مواجهة الاستعمار مند دخوله البلاد الإسلامية وكان يرأس السلطان العثماني في شأن وحدة المسلمين؛ وكما دعا إلى مجابهة فرنسا، عند الإلحاق العسكري لمزاب 1882م، بالقوة ومقاطعتها ماديا وتجاريا؛ معتبرا إلحاق مزاب خرقا لاتفاقية 1853.

وقد قام الجنرال قائد الحملة على مزاب بسجنه، عند دخوله مزاب، لإرهاب بقية المزابيين؛ لكن ذلك لم يثن من عزيمة الشيخ على معارضة فرنسا وفي كونه الجبهة الصلبة ضدها. وله في مقاومته مواقف وعبر كثيرة، يمكن أن نتعرض لها من خلال تطرقنا إليها في المحاور التالية:

° الإلحاق العسكري لمزاب 1882.

° الشيخ أطفيش يواجه الحملة.

° مقاومة العلامة أطفيش للتوغل والتغلغل الفرنسي:

- الإستشراق.

- التبشير.

° قيادة الشيخ لجيل النهضة الجزائرية الحديثة.

وعزاءنا أن يكون هذا البحث لبنة في التشييد لصرح القطب أطفيش وجيله الجديد، واستذكارا للتضحيات التي قدمها من سبق من أجل أن نعم، نحن، بالاستقلال.

الإلحاق العسكري لمزاب:

أول اتصال رسمي من الفرنسيين مع مسؤولي منطقة مزاب كان في 1852 بعد الدخول العدواني منهم على الأغواط ورفع العلم على مئذنة مسجدتها، وكذا فرض حصار اقتصادي على مزاب بسبب مساعدتهم للشريف محمد بن عبد الله للهروب من الأغواط إلى وارجلان. فكر

الجنرال راندون في استغلال فرصة رعب أهل الصحراء من هذه الفاجعة وهذه الطريقة "البطولية"⁽¹⁾ التي دخل بها جنود الجنرال بيليسي المدينة وكذا فرصة الصراع الداخلي بين المزابيين، فأرسل تهديدا يجبرهم على قبول معاهدة استسلام أو المواجهة فلم يجد المزابيين مع اخلافهم أيضا حول هذه النقطة أيضا حيث إما يقبلون بالمعاهدة أو يواجهون فرنسا. فكانت الإكثوية مع المعاهدة في حين رفض الطلبة والخواص هذه المعاهدة وكان على رأسهم الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش.

ولكن المعاهدة تم تفعيلها مع ذلك، في أبريل 1835، ولقد أفادت كثيرا في أنها أخرجت استعمار الجنوب لمدة ثلاثين سنة أخرى فقد كانت فرنسا التي ربطت مزاب وربطت نفسها بهذه المعاهدة قد تركت بذلك المجال مفتوحا لنصرة الثورات الشعبية مثل ما كانت تفعل دوما مزاب قبل المعاهدة حيث لم يكلف المزابيون عناء أنفسهم للتقيد بهذه الاتفاقية بل كانوا يمتنون الثورات ها وهناك بالتغذية والأسلحة والذخيرة مما جعل فرنسا تحاول مراجعة هذه الاتفاقية في كل مرة ولكنها لم ترد ذلك لأن لا تفتح جبهة جديدة في وجهها.

ولما جاء الحاكم العام تيرمان ⁽²⁾ Tirman ذو المشروعات الاستعمارية والاستيطانية التوسعية بدأ يدرس مشروع ضم مزاب وإلحاقها نهائيا بفرنسا وغلق مخزن الذخيرة والتموين في وجه من كان يسميهم هو "المتمردين". وقد واثته الفرصة وأبرق إلى الجنرال Latour D'Auvenge في أكتوبر 1882 لتحضير محلة استعمارية والانطلاق بها إلى مزاب وإخضاعها نهائيا إلى فرنسا وضمت هذه المحلة 1157 جندي وضابط ومعه 500 فرس و1851 يعير يحمل مئونة شهر. فوصلت الأخيرة مزاب في 17 نوفمبر وأعلنت عن الإلحاق الرسمي في الثلاثين من ذات الشهر⁽³⁾.

وبهذا أصبحت فرنسا تراقب عن كثب ما يجري في مزاب ومن يدخل مزاب ويخرج للتزود، وهذا ما أدى إلى غلق أهم أسواق التموين في الجنوب، فأضعف المقاومة الشعبية في الجنوب فكانت 15 سنة كافية لاستكمال احتلال كل شمال الصحراء والامتداد إلى غاية توات في الجنوب الغربي وإلى أعتاب الهقار في الجنوب الشرقي.

الشيخ اطفيش في مواجهة الحملة الفرنسية على مزاب:

إن الشيخ اطفيش رحمه الله يمثل الجبهة الصلبة المعارضة لفرنسا عند وصولها إلى وادي مزاب، وكان يدع إلى الجهاد وعدم التعامل معها مادياً وعسكرياً، وحتى تجارياً، وهكذا فإن الجنرال الفرنسي "لاتور" (De Latour D'Auvenge) قد سجنه في نوفمبر 1882م عند وصوله إلى وادي مزاب بأمر من الوالي العام الجزائري ليقنع العزابة بعدم جدوى وفاعلية مقاومتهم للإلحاق مزاب بالاحتلال الفرنسي، ناسين أو متناسين أن القُطب يعتقد جازماً أن الإسلام يعلو ولا يعلى

عليه، مرددًا هذه العبارة الأخيرة في كل مرة معتزًا بالإسلام أيما اعتزاز.

وكان يستدعى مرّات إلى التحقيق بسبب تجرّئه المستمر على السلطات الاستعمارية في بلدته وسائر قرى مزاب، حتى إنه فُتّش وسُئِل مرّات عن وضعه الطابع البريدي مقلوبًا إلى الأسفل على ظروف البريد، وقد يبدُ للبعض بأن هذا السلوك الأخير تصرف ساذج، إلّا أنه في حقيقة الأمر شكل من أشكال الرفض الصريح والمتواصل لكل أشكال تواجد المستعمر. فلما اشتد غضب الفرنسيين على تصرفات القطب الجريئة قرروا إيقافه عند حده فحاولوا استقدامه إلى فرنسا لمحاكمته لكنهم عدلوا عن ذلك حين قال أحدهم: من العار على فرنسا أن تستدعى رجلا إما أن يحتاجها فتكون أضحوكة أمام الدول وإما أن تحتاجه وهو أعزل ليس له إلا علمه فخير لكم أن تتركوا الرجل. فتناسوه⁽⁴⁾.

ومن طريف ما يروى عن القطب أن وفدًا فرنسيًا زاره في الدار التي يدرس فيها وذلك قصد تسليمه وسام الاستحقاق عن حله لُغز الماء الذي حير العلماء، وكان ضمن هذا الوفد القائد العسكري العام الفرنسي في الجزائر ومجموعة من الضباط الفرنسيين والقساوسة، وحينما دخلوا عليه الدار وجدوه جالسًا يدرّس طلابه، ولما وقفوا أمامه قام القطب واعتلى بعض الدُرّج، فطلب منه حاكم التراب أن ينزل ليسلمه رئيس الوفد التّيشان، فأجابه القطب قائلاً: "الإسلام يعلو ولا يعلى عليه"، وعندما دنا منه أحد الجنود ليعلق له الوسام على صدره أرخى له القطب طرف بُرْنُسِهِ من الأسفل وقال له علّقه هنا⁽⁵⁾.

سلك القطب -رحمه الله- نهج الصالحين العاملين في جهاده الإسلامي، إلّا أن الوصول إلى هذا الطريق الإصلاحي ليس بالأمر الهين، نظراً إلى سعي معارضيه الذين حاربوه وضايقوه في جهاده، فطالما استفزوه في إصلاحه ليلاً ونهاراً، فشعر بأن دائرة السوء تسعى بكل قواها كي تحطمه وتنتهي نهضته الإصلاحية في مهدها، كما بين ذلك في رسالة بعثها إلى بعض إخوانه العُمانيين قائلاً: (فسلامٌ على الشيخ العالم عبد الله بن حميد والشيخ الفهامة عيسى بن صالح الفارسي من كاتبه أمحمد بن الحاج يوسف، أعذرني يا أخي في تأخير الجواب بعض التأخر وما ذلك إلا لأهوال عظام من النصارى ومن أهل بلدي..)⁽⁶⁾.

لاشك أن المجتمعات البشرية لا ولن تخلو من الصراع بين رجال الفضيلة ورجال الرذيلة وبين أهل الحق وأهل الباطل، إلّا أن عزيمة الصادقين هي من يكون لها الغلبة في النهاية لأن الباطل ساعة والحق إلى قيام الساعة.

من هنا يتبين لنا من خلال استعراض المسار التاريخي للأحداث التي واكب القطب اطفيش معظمها، أن هذا الأخير قد خاض معركة الكفاح الاجتماعي والسياسي لعدة سنوات مبيّناً المنهج الإسلامي الصحيح، رافضاً كل مظاهر الجمود الفكري والتعصب المذهبي والخضوع للسيطرة

الأجنبية، فكان داعياً إلى العلم النافع وتطهير النفوس من أدناس الجهل والتخلف، مجابهاً في جهاده مختلف الأعداء، حتى من اشترى الاستعمار ضمائرهم من ضعاف النفوس، ممن سخرهم هذا الأخير لمجابهة القطب في جهاده الإصلاحية.

للشيخ اطفيش أثر بالغ في قضته الأولى، وهو تحرير الجزائر، وهو ما يدل على وطنية صحيحة⁽⁷⁾، كيف لا وقد ربي جيلاً كاملاً من المصلحين وقد أنشأ أول مدرسة إصلاحية بالجزائر. مقاومة العلامة اطفيش للتوغل وللتغلغل الفرنسي:

أ/ في مقاومة الأفكار الاستشراقية:

من أهم وسائل الاحتلال والاستعمار الذي يستعمله الاستعمار الحديث والذي استعملته أيضاً فرنسا أيضاً هو الاستشراق أو دراسة المجتمعات الشرقية بعيون غربية ومحاولة الدخول إلى دواخلها وفهم ما يحتويه وعلى ما هي مبنية عليه ليتمكن من بعدها المستعمر من التصرف في تلك الميكانيزمات المجتمعية وتفكيكه وإعادة بنائه وفق ما يتماشى معه وهويته الجديدة بعيداً عن هويته الأصلية.

وعلى هذه الشاكلة جاء مع الحملة الفرنسية على الجزائر في عام 1830 إضافة إلى الجنود المسلحين مجموعة من المترجمين والعلماء والأدباء فلما تم توقيع معاهدة الاستسلام شرع كل في المهمة التي جاء من أجلها؛ وكذلك فتحت هذه المجموعة من المستشرقين الطريق تمهيداً لاحتلال النهائي لمزاب فقد كانت أهم زيارة لهؤلاء المستشرقين زيارة "إميل ماسكوري"، Emile Masquery في سنة 1296هـ/ 1878م محاولاً الحصول على بعض الكتابات التي تفيده في معرفة هذه المنطقة وتحصل منها بعد عناء على سير أبي زكرياء الذي ترجمه إلى الفرنسية ولم يجد فيه ما يفيد في التعريف بهذه المنطقة وقد قدم للترجمة بمقدمة طويلة شرح فيها الظروف والملايسات التي اعترضت سبيله وجفاء الشيوخ اتجاهه؛ وكان من أبرز من التقى بهم خلال زيارته إلى هناك الشيخ اطفيش وقد طلب منه بعض المعلومات عن المنطقة وتاريخها فكتب له رسالة سماها (رسالة مختصرة)⁽⁸⁾ سلم له ما حضر عنده من مجموع المعلومات، يظهر فيها أن الشيخ رحمه الله - كان يكتب وكله إدراك بذهنية من يكتب له وخلفيته فجاءت معلوماته مرتبة على نحو يتماشى مع ما كان يريد.

ويقع مؤلفه المسمى "رسالة مختصرة" في بعض تواريخ مزاب في خمسة عشرة باباً، عبارة عن مجموعة من المعلومات والحوادث التاريخية، تناولت حقبة زمنية متنوعة وأماكن مختلفة، تفتقد إلى التنسيق والترتيب، وهي لمحة مختصرة تناولت مواضيع مختلفة في مساحة ضيقة؛ هذا راجع إلى أسلوب الشيخ اطفيش الذي لا يلزم نفسه التقيد بالموضوع، ويعمد بدلاً من ذلك إلى إضافة المعلومات والاستفاضة في الشروح واستعمال كل ما من شأنه أن يوصل الفكرة إلى قارئه؛ إضافة

إلى تدوين كل ما يطرأ على ذهنه في لحظة تقييده للمعلومات، وذات علاقة ولو هامشية بالموضوع كشابه في الوقائع أو الرابط الزمني الواحد إلى غير ذلك. وذلك منبهج بعض المؤلفين قديما من عدم التقييد بالموضوع والنزوع إلى الاستطرادات وملاحقة الفوائد وتحقيق المسائل⁽⁹⁾ ولنلمس ذلك عند أصحاب الموسوعات الثقافية، والشيخ رحمه الله من أعلامها. وفي ما يلي يمكن أن نلاحظ من خلال محتوى الرسالة طريقة تطرق الشيخ إلى الأحداث، وانتباهه إلى:

في الباب الأول: برهن الشيخ اطفيش من خلال ما جاء في التوراة والإنجيل على صدق رسالة خاتم الرسل سيدنا محمد ﷺ، ثم استخرج من أسفار أهل الكتاب المقدسة عندهم ما يفيد تحريم شرب الخمر وأكل لحم الخنزير؛ معتمدا في هذا الباب، الذي يعد تكملة أو استدراكا لمؤلف له كتبه قبلا وهو كتاب ردّ الشُّرود إلى الحوض المورود⁽¹⁰⁾ -أنظر العنوان الموالي- الذي يعتبر التحفة في علم الديانات المقارنة مخصص فقط لذات الموضوع، كما اعتمد أيضا على ما قام به ابن الحجري شهاب الدين أحمد بن قاسم الأندلسي⁽¹¹⁾ من مناظرات مع علماء النصارى جمع ذلك كله في مؤلف عنوانه بناصر الدين على القوم الكافرين⁽¹²⁾ مختصرا من كتابه رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب، ولا أدري إن اعتمد الشيخ اطفيش على نسخة كاملة من هذا المؤلف أم استقاها من طريق غير مباشرة، لأنه ذكر ابن الحجري لكنه لم يشر إلى مرجع محدد. كما تصفح الشيخ اطفيش العهدين القديم والجديد⁽¹³⁾ ونقل منهما فقرات تفيد الموضوع يتخللها تعقيبات للنص على سبيل التفسير والشرح ثم إعطاء نتيجة مُحصلَة للمقارنة والاستنتاج. ولا أدري ما الداعي إلى وجود هذا الباب في هذه الرسالة وتقديمه على غيره من الأبواب سوى:

- وجود شيء مستجد عما لم يذكره في كتاب رد الشُّرود.
- أو أن الذي طلب منه الرسالة وهو إميل ماسكوري⁽¹⁴⁾ - نعرف به لاحقا- صدر منه ما لم يعجب الشيخ اطفيش، فضرب عصفورين بحجر وتمر إليه رسالة الإسلام: حيث أنه نصراني، وأنه قال في الرسالة: "لَمَّا دخلت الدار يا ماسكري من دون سلام أم أن ديانتكم أمرتكم بذلك".
في الباب الثاني: وأعتقد أنه الجزء الأهم من الرسالة، فالرسالة معرفة "رسالة في بعض تواريخ مزاب" وهذا الباب يتوافق مع العنوان، حيث يتعرّض إلى تاريخ وادي مزاب وتاريخ عمرانها، وعن أجداد بني مزاب وعن قصورهم التي كانت في ما مضى دار سكنى أو تلك التي لا تزال إلى اليوم وعن أصل تسمياتها. وهي محاولة شخصية للشيخ لجمع الروايات الشفهية وتصويبها وذلك بطرح عدة أفكار انطلاقا من التسمية ذاتها وتمريها على الميزان اللغوي على شاكلة علم أسماء الأماكن (Toponymie): من أصل الكلمة واشتقاقها في اللغة ودون الاعتبار لخلفية تاريخية؛ ولا ندري هنا لما استعملت الكلمات ذات اللغة البربرية على المقياس العربي.

والباب على ثمانية فصول:

- 1- بعد التقديم لهذا الباب، بدأ المحاولة ببلدته الأم "قصر"⁽¹⁵⁾ آت إسجَن؛ وأعطى تعريفا لاسمها، وعناصر السكان الذين كانوا في القرى المتاخمة لها، ثم انتقلهم إلى حيث البلدة اليوم؛ والهجرات المتعددة إليه من غير وادي مزاب.
- 2- عن تَغَرْدَيْتْ (غرداية) القصر الحالي، أصل تسميتها أول من نزلها وفي بدء عمرانها.
- 3- تحدث فيه عن قصر آت مِلِ شَتْ (مليكة) بقصريه السفلي والعلوي، وسبب الانتقال من القصر السفلي إلى العلوي.
- 4- بلدة آت بَنَوْر (بنورة) ذات القصرين المتقابلين، عمرانها وسبب هجر أحدهما، والسكان الوافدون عليها ونسبهم.
- 5- تَجْنِيَتْ (العطف) أولى القرى التي حط بها البربر من الإباضية رحالهم عند وفودهم مزاب، تسميتها وسكانها قبل الإباضية.
- 6- يعود الفصل إلى الحديث عن القرى المندثرة، والتي لم يبق منها إلا الأطلال، وعن مذهب قاطنيها، والغالب أنهم كانوا على المذهب المعتزلي، أي لم يجاوز بها فترة ما قبل الإسلام، فغاية ما يعرف من تاريخ المنطقة يعود للفترة الإسلامية، وهو قليل جداً.
- 7- يخصص هذا الفصل للكلام عن الوافدين من الإباضية على مزاب من غير قاطنيها الأولين، من نفوسه وجربة خاصة؛ وما كان الداعي لنزوحهم إلى مزاب. ثم يضمّن الفصل بعضا من نسب العائلات والبطون، وبيان شرفها وذلك بإلحاق الكثير منها إلى آل البيت، من الفاطميين.
- 8- يتمم الشيخ اطفيش في هذا الفصل ما ختم به سابقه، في نسب بعض الأعلام والمشايخ، ثم يتحدث عن بعض الأحداث التي مرت على مزاب منها حملة يحيى بن إسحاق الميورقي⁽¹⁶⁾.

يتخلل كل ذلك شوارد هامة واستطرادات خارجة عن سياق الموضوع.

في الباب الثالث: يتطرق هذا الباب إلى الجانب المذهبي بمزاب، مند نشأة المذهب الإباضي فيه، ويبين الفروق بين المذهب الإباضي والمذاهب الأخرى في بعض الآراء والمسائل الفرعية. وقد فصل الباب في نقطتين هما: الأولى تمس الجانب العقائدي وتمثل في مسألة الرؤيا: رؤية الله عز وجل بالعين المجردة من عدمها. أما الثانية تتناول الجانب التاريخي وهو الفتنة الكبرى: من قتل الإمام علي عليه السلام، وما يقول جمهور الإباضية في الإمام علي، كما يبين الشيخ اطفيش مكانة الإمام جابر بن زيد عليه السلام، إمام المذهب، لدى الرواة وغيرهم من الثقافة.

في الباب الرابع: يواصل هذا في الجانب التاريخي للطائفة الإباضية من حين وصول المذهب الإباضي إلى بلاد المغرب الإسلامي حتى إقامته لإمامة ظهور بتاهرت، التي أقامها عبد

الرحمن بن رستم الفارسي، ومن هنا ينطلق المبحث إذ يذكر بعض فضائل الفرس وفضائل البربر.
1- الفصل الأول عن نسبة الإباضية إلى عبد الله بن إباح، رحمه الله؛ ثم التعريف بهذه الشخصية. مع البحث في نسبة الوهبة من الإباضية إلى عبد الله بن وهب الراسبي أم إلى الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن الرستمي.

2- يتحدث الفصل عن أولى التصدّعات التي كادت تعصف بأتباع الإباضية لأسباب سياسية؛ وقد نعتها تجوّزاً بـ[فرق الإباضية الضالة]، أولها: النكارية، نسبتها وسببها وما كان منها.

3- ثاني الفرق: الخلفية، صاحب المشكل وما دعاه إلى شق عصا الطاعة وما كان منه.

4- النفائية: نسبتها، وقصة اعتراف صاحبها بضالته.

5- الفرثية: صاحبها وما كان منها.

6- طائفة السكاكية وما صدر منها وكيف انتهت.

في الباب الخامس: يعود الشيخ اطفيش في هذا الباب إلى وادي مزاب، أين يحاول أيضاً أن يعطي تفسيراً لكلمة مزاب وأصلها، كما في الباب الثاني على المقياس العربي لها، فيذكر أنها من ميزاب الكعبة. وقصة الشهرة عنها ما وقع للإمام لأبي بلال مرداس بن حدير⁽¹⁷⁾، رحمه الله. كذلك عن سبب تسمية أهل مزاب ببني مصعب أو أهل وغلانة⁽¹⁸⁾

كما أشار الشيخ اطفيش أين كان المذهب منتشراً، وأقصى توسع له.

في الباب السادس: خصص هذا الباب لتتبع مسيرة الإباضية ببلاد المغرب منذ افتتاح الدعوة حتى سقوط الدولة الرستمية الإباضية عند اكتساح العبيدين لبلاد المغرب وملاحقة البقايا الإباضية الذين تشتتوا بأرض المغرب، حتى معاودة اجتماعهم ببلاد مزاب.

بدأ الباب بتعداد حملة العلم إلى المشرق والمغرب ودخول المذهب إلى بلاد المغرب. ثم ما تبقى في فصول على النحو الآتي:

1- سيرة الإمام أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري.

2- سيرة أبي حاتم يعقوب بن ليب الملوزي.

3- نبذة عن الإمام عبد الرحمن الرستمي الفارسي.

4- فصل طويل عن أفريقية ومعناها، وعن البربر وأصلهم، وسبب تسميتهم بربراً من خلال المصادر والروايات.

5- تولي الإمام عبد الرحمن بن رستم للإمامة بالمغرب الأوسط وقصة بنائه لناهرة عاصمة الدولة الرستمية.

6- تسمية تاهرت وتقدّمت ومعناها ووصف لعاصمة الرستمين في أيامهم.

7- تولي الإمام عبد الوهاب للإمامة بعد الإمام عبد الرحمن عندما ترك أمر الخلافة شورى

- بين سبعة نفر، ثم تولى الإمامة أفلح بن عبد الوهاب ثم تولى الإمامة محمد بن أفلح.
- 8- تولى الإمامة يوسف بن محمد بن أفلح؛ كما تناول ذات الفصل نفسه فضل جبل نفوسة في دعم الإمامة الرستمية ودولتها؛ كما عاد إلى زمن إمامة عبد الرحمن حيث أرسل إليه أهل الدعوة والاستقامة⁽¹⁹⁾ بالمشرق لمساعدات مالية لتدعيم أركان دولته ففاجئوا برجوع مساعدتهم والداعي لإرجاعها أن الدولة قد تقوت، في وقت قصير، ولم تعد بحاجة إليها.
- 9- عن وقعة مانو سنة 283هـ، التي كان لها الأثر البالغ في انهيار إمامة الرستميين حتى هجوم العبيدين على تاهرت عام 296هـ.
- 10- هجوم عبيد الله الشيعي على تاهرت وسقوط الدولة الرستمية، وملاحقة العائلة الرستمية وهرب الإباضية نحو جنوب بلاد المغرب.
- 11- فصلٌ عني فيه بذكر أسماء السلاطين المتداولة في العالم القديم في شتي ممالك الدنيا، وقد أشار إلى أنه سيتطرق إلى الموضوع عند ذكره إمام عمان، الجلندي بن مسعود، زمن الإمام عبد الوهاب.
- الباب السابع: حدد الشيخ اطفيش في هذا الباب الأطر المكانية التي كان ممتدا فيها المذهب الإباضي، أين كان ذائع الشهرة والصيت، لكنه انحسر في وقت ما إلى حيث هو اليوم، حيث عدّد له أسباب الانتشار التي تعود إلى حملة العلم، أين كان له امتداد زمن الدولة الرستمية من المغرب الأوسط حتى مصر؛ كما انتشر في بلاد السودان -إفريقية جنوب الصحراء- وذلك بفضل التجار والدعاة. كما قد عدد الشيخ اطفيش عوامل انكماشه.
- 1- سلسلة نسب الدين التي جرى عليها المذهب والعلم واحدا عن واحد حتى منبعه؛ وهنا ذكر السلسلة المغربية التي تنقسم بدورها إلى فروع.
- 2- إفادات حول معلومات تاريخية وجغرافية ونحوية في تسمية بعض الأماكن، حول الأندلس وجزيرة مالطة.
- 3- يروى هذا الفصل قصة من تراث الحضارة المصرية، حيث يبين الفرعون لرعيته مَنْ مِنَ الشعوب أسبق في الوجود.
- في الباب الثامن: هاجم الشيخ اطفيش، بنقد لاذع، الفرنسيين فضح فيه مساوئهم ونواياهم التبشيرية، والطرق التي يستعملونها قصد جلب الناس إلى ديانتهم، وذلك باستهداف المحتاجين والجوعى برغيف الخبز في يد وصلبيهم في اليد الأخرى. وكانت هذه الحادثة بعد إجابته عن سر "لغز الماء" -هو لغز طرح بعض المشاركة مقابل وسام استحقاق فوجد حله الشيخ القطب اطفيش، وتنازل عنه للفرنسيين بعد أن اشترط عليهم تحسين ظروف المسلمين بالجزائر مقابل منحهم الجواب، ولكن الفرنسيين لم يوفوا بعهودهم- وكانت هذه الاحتجاجات والرسائل

الفاضة للفرنسيين القطرة التي أفاضت الكأس للفرنسيين فكانوا يهددونه بالتصفية عبر بعض عملائهم؛ حتى أن وفاته الغامضة في سنة 1914م تعزى إلى أنها مدبرة بالسم.

الباب التاسع: عبارة عن قصة طويلة تحكي عن صور الأنبياء والرسل المشهورين والتي كانت في قصر مدينة هرقل البيزنطية، حيث أرسل الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه الصحابي هشام بن العاصي إلى ملكها، ولتحقق الملك من صدق نبوة الرسول ﷺ فيرى هل سيتعرف هذا الصحابي على صورة صاحبه محمد ﷺ. ويروى أن الصور هذه كان قد جسدها النبي دانيال عليه السلام بواسطة وصف جبريل عليه السلام للأنبياء، وقد وردت أيضا في كتاب الشيخ اطفيش الآتي ذكرها "رد الشروء إلى الحوض المؤرود"، والمغزى منه الرد على المستعمر الفرنسي الصليبي وأهل الأهواء والبدع.

في الباب العاشر: لم يتعد هذا الباب عن موضوع البابين السابقين، حيث انتقد فيه المستعمر ورجاله حيث يعتبر الاستعمار استمرارا للحروب الصليبية وصراعا بين الحق والباطل.

كما جاء في هذا الباب سبب كتابته لهذه الرسالة، في أنه طلبها منه المستشرق الفرنسي إميل ماسكوري أن يكتب له أشياء عن تاريخ المنطقة وسكانها، فاستجاب له وظهر أنه كانت فرصة مناسبة وجدها بعد أن كان طلب منه بعض المزايين ذلك قبل -بحسب تقديم الرسالة- وكذلك لم يفوت عدم فرصة توجيه الرسائل المباشرة إلى المستعمر؛ ولم يترك بعد هذا تأويلا آخر لأن البعض بدأ يكتب كلما سمع فحرفت الكثير من الحقائق واستغلها المستعمر ليتمي بها سياسة

في الباب الحادي عشر: يذكر الباب معلومات عامة، حول حقيقة يأجوج ومأجوج، ومعلومات أخرى جغرافية وعن القارة الأمريكية وهل وصلها الإسلام قبل أن يصلها الأوروبيين، ثم وصف سكانها ومتى كان عمرانها.

في الباب الثاني عشر: يحاول الشيخ اطفيش في هذا الباب استنطاق الفتنة الكبرى واستنتاج آراء ووجهات نظر من خلال ما كتبه المصادر خاصة الكامل للمبرد؛ وكان تركيزه في ظل تلك الأزمة العارمة متوقفا على تتبع أصحاب الدعوة والاستقامة أهل المذهب وما كان رد فعلهم أثناء الأحداث لتبيان سلامة الأساس والمبدأ.

في الباب الثالث عشر: في الإمامة، وأفضل الأئمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا الباب اختص بذكر من تولى أمر المسلمين بعد رسول الله، أولهم الخلفاء الراشدون الأربعة رضي الله عنهم سادتنا: أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب. ثم تولى الإمامة سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنه؛ وبعده يذهب كل فرقة بإمامهم ومن تم لأهل الدعوة أئمتهم أيضا، الذين كانوا من زعماء الحرورية⁽²⁰⁾ قبل أن تنشق الحرورية نفسها إلى فرق

اختلفت في ما بينها في الجملة والتفصيل، وجل ما ورد في ذكر هذه الأحداث ينصب على المرحلة الأولى من تاريخ السياسة لما بعد مقتل الإمام علي عليه السلام. فعند أهل الدعوة: فبعد الإمام الحسن بن علي رضي الله عنهما يعقبهما في خلافة أمر المسلمين:

1- الإمام عبد الله بن وهب الراسبي.

2- الإمام أبو بلال مرداس بن حدير.

3- عمران بن حطان ثم إياس بن معاوية

4- الإمام عبد الله بن يحيى، طالب الحق، حيث تنتهي به إمامة الشراء⁽²¹⁾.

الباب الرابع عشر: يصنف الباب طبقات المشايخ من ذوي الصيت الذائع ممن نترحم عليهم عند ذكرهم لعظم فضلهم ومنزلتهم؛ وقد ذكر ثماني عشرة طبقة الأولى منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم وآله وأصحابه.

أكثر الأئمة الذين ذكروا كانوا من بلاد المغرب، لأنه ربما اطلع على الكتب التي أتت على ذكر سيرهم في حين تعذر عليه الحصول على المصادر التي أتت على سير أهل المشرق بالتفصيل.

الباب الأخير من الرسالة: يروى بعض كرامات المتقين، أولياء الله المختبين له، تدل على جزاء ورعهم وتقواهم. ويخص الباب بذكر الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي رحمه الله، صاحب نظام العزابة.

من خلال هذه الرسالة يظهر أن الشيخ إضافة للمعلومة أراد أن يفيد صاحبه بأن الإسلام يوصي بالعلم والمعرفة وكذلك بأن الشيوخ هم على مستوى من الثقافة والعلم وليس كما يتصور بأنهم جهلاء ليست لديهم معارف أو معلوماتهم بسيطة. ومن جهة أخرى أراد أن يفهم الفرنسي بأن هذا المجتمع حتى وإن رأى فيه ما يوحي بصراع داخلي فإنه مع ذلك نسيج واحد في أصله ودينه يتصل مع غيره وإخوته في الدين وهذا ما جعله يستطرد في باين الأسباب الذي أدت إلى اختلاف المسلمين ويفيد بأنه لا طائل من الخلاف في وجود عدو مشترك متربص بالمسلمين، وقد افتح الرسالة بباب مطول يدخل فيه في جدال، أو بالأحرى حوار، لاهوتي بين الديانة المسيحية المحرفة التي يدين بها الفرنسيين والديانة الإسلامية التي تفضح شرك المسيحيين؛ كذلك ذكر المرسل إليه بأن من عقيدتهم أيضا خيانة العهود والتكر للجميل، كما أن الطريق المنوغرافية _ الدراسة الشاملة _ لا تدع فرصة لإيجاد ثغرات وهفوات تاريخية يمكن للمستشرق استغلالها.

ب/ مقاومته للتبشير والمبشرين :

الأمة الجزائرية أمة مسلمة والأوروبيون أمة مشركة كافرة. واستعمار الفرنسيين الجزائر يعني قهر

المسلمين ومحاربة الاسلام. من هذا المنطق يرفض ش. أطفيش تواجد الكفار على أرض الاسلام وبالتالي يمقت ظاهرة الاستعمار في أي شكل من أشكاله، ويعز عليه أن يهضم شعب إسلامي وسلب حريته أو يناله أدنى ضيم، ولذلك قارع المستعمر بكل ما أوتي من حيلة حتى أنه دخل في حرب ديبلوماسية مع الفرنسيين حين ساروا لاح تلال منطقة ميزاب سنة 1882م، فقام القطب وأنصاره يعارضون الاحتلال واحتج القطب لدى قائد الحملة بكل جرأة وأنكر عليه نقض المعاهدة، وأفهمه ان ميزاب في غنى عنه وعن خدمات دولته وأنهم لا يرضون، فخاف القائد أن يثير عليه ميزاب والصحراء فاعتقله حتى احتل غرداية وشحنها بالجند وأمن على نفسه من الثورة فأطلق سراحه، لكن القطب لم يهدأ ولم يستسلم للواقع فراح يحرك الشعب، ويستنهض الهمم ويثير الرأي العام كلما سنحت له الفرصة لذلك. وكان يغرس في تلاميذه كره الفرنسيين واحتقار المستعمرين المتجبرين.

ومما وقع عقب الإلحاق التحاق عناصر الكاردنال لافيغري (22) (Cardinale Lavigerie) الذين بقوا مدة في متليبي يتحينون الفرصة لدخول مزاب بعد ما كان أمرا محضورا عليهم -من قبل سكان مزاب- قبل الإلحاق العسكري، ولكن تحت حماية العلم الفرنسي دخلوا مزاب، واكثرى لهم الجنرال دوسونيس دارا في بني يزقن لكن الشيخ اطفيش وقف لهم بالمرصاد ووقف في وجه الجنرال؛ فأمر الشيخ بأن بسد بابها بباء جدار أمامها إن هم باتوا فيها.

وقد اهتم الشيخ اطفيش بكتابة مؤلف في هذا الغرض أسماه رد الشرود إلى الحوض المورود وهو عبارة عن مؤلف يتناول فيه زيف عقيدة النصارى المحرفة وذلك من خلال كتبهم المقدسة. وقد ألقه القطب بعد أن رأى الجهل منتشرا حتى خاف أن يضل ضعفاء الإيمان؛ وهي رسالة في إثبات رسالة الرسول الكريم من الكتب السماوية القديمة، ومن الكرامات التي وقعت في حياته، ومن القرآن الكريم، وأيضا تلفت الانتباه إلى خواء العقيدة الأوروبية النصرانية ودعواها الحضرية المزيفة. يقع الكتاب في 12 بابا، وهو موجود كمخطوط -مكتبة القطب اطفيش بين يسجن. ويقع هذا المؤلف في 12 بابا فيها الكثير عن المقارنات بين أسفار العهد القديم وتناقضها في ما بينها وأيضا بين رسائل العهد الجديد؛ إضافة إلى ذلك فقد استعان القطب اطفيش ببعض الكتب التاريخية من كتب السير وغيرها التي تروي عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ومعجزاته.

أما الرسالة الثانية من بين رسائله في هذا الشأن رسالة له في الرد على إنجليزي يطعن في الدين الإسلامي، ويشكك المسلمين بتونس في دينهم، وقد بلغ خبره عند الشيخ القطب اطفيش في مزاب وذلك ربما عن طريق التجار المزابيين بتونس، وقد استشاط غضبا وعز عليه أن ينكر هذا الإنجليزي رسالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ويدعي هذا الإنجليزي أنه يشب أن

محمد لا وجود له من خلال القرآن نفسه. وكان رد الشيخ مفحماً وأيضاً أرسل إليه بدعوة ليحضر إلى مزاب لينظره⁽²³⁾ وتحده أيضاً فيها إن كان متيقناً فليأتي إلى مزاب وإلا فكلامه فارغ استغل جهل الكثير من الناس لينشر سمومه هنالك. وقد سمي هذه الرسالة "قذى العين على أهل القين" وكانت على نفس منوال رد الشرود إلا أنها مختصرة وهي تلميحات فقط لأن موضوع الرد كان حول شخص الرسول صلى عليه وسلم نفسه وإثبات وجوده ورسالته من خلال رسائل المسيحية وكتبها.

قيادة الشيخ لجبل النهضة الجزائرية الحديثة :

أنشأ القُطب عام 1253هـ/1837م معهداً للتدريس في بني يسجن هي في الأصل داره، ثم دخل حلقة العزابة، وقد تعرض للنفي من بلده إلى بلدة بنورة (آت بونور) ومكث بها حوالي عشر سنوات ألف فيها كتباً كثيرة ولم يتوقف عن تنشئة الأجيال، وتخرج عليه في الفقه بها كثير من الطلبة، ولما عاد إلى بلده خلف الشيخ الحاج محمد بن عيسى أزار في مشيخة المسجد في: 25 ديسمبر 1878م/1296هـ.

تخرج على يديه عشرات من التلاميذ، أصبحوا فيما بعد من أبرز العلماء وأجل الشخصيات المجاهدة والداعية، وقد انتشروا في معظم أقطار المغرب والعالم الإسلامي، من مزاب وجربة ونفوسة وعُمان، أشهرهم: سليمان باشا الباروني النفوسي⁽²⁴⁾، وسعيد بن تعاريت الجربي⁽²⁵⁾، وإبراهيم أبو اليقظان⁽²⁶⁾، وأبو إسحاق إبراهيم أطفيش الجزائري⁽²⁷⁾، وبابكر بن الحاج مسعود⁽²⁸⁾، وصالح بن عمر لعلي⁽²⁹⁾، وصالح بن يحيى بن الحاج سليمان آل الشيخ⁽³⁰⁾، وأحمد بن الحاج إبراهيم حميد أوجانة، والحاج عمر بن حمو بكلي⁽³¹⁾، والحاج ناصر بن إبراهيم الداغور، ويحيى بن صالح باعمارة⁽³²⁾، والحاج عمر بن يحيى وزرو⁽³³⁾.
ومحمد بن صالح بن يحيى الشميني⁽³⁴⁾، وإبراهيم بن بنوح مطياز⁽³⁵⁾، وصالح بن الحاج محمد الداودي، وغيرهم.

لقد أفرغ القُطب من خلال معهده كل جهده في إصلاح سلوك المجتمع ومحاربة الآفات الاجتماعية دون كلل في كل لحظة، وكان هدفه الأول هو خدمة الإسلام قولاً وعملاً، فالإسلام في نظره هو منهج للحياة التي أوجدها الله في طبيعتها الفطرية، إذ يقول الله عز وجل: "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ"⁽³⁶⁾.

يقول الشيخ اطفيش:

ولولا ثلاث هن: تعليم جاهل وإرضاء ربي، والجهاد لذي الكفر

لما كنت أخشى الموت، والموت لازم؛ وإلا فما الحياة والمرأ في قهر

يسترسل الشيخ اطفيش في كتابه تيسير التفسير بعد شرحه للنص القرآني ﴿فتفشلوا وتذهب ربحكم﴾⁽³⁷⁾ ناقدا لأوضاع المسلمين في زمانه: "والنزاع الآن فشا في أهل التوحيد، فملكهم أهل الشرك؛ ولو رجعوا إلى مذهبنا في الأصول وغضوا عن مسائل الخلاف، كأن لم تكن، وكانوا يداً واحدة لغلوا على أهل الشرك. وأهل الشرك الآن مشغولون بالاحتيايل فيما يملكون به غيرهم؛ وأهل التوحيد بعضهم معين لهؤلاء، وبعضهم بطال معرض، وبعضهم يعبد الله ولا يشتغل بالدعاء عليهم، وبعضهم مكب على التأليف ولا يحسن التأليف، إلا ما كان على طريق الشيخ عبده، والشيخ مصطفى بن اسماعيل، والشيخ قاسم بن سعيد⁽³⁸⁾ ولذلك قلتُ أكْبُ على التأليف إذ لم نجد لنا غازيا يوما، ولا من بهم يغزو"⁽³⁹⁾.

وكانت تلك غاياته، رحمه الله، إرضاء الله وتعلم العلم وتعليمه وجهاد الكفر؛ وتأسف في بعض كتاباته أنه حقق الثانية ويدعوا الله أن يكون قد حقق الأولى ولكنه لم يحقق الثالثة. فلم يسمح له الظرف بالجهاد ولكنه ومحاربة الاستعمار بالسلاح رغم أنه حاربهم بالقلم والمواقف الجريئة⁽⁴⁰⁾.

فقد عدد الشيخ اطفيش من وسائل كفاحه ضد الاستعمار ووسائله، تارة بالأسلوب المباشر وفي كثير من الأحيان بتحضير جيل جديد يكون قادرا على مقاومة الاستعمار وتخليص بلاد المسلمين منه خاصة بعد أن رأى أن هذا الغزو كان تحصيل حاصل بضعف المسلمين، فهو كان يؤمن برسالته مع الجيل القادم الذي يولد في رحم الأزمة ليقود الأمة.

الهوامش:

¹ - يمكن مراجعة هذه الحوادث من خلال مذكرات في كتاب Mme Elisa Fornk.

² - مقالات سياسته في الجزائر بجريدة. Le Temps 12 & 22 / 11/1882.

³ - Le Commandant Robin, Le mzab, p 75.

⁴ - جهلان، الفكر السياسي، ص: 111.

⁵ - اطفيش: الرحلة، ص: 38.

⁶ - المصدر نفسه، ص: 38.

⁷ - كحالة: معجم المؤلفين. ص: 786.

⁸ - Pierre Cuperly, Aperçus sur l'histoire de l'Ibadisme au m'zab, Al-risala i-safiya fi ba'd tawarkh ahl wadi mizab de Med atfayyas.

⁹ - مقدمة طبعة مختصر تيسير التفسير للمؤلف الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش؛ تحقيق الشيخ إبراهيم طلاي.

- ¹⁰ - رد الشُّرود إلى الحوض المورود حجرية بتاريخ 1320هـ.
- ¹¹ - ابن الحجري (ت بعد 1048هـ/1638م): باحث، مترجم عن الإسبانية. كتابا في مناظراته مع علماء النصرى واليهود سماه (ناصر الدين علي القوم الكافرين)، كما ترجم وهو في تونس كتاب (العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع). الزركلى، معجم الأعلام، ج1، ص: 198.
- ¹² - المخطوط موجود بخزانة جامع الأزهر للمخطوطات، لدي نسخة على وعاء رقمي منه، مشار فيها أنه وقف لله لرواق المغاربة بجامع الزهر. رقم النسخة في الخزانة: 307014.
- ¹³ - يشكّلان قسما الكتاب المقدس عندهم (La Bible)؛ محصلة لمزج بين ديانتين سالفيتين لرسالة الرسول محمد ﷺ، اليهودية والمسيحية. judéo-chrétienne.
- ¹⁴ - EMILE MASQUERAY.
- ¹⁵ - القصر بالبربرية أغرم وهي مجموعة سكنية تتوفر على المرافق العامة من المسجد والسوق كُتاب التعليم، ومن المرافق الخاصة من ديار. وهو الجانب العمراني من قرى مزاب، وموقعها الهضبة الصخرية غير الصالحة للزراعة؛ ويقابله مساحة للاستغلال الفلاحي ممثلا في بساتين يملكها سكان ذات البلدة وتقع في الأسفل عند الوادي، أين يمكن استصلاح قطعة أرض لفلحها، واستفادتها من مياه مجرى الوادي وقت جريانه؛ لخلق ما يعرف اليوم بالتوازن البيئي.
- ¹⁶ - آخر أمراء بني غانية الذين كانت لهم ميوزقة، كانت نهاية دولة بني غانية في عهده. الزركلى، ج8، ص: 138.
- ¹⁷ - أبو العباس أحمد بن سعيد الشماخي، كتاب السير، ص: 67.
- ¹⁸ - تنطق بالبربرية آت وأغلان.
- ¹⁹ - هكذا اشتهر الإباضية واصطلحوه على أنفسهم، من قبل أن يقبلوا بنسبتهم إلى ابن إباح أو بعده وهو اسمهم الأول؛ وهو وارد وكثير التداول في جل المصادر الفقهية والتاريخية وغيرها لأهل المذهب. أنظر: أوعوش، حركة أهل الدعوة والاستقامة.
- ²⁰ - مشهورون بمصطلح سياسي أطلقه عليهم الأمويون: وهو الخوارج، لخروجهم عن طاعتهم، وإن كان تسموا به لأنهم خرجوا عن علي(ض)؛ فالأمويون كانوا ضد علي من أول يوم ولي فيه أمر المسلمين.
- ²¹ - هناك أربعة مسالك الدفاع والشرء والظهور والكتمان وتسمى بمسالك الدين: راجع عدون جهلان: الفكر السياسي عند الإباضية.
- ²² - أنشأ هذا الكاردنال عبر مجاعات 1868 ملاجئ لضحايا المجاعة من الأطفال الذين شردوا على أمل نصيرهم وأسس جمعية مبشري إفريقيا، المعروفة بالأباء البيض، للتبشير والتنصير في الدواخل الجزائرية.
- ²³ - بحسب الرسالة نفسها فقد أرسلها فعلا له بتاريخ ذي القعدة 1320هـ، أي فيفري 1903م.
- ²⁴ - سليمان باشا الباروني: من زعماء النهضة العربية الإسلامية الحديثة بليبيا، عالم وزعيم مجاهد وأديب، (1870م/1940م)، انظر بتفصيل أكثر: م. أ. إب. قسم المغرب، ج3 ص 426 وما بعدها.
- ²⁵ - سعيد، ابن تعاريت: من شيوخ جزيرة جربة البارزين، صاحب "رسالة في تراجم علماء الجزيرة" و"المسلك المحمود في معرفة الردود" (ت: 1289هـ/1872م)، نفسه، ج3، ص: 375.

- ²⁶ - إبراهيم أبو اليقظان: (1888م/1973م) من أعلام الجزائر في العصر الحديث، يعتبر شيخ الصحافة الجزائرية المجاهدة، ترأس أول بعثة علمية جزائرية إلى تونس 1914 عضو جمعية العلماء المسلمين، له ما يقارب 60 مؤلفاً، أصدر ثماني جرائد وطنية إسلامية باللغة العربية بين 1926 و1938م. نفسه، ج 2 ص 52 وما بعدها.
- ²⁷ - أبو إسحاق إبراهيم أطفيش الجزائري: (1886/1965م)، من أعلام الجزائر والعالم الإسلامي، عالم وسياسي ومجاهد، وهو شيخ المحققين، من مؤسسي حزب الدستور التونسي، ومؤسس مجلة "المنهاج" بمصر، له تأليف وتحقيقات لكتب عديدة، نفسه، ج 2 ص 44 وما بعدها.
- ²⁸ - بابكر بن الحاج مسعود: (ت: 1325هـ/1907م) قاضي بالمحكمة الإباضية بغرداية، يعد من بين تلاميذ القُطب النابغين. م. أ. إب. قسم المغرب، ج 2 ص 133.
- ²⁹ - صالح بن عمر لعلمي: (1870/1928م)، من أجلة علماء بني يسجن ومزاب، من أبرز تلاميذ القُطب وقد خلفه في ميدان الإصلاح والنهضة العلمية الحديثة، نفسه، ج 3 ص 475 وما بعدها.
- ³⁰ - صالح بن يحيى آل الشيخ: (ت: 1948م)، من رجال بني يسجن الثوريين والوطنيين البارزين، العضد الأيمن للشيخ عبد العزيز الثعالبي وأحد مؤسسي الحزب الحر الدستوري التونسي، ممن كان له السبب في نجاح مهمة الحزب خاصة في جمع التبرعات. انظر: نفسه، ج 3 ص 487 وما بعدها.
- ³¹ - عمر بن حمو بكلي: (1837/1922م)، من أعلام بلدة العطف البارزين، ومن خيرة طلبة القُطب، وهو صاحب آثار ومواقف تاريخية مشهودة. م. أ. إب، قسم المغرب، ج 3 ص 632 وما بعدها.
- ³² - يحيى بن صالح: (1867/1938م)، من مدينة مليكة مزاب، وهو قاضيه المفوض بتعيين من شيخه القُطب، استقر في منصبه مدة 36 سنة ولم يُنقُص له فيها أي حُكم. نفسه، ج 4 ص 964.
- ³³ - الحاج عمر بن يحيى وزرو: (1858/1921م)، من أعلام القارة ومزاب، ومن بين أنجب تلاميذ القُطب، يعتبر "معهد الحياة" امتداد لمعهدة الإصلاح. نفسه، ج 3 ص 654 وما بعدها.
- ³⁴ - محمد بن صالح بن يحيى الشميني: (1897/1970م)، أحد أفذاذ بني يسجن ورجالها المخلصين، ومن الوطنيين البارزين، عضو اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري التونسي، ومبعوث الحكومة المؤقتة الجزائرية إلى أمريكا والمغرب. نفسه، ج 4 ص 803 وما بعدها.
- ³⁵ - إبراهيم بن بنوح مطياز: (1885/1981م) من علماء بني يسجن النابغين، من أنصار نادي الترقى التابع لجمعية العلماء، وله كتاب "تاريخ وادي ميزاب" مخ. نفسه، ج 2 ص 19 وما بعدها.
- ³⁶ - الآية (الروم، 30).
- ³⁷ - الآية (الأنفال، 46)؛ قال الله تعالى: "وأطيعوا الله ورسوله، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا، إن الله مع الصابرين".
- ³⁸ - قاسم بن سعيد الشماخي (ت: 1916) كان من أبرز من أنجبتهم يفرن بجبل نفوسة، في أواخر العهد التركي. نزل بمصر، فصاحب الأديب الصحفي: مصطفى بن إسماعيل المصري، حيث كان سبباً في اعتناقه المذهب الإباضي. وكافح الاثنان الأباطيل والخرافات والبدع، وساندا الإمام محمد عبده في حركته الفكرية. له عدة مؤلفات منها: "الحكمة في شرح رأس الحكمة" و"القول المتين في الرد على المخالفين"

و"سرد الحجة على أهل الفصيلة" و"مسائل البراءة وتولية الصحابة". م. أ.ع. إب، قسم المغرب، ج3، ص 447.

³⁹ - القطب امحمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير، تح ابراهيم طلاي، ج5، ص ص 339-340.

⁴⁰ - محمد موسى بابا عمي، حدد غايتك، مكتب الدراسات العلمية، 2005.

شبكة القرباء العائلي من خلال زواجهم مع النبوة العثمانية

صالح سيوسيو

باحث غرداية

بسم الله الرحمن الرحيم ونصلي ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين، وهادياً للفقيلين، وإماماً للمتقين، وحنة على الخلق أجمعين، وعلى آله وصحابه الميامين، وعلى التابعين لهجه وسيرته، إلى يوم الدين... وبعد:

فلقد اشتهرت علاقة العلامة الشيخ اطفيش القطب بالدولة العثمانية وسلطانها، وتحدثت عنها جلّ المراجع التي تناولت حياته إجازاً أو تطويلاً، غير أن هذه العلاقة في حاجة تتّبع ودارسة، فأما التّبع فتحدد تاريخ بدايتها وتسلسلها حسب جميع أنواع الاتصال.. اطلاقاً ولقاءً ومراسلةً وكتابةً، وأما الدّراسة فلتنظر في القضايا التي شغلت بال القطب في هذه العلاقة، وكيف برزت شخصيته فيها، بوصفه عالماً ومُوجّهاً.. وهذه الورقة جاءت لمحاولة تغطية هذين الجانبين في محورين رئيسيين:

أولاً، بحث في تاريخ علاقة القطب بالدولة العثمانية.

وثانياً، شخصية القطب التي تجلّت من خلال هذا التواصل.

غير أن هذه الورقة لا تتكلّف التفرقة بين المحورين، بل تتناولهما في إهاب واحد، في عرض متسلسل، يُحاول الضبط التاريخي، كما يُحاول تقديم قراءة تراعي هذا الضبط، وتراعي أيضاً باقي نصوص القطب ما أمكن، وما يقابلها مما تُشير إليه. وتتعمّد هذه الورقة ذكر نصوص القطب في الموضوع كاملة، دون الاكتفاء بالإشارة إليها، وهذا يسمح بالاطّلاع على تقرير القطب نفسه، وإتاحة المجال للقارئ؛ لتقديم قراءات أخرى أيضاً..

تفتقر معظم النصوص التي تحدّثت عن علاقة القطب بالدولة العثمانية وكذا مراسلاته إلى الضبط التاريخي، الذي به يمكن تحديد بداية هذه العلاقة وتطوّرها؛ لذا لا محيص من الاستعانة بمؤشّرات خارجية، لها علاقة بهذه النصوص والمراسلات، ولو على جهة التقريب.

وربما علينا أن نسلّم بداية أن القطب (1243-1332هـ/1827-1914م)⁽¹⁾ كان على اطلاع

-إلى حدٍّ ما- على مجريات الأحداث في العالم من حوله، وأن ثمة تكالبا غير مسوق على الأراضي الإسلامية، من قبل الدول الاستعمارية النصرانية الشمالية، وأن ثمة دولة إسلامية لا تزال قائمة، تبسط نفوذها على شاسع من تلك الأراضي، هي الدولة العثمانية.. فهذه الأفكار عادة ما يكون مصدرها، في تلك البيئة التي ترعرع فيها، ما يتسرّب من حديث أعيان الأمة في أحوال السلم والحرب، وما يُرم في ذلك من اتفاقات، أو يقرّر من خطط، وأيضا ما يرويه المسافرون - ولاسيما حجّاج بيت الله الحرام كلّ عام- من أخبار أسفارهم، وما يمرّون عليه من أحوال ومشاهدات، وما يُتلى عليهم من بيانات أو يُنشر، ولا ريب أن ذلك كان من قوّة التّسامع، ما جعل شاباً نبيهاً، مثل القطب -وهو في أواسط العقد الثالث من عمره- يُثبت عقب ختمه تفسير سور القرآن الكريم، بدءاً من سورة مريم إلى الخاتمة.. هذه الصيغة من الدعاء: «اللهم ببركة سيدنا محمد ﷺ، وبركة السّورة أَخْزِ النَّصَارَى وَأَهْنِهِمْ وَاكْسِرْ شُوكَهُمْ، وَغَلِّبْ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُؤَحِّدِينَ عَلَيْهِمْ...» (2).

بل ثمة ما يدلّ على أنه كان اطلاع على مجريات الأحداث في الدولة العثمانية وحروبها في البلقان مع الدولة الروسية، فقد أشار في تفسيره هميان الزّاد إلى دار المعاد، الذي انتهى من تأليفه سنة (1271هـ/ 1855م) إلى الحرب الشهيرة بـ «حرب القرم» بقوله: «وقد افتخر ملك تلك الجهة المتّصلة بهما على ملك قسطنطينية، بأن مُلكي وصل سدّ ياجوج وماجوج، وذلك حين قاتل التّرك المؤخّدون المالكون لقسطنطينية، هؤلاء التّرك المشركين المدّعين أن مُلكهم اتّصل بالسّدين، واستعان التّرك المؤخّدون بعساكر العرب وغيرهم، وبروم المغرب من الفرنسيين وغيرهم» (3)، وذلك حين بلوغي في تفسيره هذا سورة الأعراف...» (4).

وهذه الحرب المشار إليها كانت ما بين سنتي (1269-1272هـ/ 1853-1856م)، ودخول بريطانيا وفرنسا ومملكة سردينيا (= مملكة إيطاليا) الحرب إلى جانب الدولة العثمانية، فيما أشار إليه القطب.. كان في سنة (1270هـ-1854م)، وهذا يعني أن القطب كان -آنذاك- في السادسة والعشرين من عمره -على الأقل-.

ونلاحظ في هذا النصّ توظيف الجغرافيا القديمة «ياجوج وماجوج، السّدين، الروم، قسطنطينية»، وربما تفسير ذلك، أن الأخبار كانت تُتلقّى شفاهاً، ثم يُدوّنُها المثقّف من واقع ثقافته الجغرافية، المستمدّة من كتب الجغرافيا القديمة، وأيضاً نلاحظ توظيف «التّرك» بدل الدولة العثمانية، وهذا يعكس المشاعر تجاه تلك الدولة، فلم تُعد في عهد عبد المجيد (5) مثلاً خلافة إسلامية، ترعى حقوق المسلمين، بقدر ما هي دولة تركية راعية لمصالحها.

وفي كتابه رُدُّ الشُّرُودِ إلى الحوض المورود، الذي كان يؤلّفه عام (1286هـ/ 1869م)، يروي القطب قصّة طويلة، نقلا عن أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (6) -وهو من أواخر المؤرخين

بالأندلس- في ذكر ما وقع له بمدينة غرناطة مع القسيس الكبير، في شأن قراءة الرّق، الذي وُجد في صومعة «ثريانة» وهذا عام (969هـ/1562م)، فمما نقل القطب عنه قوله: «وأيضاً كان في الجفر (7) مكتوب، يقول: من أقصى المغرب على ماء البحر، يأتي سريعا أقوام إلى بلاد النصارى، وتصل الهملى إلى رومة، وذكر مما ينزل بالنصارى من الشرّ والخسران.. شيئا كثيرا، وعلاوة ذلك أن يملك الشرقي مدينة البحر بلا محال، ولم يشك أحد ممن سمع ذلك؛ أن الشرقي هو سلطان المشرق، وأنه سلطان الترك -نصره الله-... وذلك الرّق القديم كان من زمان سيدنا عيسى -عليه السلام- أو قريب منه جداً؛ لأن سسليوة الذي كتبه ووضعه في الصومعة خوفاً من سلطان نيرون كما قال هو فيه، لأنه كان يقتل النصارى...» (8).

هذه الرواية التي رواها القطب، حملت طابع النبوة، وتكشف للنصارى بعض (المغيبات) التي قد لا تسرهم، وقد أوردها القطب في سياق ذكر «ججج رسالته -صلى الله عليه وسلم- من كتب الله تعالى والأخبار الصادقة».. تفيدنا أن القطب ينظر إلى سلطان الترك، بهذا المنظار الروائي، الذي دونه نصره الله وظهور أهل الإسلام على أهل الملل الأخرى.

وفي تصوّر امتداد هذا السلطان؛ ينقل القطب عن الوردجاني حديثه عن الأقطار، التي فتحها الله تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم-، فذكر جلّها ثم قال: «وبعد الخمس مائة من الهجرة، فتح الله عليه بلاد السّودان إلى الجزائر الخالدات.. فهو ملك الأرض، فهو ملك الأرض، من فرغانة إلى غانة»، فعقب القطب عليه بقوله: «قال المؤلف قلت: بل المغرب كله.. من الإسكندرية إلى الجزائر الخالدات في البحر المحيط، المقابلات لمراكش، ولم يذكر من وراء البحر إلى البرّ الطويل شيئاً، مما يخرج إليه من مضيق الأندلس، وقد امتدت مملكة الترك في الإسلام، في البرّ الطويل من البحر إلى نحو ما يقابل مالطة، ودخل الإسلام مالطة أيضاً، وجزيرة صقلية وجزائر صغار بين ذلك وبين الأندلس...» (9).

محل الشاهد في هذه النقول، هي في هذه الروح المحيية لامتداد سلطان الإسلام، مع ملاحظة أن الوردجاني (10) توفي قبل منشأ ما يُسمّى القطب بـ «مملكة الترك»، ولكنه عقب كما لو أن الوردجاني تغافل عن مزيد من أراضي الإسلام..

وفي كتابه الإمكان فيما يجوز أن يكون أو كان، الذي كان يؤلّفه عام (1302هـ/1885م)، وفي سياق حديثه عن دولة الحفصيين وأمرائها، بمناسبة ذكر أن نسب جدّه يتصل بالحفصيين، فهو من ذرية عمر بن الخطاب الحفصي؛ نجده يقول: «... وانقضت دولة الحفصيين بتونس، فكانت بأيدي الترك المسلمين إلى هذه الأعوام، ولكن لا تصفو لهم، وفي أوائل المائة الرابعة بعد الألف أخذها الفرنسيين...»، ثم عرّف بهذه المملكة التي كان قد التقى في موسم للحج ببعض أربابها -كما سيأتي- بقوله: «وتسمّى مملكة الترك في الإسلام العثمانية، نسبة إلى عثمان بن

أرضغول بن سليمان شاه، وسليمان هذا هو الذي أخذ تونس من أيدي الحسن المذكور ومن معه من النصارى(11)، فانقضت دولة الحفصيين من تونس...»؛ فإذا ثمة ما يربط القطب بالدولة العثمانية الإسلامية، التي أنقذت تونس بلاد الحفصيين -الذين يتصل بنسبهم- في آخر أيامهم(12)، من برائث النصارى الإسبان، حلفاء الأمير الحسن بن محمد بن الحسن بن مسعود، وأبقتها على صلة بالمسلمين، وهذا إلى ما قبل الوجود الفرنسي، في أوائل المائة الرابعة بعد الألف الهجرية، كما أشار القطب، وبالضبط في سنة (1881م/1299هـ).

وكان مما نقله القطب تعريفاً بآل عثمان -نقلاً عن ابن أبي دينار-.. قوله: «وتولى بعد ذلك السلطان مراد بن أورخان بن عثمان، وهو أول من اتخذ الممالك وسمّاهم يكشيرة، ومعناه العسكر الجديد» وأيضاً نقلاً عن الرواية الشفوية قوله: «وسمعت ممن دخل الجزائر من بني ميزاب الذين أدركوا دولة الترك فيها، أن فيها داراً تسمى دار يكشيرة أو قريباً من هذا اللفظ»، ثم ينقد ابن أبي دينار بقول: «وابن أبي دينار يُسمي قسنطينة المغرب قسطنطينة، بالميم قبل الطاء، ولا يصح ذلك عندي، بل نسبت إلى اسم قسطنطين، ملكها قبل الإسلام بانيها، ويوجد في بعض سكة النصارى قسطنطينة، كالتى في بر إسلام بول؛ إذ يقال قسطنطينة»(13).

في هذه النصوص يحاول القطب تعريف قرائه بهذه الدولة، وبعض شخصياتها المؤسسة، وبعض ما يتعلق بمؤسساتها العسكرية، مع محاولة التدقيق والضبط في بعض المسميات التي لها علاقة بهذه الدولة، وهذه اللوحة التعريفية كانت بمناسبة إبراز الصلة بين الحفصيين والدولة العثمانية، وإلا ففي كتاب ابن أبي دينار «المونس في أخبار إفريقية وتونس» عرض لتاريخ هذه الدولة إلى حدود سنة (1092هـ/1681م) تاريخ تأليف هذا الكتاب، ولا ريب أن القطب قد اطلع على ذلك كله.

وفي كتابه الرسالة المختصرة(14)، التي ألّفت بعد رد الشُّرود، نقرأ قوله: «ودخل الفرنسيين الجزائر عام ستة وأربعين ومائتين وألف، في شهر يولييه، وكانت في أيدي الترك قبل ذلك، [من] القرن العاشر، وحين تملكها الترك، كان الميزابيون يقصدونها للاكتساب» (15)، وفي هذا إشارة لتلك العلاقة التاريخية المعروفة، التي شملت يوماً الجانب العسكري والاقتصادي والاجتماعي، وهي بحاجة إلى دراسة مستقلة.

ربما هذه أهم النصوص التي تحدّث فيها القطب عن الدولة العثمانية، سواء من الناحية العسكرية وبعض انتصاراتها في ذلك، أو من الناحية الجغرافية وامتداد سلطانتها، وبعض ما يتعلّق بذلك كله، ونعدّ ذلك بعضاً مما تسلّل إليه عنها، وهو في تلك الحاضرة الصحراوية، في المغرب الأوسط من أرض الجزائر. فماذا عن تواصله الثقافي والسياسي، مع بعض أعلام هذه الدولة من علماء وسلاطين؟

لعل أول تواصل ثقافي مؤرخ للقطب مع الدولة العثمانية وما يصدر منها، كان في حدود سنة (1283هـ/1866م)، تاريخ حلّه للغز ورد إليه، وهو في الأربعين من عمره، بعد نشره في الجورنال (16) -على حد قوله-، ولعل الزخم الذي صاحبه جعل القطب يقبل على حلّه؛ مُراعياً اشتياق بعض الناس لذلك، وكذا الجهة التي صدر عنها؛ ولترك القطب يتحدث عنه بنفسه، فيقول: «إن لغزا ورد إلي من بحر الرّوم، يريد أهله شرح ما انطوى عليه من العلوم، وشاع في جزيرة الأندلس وسائر بلاد الغرب، وعجز عن حلّه علماء العجم والعرب، وورد إلي اشتياق أهل مكة إليه، قائلين بلسان الحال، كل من حلّه من المسلمين، فكلّ تحية إسلامية عليه، وأصله فيما أظن من الرّوم المسلمين من أهل قسطنطينية، أو من بلاد الشام خصوصا الأعمال الدمشقية، ورد في الجورنال وعجز عن حلّه الناس، وفتح الله لي ببركة سلفنا...» (17).

والروم تسمية يُطلقها القطب على كل من كان خلف البحر الأبيض المتوسط، وهنا يتعلّق الأمر بالروم المسلمين الأتراك من أهل قسطنطينية، وربما قرينة ذلك عنده وُزوده في (الجورنال)، الذي يصدر عادة من تلك الجهة، وهذا ما يدفع القطب إلى الاهتمام، رغبة في التواصل.. لكن ما يدفعه -في تقديرنا- إلى الاهتمام أكثر به والتحدّي بحلّه، هو ذلك الوصف الذي صاحبه، من عجز علماء العجم والعرب عن حلّه، فلماذا لا يُعَلّي من شأن الإسلام وأهله، فيُمثّل المسلمين في هذه المسابقة المفتوحة، وهو المعروف بحساسيته تجاه الآخر في مثل هذه المواقف.

مهما يكن من أمر.. فقد أقدم على حلّ ذلك اللغز ونجح في حلّه، وأطال في شرحه ووجوهه؛ إذ الحل العبقري لا يكمن في ذكر الحل العام، بقدر ما يتجلى في إيجاد مخارج لجميع فقرات اللغز، ولقد عُرف اللغز بـ «لغز الماء» (18)، وقيل إن الجواب وصل إلى الباب العالي، وتلقّى القطب تكريم السلطان عبد الحميد، إذ أرسل إليه نيشانا (19)، ولا دليل على ذلك؛ لأن حلّ اللغز وتدوينه كان قبل تولي السلطان عبد الحميد مقاليد الخلافة العثمانية (1292هـ/1876م) بتسع سنين تقريبا، وأيضا نلاحظ أن القطب وظّف عبارة «الروم المسلمين الأتراك من أهل قسطنطينية»، وربما هي التسمية الشائعة لهذه الدولة، قبل أن يصبغ عليها السلطان عبد الحميد الثاني بإصلاحاته، التسميات الأصلية من نحو «الخلافة الإسلامية» أو «الخلافة العثمانية» أو «خليفة المسلمين» بالنسبة للسلطان، وكسب بذلك عطف الرعايا المسلمين في الأقطار (20)، وثمة احتمال أن يتأخّر التكريم إلى زمن السلطان عبد الحميد، فيكون تكريمه للقطب، نظرا لجهوده في التأليف والتعليم عموما، لا لمجرد حلّه لذلك اللغز، وذكر بعضهم أن السلطان أرفق تكريمه برسالة شكر على حلّه للغز (21)، لكن لم نطلع عليها، وربما فيها ما يكشف سبب التكريم.

وأيا كان سبب التكريم؛ فإن القطب قد افتخر به، ومن ذلك قوله مخاطبا العقبي في ردّه

عليه: «وإن لم تعرف الإباضية فهُم قوم المؤلف لهذه الورقات امحمد بن الحاج يوسف اطفيش، الذي جاءه نيشان من السلطان الكبير سلطان اسطنبول صاحب القسطنطينية...» (22).

لا جدال في أن الدولة العثمانية إلى عهد القطب، لا يزال نفوذها منبسطا على كثير من الأقطار الإسلامية، ولا سيما بعد فكرة «الجامعة الإسلامية»، التي دعا إليها السلطان عبد الحميد (سيأتي الحديث عنه -بمشيئة الله- في علاقته بالقطب)، ومن هذا الاعتبار يمكن أن نعدّ كل عالم في هذه الأقطار عثمانيا، تحت راية هذه الدولة، لكن سنقتصر هنا على من ينتسب إلى هذه العاصمة الإسلامية «إستانبول» وما حولها، أي تركيا حاليا، وأيضا على من كان ينشط فيها نشاطا علميا أو سياسيا.. بشرط علاقته بالقطب -طبعاً-.

لعل أول لقاء عُرف للقطب بأحد أبواب هذه الدولة، كان في رحلته الحجازية الثانية (1290هـ/ 1874م) تقريبا (23)، فقد التقى بلقيف من أهل العلم وألقى دروسا في حضرته (24)، وممن تعرّف إليهم العالم التركي الشيخ محمد حقّي بن علي بن إبراهيم التركي الحنفي، فقد ذكر القطب في الذخر الأسنى من الأسماء الحسنی لُقياه به، فقال: «والنقيت معه في مكة عام ألف ومائتين وتسعين تقريبا، وكان يُحبّني ويقبل يدي ويخدمني، حتى قام عليه الناس وتبهوه على أنني لست من الأشعرية، فترك ذلك خوفا منهم، مع بقاء رغبته في، وهو رجل له تأليف وورع وحب في الإسلام»، وفي موضع آخر يقول عنه: «إذ خدمني في المسجد الحرام حتى حسدني أهل مكة، وقد عرف أنني إباضي، وطلبتني أن أعطيه الحكمة في علم الجدول» (25).

فإذن ثمة تواصل إخواني حميمي بين القطب وهذا العالم المتصوّف التركي، وصل حدّ تقديم خدمات، بشكل مُلفت لأنظار أهل الحرم، والقطب لم يُعدنا كثيرا، عمّا جرى في هذه اللقيا من حوارات، لكن إشارته إلى حبّ هذا الشيخ له، وبقاء رغبته في التواصل معه، وتعرّف الشيخ محمد حقّي على مذهب القطب وهكذا العكس، ثم معرفة القطب أنه صاحب تأليف وورع وحبّ في الإسلام.. ثم طلب الشيخ محمد حقّي من القطب أن يعطيه الحكمة في (علم الجدول).. كل ذلك لا يمكن أن يمرّ دون السؤال عن أحوال الدولة العثمانية وسلطانها، وما ينبغي لها وما ينبغي تجاهها.

والحق أن القطب استرجع بعض ذكريات هذه اللقيا، بعد أن وصله كتاب لهذا الشيخ، هو «مفرع الخلايق منبع الحقائق»؛ إذ استفاد منه لبعض ما كان يكتبه عن أسماء الله الحسنی، ومنها اسمه البديع، واستطرد فذكر «البدعة»، التي بمعنى ما أحدث في الإسلام مما يقوم به الحق، وذكر من ذلك طباعة الكتب بالقالب (الطبع الحجري)، وأنها أحدثت في دار الإسلام، سنة (1138هـ/ 1726م)، وكيف أن علماء إسلام بول اختلقوا حولها، واتفقوا على جوازها بعد طول مشاورة، ثم أفتى بذلك قاضي القضاة، على عهد السلطان أحمد الغازي (26)، ثم ذكر فوائد

الطبعة تلخيصاً مما ذكره الشيخ محمد حقي في منبع الحقائق (27)، فقال: «وذكر من فوائد الكتابة بالطبع سرعة حصول العوام والخواص إلى ما يحتاجون إليه، وانتشار الكتب في بلاد الإسلام وغيرها لتقوية الدين، وتصحيحها بالمصحح الكامل مع عدم مسح مدادها، حتى لا يحتاج الإنسان إلى تعدد النسخ، وتحصيل آلاف كتاب في مدة يسيرة، حتى يحصل منها الغني والفقر والعاجز، وبيان برنامج الكتاب [يقصد الفهرس]، حتى يتعرف الطالب كل مسألة في محلها، ورخص الثمن...» (28).

في هذا النقل نلمح جانباً من تأثير الدولة العثمانية على العالم الإسلامي، سواء ما تحدثه مما تتلقفه من الأمم الحية، من وسائل حديثة مبتكرة، أو ما يتواضع عليه علماءها من فتاوى، وما ينشرونه في كتبهم بعد ذلك، والشيخ محمد حقي صاحب القطب، يعدّ حلقة في هذا التواصل العلمي المنتج.

كما اتصل القطب بالدولة العثمانية ثقافياً وسياسياً، وهذا في شأن لغز أظهره الشيخ أحمد مختار التركي، من أهل القرن الثاني عشر الهجري (29)، بعد أن أعيد نشره -فيما يبدو- في جريدة «الجواب»، في عدد 630، 27 محرم 1290هـ / 1874م (30)، فاطلع عليه القطب أو أطلع عليه، ومما جاء في نصّه بداية «يا ذوي الفضل والأفضال ما كلمة هي حروف وأسماء وأفعال...» (31) إلخ، استطاع القطب أن يجد له حلاً مفصلاً، راسل به صاحب الجريدة (32) الأستاذ أحمد فارس الشدياق اللغوي اللبناني (33)، ولا ندري إن كان قد وصل إليه أو إلى جريدته.. أم لا؟ ثم كيف كان الردّ على ذلك؟

لكن ما يهمنا في جواب القطب على هذا اللغز، هو أنه لم يكنف بالجواب وشرحه وتوضيحه، بل اغتم الفرصة ليوّجه نصيحة من خلاله للدولة العثمانية، وما ينبغي أن تكون عليه من القوة، في زمان تكالبت فيه الأعداء على أراضي المسلمين، والملاحظ أنه ابتداءً بالنصيحة والدعاء لهذه الدولة، وختم مكرراً النص، ومستتهضاً لحماية «بر الإسلام خصوصاً الحجاز»، بل صرح أن إجابته على اللغز ليس إلا وسيلة للاتصال على هذا النحو، فقال آخر اللغز: «هذا والله أعلم ما ظهر لي ولا أعلم الغيب ولا أدعي الإحاطة بالعلم، ولكن قصدت الاتصال بكم...» (34) إلخ.

واللافت للنظر أن القطب شدّد في خطابه إلى الدولة العثمانية على الجانب العسكري، وكأنني به يخشى زحف الاستعمار على بقية أراضي المسلمين، بعد الأنباء التي قد يكون تلقاها في حجتّه الثانية عن حال الدولة، فنجدّه يقول: «... هذا الزمان، إلى جلب الناس بالعطايا، وتكثير العساكر، والمحافظة على أرزاقهم وتكثيرها، وتدريبهم على أمور الحرب وحيلها، حفظاً لبر الترك الإسلامي والحجاز وسائر بلاد الإسلام غرباً وشرقاً، أحوج منه إلى الاشتغال بالألغاز» (35)، وفي كلامه هذا إشارة إلى ثلاث قضايا استراتيجية، بها تقوم الدولة وتنهض.. فلا بد من الاعتناء بها،

فأولا، تنظيم تحالفات مع الآخر (الناس)، ولو بتقديم بعض (العطايا) والامتيازات، كسباً لودّهم ودرّاً لشُرهم، وثانيا، الاهتمام بالجانب الاجتماعي، وهذا يتجلى في المحافظة على أرزاق الناس، وإعانتهم على تنميتها، وثالثا، الاهتمام بالشأن العسكري، بتقوية المؤسسة العسكرية، وذلك بتكثير الجند وتدريبهم أحسن تدريب، فلا بد -إذن- من العمل على كسب الجبهة الخارجية وتنمية الجبهة الداخلية، وتقوية الجبهة العسكرية لأي طارئ، ونلاحظ أنه ذكر تلك المناطق التي لا تزال تنعم بالاستقلال كبرّ الترك الإسلامي والحجاز، ثم ثلث بسائر البلاد الإسلامية غربا وشرقا، ومُعظمها كان يروح تحت الاستعمار الأوروبي أو يخضع لنفوذه، فكيف مع هذه المهمة الكبرى، يُشغل المسلمون بفكّ الألغاز؟!

هذا ما كان من خطاب القطب قبل أن يشرع في حلّ اللغز، لكن لما كشف عن حلّه، رجع مرّة أخرى إلى خطاب الدولة العثمانية من خلاله، وهذه المرّة أعرب أكثر عن مخاوفه، واستنهض الدولة بما ذكرها به من أحوال أجدادهم؛ أملا ليس في المحافظة على باقي الأراضي فحسب، بل في السعي إلى ردّ ما اغتصب منها، فيقول مُذكّرا بأسباب اتّصاله، عن طريق حلّ اللغز: «ولكن قصدتُ الاتصال بكم، لعلّ الله يرحمكم بأن يوقظكم لطرح ما لا يعني، ولتقليل الشهوات والبطالات، وللاشتغال بالمحافظة على برّ الإسلام خصوصا الحجاز، واسترداد ما أخذ الكفرة من البلاد.. لما طغت كفرة الأندلس وأخذوا من عُدوتنا وهران وتلمسان وغيرها، صرفت أجدادكم العناية لذلك فردّوهما وغيرهما...»⁽³⁶⁾، فثمة خوف على سلب أراضي الحجاز، موطن التقاء المسلمين كل عام، أو بسط الأجنبي نفوذه عليها، وسنرى تكرّر هذا الهاجس في مسألة مدّ خط سكة الحديد، وثمة أيضا منحى جهادي واضح في الخطاب، لا يرى الحلّ إلا في تكرار تجربة الآباء مع المستعمر الغاشم!

وحيث إن موقع القطب لا يسمح بغير هذا التذكير والاستنهاض؛ نراه يشير إلى أمر مُهمّ جدّا، وهو أنه بعد اتخاذ الأسباب، طلب العون والمدد من ربّ الأسباب، فيقول: «نسأل الله نصر الدولة العثمانية بنبيّه محمد ﷺ ونرى الدعاء بذلك واجبا، ومعالجة ما يجاب الدعاء به في ذلك أمرا لازما...»³⁷، فثمة دعاء وتضرّع إلى الله، لكن أيضا مع معالجة ما يُجاب به الدعاء، وكل ذلك لا يخرج عن الوجوب واللزوم، فهل الرّسالة وصلت؟!

وتستوقفنا -أخيرا- عبارة القطب «وهذا الزمان أحوج إلى الورع والسيوف منه إلى الاعتناء بالنظم والتأليف»³⁸، فلا يكون النظم والتأليف إلا بمقدار الحاجة (أحوج)، فلا بد من (الورع)، وهي كلمة شاملة لكل وقوف دون محارم الله وما يُسخطه، ولا بد من (السيوف)، في إشارة إلى القوة العسكرية، وما به قيام الدولة الإسلامية، وربما كان قد استقر على هذه الخلاصة بعد عودته من حجّته الثانية، بعد أن تلقّى -عن قرب- أنباء الدولة العثمانية وأحوالها وما حولها.

ولئن صح أن هذا الغز حُلّ بعد رجوع القطب من حجّته الثانية كما يُفترض؛ فإن ذلك يعني أنه يُشايح بكلماته تلك وعباراته.. مجيء عصر السلطان عبد الحميد (39)، الذي حاول بخطته الإصلاحية، إرجاع الدولة إلى بعض هيئتها، والحد من النفوذ الأجنبي، الذي تمكّن بعض الشيء من أوصالها، حتى إنه قلّل من نفوذ من حوله، من ذوي المشاريع القومية والتغريب، وقلّص من صلاحياتهم، وأنهم لأجل ذلك بالاستبداد.. هذا ما كان من القطب من تواصل ثقافي سياسي، قبل بزوغ عهد هذا السلطان، الذي أيّده ودعا له، وربما لمس أثر إصلاحاته، وتلقّى بعضاً من أخباره في حجّته الثانية.

لعل أوّل رسالة من القطب مخاطباً بها السلطان عبد الحميد، كانت في حدود سنة (1318هـ/1900م)، في شأن تلميذه سليمان الباروني، الذي جاء إلى واد مُزاب في سنة (1313هـ/1895م)، ومكث في معهد القطب ثلاث سنوات، فاعتنى بشأنه واجتهد في إرشاده، ولما أذن له في الرحيل سنة (1316هـ/1898م) بعد طول طلب، وشايحه مسافة إلى سفره، وزوّده بالنصيحة والدعاء.. قصد مدينة تيهرت؛ ليقف على ما بقي من طلبها الدارس، ويسترجع الذكري، ثم ولّى شطره ثانية، نحو بلده في جبل نفوسة، لكن قبل أن يصله ترصّدته يد السياسة، وأنهم بما اتهم به، وربما الأمر كما عبّر «أوهام في أوهام، وأفكار كأضغاث أحلام، وجبل ومراصد، يُتوصّل بها إلى خبيث المقاصد» (40)، فكان مصيره السّجن مباشرة.

ولما بلغ نبأ اعتقاله إلى قطب الأيمة، كتب رسالة في طلب العفو، إلى السلطان عبد الحميد في الآستانة، وفي تقديري أن كتابتها كانت في العام الأول من دخول الباروني سجنه الثاني (41)، سنة (1318هـ/1900م)، وهي السنة ذاتها، التي زار فيها سليمان بن ناصر مُزاب، وقد ورد ذكره في الرسالة.. وقبل أن يدخل عامه الثاني في الإقامة الجبرية، داخل أسوار المدينة وبكفالة، وقبل مجيء العفو السلطاني من السلطان عبد الحميد سنة (1320هـ/1902م).

المصادر تشير إلى أن الحكم على الباروني، كان بادئ الأمر هو التّقي ولخمس سنوات بأرض «برود» أو «بقان»، وهذا أثار القبائل والعشائر وهدّدت بالتمرد والحركة، فاضطرت نيابة استانبول العامة إلى إعادة النظر في الحكم، فكان إبقاؤه مدة سنة، يقضيها مع المحكوم عليهم بالنفي، ثم أطلق سراحه وأفرج عنه بكفالة؛ شرط أن لا تتعدّى تحركاته أسوار المدينة ويُراقب أيضاً، وجاء طلب العفو من الوفد المكلف بالذهاب إلى دار الخلافة لأجل تقديم الولاء للسلطان، والتباحث في شؤون ولاية طرابلس، مُستغلاً وجوده قُرب الخليفة.. (42). ويبدو أن رسالة القطب كانت مُسهمة لحركة هذا الوفد ومؤيّدة له، وربما من غير تخطيط؛ فكان العفو من السلطان عبد الحميد سنة (1320هـ/1902م) (43). فماذا في الرسالة، وكيف عبّرت عن شخصية القطب؟

أول ما يستوقفنا في نص الرسالة بعد السلام، تعريف القطب بنفسه بكل أريحية وعزة نفس، وهذه المرة مع تحديد مكان وجوده بكل دقة، «من امحمد بن يوسف اطفيش، ذي السهام التي لا تطيش، من بلد يسجن، الجارة لغارداية، من أعمال الجزائر، التي هي في قرأها غاية...»، فهو يؤسس في هذا التواصل الأولي لعلاقة دائمة، بقدر ما يدفع بالملف إلى الاهتمام به، ثم يلتفت إلى السلطان بما يعلي من شأنه ومكانته، دون الغفلة عن تذكيره بلقبه الحقيقي، وما ينبغي أن يضطلع عليه، مع إبداء التأييد لمسيرته بالدعاء له بالعز، وعلى أعدائه بالذل والخزي.. فقال: «أعز الله روح وحسم ذي المرتبة العليا، سلطان سلاطين أقاليم الدنيا، بل الخليفة عبد الحميد خان، من السلاطين بالنسبة إليه دحان، ذي القلم والسنان، والعلم والعنان، أبقاء الحي القيوم ذي الجلال والإكرام في عز، وأعداءه في ذل وخزي وسي وبز...».

ثم يُعرج ثانية على التعريف بنفسه، قبل أن يُعرب عن مطلبه، فقال: «فمطلوب كاتبه المغربي، الذي له عندك عهد -من قبل أن يأتيك الأمير سليمان بن ناصر ومن بعد(44)-.. في الدعاء لكم بالنصر، من حين عرف يمينه من شماله، المولع بالتعصب لأهل الإسلام وعُماله...» فهو يدعو للخليفة -أيًا كان- بالنصر دائما وأبدا.. مُتعهداً ذلك، منذ فهم معاني النصر؛ لأنه متعصب لأهل الإسلام، ومن يحمل رايته.. فالقطب ذكر السلطان، بصلته بالأمر سليمان بن ناصر، لكن قبل ذلك وبعده، بعلاقة المسلم مع خليفة المسلمين، وما ينبغي عليه نحوه.

وكأنني بالسلطان عبد الحميد، بعد اطلاعه على ما سبق.. يقول: فما المطلب يا سيدي؟ فيجيب القطب: «أن تطلق من سجن طرابلس الغرب، شاباً صغير السن، عالم ابن عالم، مشهوراً في البعد والقرب، اسمه سليمان بن عبد الله، بُهِت بما لم يفعل، وجُعِل حيث لا يُجعل، وما علمنا منه ضيرا، بل ما علمنا فيه إلا خيرا... وقد قرأ علوم العربية عندنا في المغرب، مع علم الكلام، وأقرأناه الفروع، ورشحناه لأن يكون لكم طودا ومن الأعلام» فماذا بقي بعد شهادة الشيخ على تلميذه وتعريفه به، فمهما كانت الدعوى ضده، فثمة -بالضرورة- سوء فهم أو سوء تقدير، ولا سيما مع تأييد الشيخ المُربي لمسيرة الخليفة، بل وترشيح تلميذه، لأن يكون من أركان الدولة وأعلامها.. وصدقت فراسة الشيخ، وهو ما تحقق -فعلا- من بعد(45).

وإذا كان القطب يدعو لخليفة المسلمين، بالنصر والتأييد أبدا، فهو أيضا يعد بالخير العاجل له، -شأن الموقن بالله-؛ إذا ما سار في قضاء حاجته؛ «فإن فعلت ظهر لك الخير عاجلا بإذن الله، والنصر نقدا، والمثوبة آجلا»، وثمة احتمال بعيد قد يتعثر فيه السلطان، لكن لابد من ذكره واستثماره، «ولا تعدني ضعيفا من جملة ضعفاكم، وإن عددتني، فاعتبر قول من أنت خليفته: إنما تصرون بضعفاكم...»(46).

هذه هي فقرات تلك الرسالة، التي حملت صبغة روحية واضحة، بعيدا عن التواءات

السياسة والمصالح، مناسبة لمقام الشيخ في الأمة ومكانته، فتلك في -تصوّري- قمة السياسة في مثل هذا المقام.. بقي أن أشير أن هذه الرسالة هي السابعة من القطب إلى السلطان عبد الحميد، ويبدو أن الواسطة هذه المرة هو الأمير سليمان بن ناصر، كما يمكن أن نفهم من إشارة الرسالة.

والرسالة الثانية للقطب إلى السلطان عبد الحميد أو -الأخرى- الشغل الثاني الذي كتبه إليه، كان في شأن مدّ خط سكة حديد الحجاز، وهو خط يربط ما بين الشام والأراضي المقدسة، وتحديدًا بين دمشق والمدينة المنورة، ويبدو أن خبر المشروع، وصل آذان القطب، بعد تلك الحملة التي صاحبتها في الأقطار الإسلامية، بغية جمع المال لإنجازه(47)، فلم يفوّت الفرصة دون إبداء رأيه في المشروع، من الناحية الأمنية الإستراتيجية، التي يبدو أنها أفلقت بعض الشيء، فكان أن راسل السلطان عبد الحميد، في حدود سنة (1319هـ/1901م)، أي بعد انطلاق المشروع(48).. مُوجِّهاً وناصحاً، في قضية تمسّ أمن الدولة، ويدي في القطب كامل المعارضة، تبعاً لقراءته، فما الذي أقلقه، وكيف كتب رسالته؟

الرسالة تنضح بمشاعر التوجيه والتّصحّ لخليفة المسلمين، بعد الإعلاء من شأن السلطان وتقديم الولاء له كدأبه «...فسلام على السلطان الإسلامي الأعظم، الذي له علينا أديار الصلوات الخمس، الدعاء بنصره.. عبد الحميد...»، إذن، فما يأتي إنما هو مبني على هذا الاعتبار للسلطان، ولا يخفى على القطب ما أقدم ويقدم عليه من إصلاحات؛ تحفظ على المسلمين دولتهم وهيبتهم.

والقطب لم يتحدّث عن خط سكة الحديد مباشرة؛ وإنما عمد إلى مسألة فقهية، هي أقرب إلى تخصّصه واستفتح بها، وربما في ذلك -إلى جانب إبداء الرغبة في التّصحّ والتوجيه- الإعراب عن الموقع الاجتماعي الذي يصدر عنه، من كونه مُفْتِيًا مُهْتَمًّا بشؤون الأمة، وتزعجه مظاهر الابتذال والتعدي على حدود الشرع، فعلى هذا يُرَبِّي أتباعه ومريديه؛ لذا كان خطابه باسم المسلمين المتمسّكين بالدين «يسأل الله العزيز القادر بقيّة المتمسّكين بدين الإسلام في المشرق والمغرب»، فهذه الصيغة بقدر ما هي باسم أمة قائمة، هي أيضاً مسألة لا ينبغي التهاون في شأنها، وسؤال الله العزيز القادر منهم لـ «أن يُوفّقك أن تنهى أهل مصر عن إعراء الحجاج للتّخير» (49)، وهي عادة يبدو أن بعض أهل مصر تلبّسوا بها، ومن وظيفة الخليفة تقويم هذه العادات السيئة، المجافية لروح الشرع، ولقد أيّد القطب نهيه عن ذلك بالدليل الشرعي، مع التّبيه إلى الحلّ والمخرج فقال: «فقد جاء عن رسول ﷺ أنه {يموت الرّجل ولا يعرّى}، وإذا كان لا يجد الإنسان الحجّ إلا بإعراء عورته، سقط عنه الحجّ؛ إن لم يجد مالا أو جاها، يدفع به عن نفسه الإعراء» فهو نهى توجيهي، يحمل صبغة الفتوى، ولا يغفل القطب عن تحميل الخليفة المسؤولية

بطريقة لبقه، تُدَّكره بمعبة الله ونصرته «فيسألك الله -عز وجل- عن ذلك -زادك الله نصرا».

وحيث مهَّد القطب بذلك، ثنَّى على مسألتنا مدَّ خط سكة الحديد، التي يبدو أنها شغلته كثيرا وأقلقته، وهذا بحسب ما وظَّفه من أساليب الترغيب والترهيب، والقطب أيضا لا يُعرب فيها عن رأيه فقط، بل خاطب بقوله: «ويسألك بقية المسلمين في المشرق والمغرب، إبطال طريق الجزائر ومركب النار (50)، وترك تمهيد.. الله الله في ذلك»، شأن من أيقن من خطر مُحْدق، ولا سيما مع الضعف الذي سرى في المجتمع الإسلامي؛ مما سهَّل على الآخر سُبُل التحكُّم في آلياته ووسائله..

والسؤال: لماذا يا سيدي القطب؟ الجواب: «إن تمهيد الطريق بمركب الجزائر أو مركب النار، تسهيل لدخول المنكر الملحِد إقليم المدينة، بل حريم المدينة، بل المدينة ومسجدها.. الله الله في ذلك!» والمدينة هنا المدينة المنورة، موئل المسلمين، وثاني الحرمين، فهذا هو الهاجس المقلق، مع تزايد الأطماع وزحف المستعمر على أراضي الإسلام، ولا سيما مع احتضار الخلافة وتربُّص الأعداء بها، ونلاحظ أن القطب وظَّف لادِّعائه كلمات في منحى تصعيديٍّ «إقليم المدينة... حريم... مسجدها.. الله الله في ذلك»، فمن شأنه أن يُحرِّك غير الرجال، «ولا سيما أن ذلك إنما يُتصوَّر بأيدي المنكرين الملحدين؛ لأنهم أعرف بسياسة الطرق...» اعتراف بالتفوق، لكن لا ينبغي أن يُقابل بالغفلة!

ثم إن الأمر لا يتعلق بالخطر الديني الاستراتيجي فحسب، بل أضاف أيضا: «فإذا أدخلت الملحدين تلك البقاع أو بعضها فأَيَّ حظَّ لك يبقى في الإسلام، وأي شرَّ بقي لم تفعله في الإسلام... الله الله!» والتمهيد وتيسير السبل للأعداء في حكم إدخالهم وتمكينهم، «واعلم -وفقك الله- أن تمهيد الطريق المذكور، مما يرغب فيه المنكرون الملحِدون، ولو عرضت عليهم تمهيد من أموالهم لفعَلوا فرحين...» فهذا دليل على أنهم راغبون في المشروع مستبشرون به، فهو يخدم مصالحهم المستقبلية المحتملة، وربما دفعهم إليها، ومرة أخرى «ويسألك الله -عز وجل- عن ذلك التمهيد، وينتقم منك -عافاك الله الرحمن الرحيم- على ذلك التمهيد» تحميل للمسؤولية، وتذكير بالمنتقم، لكن مع رجاء ترك التمهيد، توفيقا من الرحمن الرحيم..

هذا هو القطب يتَّقد غيرَةً على حُرْم المسلمين وحُرْماتهم.. مهما اختلف المختلفون معه في الرأي، والمطلَّع على خُطة السلطان عبد الحميد، يجد أنه قد اعتبر هذه المخاوف كلها، وعَمِل على اتِّقاء ما يمكن أن يتسلَّل منها، فمن ذلك أنه اعتمد على مهندسين مسلمين -قدر الإمكان-، وأنه استغنى عن الرأسمال الأجنبي وبنوكهم، واعتمد على أموال المسلمين وتبرعاتهم ونفقات سلاطينهم وأمرائهم.. (51)

ويبدو أن القطب كان على اطلاع على بيان المشروع، والدَّعاية التي أُقيمت له، بدليل قوله

«ولو عرضت عليهم تمهيده من أموالهم لفعلوا فرحين»، لكن ربما يقلقه الضعف الذي عليه المسلمون، وإمكانية استغلال الخط في توطيد الاستعمار، ولذلك خاطب السلطان بقوله: «ولا يسألك عن إفساد أهل البدو؛ إذا لم تقدر على إصلاح فسادهم بقهر ولا بإلانة»، أي إذا كان في مدّ هذا الخط، تأمين لحجاج بيت الله الحرام من خطر البدو وسطوتهم - كما يُمكن أن يتضمّن البيان-؛ فلست مسؤولاً عنهم -لو تركته- مع سعيك في كفّهم عن ذلك بأي وسيلة؛ لأن ثمة ما هو أخطر ممّا قد يأتي من بدو الحضر وهجمتهم، في أي لحظة مستقبلية؟

فمهما يكن من أمر فالقطب ختم رسالته بقوله: «وهذه نصيحة لا جدال، ولا قصد لسوء، أبقاك الله منصوراً في الإسلام، سالما في دينك وبدنك وعقلك، والصلاة والسلام على من ترجو أنت ونحن شفاعته وآله وصحبه»⁵²، فبذلك كان أنموذجا للعالم العامل، الذي لا يشغله التأليف والتدريس عن تقديم النصّح والتوجيه لسلطان المسلمين وخليفته، في ثوب التقدير والولاء..

ولا نملك في الحقيقة وثيقة تُثبت وصول هذه الرسالة إلى السلطان، ولا ماذا كان من جوابه وردّه، لكن ذكر بعضهم أن السلطان أجاب أنّه يريد أن ييسط الأمن في البلاد المقدسة، ويُوفّر الراحة للحجاج، وكيف أن جنوده لا تصل عند الإرسال إلا بشقّ الأنفس، ولا محيص من اعتماد هذه الوسيلة، أجابه القطب بقوله: «إن الله سبحانه وتعالى لا يكلفك فوق ما تستطيع، فإني أخاف أن تكون في ذلك نوايا سيئة من الدول النصرانية للدخول بطريقة هذا المشروع إلى البلاد المقدسة، فإذا وجد من أبناء المسلمين من يستطيع أن يسير هذا القطار فلا أرى مانعا في ذلك»⁽⁵³⁾.

وبهذا يتبيّن أن القطب كان يتابع أنباء الدولة العثمانية، ويُدلي بدلوه في قضاياها، على غرار هذه الرسالة في مدّ خطّ سكة حديد الحجاز، وذلك جزء من اهتمامه بالأمة الإسلامية ونهضتها، ويرى أبو القاسم سعد الله أنّ «النهضة التي دعا إليها الشيخ اطفيش كانت تسير في اتجاه النهضة الإسلامية العامة، فقد عاصر حركة الجامعة الإسلامية، وكان يُحسن بها أكثر من علماء القطر الآخرين، ربما لأنه اطلع بنفسه على نشاط الحركة في حجتيه...»⁽⁵⁴⁾.

وفي الحقيقة لا نزال نجهل كل اتصالاته في هذا الاتجاه، والردود عليها.. بقي أن نشير -أخيرا- إلى رسالة علمية أجاب بها القطب الباب العالي في شأن المصحف، وقد عدّت ضمن المفقود من أعماله⁽⁵⁵⁾، فربما الأرشيف العثماني، يكشف عنها وعن باقي مراسلاته.. والله ولي التوفيق.

الهوامش:

- (1) التاريخ المثبت هنا لسنة ميلاده هو الصحيح، بدليل ما أثبتته القطب من عُمره وهو 17 سنة. في آخر الباب الأول من نظمه لـ «مغني اللبيب»، وكان ذلك في العام 1260هـ، وهذا النظم بخط المؤلف، اكتُشِف مؤخراً، ضمن أعمال فهرسة مكتبة القطب، يسجن، غرداية-الجزائر، تحت رمز: أ-م 6.
- (2) ينظر: امحمد بن يوسف اطفيش، هميان الزاد إلى دار المعاد (مخطوط)؛ مكتبة القطب، يسجن، غرداية-الجزائر، رمز: أ-ب 1-1 ج3 (الربع الثالث)، أيضاً: أ-ب 1-1 ج4 (الربع الرابع).
- (3) حرب القرم: في عهدة السلطان عبد المجيد الأول (1823-1861م)، هي إحدى الحروب التي قامت بين روسيا والسلطنة العثمانية، وكانت في 18 جمادى الثانية 1269هـ/ 28 مارس عام 1853 م، واستمرت حتى سنة 1856 م. دخلت فيها بريطانيا وفرنسا الحرب في سنة 1854 م إلى جانب الدولة العثمانية، التي كان قد أصابها الضعف، ثم لحقتها مملكة سردينيا (= مملكة إيطاليا، بعد 1861 م). وكان من أسبابها الأطماع الإقليمية لروسيا، على حساب الدولة العثمانية، ولا سيما في شبه جزيرة القرم، مسرح المعارك والمواجهات، وكذا الصراع المذهبي على امتيازات المسيحيين في البقاع المسيحية المقدسة بين روسيا من جهة وفرنسا وبريطانيا من جهة أخرى. انتهت في 24 رجب، 1272هـ/ 30 مارس 1856م بتوقيع اتفاقية باريس، وهزيمة الروس.. [ينظر: أحمد عبد الرحيم مصطفى، أصول التاريخ العثماني؛ دار الشروق، ط2- 1406هـ/ 1986م، حرب القرم والخط الهامبوني، 207 وما بعدها].
- (4) هميان الزاد إلى دار المعاد (مصدر سابق)؛ رمز: أ-ب 1-1 ج2، 472و.
- (5) السلطان عبد المجيد (1255-1277هـ/ 1839-1860م): والد السلطان عبد الحميد الثاني، اعتبر أول من أضفى على حركة التغريب صفة الرسمية، بما أصدر في عهده من قوانين وتنظيمات تخدم هذا الجانب، واتهم بإبعاد الشريعة الإسلامية، والخضوع لوزير رشيد باشا، الذي كان سبباً مباشراً في حملة التغريب التي مهدت للأجيال من بعده، حتى تمكنوا من السلطة في آخر أيام هذه الإمبراطورية.. [ينظر مثلاً: علي الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط؛ دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر، ط1-1421هـ/ 2001م، 374 وما بعدها، أيضاً: أصول التاريخ العثماني (مرجع سابق)؛ 201 وما بعدها] والمراجعان يقدمان نظرة مختلفة!
- (6) أحمد بن قاسم بن أحمد بن الفقيه قاسم، شهاب الدين ابن الشيخ الحجري الأندلسي (ت: بعد 1048هـ/ 1638م): باحث مترجم عن الإسبانية، أصله من إشبيلية، انتقل إليها من قرية الحجر (إحدى قرى غرناطة)، ثم هاجر إلى المغرب، بعد أن عكف سنين على درس الإسبانية، حتى ظن أنه إسباني، وتمكن بهذا من السفر إلى المغرب سنة 1007هـ، وأقام في مراكش إلى 1047هـ، فكان ترجماناً للسلطان زيدان بن أحمد المنصور السعدي، كما كان كاتبه باللغة الإسبانية، وحج سنة 1046هـ، وفي إيباه زار مصر، وصنّف كتاباً في مناظراته مع بعض علماء النصارى واليهود في أوروبا سمّاه «ناصر الدين على القوم الكافرين»، وترجم عن الإسبانية كتاب «العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع» وله أعمال ترجمة أخرى.. [ينظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط5-1980، 198/1]. وعرفه القطب بأنه «من الأندلس من أهل الحجر الأحمر، وهو آخر من خرج من الأندلس، وذكر من كتبه ذَوِ تَرْمِي، بهذا الضبط (لم يذكره صاحب الأعلام)، ومنه نقل بعض ما أورده عنه في رد الشرود إلى الحوض المورود؛ أ-

9، 10و، مثلاً. وكذا في الإمكان فيما جاز أن يكون أو كان؛ أ-ث 5، 30و، مثلاً. وكذا في الرسالة المختصرة؛ أ-ث 2، 8، مثلاً.

7) الجفّر من أولاد المعز ما بلغ أربعة أشهر، وجفّر جنباه اتسعا، وفُصل عن أمّه، والأنثى جفّرة [محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح؛ دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط1-1410هـ/ 1990م، 52/] وحسب السياق في هذا النقل فهو رق قديم، من زمان عيسى -عليه السلام-، كاتبه هو سسليوة، والله أعلم بحقيقته.

8) امحمد بن يوسف اطفيش، رد الشرود إلى الحوض المورود (مخطوط)؛ بخط المؤلف، مكتبة القطب، يسجن، غرداية، أ-و9، 34و.

9) المصدر السابق نفسه؛ 39ظ.

10) يوسف بن إبراهيم بن مناد السدراتي الوارجلاني أبو يعقوب: (و ~: 500هـ - 570هـ / 1105م - 1175م)، من أشهر أعلام المذهب الإباضي في المغرب الإسلامي، درس في مسقط رأسه، ثم رحل إلى الأندلس للاستزادة، ونىغ هناك حتى لقب بـ «الجاحظ»، له عدة مؤلفات، منها «الدليل والبرهان لأهل العقول» في أصول الدين وعلم الكلام، و«العدل والإنصاف في أصول الفقه والاختلاف» و«مرج البحرين» في علم المنطق.. وغيرها، وبعضها مفقود [ينظر: مجموعة من الأساتذة، معجم أعلام الإباضية من القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر -قسم المغرب الإسلامي-؛ دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2- 1420هـ/ 1990م، 481/2].

11) هذا سبق قلم من القطب -رحمه الله-؛ لأن الذي أخذ تونس من يد الحسن هو خير الدين التركي، وهذا في حدود 940هـ [ينظر: محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار، كتاب المونس في أخبار إفريقية وتونس؛ مطبعة الدولة التونسية، ط1- 1286هـ، 153].

12) ينظر: المصدر نفسه، 169 وما قبلها وما بعدها. اعتمدت النسخة نفسها التي اطلع عليها القطب، وفيها أثر مطالعة له بتدوين عبارة «قف» على الحواشي.

13) امحمد بن يوسف اطفيش، الإمكان فيما جاز أن يكون أو كان (مخطوط)؛ بخط المؤلف، مكتبة القطب، يسجن غرداية-الجزائر، أ-ث5، 11و-ظ.

14) أفضل هذه التسمية التي أشار إليها القطب في المقدمة، على «رسالة شافية في بعض التواريخ»، التي ظهرت في النسخة المطبوعة، من وضع بعض النساخ، والتي نُسخِت سنة 1299هـ، كما أفضلها أيضا على «الرسالة الموسّعة في تاريخ وادي ميزاب»، التي ظهرت في نسخة مصوّرة بمكتبة القطب، منقولة من النسخة الأصل في المكتبة، وهي من وضع بعض الناس.. فالرسالة لا تغطي تاريخ وادّ مزاب، فضلا أن تكون موسّعة أو شافية في ذلك، وإنما هي مختصرات في الاحتجاج لإثبات رسالة الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وفي منشأ وادّ مزاب وتسمية قُراه، ولمحات في تاريخ المذهب الإباضي ونشأته، وذكر بعض أعلامه على مرّ القرون، وذكر نسب الدين، وحتى لمحات من التاريخ الإسلامي والتاريخ العام، وكذا أبواب في التأريخ والأنساب، بل والطبيعة (باب في القوس الذي يكون طرفي النهار).. والمؤلف بدأ تأليف هذه الرسالة بعد 1286هـ، تاريخ تأليف رد الشرود إلى الحوض المورود، ومن حين لآخر، يضيف إليها بعض التقايد، ففي أثنائها يصادفنا تاريخ 1311هـ، كما يصادفنا تاريخ 1320هـ، ولا يبدو أن القطب أتم التأليف، بل كان عملا مفتوحا..

- 15) امحمد بن يوسف اطفيش، الرسالة المختصرة (مخطوط)؛ بخط المؤلف وغيره، مكتبة القطب- يسجن، غرداية- الجزائر، أ-ث 2، 173. من المعروف أن الوجود التركي العثماني في الجزائر، كان مع بداية العشرية الثالثة، من القرن العاشر الهجري، وبالضبط حوالي سنة 922هـ/ 1516 م، وبطلب من أهالي الجزائر، استنجادا من الخطر الإسباني على المدن الجزائرية.
- 16) لا نستبعد أن يكون هذا الجورنال، هو صحيفة «الجوانب» لصاحبها أحمد فارس الشدياق، التي كانت تصدر في الآستانة، وقد تأسست عام 1277هـ، وفيها ورد اللغز الآخر، الذي قام بحله القطب، وسيأتي الحديث عن ذلك.
- 17) امحمد بن يوسف اطفيش، شرح لغز الماء؛ ملتزم الطبع وناسخه أبو بكر بن الحاج قاسم القراري-الجزائر، أ-م 11، 3.
- 18) مما ورد في نص اللغز بداية: «ما تقول في شيء يطير بلا جناح ويبيض ويفرخ في البطاح رأسه في ذنبه وعينه في موضع قرنه، يسمع بأذن واحدة، ويبصر بعين زائدة...وهو موجود في كل زمان يمازجه الإيقاف ويتلى في سورة قاف...» [شرح لغز الماء؛ 4/]
- وعلى كل.. فنصّ اللغز ليس جديدا، بل لقد عُرف منذ القرن التاسع الهجري، وربما قبل ذلك، وحلّه العلامة المحدث المقرئ أحمد بن علي بن عبد القادر الشافعي (845هـ/1442م)، تحت عنوان: «الإشارة والإيماء لحل لغز الماء»، وذلك سنة 823هـ، وتوجد نسخة منه -على الأقل- في جامعة الملك سعود بالرياض، والمجال مفتوح للمقارنة.
- 19) ينظر: يوسف بن بكير الحاج سعيد، تاريخ بني مزاب دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية؛ المطبعة العربية- غرداية، ط2-1427هـ/ 2006م، / 180.
- 20) وهي الفترة العثمانية، التي أطلق عليها الأوروبيون اسم «الاستبداد الحميدي» نسبة إلى السلطان عبد الحميد.. [ينظر: أصول التاريخ العثماني (مرجع سابق)؛ 238 وما قبلها وما بعدها].
- 21) ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي؛ دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1- 1998، 270/.
- 22) الرد على العقبي (مصدر سابق)؛ أ-هـ 14/1، 6/.
- 23) ودليل وجود حجة للقطب قبل عام 1283هـ، ذكرته في «رسالة الشيخ أبي مسلم الزواحي الغماني إلى الشيخ اطفيش القطب الجزائري.. أنموذج التواصل الإخواني العلمي» ورقة مقدمة للملتقى العلمي الثامن، لوحدة الدراسات العثمانية «التواصل الحضاري العثماني المغربي في العصر الحديث» 13- 14 ذو القعدة 1433هـ/ 11- 12 تشرين الأول (أكتوبر) 2011م، 8/.
- 24) قال القطب في رده على العقبي: «وإن لم تعرف الإباضية، فقد عرفهم دحلان وحسي الله الشافعيان، الحاضر أحدهما في إقراني في المسجد الحرام، تأليف السنوسي في التوحيد بحواشيه وأبحاثه وشروحه لجماعة في أبهة عظيمة من أهل عمان ومضاب وأهل الجبل جبل نفوسة من أعمال طرابلس الغرب»، أيضا قوله: «ومنهم من يحضر مجلسي للإقراء في المسجد الحرام، كالشيخ حسي الله الشافعي حضر مجلسي في المسجد الحرام هو وغيره، من الأشاعرة ويكاتبوني وأجيهم...» [امحمد بن يوسف اطفيش، الرد على العقبي (مخطوط)؛ مكتبة القطب، يسجن، غرداية-الجزائر، رمز: أ-هـ 14/1، 2/، ظ3. أيضا: امحمد بن يوسف اطفيش، إزهاق الباطل بالعلم الهاطل؛ طبع في 1318هـ، 22- 23].

- 25) الرد على العقبى (مصدر سابق)؛ أ-14/1، 3و.
- 26) أحمد الغازي هو السلطان أحمد الثالث (1115-1143هـ / 1703-1730م)، ولمعرفة أسباب ظهور الطباعة، وسبب الخلاف حولها، ينظر: أصول التاريخ العثماني (مرجع سابق)؛ / 160.
- 27) ينظر: محمد حقي بن علي بن إبراهيم النازلي، مفزع الخلائق منبع الحقائق؛ مطبعة محمد أنسي، القاهرة-مصر، د.ر.ط-1293هـ، /8-10. والنسخة موجودة بمكتبة القطب، برمز: 20، وعليها ملكية القطب وأثر قلمه.
- 28) امحمد بن يوسف اطفيش، الذخر الأسنى من الأسماء الحسنى (مخطوط)؛ بخط المؤلف، مكتبة القطب، يسجن، غرداية- الجزائر، برمز: أ-هـ 5، /55و.
- 29) لم أعثر على ترجمة له، وكونه من أهل القرن الثاني عشر كما صرح القطب، يجعله غير أحمد مختار باشا التركي الغازي (1253-1337هـ / 1837-1919م)، الذي ترجم له صاحب الأعلام. [ينظر: امحمد بن يوسف اطفيش، تفسير ألغاز؛ ملتزم الطبع: داود بن إبراهيم بن داود، د.ر.ط-1306هـ، /14، أيضا: خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط5-1980، /1/255].
- 30) في النسخة المخطوطة، لتفسير هذا اللغز بخط المؤلف، نقرأ في 1و، بخط مغاير عبارة بهذا النص: «تفسير لغز الذي كان مدروج في الجواب في عدد 630، 27 محرم الحرام 1290، ولم أتمكن من الوصول إلى هذا العدد من هذه الجريدة، ولا إلى الجريدة نفسها، ولعل الأرشيف العثماني يحتفظ بأعدادها، لكن قد نرجح انطلاقا من هذا التاريخ؛ أن القطب قد حج حجته الثانية، في سنة 1290هـ بالضبط، وفيها تحصل على هذا العدد من صحيفة «الجواب»، وأيضا بقرينة مكاتبتة لأحمد فارس الشدياق؛ إذ لا يرأسه على حل لغز تقادم عهده!
- 31) امحمد بن يوسف اطفيش، تفسير اللغز (مخطوط)؛ بخط المؤلف، مكتبة القطب، يسجن-غرداية، أ-م 11، / 2ظ.
- 32) قال القطب: «وأما تفسيري إياه بالدنيا الذي كتبه إلى أحمد فارس فنصّه...» المصدر السابق؛ 2ظ/.
- 33) أحمد فارس بن يوسف بن منصور الشدياق، عالم باللغة والأدب، ولد في قرية عشقوت (لبنان)، أبواه مسيحيان مارونيان، سميّه فارسا ماذا يراد من هذا؟، ورحل إلى مصر، فتلقّى الأدب عن علمائها، ورحل إلى مالطة، فأدار فيها أعمال المطبعة الأمريكية، وتنقّل في أوروبا، ثم سافر إلى تونس، فاعتنق الدين الإسلامي، وتسمّى «أحمد فارس»، دُعي إلى الآستانة، فأقام فيها بضع سنوات، وأصدر بها جريدة «الجواب»، سنة 1277هـ، فعاشت 23 سنة، توفي بالآستانة، ونقل جثمانه إلى لبنان، من آثاره: «كنز الرغائب في منتخبات الجواب» سبع مجلدات، اختارها ابنه سليم من مقالاته في الجواب، و«سر الليال في القلب والإبدال» جزءان، في اللغة، و«الجاسوس على القاموس»، و«الساق على الساق فيما هو الفارياب»، وغيرها، وبعضها لا يزال مخطوطا. وله شعر وصف بالركة والحسن والانسجام. [ينظر: الأعلام؛ دار العلم للملايين، ط5-1980، /1/193].
- 34) تفسير اللغز (مصدر سابق)؛ / 9ظ.
- 35) المصدر نفسه؛ / 1ظ.
- 36) المصدر نفسه؛ / 10و.

37) المصدر نفسه؛ / 2و.

38) المصدر نفسه؛ / 10و.

39) السلطان عبد الحميد بن عبد المجيد (1293-1327هـ/1876-1909م): هو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية، تولى عرش الدولة في الرابعة والثلاثين من عمره، بوع بالخلافة بعد أخيه مراد.. تلقى تعليماً مُنظماً في القصر السلطاني على أيدي نخبة مختارة من أشهر رجال زمنه علماً وخلقاً، وتعلم من اللغات العربية والفارسية، ودرس التاريخ وأحب الأدب، وتعمق في علم التصوف، كما تدرب على استخدام الأسلحة، كان مهتماً بالسياسة العالمية، ويتابع الأخبار بدقة.. أعلن الدستور (1293هـ/1876م)، الذي يضمن الحريات الفردية، وينص على مبدأ الحكومة البرلمانية، وعين مدحت باشا صدراً أعظم، لكن جرد المتأثرين بالفكر الغربي من سلطاتهم، وتولّى قيادة البلاد قيادة حازمة، ودعا إلى فكرة «الجامعة الإسلامية»، وكان من مشاريعه الكبرى إنشاء خط سكة حديد الحجاز، بين دمشق والمدينة المنورة.. لكن رجع أولئك تحت تأطير جمعية الاتحاد والترقي، ووجهوا تهماً إليه، فتم عزله سنة 1327هـ/1909م، وبقي في قصره في استانبول، حتى توفي في 29 ربيع الآخر 1336هـ/ 10 فيفري 1918م [ينظر: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (مرجع سابق)؛ / 399 وما بعدها، أصول التاريخ العثماني (مرجع سابق)؛ / 224 وما بعدها].

40) ينظر: سليمان بن عبد الله الباروني باشا، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية (القسم الثاني)؛ دار البعث، قسنطينة-الجزائر، ط3-1423هـ/2002م، 403 وما بعدها.

41) السجن الأول كان مدة شهرين ونصف، ولما ثارت ثائرة أهله وسكان الجبل، أطلق سراحه بكفالة، إذ برأه مجلس الاستئناف بالأكثرية وعلى رأسه الوالي هاشم باشا (1899م)، لكن لم تطل مدة إطلاق سراحه، حتى أعيد سجنه ثانية، بعد نقض البراءة من دائرة التمييز، وأكثر من ذلك تم عزل أعضاء المحكمة الذين حكموا عليه بالعفو أول الأمر، وأشار الباروني إلى خصومه، وعلى رأسهم قائمقام فساطو محمد بك الأسير الشامي.

42) ينظر: محمد مسعود جبران، سليمان الباروني.. آثاره؛ الدار العربية للكتاب، د.ر.ط-1991م، / 36-34.

43) العفو السلطاني كان بعد سجنه للمرة الثانية، بعد نقض حكم مجلس الاستئناف الذي برأه في المرة الأولى، ثم كان الحكم عليه ثانية بالنفي لمدة خمس سنوات، ثم تخفيف الحكم إلى سنة، يقضيها مع المحكوم عليهم بالنفي، ثم كان إطلاق سراحه بكفالة شرط أن لا تتعدى تحركاته سور المدينة؛ ثم جاء العفو السلطاني، ويتصور دور القطب في هذه المرحلة، مع تقدير زمن العلم بالخبر وانتشاره، ووصوله مزاب في ذلك الماضي، وليس في مرحلة حكم مجلس الاستئناف بالبراءة.. [ينظر: يوسف بن بكير الحاج سعيد، تاريخ بني مزاب؛ المطبعة العربية-غرادية، ط2-1427هـ/2006م، / 189].

44) هذا الأمير ذكره القطب في رده على العقبي بقوله: «وإن لم تعرف الإباضية فهم الذين منهم الأمير سليمان ابن الناصر، الذي جاء عام 1318 إلى المغرب ونزل عندي، وهو أمير «دار السلام»، واحترمه الناس كلهم وعظموه، ودخل الأندلس ليرى أثر مدن الإسلام والعلم، والتقى مع السلطان الكبير في قسنطينة، وأعطاه نيشاناً، وبعض ما يُنسب إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- من ثوب، وأرسل إلي

نیشاننا، مثل الذي أعطى أخانا الأمير المذكور.. سليمان بن الناصر» [الرد على العقبي (مصدر سابق)؛ أ- هـ 14/1، 7/].

45) إذ مثل الجبل الغربي في «مجلس المبعوثان» التركي، بعد نجاحه في انتخابات ولاية طرابلس الغرب، وهذا سنة (1326هـ/1908م)، وقد أشار الكاتب الإسلامي الأستاذ محب الدين الخطيب إلى إخلاص الباروني وصدقه، ونوّه بخلاله وأعماله في فترة عضويته هذا المجلس [ينظر: محمد مسعود جبران، سليمان الباروني.. آثاره (مرجع سابق)؛ / 42-43].

46) امحمد بن يوسف اطفيش، رسالة إلى السلطان عبد الحميد، في شأن إطلاق سراح سليمان بن عبد الله الباروني؛ بخط تلميذه حمو بن باحمد باباوموسى، مكتبة الأستاذ محمد بن أيوب الحاج سعيد (لخورات)، غرداية-الجزائر، مجموع رسائل، برمز: دغ 12.

47) ينظر: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (مرجع سابق)؛ / 431.

48) وهذا دليل ما ورد في الرسالة من قوله: «إبطال طريق الجرارات ومركب النار، وترك تمهيد» والمشروع انطلق في سنة (1318هـ/1900م)، وانتهى سنة (1326هـ/1908م) بعد وصوله المدينة المنورة.

49) لم أقف على مرجع يتحدث عن هذه العادة السيئة، ولعلها قد انقرضت وأنها كانت لظرف زمني معين، وعلى كل.. فهي قرية الشبه، بما تنصبه بعد الدول للمسافرين من عرض ضوئي كاشف Scanner، يكشف عن جميع تفاصيل أجسادهم!

50) ربما هي التسمية القديمة لسكة الحديد، فهي -فعلا- جرارات متلاحقة أو عربات، وكانت تشتغل وتشق طريقها، بإيقاد النار في الفحم الحجري.

51) ينظر: أصول التاريخ العثماني (مرجع سابق)؛ / 251 وما بعدها. أيضا: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (مرجع سابق)؛ / 430 وما بعدها.

52) رسالة إلى السلطان عبد الحميد، مكتبة القطب، يسجن، غرداية-الجزائر، رسائل صادرة من القطب، رمز: أ-ر 11.

53) ينظر: الشيخ القراي الحاج أيوب بن إبراهيم، 1923-1989م آثاره الفكرية، قطب الأيمة ومواقفه السياسية (محاضرة)؛ نشر جمعية النهضة، العطف-غرداية، الجزائر، ط2-2009م، / 203. لكن لم يذكر هذا المرجع مصدر هذه المعلومات ولا مكان وجود هذه الوثائق التي يشير إليها.

54) تاريخ الجزائر الثقافي (مرجع سابق)؛ / 269.

55) ينظر: مصطفى بن الناصر وبتن، الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش وثلاثية المقاومة، الجهل بالعلم والتخلف بالعمل والاستعمار بالجهاد؛ الكتاب في طريقه إلى الطبع قريبا -بإذن الله تعالى-، / 71.

معارف القباب اطفيش

من خلال مراسلاته ورحلاته

عبد الرحمان حاج إبراهيم¹ و حاج أحمد كروم²

1- قسم الحقوق المركز الجامعي غرداية

2- المركز الجامعي غرداية

غرداية ص ب 455 غرداية 47000، الجزائر

تمهيد

إن العالم الراسخ في العلم لا تكون دائرة نشاطه محدودة بل إنها تكون واسعة الآمال، وبعيدة الأهداف، تشتمل أقصى ما يمكن من خلق الله تعالى حتى لا تصاب بالشلل والفشل في مهدها.

وإن إحساسه بالمسؤولية الملقاة على عاتقه من وجوب التبليغ ووجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجلب المصالح ودرء المفاسد بالعلم الذي يعتقد أنه هو الصواب تفرض عليه أن يتجاوز الحواجز الوهمية التي تقف عائقا أمام غيره من الناس.

قال الله تعالى: «ولكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون» [آل عمران: 104]. والعالم مكلف أن يتخذ لذلك مختلف الأساليب الممكنة والوسائل المساعدة على تحقيق هذه الأهداف النبيلة.

ومن هذه الوسائل المتاحة لهم الرحلات خارج بلدتهم والمراسلات داخل بلدتهم أو خارج محيطهم ونحاول من خلال المداخلة أن نبين مدى إشغال القطب لهاتين الوسيلتين وما هي النتائج الإيجابية التي حققها في مختلف مجالات العلم والعمل.

المبحث الأول: رحلاته:

لم تسجل عن القطب اطفيش رحلات كثيرة إلا رحلتين إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج، وما زاره من خلال الرحلة من معالم في الطريق، وأما باقي الرحلات فهي رحلات محلية لم تتعد مدينة ورقلة جنوبا ومدينة بريان شمالا.

المطلب الأول: رحلات محلية: لقد كان القطب اطفيش يقوم برحلات علمية دعوية إلى

مختلف مدن وادي ميزاب بمنطقة غرداية في جنوب الجزائر وهذه الرحلات يراها طلبته في هذه المدن والقرى.. نذكر منها ما يلي:

1- مدينة بريان: في سنة 1272هـ/1855م قام القطب برحلة إلى مدينة بريان وحضر فيها احتفالات أهلها بالمولد النبوي الشريف. وخلال أوقات فراغه من الإجابة على أسئلة الناس وفتواهم كانت همته قد نشطت في تأليف كتاب «تحفة أهل بريان» في علم الميراث وعندما رجع إلى معهده في بني يزقن شفعه بكتاب ثان سماه «توأم تحفة أهل بريان» فطبع الكتابان بعنوان: «التحفة والتوأم» في علم الفرائض ونقل المحقق الشيخ محمد بن أبي بكر حفار رحمه الله قوله: «إني لما رجعت من بريان صفا الوقت عن الاشتغال فظهر لي أن أصنف في الإرث كتابا وأسميه توأما لأنني قد صنفت مدة إقامتي ببريان كتاب موجز في الإرث وسميته «تحفة أهل بريان» وأذكر في التوأم ما لم أذكر في التحفة وبعض ما ذكرته فيها¹. والله أعلم».

وكان الشيخ اطفيش يخلفه في التدريس أحد تلامذته الكبار أثناء غيابه في إحدى هذه الرحلات. قال الشيخ أبو اليقظان في ترجمة الشيخ سليمان مطهري رحمه الله: «وقد أخذت عنه دروسا من الجزء 1 من النيل في شوال 1325هـ ريثما يرجع الشيخ اطفيش من بريان»² اهـ.

2- القزارة: كانت للشيخ رحلات إلى القزارة مع تلاميذه يقول الشيخ أبو اليقظان: «ورافقته في زيارته لبريان والقزارة»³.

وكان القطب اطفيش يقيم في مدينة بريان والقزارة شهرا في الخريف وشهرا في الربيع. لكن الاستعمار الفرنسي يمنعه من هذه الرحلات لأنه يبعث النهضة العلمية في النفوس وينفر الاستعمار من القلوب.. فاشترى له أعيان هاتين المدينتين نخيلا ليملكها هناك فإذا منعه الاستعمار يظهر لهم عقد الأرض وأنه ذاهب إلى رعاية نخيله سواء بالتأجير في الربيع أو لجني الثمر في الخريف فيطلق سراحه.

وعند وصوله بريان أو القزارة فإنه يستقبل بحفاوة بالغة تليق بمقامه كعالم في الدين.. فينزل في مقر يخصص له مع تلاميذه. ومنزل ثان يُجهز لخلوة الشيخ مع التحقيق والتأليف.. والناس يتنافسون في إكرامهم.. والشيخ يوزع يومه بين الدعوة إلى الله في المسجد وإجابة أسئلة الناس وإصلاح ذات البين والتأليف.. وعندما ينتهي من مجلس الرجال يتحول إلى مجلس النساء تحت إشراف حلقة العزابة وحلقة تيمسييريين⁴.

3- مدينة العطف وما جاورها: في مدن وادي ميزاب لا يتحرك كثيرا إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك من إصلاح ذات البين أو حضور مناسبة دينية محلية، فمثلا يذكر علماؤنا أن الشيخ زار مدينة العطف وفي منطقة أولوال ضبط قبلة المصلى هناك.

وأما في مدينة مليكة فإنه كان يزورها يتعلم علم الفلك من عالم هناك كان يتقنه في برج عال

بيساتين مليكة.

4- مدينة وارجلان: في سنة 1320هـ/1902 زار القطب اطفيش مدينة ورقلة واستقبله أهلها بحفاوة عظيمة ونزل ضيفا معززا مكرما عند أعيان البلد فعقد لهم مجالس دعوية ومجالس علمية يجيب عن أسئلة الناس ورحب به المالكية والإباضية فأجروا له الخيل والبارود وكان قد زار آثار الصالحين في هذا البلد الأمين في مدينة سدراته.

وبالمناسبة أنشد الشيخ قصيدة يصف فيها هذه المشاهد في جميع مراحل الرحلة المباركة. وعندما رجع من هذه الرحلة تلقاه الشيخ الحاج عمر بن حمو بكلي رحمه الله ومجموعة من رجال الخير والصالح فأكرموه إكراما مجيدا.

ومطلع القصيدة المذكورة هي:

قضى الله مرسل البشير النذير لنا سفرا سهلا ولو لضير

إلى أن قال:

وسرنا على الإكرام بعد ثلاثة إذا ورقى لى تزهو كأرض سدير⁵

ثم قال:

ولكن تلقانا أهل العطف إذ هم هم الناس طرا من فتى وكبير

بخيمة قطن والطعام الملون وأشرية صفت ووجه سفير

المطلب الثاني: رحلات وطنية:

وأما رحلاته الوطنية فإنها كانت محدودة جدا، حيث شملت المدن التي مر بها إلى البقاع المقدسة مرتين نذكر منها: مدينة الأغواط ومدينة الجلفة وبوسعادة، وفي هذه المدينة زار زاوية الهامل ومعهد الهاملي وألقى دروسا توجيهية للطلاب والمدرسين⁶. ولمدية والبليدة والجزائر العاصمة، كما مر في هذه الرحلات بمدينة برج بوعرييج ومدينة قسنطينة ومدينة عنابة وقائمة وباتنة وبسكرة وتقرت.. وفي جميع هذه المدن كان الأعيان والعلماء يستقبلونه بحفاوة بالغة ويعقدون معه مجالس للأسئلة والفتوى، وكان يلقي دروسا توجيهية تستهض الهمم وتحذر من الاستعمار.

المطلب الثالث: رحلات دولية:

وهي تنحصر في رحلتين قام بهما إلى الحجاز لأداء فريضة الحج.. فقد جاور في رحلته الأولى ودرس في الحرم المكي ولم يجاور في رحلته الثانية ولكنه ألقى دروسا في الحرم المدني في الروضة الشريفة.

1- الرحلة الحجازية الأولى: وقعت سنة 1290هـ/1873م. وفيها مكث عاما كاملا مجاورا

للكنة الشريفة وكان يدرس ويؤلف ويجيب أسئلة المستفتين وقد درّس كتاب «السنوسية في العقائد المالكية» ويحضر حلقاته علماء أجلاء مثل:

- أ- أحمد زيني دحلان (ت1304هـ/1886) صاحب الفتوحات الإسلامية
 ب- ورحمة الله الهندي (ت1303هـ/1888م) صاحب كتاب «إظهار الحق والمناظرة الكبرى»
 ج- ومحمد حسب الله (ت1335هـ/1917) صاحب كتاب «الرياض البديعة في أصول الدين وبعض فروع الشريعة».
 د- والشيخ محمد حقي التركي (ت1301هـ/1884م) صاحب كتاب «السنوحات المكية» وكانت له معهم لقاءات ومناقشات يحضرون حلقاته في الحرم المكي ويخدمونه تقديراً للعلم والعلماء. قال عنهم القطب اطفيش «وكلهم محبون لي ولأُموري»⁷.
 وهناك ألف لهم القطب اطفيش كتاب «إيضاح المنطق في بلاد المشرق» فقال «ألفته في مكة، ولعلماء مكة تناول إليه»⁸.

ويصف القطب هذه الحلقة العلمية في مكة قائلاً:

«وقد أقرأت السنوسية في المسجد الحرام لأذكر نفائس دقائق التوحيد بالمنطق ولنقص على قومنا نفوسهم وهو محفل عظيم معمور بأصحابنا من العمانيين العلماء والطلبة وبعض الشافعية»⁹.

وهذه الرحلة المباركة كان لها الفضل في توسيع رواية الحديث ونشر السنة في هذه المناطق النائية من الوطن الجزائري، قال القطب اطفيش: «وكانت كتب الحديث غير موجودة في مضاب ورأي مالكي عالم من أهل مكة مضابيا ينسخ شرح النيل في مكة ولم يجد فيه الحديث كثيراً وأعطاني البخاري ومسلما والترمذي وابن ماجه والنسائي وأبا داود وغير ذلك.. وأنا حاضر في مكة فانتفعت بتلك الكتب كما انتفعت بصحيح الربيع بن حبيب فجمعت منها «وفاء الضمانة وجامع الشمل في حديث خير الرسل»¹⁰.

2- الرحلة:

الرحلة الحجازية الثانية: هذه الرحلة وقعت سنة 1303هـ/1886م وقد خلدها في القصيدة الحجازية (232 بيتاً). التي حققها الأستاذ يحيى بن بهون الحاج محمد ونشرها سنة 1427هـ/2007م مطلعها:

هجرنا مساقط الرؤوس وما نرى سوى الحج إن الحج قد حان أن يرى
 وغير اعتمار والزيارة للنبي عليه الصلاة والسلام زها الثرى¹¹

وكان في هذه الرحلة قد صحب زوجته مريامة فرطاس.. وهو يكسر بذلك حاجزا منيعا كان

سببا لعدم ذهاب كثير من النساء إلى الحج لاعتبارات أمنية واجتماعية.. فرضها عليهن النظام الاجتماعي بوادي ميزاب.

وفي هذه الرحلة لم يجاور وإنما رجع مباشرة بعد تمام المناسك على طريق المدينة المنورة. وتتميز هذه الرحلة بالدروس القيمة التي ألقاها في الروضة الشريفة بالمدينة المنورة في تفسير خواتم سورة البقرة «لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله...» إلى ختام السورة لمدة ثلاثة أيام أمام جمع من علماء المدينة المنورة يراقبونه لعله يخطئ فيمنعوه حالا حسبا وافق عليه مفتي المدينة المنورة الشيخ محمد بالي الحنفي بعدما طلبه الشيخ حمزة الرفاعي مرشد الميزابيين ودليلهم في المدينة. وفي ختام الدروس الثلاثة دعا للإسلام والمسلمين¹²

زيارة إلى تونس: يقول الشيخ سالم بن يعقوب:

«لم يكن قطب الأئمة العلامة الشيخ اطفيش كثير الأسفار، وقد أعطى نفسه للتدريس والتأليف خدمة للإسلام والمسلمين. وكانت زيارته إلى جزيرة جربة في أول شهر ذي القعدة سنة 1303هـ/1886م حدثا في حد ذاته، فقد حل بها رفقة جماعة من الميزابيين قاصدين بيت الله الحرام، بعد أن أقام أياما في مدينة تونس والتقى بعلماء جامع الزيتونة وتناقش معهم في عدة مسائل، وترك دوبا هاما في أهل العلم هناك¹³»

ولعل ذلك كان عند الرجوع حسبا تشير إليه قصيدته الحجازية في البيت 187

وتونس -والله- تونس كاسمها فلا وحشة فيها ولا وصبا نرى

إلى أن قال:

فقالوا لها زيتونة تؤنس الورى فسمي ذاك المصر تونس وادرى

جامعه شاعت إضافته لها ولا زال يعلو الكفر أو يبلغ الذرى

يمينا لقد ترداد تونس بهجة بطود السخاء لا رأى عوض خيرا

ويقول الشيخ محمد علي دبوز عن هذه الزيارة التاريخية «وقد توقفت باخرة القطب في طريقه إلى الحج في مدينة تونس فأسرع إليه الميزابيون الكثيرون في تونس ومعهم كثير من الأعيان والعلماء فأنزلوا القطب من الباخرة».

فأقام أياما في تونس، وقد زاره كثير من علماء الزيتونة الكبار فتفاوضوا معه في المسائل العلمية، وفي طرق التدريس والإصلاح، وحثهم على العناية بمجتمعهم وعدم البرودة واللامبالاة...»

إلى أن قال: «وترك دوبا كبيرا في أهل العلم بتونس وأحسن الآثار في نفوس من اجتمع

بهم¹⁴».

وكان قد نزل ضيفا عند الكريم إبراهيم بن عمر حسبا يشير في حجازيته في البيت 199:

مديحا لإبراهيم والده عمر وكان زمان البيني وسار وزعفر
تباكيت إذ وادعته وبكى إذا بعيني غزال أو بعين لحبتر¹⁵

4- زيارة إلى جزيرة جربة التونسية: وأما زيارته إلى جزيرة جربة التونسية فقد وثقها مؤرخ جربة الشيخ سالم بن يعقوب بقوله: «وما إن وصل قطب الأئمة إلى جربة حتى سارع أهلها لاستقباله وافدين من مختلف الجهات، وقصد جامع الشيخ، أين استقبل بحفاوة لائقة به، وأقيمت على شرفه مأدبة غداء، ثم انتقل إلى الجامع الكبير بحومة الحشان ليقضي ليلته بجوار الشيخ إسماعيل الجيطالي، ومن في روضته من العلماء، كالشيخ محمد بن يوسف المصعبي (1188هـ/1774م) وابنه الشيخ محمد (ت 1207هـ/1792م) والشيخ سعيد بن عيسى الباروني (ت 1284هـ/1867م) رحمهم الله، وبعد أن اجتمع بعلماء جامع أبي مسور، وعلى رأسهم الشيخ زكرياء، زار القطب مكتبة الجامع الكبير المملوءة بالكتب النفيسة.

وفي الغد ألقى درسا للحاضرين وتناقش معهم في عدة مسائل، ثم زود الطلبة المقيمين بالمدرسة بمعلوماته القيمة وبصائحه الثمينة، ثم ذهب لزيارة ضريح العلامة الشيخ محمد بن عمر بن أبي ستة المحشي (1022هـ/1088م - 1613هـ/1679م) وبحومة وزينغن، وذلك قبل أن يعود إلى جامع الشيخ بحومة السوق ويذهب من هناك إلى طرابلس ثم إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج¹⁶».

5- زيارة إلى مصر: وقد زار الشيخ اطفيش أثناء رحلته إلى الحج القاهرة عاصمة مصر وزار الأزهر الشريف وتناقش مع علمائه في بعض مسائل العلم فقال عن ذلك:

«أما المصاحف الكبار فلا تغير عن الإمام وهي كتب كبار بخط غليظ جدا متفاسح السطور والحروف لا تحتمل الحمل إلى المحاضر، والكتاب تجعل على محامل وقد شاهدتها في المدن الكبار بتلك الصفة ككتب السلطان في مصر وفي وكالة الجاموس للإباضية قرب مسجد ابن طولون في مصر جزء منها، ولم يكن في رواقهم الذي في الجامع الأزهر وهو رواق لهم عند رواق المالكية في الجامع الأزهر¹⁷».

المبحث الثاني: مراسلاته:

لقد اعترف بالنفوق العلمي للشيخ اطفيش رحمه الله علماء من مختلف بقاع العالم ولذلك ما انفكوا عن مراسلته في مختلف مواضيع الفقه والتاريخ واللغة والطب والفلك والعقيدة والتفسير والحديث وغيرها. ونذكر منهم الشيخ محمد عبده رائد الإصلاح الديني في مصر عندما زار تونس عام 1321/1903 وجه علماء جامع الزيتونة إلى أن يسألوا القطب اطفيش في مختلف إشكالاتهم الفقهية فقال لهم معاتباً «إنا نسأله من مصر وأنتم أقرب إليه منا» فقالوا: نعم¹⁸.. ومنذ

ذلك الحين بل وقبل ذلك الحين عندما بلغ العشرين من عمره تفرغ للتدريس والفتوى سنة 1357هـ/1938.. يقول تلميذه الشيخ إبراهيم حفار رحمه الله «وفي درجة العشرين أو فيما ينوف عنها بقليل تصدى للفتوى وفيها صعد إلى منصة مجتهد الفتوى، وفي الثلاثين تقريبا جلس على عرش مجتهد المذهب، وفي الخمس والستين أو السبعين تقريبا ارتقى إلى منبر المجتهد المطلق»¹⁹.

وهذا الارتقاء الفكري والتفوق العلمي وجه إليه الأنظار فقصدته الناس والعلماء والباحثون بأسئلتهم المختلفة ورسائلهم المطولة شعرا ونثرا من جميع بقاع العالم الإسلامي وغير الإسلامي ليشفي غليلهم بإجاباته وتحقيقاته السديدة.

واخترت أن أعرض عليكم مضمون هذه الرسائل في مطلبين هما:

المطلب الأول: رسائل إلى العلماء والسائلين في العالم الإسلامي: لقد جاب القطب اطفيش العالم الإسلامي شرقا وغربا وشمالا وجنوبا برسائله الواردة إليه من تركيا وتونس والمغرب ومصر وزنجبار ومكة والمدينة وليبيا وعمان والبحرين والجزائر وتلمسان ومستغانم وجربة وطرابلس وغيرها. وسوف أعرض عليكم مضمون بعض هذه المراسلات حتى نتجسد معا العلاقات العالية التي رفعت من مكانة القطب اطفيش بين أعلام عصره.

1- تركيا:

1- الخليفة عبد الحميد الثاني خان أرسل إليه رسالة يسأله عن خط السكة الحديدية الذي يريد مده من استانبول إلى الحجاز هل هو جائز أم لا؟

فقال له: «إنني أخاف أن تكون في ذلك نوايا سيئة من الدول النصرانية للدخول بطريقة هذا المشروع إلى البلاد المقدسة، فإذا وجد من أبناء المسلمين من يستطيع أن يسير هذا القطار فلا أرى في ذلك مانعا»²⁰.

2- وبمناسبة التفوق والتوفيق في حل لغز الماء أهدى له السلطان عبد الحميد نيشان الاستحقاق²¹. 3- كما أرسل القطب اطفيش رسالة إلى السلطان عبد الحميد يستعطفه في إطلاق سراح تلميذه الشيخ سليمان بن عبد الله الباروني النفوسي الذي سجن في طرابلس الغرب ظلما وبهتاناً ودعا له بالخير والبركة إن هو استجاب لطلبه²².

وغيرها من الرسائل المهمة التي سوف يعرضها عليكم الأستاذ المحقق صالح بن الحاج بكير سيوسيو في مداخلته.

2- مصر: الشيخ سعيد بن قاسم الجربي القاطن بمصر²³ أرسل إليه القطب اطفيش جوابا يبين فيها بطلان الضرب على باطن الرجلين للأدب.

كما أرسل له جوابا آخر مع الحاج رمضان بن جماعة حول موضوع العدل بين النساء وغيره²⁴. كما عبر عن إعجابه بتأليف الشيخ قاسم الجربي وصديقه مصطفى بن إسماعيل المصري فقال: «ولا يحسن إلا ما كان على طريق تأليف الشيخ عبده والشيخ مصطفى بن إسماعيل المصري والشيخ قاسم بن سعيد الشماخي الليبي²⁵».

وأحيانا لا يحدد القطب اطفيش اسم المرسل إليه بل يكتفي بصيغة العموم فيقول: «جواب سؤال أهل مصر».. ومثال ذلك رأيت جوابين هما:

1) هل يجوز لباس النصارى لقضاء المصالح²⁶

2) المسألة الثانية في عدم تعلق الأمر والنهي بالمعدوم²⁷.

3- مكة المكرمة:

1- بعد رحلته إلى الحجاز لأداء فريضة الحج توطدت علاقات القطب اطفيش بعلماء مكة المكرمة فأصبحوا يرسلونه في مسائل فقهية مهمة ونذكر من هؤلاء العلماء الشيخ زيني دحلان والشيخ رحمة الله الهندي والشيخ محمد حسبي الله فقد أجابهم عن سؤال مهم وهو حكم صلاة العشاء في بلغاريا والمتوغلون في القطب الشمالي في سنة 1878/1296 وذلك بعد خمس سنوات من رجوعه من الحج²⁸.

2- وكذلك أرسل إليهم قبل ذلك شرحه للغز الماء الذي ورد إليه من الشام وعجز عن حله علماء العجم والعرب ونال به ثلاثة أوسمة شرفية، وسام من فرنسا، وآخر من تركيا وثالث من زنجبار.

عمان: لقد ترك الشيخ كثيرا من الكتب والرسائل مما أجاب به أهل عمان في مختلف مسائل الفقه والنوازل الدينية وكان يرجع إلى كتبهم كثيرا حتى قال فيهم في نهاية كتاب الصوم من شرح النيل.

«أخذت هذه الجامعة من كتب أصحابنا من أهل عمان لما فيها من المنافع ولشدة حبي لأهل عمان وأهل زنجبار من أصحابنا وهم أصحاب العلوم حديثا وقديما ولتمسكهم بالمذهب،» ثم قال «وينفعهم إياي بإرسال الكتب أكثر من وقر بعير، ولإهدائهم إلي أشياء جلييلة ولا تباعهم إياي في أقوالي وترجيحاتي، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله، فبركة اسمك الأعظم يا رب زدهم علما ومالا وجاها واجمعنا معا في الخير»²⁹.

وأما العلماء الذين اتصل بهم الشيخ أو اتصلوا به ثم أجابهم عن أسئلتهم فنذكر منهم:

1- الشيخ عبد الله بن حميد السالمي (ت 1914/1332) الملقب «نور الدين» المجتهد الضريع مجدد الفكر الإسلامي بعمان صاحب التأليف القيمة شعرا ونثرا منها معارج الآمال³⁰.

- 2- الشيخ محمد بن شيخان بن خلف السالمي الرستاقى³¹ (ت 1346هـ/1928م) له ديوان شعر مطبوع.
 - 3- الشيخ عيسى بن صالح الحارثي³² (ت 1365/1946) صاحب مجلس الشورى لمبايعة الأئمة في نرى بعمان مع غيره من العلماء له كتاب مطبوع في الفتاوى بعنوان «خلاصة الوسائل بترتيب المسائل».
 - 4- الشيخ الحاج راشد بن عزيز بن خلفان الخصيبي أبو الرشيد (ت 1347/1927) قاضي سلطان مسقط فيصل بن تركي ورئيس المحكمة الشرعية بمسقط³³ في عمان.
 - 5- سعيد بن خلفان بن أحمد الخليلي الخروصي (ت 1287/1877) قاوم الاستعمار الإنجليزي بالوقوف مع الأئمة في القرن 14/19هـ له مؤلفات قيمة³⁴.
 - 6- محمد بن عبد الله الخليلي (ت 1373/1954) إمام من أئمة عمان وعالم من علماء الأمة ببيع بالإمامة سنة 1919 إلى 1953 له كتاب «أجوبة فقهية»³⁵.
 - 7- سليمان بن محمد بن أحمد بن عبد الله الكندي (ت 1337/1919) كان قاضيا للإمام سالم بن راشد الخروصي له كتاب «بداية الإمداد على غاية المراد»³⁶.
 - 8- عامر بن خميس بن مسعود المالكي (من بني مالك) (ت 1346/1928) قاض وفقهه لأئمة عمان له كتاب «موارد الألفاظ نظم مختصر العدل والإنصاف» وغيره³⁷.
 - 9- سعيد بن صالح بن راشد العبري (ت 1340/1922) فقيه وقاض للإمام سالم بن راشد الخروصي³⁸.
 - 10- علي بن خميس بن راشد القصاب (ت بعد 1366/1947) له كتب وردود وأسئلة نظمية³⁹.
- وغيرهم من الأعلام الذين ذكرهم في أجوبته ولم تعرف ترجمتهم.
- وجميع هؤلاء الأعلام العمانيين أخذت أسماءهم من كتاب كشف الكرب الذي هو عبارة جمع لفتاوى القطب اطفيش مع العمانيين وغيرهم.
- كما ألف القطب اطفيش جوابا إلى أهل عمان عن الصفوية والأزارقة والنجدية ومن نحا نحوهم من الفرقة الوهابية في نجد مطبوع طبعة حجرية سنة 1314/1896.
- وأما مسقط في مسقط فكانت للقطب اطفيش علاقات وطيدة مع السلطان فيصل بن تركي العماني⁴⁰ حاكم مسقط من سنة 1888 إلى 1913 الذي قاوم الاستعمار الفرنسي والاستعمار الإنجليزي على وطنه عمان وحاول توحيد الحكم السياسي على إدارة واحدة رغم وحدة العلماء في عهده، ولكن الاستعمار عارضه.

وقد طبع عدة كتب للشيخ اطفيش والشيخ السالمي وقد راسله الشيخ اطفيش عدة مرات في أجوبة فقهية مهمة وردود مفيدة مثل كتاب «إن لم تعرف الإباضية يا عيسى يا جزائري»⁴¹.

زنجبار: وفي هذا البلد الإفريقي فقد كانت له علاقات مع:

1) سيف بن ناصر الخروصي (ت1341/1923) فقيه في زنجبار له كتاب «جامع أركان الإسلام» وكان قاض للسلطان برغش بن سعيد وغيره⁴².

2) كما كانت له علاقات وطيدة مع السلطان برغش بن سعيد سلطان زنجبار الذي تكرم له بطباعة كتب جليلة مثل تفسير «هميان الزاد إلى دار المعاد» في عشرين مجلدا سنة 1896/1314. والذي يعتبر أول تفسير للشيخ اطفيش أتمه سنة 1353/1271.

3) وكانت له أيضا علاقات طيبة مع أمير دار السلام في زنجبار سليمان بن الناصر اللمكي الذي زاره في بني يزقن وأهدى له وسام الشرف من السلطان برغش بن سعيد عندما نجح القطب اطفيش في المسابقة العالمية في حل لغز الماء.

وكان الشيخ اطفيش رحمه الله كثيرا ما يجمع في مراسلاته بين سلطان زنجبار ومسقط في عمان، مثلما جمعهم في الدعاء لهم في شرح النيل ج3 ص 464.

وأحيانا يأتي السؤال إلى القطب اطفيش من أهل عمان يطلبون منه شرح كتاب أو قصيدة مثلما طلبه الشيخ فيصل بن حمود العماني أن يشرح قصيدة لامية ابن النظر العماني في الولاية والبراءة وقصيدة الشيخ محمد بن إبراهيم الكندي في وصف الجنة فألف بها كتابه المفيد «الجنة في وصف الجنة» وهو مطبوع.

المغرب الإسلامي:

أ- أهل جربة في تونس: أجابهم عن بعض الأسئلة في الأوقاف وغيرها من فتاوى المعاملات⁴³.

ب- توزر بالجريد التونسي: أرسل إلى حمي الطاهر بن عمارة رسالة إزهاق الباطل بالعلم الهاطل (مطبوع).

2- علماء المغرب: في فاس أجابهم عن موضوع حكم تعاوي التدخين والسعوط (مطبوع).
ورسالة في الدعاء بعد الصلاة (ج2 ص 85).

3- ليبيا:

أ- علماء زوارة في غرب ليبيا أرسل إليهم القطب اطفيش جوابا مطولا عن مسائل مختلفة في العقيدة والمعاملات والعبادات وهو مطبوع في 25 صفحة سنة 1907/1325.

ب- تلميذه الشيخ سليمان باشا الباروني في طرابلس وجبل نفوسة بجادو كانت بينهما مراسلات مختلفة خاصة ما يتعلق بالوحدة ونبد الخلاف في ليبيا وميزاب نثرا وشعرا وهي مطبوعة في ديوان الشيخ سليمان الباروني (ت 1360/1940)

ج- وكانت للشيخ مراسلات وتبادل مدح شعرا ونثرا بينه وبين الشيخ عبد الله بن يحيى الباروني يفرن وجاد وهو والد الشيخ سليمان باشا الباروني رحمهم الله، وقد نشرت هذه القصائد في ديوان الشيخ عبد الله بن يحيى الباروني.. وكذلك مجموع رسائل القطب اطفيش مخطوط (ص 204).

د- وكانت له علاقات وطيدة مع صاحبي المطبعة البارونية الشيخ الحاج محمد بن يوسف الباروني والحاج سليمان المجدي⁴⁴ وهما اللذان اضطلعوا بمهمة طبع كثير من كتب المذهب الإباضي وغيره في شمال إفريقيا وخاصة كتب القطب اطفيش الأولى مثل «وفاء الضمانة بأداء الأمانة» في الحديث، وكتاب «جامع الشمل في حديث خير الرسل» وغيرها..

كما راسل كثيرا من العلماء في مختلف مناطق الوطن الجزائري نذكر منهم ما يلي:
تلمسان: في الغرب الجزائري أرسل إليهم جوابا موسعا عن تحريم التدخين والسعوط، وقد طبعت هذه الرسالة طبعة حجرية سنة 1326هـ/1906م.

سيدي عقبة: في بسكرة أرسل رسالة مطولة إلى حمه يعرفه بالمذهب الإباضي عن طريق مآثره عبر التاريخ وعن طريق العلماء الذين اعترفوا له في عصره وقبل عصره وهذا الجواب مطبوع طبعة حجرية سنة وطبعة ثانية مع تعليقات صديقه الشيخ عبد الله بن حميد السالمي سنة

أولاد سيد الشيخ الأبيض: حمزة المغربي البكري قال عنه القطب اطفيش: «هو رجل رفيع القدر في المغرب وهو رجل يميل إلي وإلى إعزازي جدا وسعى في ذلك ويأمر به ويوصي»⁴⁵ وقد سأله بعض تلاميذه عن ميراث شخصين ماتا في وقت واحد أحدهما في الشرق والآخر في الغرب فأجابه إجابة علمية مفيدة (مطبوع في جواب إلى أهل مكة).

الهوامش:

- 1- القطب اطفيش: التوأم ص1
- 2- أبو اليقظان: ملحق السير ص
- 3- أبو اليقظان: ملحق السير ص 165
- 4- محمد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة ج1 ص 340.
- 5- سليمان بومعقل: مجلة أنوار الفرقان ع2 ص 20 والقصيدة مخطوطة (نسخة مخطوطة)

- 6- ممد علي دبور/ نهضة الجزائر الحديثة ج1 ص 351، وفي ص 70 يقول الدبور: « وكان الشيخ محمد بن أبي القاسم شيخ الزاوية يكن للقطب أعظم الود ويجل أعظم الإجلال ويكبر عبقريته العلمية، ويعتني كل الاعتناء بتأليفه»
- 7- القطب اطفيش: إيضاح المنطق في بلاد المشرق ص1 (مخطوط)
- 8- القطب اطفيش: إيضاح المنطق في بلاد المشرق ص1 (مخطوط)
- 9- القطب اطفيش: شرح النيل ج1 ص47.
- 10- القطب اطفيش: التيسير ج11 ص 235 (سورة الأحزاب)
- 11- القطب اطفيش: رلة القطب ص 62
- 12- القطب اطفيش: رحلة القطب ص 45 - 46
- 13- يحي بن بهون الحاج محمد: رحلة القطب ص 78 - 79
- 14- محمد علي دبور: نهضة الجزائر الحديثة ج1 ص 351.
- 15- القطب اطفيش: رحلة القطب ص 79.
- 16- سالم بن يعقوب: تاريخ جربة ص 307.
- 17- القطب اطفيش: تفسير ألغاز ص 11 و 12
- 18- القطب اطفيش: الرد على الفقي ص 13/ حفار السلاسل الذهبية في الشرائط الطيفية ص 31.
- 19- حفار: المصدر السابق ص 32
- 20- الشيخ القراي: آثاره الفكرية ص 203.
- 21- القطب اطفيش: الرد على العقبي ص 31
- 22- مجموع رسائل القطب ص 92 (مخطوط)
- 23- القطب اطفيش: كشف الكرب ج2 ص 248
- 24- القطب اطفيش: مجموع الرسائل ص 138.
- 25- القطب اطفيش: تيسير التفسير ج5 ص 339
- 26- القطب اطفيش: تيسير التفسير ج5 ص 158
- 27- القطب اطفيش: مجموع رسائل القطب ص 184
- 28- القطب اطفيش: جواب لعلماء مكة مطبوع طبعة حجرية سنة 1301/1882م / القطب اطفيش مجموع رسائل القطب ص 91 (مخطوط) / كشف الكرب ج2 ص 31.
- 29- القطب اطفيش: شرح النيل ج 3 ص 464
- 30- د. محمد ناصر : معجم أعلام الإباضية ص 271 رقم: 789
- 31- د. محمد ناصر : معجم أعلام الإباضية ص 408 رقم: 1239
- 32- السعدي: معجم الفقهاء والمتكلمين الإباضية ص 397 رقم 635
- 33- معجم أعلام الإباضية قسم المشرق ص 149 رقم 357
- 34- معجم أعلام الإباضية قسم المشرق ص 187 رقم 500
- 35- معجم أعلام الإباضية قسم المشرق ص 412 رقم 1256
- 36- معجم أعلام الإباضية قسم المشرق ص 219 رقم 617

- 37- فهد السعدي: معجم الفقهاء ج2 ص 217 رقم 433
- 38- فهد السعدي: معجم الفقهاء ج2 ص 92 رقم 317
- 39- فهد السعدي: معجم الفقهاء ج2 ص 354 رقم 568
- 40- انظر مجموع رسائل القطب اطفيش (مخطوط)
- 41- حسين غباش: عمان والديمقراطية الإسلامية ص 241 وما بعدها
- 42- فهد السعدي: معجم الفقهاء ج 2 ص 167 رقم: 393.
- 43- مجموع رسائل القطب اطفيش ص 146 (مخطوط)
- 44- القطب اطفيس: كشف الكرب ج2 ص 285
- 45- كشف الكرب ج 2 ص 325 / جواب إلى أهل مكة ص 10

حوار الإباضية مع الآخر في الخطاب الإباضي

المبحث

أحمد محمد بن يوسف أطفيش

1236هـ – 1332هـ / 1821م – 1914م

عبد الحكيم أورغي

جامعة فرانكفورت ألمانيا

لم يُعر علماء الإباضية¹ وأئمتها -على عكس أهل السنة والشيعة- أي اهتمام لسيرهم الذاتية²، وانحصر مجال انشغالهم الأساسي بمواضع تراجم وسير طبقات مؤسسي المذهب الإباضي وعلمائهم البارزين، لما كان لهم من دور بارز وعطاء علمي حيث ساهموا في تأسيس الخطاب الديني والسياسي لهذه الفرقة الإسلامية، وربما يرجع السبب الرئيسي لهذا الاهتمام المعرفي إلى محاولة تشكيل وعي تاريخي للهوية الإباضية من أجل تمسك أفراد المذهب الإباضي بها. إن عدم اهتمامهم بالسيرة الذاتية يرجع إلى اجتهادهم التاريخي لتوثيق صلتهم مع بعضهم البعض عن طريق تشيئهم المتواصل بمواضيع العقيدة والمسائل الفقهية من أجل ضمان استمراريتهم الوجودية والتاريخية كأقلية دينية تعيش في ظل أغلبية سنية، فلهذا يمكن القول أن حفاظهم على هويتهم الدينية والاجتماعية كان نتيجة خلق استراتيجية دفاعية من أجل ضمان صيرورة بقائهم مع أهل الخلاف أو ما يمكننا تسميته بالآخر.

كما يبدو ذلك جليا عند العلامة محمد بن يوسف أطفيش³، أحد أقطاب الفكر الإباضي ورواد الحركة الإصلاحية في التاريخ الإسلامي، فهو لم يكتب سيرة ذاتية حول مشواره الديني والفكري، لكن باستطاعة المتصفح لكتبه ومؤلفاته أن يجد بعض الإشارات المختصرة حول سيرته الذاتية وواقعه التاريخي، رغم أنها لا تمت بأية صلة مع المواضيع التي كان يعالجها. ويمكن إتمام هذه المعلومات وصياغتها بطريقة أكثر وضوحا اعتمادا على تحريات معرفية لمفكرين إسلاميين وأوروبيين. خاصة في بعض أشعاره كان فيها حول أمنيته الشخصية في أن يكون مجددا لدين الله وسنة رسوله المصطفى الكريم. وكان قطب الأئمة يعتبر جلال الدين السيوطي (ت. 911هـ)

هـ/1505م) مثله الأعلى والأسمى في مشروعه الإصلاحية إذ كان يسعى إلى تَتَبُّع خطاه الإصلاحية عن رضى وطوعية.⁴

وتطرق أطفيش في قصيدتين شعريتين والمشهورتين بالقصيدة الحجازية إلى سفره الأول في سنة 1873 إلى بلاد الحجاز من أجل أداء فريضة الحج وسفره الثاني في سنة 1882، كما كان يشير عدة مرات لرحلتين إلى بلاد الحجاز في العديد من كتبه ولا يُخفي افتخاره بهذا الحدث التاريخي، حيث تسنى له أن يتعرف على الكثير من علماء أهل السنة، فضلا عن التعريف بمذهبه الإباضي كخطاب ديني وفكري لا يمكن عزله عن الأمة الإسلامية بسبب الاختلاف في بعض المسائل الفقهية الفرعية.⁵

ويشير أطفيش في بعض رسائله لبعض علماء عمان دون أي تفصيل حول معاناته اليومية مع التيار المحافظ في المجتمع الميزابي وإحساسه بالغربة بعد إخراجه من بلده بني يزقن بعد إصدار حكم البراءة ضده.⁶ فتاريخ الأفكار المؤسس للذاكرة المعرفية في الخطاب الإباضي سجل فعلا الموقف السلبي لعلماء دين إباضيين من وادي ميزاب إزاء حركته الإصلاحية خوفا من تشتت الوحدة الدينية والاجتماعية لجماعة الإباضيين. لا يتسع المقام هنا لأن نعرض كل المراحل الحياتية والمعرفية لقطب الأئمة من خلال مؤلفاته، لأن هدفنا ليس كتابة ترجمته التاريخية، بل توضيح المعالم المهمة في سيرة هذا المجدد الإباضي وحواره مع الآخر.

وتجدر الإشارة إلى تجربته المتمثلة في لقاءه مع شخصين معاصرين له واللذان لعبا دورا مهما في التعريف بالمذهب الإباضي في العالم الغربي إبان القرن الماضي. أثناء فصل صيف سنة 1901م أتى كاهن فرنسي شاب اسمه "لويس دافيد" (ت 1965م) إلى وادي ميزاب حيث كان يقطن الآباء البيض الكاثوليك منذ سنة 1872 مدينة غرداية حتى يومنا هذا. كان هذا الكاهن من المهتمين بتاريخ وادي ميزاب وبالمذهب الإباضي مما أتاح له معرفة أن هناك عالم إباضي ومصلح ديني يسكن قصر بني يزقن اسمه محمد بن يوسف أطفيش، والذي كان يتمتع باحترام كبير من قبل أهالي وادي ميزاب وبعض علماء أهل السنة. يخبرنا الكاهن دافيد أنه لما دخل مدرسة قطب الأئمة في بني يزقن وجد شيخا يبلغ حوالي الثمانين سنة، حيث سلم عليه، ودون أن يرد أطفيش التحية سأل الكاهن ماذا يريد، وطلب منه مرتين أن ينطق الشهادة. رفض الكاهن دافيد ذلك بسبب ديانته المسيحية، كما حدثنا أن أطفيش بدأ يقرأ له من كتاب باللغة العربية، وطلب منه مرة أخرى أن ينطق الشهادة مشيرا إلى أن كل من دخل عليه وقرأ من هذا الكتاب إلا وأسلم، لكن الكاهن دافيد تشبث برفضه نطق الشهادة، وبعد ذلك خرج من مدرسة أطفيش مخيبا الآمال وعلق على هذا اللقاء بالجملة التالية في أحد مؤلفاته: «يمكن لهذا الإنسان أن يكون أحد فطاحل كبار العلماء المسلمين، لكنه في نفس الوقت هو رجل دين متعصب».⁷

فعلا لم يكن الكاهن دافيد مسرورا أبدا بهذا اللقاء العابر وما نتج عنه، ورأى أن أطفيش لم يحترم شعوره الديني محاولا إرغامه على اعتناق الإسلام، ولم يمنع هذا الموقف الكاهن دافيد من دراسة المذهب الإباضي الذي أوقف عليه كل حياته والتعريف به على مستوى الفكر الغربي، مع العلم أن الخطاب الديني والمعرفي لأطفيش كان موضوع اهتمامه الرئيسي.

وينبغي الإشارة هنا أن أطفيش لم يكن عالما يعيش على هامش واقعه الحاضر، ويوحى تصرفه مع الكاهن دافيد بأنه كان على علم بما يحدث حوله في مجتمعه، ويبدو أنه كان حذرا مع الآباء البيض الكاثوليك، إذ إن الأحداث التاريخية تثبت أن هؤلاء كانوا أولا يتعاملون مع الإدارة الاستعمارية الفرنسية من أجل خدمة مصالحها، وثانيا كانوا يمتهنون علنا وسرا التبشير بالدين المسيحي في المجتمع الجزائري بأكمله.⁸

ونذكر لقاء لأطفيش مع عالم آخر من المدرسة الفرنسية اسمه "إميل مسكري" (1843-1894)، الذي كان متخصصا في الدراسات الإسلامية⁹، الذي يثبت أن قطب الأئمة لم يكن عالما متعصبا وأن حوار الفكري مع هذا الباحث كان بوهانا صريحا لتواصل حضاري خصب ما بين ثقافتين متميزتي المعالم. في سنة 1878 يشير مسكري - في مقدمة تحقيقه لمخطوطة السيرة وأخبار الأئمة التي ألفها "أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر الورجلاني" (ت. 474هـ/1081م) - إلى أنه تحصل على معلومات قيمة من قطب الأئمة حول نشأة المذهب الإباضي وتطوره التاريخي وحول مبادئه الدينية.¹⁰ يصرح قطب الأئمة في الفصل العاشر من كتابه الرسالة الشافية في بعض تواريخ أهل وادي ميزاب بأنه ألف هذا الكتاب بطلب من هذا العالم الفرنسي، ومع إلحاح بعض سكان القصور الخمسة لوادي ميزاب، إذ يؤكد أن هدف هذه الرسالة التاريخية هي أولا وقبل كل شيء خدمة لمصلحة الإسلام، لأنه لا يمكن مقارنة بعض العلماء الفرنسيين المخلصين لإرادة العلم مع حكامهم السياسيين الذين لا يريدون إلا الهيمنة الاستعمارية على البلاد والعباد.¹¹

ورغم أن قطب الأئمة كان عدوا لدودا وصارما مع كل ما هو فرنسي في الجزائر، فلم يدّخر جهدا في التواصل المعرفي مع الآخر غير المسلم، ويمكن القول أن أطفيش كان يبحث عن اعتراف الآخر بسلطته الدينية وجهوده في مجال الإصلاح، هذا من جهة حين كان بعض علماء الدين من ممثلي التيار الإباضي المحافظ يحاربون مشروعه التجديدي للمذهب الإباضي، ومن جهة أخرى كان يحاول التعريف بتاريخ ومبادئ المذهب الإباضي لدى الآخر من كونه المذهب الثاني إلي جانب أهل السنة للدين الإسلامي في الجزائر.

في سياق هذه المساهمة المعرفية هناك أسئلة تطرح نفسها وهي كالآتي: ما هو موقف أطفيش من أهل الخلاف؟ بتعبير آخر: هل يمكن التحدث عن محاولة التقريب ما بين الإباضي والسني الآخر في نسق خطابه الإصلاحية؟ وهل وفق فعلا في ذلك؟ ألم يكن الهدف الرئيسي

لقطب الأئمة هو التعريف بالإباضية محاولاً من خلال مشروعه الإصلاحي كسب الاعتراف به كمذهب ديني أقاويله أقرب من أقاويل أهل السنة؟ وهل كللت مجهوداته الإصلاحية بالنجاح بفضل محاولاته تحرير الإباضية من إطار قوقعة الكتمان الذي فرض عليها في القرون الماضية من علماء الإباضية السابقين أنفسهم الذين كان هاجسهم الأساسي هو الخوف من الاندثار الوجودي في خضم الأغلبية الساحقة لأهل السنة في شمال إفريقيا.

ومن ثم يسعى صاحب البحث اعتماداً على المنهج التاريخي التحليلي والنقدي أن يلقي الضوء على بعض المحاور الرئيسية في الخطاب الإصلاحي لهذا العلامة المصلح مستفيداً من النسق القرآني والسنة النبوية الشريفة، لأن قطب الأئمة حاول أن يقدم نموذجاً فكرياً من أجل تجديد الفكر الإسلامي أثناء الحقبة التاريخية التي كان يعيشها، فقد ارتأى الكاتب أن يرافق أطفيش فكرياً من أجل الكشف عن بعض مبادئ خطابه الإصلاحي، الذي جعل من مفهوم النصيحة للآخر محوراً أساسياً في نسقه الفكري، كما يريد الباحث إمعان النظر في بعض نماذج القطب من نصابه للآخر السني.

1. الوضع الفكري والثقافي لوادي ميزاب:

إن بداية تجسيد المشروع الإصلاحي الإباضي في وادي ميزاب ابتداءً من النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي أدت إلى زعزعة حقيقية للوقائع والتصورات الدينية والاجتماعية التقليدية التي كانت مهيمنة على ذهنية الفرد في المجتمع الإباضي، كمثل على ذلك الإدعاء المنتشر في ذلك الوقت أن الإباضية هي الفرقة الوحيدة المحقة بين المسلمين كلهم، لأنها تستمد جذور مبادئها الدينية من إسلام الساعة الأولى في القرن الهجري الأول.

وبدأت الحركة التجديدية مراجعة المذهب الإباضي لما تسرب إليه من بدع محرمة عديدة بين أفرادها، ويشير أطفيش في أحد كتبه أن الدين الإسلامي بدأ بالأفول حيث تضاعل تأثيره على عقول وقلوب الناس من جراء فهمهم الخاطئ له.¹² كتب أطفيش في سنة 1899م إلى عالم عماني اسمه "عيسى بن صالح بن الحارثي" ويخبره أن الله بعثه لهم مجدداً ومصلحاً لهذا الدين¹³ . إن هذه مقولة تترك للقارئ مجالات عديدة للتأويل، نذكر منها ما يلي:

أولاً: يبرهن من خلال مقولته هذه على أمنيته المثلى أن يكون مصلح قرنه، حيث أن هدفه الأسمى هو العودة بالمسلمين إلى طريق الإسلام الصحيح وصراطه المستقيم.

ثانياً: يوحي هذا القول أن أطفيش يعتمد على الحديث النبوي الشريف المتضمن لقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن الله يعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها دينها.¹⁴

إن الوضع الديني والاجتماعي والسياسي في وادي ميزاب كان في تلك الحقبة التاريخية لا

يختلف جذريا عن باقي المدن الجزائرية الأخرى، فحسب رأي بعض المفكرين الإباضيين المعاصرين كان وادي ميزاب يعيش حالة من الركود والتخلف الفكري والاجتماعي. يرى "بوتردين" مثلا أن شعاع المعرفة والثقافة الإسلامية قبل وأثناء المرحلة الإستعمارية كان شبه منعدم في الجزائر بأكملها، أما وادي ميزاب كان يعاني ما بين القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر ميلادي من حالة فتور فكري وفراغ ثقافي.¹⁵ إلا أن بعض المؤرخين الإباضيين حاولوا بكل ما في وسعهم تصوير الوضع -وقتئذ- بطريقة إيجابية، فمثلا يرى "دبوز" (1919-1981) أن وادي ميزاب لم يكن في أي وقت من الأوقات خاليا من العلماء، فهم الذين كانوا يتولون مهمة الشؤون الدينية ويقومون بوعظ وإرشاد العامة والخاصة، فحسب رأيه كان المجتمع الإباضي في كل العهود التاريخية متمسكا بالدين غيورا عليه ومحافظا على نظامه الإسلامي ومبادئه، حيث كان لا يرضى أن يضعف أو يضمحل، لكن سرعان ما يناقض "دبوز" نفسه في الصفحة التالية، إذ يشير أن وادي ميزاب تخللته بعض الخرافات والبدع وساده الجهل وقلة العلماء.

كما يؤكد المؤرخ "دبوز" أن "حلقة العزابة" ضعفت بسبب العصبية والجاهلية التي فرقت وحدة صفوف أعضائها.¹⁶ وما من شك في أن وادي ميزاب كان ناقصا في الجانب العددي من أهل العلم لطغيان سلطة غير العلماء على الأمور وأحيانا اضطهادهم، لكن ينبغي الإشارة إلى أن الكثير من هؤلاء العلماء كانوا يمتنعون حرفة التجارة والفلاحة من أجل كسب قوة يومهم بسبب الظروف الاقتصادية السيئة التي كانت تسود وادي ميزاب في ذلك الوقت. فلم يبق لهؤلاء العلماء إلا الوقت القليل للاهتمام بالتعليم وتربية الأجيال وتأليف الكتب، ومما زاد الطين بلة أن الكثير من طلبة العلم فرضت عليهم الظروف الفكرية والاقتصادية الصعبة مغادرة مدارس طلب العلم والالتحاق بميادين العمل لمساعدة أسرهم على سد رمق العيش.

وتجدر الإشارة إلى رأي مخالف للطرح التاريخي لبعض مفكري الإباضية المعاصرين الذي يؤكد على وجود قلة قليلة من علماء الدين في وادي ميزاب أثناء بعض المراحل التاريخية، فمثلا كانت مدينة بني يزقن ما بين سنة 1682 وسنة 1696 خالية من علماء الدين، لهذا السبب فرض هذا الوضع على الإباضيين جلب بعض العلماء من خارج وادي ميزاب، لكن لم يكن لهؤلاء إلمام بالذهنية المزابية وخبرة ميدانية في معالجة المشاكل اليومية التي كانت تواجههم مع سكان المنطقة.¹⁷

كما ينبغي التأكيد أنه ليس باستطاعة أي أحد إنكار الدور الفعال، الذي قام به هؤلاء علماء الإباضيين والمتعلق بالحفاظ على وحدة المجتمع الإباضي في وادي ميزاب عبر التاريخ وحماية أسسه المذهبية الدينية، لكن هذا لا يعني أن الإسلام الإباضي في تلك الحقبة التاريخية لم يكن له نفس مصير الإسلام السني فكلاهما كان يعاني من باتولوجية التخلف والجمود على كل

المستويات¹⁸. وخير دليل على ذلك هو قيام حركة إصلاحية وتجديدية حاولت كل ما في وسعها من أجل إنعاش الوضع الديني والفكري والثقافي.

من مميزات الخطاب الإصلاحية لأطفيش هو صراحته الخالصة أثناء وصفه للوضع الفكري والثقافي لمجتمعه الإباضي في تلك المرحلة التاريخية، ففي إحدى فتاويه حول القضاء وشروط القاضي المتأهل لذلك، يشير إلى أن المتعارف عليه عند إباضية المغرب أنه لا بد للقاضي أو المفتي أن يكون عالما بالنحو والتصريف واللغة مع الفقه إلى غير ذلك من العلوم الأخرى، ويؤكد أن من يتصدر هاتين الوظيفتين في وقته سوى الجهال وهم دون ما ذكره، ولا يمكن بأية طريقة عذرهم على ذلك.¹⁹ في إحدى مخطوطاته يترجم قطب الأئمة كذلك واقع عصره بطريقة لغوية رائعة تفوق كل وصف حيث يقول: «وانما أطب في هذا المقام لأحرك أذهانا ألفت الجمود وأهيج أفهاما طالما مالت نيرانها إلى الخمود».²⁰

ولعل أحسن صورة للحالة الدينية والفكرية في تلك الحقبة التاريخية هي التي يرسم معالمها أحد الباحثين الجزائريين واسمه "محمد عكي علواني" حين رأى أن الجهل طغى على المجتمع الميزابي وسادت فيه عادات وتقاليد لا تعطي أية أهمية وتقدير للقيم الدينية، فاعتبر مثالا إفشاء السلام بدعة وتوريث المرأة ضلالة وترويج المرأة بطالب العلم إلقاء بها إلى التهلكة، وكل عالم حاد عن طريق أهواء الناس أعلنت عليه المعارضة جهرا من أجل عزله من وظيفته، كما أنه يطارد أو يخرج من دياره عن طريق حكم البراءة. وليس من النادر أن يلقي مصرعه قتلا من جراء الحكم عليه بالتكفير أو الزندقة²¹، وخوفا على حياتهم أتقن الكثير من علماء الدين قدرة التكيف مع الأوضاع القائمة وممارسة الصمت المقنن، لهذا السبب اقتصرت وظيفتهم الدينية على شرح الفرائض والواجبات الدينية.

ويشير "أعوش"، أحد مؤرخي الفكر الإباضي، إلى تمسك الإباضيين في ذلك الوقت بالحديث النبوي الموضوع: «إن أعيتكم الأمور، فعليكم بأصحاب القبور».²² إن انتشار هذا الحديث بين إباضي وادي ميزاب يؤكد على أهمية تقليدهم الأعمى لأسلافهم، كما أنه يوحي إلى التشبث بظاهرة التقديس لكل ما هو قديم دون مراعاة روح العصر ودون طرح السؤال، إذا ما كانت أفكار وآراء القدماء صحيحة أم لا؟ إذن بدأ الفكر الإسلامي يعيش على هامش المجتمع وأضحت اللغة العربية المعبرة عنه وأداة تواصله تبتعد شيئا فشيئا عن حاضر أفراد المجتمع الإباضي وواقعه؛ وكانت النتيجة المحزنة هي استقالة الدين عن دوره القيادي في مسيرة التطور الزمني.

أخيرا ينبغي الإشارة إلى أن الطرق الصوفية والزوايا لم تعرف رواجاً في وادي ميزاب لأسباب ترجع للمذهب الإباضي نفسه، لكن رغم هذا انتشر بين إباضي وادي ميزاب تقديس

بعض الأماكن والأضرحة التي كانوا يعتقدون فيها البركة والأسرار الباطنة، فالكثير منهم كانوا يترددون عليها لاعتقادهم أنها تجلب لهم البركة وطمأنينة النفس. كما أنه كان لكل بلدة أضرحتها المقدسة الخاصة بها، ونذكر على سبيل المثال: "مقام سيدي عيسى في غرداية، ضريح الشيخ أبي محمد في بني يزقن، وضريح الشيخ زكريا في العطف وهناك الكثير منها".²³

"أبوالقاسم سعد الله"، أحد المؤرخين البارزين للخطاب الثقافي في الجزائر لا يميز بين الوضع التربوي للعلوم الشرعية في الجزائر بصفة عامة وبين وادي ميزاب بصفة خاصة، إذ يؤكد أن التقليد الأعمى والتكرار الغير ممل والحفظ عن ظهر قلب كانوا أهم السمات المميزة لتلقيه في المدارس الدينية. لهذا السبب كثر انتشار الرواية وسرد المعلومات دون استخدام منهج التمحيص والترجيح، فقلما وجد علماء دين وفقهاء اجتهدوا بآرائهم أو استقلوا عن رؤى مذهبهم الفقهية، وكل من انحرف عن هذا المنهج أقاموا عليه الدنيا وأقعدوها.²⁴

ولعل ظاهرة الاقتفاء المطلق لآثار السلف هي التي كانت مسؤولة على ندرة الإنتاج المبدع في مجال العلوم الشرعية لقلة الثقافة الشاسعة وضيق الرؤى المعرفية، لهذا السبب كان مجمل الإبداعات يقتصر على مجال الحواشي والمختصرات والحواشي المغيبة لكل استقلال عقلي وتفكير نقدي. ويوضح "علواني" بأن سيطرة هذه الخصوصيات في العلوم الشرعية التي كانت كذلك سائدة في المذهب الإباضي، انعكست آثارها في مناهج التدريس المتبعة في المدارس الخاصة من طرف الشيوخ، فكان الاعتماد على الحفظ عن ظهر قلب الذي صادر التفكير النقدي والاقتصار على الشرح اللغوي الذي أدى إلى إلغاء التفسير والفهم المسابير لروح العصر السائدة.²⁵

ونوميء إلى عنصر مهم هنا رغم ما به من سلبيات وهو الذي أسرع بحركة الخطاب الإصلاحي في وادي ميزاب، ونقصد به التقاء إباضي الجزائر مع الثقافة الغربية التي فرضت عليهم لإراديا عن طريق وجود الاستعمار الفرنسي ابتداءً من سنة 1853م في قرى وادي ميزاب، وكانت نتيجته شعورهم بنقص رهيب اتجه هذا التطور الحضاري لهذا الآخر الأوروبي. من دون أي شك كان الوجود الاستعماري قوة متطورة في كل الميادين، وهو أحد الأسباب الرئيسية لاستفهامات عديدة طُرحت، نذكر منها على سبيل المثال: لماذا تأخر المسلمون مقارنة مع هذا الآخر؟ وما هي الأسباب التي أدت إلى هذا الركود الحضاري؟ وهذا ليس فقط في وادي ميزاب، وإنما في رحاب العالم الإسلامي كله.

يمكن اعتبار هذه الأسئلة مجرد رد فعل على السيطرة الاستعمارية، لكن السبب الحقيقي في ذلك يمكن إرجاعه إلى الفهم الخاطئ للدين الإسلامي الحنيف والانحراف عن طريقه، إذ يردّ مصلحو المذهب الإباضي - ككل المصلحين في التاريخ الإسلامي - سبب تخلف المسلمين

وركودهم الحضاري إلى ابتعادهم عن القرآن الكريم وواهمالهم للسنة النبوية الشريفة. فانطلاقاً من هذه الرؤيا يتفق كل المصلحين الإسلاميين - بغض النظر عن انتماءاتهم المذهبية- حول المهمة الأساسية للمصلح المسلم ألا وهي ضرورة تجديد مبادئ الإسلام الحنيف والعودة به إلى ساعاته الأولى إبان القرن الأول الهجري. فليس من الغريب أن يتهم الفكر الإصلاحي في تاريخ الإسلام من طرف الفكر الليبرالي المسلم والمدرسة الاستشراقية بنزعة الرجوع إلى الماضي دون مراعات وقائع العصر ومعطياته المعاشة.

فمن خلال الحركة الإصلاحية أخذ التطور الديني والفكري والاجتماعي لوادي ميزاب منحى تاريخياً جديداً، ففي البداية تركزت هذه الحركة التجديدية في بلدة بني يزقن التي كانت مركز إشعاع روحي وعقلي للمشروع التجديدي، وبعدها انتشرت بسرعة في المدن الأخرى بوادي ميزاب. كما أن هذه الحركة لقيت صدى كبيراً بين الإباضيين المتواجدين -لأسباب اقتصادية- في المدن الجزائرية الأخرى. وفي هذا السياق ينبغي الإشارة إلى أن مشروع أطفيش التجديدي تأثر بعالمين إباضيين، حملاً لواء الحركة الإصلاحية قبله، وهما له الأرضية المعرفية الخصبة من أجل إنجاز وتحسيد مشروع الخطاب الإصلاحي، وكان أولهما: "أبو زكرياء يحيى بن صالح الأفضلي" (1788/1714) الذي كان أصله من بلدة بني يزقن.²⁶ ثم غادر الأفضلي في مرحلة شبابه مسقط رأسه طالباً للعلم حيث تتلمذ في جزيرة جربة على يد "يوسف بن محمد المصعبي المالكي" (ت. 1207هـ/1792م).

لكن أهم معلومة حول مشواره العلمي تحتفظ لنا بها ذاكرة التاريخ الإباضي وتعدّ نقطة تحول جذري في انفتاح طلبة العلم على أهل الخلاف، وهي تواجده بمدرسة الأزهر واغترافه من منابع علم أهل السنة لوضع سنوات، فحتماً احتك هذا العالم بأفكار الآخر. في سنة (1157هـ/1744م) عاد إلى بني يزقن وأسس "مدرسة التلاميذ"، ولم يغط أطفيش حق الأفضلي في الثناء على مجهوداته الإصلاحية في موسوعة شرح النيل، معتبراً إياه من العلماء الذين أحيوا العلم في وادي ميزاب وأ ناروا شعلة التجديد.²⁷

أمّا ثانيهما: اسمه "عبد العزيز بن إبراهيم الثميني" (1808/1718) الذي كان كذلك من مدينة بني يزقن، وكان من تلاميذ الأفضلي النجباء، وقد تأثر بأستاذه تأثراً قوياً، ظهرت بصماته في تكوينه العلمي وتوجهه الإصلاحي.²⁸ وفي مدخل كتابه النيل وشفاء العليل يقدم لنا هذا العالم صورة حية وشهادة مخلصة عن واقع العلم والعلماء الذين كانوا معاصرين له حيث يقول: « ومن العلم قد أدبرت أيامه وانظمست أعلامه وسدت مصادره ومنعت موارده». يكشف لنا مضمون هذا القول نظرة الثميني الموضوعية لواقع عصره. يرى أطفيش أثناء تفسيره لهذا القول أن أيام العلم قد إنتهت وتبعثها أيام الجهل، أمّا العلماء فقد فقدوا، فلا هادي للناس من بعدهم لبلوغ

مقاصد الدين.²⁹ من المعلوم أن الثميني كان أول عالما إباضيا انتقد بشجاعة السلف الإباضي، حيث دعى إلى مسيطرة روح فكر الخلف لأن عباراتهم أكثر وضوحا من عبارات السلف.³⁰ كما أنه أسس مدرسة خاصة في بني يزقن تعرف اليوم باسم "مكتبة الاستقامة" التي أصبحت قبلة طلاب العلم في وادي ميزاب أين كانت تنشر أفكار الإصلاح. وابتداءً من سنة 1786م مارس وظيفة شيخ العزابة في بني يزقن جاعلا من منبر المسجد مكانا لمحاربة البدع علنا، مما جلب له الأذى من التيار المحافظ، حيث تمت محاربة أفكاره والثورة ضد شخصه³¹. وفي السنوات الأخيرة من حياته اعتزل الناس ظنا منه أن اجتهاداته الإصلاحية لم تكمل بالنجاح، واشتغل بالتأليف ووضع الشروح لأهميات كتب الإباضية.³²

تأتي أهمية هذه العجالة في إبراز جهود هذين العالمين لمحاولة تحديد المراحل التاريخية التي مر بها الخطاب الإصلاحي في العصر الحديث والمعاصر. فالمرحلة الأولى من الخطاب الإصلاحي تمثلت في جهود الأفضلي والثميني وسبقت هذه المرحلة الحقبة الاستعمارية ولم يكن فيها أي اتصال بالحضارة الغربية أو تأثير خارجي ماعدا الانفتاح على أفكار الآخر السني. وأهم سمات هذه الحركة أنها كانت نتاجا فكريا للمعطيات التاريخية ووليدة محيطها الواقعي والجغرافي في وادي ميزاب، فسعت جاهدة للثورة على أوضاع الركود والتخلف هادفة لتغييرها نحو الأحسن، ومن الصفات الأخرى التي ميزتها أنها كانت حركة دينية محضة تعتمد على الكتاب والسنة النبوية الشريفة عملت كل ما في وسعها من أجل إحياء علوم الدين ونشره عند الخاصة والعامة، وتضمن مجال عملها الإصلاحي تأسيس المدارس الحرة المنافسة للمدارس الرسمية التابعة للمساجد وتعليم الطلبة اعتمادا على كتب أهل الخلاف والوعظ والإرشاد لمحاربة البدع.

أما المرحلة الثانية وهي التي سنتحدث عن أهم محاورها في هذا المقال إذ حمل لواؤها قطب الأئمة، والحق يقال أن أطفيش استفاد كثيرا من رؤى المرحلة التي سبقته، فلم يتبن أفكارها فقط، وإنما طبق مجالات عملها في أرض الواقع مما أدى إلى نجاحها على الصعيد العملي، حيث لقيت صدى كبيرا بين الكثير من أفراد الإباضية في العالم الإسلامي.

أما في المرحلة الثالثة تتضح الانطلاقة في سنة 1912، أي سنتين قبل وفاة المصلح العلامة محمد بن يوسف أطفيش، ففي هذه السنة تم إرسال أول بعثة طلابية إلى جامع الزيتونة في تونس يرأسها "إبراهيم أبو اليقظان" (1888/1973) ومن بين أفرادها "أبو إسحاق إبراهيم أطفيش" (1886/1965). إنه التوجه الفكري والانفتاح الواعي اتجاه السني الآخر خارج الحدود الجغرافية للجزائر من دون أي خوف من تلاشي الهوية الإباضية، إنها مرحلة ميلاد الإباضية كمذهب ديني يعتبر نفسه جزء لا يتجزأ من تاريخ الأفكار في العالم الإسلامي الذي يرفض أن يكون وجوده على هامش الفكر الإسلامي. وما تزال آثار طلبة أطفيش في منهجهم الإصلاحي وحركتهم التجديدية

ترسم بوضوح معالم صيرورة الفكر الإباضي المعاصر إلى يومنا هذا.

2. مفهوم الإصلاح في خطاب أطفيش الفكري:

تعني دلالة لفظ "الإصلاح" في الاستعمال اللغوي الشائع اليوم التقدم والتجديد، أما في الخطاب الفكري للديانات الإلهية فإن مفهوم الإصلاح ليس محدود المعنى الدلالي والتوظيف المعرفي، فهو يتضمن المحاولات الفردية والجماعية لبنى الإنسان الشاملة لمبادئ الدين من أجل فهم الوضع القائم ومعطيات حركته. فالإصلاح كاختيار معرفي وعملي هو نهج خطوات واعية نحو الأمام من أجل تغيير الواقع المعاش وتحقيق مستقبل أفضل وأمثل لضمان سعادة الأفراد في دار الدنيا.³³ فاعتمادا على اجتهادات بعض العلماء كقوى إبداعية خلاقة يدعوا هؤلاء إلى إصلاح القيم الدينية وتجديد الاعتقاد، خاصة لما يسيطر الشعور بالنقص اتجاه الأوضاع القائمة وهيمنة الإحباط الجماعي على ذهنية الناس.

يتخذ الدين الإسلامي الحنيف من الإصلاح منهجا فكريا وعمليا من أجل تجديد الأسس الدينية والقيم الأخلاقية، لهذا كان للإصلاح الديني ومبادئه الفكرية أهمية كبرى عبر التاريخ الإسلامي باعتباره تصورا ومنهجيا حياتيا للمسلم، كما ينبغي التأكيد على كون نسق النص القرآني والسنة النبوية الشريفة يدعوا إلى الإصلاح حينما يعمّ الأرض الفساد ويزاغ عن طريق الإستقامة³⁴، ويؤيد تجديد الفهم الصحيح للدين بسبب عامل الإهمال لمبادئه. وبإمكاننا أن نعرف الإصلاح في الخطاب الإسلامي بطريقة أكثر دقة: إن الإصلاح في المفهوم الإسلامي هو الرجوع إلى الحقيقة الدينية ومحاولة تحريرها من ضلال الفهم الخاطئ لمبادئها، الذي تسرب إليها مع الوقت بطريقة واعية أو لاواعية. إن الإصلاح كمشروع أخلاقي هو الإقصاء الفكري لكل البدع المحرمة والاستئصال العملي للاعتقادات الباطلة التي تسبب في نشرها الجهل.

أما بالنسبة لمفهوم "التجديد" كمرادف لغوي للإصلاح، فهو فهم مبادئ الإسلام القائم على الشرح والتوضيح ومحاولة إرجاعها إلى منابعها الثمينة في النص القرآني والسنة النبوية الشريفة ونهج الصحابة، ومن هنا يمكن القول أن كل من الإصلاح والتجديد هما الصياغة الجديدة للإسلام عن طريق التفسير المسائر لروح العصر للأسس الثلاثة السالفة الذكر. إذن، كيف عرّف أطفيش مفهوم الإصلاح؟ وكيف حدد معالمه الدلالية والمعرفية؟

إن المتأمل لتاريخ الخطاب الإصلاحى عند الإباضية قبل القرن التاسع عشر لا يجد استعمال كلمة الإصلاح كمفهوم مستقل بذاته أو الإشارة إليه كدلالة معرفية، كما أن مصادرهم الدينية لا تكاد تشير إلى أي عالم ديني وظف هذا المفهوم قبل هذه الحقبة الزمنية. فليس هناك أي برهان تاريخي يدل على أن رواد الفكر الإصلاحى أمثال أبو زكرياء يحيى الأفضلي وعبد العزيز الثميني استعملوا هذا المفهوم في نطاق مجهوداتهم التجديدية، لكن هذا لا يعني أن أفكارهم لم

تكن تمت بأية صلة إلى الفكر الإصلاحى الإباضى.

يرجع الفضل الكبير إلى محمد بن يوسف أطفيش الذى يعتبر أول عالم إباضى يوظف مصطلح الإصلاح معرفياً ويدخله فى نطاق خطابه التجديدي بالمغرب العربى.³⁵ يشبه أطفيش مفهوم الإصلاح بعملية "جب رظام الجسد" بعد انكسارها، كأن قطب الأئمة يقارن أوضاع المجتمع مع رظام جسد الإنسان، التى إذا انكسر أحدها أثر على وظائف سائر الأعضاء الأخرى وحيويتها. فدلالة الإصلاح حسب رأيه هو جبر الانحرافات الغير العادية فى كل المجالات من أجل تأمين صيرورة المبادئ المتعارف عليها من طرف الجميع، أما الفساد هو الضد المعاكس للإصلاح، ففعل "أصلح" هو النقيض الصريح لفعل أفسد. إن المصلح حسب رأيه إذا أصلح بين من أفسدهما النزاع والكره، مثل صلة الرحم بين المتخاصمين القريبين فى النسب حصل المصلح وتجسّد عملياً ضد الفساد، فلهذا السبب يكون تصرف المصلح بمعنى الإصلاح كاسم مصدر أصلح، ومصدر أصلح هو الإصلاح؛ أى "أصلح بينهما صلحاً أى إصلاحاً"، فالصلح هو إحدى وجوه الإصلاح الذى يحاول عن طريقه رفع الفساد، وانطلاقاً من هذا الفهم القياسى يعتبر قطب الأئمة الصلح إصلاحاً كونه يجعل شرعاً وعن رضى نهاية للنزاع القائم بين المتخاصمين، إذن فالصلح حسب تعريفه هو سيد الأحكام، إذ إنه كفكرة وعمل أمر بالمعروف ونهى عن المنكر.³⁶

يظهر للقارئ من الوهلة الأولى أن أطفيش لا يميز بين مفهومي "الإصلاح" و"الصلح"، ويخلط بين معنى الألفاظ ومعنى المعاني إلا أن الرأى الموضوعى لا يتوخى إنصاف قطب الأئمة، لأنه لا يريد من وراء ذلك غير تبسيط المفاهيم من خلال سياق أمثلة من أرض الواقع حتى يتسنى فهم المقصود، كما أن فكرته توحى أن الصلح ما هو إلا ضرب آخر من ضروب الإصلاح المتعددة، فسياق الأمثلة من واقع أطفيش المعاش هي خاصية أساسية أخرى يميز بها خطابه الإصلاحى، إذ يحاول إخراجها من نطاقه النظرى إلى النطاق العملى من أجل استيعاب الآخر لأفكاره وتقبلها.

ففى تفسيره للقرآن الكريم المسمى "بتيسير التفسير" الذى يشمل تصورات التجديدية يضرب مثلاً آخر من أجل التأكيد على التكامل المعرفى لمفهومي "الإصلاح" و"الصلح" معتمداً تفسير الآية: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوراً أَوْ إِعْراضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصَلِّحَا بَيْنَهُمَا صَلَاحًا وَصُلُوحًا خَيْرٌ﴾: (سورة النساء: آية 128)، فكل من يحاول الصلح بين الزوج والزوجة أثناء حدوث مشاكل بينهما هو إصلاح من أجل خلق المودة والرحمة بينهما، إذ أن الصلح بينهما كإصلاح خيرى هو أفضل من الفرقة وسوء العشرة والخصام، أو بتعبير آخر الصلح كإصلاح هو منفعة ومصلحة مشتركة، أما الخصام والعداوة كفساد مضرّة تعكر جو الحياة الزوجية.³⁷

ثم يوظف قطب الأئمة مفهومهما قرآنياً آخر ألا وهو "الصلاح"، بحيث لا يمكن فصله عن

مفهوم الإصلاح، إن الصلاح هو المرتبة العليا للإصلاح، الذي يبلغ غايته المصلح عن طريق الأمر بالمعروف والنهي على المنكر، ويتعبر أكثر دقة، عن طريق النصيحة والإنذار للآخر سواء كان إباضي أو من أهل الخلاف. فأتاء تفسيره للآية الكريمة: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكُهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾: (سورة آل عمران: آية 46)، يؤكد أن إدراك الصلاح بعد الإصلاح كأعلى درجة من درجات المؤمنين لا يكون كذلك إلا إذا شمل جميع الأوامر والنواهي مواظبا على المنهج الأصلح، إذ إن الصلاح كدرجة عليا بعد اجتهد الإصلاح ينبغي أن يشمل الاعتقاد والقول والعمل³⁸. نريد كذلك أن نحدد مفهوم "الفساد" كنقيض أطروحة الصلاح كإصلاح، يقول قطب الأئمة في كتاب شرح القصيدة الحائية: «الصلاح: هو ضد الفساد، والصالح هو الفاعل لما فيه صلاح من الأعمال الدنيوية وبراها وصار حقيقة شرعية صادقة على الفاعل لجميع الواجبات وبعض المندوبات، والتارك لجميع المحرمات والمنهيات، فلذلك قالوا الصالح هو المحافظ على حقوق الله وحقوق العباد».³⁹

لا يشير أطفيش إلى من هم هؤلاء العلماء رغم تدعيم رأيه بحججهم، لكن يمكن القول أن الصلاح حسب تصوره هو الهدف الأسمى لكل مؤمن، الذي يمكن تحقيقه عمليا عندما يقضي الإصلاح على الفساد في كل الميادين الشاملة لحياة الأفراد. إن وظيفة المصلح هي تحديد مواضع الفساد ومحاولة جعل نهاية لها من خلال توعية الآخر، وهذا من أجل الحفاظ على حقوق المعبود وحقوق العابد اعتمادا على القرآن الكريم وسنة نبيه المصطفى ونهج الصحابة.

مثلا أشرنا سابقا يعتبر قطب الأئمة الإصلاح نقيضا للفساد لكونه محاولة العالم المصلح القضاء على الفساد ومظاهره، فالمصلح إذا باشر مهمة الإصلاح يُظهر للأفراد علنا مظاهر الفساد المنتشرة في مجتمعه من خلال تحديد معالمها وطريقة تجلياتها على المستوى العملي. فحسب رأي أطفيش ليس هناك أعظم إفساد مثل إفساد من خالف أفضل الكتب وأفضل الرسل لأن المفسد أولا هو من يضل نفسه، وثانيا من يضل الآخرين⁴⁰، رغم إشارة قطب الأئمة لكتب الله ورسله الآخرين بطريقة غير مباشرة، يلح على مبدأ أفضلية القرآن الكريم وخاتم الأنبياء، ومن دون شك فنشر الفساد في الأرض يقوم على مخالفة أمر ونهي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

كما أنه يمكننا ملاحظة التمييز الموضوعي لقطب الأئمة بين فساد الفرد وفساد الغير، فالعناء فساداً في الأرض يبدأ أولا على المستوى الفردي للشخص الذي بدوره يفسد ذاته، ويضل الغير ثانيا من خلال تعامله معه، ومن هنا يكون تأثير فساد الفرد أكثر فعالية من خلال نشره بين أفراد الجماعة. إن فساد الجماعة يكون أكثر خطورة على المجتمع، انطلاقا من هذه القاعدة المعرفية يقدم لنا أطفيش تصورا آخرًا مكملًا لتعريفه الأول وأكثر توضيحا له؛ الفساد هو الاختلاف والشقاق المؤدي إلى تعطل المصالح الجماعية المتعارف عليها من طرف الجميع، مثل

القتال بين المسلمين⁴¹. يمكننا القول بأن الفساد الجماعي أكثر خطورة من الفساد الفردي، لأنه يصادر المصلحة المشتركة بين الأفراد ويهدد وحدتهم، أما فيما يخص تحديد أنواع الفساد الفردي يعمد أطفيش إلى تفسير الآية الكريمة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾: (سورة البقرة: آية 11) مبينا هذه الأنواع التي اشتملت الكذب والنميمة والغيبة والسرقة.⁴² رغم هذه التفرقة الدلالية في المعنى بين الفساد الفردي والفساد الجماعي فهما يشتركان في صفة الابتعاد عن صراط الله سبحانه وتعالى ومنهج سنة رسوله محمد (صلعم) والصدّ عنهما.

يوضح قطب الأئمة أن الله لا يحب الفساد، أي لا يقبله ويعاقب عليه، لهذا السبب يحذر الله بني آدم من الفساد في الأرض بعد أن أصلحها ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ﴾: (سورة الأعراف: آية 85)، أي بعد إصلاحها بإزالة الشرك والمعاصي عن طريق بعثه الرسل وتبليغهم للشرائع⁴³، كانت إذن مهمة الرسل بعد بعثهم إصلاح الأرض وهداية الإنسان إلى الطريق المستقيم بعد أن أفسدها عن طريق أهوائه ورغباته.

فأطفيش ككل المصلحين المسلمين يعتبرون الرسول محمد (صلعم) المصلح الأول في تاريخ الإسلام، وهو من أخرج الناس من الكفر والجاهلية حين كان الفساد سائدا في كل جوانب حياتهم، فعن طريق رسالته التي كان أساسها الإصلاح كان يسعى جاهدا ليطهر الناس من الشرك وما دونه من المعاصي وسوء الطباع وفساد اعتقادات الجاهلية.⁴⁴ لكن بعد فترة نبوة خاتم الأنبياء المصطفى محمد (صلعم) يتحمل مسؤولية إصلاح العباد -إلى يومنا هذا- فئة من العلماء ترفع راية الإسلام استنادا على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

وفي هذا السياق يورد أطفيش الحديث النبوي الشريف: «لا تزال من أمتي طائفة على الحق إلى أن يأتي أمر الله».⁴⁵ فالمراد بطائفة الأمة حسب تفسير قطب الأئمة هم العلماء والدعاة إلى دين الله منتهجين طريق الإصلاح، والآية الكريمة: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾: (سورة الأعراف: آية 181)، لأن معنى كل من الآية والحديث النبوي يشيران إلى أن في كل قرن توجد صفة هداية المسلمين عن طريق مجموعة من العلماء وظيفتهم إصلاح القيم الدينية وتطهيرها من كل البدع المحرمة التي شوّهت -عبر ممر التاريخ- نبعها الصافي.⁴⁶ لكن معالم تعريف الإصلاح ودلالاته المعرفية تبقى ناقصة المضمون والشكل، إذ لم تنطرق لرؤية أطفيش حول تعريفه لمصطلح "المصلح".

بداية يشير قطب الأئمة أن المصلح يمكن أن يكون نذيرا لقومه، فما من أمة إلا وكان فيها

نبيًّا أو نذيرًا، فالعالم المنذر الذي وظيفته الإصلاح يخبر الناس عن الله وأحكامه ووعيده للمخلفين وأوامره ونواهيه، فهؤلاء العلماء المصلحون اختارتهم الإرادة الإلهية⁴⁷ لاستخلاف الرسل في الأرض، وأحسن دليل يحتج به قطب الأئمة من أجل تعريف مدلول المصلح المسلم وظائفه وأهدافه هو النص القرآني: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾: (سورة هود: آية 88). فالمصلح هو من يريد بأمره ونهيه إصلاح حال الأمة بدين الله مستندا في ذلك على منهج النصح والوعظ، فلو وجد ما عليه الناس من صلاح لهم لما نهاهم عنه، فوظيفة المصلح هي رعاية حق الله وحق النفس وحق الناس.⁴⁸

أما إمكانية تجسيد المصلح لمجهوداته التجديدية يتحدد مقدارها حسب استطاعته وقدرته، فاحترام حق نفس الفرد وحق الجماعة كما ورد في القرآن الكريم تكون نتيجتهما حتما احترام حق الله في الأرض. كما أن تواصل المصلح مع أفراد مجتمعه ينبغي أن يكون أساسه الحكمة، وخطابه لهم بالتي هي أحسن بغية عدم تنفير الناس من شخصه وأفكاره⁴⁹، فمن هنا يمكننا أن نستنتج أن أطفيش يدعو إلى الطريقة السلمية أثناء تعامل المصلح مع الغير، لأن التواصل المبنى على عدم احترام الآخر وفرض الرأي عليه بالقوة اللفظية يؤدي إلى ابتعاد الناس عنه وتجنب أفكاره، وتعتبر آخر يؤكد قطب الأئمة على أهمية الحوار من أجل تجديد الدين الإسلامي وإحياء مبادئه.

وفي نهاية المطاف يقدم لنا أطفيش صورة أخرى لمصطلح الإصلاح، والذي لا يمكن فصله معرفيا عن الدلالات المشار إليها أعلاها وهو الإطار النظري للإصلاح الذي يشكل الأساس المعرفي من أجل البرهنة على الأفكار الإصلاحية والتجديدية. فمن جهة يشبه قطب الأئمة العلماء المصلحين بالمصاييح للاهتمام بهم في ظلمة الجهل، كما يهتدى بها في ظلمة الليل، ومن جهة أخرى فلولا جهود هؤلاء المصلحين الدائمين على تبين وشرح الدين بالتأليف والتعليم والمبالغة في النصيحة لانتشر الجهل، واندرست العلوم الشرعية لعدم اهتمام طلاب العلم بها وإحياء علوم الدين، وما يتصل بها من العلوم الأخرى من أجل تعلمها، وتعليمها للغير وتدوينها. إن وظيفتهم تشبه من يبعث الحياة في الجسم الميت، كما أن إحياء هذه العلوم وتجديدها بالتعلم والتأليف وبيان الصالح منها والطالح، الصحيح منها والفساد: «ولولا ذلك لانطمست آثار المذهب وانمحت وصارت بمنزلة الأموات التي بليت أجسادها واختلطت بالتراب وصارت بحيث تثيرها الرياح وتطيرها وتذهب بها في الجو بحيث لا يرى من آثارها شيء، والله أعلم».⁵⁰

وصفوة القول، في هذا المحور يمكن للمُطَّلِع على الخطاب الإصلاحية عند قطب الأئمة استنتاج النقاط التالية:

- بدون أدنى شك يمكن اعتبار أطفيش أول العلماء من عرف مفهوم الإصلاح لغة واصطلاحا في تاريخ أفكار المذهب الإباضي.

• إن الخاصية الفكرية الأخرى المميزة لرؤاه الفكرية أنه لا يكفي فقط بالتعريف الدلالي للإصلاح أو الإفساد، إنما يسعى جاهدًا لاكتشاف المفاهيم الأخرى المكملّة والشارحة للإصلاح مثل: "الصلح والصلاح" هادفًا بذلك إلى التحرر المعرفي من سلطة التعريفات النظرية وربطها بأرضية الواقع كمقياس جوهري لتجسيدها عمليًا.

• ولنعرف هذا التوجه المعرفي بطريقة أخرى: يتحدد إيمان أطفيش في أن خطاب الأفكار لا ينشأ من فراغ ولا تقوم بمعزل عن الظروف الموضوعية – الاجتماعية والسياسية – التي يكون الفكر نفسه استجابة لها محاولًا بذلك التصدي لها تغييرًا أو تأييدًا.

• كما أن تفسيره لمفهوم الإصلاح بنقيضه الفساد مع ربطه بمفاهيم أخرى من أجل تحديد معنى المعنى للإصلاح هو تأكيد واعٍ لمحاولة الاستقلالية من السلطة المعرفية التي تدخل في إطار ثنائية الأطروحة ونقيضها، أو ما يسمى بإزدواجية الفكر الإسلامي التي ترسم معالمه حتى اليوم . ولعل قراءة الخطاب الإصلاحى لأطفيش يجعلنا أشد اقتناعًا أن الإصلاح أحد الأسس الرئيسة للدين الإسلامي، فالإصلاح ما هو إلا رؤيا نظرية وعملية تجدد وتحى بها مبادئه انطلاقًا على الفهم الصحيح لكتاب الله وسنة رسوله من أجل مساهمة روح العصر.

3. النصيحة كنموذج للإصلاح:

يسعى قطب الأئمة أولاً وقبل معالجة أي موضوع وتجلياته الفكرية والواقعية إلى تحديد دلالة المصطلح المستعمل محاولًا ربطه لغويًا ومعرفيًا بالمفاهيم الأخرى المكونة لمعناه من أجل إظهار الصورة الموضحة للعلاقة التي بينهم مثل الإصلاح والمفاهيم الأخرى المكملّة لمعنى المعنى. كما أنه يريد بذلك إضفاء شرعية التوظيف الديني عليه، فمثلاً يسعى جاهدًا للاستدلال على كون الإصلاح نصيحة قبل كل شيء مبينًا للعلاقة الوطيدة التي تربط بينهما.

إن معنى "النصيحة" لغويًا هو: النقيض للغش وهي الإخلاص والتصفية، أما شرعًا هي إخلاص الرأي من الغش للمسلم، كما أنها هي أساس الدين وعماده، فالنصح لله مثلاً هو فعل ما أمر وترك ما نهى عنه، وذلك يشمل تنزيهه عن صفات الخلق وشكر نعمه وولاية مطيعه والبراءة من عاصيه، إذ إن أحب ما يتعبد به المخلوق هو النصح للخالق، أي أنه يقدم حق الله على حق المخلوق. يرى أطفيش أن النصيحة لله مثلاً تكون الوقوف على أحكام القرآن وتفهم أمثاله ونشر علومه، كما أن النصيحة للقرآن هي الإمساك عن تفسيره حتى تنهياً للمفسر علومه المساعدة على ذلك.⁵¹ أما النصح لرسول الله هو إتباع سنته في أقواله وأعماله بعد نزول الوحي من سنة 610 إلى سنة 632 هجري.⁵² ويؤكد في موسوعة شرح النيل الفقهية أن النصيحة لرسوله هي الإيمان والتصديق بجميع ما جاء به وطاعته في أوامره ونواهيه والمحبة لمن والاه والبراءة لمن عاداه، كما أن النصيحة لسنته هي إحياء مبادئها ونشر علومها ما بين المسلمين ونفي التهم عنها وتصحيحها

والتفقه فيها والإمساك عن الخوض فيها دون أي علم وقول الحق في الصحابة كغيرهم.⁵³

لنقف أخي القارئ قليلا عند تشبيه أطفيش النصيحة بكلمة التصفية، حيث يقدم لنا صورة رمزية رائعة أساسها تمثيل لغوي ما بين الكلمتين مراعيًا في ذلك التوظيف الديني للمفهومين على المستوى الحياتي. فحينما يقدم المصلح النصيحة لشخص ما في مجال القول والعمل الديني، فإنه يخلص له الرأي، أي ينصحه لذات النصيحة ولا يرجو في ذلك أجرا، لأن الإخلاص هو كمال الأقوال والأفعال، إن الكلام الشفوي الموجه في إطار النصيحة هو مثل عملية فرز العسل بتعبير آخر إن النصيحة هي: تنقية العسل من أقراصه الشمعية من أجل تحقيق إنتاج العسل المصفى.⁵⁴ كما أن هذا التشبيه يوحي فعلا بالقيمة المعرفية والوظيفة الدينية أثناء تقديم المصطلح النصيحة للمنصوح، فالنصح هو التمييز الصريح للقول الحسن من القبيح في القول والتبيين الواضح للخير من الشر في العمل، وإن دلّ هذا على شيء، إنما يدل على التمييز الموضوعي ما بين الإسلام الصحيح والبدع المحرمة التي شوّه انتشارها نبعه الصافي.

فالنصيحة هي قبل كل شيء تصفية الإسلام من القضايا التي لا تمت له بأي صلة، كما أن تشبيه قطب الأئمة بتقديم النصيحة بالعسل المصفى هو دليل لغوي مستمد أو مقبس من النص القرآني الذي يوظف من أجل إظهار المعنى اللغوي، ومن أجل البرهنة على الأهمية الدينية للنصيحة الهادفة إلى تجديد الإسلام وإحيائه مع مراعاة معطيات العصر. ونحن نعلم أن الله وعد المتقين في الجنة إلى جانب الثمرات الأخرى أنهارا من عسل مصفى جزاء لإيمانهم بالله، وثوابا على عملهم الصالحات: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ﴾: (آية 15: سورة محمد). وفي آية قرآنية أخرى يشار إلى عسل النحل كشفاء من الأمراض، فلهذا يستعمل أطفيش النصيحة كعسل من أجل شفاء الأقوال والأعمال من الانحرافات التي ليست لها علاقة بالدين: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾: (سورة النحل: آية 69).

من هنا يتسنى لنا القول أن قطب الأئمة يجعل من القرآن بالإضافة إلى السنة النبوية مرجعا لغويا لتفسير أفكاره الإصلاحية بل أكثر من هذا يستخدمها من أجل البرهنة على مشروع تصوراتهِ التجديدية، لأنه كان يعرف جيدا أن انتشار توجهه الإصلاحي وتجسيد النصيحة على أرض الواقع يتعلق بمدى توظيفه لكتاب الله وسنة رسوله، وهذا يحّد من محاربة التيار المحافظ في المجتمع الإباحي لمشروعه التجديدي.

وفي كتاب آخر يؤكد قطب الأئمة مرة أخرى أن النصيحة هي شرعا إخلاص الرأي من الغش مضيفا إليها معنى آخر ألا وهو إثارة مصلحة المسلم، لأن هدفه من وراء ذلك تحديد دلالة

ثالثة للنصيحة، فبعد أن عرف النصيحة لله ولرسوله، يضفي عليها نسقا معرفيا آخر هو نصيحة المسلمين. إن نصيحة المسلم هي قبل كل شيء بذل المودة والاجتهاد في المشورة له، كما أنها أفضل أعمال المؤمن الدينية.

أما معنى نصيحة المسلمين فهو معاونتهم على الحق وأمرهم به وتذكيرهم بلطف ورفق بما غفلوا عنه من أمور المسلمين ومصلحتهم، فنصيحة المسلمين هي كذل لك رفع الأذى عنهم وتعليمهم ما جهلوه، فكل ما يحب المصلح لنفسه يحبه لأخيه⁵⁵. إن ذكر أطفيش لإيثار مصلحة المسلم كخاصية جوهرية يثبت أن النصيحة تدل على إقلاع المصلح عن التفكير في نفسه والتخلي عن الاهتمام بمصلحته الخاصة، فالنصيحة هي قبل كل شيء التأكيد على المصلحة العامة للجماعة من أجل تحقيق الأهداف الدينية والدينية. بتعبير أكثر دقة: إن النصيحة هي العدول عن الأنا وإيثار الأنت، لأن قطب الأئمة يضع المصلحة العامة في الاعتبار الأول المؤسس لوحدة المجتمع، أي أن مصلحة الجماعة تبدأ أينما تنتهي المصلحة الفردية. لهذا السبب يمكن القول أن النصيحة حسب اعتقاد أطفيش ليس أحادية البعد إنما هي حركية تفاعل والتأثير بين المصلح كناصر والمنصوح كمجموعة من الأفراد مجسدة تلك المصلحة العامة المشتركة بين أفراد المجتمع.

يمكننا ملاحظة أن أطفيش لا يهتم فقط بتقديم النصيحة من أجل إصلاح الآخر، إنما هو حريص كل الحرص على الطريقة والكيفية التي يقدم بها المصلح النصيحة، فتذكير الناصح للمسلم بالحق ينبغي أن يكون بلطف ورفق دون تغليظ القول له أو توبيخه، إنها - حقا - دعوة ملخصة من أجل بناء حوار مع الآخر على أساس ادفع بالتي هي أحسن، فالهدف هو عدم تنفير المنصوح من الناصح والنصيحة معا.

يستدل قطب الأئمة في هذا الإطار بمثال نصيحة الواعظ فإذا رأى هذا الأخير من يفسد وضوءه أو صلاته أو غير ذلك ولم يعلمه فقد غشه وعليه الإثم، كما ينبغي أن يكون نصحه إياه سرا وبطبية ورحمة ليكون ذلك أقرب للقبول، لهذا من وعظ أخاه سرا قد نصحه، ومن وعظه علانية أمام المأ قد فضحه. إن المثال الذي ساقه أطفيش في هذا المجال يوحي أنه يتحدث عن واقعه، وما يبرهن على ذلك أنه يعتبر جرعة النصيحة مرة لا يقبلها إلا أولو الألباب، بل أكثر من هذا يشير إلى أن هناك قلة من الناس يتعاطوا النصيحة في زمانه والقليل منهم من يتقبلها.⁵⁶ ويبين في كتاب آخر الفهم الخاطئ في تداول النصيحة، إذ إن الكثير من الناس يعتبرها غيبة، كما أن قطب الأئمة يلفت الانتباه إلى عدم المبالغة في النصيحة لأنها تؤدي إلى تجنب شخص المصلح وأفكاره التجديدية، كما أن هذا التصرف يؤلّد العداوة بين الناصح والمنصوح.⁵⁷

كما أن قطب الأئمة يجعل من السكوت غشا أمام خطأ الآخر أو إظهار اللامبالاة أمام

الانحراف عن دين الله بدعوى أن الأمر لا يهم الإنسان، ويعدّ السكوت واللامبالاة كتماناً للحق، وتجاهلاً لحقوق الله ولسنة رسوله، بل قد تستوجب البراءة من الشخص الذي لا يهتم بأمور المسلمين سواء كانوا عامة أو خاصة، لهذا يعتبر أطفيش نصح المسلم فرض في دينه ودينه، وينبغي عدم تقصير الجهد في ذلك.⁵⁸ من اللافت للانتباه أن قطب الأئمة يحذر من خطر اللامبالاة وعدم الاهتمام بالآخرين لأنه إنكار لوجود الآخر كعضو داخل الجماعة. يشير أطفيش كذلك إلى ضرورة نصح المسلم الغائب، فنصح المسلم لا يقتصر فقط على الفرد الذي يعيش مع الجماعة وفي نفس البلد، ونصيحة الغائب تكون بتبليغه إما عن طريق رسالة مكتوبة أو عن طريق رسالة شفوية، أما الجمع بين الطريقتين يكون أحسن.⁵⁹ إن الإلحاح على أهمية نصيحة الفرد الإباضي يؤكد على أهمية التواصل مع هذا الأخير، الذي يكون غائبا عن المجتمع الإباضي لأسباب نذكر منها ممارسة التجارة خارج وادي ميزاب.

يؤكد أطفيش من جهة على ضرورة التواصل الديني والاجتماعي من أجل تقوية روابط الوحدة ما بين الأفراد في الجزائر أو في بعض الدول العربية المسلمة مع باقي أفراد المجتمع الميزابي. ومن جهة أخرى يحاول قطب إحياء دور الرسائل الذي لعب دورا فعالا في تاريخ المذهب الإباضي منذ نشأته من أجل ضمان استمراره، حيث كانت الرسائل تصل إلى أماكن لا يستطيع الدعاة ورجال الدين التنقل إليها.⁶⁰

رغم محاولة أطفيش التمييز بين الأنواع الثلاثة المختلفة للنصيحة - النصح لله والنصح لرسوله والنصح للمسلم - يبقى هناك عاملا مشتركا بينهما مكونا معنى المعنى للنصيحة، فنصيحة المصلح للمسلم تتضمن محور الانقياد بكتاب الله وسنة رسوله المصطفى والإيمان والتصديق بأحكامهما. بإمكاننا كذلك استنتاج أن النصيحة حسب رأي قطب الأئمة هي منهج أخلاقي يؤسس سلطة معرفية أثناء تواصل المصلح الناصح بالمسلم المنصوح، أو بتعبير أكثر دقة: ما بين أنا (المصلح) والأنت (المسلم)، فلهذا السبب نستطيع التحدث على رؤية فلسفية محضة في خطاب أطفيش الإصلاح، إذ إنه يعتمد في ذلك على تحليل علمي سمته الموضوعية، وهذا رغم عصامية تكوينه.

إن العلاقة الوطيدة التي تربط أنا المصلح والأنت المسلم هو موضوع النصيحة المقدمة التي تؤدي حتما إلى تفاعل نظري وعملي فيما بينهما من أجل خدمة الرؤية الصحيحة⁶¹، كما أن أساس هذا التفاعل هو التواصل القائم على الحوار الذي يتسم بصفة الاحترام المتبادل، وعدم فرض رأي المصلح على المسلم الآخر. إذن بإمكاننا أن نتحدث في هذا المجال عن اكتشاف نظرية معرفية محضة في خطاب أطفيش الإصلاح والتي تتسم أحيانا بروح نقدية بناءة هدفها إلغاء الفهم السطحي لظاهر الأفكار، كما سيتضح لنا ذلك في الفقرة التالية.

مرارا يشير أطفيش أثناء تحليله لأهمية النصيحة وأنواعها إلى الحديث النبوي الشريف الذي يؤكد أن الدين هو النصيحة، لكنه يحذر في نفس الوقت من الفهم المعتمد على الظاهر اللغوي لهذا الحديث، فلا أحد باستطاعته الشك - حسب رأيه - في كون الدين هو النصيحة وعماده، إلا أن الدين لا يكمن في النصيحة فقط رغم أهميتها في شرحه وتبسيط معناه للمنصوح: إن قطب الأئمة يريد التأكيد على أن دين الإسلام المتكون من كتاب الله وسنة نبيه المصطفى أشمل وأوسع من نصيحة المصلح، لأن حصر الدين في النصيحة هو تقييد له من حيث الشكل والمضمون، كما أن النصيحة هي منهج التواصل بين الأنا والآخر، ولا يمكن المساواة بينها وبين الدين الإسلامي. فهذا النوع من حصر الدين كله في نصيحة المصلح لأخيه المسلم فيه مبالغة ويمكن تشبيهه بالقول أن أركان الحج هي فقط عرفة.⁶²

فعلا إن النصيحة تلعب دورا أساسيا في تيسير علاقة المنصوح بخالقه عن طريق الإصلاح وعلاقة المصلح مع المسلم الآخر، فالاعتماد عليها يؤدي حتما إلى سعادة الإنسان الدنيوية والأخروية، لكن لا يمكن تلخيص الدين في النصيحة وجعلها كلمتين مترادفين يكملان بعضهما البعض من حيث الشكل والمضمون، لهذا السبب يرفض أطفيش الفهم الضيق للحديث النبوي الشريف السالف الذكر، إذ إنه ينبغي الإشارة إلى أن الدين الإسلامي هو موضوع النصيحة، أما هي فتبقى النهج المعتمد لإصلاح معتقدات المسلم مع ربه ومعاملاته مع أخيه.

إلى جانب المصطلحات التي تم ذكرها ينبغي - أخيرا - التطرق إلى عنصر آخر تمت الإشارة إليه سابقا أثناء تعريف أطفيش لنصيحة للمسلم حيث يعتبرها إلى جانب بذل المودة والاجتهاد كذلك مشاورة المسلم. وفي هذه المجال نقف على رأي قطب الأئمة أثناء تفسيره لقوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّمْ يَلْمِزْ لَكُمْ اللَّهُ لَتَلْمِزْ لَكُمْ الْبَشَرُ وَلَوْ كُنْتُمْ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ فِي السَّمَاءِ فِي سُبْحَةٍ وَنَزَّلَتْ سَافِرَاتُ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ يَحْوِيْنَ فِيهَا مِنْ كُلِّ غَلِيظٍ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَلِلَّهِ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ الْكُتُبُ وَاللَّهُ يَبْشُرُ الْمُتَّقِينَ﴾ (سورة آل عمران: آية 159)، « وحكمة المشاورة الاستعانة برأيهم وترك رأيه إلى رأيهم إذا ظهر له الصلاح في الترك وظهور نصح من ينصحه، ومعرفة مقادير عقولهم وأفهامهم وتطبيب نفوسهم وجلبهم وإذهاب أضغاثهم، وإنه يشق على سادات العرب أن لا يتشاوروا، وأن تقتدي الأمة به في الشورى، فيظفروا بالرأي الصالح».⁶³

إن هذه الآية حول التشاور هي خير دليل على معاملة النبي لأصحابه بالرفق والعفو والمشاورة، فرغم سلطته الدينية المشرعة بكتاب الله وسنته التفسيرية له، لم يحرم نفسه من تشاوره مع الصحابة رضي الله والأخذ بالرأي الصالح إذا ما كانت نصيحة الصحابي تخدم مصلحة الأمة الإسلامية في ذلك الوقت عنهم. فالرسول ﷺ مثال أسمي يقتدى به في مجال التشاور وطلب المصلح النصيحة كذلك من المنصوح، لهذا يجيز قطب الأئمة مشاورة كل إنسان جرب الأمور

في الدنيا⁶⁴، وأثناء تفسيره للآية الكريمة: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾: (سورة الشورى: آية 38)، يبين أن الرسول ﷺ كان يتشاور مع الصحابة في أمور الحرب وفي الأحكام التي كانت تنزل في الوحي. ففي الشورى حسب رأيه يوجد صلاح الدين والدنيا، أما التخلي عليهما يؤدي إلى فسادهما.⁶⁵

إن استعمال النصيحة كشاور يكمل معنى المفاهيم التي حاول أطفيش تبسيط شرحها في إطار مشروعه الإصلاحية، كما أنه يخرج النصيحة من إطارها السلبي المميز لها كمخاطبة المصلح الناصح للمسلم المنصوح، أو ما يمكن تسميته في علم الحواراتواصل الأحادي البعد، أي توجيه الفكرة من المخاطب إلى مستقبل الفكرة دون حدوث تفاعل بينهما. فالمستقبل يكون أكثر سلبية، بحيث إنه في موقف الاستقبال لفكر الآخر دون السعي إلى المشاركة العملية والفعالية الفعالة في إنتاج النصيحة من خلال إبداء رأيه. فالنصيحة كشاور تبرهن على العلاقة التفاعلية ما بين القائل والمستقبل في إطار تحاوري من أجل تبادل الأفكار، فالتشاور يلغي الفهم الخاطئ للنصيحة كأمر من الأعلى كسلطة إلى الأسفل، أي المسلم المنصوح.

تحدد ماهية الإصلاح عند قطب الأئمة بناءً على تحديده لمفاهيم أخرى تكمله معرفياً ومنهجياً مع مراعاة حاجة الإنسان الضرورية له، فلم يتحدث أطفيش حول أسبقية مفهوم على مفهوم آخر كما أنه لم يحاول تأسيس ثنائية الفكر في خطابه الإصلاحية - إصلاح وفساد - والتي بإمكانها أن تشكل عائقاً معرفياً أثناء تعريف المفهوم وإبراز ارتباطه الوطيد مع المفاهيم الأخرى، بل جعل كل المفاهيم التي أشرنا إليها مؤكدة لمصطلح الإصلاح من حيث المضمون والشكل ومزودة لثروته اللغوية والوظيفية. فالباحث يشعر أحياناً بانتقال حركي من دلالة المفهوم على المستوى اللغوي إلى دلالة التوظيف على المستوى الواقعي، فمن خلال إشارة أطفيش السريعة إلى واقعه يظهر عدم إمكانية استقلال النصيحة كمفهوم عن حاضر ممارستها في لحظتها الآتية، فهذا السبب يمكننا التحدث عن حركة جدلية في إطار نظرية معرفية ما بين المفاهيم المستعملة، وعن حركة عملية تضفي على المفهوم شرعية استخدامه على المستوى الواقعي.

على ما يظهر يعتبر أطفيش مصطلحي الإصلاح والنصيحة مترادفين، بحيث لا يمكن الفصل بينهما، فالنصيحة هي المنهجية في كيفية تقريب مضمون الإصلاح من طرف الناصح للمنصوحين، لهذا السبب تؤدي النصيحة دوراً مهماً في خطابه الإصلاحية، إذ يحاول نشر أفكاره التجديدية عن طريقها كوسيلة معرفية جاعلاً منها هدفاً أساسياً للحفاظ على الدين الإسلامي وإحيائه في حالة الابتعاد عن أحكامه وأوامره. لكن يكتشف النصح الإصلاحية عند قطب الأئمة نوع من الغموض لَمَّا نتمعن النظر بدقة، فلا نعرف إذا ما كان أطفيش يعتبر النصيحة جزءاً أساسياً من الإصلاح أو مجرد مصطلح مستقل بذاته وموازي له، كما أنه يوظف مفاهيم أخرى أثناء حديثه

عن النصيحة كتشاور مثل: "الشورى والمشاورة" دون محاولة الفصل بينهما من حيث الشكل والمعنى، بل يعتبرهما مصطلحا واحدا يخدم فكره الإصلاحي، ويتكون عند القارئ في أغلب الأحيان الانطباع بأن أطفيش لا يفرق بينهما من حيث المضمون، أو يخلط بينهما من حيث المعنى والوسيلة، إذ كلاهما يهدف إلى إصلاح الفكر القائم والفهم الخاطئ للدين. فهذا الخلط المعرفي يمكن إرجاعه إلى فهم أطفيش لجوهرهما الدلالي، وكلاهما يقوم بخدمة التفسير الصحيح لكتاب الله وسنة رسوله والعودة بهما إلى تاريخ نشأتهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يهدف جوهرهما إلى تحديد الانحرافات - المتكونة من الفهم الخاطئ - من أجل التمييز بينها وبين الأسس الصحيحة للإسلام.

4. أمثلة عن نصائح أطفيش للآخر:

نريد أولا وقبل معالجة بعض نصائح قطب الأئمة المقدمة للآخر - الذي يتمثل في بعض علماء أهل السنة - أن نحدد بطريقة موجزة الإطار المعرفي لمفهوم "الأنا والآخر" من وجهة فلسفية، فرغم القاسم المشترك بين أطفيش كعالم إباضي وبعض علماء السنة من وجهة الانتماء إلى الدين الإسلامي نؤكد على اختلافهما كـ "الأنا والأنت" في بعض المسائل الفقهية واتفقهما في المسائل العقائدية. لكن هذا الاختلاف لم يكن عائقا معرفيا في التواصل الفكري والديني بين الإباضية وبعض فقهاء أهل السنة الذين راسلهم قطب الأئمة، بل إنه كان إراديا أساسه حرية الاختيار الواعي بدون أية خلفيات مسبقة أو أحكام قبلية، وهذا يؤدي - حتما - إلى تأسيس بنية هوية النحن من خلال تقارب ديني وفكري ما بين الأنا كإباضية والأنت كسنة. إنه فعلا المنهج الإرادي الذي تنبأه أطفيش أثناء تعامله مع أهل السنة وأراد أن يجعله مبدأ دينيا وديونيا لكل من ممثلي الإباضية وأهل السنة في العالم الإسلامي، خاصة لما انتقل هذا العلامة من درجة مجتهد المذهب إلى المجتهد المطلق، أي من عالم ديني مقلد لغيره إلى عالم مصلح كسلطة دينية تتبع وتقلد حيثما وجد الإباضيون وآخرون أمثال أهل السنة، إذا ما أقنعهم رأيه.

ينبغي علينا لفت الانتباه أن هذا الآخر لا ينبغي أن ينحصر فقط في أهل السنة، إنما بإمكانه أن يكون الفرد الإباضي المنتمي إلى نفس المذهب والجماعة، إذا ما تعددت الرؤى المختلفة من شخص إلى آخر، وخير دليل على ذلك تعايش التيار الإصلاحي مع التيار الإباضي، حيث حاول كل واحد منها الحد من تأثير خطابه في المجتمع الميزابي وفرض توجهه الديني والحياتي. كما نريد كذلك اعتمادا على نصيحة أطفيش التركيز في هذا المقال على الآخر السني من أجل إظهار مجهودات أطفيش الإصلاحية خارج نطاقه المذهبي من جهة، ومن جهة أخرى تجلية مساهماته من أجل تأسيس أرضية تقارب ما بين أهل الإباضية وأهل السنة والاعتراف بوجود الواحد بالآخر دون تجاهل خصائصه المميزة لهويتهما.

لا يهتما في هذا المقام طرح السؤال حول جوهر الأنا أو الأنت وماهيتهما المُشكلة لهويتهما المذهبية، لأن محاولة البحث عن تعريف من هذا الشكل يفرض علينا معالجة ماهية الإنسان والتطرق إلى مسائل أخرى ليست لها أية علاقة بالموضوع، والتي قد تؤدي إلى مناقشة قضايا إيديولوجية تكون نتائجها ذاتية، تفرق ولا تجمع الشمل. لكن يبقى شغلنا الشاغل ومجال اهتمامنا الرئيسي هو كيف يمكن تواصل الأنا مع الآخر من أجل تشكيل ما يسمى "النحن" في إطار الجمع النحوي، والمختلف في الرأي وكيفية طرحه، والمتفق في الغاية المؤسسة لمصلحة جماعة المسلمين.

إن الوصول إلى مرحلة تشكيل وعي حول "النحن" تخلق بنية أرضية لتعلق الأنا بالآخر، والعكس صحيح، طبعاً دون تجسيد فكرة الاندماج الوجودي والفكري بينهما أو انحلال هوية كل واحد منهما بسبب حركية تأثير الواحد الآخر. بتعبير أكثر دقة: إن تأكيد الاختلاف هو أولاً التأكيد على الفوارق الموجودة ما بين الأنا والآخر، كما أنه ثانياً وفي نفس الوقت إثبات للتفاعل الفكري والثقافي دون نفي ذات الهوية والانتماء المذهبي، وثالثاً هو إثبات وجود كل واحد منهما من خلال الاهتمام المسؤول فيما بينهما، إذ إنه ليس باستطاعة كل واحد منهما أن يكون في عالمه الخاص به بمنأى عن الآخر رغم قرابة الصلة الدينية الوثيقة التي تجمع بينهما. كما أن هذا الأنا يمكن أن يكون الأنت إذا ما تكاملت مناهج الرؤى، وتوحدت المصلحة العامة لكل من الإباضي والسني من أجل خدمة وتجسيد إرادة الله على أرضه، وهذا ما نطلق عليه إسم النحن.

فالاختلاف ما بين الأنا والأنت في الهوية المغايرة هو الإلحاح على مسؤولية كل واحد منها نحو الآخر ومحاولة إلغاء الفوارق بينهما المؤكدة من الجانبين، إذ إن السعي الواعي إلى التقارب الفكري هو قبل كل شيء إثبات لشرعية وجودهما والتأكيد على الاختلاف فيما بينهما، والذي لا يمكن أن يكون حاجزاً لتشديد جسر التواصل الذي أساسه تعلم كل واحد من الآخر في إطار الاحترام المتبادل.

إن مسؤولية الأنا على الآخر أو مسؤولية الأنت على الأنا هي العودة الواعية إلى الهوية الأصلية التي مبدأها حرية الاختيار الواعي بعد اكتشافها من خلال التعامل مع الآخر والحد من تأثير الفكر المتوارث دون أدنى تفكير فيه. أما النحن المؤسس للأنا والأنت لا يستطيع أن يكون هوية مستقلة عن ذاتهما المختلفة فقط، بل يؤسس النحن كمصلحة مشتركة بين الاثنين، والهادفة إلى خدمة الدين الإسلامي الذي يوحد ما بين الأنا والأنت الذي أساسه النصيحة كمنهج ديني ديني. إذن ماهي النصائح التي قدمها أطفيش للآخر؟ وهل يصح القول: إنها النصائح التي نقدمها اليوم لكل من السني والإباضي.

نريد أولاً أن نعطي مثالا حول نصيحة أطفيش إلى توظيف النصيحة لضرورة أهميتها. يشير

في شرح كتاب المدونة الكتاب لأبي غانم الخرساني إلى الوضع الذي آل إليه استخدام النصيحة في العالم الإسلامي محذرا إخوانه المسلمين من عدم إهمال هذا المنهج الديني والحياتي لفهم الدين وأساسه، كما أنه يسأل نفسه كيف بإمكان استقامة الإسلام ما بين المسلمين بغير النصيحة والرحمة، فمن فارق هذين الوجهين فارق الإسلام وإن كان معه بلسانه، حيث أن المفارقة تحدث كذلك في القول والعمل.⁶⁶ يوحى لنا رأي قطب الأئمة أن الإباضيين بصفة خاصة والمسلمين بصفة عامة لا يهتمون بالنصيحة والتشاور بينهم، فالإسلام يفقد أهميته إن تركوا الاقتناع بالنصيحة وعدم العمل به كمنهج حياتي، فاهمالها هو تضييع للإسلام .

إن الانتماء إلى الإسلام لا يكون عن طرق تصديق العضوية له عن طريق القول، بل هو كدين إلهي يحتاج إلى التطبيق من أجل تحقيق أوامره ونواهيه في أرض الواقع، وما يساعد على ذلك هو النصيحة اعتقادا وقولا وعملا بها، أما أهمية رأي قطب الأئمة تتجلى كذلك في ربطه ما بين النصيحة والرحمة، فالنصيحة هي رحمة للمسلمين يهدون بها إلى طريق الخالق وسنة رسوله، وكيفية نشرها يكون أساسها هو محبة الآخر. وفي نفس الكتاب يقدم قطب الأئمة نصيحة لأخوانه الإباضيين، ونظن كذلك بأنها موجهة لكل المسلمين رغم عدم إشارته إلى ذلك، حيث يرى أن نصيحة المسلم للمسلم واجبة عليه والسكوت عنها وزر عليه يتحمل مسؤوليته، فعليهم بالنصيحة من أجل صدّ الشيطان، وينبغي الإعراض عن كل شخص يكرهها للناس، إذ تكون نتيجة ذلك الابتعاد عن الإسلام ومبادئه، لأن هذا النوع من الناس لا يريد الأمر بالمعروف ولا النهي عن المنكر. فعلى المسلم الناصح أن يدعو للنصيحة الواجبة وأجره في ذلك على الله، أما ترك النصيحة حسب رأيه هو اضمحلال للدين وعدم إحياء سنته، فعلى العلماء إحياء العلم عن طريق النصيحة وتعليم الجاهل ونصيحتهم.⁶⁷

ونقدم الآن نموذجا عن نصائح أطفيش إلى إخوانه الإباضيين حول طريقة التعامل مع أهل السنة ومع مذهبهم أثناء إفتائه عالمين من عمان، واسمهما "عيسى بن صالح بن علي الحارثي" و"عبد الله بن حميد بن سلوم" حول موضوع الأخذ بروايات أهل السنة وقبول الفتوى عنهم والنقل عن كتبهم. اعتمادا على الآية الكريمة: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ﴾: (سورة يونس: آية 35)، يرى قطب الأئمة إن كانت المسألة راجحة في مذهب أهل السنة ولم تكن قد ذكرت في المذهب الإباضي، فهذا ليس بباطل ويبرهن على قوله بما يلي: « وبعد الحق إلا الضلال والحق يقبل من كل من جاء به، ولو مشركا، وجاء أن الحكمة والحق ضالة المؤمن يقبلها ولو من عدوه (...)، اتفق أصحابنا على أنه على أن من عمل بقول مخالف في الفروع نجا، ولو خالف ما عندنا (...) لا يتوهم أنني متعصب لقومنا أو راغب في نشر مذهبهم (...)».⁶⁸

كما أن قطب الأئمة يؤكد أن كتب علمائهم الدينية قيمة المعلومات لا يستهان بها، بل هي

مفيدة مثل كتب الحديث كصحيح البخاري وصحيح مسلم وكتب بن حجر العسقلاني (1449هـ/1928م). فلهذا السبب يجوز الاعتماد على مسائلهم في كتب علماء الإباضية مع ضرورة الإشارة إلى مصدرها، وإن كانت فاسدة ينبغي ذكر حجة بطلانها وليس الحق لأي إنسان أن يكفر ولا يعصي غيره ممن أخذ بقول أهل القوم.⁶⁹ كأن أطفيش ينتقد بطريقة غير مباشرة رأي معاصريه من التيار المحافظ الرافض لتداول كتب الآخر، لهذا يمكن اعتبار نصيحته كتشجيع لأهل مذهبه الإباضي على القيام بذلك، لأن أهل السنة هم ثقافت في علم اللغة والنحو والعلوم الأخرى مثل علم التفسير ويمكن الاعتماد عليهم.⁷⁰

أول شيء نلفت النظر له أن نصيحة قطب الأئمة تتضمن شرعية تعدد المذاهب الإسلامية والتي بإمكانها أن تكمل بعضها البعض، فليس هناك مذهب يمتلك الحقيقة المطلقة لوحده أو كونه أحسن من الآخر، فاختلاف الأئمة من حيث الرؤى وتعدد التصورات هو ثروة لدين الإسلام ولفكر المسلم كله. كما أن أطفيش لا يذخر جهداً من ممارسة النقد ضد التيار المحافظ، الذي لا يريد إلا عزل الإباضية عن عالمها الخارجي، إذ أن عيش الأنا على هامش الآخر لا يؤدي حتماً إلى الحفاظ على الهوية الدينية، بل يبطئ إرادة تطورها ويجمد صيرورة حركة التفتح على ما هو موجوداً.

وبدون أي شطط أو مبالغة ذاتية تبعدنا عن موضوعية الفكر يمكننا أن نعتبر رؤية أطفيش السالفة الذكر رؤية ثورية في مجال حوار الأنا الإباضي مع الأنت السني، بل أكثر من هذا تلغي عن طريق أدلة مقنعة ما اتفق عليه في تاريخ الإباضية من كتمان وتجنب الآخر، كما أنه يمكننا الاستفادة منها من طرف الإباضيين وأهل السنة في عصرنا هذا، خاصة لما يؤكد على أن الحق ينبغي أن يتبع، ويعترف به حتى ولو كان صاحبه مشركاً أو عدواً. فإن ثورية هذا التصور تتجلى أكثر وضوحاً في محاولة إلغائه الحدود الفكرية والدينية والجغرافية ما بين المدارس، ويضرب بها عرض الحائط، إذ إنها دعوة إلى التفتح على الفكر الإنساني، خاصة إن كانت تخدم مصلحة الدين والعباد في هذه الدار، ومن هنا نستطيع التأكيد على إنسانية الخطاب الإصلاحية عند قطب الأئمة، حيث يجعل "الإنسان" مركزاً هاماً في نطاق أفكاره التجديدية، فهذا الأنت والآخر ما هو إلا معنى إضافي يتضمن مفهوم الإنسان ويجعله كبدئية على أرض الواقع، والتي لا تناقض.

كما أن قطب الأئمة يتجنب استعمال مفهوم « أهل الخلاف » الذي كان منتشرًا الاستخدام بين أفراد التيار المحافظ أو العلماء السابقين عليه، ويوظف كبديل مفهوم « القوم » معبراً به على إخوانه السنة، إذ يسعى بذلك إلى تجنب العوائق اللغوية التي تؤدي حتماً إلى التفرقة والغاء وجود الآخر، وهو لا يبحث فقط على التواصل الديني الذي أساسه احترام الأنت، بل يسعى جاهداً إلى فتح الأبواب على مصرعيها من أجل تعلم الأنا الإباضي من الأنت السني والاستفادة من كتبه والاعتماد على رأي الآخر يساعد على تشكيل هوية الأنا، وبطريقة غير مباشرة

يصبح لهذا الآخر دور فعال في تحديد معالمها.

كما أن الاستفادة من فكر الآخر هي إثراء له وتطوير أفكاره حين يوظف في إطار معرفي ديني مغاير لنشأته وحركيته أفكاره التاريخية، فمن هنا نستطيع التحدث على الحضور القوي لهوية النحن في خطابه الإصلاحية المؤسس لكل من هوية الأنا والآخر، فمن خاصية هوية النحن مثلاً إبراز التفاوت في المسائل الفقهية والتأكيد على الوحدة في المسائل العقائدية، إنها مرحلة فكرية تؤسس وعي عقلائي للنحن يشجع على الحوار البناء من أجل تحقيق الصالح المشتركة وتجسيدها عملياً.

لكن رغم التفتح على الآخر يحاول أطفيش أن يكون حذراً في تعامل الإباضيين مع الآخر، حيث يمنع مثلاً الضعفاء النظر في كتب القوم أو قراءتها، لأنه قد يساء الفهم حسب رأيه، ويقصد بالضعفاء العامة الذين ليس لهم حق الخوض في مسائل القوم.⁷¹ وفي كتاب آخر يشترط الأخذ برأي العلم السني ولو كان ثقة إلا إذا ظهر منه الحق، ولا حق معهم فيما خالفهم فيه أهل السنة مما لا يجوز فيه الاختلاف.⁷² قد يحلوا للبعض أن يقدم حكماً على آراء قطب الأئمة التي تبدو متناقضة من أول وهلة، ولا يمكننا الشك في ذلك، إلا أنه علينا إنصاف جهوده الجبارة في رأيه هذا، ربما كان قطب الأئمة يهاب رد فعل التيار المحافظ بسبب هذه التصورات المشجعة على الانفتاح على الآخر، لهذا السبب وخوفاً من التفرقة في المجتمع الإباضي كان يتوخى أحياناً الحذر. كما أن موقفه الراض لبعض رؤى الآخر قد يكون رد فعل على بعض المواقف السلبية لبعض علماء أهل السنة من الإباضيين، بل وأحياناً تكفيرهم، والتاريخ الإسلامي غني بتلك الأمثلة.⁷³

إن التطرق إلى موضوع الأنا والآخر في خطاب أطفيش الإصلاحية يلزمنا التطرق إلى أهم المفاهيم التي تبلور طريقة تقارب الأنا الإباضي مع الآخر السني، ويتعلق الأمر بمفهوم «فرز الدين» الذي تم استعماله من علماء إباضيين قبله، إلا أن قطب الأئمة أضفى على هذا المفهوم رؤية إصلاحية جديدة وبلورته في مضمون تجديدي متجاوزاً بذلك الفهم الكلاسيكي، حيث جعله معاصراً لروح عصره وقيمه الوجودية. فمثلاً يرى العالم "أبو زكرياء فيصل اليهرساني" (ت440هـ/1048م) أن معرفة المذهب الإباضي تكون صحيحة من خلال معرفة ضده أو المذهب المناقض له، فمعرفة المذهب تأتي ببذورها من خلال التعرف على المذهب الآخر وطريقة تفكيره، إلا أن هذا الرأي يبقى أحادي الشكل والمضمون، لأن فرز الدين يوظف فقط من أجل اكتشاف الذات لإثبات الهوية المتميزة عن الآخر، وليس من أجل الاستفادة المتبادلة من الطرفين في إطار حوارٍ خلاق.

كما أن الهدف من كل هذا هو محاولة التيقن من شرعية مبدأ الأفضلية عن طريق مقارنة الأنا بالآخر، هذا ما يؤدي حتماً إلى نفي هوية الآخر وإلغاء وجوده، بل خطورة هذا التصور

تتضمن أن الأنا لا يعرف نفسه، ولهذا يحتاج للآخر من أجل التعرف على هويته الدينية وانتمائه الفكري. فحسب رأي قطب الأئمة إن فرز الدين هو أولا الاهتمام الحقيقي بفكر الآخر الديني، وثانيا تعلم تصورات الجديدة من أجل الاستفادة منها. يؤكد أطفيش على الفهم الكلاسيكي لفرز الدين، أي اكتشاف الهوية الذاتية من خلال التعامل مع خطاب الآخر، لكنه يسعى جاهدا إلى تجاوز هذا الطرح، حيث يجعل منه بنية أساسية للتقارب ما بين الإباضية وأهل السنة.

والمسألة حسب فهم "اليهرساني" تلح فقط على المصلحة الشخصية للإباضية، وهذا ما يؤدي حتما إلى تفعيل صيرورة انزغال الوجود الإباضي، بالإضافة إلى ذلك يجعل من مرحلة الكتان منهجا وجوديا لكل الإباضيين. لكن المعنى الحقيقي لهذا المصطلح ينبغي أن يخدم مصلحة الحوار بين الطرفين والهادفة إلى تقارب حقيقي وبناء جسر التواصل ما بين الأنا والآخر، لهذا السبب يعتبر أطفيش الشك في مبادئ مذهب القوم خطأ فادحا يؤدي إلى التفرقة، والقائم بذلك سواء كان إباضيا أو سنيا يدخل عمله في إطار النفاق.⁷⁴ إن دين الله الذي هو الإسلام، كما أنه يختلف عن الديانات الأخرى المتمثلة في الشرك، فلهذا ينبغي التمييز بينهما، كما أنه بإمكان المسلم أن يميز مذهبه عن المذاهب الأخرى، ولكن في نفس الوقت لا يعني هذا أن مذهبه أحسن من المذاهب الأخرى، فكل المسلمين ينتمون إلى ملة الإسلام ويدعون بدين التوحيد، فمن خالف الإباضية، فلا يمكن اعتباره كافرا لأنه مثل الإباضيين ينتمي إلى أهل القبلة، ويؤمن بالله وسنة رسوله.⁷⁵

ويبرهن القطب أطفيش على رؤيته من خلال توطيف مفهوم "الولاية"، فمعنى الولاية هو: القرب والقيام بالواجبات المفروضة اتجاه الغير، نصره والاهتمام بمصلحته. كما أن الولاية لا تشمل فقط الإباضي المنتمي إلى المذهب، إنما تشمل الاتصال ما بين الإباضية وقوم المسلمين الآخرين، فولايتهم مشروعة لأن كتاب الله وسنة رسوله هما ما الجامعان فيما بين الإباضية وأهل السنة، فالطرفا متفقان في القضايا العقائدية، وليس ثمة أية خطورة في عدم الاتفاق في المسائل الفقهية. كما أن أطفيش يسمي هذا التواصل بين الجهتين "بالولاية العامة".⁷⁶

نريد الآن أن نلقي الضوء على نصيحتين إلى عالمين من علماء السنة، مع الإشارة أن قطب الأئمة كان يستفتي في العديد من القضايا من طرف أهل السنة وعلمائهم، وهذا خاصة لما ذاعت شهرته كمصلح في العالم الإسلامي، إذ له علاقات جيدة مع بعض علماء السنة في العالم الإسلامي كله. في إحدى رسائله إلى أحمد بن عليوه (1872-1934)⁷⁷ أحد رجال الصوفية الجزائريين من مدينة مستغانم، ومن الأوائل الذين حملوا لواء الإصلاح في تاريخ الخطاب السني. ربما كان هذا عاملا أساسيا في التواصل الفكري ما بين العالمين ومحاولتهما أن يكونا مثالا يقتدى بنوره في مجال حوار الأنا بالآخر. ينبغي لنا أن نترك الكلمة لقطب الأئمة، لأنه ليس بإمكان أية مساهمة فكرية التعبير الصحيح على إخلاصه للآخر أو بالأحرى ما يسميه "الآخرين" بمفهوم

الجمع، فيقول: «ففي كل أهل مذهب صالحون وطالحون، ولزم أهل كل مذهب احترام الآخرين لجمع كلمة التوحيد فافتقروا بذلك وأحسنوا المعاشرة، وهم يقرأون كتبكم، ويحترمون علماءكم كما يحترمون علماءهم، فهذا اتصال عظيم...»⁷⁸.

نلاحظ أن أطفيش يؤكد على اختلاف الناس، فمنهم الإنسان الخير والإنسان السيء، ويمكن تعميم هذا على الأفراد المنتمين للمذاهب الإسلامية، لكن لا يمكن أن تكون هذه الفوارق بين الناس سببا في أن لا يتعمل الإباضي مع السني، بل أساس هذه العلاقة يكون أولا احترام الهوية المتمثلة في احترام علماء مذهبيهم وبالتالي احترام الآخر المتمثل في احترام علماء القوم من أجل التعايش السلمي معا.

إذن يمكن القول أن أطفيش كان يهدف إلى تشكيل علاقة ما بين الأنا والآخر على أساس التسامح والحوار الذي يضمن التعايش السلمي بينهما، فلهذا السبب يمكن اعتبار رأي قطب الأئمة تشجيعا ودفعاً لعلماء السنة على تداول كتب الإباضية من أجل التعرف عليهم وعلى مبادئ مذهبهم الإسلامي. كما أنه ينبغي لفت الانتباه أن سلطة أطفيش الدينية كانت تريد تجاوز حدود الاختلاف الديني من أجل التأكيد على إنسانية الإسلام الذي هو ملك للجميع، وليس من حق أي فرقة أو مذهب تقوم باحتكاره لنفسها. فالإسلام هو ملك الأنا والآخر، إنه ملك النحن الذي هو الإنسان بغض النظر عن مميزاته المذهبية والعرقية والجغرافية.

أما المثال الثاني يتجسد في نصيحة قدمها أطفيش لعالم سني اسمه "العقيبي" الذي كان من دعابة التعايش السلمي ما بين الجزائريين والمستعمر الفرنسي. للأسف لا نعرف من هو هذا العالم السني، الذي يخصص له قطب الأئمة كتابا من أجل تقديم له نصيحة، لكن نسبة العقيبي تدل أنه كان من سكان مدينة بسكرة، هؤلاء الذين ترجع نسبتهم إلى عقبة بن نافع (ت633هـ/683م). يقول قطب الأئمة: «أما بعد فهذه نصيحة لمن مال قلبه ولسانه وجوارحه إلى قوم وهم الأجانب حكام الجزائر، فصار يمدحهم ويحبهم إلى الناس، ويصد الناس عن اجتناب أنجاسهم، ويدعوهم إلى الحكم بطهارتهم على الإطلاق، لعله يرتدع، ويرجع إلى الورع»⁷⁹. كما أن قطب الأئمة يقدم مجموعة من الأدلة القرآنية والأحاديث التي تنهي من تقليد أهل الكتاب، ويؤكد أن هدف هؤلاء سوى استعباد الناس، واستغلال خيرات البلاد. إن اعتبار التعامل مع هؤلاء هو مخالفة لكتاب الله وسنة رسوله، وهو كذلك تحليل ما حرم وتحريم ما حلله سبحانه وتعالى.⁸⁰ فمن خلال نصيحة أطفيش التي لا يمكن لنا التعرض لكل حيثياتها، نريد أن نشير أخيرا أن أطفيش كان من ألد أعداء فرنسا حيث كان ينصح كل المسلمين، حيث ما كانوا، بالجهاد ضد المستعمر وإعلاء كلمة الإسلام.

الخاتمة:

لقد سعينا جاهدين في هذا المقال للتأكيد على أن الخطاب الإصلاحي في تاريخ أفكار الفكر الإباضي لم ينشأ مستقلا عن ظروفه التاريخية والاجتماعية التي كانت سائدة إبان تلك الفترة في وادي ميزاب بصفة خاصة وفي الجزائر بصفة عامة، بل كان إنتاجا تاريخيا ووجوديا لواقع معاش فرضه الابتعاد عن مبادئ الإسلام وتخلف الفكر الإسلامي. كما أن الحضور الاستعماري في الجزائر عجل من بلورة معالمه الفكرية وتجسيده عمليا على أرض الواقع. لم يحاول محمد بن يوسف أطفيش كأحد أهم رواد المدرسة الإصلاحية في تاريخ الإسلام الإلغاء المطلق لكل ما كان موجودا فكريا، وهذا رغم نزعتة المتحفظة ضد سلطة التيار المحافظ الذي لم يدخر جهدا لمحاربة أفكاره التجديدية. فإلى جانب ذلك لم يكن اهتمامه منحصرا في مهمة التصالح مع هذا التيار المحافظ، بل مع الآخر السني جاعلا من الحوار معهما سلطة تواصل إنساني منبعا وأساسها الدين الإسلامي كركيزة من أجل الاعتراف الواحد بالآخر والاحترام المتبادل. انطلاقا من هذه المبادئ أراد بطريقة علمية وموضوعية أن ينظم وسائل استدلالية لإقامة أفكاره الإصلاحية محاولا نشرها في العالم الإسلامي كله على أساس معرفي محض. فلهذا يمكن التأكيد على كمون هدفه الأسمى كان إعلاء شأن الإسلام ومصلحة معتقيه عن طريق إحياء كتاب الله وسنة رسوله المصطفى معتمدا في ذلك على التفكير والنظر في الأدلة ومراعيها كذلك صيرورة تاريخ الأفكار وحركية زمانه المعاش.

إن الرؤية المعرفية ذات الأبعاد الفلسفية حول حوار الأنا والآخر في خطاب قطب الأئمة الإصلاحي يمكن أن تكون مثالا حيا للتقارب الفكري بين أهل السنة والإباضية بصفة خاصة وبين المذاهب الإسلامية الأخرى بصفة عامة. فاليوم لا يستطيع أن يعيش الأنا الإباضي المسلم داخل مذهبه ولا الأنت السني المسلم كذلك، إذ أنه بإمكان كلاهما أن يكتشف الآخر من خلال التقارب الفكري المبني على أساس الاحترام المتبادل، الذي يكون جسره الحوار الهادف إلى تحقيق المصلحة العليا للإسلام. إن الإسلام هو نحن الإنساني المكون للأنا الإباضي والأنت السني الخالي من الأحكام المسبقة التي يكون أساسها إيديولوجيا، والذي يؤدي إلى نفي وجود وهوية كل منهما عن طريق تجاهل كل واحد منهما للآخر. إن شخصية نحن التي كان يدعو إليها أطفيش لا تعني الارتقاء المطلق واللاواعي للأنا في فكر الآخر أو ما يسمى بانحلال الهوية المذهبية، إنما تؤكد الهوية المغايرة وتدعو إليها. إن الدعوى لشخصية نحن هو خلق شرعية الانتماء لكل من الأنا والآخر إلى كتاب الله وسنة رسوله، حيث تسعى إلى تحقيق المصالح المشتركة لكل منهما.

حقاً لقد وفق محمد بن يوسف أطفيش رحمه الله في اختياره التوجه نحو الآخر السني معتمدا في ذلك على لغة الحوار التي تلغي الاختلاف بين الإباضية وأهل السنة، لأنه كان يعرف

جيذا أن الأنا لا يستطيع العيش في إطار المفرد ولا الآخر على هامش الأنا، فلهذا جعل من النصيحة منهجا إصلاحيا خاليا من التعقيد لتحقيق خطابه الديني والفكري. إن عالم النحن الذي شيد قطب الأئمة ببيان نظريته المعرفية على أساس الحوار في نطاق النصيحة والذي كان يحلم به، لم يكن يوما مهددا بالزوال ولا يزال إلى يومنا هذا كذلك، لأن الأشخاص هم الذين يموتون وليس أفكارهم الإنسانية. وفعلا كتب لمشروع أطفيش الإصلاحى الإستمرارية التاريخية عن طريق تلاميذته وتلاميذة تلاميذه، الذين سعوا جاهدين مواصلة مسيرة أستاذهم التجديدية في العالم كله، وخير دليل على ذلك هو مشاركتهم إلى جانب أخوانهم أهل السنة في تأسيس جمعية علماء المسلمين التي يرجع لها الفضل في تأسيس وعي وطني سياسي كان من وراء تحرير العباد والبلاد من هيمنة الاستعمار الفرنسى الغاشم وحافظوا على وحدة الوطن، رغم سعي الإدارة الفرنسية على عزلهم.

الهوامش:

¹ T. Lewicki: Artikel „al-Ibadiyya“, in: EI² (The Encyclopaedia of Islam), Bd. III, S. 669-682, hier S. 669-671; ders: The Ibadites in Arabia and Africa, in: CHM 13 (1971), S. 51-130, hier S. 51-69; ders.: La Djamaat al-Mouslimin de Basra et les Origines des Imamats Ibadites, Beni-Isguen 1985, S. 1-17, hier S. 1-7 (unveröffentlichter maschinenschriftlicher Artikel, aus privater Hand erhalten); John C. Wilkinson: The early development of the Ibadi movement in Basra, in: G. H. A. Juynboll (Hrsg.): Studies on the first century of Islamic society, Carbondale 1982, S. 125-144. Abdel-Hakim Ourghi: Die Ibadiya in der islamischen Häresiographie, in: Asiatische Studien/Études Asiatiques 4 (2008), S. 1043-1070.

للمزيد من المعلومات الإضافية حول نشأة المذهب الإباضي وتطوره في التاريخ الإسلامي أنظر: محمد صالح ناصر: منهج الدعوة عند الإباضية، عمان 1997، ص. 79-125. عوض محمد خليفات: نشأة الحركة الإباضية، عمان 1978، ص 64-115. بكير بن سعيد أعوش: أعضاء إسلامية على المعالم الإباضية، غرداية 1999، ص. 7-17.

² في ما يخص موضوع السير الذاتية كجنس أدبي متميز انظر:

Philippe Lejeune: Der autobiographische Pakt, in: Günter Niggel (Hrsg.): Die Autobiographie. Zu Form und Geschichte einer literarischen Gattung, Darmstadt 1998, S. 214-257; Tetz Rooke: In my childhood. A study of Arabic autobiography, Stockholm 1997, S. 22-24; Rainer Brunner: „Siehe, was mich an Unglück und Schrecken traf!“ Schiitische Autobiographien, in: Rainer Brunner u.a. (Ed.): Islamstudien ohne Ende. Festschrift für Werner Ende zum 65. Geburtstag, Würzburg 2002, S. 59-68.

³ J. Schacht: Artikel „Atfiyash“, in: EI², Bd. I, S. 758; C. Brockelmann: Geschichte der arabischen Literatur, Supplement, Bd. 2, Leiden 1938, S. 893; M. H. Custers: al-Ibadiyya a bibliography. Ibadis of the Maghrib (incl. Egypt), Bd. 2, Maastricht 2006, S. 132f.

يلقب أطفيش كذلك بقطب الأئمة: انظر: جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية. قسم المغرب، ج 4، القارة - غرداية - الجزائر 1999، ص 835-949. عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج 12، دمشق 1960، ص. 133. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، الجزائر 1971، ص. 191-192.

⁴ إبراهيم بن أبي بكر حفار: السلاسل الذهبية في الشرائع الطيفيشية، (مخ)، غرداية 1335، ص. 11.

⁵ محمد بن يوسف أطفيش: الذخر الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، القاهرة 1326، ص. 240. أطفيش: رسالة إن لم تعرف الإباضية يا عقبي، تحقيق بن سعيد الشماخي العامري/مصطفى بن سعيد العمري، تونس 1321 ص. 16.

⁶ Abdel-Hakim Ourghi: Die Reformbewegung in der neuzeitlichen Ibadiya. Leben, Werk und Wirken von Muhammad b. Yusuf Atfaiyash 1236-1332 h.q. (1821-1914), Würzburg 2008, S. 105ff.

⁷ L. David: Le cheikh Atfyech et son époque (1825-1914), o.O. o.J., S. 1-41 (unveröffentlichter maschinenschriftlicher Artikel, aus privater Hand erhalten), hier S. 2f.

- ⁸ حول موقف أطفيش الثوري من الاستعمار الفرنسي انظر:
- علي محمد دبوز: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج1، الجزائر 1965، ص38.
- مصطفى بن ناصر وينتن: آراء الشيخ محمد بن يوسف أطفيش العقيدية، القارة – الجزائر، 1996، ص36.
- الحاج يوسف بن بكير سعيد: تاريخ بني ميزاب، غرداية 1992، ص99.
- Ourghi: Die Reformbewegung in der neuzeitlichen Ibadiya, S. 335ff.; A. –M Goichon: La vie féminine au Mzab, Bd. II, Paris 1927-1931, S. 8f.
- ⁹ نجيب العقيلي: المستشرقون، ج 1، القاهرة 1964، ص204.
- ¹⁰ Emile Masquary (Ed.): Chronique d'Abou Zakaria, Algier 1878, S. 31.
- ¹¹ أطفيش: الرسالة الشافية في بعض تواريخ أهل وادي ميزاب، القاهرة 1328، ص137.
- Pierre Cuperly: Aperçus sur l'Histoire de l'Ibadisme au Mzab, Paris 1973, S. 97.
- ¹² أطفيش: رسالة إن لم تعرف الإباضية يا عقبي، ص18.
- ¹³ أطفيش: أجوبة القطب، تحقيق الشيخ حمو بن باحمد بابا، (مخ)، د/مك، د/ت، ص 28 – 29.
- ¹⁴ عبد المتعالي سعيد: المجددون في الإسلام، القاهرة 1956، ص 8 – 11.
- ¹⁵ يحي صالح بوتردين: الشيخ محمد بن يوسف أطفيش ومذهبه في تفسير القرآن، القاهرة 1989، ص 31 .
- وينتن: آراء الشيخ، ص18.
- ¹⁶ دبوز: نهضة الجزائر الحديثة، ج1، ص 249 – 250.
- ¹⁷ L. David: Conférences sur les les mechaikh du Mzab, Ghardaia 1960, S. 3.
- ¹⁸ فيما يخص المشاكل السياسية والاجتماعية التي كان يعاني منها المجتمع الإباضي في تلك الفترة: انظر:
- سعيد: تاريخ بني ميزاب، ص104.
- Charles Amat: Le Mzab et les Mzabites, Alger 1888, S. 23ff.; Nil-Joseph: Le Mzab et son annexion à la France, Alger, S. 37ff.
- ¹⁹ أطفيش: كشف الكرب، تحقيق محمد علي الصليبي، ج 2، عمان 1985، ص 314 .
- ²⁰ أطفيش: حاشية السؤالات، بدون مكان وبدون تاريخ، (مخ)، ص 96. وينتن: آراء الشيخ، ص 21 – 22.
- ²¹ محمد عكي علواني: محمد بن يوسف أطفيش ومنهجيته في تفسيره التيسير، الجزائر 1990 – 1991، ص47.
- ²² بكير بن سعيد أعوش: قطب الأئمة العلامة الشيخ محمد بن يوسف أطفيش، غرداية 1989، ص 86 – 87.
- ²³ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، بيروت 1998، ص 282 – 283.
- ²⁴ سعد الله: تاريخ الجزائر، ج 2، ص 9 – 10.
- ²⁵ علواني: محمد بن يوسف أطفيش، ص48.
- ²⁶ Ourghi: Die Reformbewegung in der neuzeitlichen Ibadiya, S. 138ff.
- جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية، ج 4، ص 965 – 968. إبراهيم بن عيسى أبو القبطان: ملحق سير المشايخ للشماخي، د/مك، د/ت، (مخ)، ص 52. دبوز: نهضة الجزائر الحديثة، ج1، ص 260 – 263.
- ²⁷ أطفيش: شرح كتاب النيل وشفاء العليل، ج 1، جدة 1985، ص 55 – 56.

- ²⁸ بكير بن سعيد أعوش: قطب الأئمة، ص. 86 . نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص 93 – 94. سعد الله: تاريخ الجزائر، ج2، ص580.
- جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية، ج 3، ص. 532 – 536 .
- A. de Motylinski: Artikel “Abd al-Aziz b. al-Hagg Ibrahim”, in: EI², Bd. I, S. 58-59; David: Conférences, , S. 4; M. Mercier: Étude sur le waqf abadhite et ses applications au Mzab, Algier 1927, S. 25; Ourghi: Die Reformbewegung in der neuzeitlichen Ibadiya, S. 140ff.
- ²⁹ أطفيش: شرح كتاب النيل وشفاء العليل، ج 1، ص49.
- ³⁰ سعد الله: تاريخ الجزائر، ج 2، ص. 75-76.
- ³¹ أطفيش: فتح الباب للطلاب شرح معالم الدين، الجزائر، د/ت،(مخ)، ص14 – 15.
- ³² Salah Bendrissou: Implantation des Mozabites dans l’Agérois entre les deux guerre, Bd. 1, Paris 2000, S. 190ff; Ourghi: Die Reformbewegung in der neuzeitlichen Ibadiya, S. 354ff.
- دبوز: نهضة الجزائر الحديثة، ج1، ص289 – 290.
- ³³ Joseph L. Blau: Artikel „Reform“, in: The Encyclopedia of Religion, Bd. 12, S. 238ff.
- ³⁴ Ali Merad: Artikel „Islah“, in: EI², Bd. IV, S. 146-170, hier S. 146ff.; ders.: Le réformisme musulman en Algérie de 1925 à 1940 , Paris / La Haye 1967, S. 28ff.
- ³⁵ لكن عندما نأخذ تاريخ الإسلام الجزائري بعين الاعتبار نجد محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني أول عالم ديني يوظف هذا المفهوم في النصف الثاني من القرن الخامس عشر.
- John O. Hunwick: Artikel „al-Maghili“, in: EI², Bd. V, S. 1155-1156; Ulrich Rebstock: Die Lampe der Brüder (Sirag al-ikhwan) von Utman b. Fudi. Reform und Jihad im Sudan, Waldorf-Hessen 1985, S. 31ff.; John O. Hunwik: Sharia in Songhay: The replies of al-Maghili to the questions of Askia al-Hajj Muhammad, Cambridge 1985, S. 115ff.
- ³⁶ أطفيش: شرح كتاب النيل وشفاء العليل، ج3، ص366 – 367.
- ³⁷ أطفيش: تيسير التفسير، ج2، تحقيق إبراهيم طلاي، غرداية 1998، ص 326.
- ³⁸ أطفيش: تيسير التفسير، ج2، ص639 – 642.
- ³⁹ أطفيش: شرح القصيدة الحائية، (طبعة حجرية)، القاهرة 1339، ص 33.
- ⁴⁰ أطفيش: تيسير التفسير، ج2، ص 242.
- ⁴¹ أطفيش: تيسير التفسير، ج 12، تحقيق إبراهيم طلاي، غرداية 2001، ص 344 – 345.
- ⁴² أطفيش: تيسير التفسير، ج 2، ص 7.
- ⁴³ أطفيش: تيسير التفسير، ج 5، تحقيق إبراهيم طلاي، غرداية 1998، ص 119.
- ⁴⁴ أطفيش: تيسير التفسير، ج3، تحقيق إبراهيم طلاي، غرداية 1998، ص 63.
- ⁴⁵ صحيح البخاري، كتاب العلم (13)، باب من يرد به الله خيرا يفقهه في الدين (71). انظر: كذلك صحيح مسلم، كتاب الإمامة (53).

- 46 أطفيش: تيسير التفسير، ج 5، ص 241 – 242 .
- 47 أطفيش: تيسير التفسير، ج 11، تحقيق إبراهيم طلاي، غرداية 2001، ص 483.
- 48 أطفيش: تيسير التفسير، ج 7، تحقيق إبراهيم طلاي، غرداية 1999، ص 12 – 13.
- 49 أطفيش: تيسير التفسير، ج 10، تحقيق إبراهيم طلاي، غرداية 2001، ص 410.
- 50 أطفيش: شرح القصيدة الحائية، ص 17 – 18 .
- 51 أطفيش: شرح كتاب النيل وشفاء العليل، ج 16، ص 179.
- 52 المصدر نفسه، ج 16، ص 233 – 234.
- 53 المصدر نفسه، ج 16، ص 179 – 180.
- 54 أطفيش: شرح مخمسة أبي نصر فتح بن نوح النفوسي، مكتبة الشيخ الحاج طالح لعللي، بني يزقن (مخ)، (أ.ز-7): 47، ص 7.
- أطفيش: شرح القصيدة الحائية، ص 21.
- 56 المصدر السابق، ص 21 – 22.
- 57 أطفيش: شرح كتاب النيل وشفاء العليل، ج 16، ص 233.
- 58 المصدر نفسه، ج 16، ص 176 – 180.
- 59 المصدر نفسه، ج 16، ص 177 – 178.
- 60 عبد الرحمن عثمان حجازي: تطور الفكر التربوي الإباضي في الشمال الإفريقي، بيروت 2000، ص 121.
- 61 سيعالج كاتب المقال نظرية المعرفة عند أطفيش بطريقة مفصلة أثناء تحليله لبعض الأمثلة من نصائح أطفيش في النقطة الرابعة.
- 62 أطفيش: شرح القصيدة الحائية، ص 21.
- 63 أطفيش: تيسير التفسير، ج 3، ص 53.
- 64 أطفيش: شرح كتاب النيل وشفاء العليل، ج 16، ص 233.
- 65 أطفيش: تيسير التفسير، ج 13، تحقيق إبراهيم طلاي، غرداية 2002، ص 51 – 52.
- 66 أطفيش: شرح كتاب المدونة الكبرى لأبي غانم الخرساني، ج 1، (طبعة حجرية)، بيروت 1974، ص 245.
- 67 المصدر السابق، ص 249 – 250.
- 68 أطفيش: كشف الكرب، ج 1، ص 91.
- 69 المصدر نفسه، ج 1، ص 93 – 96.
- 70 أطفيش: شرح لامية الأفعال، تحقيق وزارة التراث القومي والثقافة، ج 1، عمان 1986، ص 98-101.
- 71 أطفيش: كشف الكرب، ج 1، ص 95.
- 72 أطفيش: شامل الأصل والفرع، تحقيق أبو إسحاق إبراهيم أطفيش، ج 1، القاهرة 1929، ص 15.
- 73 - بن حسن آل سلمان: كتب حذر منها العلماء، تحقيق بكر عبد الله أبو زيد، ج 1، بيروت 1995، ص.

Werner Ende: A Wahhabi Inventory of Dangerous Books, in: Andreas Christmann and Jan-Peter Hartnung (Ed.): Islamica. Studies in Memory of Holger Preißler (1943-2006), Manchester 2009, 89-100.

⁷⁴ أطفيش: شرح كتاب النيل وشفاء العليل، ج 17، ص 341.

⁷⁵ المصدر السابق، ج 17، ص 347.

⁷⁶ أطفيش: الذهب الخاص والمنوه بالعلم القالص، تحقيق أبو إسحاق إبراهيم أطفيش، ج، قسنطينة 1980،

ص 32 – 33.

⁷⁷ A. Berque: Un mystique moderne: Le cheikh Benalioua, in: Revue africaine 79 (1936), S. 691-776, hier S. 692ff.

⁷⁸ أطفيش: كشف الكرب، ج 2، ص 16.

⁷⁹ أطفيش: رسالة إن لم تعرف الإباضية يا عقبي، ص 8.

⁸⁰ المصدر نفسه، ص 29 – 33.

ملاحح الطريقة النعائمية البصرية في كتاب (الرسد في زعمار الخط) للشبح أطفيش

سعاد بسناسي

جامعة وهران

تمهيد

لقد اهتم علماء الجزائر باللغة العربية قديماً وحديثاً، ودليل ذلك تاريخ الجزائر الثقافي، الثري الآخر، والذي جسّدته حضارات راقية، عبر الأزمنة والأمكنة، والأعلام وأعمالهم؛ لذلك كثرت المساجد التي كانت أماكن للتعليم إلى جانب دورها الأساسي الديني، وازدادت وازدانت وتطوّرت بمرور الوقت؛ حيث تم إنشاء المعاهد العلمية، والمدارس والجامعات. وكان نتاج هذه الحركة العلمية التعليمية ظهور علماء في مختلف المجالات، وبروز لغويين اهتموا بتعليم اللغة العربية، وسعوا لتطويرها والحفاظ عليها، وبذلوا جهودهم للترقي بها.

وكان الشيخ القطب أطفيش أحد أبرز أعلام وعلماء الجزائر، الذين استفادوا وأفادوا من هذه الحركة العلمية التعليمية، ويعدّ من الأوائل الذين عارضوا وجود الاستعمار في الجزائر؛ فكان مجاهداً في سبيل الدين والوطن، بعلمه ووعيه، واهتمامه بتعليم اللغة العربية، التي هي أحد أهم مقومات الشخصية الوطنية، وتجسّد كلّ هذا من خلال كتابه (الرسم في تعليم الخط) المعتمد فيه أساساً على الطريقة السمعية البصرية. وقبل البدء في تحديد ملاحح هذه الطريقة من خلال المؤلف المذكور، لنا وقفة مع حياة الرجل، ومن بعدها وصف المؤلف شكلاً ومضموناً، حتى تتحدّد موضوعاته، ويُقرّب مضمونه للقارئ.

حياة القطب ورحلاته العلمية

الشيخ القطب هو أمحمد، بن يوسف بن عيسى بن عبد الرحمن بن عيسى بن إسماعيل بن محمد بن عبد العزيز بن بكير، ولقب بأطفيش، وتعني الكريم، واشتهر بقطب الأئمة، وهو الحفصي نسباً، نسبة إلى عمر بن حفص الهنتاني، جدّ العائلة الحفصية في تونس¹ ولد الشيخ سنة (1236هـ/1818م) وهناك من يرى أنّه ولد سنة (1237هـ)² ومن ثمة كان الاختلاف حول تاريخ الولادة ومكانها. فهناك من يقول إنّ ولد في غرداية، وهناك من قال في بني يزقن³ وتوفي -رحمه الله- يوم السبت 23 ربيع الثاني 1332هـ الموافق لشهر مارس 1914م⁴.

بدأ القطب تعليمه بحفظ القرآن الكريم، وعمره خمس سنوات، وأتم حفظه في ثلاث سنوات، والتحق بالمساجد كان يحضر الحلقات العلمية؛ ليأخذ أصول وأسس العلوم، وتلمذ على يد شيوخ منهم: الشيخ سليمان بن عيسى عدون (ت1884م) والشيخ محمد بن عيسى أزار (ت1872) والشيخ إبراهيم بن يوسف أطفيش وهو شقيقه، وأخذ عنه النحو والفقه⁵.

بدأ تدريسه في سن الخامسة عشر، وألف بعد سنة من ذلك، فنظم كتاب المغني لابن هشام. وحينما بلغ العشرين من عمره، كان عالمًا مشهورًا في وادي ميزاب بخاصة، والجزائر والوطن العربي بعامة، حينما عُرف بجهاده الإصلاحية دينيًا واجتماعيًا، ووظف في مجاله التعليمي. اهتم بالعلم فأنشأ معهدًا تعليميًا في وادي ميزاب، وتلمذ على يد الشيخ الكثير من الأعلام المشهورين بخاصة في بني يزقن، منهم: الشيخ صالح بن عمر بن داود لعللي (ت1928م)⁶ وابن أخيه الذي تعلم على يديه، وانتقل إلى مصر وتوفي بها، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن الحاج محمد بن الحاج إبراهيم بن يوسف أطفيش (ت1966م)⁷.

كانت أكثر رحلات الشيخ القطب وتنقلاته للعلم، ومن أجل العلم، انتقل مرتين إلى الحجاز، وبسبب تضيق الاستعمار، كان ينتقل إلى المدن القريبة المجاورة⁸ مثل: بني يزقن، والقرارة، ورجلان، وبريان، وغرداية؛ وذلك بهدف الوعظ والإرشاد، وتعليم مبادئ الدين الحنيف؛ لأنه برع في علوم مختلفة ومتنوعة، وألف فيها، حتى قيل فيه، إنه: (مجتهد القرن، وقيل هو مرجع الفتوى في العالم الإسلامي)⁹ للمكانة العلمية الراقية التي حظي بها، بين علماء عصره، وحتى وقتنا الحالي.

ترك الشيخ مؤلفات علمية قيمة، وفي مجالات متنوعة؛ حيث ألف في: الفقه، والتفسير، والحديث، والقراءات، والسيرة، وعلم الكلام، والمنطق، واللغة، والتصريف، والنحو، والشعر، والعروض، والبلاغة، والتاريخ، والطبيعات¹⁰ ومنه تتضح موسوعية الشيخ؛ لأنه لم يترك مجالاً علمياً، إلا وألف فيه. وفاق ذلك مؤلفاته العلمية القيمة مائة مؤلف، بين كبير ومتوسط وصغير ورسالة في موضوع من المواضيع¹¹ وإن اختلف في تاريخ ولادة الشيخ ومكانه؛ فإن الاختلاف كذلك كان حول عدد مؤلفاته التي قيل إنها فاقت المائة، وقيل تقارب مائة وخمسين مؤلفاً، منها المخطوط والمطبوع. المخطوطة منها: داعي العمل ليوم الدين، والمسائل التحقيقية في بيان التحفة الأجرومية، الكافي في التصريف، تسهيل الاجتهاد في تفسير أشعار الاستشهاد، وهو شرح شواهد ثلاثة شروح على الأجرومية، وحاشية ثانية على شرح المرادي على الألفية، وشرح أبي سليمان داود التلاتي على الأجرومية، والمسائل الحقيقية في بيان التحفة الأجرومية، ومعتمد الصواب، شرح قواعد الإعراب، لابن هشام، بيان البيان في علم البيان، ربيع البديع في علم البديع، مختصر ثان في علم الخط، وهو شرح لما في (جمع الجوامع) للسيوطي¹² وغيرها كثير

من المخطوطات في مختلف المجالات.

ونذكر من بين مؤلفاته المطبوعة: تيسير التفسير، في طبعين بعمّان عام 1986م¹³ وهميان الزّاد طبع كذلك في عمان، ويتكوّن من ثلاث عشر مجلداً¹⁴ وفي التاريخ له تحفة أهل بريان، والرّسالة الشّافية في بعض تواريخ أهل وادي ميزاب. وفي المجال الدّيني له مثلاً، إزالة الاعتراض عن محقّي آل إباح، وجامع الوضع والحاشية، وغيرها كثير ممّا لم نذكره في هذا المقام؛ لأنّه لنا وقفة خاصّة ومفصّلة عند مؤلّفه (الرّسم في تعليم الخطّ) لاستيطان ملامح الطّريقة التّعليميّة السّمعيّة البصريّة فيه، واستنباط أبعادها بخاصّة التّعليميّة، باعتبار الشّيخ كان معلّماً منذ سنّ مبكّرة، وباعتباره جسّد اهتماماته العلميّة واللّغويّة بإنشاء معاهد تعليميّة، تدعو إلى ذلك وتحافظ عليه وتطوّره.

وصف كتاب الرّسم شكلاً ومضموناً

بيّن الشّيخ اطقيش، الهدف من تأليف هذا الكتاب قي مقدّمته، والتي يقول فيها: (فهذا رسم في تعليم الخطّ كيف يكتب الحرف وحده أو مع آخر)¹⁵ ومنه، فالشّيخ يهدف إلى توضيح كيفيّة كتابة حروف العربيّة منفردة أو مركّبة. وهناك من رأى أنّ العنوان لا يعبر عن المضمون بدقّة؛ (لأنّه لا يتناول قواعد الخطّ العربي فحسب، فموضوعاته كانت متنوّعة فيها الصّوت والصّرف وكذلك التّحو والدّلالة. ولا يكون هذا العنوان في نظرنا مضبوطاً إلّا من باب التّغليب أو التّقليد)¹⁶ ولا نرى في هذا التّنوّع مأخذاً علميّاً؛ لأنّ معرفة كيفيّة كتابة الحروف منفردة أو مركّبة، يتدرج ضمن تعليم الكتابة، وهو أصل معرفة اللّغة، عن طريق التّطق والسّمع والبصر. واللّغة مستويات أربعة، وتعليل الكتابة صوتيّاً وصرفيّاً ونحويّاً وأسلوبيّاً، من ضروريات وأساسيات اللّغة وقواعدها. ومن ثمة، نقول هي طريقة تعليميّة متقدّمة عن البحوث اللّسانيّة الحديثة المتأخّرة؛ ولأنّ عنوان الكتاب يبدأ بالرّسم، الذي يعني رؤية الرّمز، وكتابته كما نراه أو نسمعه.

والكتاب من حيث شكله، هو من الحجم الصّغير، يتكوّن من خمس وسبعين صفحة، وبلغ عدد أسطره 1337 سطراً، ومجموع إحالاته 467 إحالة)¹⁷ وطبع في المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، عام 1986م. وقسم الشّيخ الكتاب إلى: مقدّمة، و 15 باباً، و68 فصلاً. ويتناول الكتاب قضيتين: الكتابة والصّوت. القسم الأوّل للكتابة والثّاني للصّوت. والملاحظ أنّ الشّيخ اطقيش، وضع الأبواب للقسم الأوّل، أمّا القسم الثّاني فلم يضع له إلّا الفصول¹⁸ ولكن المتصفّح للكتاب، يجد في القسم الأوّل أبواباً وفصولاً، وفي القسم الثّاني كذلك توجد الأبواب والفصول.

المنطلقات الصوتية عند الشيخ

انطلق الشيخ في كتابه الرسم، من نظرة صوتية؛ لجمع قواعد الخط والكتابة، لأنه كان مهتماً بالقرآن الكريم. وتطبيقه لهذه القواعد، يندرج ضمن مجال القراءة القرآنية، لأنّ (القراءة صوت، والكلام حروف، والصوت غير الحروف)¹⁹ كما كان متأثراً بالقدامى في آرائهم حول حركات البناء، وعلامات الإعراب، التي أصل تسميتها مستمدة من التطق الصوتي، والصورة البصرية نسبة لحركة الأعضاء الناطقة بها، ووضعية الشفتين، كما جاء عند أبي الأسود الدؤلي²⁰.

كانت الدراسات الصوتية، محطّ اهتمام الدارسين العرب منذ القرن الأول للهجرة، وحظيت عندهم (بعناية خاصة بلغت درجة التأليف؛ فبلغوا مواطن الدقة فيها، رغم نقص الإمكانيات. دقة أقر بها كل لغويّ وصوتيّ من المحدثين العرب والغربيين، (والشيخ اطفيش هو امتداد لهؤلاء الشيوخ والأئمة، فالمتصفح لكتابه الرسم، يشعر بثقافته الواسعة وكثرة الحفظ، ويظهر هذا من خلال اعتماده في قسم الصوتيات، على الخليل بن أحمد الفراهيدي، وسيبويه والأصمعي وابن جني وأبو عمرو بن العلاء والكسائي؛ لذلك من اعتمد على هؤلاء الشيوخ في مؤلّفه لا بد أن يكون متميزاً، إضافة إلى أنّ زمن هذا المؤلف كان في مرحلة احتلال فرنسا للجزائر)²¹ وهي مرحلة يصعب فيها قراءة هذا النوع من العلوم، والأصعب من ذلك هو صعوبة التأليف في مجال كهذا.

لم يذكر الشيخ مفهوم الصوت في كتابه، ولم يحدّد أقسامه ووظائفه، كما أنّه لم يعرف الصّوامت العربية، وقد اكتفى بوصف مخارجها وصفاتها، ولم يفصل الحديث عن الصّوائت²² وأشار إليها باعتبارها حركات إعرابية، وأنّ الصّوائت القصيرة هي أبعاض من الطويلة، الضمة واو صغيرة، والفتحة ألف منبسطة صغيرة فوق الحرف، والكسرة ياء ممتدة متواصلة منبسطة أسفل الحرف.

وركّز الشيخ اطفيش كثيراً على وصف الرموز الكتابية للصّوامت، والأهمّ من هذا أنّه خصّ كلّ حرف بفصل مستقلّ به، وجعل فصلاً واحداً للألف والواو والياء، وأخذ في هذا الموضع عن الخليل ونسب إليه نصوصه، وهذا يدلّ على أنّه اهتمّ كثيراً بالكتابة البصرية، وعلاماتها وطريقة رسم رموزها بدقة وصواب والأمر نفسه أكّده اللسانيون المحدثون؛ حيث يرون ارتباط الفكر بصورة أسرع بالأشكال المرسومة والصّور المجسّدة، والأشكال الخطيّة.

كما تحدّث الشيخ، وفصل في مواضع كثيرة، عن مختلف التلوينات الصوتية، ومثّل لها، مثل: (الإمالة، والوقف، والإبدال، والإدغام، والتّقل، والقلب، والحذف والزّيادة والوصل والفصل) وكلّها موادّ لا تعلّم من دون التّدرب على الطّريقة السّمعية البصرية. ولا يمكن الحديث عن الصوتيات، ووظيفة الصّوت اللّغويّ، من خلال هذه التلوينات الصوتية، من دون أن ننظر إلى الأصوات عند الشيخ

اطفيس، والصوامت العربية منفردة من حيث مخارجها وصفاتها، فيما هو آتٍ.

المخارج الصوتية عند الشيخ

أشرنا إلى أنّ الشيخ تأثر في الكثير من الآراء والمواقف التعليمية بالقدامى، ونلمس هذا التأثير حينما يتحدث عن المخارج الصوتية، ويتّضح لنا كأننا نقرأ مصطلحات الخليل، وآراءه حيناً، وفي مواضع أخرى نلمس أخذه وتأثره بـسيبويه. وأرى أنّ الشيخ حينما أخذ بعض المصطلحات عن الخليل؛ فإنّ ذلك يحسب له، باعتبار أنّ تلامذة الخليل، وكلّ من جاء بعده أهملوا مصطلحاته، وبخاصة مصطلحي (المبدأ، والحيّز)²³ كما وظّف مصطلح المخرج وهو الشائع استعمالاً عند القدامى والمحدثين. ونلاحظ أنّ الشيخ لم يعدد المخارج الصوتية؛ لأنّ الاختلاف قائم بين القدامى والمحدثين في عددها، وتسميتها، وكذلك الاختلاف بين اللّغويين والقراء، وإن كان القدامى في الغالب قراء.

ذكر الشيخ المخارج الصوتية، كما جاءت عند أغلب القدامى، وهي: الجوف وأصواته ثلاثة (الألف والواو والياء للمدّ) أقصى الحلق (الهمزة والهاء) وسط الحلق (العين والحاء) أدنى الحلق (الغين والحاء). ثمّ الأصوات اللسانية، ومجموعها عشرة²⁴ مقسّمة بحسب أقسام اللسان وبعضها نسبة للتنايا والشفّتين، وهي كالآتي: أقصى اللسان القاف، أسفله الكاف، وسطه الجيم والشين والياء، إحدى حافتي اللسان للصاد، وبين حافتي اللسان للآم، طرف اللسان إلى ظهوره للراء، وطرف اللسان وأصول التنايا العليا للطاء والذال والتاء، طرف اللسان والتنايا السفلى للسين والصاد، بين طرف اللسان والتنايا العليا للطاء والذال والتاء، باطن الشفة العليا للفاء، وبين الشفّتين للميم والباء، والخيشوم للتون الخفيفة والميم والتّون عند القراء.

والترتيب المذكور الذي اتّبعه الشيخ، هو في أصله ترتيب هجائي، ويراعي طريقة ومواضع النطق الصوتي، وهو بذلك ترتيب صوتي تصاعدي، يبدأ من الجوف وصولاً إلى الشفّتين. وهو عكس الترتيب عند بعض المحدثين؛ الذي في أصله هو ترتيب تنازلي، من الشفّتين إلى الحلق، وعدد المخارج والحروف عندهم أقلّ مقارنة بالقدامى، بحيث لا تتجاوز العشرة مخارج. إلّا نادراً. ولا تتجاوز ثمانية وعشرين حرفاً، ومجموع الحروف عند القدامى تسعة وعشرون حرفاً.

كما أنّ الشيخ لم يتطرّق لكلّ المخارج تعريفاً وتفصيلاً؛ لأنّه ذكر بعضها والبعض الآخر اكتفى بذكر ألقابها حسب. وممّا ذكره أربعة أصوات (السين، والقاف، والكاف، واللام) فيقول: (والسين والصاد في حيّز واحد، وهي الحروف الأسلية لأنّ مبدؤها من أسلة اللسان... والقاف بين عكدة اللسان وبين اللّهاة في أقصى الفم، واللام من طرف اللسان معارضاً لأصول التنايا والرّباعيات)²⁵ وذكر الأصوات الأخرى بألقابها، كالحلقية، والشجرية، والدّلقية، واللّثوية، والطّعية، والشفّوية. وذكر مصطلحات سابقه، (كالجوف، والحلق، والشفّتين، واللّثة، والتّطع،

والأسلة، والشجر) وهي مأخوذة عن الخليل لتمييزه بها في معجمه العين، وهو أول معجم عربي صوتي متخصص، ولأنه كان من الأوائل السباقيين لذكرها. ويسجل للشيخ اطفيش أنه أضاف مصطلح الذلاقة، وتداول في كتابه ذكر مصطلح عُكدة اللسان وهي أقصاه وهي مستعملة عند القراء لا اللغويين، ومصطلح نطع الغار²⁶.

الصفات الصوتية عند الشيخ

تدرك الأصوات اللغوية بعد نطقها، وتحدد موضعه من خلال صفاتها؛ لأن الصوت اللغوي لا يكتمل تحققه إلا باكتساب صفاته، وتلونه بها؛ (فالمخرج بمثابة الوزن والمقدار، والصفة محك ومعيار)²⁷ والصفات التي يكتسبها الصوت، تنقسم إلى ثلاثة أقسام أساسية، وثانوية، وفارقة تمييزية. وقد اختلف القدامى والمحدثون في عددها، وتسمية بعضها. وذكر الشيخ اطفيش عشر صفات²⁸ كما جاءت عند سيويه²⁹ وتمثل في الصفتين الأساسيتين الجهر والهمس، وصفتين ثانويتين وهما الشدة والرخاوة³⁰ وست صفات تمييزية، وهي: (الانحراف، والتكرار، واللين، والهواي، والانفتاح والإطباق).

بدأ الشيخ الحديث عن الصفات بالأساسية؛ لأنها أساس كل صوت لغوي، فذكر الجهر والهمس، وعرف الجهر بأنه (يختص بشدة المخرج مع عدم جريان النفس مع مخرجه)، وذكر بأن مجموع الأصوات المجهورة تسعة عشر صوتاً في العربية، وجاءت كما ذكرها سيويه، ويعرف الشيخ الهمس بأنه (حرف يلين مخرجه دون المجهور، وجرى معه النفس فكان دون المجهور في رفع الصوت)، ويصد بالليونة عدم الضغط والشدة على مخارج المهموسات كما في الجهر.

وبهذا التعريف لا يختلف الشيخ عما قال به القدامى في تعريف الهمس وتعداد أصواته، فيقول: (الخاء المعجم من الحروف المهموسة وهي عشرة الخاء والحاء والهاء والكاف والشين والسين والتاء والصاد والضاد) مع أن القدامى اعتمدوا الوصف والتمثيل في ذكر المخارج، واستخلاص الصفات بأنواعها؛ فإن تجارب المحدثين، وقياساتهم المخبرية – في الغالب – لم تخرج عن ذلك ولم تخالفه، عدا قول بعضهم بعدم اهتزاز الوترين الصوتيين في الهمس، وجعل بعضهم القاف الطاء والهمزة من الأصوات المهموسة، وجعل البعض الآخر الهمزة وسطية لا هي مجهورة ولا مهموسة، واكتفينا في التمثيل للصفاء عند الشيخ بالأساسية، دون ذكر الصفات الأخرى وأصواتها، ذلك لأن الشيخ لم يخالف القدامى فيما قدموه من قواعد صوتية، تساعد على النطق السليم، والكتابة الصحيحة، وكل ما ذكر من منطلقات وموضوعات صوتية عند الشيخ، تعتبر مادة مهمة، وأساسية وقاعدية لفهم أصوات العربية، ورسمها، بخاصة عند المتعلمين. وما يمكن تسجيله في مجال الصفات للشيخ، أنه وظف مصطلحين وهما (المنخفض ويقصد به المستفل عكس المستعلي، والمحقوق ويعني الأصوات المقلقلة، لشدة الضغط حين النطق بها).

التلويحات الصوتية عند الشيخ

تحدث الشيخ عن تلويحات صوتية كثيرة ومهمة في الأداء اللغوي والقرآني، بدءا بالإمالة، والوقف، والإبدال والإدغام، والتقليل، والقلب، والزيادة والحذف، كما أشار إلى الكميات الصوتية القرآنية التي لا يستغني عنها متعلم، كالإشمام والزوم، وسنبيّن رأي الشيخ في موضوع الإمالة لأهميته،

الإمالة:

تحدث الشيخ عن الإمالة، وأشار إلى إمالة الألف نحو الياء، وهو يتفق مع القراء في اعتبار الإمالة هي تقريب الفتحة من الكسرة، والألف من الياء بحيث يقول: (الحروف والأسماء غير المتصرّفة أن تكتب على لفظها، لكن لما أميل بعضها كتب بالياء كيلي ومتى) وذكر أقسام الإمالة، المتمثلة في الشديدة والمتوسطة. فالشديدة هي الكبرى وتعني تقريب الفتحة من الكسرة، والألف من الياء من غير قلب خالص، ولا إشباع مبالغ فيه؛ أي إمالة الألف نحو الياء، والفتحة نحو الكسرة بدون قلب للفتحة ولا للألف.

والإمالة المتوسطة، هي أن ينطق الحرف بين الفتح المتوسط، والإمالة الشديدة؛ أي بين الفتح والإمالة المحضة، وتسمى تقليلا أو تلطيفا، أو إمالة بين بين عند المحدثين. ورأي المحدثين يخالف ما جاء به القدامى

الهوامش:

¹ - ينظر، عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر ن صدر الإسلام حتى وقتنا الحالي، مؤسسة نويهض، للطبع والنشر، لبنان، ط1، 1983، ص19. ومحمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، المطبعة التعاونية، الجزائر، ط1، 1965، ج1، ص290.

² - جمعية التراث، معجم أعلام الإباضية من القرن 1 هـ إلى القرن 15 هـ (قسم المغرب) القرارة، غرداية، ط1، 1999، ج5، ص835.

³ - ينظر، عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، ج4، ص454.

⁴ - ينظر، عدون جهلان، الفكر السياسي عند الإباضية من خلال آراء الشيخ محمد بن يوسف أطفيش، نشر جمعية التراث، القرارة، غرداية، (د.ت) ص105. وينظر، محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة، ج1، ص386. وعادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص19.

⁵ - ينظر، محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة، ج1، ص283، وما بعدها.

⁶ - نفسه، ج1، ص378.

⁷ - عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص19.

⁸ - محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة، ج1، ص363.

- 9- نفسه، ج1، ص352.
- 10- ينظر تفصيل ذلك عند، عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص19، بتصرف.
- 11- ينظر، محمد علي دبو، نهضة الجزائر الحديثة، ج1، ص313.
- 12- ينظر تفصيل ذلك عند، أحمد جلايلي، إسهامات الشيخ محمد بن يوسف أطفيش في الدراسات اللغوية، مقال بمجلة القلم، جامعة وهران، العدد الثاني، 2005، ص87، وما بعدها.
- 13- ذكر هذا عند، مختار بوعناني، المصنفات اللغوية للأعلام الجزائرية، ط1، 2000، ص23.
- 14- مختار بوعناني، التصريف موضوعاته ومؤلفاته، طبعة خاصة، 1996م، ص97.
- 15- محمد بن يوسف أطفيش، كتاب الرسم في تعليم الخط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص05.
- 16- أحمد جلايلي، إسهامات الشيخ محمد بن يوسف أطفيش في الدراسات اللغوية، مقال بالمجلة السابق ذكرها، ص95.
- 17- لعشريس عباس، الدراسة التحليلية للمدرجات السمعية البصرية في كتاب الرسم للشيخ أطفيش، رسالة ماجستير في اللغة، جامعة وهران، 2003/2004م.
- 18- نفسه، ص17.
- 19- علي بن إسماعيل الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ج1، ص247.
- 20- ينظر تفصيل ذلك عند، أبي عمر عثمان بن سعيد الداني، كتاب النقط، تح، محمد صادق قمحاوي، مكتبة الكليات الأزهرية.
- 21- لعشريس عباس، الدراسة التحليلية للمدرجات السمعية البصرية في كتاب الرسم للشيخ أطفيش، ص62.
- 22- أطفيش، الرسم، ص35.
- 23- نفسه، ص60/54.
- 24- الرسم، ص68/54.
- 25- نفسه، ص65/60.
- 26- نفسه، ص52.
- 27- صبحي الصالح، فقه اللغة، ... ص.
- 28- الرسم، ص54، وما بعدها.
- 29- ينظر، سيبويه، الكتاب، ج4، ص434، وما بعدها.
- 30- لأن الصفات المتوسطة لم تذكر عند سيبويه، رغم أنه كان يعلم بوجود أصوات، لا هي شديدة ولا رخوة؛ لكن لم يصرح بها كلها، وذكر ابن جني بعده بعضها، وأتمها المبرد، وهي المجموعة في عبارة (لم يروعا).

طريقة التعلم عند القلب من منظور النموذج التعليمي الكولوني

عمر داود

قسم علم الاجتماع المركز الجامعي غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000 الجزائر

توطئة:

يلعب التعليم دوراً أساسياً في حياة الأمم والشعوب، لأنه يشكل المحور الرئيس في ديمومة نشاط الحقول الثقافية والسياسية والاقتصادية لأي بنية اجتماعية، وفي تحديد موقعها ومكانتها في الخارطة الكونية، فتجد بذلك مختلف النظم التعليمية نفسها مُحاصرةً بين محاولات مواكبة مقتضيات مرحلتها الزمنية لأن أي تخلف عنها سيصعب تداركه وستكون تبعاته شاملة لسائر النظم الاجتماعية الأخرى، وثقل مستلزمات الحفاظ على هويتها وخصوصياتها الثقافية.

وفي ظل التسارع الراهن لوتيرة التغيير وتفجر الثورة المعلوماتية والتكنولوجية والمعرفية، تواجه النظم التعليمية للبلدان الإسلامية والعربية تحديات ومخاطر جمة، بعد أن أضحت "وضعية التبعية" التي تعاني منها معظم تلك البلدان تُعزز منحى الخضوع لنماذج تعليمية تنبع من ثقافة التغريب والهيمنة، باعتبارها منفذاً مُهماً لضمان امتداد امتيازات الظاهرة الكولونiale القديمة.

فكان وجوباً على الباحثين والدارسين الجزائريين التأسيس لنموذج تعليمي أصيل وقادر على الاستفادة الواعية من الخبرات العالمية، وجعل طرائق التعليم أكثر حيوية ومرونة لتحسين نوعية المخرجات التعليمية، وصون هويتها. ولن يتأتى ذلك بالانغلاق على الذات ورفض الآخر، إنما بكسر حدة الانهيار بالغرب وفضح أسطورة الثقافة العالمية المهيمنة، وإعادة بناء الموروث القديم بإزالة معوقات الاستفادة منه وإعطائه الأولوية في بناء فلسفة النظام التعليمي الجزائري.

ومن أبرز الإسهامات النظرية الموروثة في الحقل التربوي والتعليمي والأكثر تصدراً، حسب تقديرنا، والتي قاربت بعمق الواقع المجتمعي الجزائري إسهامات عبد الرحمان ابن خلدون، وقد يكون من الصواب القول: أن المفاهيم التربوية والتعليمية التي طرحها ابن خلدون تتمتع بقدر كبير من الاتساق الداخلي والانسجام فيما بينها، إلا أنه من المجازفة الإقرار بترقيتها إلى درجة النظرية

التربوية أو التعليمية، لأن النظرية تستلزم جملة من الشروط التي بدونها لا يمكن أن تسمى "نظرية"، لذلك يُفضل الكثير من الدارسين استخدام مفهوم النموذج التعليمي الخلدوني.

وفي ذات السياق، يمكن اعتبار معهد الشيخ أطفيش "القطب" من المؤسسات التعليمية المتميزة التي تركت بصماتها واضحة على البنية الاجتماعية والثقافية في مزاب، عندما اتخذ القطب من التعليم وسيلةً لتبليغ رسالته الحياتية وإصلاح المجتمع، ففضى حوالي ثمانين عامًا في التعليم، أقبل عليه الطلبة من كل حدب وصوب، فحبب إليهم طلب العلم بانتهاجه طريقةً تعليميةً مشوقةً لم يألفها طلبة عصره، فشاع أمره، وازداد عدد طلبته المتلهفين للارتواء من نبع علمه، حتى أصبحوا امتداداً لفكره واستمراراً لنهجه في مواقعهم المختلفة.

فالمستبوع لمسيرة معهد القطب وطريقته التعليمية يلاحظ وجود نقاط تماس عديدة مع النموذج التعليمي الخلدوني وكأنها مستوحاة منه - رغم استبعادنا لذلك - وعليه تسعى هذه الورقة البحثية إلى الإحاطة بمختلف جوانب العملية التعليمية عند القطب، ثم الإشارة إلى النموذج التعليمي الخلدوني بكيفية مقتضبة، فمحاولة الكشف عن أهم نقاط التماس والتطابق بينهما، من خلال مقارنة مبادئ النموذج التعليمي الخلدوني بطريقة التعليم عند القطب.

عسى أن تُثير هذه المداخلة نقاشاتٍ علميةٍ واسعةٍ، تسعى إلى تكوين جسورٍ تُوحد بين الاهتمامات النظرية والمنهجية والعملية للباحثين، وتساهم إلى حدٍ ما في تحديد معالم السياسة التعليمية الجزائرية.

1- حياة الشيخ أطفيش:

هو أمحمد بن يوسف بن عيسى بن عبد الرحمان بن عيسى بن إسماعيل أطفيش، وُلد سنة 1236هـ الموافق لـ 1820م ببني يزقن (أوعشت بكير، 1989، ص63)، لُقّب بقطب الأئمة (مجموعة مؤلفين، 1999، 848/4)، أظهر تفوقاً ونوعاً منذ صغره، فحفظ القرآن الكريم وهو ابن ثماني سنوات (محمد علي دبوز، 1965، 299/1)، وأصبح بذلك مؤهلاً للاستزادة، فنلقى مختلف العلوم والفنون على يد عدّة مشايخ منهم أخوه إبراهيم بن يوسف أطفيش الذي علّمه مبادئ علوم الدين كالتفسير والحديث والفقه وأصول التشريع، كما أخذ منه المنطق والصرف والبلاغة والنحو والعروض، إضافة إلى الحساب وعلم الفلك... (أبو القاسم سعد الله، 1998، 266/3)، وما إن اشتد عوده واستساغ حلاوة طلب العلم، حتى شمر على ساعديه معتمداً على نفسه في تحصيل مختلف العلوم، وقد استطاع بجلده وعزمته أن يستنسخ عدداً معتبراً من الكتب، كما تحصل على العديد من الخزائن النفيسة من الكتب في وادي مزاب، كخزانة الشيخ عبد العزيز الثميني ومكتبة عمر بن سليمان نوح (الحاج سعيد يوسف، 1992، ص134)، حتى بلغ من النبوغ والتمكين ما جعله يجلس مبكراً للتعليم إلى جانب شيخه وشقيقه، فتحلق من حوله من

علموه في الصغر ليتعلموا على يديه بعد ذلك (دبوز محمد علي، 1965، 299/1)، فقضى معظم فترات حياته في التعليم والتأليف، إلى أن وافته المنية -رحمة الله عليه- في 1332هـ الموافق لـ 1914م ببني يزقن (أبو القاسم سعد الله، 1998، 273/3).

2- معهد القطب:

أ- النشأة:

ما إن بلغ القطب سن السادسة عشر من عمره، وبعد مرور عام من التعليم مع أخيه استقل بالتدريس في داره، ففتح معهده عام 1837هـ (الحاج سعيد يوسف، 1992، ص134)، فكان للزّصيد المعرفي والعلمي المتنوع الذي جمعه من مشايخه ومن مختلف المكتبات وذاكاؤه الحاد وطريقة تدريسه دوراً أساسياً في جعل معهده قبلة للطلبة، ومورد العطشى لطلب العلم من كل قرى وادي مزاب وخارجها حتى من تونس وليبيا، ويصف الشيخ محمد علي دبوز معهد القطب بقوله: «هو أمنية كل نابغة طموح في العلم، وهو كعبة القصاد في العلوم، تُشدُّ إليه الرّحال من مدن ميزاب وأنحاء المغرب» (دبوز محمد علي، 1976، 227/2).

لقد كانت دور العلم والكتاتيب منتشرة في مزاب في زمن القطب، غير أنها لم تترك الأثر الكبير على الحياة العلمية والثقافية في المنطقة، لنظامها التقليدي، ومستواها العلمي المتواضع، فكان هدفها تلقين وتحفيظ بعض المبادئ والمتون للصبيان بالتوازي مع ما يحفظونه من القرآن الكريم (بوتردين يحي، 1989، ص49)، فأنشأ القطب معهده رغبةً منه في رفع المستوى التعليمي في مزاب، فوضع لمعهده نظاماً محكماً وبرنامجاً دراسياً صارماً، فجعله مكماً لمراحل التدريس المعهودة في ذلك الوقت، حتى سماه البعض بمعهد التعليم العالي، فأصبح قبلة المجتهدين وغاية الطامحين إلى الارتواء من نبع علمه الغزير، فشاع أمره، وقصده الكثير من الطلبة، حتى أصبح نموذجاً لمعاهد العلوم الإسلامية في مزاب، ولم يكن هذا الصرح العلمي يأوي جميع الوافدين، وإنما كان ينتقي القطب منهم من توفرت فيه مجموعة من الشروط.

ب- شروط الالتحاق بالمعهد:

لقد وضع القطب جُملةً من الشروط التي يجب أن تتوفر في الطالب، ليتمكن من الالتحاق بالمعهد، حفاظاً على جودة المستوى العلمي، وحسن سير العملية التعليمية فيه، وهي:

- ✓ تمسك الطالب بمختلف التعاليم الدينية، وحسن أخلاقه.
- ✓ حفظه للقرآن الكريم واستظهاره.
- ✓ التعهد بحفظ كل متون الدّروس من فقه وعقيدة...الخ، التي ستلقن في المعهد (أعوش بكير، 1989، ص78-79).

ت- المستويات الدراسية:

اختلفت مستويات طلبة القطب وتفاوتت أعمارهم، فقسمهم إلى ثلاث مستويات يتدرج عبرها الطلبة وهي:

✓ مستوى المبتدئين: وتُدرس فيه المواد التالية: النحو على الأجرومية، والحديث، والشعر، والأدبيات، والأخلاق، والتربية، ويعتمد في تدريس العقيدة على كتاب "عقيدة التوحيد" للجيطالي أو كتاب "عقيدة العزابة" لعمر بن جُميع، أمّا مادة الفقه فيعتمد على رائية الشيخ ابن الناظر.

✓ المستوى الثانوي: ويشمل برنامجهم الدراسي ما يلي: القطر لابن هشام في دراسة النحو، ونونية أبي نصر بن نوح في التوحيد، والإيضاح لعامر الشماخي في الفقه، إضافة إلى الحديث، والأشعار، والأدب... الخ.

✓ المستوى العالي: غالبًا ما لا يصل إلى هذا المستوى سوى التلاميذ المتفوقين، فكان عليهم حفظ ألفية ابن مالك في النحو والصرف، والسمرقندية في البلاغة، وأرجوزة القطب في العروض، وألفية السالمي في أصول التشريع، بالإضافة إلى الشعر، والحديث، والأخلاق (أبو القاسم سعد الله، 1998، 271/3).

ث - طلبته:

يُعتبر طلبة القطب امتدادًا لفكره، واستمرارًا لنهجه، ومدرسته، والحديث عن عدد طلبته هو في الواقع حديثٌ عن مجتمع كونه بعلمه وتربيته، فيصعب بذلك تحديد عددهم بدقة، وقد اختلفت الأرقام من باحث إلى آخر، فقد ذكر الأب لويس دافيد Louis David أن القطب قد درّس ثلاثة وثمانين طالبًا، بينما خصص محمد علي دبور خمس صفحات للحديث عن تلاميذه المشهورين فقط (وينتن مصطفى، 1996، ص57)، أمّا أبو القاسم سعد الله فيرى أن عدد تلاميذ القطب يتراوح بين الثلاثين والخمسين في الموسم الدراسي الواحد، وقد بلغوا المئات في المجموع، إذا علمنا أن القطب قد درّس مدةً طويلةً من الزمن (أبو القاسم سعد الله، 1998، 272/3)، ويذكر النوري أن عدد المتخرجين من معهد القطب يبلغ نحو المائتين (النوري حمو، 1984، ص323)، ويرى وينتن مصطفى أننا إذا رجعنا إلى الشيخ أطفيش نفسه لنستقي منه المعلومة في الموضوع، نجد أنه قد ذكر في رسالته إلى الحاكم العسكري عن تلاميذه أنهم كثيرون، وسُمّي ستة ثم قال: «...وغيرهم لا يُحصىون لأنهم يقرؤون مدة، ويتجدد آخرون» (وينتن مصطفى، 1996، ص57).

لقد نبغ معظم تلاميذ القطب في مختلف العلوم والفنون، وكان لهم الأثر الطيب في حياة المجتمع والوطن في المجالات الاجتماعية، والسياسية، والفكرية، فكان منهم القضاة الشرعيون الذين أعدّهم للنضال ضد المحاكم الأهلية الحكومية الفرنسية أمثال: بابكر بن الحاج مسعود،

ووينتن الحاج عيسى بن الحاج سعيد، وبكلي سليمان بن حاجو، والحاج يحيى بن صالح باعمارة، والداودي الحاج صالح بن الحاج أحمد، والداغور الحاج الناصر بن الحاج إبراهيم، والحاج محمد بن الحاج قاسم، وذواق داود بن إبراهيم، والحاج بكير بن الحاج قاسم غيرهم. وكان منهم المصلحون الذين انضموا إلى الحركة الإصلاحية الوطنية مع عبد الحميد بن باديس، ومحمد البشير الإبراهيمي في الشمال الجزائري كأبي يقضان إبراهيم، وإبراهيم بن بنوح متياز.

3- النموذج التعليمي الخلدوني:

يؤكد ابن خلدون على أنّ التعليم ضرورة من ضرورات العمران البشري، ممّا جعل المسألة التعليمية من اهتماماته الأساسية، فأفرد لها عدداً من فصول كتابه "المقدمة"، والتي تجاوزت الثمانية فصول، غير أنّ التعليم عند ابن خلدون لا يرقى إلى مستوى الاهتمام بالمسائل الاجتماعية والتاريخية والسياسية، فإذا كانت هذه الأخيرة قد حظيت بقسطٍ وافرٍ من التحليل والدراسة من لدن الباحثين والدارسين لفكر ابن خلدون، فإنّ مسألة التعليم عند ابن خلدون لم تنل الاهتمام الكبير من قبل هؤلاء بالرغم من أهمية الأفكار التعليمية الواردة في مقدمته، وذلك بالنظر إلى قوتها وتميّزها وتماسكها المنطقي، واقتربها الشديد من الطروحات الحديثة للفكر التربوي المعاصر (خواجة عبد العزيز، 2009، ص162).

أ- التعلم والتعليم والصنائع عند ابن خلدون:

يلاحظ القارئ لكتاب "المقدمة" أنّ ابن خلدون قد أجل الحديث عن التعلم والتعليم إلى الكتاب الثالث، وتحديدًا إلى الفصل السادس، فيجده مُصنّفًا مع العلوم، رغم كونه صنعةً من الصنائع حسب ابن خلدون (ابن خلدون عبد الرحمان، 2004، ص519)، وإذا كان الفصل الخامس، من الناحية المنهجية، مُخصصًا للصنائع، ويتضمن الفصل السادس مختلف العلوم، نجد أنّ صاحب الكتاب قد أدمج التعلم والتعليم في فصل العلوم، ولم يتحدث عنه عندما تطرق للصنائع، لأنه أراد أن يُبين ما يلي:

- إذا برع المرء وأجاد في التعلم اكتسب عقلاً فريداً، وأصبحت لديه الملكة، لذلك فالتعلم شبيه بالصناعة في اكتساب صاحبها للملكة (ابن خلدون عبد الرحمان، 2004، ص522)، وفي دورها البنائي والتكويني لذات الفرد.
- يرتبط التعليم بالعلوم ارتباطاً وثيقاً لا انفصال بينهما، باعتبار أنّ الإنسان مفكر بطبعه، بمعنى أنّ الرغبة في التحصيل والإدراك مستمرة ما استمرت حياته، فيتعلم الفرد ممن سبقه بعلمٍ أو زاد عليه بمعرفةٍ أو إدراكٍ، لذلك نجذ الأنفس تشوق إلى التحصيل، فيفرعون إلى أهل المعرفة.

• تُصنف الصنائع إلى نوعين: صنائع مرتبطة بالمعاش، تتحدد ضرورتها وفق منتوجها وحاجة "أهل العمران" له، ومنهجها عملي تطبيقي، وأخرى منهجها نظري لارتباطها بعالم الأفكار (خضير إدريس، 2003، ص219-218)، ويعتقد أصحابها أنهم يقدمون منتجاً يحمل قيماً عليا، لا يخضع لأرباب الأموال والصنائع الأخرى (خواجة عبد العزيز، 2009، ص168)، وهي زائدة عن المعاش، بمعنى أن "أهل العمران" لا يهتمون بهذا الصنف إلا إذا وصلوا إلى مستوى الاكتفاء الذاتي المادي، بالرغم من أنه سمة من سمات ازدياد درجة الحضارة وتوسع العمران، لذلك فإن هذا الصنف أقرب للعلوم من الصنائع.

ب- مفهوم "الملكة" عند ابن خلدون:

وعلى امتداد الفصول المخصصة للتعليم والتعلم، وفي أكثر من موضوع من كتاب "المقدمة" يرد مفهوم "الملكة"، وفي كل مرة يتخذ معنى سياقياً مضبوطاً. وليس من المجازفة القول أنه إذا كان مفهوم "العصبية" هو المفهوم المركزي في تحليلات ابن خلدون للعمران البشري، فإن مفهوم "الملكة" هو المفهوم المركزي في تحليلاته المتصلة بالتعليم والتعلم.

لذلك فإنه من غير الممكن الحديث عن المنظور الخلدوني التعليمي دون الإلمام بهذا المفهوم، وعليه يمكن أن نعرف "الملكة" بما يلي: هي صفة فردية جسمانية وذهنية مترسخة، وقابلة للملاحظة، والتطور، وتزيد وتنقص، وتكتسب بتكرار الفعل، وينتج عنها الذكاء والحدق والكيس (فضال نادية، 2009، ص308).

والملاحظ أن ابن خلدون يميز بين نوعين من الملكات، هي:

✓ الملكات الأساسية: التي ينبغي للمتعلم أن يحصلها وهي غاية التعلم وهدفه الأسمى «وذلك أن الحدق في التعلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله» (ابن خلدون عبد الرحمان، 2004، ص681).

✓ الملكات الوُسْطية: التي تخدم غيرها في طريق تحصيل الملكة الأساسية، فالمتعلم يُحصّل ملكة وسطية تساعده على الوصول إلى الملكة الأساسية (ابن خلدون عبد الرحمان، 2004، ص681).

4- مبادئ النموذج التعليمي الخلدوني مقارنةً بطريقة التعليم عند القطب:

❖ إحاطة المعلم بمبادئ التعليم: يعتقد ابن خلدون أن المعلمين هم سند هذه الصناعة، لذا يجب أن يكون المعلم ذا كفاءة وقدرة على التعليم، فلا توكل مهمة التعليم

إلا لمن مر بالمراحل التالية: مرحلة التعلم والتحصيل، ثم مرحلة حيازة العلم، ليصل بعد ذلك إلى مرحلة تعليم الناشئة.

ومن الواضح أنَّ هذا النوع من التحليل ليس غريباً عن ابن خلدون الذي يتبنى نظرية الأطوار في تحليل وتفسير الظواهر التاريخية والسياسية والاجتماعية، فإذا كان التاريخ العام للمجتمع ينتقل من البداوة إلى الحضارة، وإذا كانت الدولة تنتقل من الشباب إلى الانحطاط، وإذا كانت السلطة تتطور من الملك الطبيعي إلى الخلافة مروراً بالحكم العقلي، فإن الفكر يتطور من التعلم إلى التعليم.

وهذا ما نجده عند القطب، فقد امتلك أسلوباً تعليمياً متميزاً مقارنةً بما كان سائداً حينها، باتباع خطوات منهجية في إيصال المعلومة للطلبة ورسوخها في أذهانهم، فاستطاع بذلك جلب اهتمامهم وتشويقهم لتحصيل المزيد من المعرفة (أعوش بكير، 1989، ص80). فقد كان يشرف بنفسه على تدريس جميع المستويات، باستثناء بعض دروس الطلبة المبتدئين، إذ كان يستعين من حينٍ إلى آخر ببعض طلبته المتميزين، والذين مروا بالمراحل التي ذكرها ابن خلدون كالشيخ إسماعيل بن إبراهيم زرقون، وسليمان بن بكر المطهري، وعمر بن حمو بكلي (دبوز محمد، 1976، 2/237).

❖ حسن الإصغاء للمعلم والاهتمام بالكتابة: يعتبر ابن خلدون السمع أبو الملكات اللسانية، لذلك يحث المتعلمين على الاهتمام بالمنطوق والمسموع قبل المقروء والمكتوب، لأن حسن الإصغاء يساعد كثيراً على تنمية ملكة اللغة الشفهية (فضال نادية، 2009، ص309)، كما ركز ابن خلدون على التدوين والكتابة لكونها مفيدة للعقل، فالكتابة تتضمن عملية ذهنية معقدة فيها «انتقال من الحروف الخطية إلى الكلمات اللفظية في الخيال، ومن الكلمات اللفظية في الخيال إلى المعاني التي في النفس» (ابن خلدون عبد الرحمان، 2004، ص686). وإن تكرار هذه العملية الذهنية المتضمنة في الكتابة يكون ملكة الانتقال السريع بين الدوال والمدلولات، هذه الملكة تزيد العقل تعقلاً وفطنة وذكاء.

إن كان هذا المبدأ مخصصاً للفئات التعليمية المبتدئة، حيث يتعلم الناشئ كتابة الأحرف والكلمات، إلا أنَّ المتمعن في طريقة التدريس عند القطب يكتشف حرصه على توظيف هذا المبدأ الخلدوني توظيفاً جلياً، أنه كان يحث جل طلبته بمختلف مستوياتهم على حسن التركيز والإصغاء الجيد أثناء إلقاء الدرس، وإلزامهم بتقيد وتدوين ما شُرح، أو حُلَّ من الإشكالات العلمية والفقهية مع كتابة التعليقات وشرح الألفاظ الغريبة في دفاترهم أو على هامش الكتب (دبوز محمد، 1976، 2/235).

❖ مرافقة وملازمة شيوخ العلم: وهذا ما يساعد المتعلمين على تلقي مختلف العلوم مباشرةً من أصحابها، أي من ذوي ملكات العلم المطلوب، حيث يرى ابن خلدون أن

البعض ممن ارتحل وجالس العلماء لأجل طلب العلم، عاد بعد ذلك حاذقاً للصناعة، بينما البعض الآخر فقد أفن الكثير من عمره في مجالسة المجالس العلمية المختلفة، وهو لا ينطق ولا يُفاوض، فكانت عنايته مقتصرة على الحفظ لانعدام وجود "السند" أي المعلم، فانحصرت مداركه وعجز لسانه عن ترديد سوى المحفوظ من العلم (ابن خلدون عبد الرحمان، 2004، ص693)، فعلى قدر كثرة الاحتكاك بالمعلمين يكون حصول مختلف الملكات ورسوخها.

لقد استطاع القطب بعلمه وأسلوب تعليمه المُميّز وبرنامجهِ التدريسي الدقيق جلب الطلبة من مختلف مناطق مزاب ومن أقطار إسلامية عدة، لازموه كثيراً حتى في تنقلاته، فسافروا معه أينما ارتحل ورافقوه مستزידين من مختلف معارفه وشجعهم على ذلك (دبوز محمد، 1976، 2/235)، حتى تخوفت السلطات الفرنسية من تنقلاتهم وراقبت تحركاتهم (Cuperly Pierre, 1972, p07).

❖ قيام الحوار والجدل بين المعلم والمتعلم: يعتبر ابن خلدون أنّ الحوار يساعد على تفتق الذهن، واتساع المدارك، وفك عقال اللسان (ابن خلدون عبد الرحمان، 2004، ص693).

كان القطب يبحث طلبته على الحوار وطرح الإشكالات وإثراء الدرس ومحاورته، فكان يولي اهتماماً وعناية خاصة بأسئلتهم، فيكتبها ويحقق مسائلها، وكثيراً ما رجع إلى المصادر أثناء الدرس (مجموعة مؤلفين، 1999، 4/838)، وحينما تكثر عليه أسئلة الدرس، ويتزاحم طلبته في طرح الأسئلة، كان يقول لهم: «إني أستحضر لكم جميع ما تسألون شيئاً فشيئاً وأوضحه لكم كذلك ففي ولم العجلة والسبق؟» (حفار إبراهيم، دس، ص90).

❖ اختيار الاصطلاح والتأليف الأنسب للتعليم: يرى ابن خلدون أن «تعليم العلم صناعة، اختلفت الاصطلاحات فيه، فلكل إمام من أئمة المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به شأن الصنائع كلها» (ابن خلدون عبد الرحمان، 2004، ص679). فالاصطلاح هو منهج تدريس العلم، وتعدد الاصطلاحات واختلافها مثل تعدد طرق الصناعة، لذلك فإنه يُرجع أسباب قصور العلم وعدم تملك ملكته إلى اختلاف الاصطلاحات في التعليم وكثرة التأليف، ومطالبة المتعلم باستحضارها جميعاً حفظاً بالرغم من تكرارها ووحدة معناها، واعتبر ذلك مضیعة للوقت ولعمر المتعلم، دون تحقيق الأهداف المرجوة، (ابن خلدون عبد الرحمان، 2004، ص679). والمقصود هو تلك التأليف التي كان يستغرق فيها المتعلمون عمرهم كله من أجل حفظها ومراعاة طرقها، وهي تأليف في الغالب فقهية ولغوية، وإنّ هذا النقد يهدف إلى الاقتصار على المسائل المذهبية الأساسية في النحو مثلاً تيسيراً للتعلم واختصاراً للزمن وبالتالي الوصول إلى تعليم مفيد.

وهذا ما يتوافق تمامًا مع ما كان يقوم به القطب، فكان منهجه موحدًا في التعليم، ولم يكن اعتماده على مؤلفات التدريس عفويًا، بل كان يولي اهتمامًا كبيرًا لاختيارها، فوظف أمهات الكتب الإباضية ككتاب "النيل" مثلاً في التعليم، كما اعتمد أيضًا على كتب غير إباضية ككتاب "الكشاف" للزمخشري، وفي حالة ما لم ترق الكتب المتوفرة لديه إلى مستوى تطلعاته كان يؤلف بنفسه ويعتمد مؤلفاته في المعهد لدرء بعض النقائص، مثل كتاب "التيسير في التفسير" و"وفاء الضمانة في الحديث"... الخ، ومن أجل مساعدة طلبته في التحصيل وفك الغموض الموجود في بعض المصادر المعتمدة، كان القطب يقوم بشرحها مثلما فعل مع كتاب "النيل" للشيخ عبد العزيز الثميني (دبوز محمد علي، 1965، ص 374-372).

❖ الاختصارات مخلة بالتعليم: وفي المقابل لا يعتبر ابن خلدون أن التعليم القائم على الاختصارات هو البديل، بل يرى أن كثرة الاختصارات تضر العملية التعليمية، ويعزو ذلك إلى أنها تخل بالعلاقة التواصلية بين المعلم والمتعلم، وتجعل الفهم أعسر فضلاً عن أنها تستبق المراحل المنهجية، والنتيجة أن «الملكة الخاصة من التعليم في تلك المختصرات، إذا تم على سداده ولم تعقبه آفة، فهي ملكة قاصرة على الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة» (ابن خلدون عبد الرحمان، 2004، ص 683). لذلك يمكن القول أن ابن خلدون يجعل من الإيجاز المفيد في تقديم المسائل التعليمية وحسن انتقائها شرطاً من شروط نجاح العملية التعليمية؛ إذ لا ينبغي الاستكثار من العلوم التي لا يجب التوسع فيها من جهة، لأن الهدف من التعلم هو معرفة الصواب والخطأ، ومن جهة أخرى لا يجب الاندفاع على الاختصار المخل الذي يحدث خللاً في إيصال المعاني.

وهذا ما ينطبق مع الممارسة التعليمية للقطب، بحيث أن المواد الدراسية قد تنوعت وتعددت في معهده، ويمكن تصنيفها إلى علوم شرعية كالتفسير والحديث والتوحيد والفقه... وعلوم لغوية وأدبية كالنحو والصرف والبلاغة والعروض...، وصنف آخر يشمل علم التربية والأخلاق...، ويروي الشيخ محمد علي دبوز أن القطب كان يكتفي في شرحه لدروس المواد المذكورة بالإيجاز المفيد، ولم يكن يتوسع فيها كثيراً كي يسهل للطلبة استيعابها وفهمها، لذلك فقد كان يحدد بدقة المصادر المعتمدة، ولم يزد عنها سوى كتاب "قناطر الخيرات" للحيطالي وهو تأليف في المجال الأدبي والأخلاقي (دبوز محمد علي، 1965، ص 373).

❖ عدم التوسع في دراسة العلوم الآلية: يصنف ابن خلدون العلوم إلى: علوم حكومية فلسفية، وعلوم نقلية وضعية. وفي تصنيف آخر يميز بين: علوم مقصودة بالذات، وعلوم

آلية. الأولى مقصودة في ذاتها كالشرعيات والفقه وعلم الكلام، والثانية ليست سوى أداة لدراسة الأولى والولوج فيها مثل اللغة العربية فهي ضرورة وطريق لبلوغ العلوم الشرعية، لكنها ليست مقصودة لذاتها كلغة بل كطريقة إلى علم آخر مقصود لذاته.

في ذات السياق، يرى ابن خلدون أن العلوم الآلية لا ينبغي التوسع فيها وفي تدريسها «لأن المتعلمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بوسائلها»، ثم يتساءل مستنكرًا «فإذا قضوا [المتعلمون] العمر في تحصيل الوسائل فمتى يظفرون بالمقاصد؟» (ابن خلدون عبد الرحمان، 2004، ص 685). فالسبب وراء هذا الموقف هو ضخامة الكتلة المعرفية لهذا الصنف من العلوم، رغم كونها طريقًا إلى العلوم المقصودة بذاتها. فابن خلدون ينظر إلى التعليم نظرة برغماتية نفعية تصبو إلى تحقيق الملكة في أقصر وقت وبأقل العلوم الضرورية دون الإبحار في عمق العلوم الآلية.

يبدو أن طريقة التعليم عند القطب لا تتوافق مع هذا المبدأ الخلدوني، إذ لم يكن القطب يولي اهتمامًا خاصًا لمادة على حساب المواد الدراسية الأخرى، فقد جعل من حفظ متون المواد المختلفة شرطًا أساسيًا للانتماء إلى المعهد (أعوش بكير، 1989، ص 79)، بمعنى أنه لم يفصل بين العلوم المدرسة في معهده لأنه اعتقد وجوب تحصيلها جميعًا كي يصل المتعلم إلى مرحلة الحياة، بل يشير المؤرخ أبو القاسم سعد الله إلى أن القطب كان يحب الأدب الأندلسي ويولي له اهتمامًا خاصًا (أبو القاسم سعد الله، 1998، 272/3)، وشن الأدب من العلوم الآلية حسب التصنيف الخلدوني.

❖ مراعاة مقدرة المتعلم ومساعدته على الفهم: بما أن القدرات الاستيعابية للمتعلمين تختلف، فإن ابن خلدون يرى أن على المعلم أن يراعي قوة عقل المتعلم واستعداده لقبول ما يورده عليه (ابن خلدون عبد الرحمان، 2004، ص 684). وهذا ما يُطلق عليه حديثًا بمراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين، لأن ابن خلدون يدرك بأن الأفراد يختلفون في درجة الذكاء والاستيعاب.

لقد راعى القطب في تعليمه القدرات الاستيعابية لطلابه، وأدرك وجود فوارق بينهم، فكان يكرر شرح الدرس الواحد مرات عديدة، وكثيرًا ما لجأ إلى استعمال اللغة المزبانية في الشرح لتقريب المعاني إلى عقول طلبته (حفار إبراهيم، دس، ص 88)، وكان لا يختم الدرس إلا إذا تيقن من فهمهم جميعًا له، بالمقابل كان يخصص لطلابه المتفوقين بعض الكتب التي تبدو مستعصية الفهم على الآخرين ككتب الأحكام مثلاً (دبوز محمد علي، 1965، ص 374)، كما خصص للطلبة النجباء والراغبين في الاستزادة والتوسع في بعض المواضيع دروسًا خاصة بعد صلاة العشاء، ثم تحولت إلى وقت صلاة العصر بطلب منهم (دبوز محمد علي، 1976، ص 234).

❖ الفصل بين العلوم: لا يجوز للمعلم أن يخلط على المتعلم بين علمين في آن واحد، لأنه حينئذٍ «قل أن يظفر بواحدٍ منهما، لما فيه من تقسيمٍ للبال وانصرافه عن كل واحدٍ منهما إلى تفهم الآخر» (ابن خلدون عبد الرحمان، 2004، ص685). ويقصد بذلك عدم الانتقال من مسألة علمية إلى مسألة علمية أخرى دون فهم المتعلم للمسألة الأولى، لأن ذلك يؤدي إلى الخلط بين المسألتين، ويترتب على ذلك انقسام ذهن المتعلم وتوزيع تركيزه، لذلك يجب على المعلم الاستمرار في تلقين المسألة الواحدة إلى أن ينتهي منها، ويتحقق من استيعاب المتعلمين لها.

وهذا ما اعتمد عليه القطب في تعليمه، فقد كان لا يُنهي درس مادة من المواد المدرّسة إلا إذا تبين من استيعاب جميع طلبته له، فلا ينتقل إلى علمٍ أو فنٍ آخر إلا إذا تحقق من فهم الطلبة، وغالبًا ما كان يُوجه أسئلةً ويثير إشكالات لمعرفة ما مدى رسوخ معلومات الدرس في أذهان طلبته، ولا يتحدث أثناء الدرس إلا بما له ارتباط وثيق بموضوعه وفي هذا الصدد يقول الشيخ حفّار عن شيخه: «لا يمازج تدريسه بالأخبار والفضلات الوقتية (...) ويعرض عن مجاوبة الطالب إذا خرج بسؤاله عن جادة ما هو بصدد» (حفار إبراهيم، ب س، ص90-89).

❖ حصول ملكة اللسان بكثرة الحفظ وجودة المحفوظ: يعتقد ابن خلدون أنه لا بد من كثرة الحفظ لمن يرغب في تعلم اللسان العربي، وجودة المحفوظ تتحكم في جودة الملكة الحاصلة (ابن خلدون عبد الرحمان، 2004، ص737)، لذلك فهو يؤكد على ضرورة تحفيظ القرآن الكريم للأنباء منذ الصبا.

لقد سبق وأن تمت الإشارة إلى أن القطب قد قيّد شروطاً للانضمام إلى معهده، ومن بين تلك الشروط حفظ القرآن الكريم واستظهاره، لعلّنه أنه الأساس في حفظ مختلف المتون الضرورية (وينتن مصطفى، 1996، ص56)، ولأنّ الحفظ يساعد في اكتساب مختلف الملكات.

❖ اعتماد مبدأ التدرج: إنّ قبول العلم والاستعداد لفهمه ينشأ تدريجيًا، فالمتعلم يعجز بادئ الأمر من فهم المسائل المركبة والمعقدة، فالأمر يتطلب التدرج التصاعدي بما يناسب المتعلم والموضوع معًا، فيقول ابن خلدون: «اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيدًا إذا كان على التدرج شيئًا فشيئًا، وقليلًا قليلًا، يُلقى عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب، ويقربه شرحها على سبيل الإجمال» (ابن خلدون عبد الرحمان، 2004، ص737).

ويمكننا القول أن القطب قد راع هذا المبدأ في جانب التدرج التصاعدي، أي من السهل والبسيط إلى الصعب والمعقد في الحصة التعليمية الواحدة، فبالرغم من اختلاف

الدروس بين المستويات بالمعهد، إلا أنَّ حضورها كان إجباريًا على جميع الطلبة، فيبدأ بدروس المبتدئين ثم الثانويين وأخيرًا دروس طلبة المستوى العالي، وكان لطريقته هذه هدف ومغزى، حيث يساير طلبة الثانوي والمستوى العالي دروس المبتدئين وفي نفس الوقت يُعتبر ذلك مراجعةً واستذكاريًا لما نُسي، ولن يشعروا بالملل، بينما تجعل دروس المستوى الثانوي والعالي الطلبة المبتدئين يألّفونها ويتعودون عليها وتُثير فيهم الحماس واللهفة والشوق لبلوغها، ثم تزول غرابتها وغموضها عندما يصلون إليها، ولو بدأ القطب بدروس المستوى العالي لشعر المبتدئون بالملل والحمول واستصعبوا فهم دروسهم.

بينما اعتمد القطب التدرج العكسي، أي من الصعب المعقد إلى السهل البسيط في توزيع المواد المُدرّسة على أيام الأسبوع، مراعيًا بذلك نشاط الطلبة، إذ خصص أيام السبت إلى الثلاثاء لتدريس علم الكلام والفقه وأصوله والتحو والبلاغة، بينما كانت دروس يوم الأربعاء "خفيفة" كدرس الأخلاق مثلاً، آخذًا بعين الاعتبار فتور وقلة نشاط الطلبة في نهاية الأسبوع (دبوز محمد علي، 1976، ص235).

❖ التكرار لأجل الترسخ: يرى ابن خلدون أنَّ تكرار المسائل السابقة قبل التطرق إلى المسائل اللاحقة يرمي إلى تمكين المتعلم من تحصيل الملكة، وتؤهله إلى فهم وتحصيل المسائل الأخرى من ذلك العلم أو الفن، وهكذا تباعاً، وبعد انتهاء الإلقاء الأولي (الإجمالي)، تأتي المرحلة الثانية بحيث يرجع المعلم بالمتعلم إلى تلك المسائل التي سبقت دراستها فيرفع مستوى التعليم إلى أعلى ويستوفي الشرح والبيان ويخرج عن الإجمالي ويذكر ما هنالك من خلاف ووجهة إلى أن ينتهي إلى آخر الفن، وبهذا تنتهي المرحلة الثانية، وتبدأ المرحلة الثالثة، بالرجوع بالمتعلم إلى جميع المسائل التي تمت دراستها سابقاً، وبذلك يعمل المعلم على أن «لا يترك عويصاً ولا مبهمًا ولا مغلقاً إلا وضّحه وفتح له مقفله، فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته» (ابن خلدون عبد الرحمان، 2004، ص684).

يوافق القطب ابن خلدون في هذا المبدأ، فكان يغتتم فرصة حضور طلبة جميع المستويات للربط بين مختلف دروس العلم الواحد، وقد كان مستعداً لإعادة شرح الدرس بأكمله عدة مرات دون تذرُّر أو ملل كما يذكر طلبته (دبوز محمد علي، 1965، ص373)، لأن هدفه الأسمى هو استيعاب طلبته لعناصر الدرس استيعاباً كاملاً، وبذلك يقدم لنا القطب نموذجاً عن المعلم المثالي.

❖ الابتعاد عن الشدة والقهر على المتعلمين: ينتقد ابن خلدون "العقاب البدني" المُسلط على المتعلمين ولاسيما الأطفال الصغار منهم، كما يكشف عن النتائج السلبية للشدة والتعسف والقهر في التعليم.

فالشدة تؤدي إلى انضمار نشاط وانسباط المتعلمين، وتقوده إلى الركون والكسل. ويواصل ابن خلدون تحليل التوابع السلبية للشدة والقهر على المتعلمين، فيكشف أنّ الخوف من القهر يدفع المتعلم حتمًا إلى الكذب والتظاهر بغير ما في عقله، فيقود هذا السلوك إلى تعلم المكر والخديعة اللذين يستنبطهما المتعلم فيصيران من عوائده وأخلاقه، لهذا فهو يقول: «و من كان مرباه بالعسف و القهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر و ضيق عن النفس في انبساطها و ذهب بنشاطها و دعاه إلى الكسل و حمل على الكذب و الخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفا من انبساط الأيدي بالقهر عليه و علمه المكر و الخديعة» (ابن خلدون عبد الرحمان، 2004، ص 692).

وإذا بلغ المتعلم هذا المستوى «فسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن والمدافعة عن نفسه ومنزله وصار عيالا على غيره في ذلك، بل وكسلت النفس عن اكتساب الخلق الجميل، فانقبضت على غاياتها ومدى إنسانيتها وعاد في أسفل السافلين» (ابن خلدون عبد الرحمان، 2004، ص 692).

والمحصلة هي أن الشدة والتسلط على المتعلمين مضرّ به، إذ يقود إلى انطماس المعاني الإنسانية و بروز المعاني الحيوانية.

لقد كان القطب مدرّكًا لتوابع وسلبات ممارسة الشدة والقهر على الطلبة، فلم يتسلط يومًا على طلبته، ولم يمارس الضرب عليهم بمختلف أنواعه وألوانه (أعوش بكير، 1989، ص 80)، بالرغم من شيوع تلك الأساليب في عصره، بل كان رحيماً بهم، فإذا أحس بتعبهم رَوَّح عنهم بما يدفعهم إلى النشاط والتركيز، «وكان يطرز درسه غالبًا بشيء من النوادر والغرائب العتيقة طردًا لطحالب العياء ولجيوش النوم والكسل عن أبدانهم واستحضارًا لأفكار الطلبة واسترجاعًا لغائب أذهانهم لما هو المقصود بالذات» (حفار إبراهيم، ب س، ص 88).

الخلاصة:

يمكن القول أنّ ابن خلدون قد اعتبر التعليم صناعة، فنجاحها وفشلها مرتبطان بالقائمين بها، وقد وُفق القطب في مهمة التعليم بتكوين نخبة من الطلبة الذين احتلوا مواقع مختلفة في بلدانهم، وأسسوا لفكر ديني تنويري جديد، ورفعوا عن مجتمعاتهم الكثير من مظاهر الجهل والتخلف، وما هذا النجاح إلاّ كنوع من أنواع التفاعل الإيجابي حتى وإن لم يكن مقصودًا بين التصورات النظرية وتطبيقات الميدانية لها، لصناعة منظور تربوي وتعليمي تكاملي شمولي لا ينحصر في البعد البيداغوجي الذي يعتمد عمليًا على الاهتمام بطرق التدريس المختلفة والتقويم التربوي، ومجمل تقنيات التحليل الديدانتيكي... الخ فحسب، بل يتعداه إلى التوافق مع خصوصية السياق المجتمعي العام.

وما من شك أن الأمر يتطلب بحوثاً ودراسات مستفيضة وموسعة، فيكفي لهذا الملتقى وغيره من الملتقيات العلمية المُمائلة أن تفتح أمامنا أفقاً أرحب للتفكير والعمل المبادر لاقتحام ميدان الإسهامات التربوية لعلماء الإسلام، والذي يُعتبر على قدرٍ كبيرٍ من الأهمية والصدارة، لا لمردوديته على مستوى البحث الأكاديمي فحسب، بل لما يُنتظر منه من إسهامٍ حقيقيٍّ في تشكيل لبنةٍ أساسيةٍ في بناء تصورٍ علميٍّ لواقعنا المتداخل في جوانبه التعليمية والتربوية والاجتماعية والثقافية، وفهم طبيعة التحولات البنيوية للإطار المجتمعي المرجعي.

المصادر والمراجع:

1. ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، تح: الطاهر أحمد حامد، دار الفجر للتراث، ط01، القاهرة، 2004.
2. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج03، دار الغرب الإسلامي، ط01، بيروت، 1998.
3. الحاج سعيد يوسف، تاريخ بني مزاب: دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، المطبعة العربية، غرداية، 1992.
4. أعوش بكير، قطب الأئمة محمد بن يوسف أطفيش: حياته، وآثاره الفكرية، وجهاده، المطبعة العربية، غرداية، 1989.
5. حنّار إبراهيم، السلاسل الذهبية بالشمال الطفيشية، كتابة: عبد الرحمان الحاج عمر، إخراج: حفيد الشيخ أطفيش، ب د ن، الجزائر، ب س ن.
6. خضير إدريس، التفكير الاجتماعي الخلدوني وأثره في علم الاجتماع الحديث، موفم للنشر، الجزائر، 2003.
7. دبوز محمد علي، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج01، المطبعة التعاونية، ط01، ب م ن، 1965.
8. دبوز محمد علي، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج02، مطبعة البعث، ط01، قسنطينة (الجزائر)، 1976.
9. مجموعة مؤلفين، معجم أعلام الإباضية، جمعية التراث، ط01، غرداية (الجزائر)، 1999.
10. عيسى حمو النوري، نبذة من حياة الميزابيين الدينية والسياسية والعلمية من سنة 1505م إلى 1962م، ج01، دار الكروان، باريس، 1984.
11. وينتن مصطفى، آراء الشيخ أمحمد بن يوسف العقدي، جمعية التراث، غرداية (الجزائر)، 1996.
12. خواجه عبد العزيز، الإشكال المعرفي والتربوي في النص الخلدوني، مجلة: دراسات، ع12، جامعة عمار ثليجي بالأغواط، المطبعة العربية، غرداية (الجزائر)، أكتوبر 2009.
13. فضال نادية، إسهامات وآراء ابن خلدون في علم النفس وعلم النفس التربوي، مجلة العلوم الاجتماعية، ع02، جامعة الأغواط، مطبعة رويغي، الأغواط (الجزائر)، 2008/2009.
14. بوتوردين يحيى، الشيخ أمحمد بن يوسف أطفيش ومذهبه في تفسير القرآن الكريم بالمقارنة إلى تفسير أهل السنة، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب، قسم اللغة العربية، جامعة عين شمس، مصر، 1989.
15. Cuperly Pierre, Muhamed Atfiech et sa Risala, IBLA, n°130, 35^e année, Tunis, 1972.

2- ممارسة التربية عند القُطْب

محمد بوال¹ و عبد الرحمان خطارة²

1- قسم الحقوق المركز الجامعي لغرداية

2- قسم علم النفس المركز الجامعي لغرداية

غرداية ص ب 455 غرداية 47000 الجزائر

انقسمت الحياة العلمية للقُطْب إلى قسمين أساسيين هما البحث والتأليف والتربية والتعليم بما يجعل من جهده الإصلاحي مضاعفا تطلب جهدين مختلفين في طبيعتهما، حيث البحث والتأليف ممارسة فردية تقتضي الانعزال عن الناس للتفرد واعتزال المشاغل الدنيوية التي يتطلبها الاشتغال الفكري الصرف، وذلك ما دأب عليه علماء الإسلام منذ بدايات الحركة العلمية في عصور التدوين، فكانت العزلة الفكرية بمثابة حوار الذات مع نفسها التي يقتضيها استكشاف الحقائق الدينية والعلمية.

أما الاشتغال التربوي التعليمي فهو وإن كان من طبيعة حوارية فهو يقتضي الخروج عن العزلة والاحتكاك بالغير اقتضاءً، وهي تتعدّد من دونه، إلا أن كلا العمليتين (المعرفية المتمثلة في البحث والتأليف، والتربوية المتمثلة في التدريس والتعليم) لا تنفصلان إلا من حيث الظاهر المشاهد، بينما هما متوحدتان على مستوى الجوهر الإنساني في ذات المشتغل بالعلم عامة، كما هي متجالية في نموذج الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش، هذه الحقيقة التي تؤكد تكامل الفعل الإصلاحي ستكون فرضية بحثنا هذا في استكشاف الحدود الفعلية بين عنصري الفعل الإصلاحي، حيث سنكرس للجانب التربوي التعليمي – تاركين الجانب الفكري والعلمي للمتخصصين أو لمحاولات قادمة – ومحاولين الإجابة على السؤال التالي: ما مكانة الممارسة التربوية في حياة القُطْب الإصلاحي؟

وللإجابة على السؤال لابد من التعرّيج أولاً على منهج القُطْب التربوي، أو بعبارة أخرى كيف كان يمارس التربية وبعده الوصول إلى الإجابة عن سؤال علاقة الممارسة التربوية عند القُطْب بفكره الإصلاحي؟ وكيف يتكامل الجانبين المعرفي – الفكري والتربوي – التعليمي عند القُطْب؟

المنهج التربوي عند الشيخ اطفيش:

تدرج التربية عند الشيخ اطفيش مفهوما في مجال التعليم الديني القائم على توصيل المعارف الدينية إلى المريدن الذين يتلقونها بشكل تلقيني وتسليمي مباشر لكونها معارف نقلية تنطلق من المدونة الإسلامية بشقيها المطلق (الوحي قرآنا وسنة) والنسبي (المتمثل في الاجتهادات التي حاولت فهم النص المقدس) حيث يفرض المنهج الإصلاحي للقطب عملا نقديا للاجتهادات السابقة وهو ما ينعكس بالضرورة على المنهج التربوي للقطب.

فاغلب الأدبيات التي تكلمت في منهج القطب التربوي أشارت إلى الطرق المباشرة في ممارسته التعليمية فهي وإن كانت توقفت عند حدود السرد الوصفي تكشف فيما وراءها عن التجديد في المضمون، وسنعرض لبعض تلك الأدبيات مستنتجين منها مظاهر التجديد.

أولا: أدت محاولة استعجاله إصلاح بعض الأوضاع إلى اختلاق أعداء له خاصة بعد اكتسابه أنصارا بفضل أفكاره الإصلاحية انتهت به إلى نفيه من بلده¹، حيث النفي سنة من السنن التي تتكرر مع كل مجدد، حيث لا تجد الأفكار التجديدية المجال الثقافي السائد مهياً لتقبلها وفقا للعبارة التقليدية: "لاكرامة لنبي في قومه"، فلا شك أن النفي كان نهاية جدل داخلي لا بد وأنه دام فترة ما، وهو ما يدلنا عليه فتحه لمنزله للتعليم يأتيه إليه التلاميذ من كل أنحاء الوادي².

ولعل انفتاحه على بقية المذاهب كان عاملا من عوامل محاصرته داخليا وفي الوقت ذاته عاملا لشهرته حيث منح مجالا بالمسجد النبوي بالمدينة المنورة لتدريس العقيدة السنوسية³، وهو ما يصدقه في إحدى أجوبته بضرورة الاستفادة من آراء المذاهب الفقهية الأخرى في قوله: "ولا يمكنك الاستغناء عن فقه أصحابنا فإنه مأخوذ من أحاديث يروها أصحابنا وأحاديث يروها قومنا ليس فيها مخالفة الأصل..."⁴.

إذ تدلنا العبارة الأخيرة من النص "ليس فيها مخالفة الأصل" على المنهج الواضح للقطب على أن هناك أصلا يتجاوز المدارس الفقهية ويتعالى عليها، كونه المصدر المطلق للدين (القرآن والسنة) وذلك بالخروج من التصور الضيق إلى الواسع للدين بالانفتاح على الجميع دون الانكفاء على أحد لوحده⁵.

ثانيا: قيام القطب على عدة حلقات علمية مختلفة من حيث الشرائح الاجتماعية حيث كان يتبع برنامجا تعليميا مختلفا بين عامة الناس مخصصا لهم فترة ما بعد صلاة الصبح، والتلاميذ خصص لهم فترة الضحى إلى أول الزوال، إضافة إلى تخصيصه مجلسا بعد العصر للإفتاء كما خص التلاميذ الغرباء الوافدين من خارج ميزاب بخصص إضافية في الظهر والعصر والليل متبعا في ذلك طريقة الحلقات⁶.

فكان الشيخ يامضائه يومه في تدريس مختلف المستويات مؤسسة تعليمية قائمة بذاتها وهو

ما يشي بما يلي:

• جدة منهجه الذي ألزمه الإشراف الفردي المباشر على التعليم، سعيًا لتكوين نخبة حاملة لمنهجه التجديدي مستقبلاً، وهو ما فرض عليه اتخاذ مقاييس وشروط لقبول التلاميذ في حلقة الدرس (تكوين النخبة) ومنها: حفظ القرآن الكريم إضافة إلى الإلمام بمبادئ بعض العلوم وكذا حفظ عدد من متون العلم المختلفة.

• تكامل منهجه التربوي التعليمي بقيامه بترتيب العلوم⁷ حسب وجوب تعلمها كما يلي: التوحيد الفقه الحديث أدب العلم والمعاشر، وعلوم اللغة وغيرها⁸ وهو التصنيف الذي يتوافق مع التقسيم الشهير للعلوم بين العلوم الوسائل والعلوم الأدوات حيث يقول القطب رحمه الله: "وأما الفن الذي تشتغل فبعد التوحيد [علم غاية] الإعراب [علم وسيلة] والتوحيد بالحجة بقدر ما أمكنك الفقه والسنة والتفسير [علوم وسيلة لعلم التوحيد الغاية]"⁹

• ومن النقطتين السابقتين تنتج أهم خلاصة عن الممارسة التربوية القطبية وهي تأسيسه لمؤسسة تعليمية مستقلة عن المؤسسة السائدة، إذ حاول من خلال تحرير الدين من تقاليد الزعامة الروحية ذات الطابع التقديسي المفسدة لمعاني الدين الأصلية، ومن ثم فقد كان فعله التربوي ساعياً إلى تحرير مضاعف تمثل في التحرير العقدي والمتمثل في إعادة تأسيس علاقة الإنسان بالإنسان بالله على أسس الدين الأصلية، والتحرير الاجتماعي بإعادة تأسيس علاقة الإنسان بالإنسان من خلال الفعل التربوي.

وفي ذلك يرى ابن خلدون أن أول قواعد الفعل التربوي هي سعي المربي لأن يجعل من المربي مشاركاً في فعل تربيته بالالتزام الذاتي وهو ما يسمى بإحياء الضمير الذي يحاسب به المرء نفسه قبل أن يحاسبه الآخرون، ويضيف بأن مسألة التربية التعسفية لا تفسد تعلم الإنسان فحسب بل تفسد عليه معاني الإنسانية جملة¹⁰.

فالتعسف إذن في الرؤية الخلدونية لا يتوقف عند القهر الفعلي الممارس بالجوارح بل يتعداه إلى القهر الروحي المستند إلى السلطة الروحية، وقد قال تلميذه الشيخ أبو اليقظان عن منهجه التعليمي: "بعد الشرح والتحليل والتعليق بحسب مدارك التلميذ يرجع لاختبار وعي التلميذ وفهمه فيكلفه إعادة ذلك وتكراره فإذا تلعم أعانه وإذا لم يجد الفهم والهضم أعاد ما تعسر عنه، ولا يمر عن المشكل إلا إذا فهم التلميذ جيداً ورسخ في ذهنه"¹¹، كما أنه كان يستعين بلغة أهل ميزاب للتوضيح خاصة في دروسه لعامة الناس¹².

فكان الشيخ اطفيش يراعي أهم الطرق البيداغوجية السليمة وهي العناية بمدارك التلاميذ توافقاً مع النظرية الخلدونية في ذلك وهو ما يدل على حيافة القطب لأهم مقومات

التربية الإسلامية التكاملية وهما¹³:

أ- السمو الخلقي: الذي ينعكس لطفاً وسماحة على الخلق، اقتداءً بخلق النبي صلى الله عليه وسلم (فبما رحمة من الله لنت لهم).

ب- الحذق التقني: الذي ينعكس على صاحبه في إتقان فنيات التبليغ فيما يقوم بتبليغه بعد أن يكون قد استوعبه.

وضرورة تكامل النهجين تتمثل في أن الإنسان يمكن أن يحقق فعلاً تربوياً بحذق تقني (بيداغوجي) مقتصر على النجاعة التقنية مع المواد المدرسة أو مع المدرسين وقد يكون مع ذلك فظاً وغلظاً، فلا يكفي إذن الاقتصاد على أحد العنصرين، بل وجب تكاملهما في الذات المعلمة¹⁴.

وبعد هذا التحليل لجانب الممارسة التربوية لدى القطب نستنتج الرابط بين المعرفي-الفكري والتربوي-التعليمي وتكاملهما في منهجه كما هو دأب جميع المحاولات الإصلاحية في التاريخ الكوني بما فيه المحاولات الإصلاحية في العالم الإسلامي التي ظهرت على يد الأفغاني وعبدو وكذا المحاولات اللوثرية والكالفينية في الإصلاح المسيحي والتي يوحد بينها دعوتها إلى التصحيح العقدي الذي ينعكس بالضرورة على التحرير الفكري في المجتمع وصولاً إلى ظهور بوادر النهوض.

بل إن الدعوة المحمدية ذاتها لم تكن إلا عودة تجديدية للإسلام الإبراهيمي بما دعى بعض الباحثين إلى وصف الإسلام المحمدي بالحنيفية المحدثّة.

فكان إذن الإحياء القطبي نسجاً على المنوال التأسيسي للإسلام حيث كانت دعوته استئنافاً لمنهج الشيخ عبد العزيز الثميني بعد معاشته للأوضاع الدينية والاجتماعية المتردية بسعيه إلى تصحيح كثير من الاعتقادات والسلوكات السائدة¹⁵، فكان الشيخ اطفيش لوحده مؤسسة تقوم بواجب التواصي بالحق (نظرياً) والتواصي بالصبر (عملاً) كونه المؤسسة البدلية عن عصمة الأنبياء الفرادى في الإسلام، وهو الأمر الذي اشتبه على مرّيه بعد تقادم الزمن بحركته الإصلاحية بما شاب شخصه من تعظيم بلغ حد التقديس وهو ما أدى إلى ارتباط المخيال الشعبي العام بنسج بعض الأساطير التي تستعصي على القبول المنطقي والعقلي، وهو ما كان تراجعاً صريحاً عن إصلاحه تمثل في مفارقة أن يصير هو بشخصه وبعد وفاته سلطة روحية هي ذاتها التي كان القطب نفسه ينافح في سبيل إزالتها.

نشأة الفكر الإصلاحي عند الشيخ اطفيش: (بمثابة الخاتمة)

لم يكن المنهج التربوي عند القطب بدعاً من التربية الدينية والأسرية التي تلقاها خلال تنشئته الاجتماعية فقد كان في إصلاحه التربوي-الديني رجعاً موضوعياً للمبادئ الفكرية السلوكية

التي نشأ عليها.

إذ كان ميلاد الفكر الإصلاحي عند القطب نتيجة لتشبعه بالعقيدة الإصلاحية التي استقاها من الشيخ عبد العزيز الثميني من جهة ومن والده الذي نفى من بلده بسبب الحركة التغييرية التي انتهجها، مما نتج عنه ميلاد القطب في منفى والده، ضف إلى ذلك الظروف الاجتماعية الصعبة المتمثلة في شطف العيش من جهة ويتمه المبكر من جهة أخرى، وهو ما جعل من أخيه الحاج إبراهيم¹⁶ الذي كان أحد علماء زمانه يقوم برعايته منتها سبيله إلى العلم من مشربي الأبوة والأخوة.

والخلاصة أن الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش كان في منهجه الإصلاحي يستلهم من منبعين فكري وتربوي، وأما الفكر -وكما تقدم- فإنه كان إحياء واستنفا للجهود الإصلاحية للشيخ عبد العزيز الثميني، التي كانت استمرارا طبيعيا للجهود التجديدية المستمرة وفقا لنظرية الإصلاح المتصل -التي عمل عليها المفكر والفيلسوف الإسلامي المعاصر أبو يعرب المرزوقي- المستمدة من طبيعة الفكر الإسلامي ذاته والتجديد بفعل عوامل الزمان والمكان استنادا إلى القول الوارد في الأثر: "إن الله يبعث في رأس كل مائة سنة من يجدد للأمة أمر دينها".

الهوامش:

- ¹ - مصطفى ويتن، آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقديّة، نشر جمعية التراث القرارة غرداية، ب ع ط 1996، ص 31
- ² - نفسه، ص 54
- ³ - نفسه، ص 54 ص 55
- ⁴ - محمد بن يوسف اطفيش، كشف الكرب، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان 1985، ص 87
- ⁵ - مصطفى ويتن، المرجع السابق، ص 30
- ⁶ - نفسه، ص 56
- ⁷ - متبعا في ذلك منهجا تصنيفيا للعلوم على غرار كبار العلماء حسب أهميتها وأولويتها متخذاً الاعتبار الديني أساساً لهذا التصنيف مراعاة للشأن الأخرى للإنسان.
- ⁸ - نفسه، ص 57
- ⁹ - محمد بن يوسف، المرجع السابق، ص 57
- ¹⁰ - أبو يعرب المرزوقي، صونا للفلسفة و الدين، دار الفرقد دمشق، الطبعة الأولى 2007، ص 201
- ¹¹ - بكير بن سعيد عوشت، قطب الأئمة، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع سلطنة عمان، ص 80
- ¹² - مصطفى ويتن، المرجع السابق، ص 57
- ¹³ - أبو يعرب المرزوقي، صونا للفلسفة و الدين، دار الفرقد دمشق، الطبعة الأولى 2007، ص 200
- ¹⁴ - نفسه، ص 200 ص 201
- ¹⁵ - مصطفى ويتن، المرجع السابق، ص 31
- ¹⁶ - نفسه، ص 31

جهود الشيخ أطفيش أطفيش و مواقفه الوطنية

بالحاج أوزايد

قسم التاريخ المركز الجامعي غرداية

غرداية ص ب 455 غرداية 47000 الجزائر

مقدمة

عرفت منطقة مزاب بالجنوب الجزائري تطورات، وتحولات عميقة في تاريخها الحديث، كانت سببا في إخراجها من عزلتها، بدءا بقدوم العثمانيين، وحكمهم للجزائر، وصولا إلى الدخول الفرنسي لهذه المنطقة سنة 1299هـ/ 1882م، والذي تزامن مع بروز الشيخ أطفيش، الذي حمل على عاتقه مهمة إصلاح المجتمع المزابي الإباضي، وإخراجه من الجهل والتخلف.

وبمناسبة الذكرى المئوية لوفاة هذا العلامة نحاول في هذه المداخلة تناول بعض جوانب شخصية الشيخ الحاج أمحمد بن يوسف أطفيش الشهير بقطب الأئمة، والتي ظهرت على مسرح الأحداث في فترة هامة جدا من تاريخ الجزائر، تميزت باحتلال الجزائر سنة 1830م، وللجنوب بعد ذلك، وعاصرت إلى قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى سنة 1914م.

وسنحاول إبراز الجهود الإصلاحية للشيخ أطفيش في المجالين الديني والإجتماعي وكذا جهاده السياسي ومواقفه الوطنية في مواجهة المحتل الفرنسي، وذلك من خلال عنصرين:

الأول نتحدث فيه عن شعور الشيخ أطفيش بالمسؤولية اتجاه مجتمعه، وقيامه بجهود مضيئة لإصلاحه، وإخراجه من الجهل، والتخلف الذي كان يعانيه، مع التطرق إلى ما لحق الشيخ من أذى ومعاناة ونفي في سبيل ذلك.

أما في العنصر الثاني فنقدم بعض مواقفه الوطنية ونضاله السياسي، والتي تجسدت في مقاومته للإستعمار الفرنسي محليا ووطنيا بشتى الوسائل المتاحة لديه، ومساندته اللامشروطة للثورات الشعبية التي كانت تندلع هنا وهناك.

نأمل أن تساهم هذه المداخلة بقسط ولو قليل في التعريف بالشيخ الحاج أمحمد أطفيش، مبرزة إسهاماته لإصلاح المجتمع، وتلقي الضوء على جوانب من شخصيته السياسية، راجين أن تكون هذه المحاولة في مستوى هذه الشخصية الموسوعية وهذا الملتقى.

أولاً: جهوده الإصلاحية في المجالين الاجتماعي والديني:

1. شعوره بمسؤولية إصلاح المجتمع:

ظهر الشيخ أطفيش في وقت، وفي ظروف كان فيها المجتمع المزاي في أشد الحاجة إلى مصلح يواصل الجهود التي بدأها الشيخان يحيى بن صالح الأفضلي، وعبد العزيز الثميني، وبعض تلاميذهما من بعدهما (أبو القاسم الكباوي، 1981م، ص20)، وقد اعتبر الإصلاح الاجتماعي من الإهتمام بأمور المسلمين، فهو واجب، وأولى من غيره، وإن كان يجد فيه صعاباً وآلاماً، إذ من طبيعة الناس أنهم لا يتقبلون التغيير بسهولة، ويرى أن القيام بالإصلاح مع هذه العراقيل يُكسب الإنسان راحة، وطمأنينة باعتباره أذى واجبا، وسدّ ثغرة في المجتمع، ويقوى هذا الشعور بقدر إخلاصه لله تعالى، وإيمانه بما يقوم به، ونجد هذه الاعتبارات تصدر عن الشيخ أطفيش وهو يُسدي نصحا إلى بعض من راسلوه وسألوه في هذا الموضوع فقال: "...ومما سألتما عنه: الإشتغال بأمر المسلمين، إعلما أنه أولى من الإنفراد، لكن مع تحمّل الأذى ومعالجته، وإذا قوى إخلاصكما سهل عليكم الأذى، فتجدان راحة في قلبكما تصلان معها إلى التعلم والتعليم...". فقضى عمره في خدمة هذا المجتمع، ولم تنه الصعاب التي اعترضت سبيله، ورأى أن أهم سبب في تدهر المجتمع هو الجهل، وطغيان التقليد، فاتّجه إلى تصحيح كثير من الإعتقادات، والمفاهيم الخاطئة .

أ. منهجه في الإصلاح:

لم يكن الإصلاح الاجتماعي لدى الشيخ يعني الرفض لكل موجود، وتغيير كل شيء، وهجرة الناس فيما يأتون من تصرفات وأعمال، لكن على المصلح أن يراعي مقياساً أيضاً مثل الذي يتخذه في تحديد البدعة المردودة، فيجاري الناس، ويرضى بما يفعلون ما دام موافقا للشرع، ويشاركهم في ذلك أيضاً، فإن خالفوا الشرع، ولم يسايروا كتاباً ولا سنة، وجب عليه الرفض والسعي لتصحيح ذلك، كما أن عليه أن يتعد عن الذاتية في العمل الاجتماعي، ولا يشرع لنفسه، ولا يتبع الهوى في الحكم على الغير .

ومما قال في الموضوع: "...وإنما يتخلق الإنسان بأخلاق أهل زمانه فيما لا يخالف السنة والقرآن ولا يؤدي إلى مخالفتها ولا يكون تشريعاً منه..."، ويوحى هذا الرأي باستفادة الشيخ من المنهج الذي جاء به الإسلام واتبعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فلم يكن الإسلام رافضاً لكل ما كان عليه الناس، ولم يكن مصادماً للفتنة الإنسانية السليمة، بل جاء مهذباً إياها مبصراً الناس إلى ما يسعدهم في دنياهم وأخراهم، ولم تكن الأخلاق والأعمال الصالحة منعدمة في الجاهلية،

لذا جاء الرسول (صلعم) مثبتا للسلام منها ومصححا لغيرها، وفي هذا التغيير ينبغي انتهاز سبيل قويم ومنهج سليم أيضا (مصطفى وينتن: آراء الشيخ، 1996م ص ص30-31).

ب. أسلوبه الإصلاحي:

إن لكل مصلح مميزات ومنهجه ، ونلاحظ أن الشيخ أطفيش قد انتهج طريقتين في تغيير البدع التي وجد الناس عليها، ولم يتقيد بمنهج واحد، بل كان يرى إلى طبيعة البدعة والوضع الذي يقصد إلى تغييره، فإما أن يتخذ في إصلاحه أسلوبا مباشرا، ويواجه الناس بالرفض، ويدعوهم إلى تغيير سلوك فيهم، وإما أن يتدرج معهم في التغيير (مصطفى وينتن: 1996م، ص ص31 - 32).

وقد استعمل الأسلوب المباشر خاصة في بداية عهده بالإصلاح، ومع بعض البدع التي كان يراها مصادمة للخلق القويم، أو يكون متأثرا فيها باستفزازات المعارضين له، ومثال ذلك محاولته إقناع الناس بالرجوع إلى التحية والإستذان بلفظ "السلام"، فلم يتدرج فيها مع الناس، مما أورثه خصوما ومعارضين.

واستعمل الأسلوب الثاني من التدرج تجاه بعض البدع الأخرى، مثل تعوّد الناس قراءة آيات السجدة في القرآن سرا حتى لا يلزموا السامعين السجود، مخافة أن يكونوا على غير وضوء (عيسى الحاج سعيد، 1981م، ص21)، فلم يكن يواجه الناس بها (ألف القطب رسالة في الموضوع سماها: "القنوان الدانية في بيان المسألة العانية" يدحض فيها أدلة معارضيه)، بل يكتفي بانتهاز الفرص، والمناسبات ليُلَمِّح إلى تصحيحها، أو يذكر مواطن الخطأ فيها.

2. معاناته ونفيه من بلدته:

إن الشيخ أطفيش شأنه شأن المصلحين في كل زمان ومكان، قد لاقى في دعوته الإصلاحية مقاومة عنيفة، وطويلة المدى من طرف بعض فئات المجتمع، وخاصة منهم الأميين، والجهلة الذين ظلوا يُعرقلون مسيرته، ويُحاربونه بشتى الوسائل (يجى بوتردين، 1989م، ص48)، فأقبح في قضايا لا علاقة لها بالعلم وبناء المجتمع نتيجة لهذا الوضع (أبو القاسم الكباوي: 1981م، ص23).

أ- معاناته:

عانى الشيخ كثيرا من بعض الشخصيات الجاهلة المنتسبة للدين والعلم لمسايرتها للعامة وتملقها لها، فاعتقدت الدهماء فيهم العلم والدين، فصاروا هم العلماء المُقتدى بهم. كما عانى من حسد بعض العلماء له لتفوقه عليهم في العلم، والشهرة، واجتماع الناس من حوله رغم صغر

سنه، وما كاد القطب ينتقد بدعهم التي يقدسونها حتى وصفوه بأنه مبتدع في الدين يخالف السلف الصالح، وأنه خطر على الدين والمجتمع، فحاربوه باسم الدين، ووقعت بين الطرفين معارك جديلية شغلت الكثير من وقته، واستنزفت جهودا كبيرة منه، وأورثته آلاما (محمد علي دبور، 1964م، ص 334).

رغم ما لاقاه القطب من اضطهاد من قومه، إلا أنه بقي صلبا لا تلين له قناة، جريئا، حازما، شجاعا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، فأخذ معارضيه يكيدون له فأوغروا العامة عليه، وبعض الخاصة حتى صار أغلب سكان بني يزقن ضده، فأجبروه على الخروج من بني يزقن (عدون جهلان، 1988م، ص 106).

ب- نفيه من بني يزقن:

نفي إذن القطب من بلده، إلى البلدة المجاورة بنورة التي كانت ملجأ للعلماء المضطهدين، ونفي معه مناصريه وتلاميذه أمثال: الشيخ أمحمد بن ادريسو، الذي كان مثله في الرأي والإستقلال (أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر، ج3، 1998م، ص 267) حيث كان أكبر مؤيد له في الإصلاح، ونبد البدع والفساد في المجتمع، وكذلك الشيخ سعيد نابو وبتن، والشيخ عمر بن سليمان نوح الذي نفي إلى مليكة (الشيخ سليمان بكاي: مقابلة، 2009م).

أقام القطب في بنورة سبع سنين ولم يرجع إلى بلده إلى أن مات بعض الغلاة من حساده، فانقشع ضباب الحقد، والضغينة، ولانت القلوب، وأحس العقلاء بالفراغ الكبير الذي تركه القطب، وحاجة الناس إلى علمه، فذهب وفد منهم إلى بنورة فأرجعوه (سعد الله: تاريخ الجزائر، 1998م، ص 267).

رجع الشيخ أطفيش إلى بني يزقن وأقام بها، ولم يغادرها إلا قليلا، فقد كان الجو ملائما لمواصلة النهضة الحديثة، فصار شيخا لعزابة بلده، ومدرسا، وواعظا في مسجدها، مواصلا دعوته الإصلاحية فزاده ذلك شهرة في المنطقة (pierre cuperly: Muhamed Atfaich, 1972, p2) 3. نجاحه في إصلاحاته:

واصل الشيخ أطفيش بعد عودته من منفاه جهاده الإصلاحية الإجتماعية، والدينية، والعلمية، رافعا صوته بالدعوة إلى العلم، لم يش من عزيمته ما لاقاه من معارضيه من الشدائد، فنجح إلى حد كبير في جهوده الإصلاحية داخل المجتمع المزاي، حيث استطاع أن يُطهِّره من الإنحرافات، والإعتقادات الباطلة، كما تمكّن من أن يبعث روح الإسلام في هذا المجتمع،

سلوكيا، وعقيديا. (بوتردين، مرجع سابق، ص 48)

لقد بقي القطب ثابتا في العمل مستمرا فيه إلى آخر أيامه، وقد بدأ بذلك عهدا جديدا في الإصلاح الاجتماعي بوادي مزاب، تميّز بطول النفس، والإستمرار حتى وفاة المصلح أو نجاح رسالته، وهذا ما لم يكن معهودا في بعض المحاولات السابقة التي اعتزل أصحابها العمل الاجتماعي، مُكتفين بالعمل العلمي والتأليف، وأصبح قدوة لمن جاء بعده من تلاميذه، وغيرهم من المصلحين الذين انتهجوا هذا الطريق، ولم تخر عزائمهم أمام قوة الرافضين والمعارضين (وينتن، مرجع سابق، ص 34).

– نماذج من إصلاحاته:

لقد لاحظ المؤلف مارسيل ميرسي (marcel mercier) لدى زيارته لمزاب، فقال: "...إنّ عادة تكسير الفخار فوق القبور آخذة في النقصان، وأخذ المزابي يكفي بوضع جريدة خضراء على القبر..."، ثم أضاف: "...تختفي أماننا عادات، وتقاليده تعود ربما إلى آلاف السنين...". ولا شك أن إختفاء هذه العادة نتيجة لمحاربة القطب إيها، وحمل الناس على تركها.

وقد أصلح من سلوك الناس في التحية، إذ استبدلوا بلفظ "السلام عليكم" صباح الخير أو مساء الخير، تقليدا للنصارى، فاجتهد الشيخ في تربيتهم على التحية الإسلامية وعلى الإستئذان بها للدخول إلى البيوت والمحلات، وخاض من أجل ذلك صراعا حتى تمكّن من إقناعهم بوجوب الأخذ بها، وترك غيرها (وينتن، مرجع سابق، ص 335)

وقد غيّر الشيخ وصحّح بدعا أخرى غير هذه كاستحداث ركعات خاصة لبعض أيام السنة وخاصة أيام رمضان ولياليه، أو إختيار آيات من القرآن، وتلاوتها كأنها نص واحد، أو إخفاء الأيدي تحت الثياب أثناء الدعاء، وفي مجالس الذكر، والبناء على القبور ووضع آنية عليها (عيسى الحاج سعيد، مرجع سابق، ص 25).

كما قام بتصحيح المفهوم الخاطئ الذي ساد مزاب ردحا من الزمن، والذي كان يقضي بعدم السماح للمرأة بالسفر خارج مزاب إلا لضرورة قصوى ملحة كالعلاج مثلا، أما سوى ذلك فلا، فقام القطب باصطحاب إحدى زوجاته معه في حجته الثانية، رغم المعارضة الشديدة من أهلها، ومحاولة منعه بالقوة (عيسى الحاج سعيد، مرجع سابق، ص 25).

ثانيا: مواقفه الوطنية وجهاده السياسي

1. موقفه من الإستعمار الفرنسي:

لقد كان عمر الشيخ أطفيش 12 عاما عندما احتل الفرنسيون مدينة الجزائر في 5 جويلية سنة 1830م. ولكن الاحتلال الفرنسي لم يصل إلى الصحراء إلا في منتصف الخمسينات. (سعد الله: محمد بن يوسف، 2001، ص1) فوَقَّعت بين المفكرين في مزاب بليلة، وفوضى، وتضارب في الآراء، بين محبذ للإسراع في إبرام معاهدة مع فرنسا تحفظ عوائدهم، وتقاليدهم، وتسيير أمورهم الداخلية بأيديهم، وهم الأكثرية، وبين نابذ معارض لكل صلة تصلهم بالدولة المشتركة فرنسا، ولو أدى بهم الأمر إلى محق مزاب من الوجود. (عيسى حمو النوري، 1984م، ص271).

- معاهدة بني مزاب مع فرنسا (رجب 1269هـ/ 29 أبريل 1853م):

إن علاقة فرنسا بمزاب بدأت من اليوم الذي احتلت فيه مدينة الأغواط، فكان عليها إيجاد روابط طيبة مع هذه الجماعات الإباضية التي تشمل شعبا راقيا، ممتازا في النظم الاجتماعية والسياسية والقضائية والدينية. (الحاج امحمد عمر، 1951م، ص ص62-63) فغرف بينهما ما يسمى بمعاهدة الحماية. (يطو، مرجع سابق، ص39).

أ. موقف الشيخ أطفيش من المعاهدة:

تولى الشيخ أطفيش زعامة المعارضين للاتفاقية، وأعلن البراءة ممن يسعى، أو يُحبذ التعاقد مع فرنسا عدوة الإسلام، فكان يقول: "... إنني أرض أن تُشيع ثمانين جنازة في اليوم في بني يزقن، ولا أرض بحال أن يطرق سمعي أن فرنسا وضعت حجرا واحدا في تيصفت⁽¹⁾ ... ". (النوري، مرجع سابق، ص271).

بعض ثمار معارضته للمعاهدة:

- رفض جميع المزايبين وظيفة القيادة.

- رفض المزايبون التعلم في المدارس القليلة التي فتحها الفرنسيون، حتى أنهم اتخذوا يوم أول أكتوبر من كل سنة يوم حداد في جميع قرى الوادي إلى سنوات العشرينات.

ب. مواقف أخرى للقطب اتجاه المستعمر:

عُرف الشيخ أطفيش برفضه التعاون مع المستعمر، أو إشعاره برضاه، فكان يرفض أن تقلده فرنسا نيشانا يحمل اسمها، وإذا أهدت له وساما يمتنع أن يتقلده ولا يعبأ به، على عكس احتفائه بالنياشين، والأوسمة التي أهدت له من قبل الحكام، والسلاطين المسلمين، وله مواقف عديدة في مناسبات عدة تعكس قناعاته اتجاه الإستعمار، وتُظهر بشكل قطعي أنه لم يكن ليُهاود، أو يعترف بكيان دخيل مشترك، وهذه نماذج تُظهر نفسية الشيخ، وشدة بُغضه للإستعمار، بسبب

شركه، وظلمه، وتعبه الأعمى ضد الإسلام والمسلمين. (بوتردين، مرجع سابق، ص 57).

فمثلا عندما زار الجنرال بايو "payot" منطقة مزاب، طلب ملاقة الشيخ أطفيش، لتي الأعيان طلبه من غير إستشارة الشيخ، لكن هذا الأخير رفض ولما ألحوا عليه قبل، ورد على قول الجنرال: "... بأن فرنسا تفتخر بوجود عالم جليل مثله في إمبراطوريتها..."، بقوله: "اللهم اجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا" (يطو، نفسه، ص ص 15-16).

ومن مواقفه كذلك أنه كان يُلصق الطوايع البريدية التي تحمل صور المستعمرين مقلوبة، إستهزاء ونكاية بهم (دبوز، مرجع سابق، ص 323).

ومن أمثلة إعتداده بدينه ووطنه أنه زاره بعض القساوسة، وكبار الولاة من الأجانب، فوقفوا معه في مستوى واحد من الأرض لكنه أبى ذلك وصعد إلى درجة، ولما إستفسر أحدهم، قال: "الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه" (جهلان، مرجع سابق، ص 110).

ج. مساندة الشيخ أطفيش للثورات الشعبية رغم المعاهدة:

لقد وقف الشيخ أطفيش بالمرصاد أمام أهداف فرنسا وطموحاتها، فاتخذ المعاهدة ستارا لمساندة الثورات التي كانت تندلع هنا وهناك، مثل ثورة المقراني والشيخ الحداد (1871-1872م)، وثورة أولاد سيدي الشيخ وغيرها، فكان المزايون يمدون الثوار بما يحتاجونه من المؤونة والعتاد والأسلحة المصنوعة محليا، والمستوردة من الأسواق الحرة خاصة من ليبيا، فانتعشت الثورات في الصحراء، وأصبح وادي مزاب همزة وصل بين الثوار وقبائل الصحراء (النوري، المرجع السابق، ص 307)، فهذه المعاهدة لم تعزل المجتمع الإباضي عن الجزائريين، ولم تحل بينهم وبين أداء واجبهم تجاه وطنهم، حتى أن هذا الوضع كان من الأسباب التي تدرعت بها فرنسا لإلحاق المنطقة بالدولة الفرنسية (يطو، مرجع سابق، ص 164).

2. مقاومته لاحتلال مزاب:

أ. المقاومة المباشرة:

عاصر الشيخ أطفيش الحملة العسكرية الفرنسية على مزاب التي أُعدَّت بأمر من الجنرال لاتوردوفرن (La tour Dauvergne)، قائد وحدة المدينة، ولما سمع بوصولها إلى بريان، نصب خيامه في الدِّبْدابة⁽²⁾ وأعلن الجهاد، وحاول بمساعدة صديقه الشيخ عمر بن سليمان نوح تكوين جيش من الشباب لمحاربة الإستعمار، لكنه لم يجد إستجابة كبيرة من السكان، بسبب معارضة أعيان البلد لموقفه (مصطفى ويتن: مقابلة، 2009م)، فاحتج لدى قائد الحملة الجنرال مرغريت

(Marguarite) بقوة وبكل جرأة، فخاف القائد الفرنسي أن يُثير عليه مزاب والصحرَاء، فقام بتطويق الخيام واعتقله مع بعض أنصاره أياما حتى احتل غرداية، وشحنها بالجند، وبذلك أعلنت فرنسا الإحتلال النهائي لمزاب يوم 30 نوفمبر 1882م) مصطفى ويتن: موقف الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش من الإستعمار، 1999م، ص24).

لقد كان الجهاد عند الشيخ أطفيش واجبا، وضرورة تسمو فوق كل شيء، وما عداه يُعدّ ثانويا حتى التأليف والتعليم، حيث يقول: "...هذا الزمان أحوج إلى الورع، والسيوف منه إلى الإعتناء بالنظم والتأليف..." (ويتن: موقف الشيخ اطفيش، مرجع سابق، ص 22-25).

فهو عندما يفسر القرآن يتخذ منه سببا لاستنهاض الهمم، فقال مثلا في تفسير آية: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾⁽³⁾: "والآن يجب على عامة الموحدين، ولا سيما السلاطين وأتباعهم أن يستعدوا بالرصااص والبارود والمدافع، ويتعلموا ذلك تعلما كليا محققا ويعلموه الأجناد لعلهم يزيلون بعض غلبة أهل الشرك، والآية شاملة لهذا المعنى والإلحاق والقياس وكأنها نص فيه" (ويتن: التعريف بالشيخ أطفيش، 2010م ص60).

بعد إطلاق سراحه لم يهدأ الشيخ، ولم يستسلم للواقع فراح يُحرك الشعب، ويستنهض الهمم، ويُثير الرأي العام كلما سنحت له الفرصة لذلك، فقامت فرنسا بتضييق الخناق عليه، ووضعت تحت الإقامة الجبرية، ومنعته من السفر، فلا ينتقل بين قرى مزاب إلا برخصة يطلبها من الحاكم في غرداية. فرجع إلى التأليف والتعليم، بل أقبل عليهما، وأنفق فيهما كل جهده، حيث أيقن أن المواجهة المباشرة لم يحن وقتها بعد بسبب الظروف التي يعيشها، ويقول في ذلك: "...أكتب على التأليف إذ لم أجد غازيا يوما، ولا ما به أغزو..." (ويتن: آراء الشيخ، مرجع سابق، ص22 وما بعدها).

ب . المقاومة الغيرمباشرة:

كان للقطب رحمه الله طموح، واستعداد قوي لمنازلة الإستعمار، لكن وضعه لم يسعفه إلى ذلك⁽⁴⁾، فغيّر منهجه من المقاومة المباشرة (المسلحة) إلى المقاومة غير المباشرة (السياسية)، وهي أطول نفسا، وأجدى نفعا، وأبلغ أثرا، وقد تجلت فيما يلي:

- نشر الوعي السياسي بين تلاميذه:

فقد حوّل الشيخ بيته إلى معهد لتكوين وتربية طلابه على أفكاره، فنفع فيهم روح كراهية المستعمر الكافر، ومحاربتة بشتى الوسائل الممكنة، فبرز منهم علماء أقطاب في مقارعة

الإستعمار أينما وجد، سواء في مزاب، أو في الجزائر، أوفي مختلف أقطار العالم الإسلامي. (وينتن: آراء الشيخ، مرجع سابق، ص 22 وما بعدها).

- إفتناؤه بحرمة الهجرة من الجزائر هروبا من الإستعمار، حيث رأى أن هذه الهجرة إخلاء للجو للمستعمروتمكين له في الأرض. (وينتن: التعريف بالشيخ، مرجع سابق، ص 57).

- احتجاجاته على السياسة الفرنسية:

لقد إمتاز بالشدة في مراسلاته للمسؤولين الفرنسيين، محتجا في قضية من القضايا، أو مطالبا بحق من الحقوق، أو ساخرا منهم في موقف من المواقف. (عيسى الحاج سعيد: الإمام أطفيش، مرجع سابق، ص 15).

من الأمثلة على ذلك على سبيل الذكر لا الحصر:

- أرسل رسالة إلى البرلمان الفرنسي عندما أراد الفرنسيون إحتلال مزاب، مهددا إياهم بالجهاد. (موسى قزريط، مرجع سابق).

- بعث الشيخ أطفيش رسائل إحتجاج على نقض فرنسا لمعاهدة الحماية مع المزابيين، منها رسالة بتاريخ 20 جانفي 1888م إلى الحاكم العام في الجزائر لويس تيرمان (Louis Termane) إعتراضا على إلحاق وادي مزاب بالدولة الفرنسية، (Pierre cupery: Apercu, op-cit, P6

- رسالة إعتراض شديدة اللهجة إلى الوالي العام بالجزائر، عندما أرادت السلطة الفرنسية هدم الجامع الكبير بالعاصمة، يحذره فيها من الإقتراب من بيوت الله، ويتوعدده بالإنتقام لله تعالى. (دبوز: نهضة الجزائر، مرجع سابق، ص 330)

- وجه عريضة⁽⁵⁾ إحتجاج إلى الوالي العام جول كامبون (Jol Kambon)، يعارض فيها مشروع القانون الرامي إلى تعديل القانون الخاص بميراث ذوي الارحام، والقاصر على وجه الخصوص، كما عارض قانون الملكية العقارية. (يطو، مرجع سابق، ص 25).

- رسالة إحتجاج إلى الحكومة الفرنسية بباريس، ذكر فيها ظلم الولاة لأبناء الشعب، ومنعهم من الذهاب إلى الحج، والسفر إلى الخارج (دبوز، مرجع سابق، ص 330).

- بعض ثمار مقاومته للإحتلال:

أثمرت مجهودات الشيخ أطفيش وأنصاره بقيام معارضة سياسية واسعة في مزاب لكل ما له صلة بالإستعمار.

وقد تجلت في:

- مقاطعة المدارس الرسمية الفرنسية: ظل بنو مزاب يقاطعون التعليم الفرنسي⁽⁶⁾، ويعتبرون أن المدارس الفرنسية أنشئت قصد نشر الكفر ومحاربة الإسلام، ويحاولون تهريب أولادهم من مزاب. ولضمان سير هذه المدارس كانت السلطات الفرنسية بغرداية لا تسمح للتلميذ من مغادرة المنطقة إلا برخصة (يوسف الحاج سعيد، مرجع سابق، ص123).

- رفض التجنيد الإجباري: المفروض على جميع الجزائريين سنة 1912م، فاستاءت الأمة المزابية من عزم فرنسا تطبيقه على أبنائها، فقاومت هذا القانون، ورفضت أن يُطبق على أبنائها. (عبد الرحمن بكلي، 2003م، ص13).

لقد تمسك المزابيون وعلى رأسهم الشيخ أطفيش بنود المعاهدة بما يحمي دينهم ونظامهم الاجتماعي الإسلامي، وخاضوا مع الإستعمار معارك سياسية حامية، فقد كان لهم في كل قرار جديد موقف احتجاج بعرائض، وشكايات. (يحيى حاج امحمد: القراي، مرجع سابق، ص ص 116-117).

ولا أدل على ذلك من المراسلات التي كانت بين العسكريين الفرنسيين ومسؤوليهم، والتي تشير إلى أن العزابة كانوا دوما أكبر المناوئين لكل ما يتصل بفرنسا، وذكروا أن الشيخ اطفيش كان على رأسهم. (محمد ناصر: القراي، مرجع سابق، ص 134).

فهذا الجنرال مارغريت (Marguarite) يُصرّح في رسالة إلى الحاكم العام راندون (Randon) عند احتلاله غرداية عام 1882م، بما يلي: "...أن الطلبة والعزابة كانوا دائما من أكبر، وأشد أعداء الإحتلال، وعلى رأسهم زعيمهم الشيخ أطفيش، الذي أعلن الجهاد ضدنا فسجنته ليعلم مواطنيه أنه لا يستطيع أن يصنع المعجزات أمام قواتنا... (شهبي، مرجع سابق، ص198).

وفي تقرير من العقيد المكلف بدائرة الجزائر إلى الحاكم العام مؤرخ في 23 مارس 1902م، يذكر فيه أن الشيخ أطفيش مسجل في القائمة (B) وأن: "هذا الأهلي هو المشتبه به الوحيد التابع إلى إدارة ناحية الجزائر وهو الآن في ناحية الجنوب (وينتن: التعريف بالشيخ، مرجع سابق، ص59).

3. استمرار مساندة القطب وتلاميذه للثورات الشعبية:

إن رجوع الشيخ أطفيش للتأليف، والتعليم بقوة بعد احتلال مزاب ليس معناه تخليه عن موقفه الراض للتعاون مع العدو الكافر، فموقفه هذا كان يصدر عن قناعة دينية، وأساس عقائدي

لا يتزعزع، لذا كان يُشجع جميع جيوب المقاومة التي كانت هنا وهناك، وكان له دور فعال في توجيه سكان مزاب لإعانة، ومدّ هذه الثورات⁽⁷⁾ على يد كبار تلاميذه. (يطو: نفسه، ص16)، منها:

أ- ثورة أولاد سيدي الشيخ (1881-1883م):

لقد كان قادة الثورة من رؤساء أولاد سيدي الشيخ يعتمدون على الشيخ أطفيش وأنصاره، خاصة تلميذه الحاج عمر بن حمو بكلي اعتمادا كلياً في تدعيم الثورة مادياً ومعنوياً، وإمدادها بالعتاد والذخيرة، وكانوا يتناصرون بكل ثقة وأمان، وكان منزل الشيخ الحاج عمر بالعطف مركزاً لزعماء الثورة بين سمع وبصر السلطة الفرنسية، فلقد كان يبعث بالقوافل إلى مدينة قابس التونسية لجلب السلع والمؤن والكبريت وملح البارود، وكانت قرى مزاب كلها تصنع البارود وترسله إلى الثوار في مختلف أنحاء الصحراء، كما تدل على ذلك بعض العبارات الموجودة في معاهدة سنة 1853م، والعبارات الصريحة في نداء الوالي العام للمزابيين سنة 1882م. (محمد ناصر: القراي، مرجع سابق، ص 133).

ب. ثورة الهقار:

عندما أعلن الجهاد المقدس ضد فرنسا في أكتوبر 1914م، كان وادي مزاب من المناطق التي استقبلت هذا الإعلان بالترحيب، وعندما انفجرت ثورة الهقار التي أعلنها الزعيمان أحمد بن سلطان والشيخ عبد السلام في فيفري 1916م تلبية لنداء مفتي إسطنبول⁽⁸⁾، أيدها الجزائريون في مزاب من كل قلوبهم، فقام تلميذ لقطب الشيخ أطفيش الشيخ الحاج عمر بن حمو بكلي بالدعاية لهذه الثورة. (النوري، مرجع سابق، ص288 وما بعدها).

الخاتمة

من خلال هذه الدراسة يمكن أن نخلص إلى ما يلي:

- إن الشيخ أطفيش قد ظهر في وقت غشي الجزائر كلها ضباب الجهل، والتخلف، والإحتلال، ويمثل جهده في الإصلاح الديني، والإجتماعي، حلقة في النهضة بالمجتمع الجزائري، والعودة به إلى أصوله العقديّة الصحيحة، بتصحيح التصورات، والحث على العمل، وذلك عن طريق الدعوة، والتدريس، والتأليف.

- عاش القطب منشغلاً بقضيتين أساسيتين هما: مقاومة الإستعمار، وإقامة نهضة بوادي مزاب، وقد تجلّى ذلك واضحاً في آثاره، وفي حياته بمختلف مراحلها، فقد استطاع أن يجمع

بين العمل الميداني والإنتاج الفكري.

- لقد سبق القطب معاصريه في تحديد أسباب الوجود الإستعماري في البلاد الإسلامية، في عصره، منطلقا من الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَتْ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا بَأْنَفْسِهِمْ﴾⁽⁹⁾، فهو يرى أن الإستعمار ما هو إلا نتيجة لفساد الأوضاع الداخلية، سواء في الجزائر، أو في بقية الأقطار الإسلامية، وهذا الرأي نفسه نجده عند مفكر جزائري آخر هو الأستاذ مالك بن نبي الذي عرفت عنه نظرية القابلية للإستعمار.

- إن انتقال الشيخ في مقاومته للإستعمار من المواجهة المباشرة إلى الغيرمباشرة يدل على شخصية مفكر واع بما حوله، مستفيد من التجارب السابقة، يرى بعيدا ويعد العدة لما تعم فائدته ويبقى أثره ولو لم يشهد النتيجة.

في الأخير لا يفوتني إلا أن أقدم شكري إلى القائمين على هذا الملتقى، بجامعة غرداية الفتية، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قائمة المصادر والمراجع

1. المصادر:

أ- باللغة العربية:

- أطفيش أمحمد بن يوسف: الذهب الخالص المنوه بالعلم القالص، مقدمة وتعليق أبو إسحاق إبراهيم أطفيش، ط2، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، السيب، سلطنة عمان، 1419هـ / 1998م.
- أطفيش أمحمد بن يوسف: تيسير التفسير تحقيق وإخراج الشيخ إبراهيم محمد طلاي بمساعدة لجنة من الأساتذة، ج1، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1417هـ/1996م. المقدمة.
- الحاج أمحمد عمر بن عيسى بن إبراهيم (وكيل الأمة المزابية المفوض): مذكرات ووثائق عن وادي مزاب، من الناحية الدينية، والسياسية، والإجتماعية، من 1853 إلى 1951م، مطبعة النهضة، تونس، 1371هـ/1951م.

ب- باللغة الفرنسية:

- Archives d'outre mer, Aix en - Prpvence, Dossier 22H15.
- David Louis: Le Cheikh Atfyech (1825-1914), Son Epoque, Doc XM- 121, Centre de Documentaion Saharienne, Ghardaia, Algerie .

2. المراجع:

أ. باللغة العربية:

- جهلان عدون: الفكر السياسي عند الإباضية من خلال آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش (1231-1332هـ/1818-1914م)، نشر جمعية التراث، القراة، الجزائر، 1988م.
- دبوز محمد علي: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج1، ط1، (3أجزاء) ، المطبعة التعاونية، د.م.ن، 1385هـ/1965م.
- الحاج سعيد يوسف بن بكير: تاريخ بني مزاب ونضالهم من أجل الحق في التباين، دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، د.ر.ط، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1992م.
- ناصر صالح محمد(د): الشيخ القراي، حياته وآثاره، ج1، نشر جمعية النهضة، العطف، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1990م.
- سعد الله أبو القاسم(د): تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، (9أجزاء) ج3-ج4-ج7، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998م.
- عيسى حمو محمد النوري: نبذة من حياة الميزابين الدينية والسياسية والعلمية من سنة 1505 إلى 1962م، (5أجزاء) ج1، دار الكروان، باريس، فرنسا، جانفي 1984م.
- شهبي عبد العزيز(د): الزوايا والصوفية والعزابة والإحتلال الفرنسي في الجزائر، دار الغرب، وهران، الجزائر، 2007م.

ب. باللغة الفرنسية:

-Oussedik Fatima: Rellire les Itiffaqaats, essai d'iterprétation sociologique, ENAG, Reghaia,Algerie, 2007.

3. المجالات والدوريات والجرائد:

أ. باللغة العربية:

- ويتن مصطفى بن ناصر(د): موقف الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش من الإستعمار، "مجلة الحياة"، ع2، نشر جمعية التراث، القرارة، الجزائر، 1999م.

- ناصر بلحاج: دور الدعاية العثمانية- الألمانية في رفض التجنيد الإجباري بالجزائر والدعاية الفرنسية المضادة خلال الحرب العالمية الأولى(1914-1918م)، "مجلة الواحات للبحوث والدراسات"، ع3، المركز الجامعي بغرداية، المطبعة العربية، غرداية، ذو الحجة 1429هـ/ديسمبر 2008م.

4. الأطروحات والرسائل الجامعية:

- بوتردين يحيى بن صالح: الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش ومذهبه في تفسير القرآن الكريم بالمقارنة إلى تفسير أهل السنة، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الآداب، إشراف الأستاذ الدكتور مصطفى محمد الشكعة، جامعة عين شمس، قسم اللغة العربية، مصر، 1410هـ/1989م.

- ويتن مصطفى بن الناصر: آراء الشيخ أمحمد بن يوسف اطفيش العقدية، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، نشر جمعية التراث، القرارة، الجزائر، 1417هـ/1996م.

- يطو فيحة: رسالة الرد على إلحاق وادي مزاب والإعتراض على تعديل قانون الملكية العقارية بالجزائر(موجهة من الشيخ أمحمد بن يوسف أطفيش إلى والي العالم الفرنسي بتاريخ 12 ربيع الاول 1322هـ)، دراسة وتحقيق، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير، إشراف الدكتور فيصل محمد موسى، جامعة النيلين، كلية الآداب، قسم التاريخ، السودان، 2006م.

- علواني عكي محمد: محمد بن يوسف اطفيش ومنهجيته في تفسير التيسير، رسالة ماجستير في العلوم الإسلامية، إشراف الدكتور الهاشمي التيجاني، المعهد الوطني العالي لأصول الدين، الجزائر، 1411هـ/1991م.

5. الملتقيات:

أ: أعمال المهرجان الثقافي الذي نظمته جمعية البلابل الرستمية في قرى وادي مزاب، في الذكرى السابعة والستون لوفاة قطب الأئمة الشيخ محمد بن يوسف أطفيش، من 10 إلى 18 ذوالقعدة 1401هـ / 09-16 سبتمبر 1981م، غرداية. من المشاركين فيه :- بكوش يحيى. - الحاج سعيد عيسى - الكباوي عمرو مسعود أبو القاسم - الشيخ بلحاج محمد بن بابا:

6. المقابلات:

- مقابلة مع الدكتور ويتن مصطفى بن ناصر ، أستاذ الشريعة وأصول الدين بجامعة غرداية، بقصر تافيلالت، بني يزقن(غرداية)، يوم: 05 شعبان 1430هـ / 27 جويلية 2009م.

- عدة مقابلات مع الشيخ بكاي سليمان قِيَم مكتبة الإستقامة، ببني يزقن(غرداية)، بالمكتبة، أيام 25-27-30 شعبان 1430هـ / 16-18-21 أوت 2009م.

الهوامش

- (¹) تضيفت: موقع معروف في مدينة غرداية.
- (²) ساحة بوسط مدينة غرداية، أصبحت الآن كلها عمراناً، وبها مؤسسات ومصالح الدولة من بريد ومحكمة ودرك وطني وطرق معبدة وبنك.
- (³) سورة الأنفال: آية 60.
- (⁴) عندما لم يجد القطب من يساعده في محاربة الإستعمار كان يقول: تمنيت لو كنت جندياً في جيش يوسف بن تاشفين فأقاتل الكفار. أنظر: موسى قزريط: تسجيل سمعي، 2009م
- (⁵) أمضى هذه العريضة بنو مزاب، طلبة وعواما وقضاة وقوادا، خارج القرى تحت الشمس. أنظر: لخضر لزرق: قطب الائمة، 2010م، ص74.
- (⁶) بعد احتلال فرنسا لمزاب سنة 1882م فرضت المراقبة على حركة التعليم التي كان يديرها القطب ومحاولته توحيد الجهود من أجل بعث تعليم حيوي قائم على تعاليم الإسلام وتقاليده السلف. أنظر: سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، مرجع سابق، ص49.
- (⁷) يقول الشيخ عبد الرحمن بكلي: "...كان المزابيون في مجموعهم مندفعين من منطلقهم الديني في معركة الكفر والإيمان، لذلك نجدهم شاركوا أفراداً وجماعات في أغلب المقاومات والانتفاضات. أنظر: يطو، مرجع سابق، ص89.
- (⁸) هو شيخ الإسلام خيرى بن عون الأركوبي، أعلن الجهاد في مسجد الفاتح يوم 14 نوفمبر 1914م على الغرب المسيحي الإستعماري. أنظر: بلحاج ناصر ، 2008م، ص113.
- (⁹) سورة الرعد، الآية 11.

وسائل الإصلاح الاجتماعي عند الشيخ أطفيش القطب

عبد الرحمان بن اعطى الله

قسم اللغة العربية وآدابها

المركز الجامعي تبسة

مقدمة

عرفت الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين حركات اصلاحية كثيرة وقفت في وجه الاستعمار الغاشم الذي حاول طمس هوية المجتمع الجزائري منذ استعمار البلاد سنة 1830م فكان لهذه الحركات الدور البارز في توعية المجتمع الجزائري والتأكيد على هويته العربية الاسلامية كما كان لرجال الاصلاح السمة الواضحة في تحريكه على نحو ساهم بشكل كبير في محاربة الاستعمار ونيل الاستقلال .

وما يلاحظ على حركات الاصلاح في القرنين التاسع عشر و العشرين الميلاديين شموليتها لا من حيث مجالات اهتمامها سياسية، اقتصادية، اجتماعية، ثقافية وتربوية، ولا من حيث مجالات انتشارها حيث عمت كل أقطار الوطن من شماله إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه مع وجود توحيد تام من حيث اتباع طريق واحد يحقق وحدة الشعب الجزائري.

ومن أبرز الحركات الاصلاحية التي ظهرت في الجنوب الجزائري كان حركة الشيخ القطب محمد بن يوسف أطفيش القطب خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي الميلادي بمدينة غرداية هذه المدينة التي تعتبر معقلا كبيرا للحركة العلمية الاباضية منذ العصر الوسيط وقام علمائها بدور بارز في النهوض بالحركة الثقافية والعلمية في العصر الحديث وبالتالي كانت معقلا لحركة المقاومة السياسية والفكرية ضد الاستعمار الفرنسي الغاشم.

1-التعريف بالشيخ محمد بن يوسف أطفيش القطب

هو أمحمد بن يوسف بن عيسى بن صالح بن عبد الرحمان بن عيسى بن اسماعيل بن محمد بن عبد الله العزيز بن بكير الحفصي أطفيش، ولد سنة 1237هـ الموافق لسنة 1821م وتوفي سنة 1332هـ الموافق 1914م من عائلة معروفة في الوسط العلمي في مدينة غرداية.¹

توفي والده وتركه يتيما في الرابعة من عمره فنشأ تحت كفالة والدته وعرف منذ صغره بحبه للعلم والعلماء فحفظ القرآن الكريم وهو ابن الثماني سنوات وانكب على حضور حلقات العلماء مما وسع من فكره العلمي وأخذ مبادئ النحو والفقه عن أخيه الأكبر ابراهيم بن يوسف كما تلقى مبادئ المنطق عن الشيخ سعيد بن يوسف وحضر دروس الشيخ بابا بن يونس في مسجد غرداية وحرص على اقتناء الكتب من مختلف الأقطار الاسلامية رغم صعوبة التواصل بينها في عصره.

لما بلغ العشرين من العمر أصبح عالم مشهور في منطقة بني ميزاب وبدأ ينشأ على يده جيل من العلماء حملوا راية العلم في مختلف أنحاء العالم الاسلامي².

ولقد احتل مكانة بارزة من بين علماء العالم الاسلامي حتى قال عن تلميذه الشيخ أبو اليقظان في حديثه عن علماء الأمة ما يلي: (منهم الشيخ الحاج محمد بن يوسف أطفيش الشهير بقطب الأئمة عند المغاربة، وبقطب المغرب عند المشاركة وهو جدير بحق هذا اللقب العظيم)³.

2- القطب وجهاده التربوي والاجتماعي:

أدرك القطب أهمية اصلاح المجتمع تربويا واجتماعيا هذا الاصلاح الذي يجب أن يكون نابعا من هوية المجتمع الجزائري ذي التوجه العربي الاسلامي وعدم ترك أي محاولة للاستعمار الذي حاول الحاق المجتمع الجزائري بنظيره الفرنسي، وقد قام الشيخ أطفيش بمحاولات كبيرة في هذا المسعى حتى قال عنه تلميذه أبو اليقظان يصف لنا شمائله الأخلاقية قائلا: (كان شديد الوطأة على الفساق والعصاة، آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم شفوفا على الفقراء والمساكين، كريم النفس، سخي اليد، عطوفا على الملهوف، يفكر تفكيرا إنسانيا في أوسع آفاقه، شديد الاهتمام بأحوال العالم الإسلامي يفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم)⁴.

هذه هي الأخلاق الإسلامية التي جيب أن تسود اليوم بين المسلمين كلهم، بدلا من التناحر والتنافر والحروب لأجل تحقيق أهداف دنيوية- وكل من قال وآمن بحق الشهادتين لا إله إلا الله محمد رسول الله- فهو أخوك في الإسلام، تلزمك نحوه حقوق كثيرة أولها النصح في الله يقول الله سبحانه وتعالى: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) التوبة: 71

يجدر بنا الآن أن نشير إلى الجوانب الأخرى من شخصية القطب المتمثلة في المعرفة العلمية الصحيحة، بحيث أنه أدرك البعد العميق للعلم الصحيح ما دام يسعى إلى سعادة الدنيا والآخرة، يقول رحمه الله- الورع بالعلم هو عماد الدين وهو الكف عما يوجب النار.

إذن فالعلم الصحيح عنده يجب أن يكون مبنيا على التقوى وإخلاص النية لله عز وجل لخدمة القرآن الكريم والسنة المطهرة تدريسا وتأليفا وسلوكا، وهذا لن يكون إلا لمن التزم بالقيم الأخلاقية الإسلامية وحارب الجهل مهما كانت طبيعته وهذا الأمر لا يحصل إلا لمن اكتسب

أمهات الكتب الدينية والعلمية والمنطقية.⁵

وسائل الاصلاح التربوي والاجتماعي عند القطب الشيخ محمد بن يوسف أطفيش تحتاج كل عملية اصلاح الى مجموعة من الوسائل التي يمكن من خلالها ايصال مضمون الحركة الاصلاحية الى مختلف الفئات الاجتماعية ، ونظرا للأوضاع السياسية والاجتماعية التي ميزت عصر الشيخ القطب من خلال سيطرة المستعمر على ادارة شؤون البلاد وتضييقه على الحريات والعمل على افشال جهود العلماء فإن الوسائل التي أتاحت للشيخ كانت مستعصية وخاضعة لرقابة المستعمر الغاشم ويمكن ابراز الوسائل التي اعتمد عليها الشيخ على الشكل التالي:

1-المسجد:

يعتبر المسجد من أهم الوسائل التي اعتمد عليها الشيخ بهدف ايصال أفكاره الاصلاحية ، فقد كان يلقي فيه خطبه الدعائية الهادفة لتوعية المجتمع ومحاربة ما لحق به من بدع وتغلغل للثقافة الغربية فقد استمر في القاء الدروس طيلة أيام الأسبوع من الضحى الى الزوال إلا يوم الجمعة، ثم يخصص الفترة المسائية كذلك بعد العصر.⁶

وكانت حلقة العزابة بمسجد بني يزقن بغرداية حلقة هادفة لتربية النشأ ومحاربة الآفات الاجتماعية والفتوى في مسائل وقضايا المجتمع معتمدا في ذلك على تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة²

2-المعهد

أسس الشيخ القطب محمد بن يوسف أطفيش معهده في مدينة القراة حيث شهد حركة علمية واسعة استقطبت الأنظار وجلبت اليه العديد من الطلبة من مختلف أنحاء الجزائر وحتى من الدول المجاورة خاصة من تونس وليبيا.⁷

وكان المعهد يخرج دفعات متتالية من الطلبة والذين بدورهم نشروا رسالة الشيخ الاصلاحية في مختلف الأقطار فساهموا بذلك في القضاء على الجهل ومحاربة مظاهره واصلاح أوضاع المجتمع ، وفي نفس الوقت كان هذا المعهد الأساس الأول لقيام معهد الحياة فيما بعد .⁸

3-الكتب

لم يغفل الشيخ القطب محمد بن يوسف أطفيش عن مجال التأليف باعتباره من أهم الوسائل التي يمكن من خلالها ايصال أفكار الاصلاح الى المجتمع ، فقد كان يخصص وقت الليل للتأليف والاجابة عن الرسائل والاستفهامات حتى عد البعض له حوالي 800 كتاب ورسالة حيث أينما ارتحل كان يؤلف فقد ألف في غرداية والقراة وورجلان وفي السفينة قاصدا الحج ، كما له مؤلفات في مختلف الفروع في التفسير، التجويد، علم الحديث، التوحيد، السيرة النبوية

الشريفة، أصول الفقه، التاريخ والأدب.⁹

الخاتمة

من خلال هذه الدراسة الموجزة عن الشيخ القطب يوسف بن محمد أطفيش أمكننا استخلاص بعض النتائج على الشكل التالي:

1- ان حركة الشيخ أطفيش القطب حركة اصلاحية نابعة من تطلعات المصلحين الجزائريين لتغيير المجتمع ودفعه نحو الهوية الحضارية العربية الاسلامية وقطع الطريق عن محاولة الاستعمار الفرنسي طمس تلك الهوية

2- كانت حركة الشيخ القطب محمد بن يوسف أطفيش حركة شاملة امتد أثرها حتى الأقطار العربية البعيدة عن الجزائر كسلطنة عمان ولهذا فإن دوافع وطريق الإصلاح كان موحدًا في وطننا العربي وهو ما يظهر عند دراستنا لهذه الحركة الاصلاحية التي انطلقت من الجنوب الجزائري.

3- أقام الشيخ القطب محمد بن يوسف أطفيش صرحا علميا كبيرا في مدينة غرداية وقام بدوره الحضاري الهام بالحفاظ على هوية المجتمع الجزائري ومحاربة الاستعمار الفرنسي وثقافته.

4- كانت المساجد والمدارس وسيلة هامة اعتمد عليها الشيخ القطب في ايصال أفكاره الى المجتمع ولم يغفل بدوره عن التأليف ونشر الوعي من خلال العشرات من كتبه والتي يمكن اعتباره شكلت ارثا حضاريا بارزا في مجتمعاتنا العربية الاسلامية.

أفاق الموضوع:

ان تسليط الضوء على شخصية الشيخ القطب محمد بن يوسف أطفيش من المواضيع الهامة في فصول كتابة تاريخ الوطن والأمة الاسلامية ، كما يطرح هذا الموضوع أفاق جديدة للدراسة يمكن ايجازها كما يلي:

1- تسليط الضوء على العديد من المخطوطات التي كتبها القطب محمد بن يوسف أطفيش ودعوة الباحثين الى تحقيقها ونشرها على شكل بحوث وكتب ورسائل علمية أكاديمية .

2- دعوة الجهات المختصة الى البحث في منهجية ووسائل الاصلاح عند علمائنا وتطبيقها على المجتمع الحديث فلاحظنا كيف سلك الشيخ القطب محمد بن يوسف أطفيش طريقا رد به محاولات الاستعمار طمس معالم الشخصية الوطنية.

3- محاولة ايجاد رابط مشترك بين الحركات الاصلاحية التي ظهرت في الجنوب الجزائري والحركات الأخرى من مختلف أرجاء الوطن وغيرها من الحركات في الوطن العربي خصوصا في هذه الفترة الزمنية (القرنين 19 و20 الميلاديين) وهي فترة انشار الحركات الاصلاحية بشكلها

الواسع.

4- ترقية هذا الملتقلا الى ملتقى دولي ، ذلك أن شخصية القطب محمد بن يوسف أطفيش لها صيت ذاع في مختلف الأقطار العربية وفكره شملها أيضا وبالتالي ابراز دور العلماء الجزائريين في النهضة العربية الاسلامية.

الهوامش:

¹ - محمد بن موسى بابا عمي وآخرون، 2000م، ص، 399.

² - المرجع نفسه.

³ <http://www.taddart.org/ar/?p=28>.

⁴ - محمد بابا عمي وآخرون، المرجع السابق، ص، 399.

⁵ - مركز تادارت ، المرجع السابق.

⁶ - محمد بن موسى بابا عمي وآخرون، المرجع السابق، ص، 399.

http://alkabs.net/index.php?option=com_content&task=view&id=2013&Itemid=3012 موقع القبس بتاريخ 2010/10/09م

⁷ - قاسم الشيخ بلحاج، 2008م، ص، 108.

⁸ - نفسه، ص، 110.

⁹ - محمد بن موسى بابا عمي وآخرون، المرجع السابق، ص، 399.

الشيخ أطفيش القاب منسأ

يحيى بوتردين

قسم اللغة العربية وآدابها المركز الجامعي غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000، الجزائر

مقدمة

لقد كنت منذ ما يزيد عن عقدين من الزمن قد أنجزت بحثا أكاديميا عن منهج الشيخ اطفيش في التفسير، من خلال كتابه تيسير التفسير محاولا استكشاف مواقفه وأدواته في التفسير⁽¹⁾، فألفيته كتابا في حاجة إلى أكثر من دراسة، باعتباره علما من أعلام التفسير في الجزائر والمدرسة الإباضية في ذات الوقت. و من هذا المنطلق وددت التعريف به لمن لا يعرفه من الطلبة والباحثين. ومنهجي في ذلك يقوم على جملة من العناصر الخادمة للموضوع، تكون على النحو الآتي.

ففي الفقرة الأولى التي جعلتها بعنوان الدراسات السابقة عرض ومناقشة، حاولت التمهيد للموضوع من خلال ما من شأنه أن يظهر الغاية من الحديث عن منهج الشيخ في التفسير وصلته بما كتب في الموضوع من قبل الباحثين الآخرين. ليكون الحديث بعد ذلك عن أبرز السمات التي تطبع منهج الشيخ في التفسير عامة وفي كتابه تيسير التفسير خاصة، وهو صلب الموضوع، إذ جعلته بعنوان مميزات منهج الشيخ اطفيش في التفسير (نماذج نصية)، حيث أتعرض فيه إلى بعض أدواته ومصادره التفسيرية، وكذا موقفه من بعض قضايا التفسير والتأويل... إلخ. وكان لابد في آخر المطاف أن أنهى هذه الجولة في عالم الشيخ اطفيش التفسيري بخلاصة تجمل أهم مشمولات البحث.

ومن حيث المادة المصدرية فقد كانت عمدي إضافة إلى المصحف الشريف برواية ورش، كتاب تيسير التفسير⁽²⁾ كمصدر أساس في البحث، دون إغفال كتابه التفسيري الآخر هميان الزاد إلى دار المعاد. وأما بالنسبة للمراجع، فيأتي في مقدمتها كتاب التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي، الذي أفادني إلى حد كبير، خاصة وأنه قد تفرّد وكان سابقا إلى التعرض لمنهج الشيخ اطفيش القطب في التفسير منذ منتصف القرن الماضي⁽³⁾، وإن كنت قد ناقشت بعض مواقفه وأحكامه التي بدت لي خاطئة منهجا

وموضوعاً، على الرغم من جهد الباحث واجتهاده الذي لا ينكر. على أيّ لا أنسى في جانب البحوث والوثائق العلمية المختصرة محاضرة الأستاذ بالحاج عدون شريف حول "التفسير ومناهجه عند علماء الإباضية"، والتي ألقاها في الملتقى الخامس عشر للفكر الإسلامي بالجزائر العاصمة سنة 1980م، إضافة إلى مجموعة من المحاضرات والشهادات الشفوية والمكتوبة التي تعرّضت مباشرة أو بطريق غير مباشر إلى تفاسير القطب، مما تجمع لذيّ سواء من أرشيف مهرجان القطب اطفيش⁽⁴⁾، أو بالحوار المباشر مع بعض الشخصيات العلمية التي لها صلة بالموضوع.

الدراسات السابقة عرض ومناقشة

إنّ المتتبع للخزانة الإباضية يلاحظ أن ما فيها من كتب التفسير قليل جداً إذا ما قيس إلى رصيدها من كتب العقيدة والفقه على سبيل المثال⁽⁵⁾. وقد اتخذ البعض⁽⁶⁾ هذه الظاهرة سبباً للقول إنّ الإباضية لا يملكون كبقية المذاهب أدوات منهجية يوظفونها في تفسير القرآن الكريم. وإن وُجد لديهم شيء من التفسير فإنّه يكون تفسيراً بالرأي أو الرأي المذموم⁽⁷⁾، ذلك لأنّ هؤلاء الدارسين لم يتكبّدوا مشقة الاطلاع الفعلي على تفاسير الإباضية على قلة عددها، فقد كان أغلبهم⁽⁸⁾ يعولون على ما انتهى إليه الدكتور محمد حسين الذهبي من انطباعات وأحكام جريئة وجارحة في حق الإباضية والشيخ اطفيش القطب خاصة، مردّدين ما قاله دون أدنى فحص أو تمحيص.

وإذا كان محمد حسين الذهبي. وهو أول باحث مسلم يرجع إليه فضل السبق في دراسة منهج الشيخ اطفيش في التفسير ضمن جهود المدرسة الإباضية. قد تمكّن من الاطلاع على تفاسيره بمساعدة الشيخ أبي إسحاق إبراهيم اطفيش⁽⁹⁾، فإننا نعهده قد جانب الصواب لما أراد أن ينتصر بتعصّب لمذهبه. أهل السنة. على حساب كل من خالفهم من شيعة وخوارج وغيرهم. مما استدعى منا التعرّض لآرائه بالتحليل والنقد قبل أي استعراض لمنهج القطب في التفسير، لأنّ ما صدر من الذهبي من أحكام في حق الشيخ ومذهبه - وهي مجانبة للصواب برأينا - إنما كانت ولا تزال مصدر مغالطة وتضليل للدارسين غير المتمرسين وسائر القراء، وهو الأمر الذي تهدف المداخلة إلى تصحيحه.

على أنه خلال عقد التسعينيات من القرن الماضي، وبعد مناقشة رسالتي للماجستير، نوقشت رسائل أخرى في ذات الموضوع، أولاها للأستاذ محمد عكي علواني⁽¹⁰⁾ بجامعة الجزائر (المعهد الوطني العالي لأصول الدين)، عنوانها: محمد بن يوسف اطفيش ومنهجيته في تفسيره التيسير. ثانيها للطالب محمد مصطفى الخوجا⁽¹¹⁾ بالجامعة الأردنية سنة

1994م، عنوانها: منهج محمد بن اطفيش في تفسيره تيسير التفسير. كما أطلعنا الأنباء الواردة من عُمان والمشرق العربي بوجود من أعد بحثاً أكاديمية حول التفسير عند الإباضية⁽¹²⁾.

وفي ظلّ عدم تمكّنا من الاطلاع المباشر والمتّاني على هذه البحوث لمعرفة ما يجمعها أو يميّزها عن بعضها، وهو أمر لا تهدف إليه هذه المداخلة، فإننا آثرنا أن نكتفي بنقد دراسة الذهبي للسبب المذكور آنفاً، ولاعتبارها الدراسة السابقة الوحيدة بالنسبة لبحثنا. فما الذي جاء في دراسة الذهبي إذن؟

إنّ الباحث الدكتور محمد حسين الذهبي قد بنى مقارنته للموضوع على مبدأ مغلوط أساساً، ألا وهو حشره الإباضية في زمرة الخوارج، الأمر الذي جعله يطلق أحكاماً مسبقة تجريدية فيما يتعلّق بموضوع تفسير الخوارج ويلبسها الإباضية. وعليه فقد استنتج خطأ أن الإباضية لا يملكون تفسيراً للقرآن مثل باقي المذاهب الإسلامية بل إنهم إذا نظروا في القرآن كانت نظرتهم سطحية لا تتعدّى حرفية ألفاظه، كما أنّهم يهملون الأحاديث النبوية المفسرة للقرآن. وهذا يعني بوضوح أنّ الإباضية -برأيه- لا يعرفون علوم القرآن أو أصول الفقه أو علوم اللغة... إلخ مما يساعد على فهم وتفسير القرآن الكريم.

وعليه فإنّ الذهبي، ومع فضله الذي لا يُنكره أحد في خدمة علم التفسير والبحث في مناهج المفسرين، قد جانب الصواب في الحكم على تفسير الإباضية والشيخ اطفيش. ونكاد نقول إنّه لو ميّز بين الإباضية والخوارج، لما تحامل بذلك الشكل ضد الإباضية، ولنظر إلى تفسيرهم بنفس المنظار الذي نظر به إلى تفاسير أهل السنة. على أنّه وعلى الرغم من هذا وذاك يبقى -برأينا- صاحب الفضل في كونه أثار مشكل التفسير لدى الإباضية، وجعلنا نوليه الاهتمام اللازم إثراء وتصويباً⁽¹³⁾.

أما وأنّ الذي يهمننا هو التعريف بهذا العالم المجاهد الشيخ اطفيش القطب باعتباره مفسراً، فإننا سنحاول الوقوف عند أهم ما يمكن السؤال عنه عند الحديث عن مناهج التفسير، لمعرفة مدى ما للشيخ منها، وخاصة من خلال كتابه "تيسير التفسير" الذي يعد آخر ما ألفه، وذلك في الفقرة الموالية.

بعض ملامح منهج الشيخ اطفيش في التفسير

إنّ الحديث عن مناهج التفسير يقتضي التعرض إلى جملة من المسائل التي تُمكن للقارئ من الحكم على هذا التفسير بالمشروعية والعلمية أو بغير ذلك، وهو ما سنتبعه من خلال الفقرات الآتية، إذ نعرض إجمالاً لطريقة الشيخ في التفسير في سائر تفاسيره وكيف

يتعامل مع الآية الواحدة ليفهمها أو ييسط معناها للناس، ثم تنتقل إلى تتبع أدواته التفسيرية التي يحددها الأصوليون وعلماء القرآن.

طريقة الشيخ اطفيش في التفسير

ربما اختلفت طريقة الشيخ اطفيش القطب في تعامله مع آي القرآن الكريم من تفسير لآخر، كما هو شأن سائر المفسرين، وربما اختلفت طريقته أيضا في التفسير الواحد من سورة لأخرى، أو من آية لأخرى. فالغرض الذي يبدأ به عمله في تفسير آية ما، قد يجعله في الدرجة الثانية أو في الدرجة الثالثة عند شرحه لمعاني آية أخرى. وما كان الأول في هذه يصبح الأخير في تلك، والعكس صحيح.

إلا أن هناك طابعا يكاد يكون السمة الغالبة في تفاسير الشيخ اطفيش عموما، ذلك أنه يسوق الآية أو الآيتين أو أكثر، فيستهل عمله بشرح موجز يكون عادة معبرا عن المعنى الراجح للآية عنده، ثم يربط تلك الآية بما سبقها من الآيات لكي يحقق الوحدة الموضوعية بين الآيات، وبين السورة إذا كانت هناك صلة بينها، وينتقل بعد ذلك إلى بيان الوجوه الإعرابية للآية، وذلك بتتبع كلماتها واحدة تلو الأخرى جاعلا هدفه استجلاء المعنى وتوضيحه، وهذا في أغلب الأحيان، وربما استرسل وراء الوجوه الإعرابية والصرفية والبلاغية، بما يبدو للقارئ العادي، أنه مما لا طائل وراءه، وربما إذا تتبع تلكم الوجوه المختلفة ضاع المعنى منه، ويبدو أن انسياق الشيخ اطفيش رحمه الله وراء التفسير اللغوي المتعمق جاء من فرط حبه للغة العربية وولعه الشديد بها، فقد علمنا من خلال تتبع مراحل حياته أنه كان شديد الاهتمام بالدرس النحوي خاصة.

وإذا هو يقلب الآية على وجوه اللغة المحتملة، نراه يستعين بما يجده من أثر وروايات في تفسيرها، فهو يستفيد من القراءات وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ وغيرها من الأدوات التفسيرية، كلما وجد إلى ذلك سبيلا، في حين يكفي بالشرح اللغوي إذا لم يجد نقلا أو كان ذلك النقل ضعيفا. فتراه ينقد بعض الروايات أحيانا، ويرد بعض التفسيرات التي قرأها عند المفسرين المتقدمين، ويرجع إلى أساليب اللغة العربية والشعر القديم فيبحث فيها عن المعنى الصحيح للآية المراد تفسيرها.

ولا يكفي الشيخ اطفيش القطب بتفسير معاني الآيات أو الألفاظ القرآنية شرحا وتوضيحا فقط، بل تنكشف لنا ألوان شتى من شخصيته العلمية، التي تنم عن موسوعية ثقافية يتمتع بها رحمه الله، فهو يتوقف أحيانا عند آيات الأحكام، فيبين المسائل الفقهية التي تتعلق بهذه الآية أو تلك، كما يتوقف أيضا عند الآيات التي تتعلق بقضايا العقيدة فيشرحها باستفاضة، وربما استوقفته بعض الآيات التي يثار حولها خلاف فكري، فيبين رأي مذهبه في تفسيرها، كما يحاول أن يستعرض آراء المذاهب المختلفة ويقارن بينها وبين رأي مذهبه، فيرد على بعضهم ممن يرى

قصورا أو ضعفا في دليلهم، ثم يبين الدليل الذي يعتقده أقوى وأصح، وهكذا..
ويلاحظ القارئ في "تيسير التفسير" أن موقفه من المفسرين الذين يأخذون بمجرد الرأي والهوى، يتسم بالشدة والعنف أحيانا، وذلك مثلما يفعل مع الخوارج⁽¹⁴⁾. أما عند تناوله الآيات التي تحمل القصص القرآني، فهو يتأرجح بين موقفين مختلفين: أحيانا يظهر بصورة الناقل الأمين الذي يبدو من فرط أمانته في النقل وكأنه حاطب ليل لا يترك شاردة ولا واردة نطق بها أهل الأخبار إلا وساقها، وإن كانت مخالفة للعقل، وأحيانا يظهر في صورة الناقد المتمرس الدقيق، إذ لا يثق في بعض الأخبار والآثار الواردة إليه في ذلك. وخاصة إذا شاهد فيها تعارضا صارخا مع العلم والعقل. ولذلك نراه يشك في صحتها وربما يناقشها، وإن لم يجد فإنه يذيل تلك القصة أو تلك الآثار بعد أن يورد تفاصيلها بقوله: "والله أعلم بصحتها"، أو نحو ذلك.

هذه بعض الخطوط العريضة لطريقة الشيخ اطفيش في التفسير عامة ومن خلاله كتابه "تيسير التفسير" خاصة، وإذا أردنا أن نفصل القول في ذلك فإننا نحاول تتبع مصادره التفسيرية التي اعتمد عليها، وذلك بحسب ما هو متعارف عليه بين أهل الاختصاص.

فقد يطالع البعض تفاسير الشيخ اطفيش الثلاثة، ويظهر له من أول نظرة أنه يحكم العقل فيسلكه ضمن قائمة المفسرين الذين يأخذون باتجاه العقل في التفسير⁽¹⁵⁾. وقد يذهب البعض الآخر إلى غير ذلك، فيصنفونه ضمن الاتجاه التوفيقي الذي يأخذ بالنقل والعقل معا⁽¹⁶⁾. إلا أن الرأي النهائي في هذا الشأن لا يتأتى إلا بالنظر الفاحص المتعمق في هذا التفسير الأخير "تيسير التفسير"، باعتباره زبدة التأليف التي تركها في هذا الفن، ولعلنا نحاول من خلال قراءة متأنية لهذا التفسير أن نركز على المصادر التي استعان بها في تفسيره لتتضح لنا الرؤية بجلاء، وهو ما ستكشف عنه الفقرات الآتية من البحث.

نماذج من اعتماده النقل في التفسير

يعد النقل أو الرواية من المصادر الأساسية في تفسير القرآن الكريم، ويدخل في هذا المجال تفسير القرآن بالقرآن وتفسير الرسول ﷺ المنقول عنه بالتواتر، وتفسير الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم⁽¹⁷⁾. والشيخ اطفيش القطب، وإن كان مولعا باللغة وبالتفسير اللغوي، فإنه لا يهمل النقل فيما ورد من التفسير المأثور، فقد فسر القرآن بالقرآن، كما فسر باللسنة، وقد استعان أيضا بأراء الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين وكبار أعلام المفسرين بعدهم ناقلا عنهم بعض آرائهم بحيث يلتزمها أحيانا، ويناقشها أو يختار غيرها أحيانا أخرى. وهذا ما ستكشف عنه الفقرات الموالية.

• المصدر القرآني في تفسير الشيخ اطفيش

ومن ذلك مثلاً حمله المجمل على المبين، وهو أن يلتمس له الدليل الذي يبين معناه، وإن وُجد في القرآن فهو تفسيره ⁽¹⁸⁾. وأمثله كثيرة في القرآن الكريم. منها قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ (البقرة: 36)، حيث تفسرها آية أخرى من سورة الأعراف، هي قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف: 23). وقد فسرها الشيخ اطفيش كذلك، إلا أنه لا يذكر أن الأولى من المجمل، والثانية من المبين، بل يفسرها مباشرة بلفظ الثانية. والسياق هو الذي يدلنا على ذلك. يقول: «...﴿فَتَلَقَّى آدَمُ﴾ وحواء، لقوله ﴿قَالَا رَبَّنَا..﴾ إلخ، ﴿مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ دعواً بهن ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف: 23)». ⁽¹⁹⁾

ومن أمثله أيضاً، تفسير قوله تعالى من سورة المائدة: ﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِمَّةَ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ (المائدة: 02) ⁽²⁰⁾.. حيث جاءت هذه الآية عامة ومجملّة، ثم فسرتها آية سورة المائدة، وهي قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلٌ لغيرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَبِئَةُ وَالْمُؤَفَّقَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ..﴾ (المائدة، 03)، بتخصيص المحرم من قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾. يقول الشيخ اطفيش: «...﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِمَّةَ الْأَنْعَامِ﴾ تفصيل للعقود، والبهيمة كل حي لا يميز ولو قملة أو دودة... وإضافة البهيمة للبيان إضافة عام لخاص، والأنعام الذكر والأنثى من الضأن والمعز والبقر والإبل، فهي ثمانية وألحق بهن الطباء وبقر الوحش ونحوهما، مما يماثل الأنعام في الاجترار وعدم الأنياب.. وذكر البهيمة لفائدة الإجمال ثم التفصيل ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ بعد هذه السورة، وهو قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ...﴾» ⁽²¹⁾.

والملاحظ هنا هو إشارته رحمه الله إلى كون الآية الأولى جاءت على سبيل الإجمال حيث ذكرت البهيمة من الأنعام، ثم جاءت الآيات بعدها لتفصيل الحكم وتخصيص الحل والحرمة في أنواع البهائم والأنعام، وهذا على عكس المثال السابق حيث لا يذكر مثل هذه المصطلحات العلمية.

والذي يمكن أن نستخلصه فيما يتعلق بهذا المصدر التفسيري هو أن الشيخ اطفيش كان ملماً بأدوات التفسير بالقرآن الكريم علماً وعملاً. وإن كان في بعض الأحيان يهمل ذكر المصطلحات المتعلقة بذلك. ولهذا كان من الضروري على قارئ تفسيره أن يُلمّ بعلوم القرآن، إذا أراد أن يدرك نوع تلك العلاقات التي كان يقيمها الشيخ بين مختلف ألفاظ

القرآن الكريم. ولعل رغبة هذا المفسر في الإيجاز من جهة، واستهدافه المعنى بأبسط الطرق والأساليب من جهة أخرى -وهما سمة هذا التفسير- يكونان سببا في ذلك.

• المصدر النبوي في تفسير الشيخ اطفيش

وتأتي السنة لتفسر آيات القرآن الكريم عندما لا يوجد تفسير لها من القرآن. لقوله تعالى في محكم تنزيله مخاطبا رسوله ﷺ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل:44). ولهذا كان الرسول ﷺ يقول: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»⁽²²⁾، يعني بذلك السنة، إلا أن الآثار التي رويت عن رسول الله ﷺ في التفسير تعد قليلة جدا، ولكن إذا رأينا إلى سائر أحاديثه فإننا نجد لها كثيرة جدا. حتى أن بعضهم اختص في هذا الجانب من التفسير، ولم يكلف نفسه التفسير بالرأي أو العقل⁽²³⁾. إلا أن العلماء يحذرون من زيف بعض المرويات لوقوع الوضع والكذب على الرسول ﷺ⁽²⁴⁾.

وسنحاول هنا أن نبين مكانة السنة في تفسير الشيخ اطفيش وقيمة ما يرويه من أحاديث، وربما اقتصرنا على مثال أو مثالين، كمثل تفسيره لقول الباري ﷻ من سورة الكهف: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ (الكهف:90). حيث يقول: «قال رسول الله ﷺ: سترنا بناء، لم يُنَّ فيها بناء قط، كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا سربالهم حتى نزول الشمس. رواه الحسن عن سمرة بن جندب. وعنه عن سمرة بن جندب عن الرسول ﷺ أن أرضهم لا تحمل البناء. فإذا طلعت الشمس تَغَوَّرُوا في المياه، وإذا غابت خرجوا يتراعون كما تراعى البهائم...»⁽²⁵⁾. وهذه الرواية نجد لها عند ابن كثير، الذي عُرف بتحري كثير من صحيح النقل⁽²⁶⁾.

وكما ينقل رحمه الله ﷺ تفسير الرسول ﷺ فإنه يحتج بأحاديث وإن لم تكن تفسيراً مباشراً للقرآن الكريم، ويكثر ذلك عند تفسير آيات الأحكام خاصة، والتي ترد في غالبها مجملة، فالسنة هي التي تبينها، وأفعال الرسول ﷺ في العبادات والمعاملات وتقرياته وأقواله كلها مفسرة لما جاء في القرآن الكريم مجملا.

والشيخ اطفيش بوصفه فقيها، نراه يحتج كثيرا بالحديث الشريف عند تعرضه للمسائل الفقهية. ومن أمثلة ذلك تفسيره لقوله تعالى من سورة البقرة: ﴿الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ (البقرة:177)⁽²⁷⁾، حيث يرد على الحنفية قولهم بجواز تساوي العبد بالحر في القصاص استنادا إلى حديث "المسلمون تتكافؤ دماؤهم"⁽²⁸⁾. ويستدل عليهم بحديث آخر يبين الاستثناء، وهو قوله ﷺ «لا يُقتل حرٌّ بعبد»⁽²⁹⁾، إلا أنه رحمه الله ﷺ لا يهتم بذكر درجة صحة هذا الحديث أو ذاك. فكأن طلب المعنى عنده، قد طغى على منهجه إلى الحديث جعله يهمل ما سواه من

القضايا الشكلية التي تعدّ هامة هي الأخرى.

هذا بخلاف تفسيره لقوله تعالى من سورة البقرة: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ (البقرة:36)، فإنه ينقل حديثاً بتخريجه، على عكس المثال الأول، يقول: «...وأخرج الحاكم في المستدرک عنه ⁽³⁰⁾ من طريق ابن عباس أنه قال: يارب، ألم تخلقني بيدك؟...» ⁽³¹⁾.

وهكذا فالشيخ اطفیش لا يهتمل توثيق الحديث دائماً، بل يعتني وبشدة أحياناً بهذه المسألة، إذ نراه يخرج الأحاديث ويذكر درجة صحتها، أو ينسبها إلى مصادرها التي وردت فيها، وهذا جانب أصيل في منهجه التفسيري. ومن بين هذه المصادر التي يعتمد عليها، نذكر: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وسنن الترمذي، ومسند الإمام أحمد، والدر المنثور للسيوطي.. وغيرها ⁽³²⁾.

ومع هذا فإننا نلاحظ أنه رحمه الله قد يورد هذه الأحاديث في بعض الأحيان مجردة من السند، وربما يكتفي بالتعليق عليها سواء بالتصحيح أو التضعيف بالإسناد إلى مصدر من المصادر المذكورة.

ومن ميزات منهجه في مجال الاستعانة بالحديث النبوي الشريف أنه يورد أحياناً أحاديث على ضعفها ويذكر ذلك، ونجد هذا مثلاً عند تفسيره قول الله تعالى من سورة النساء: ﴿وَإِنْ تَكُنْ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا﴾ (النساء:40)، حيث يقول: «... وروى أبو داود ⁽³³⁾ عنه ⁽³⁴⁾ "من دخل السوق وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت بيده الخير وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة". وفي سنده ضعف» ⁽³⁴⁾.

وإذا أشار في هذه الفقرة بصراحة إلى ضعف الحديث، فإنه أحياناً لا يكون متيقناً من صحة الحديث أو ضعفه. ولكنه مع ذلك يورده لاحتتمال صحته فيكون قد فسّر بالأثر دون الرأي. إلا أنه يعلّق عليه بقوله مثلاً: "لا أعرف أنه صحيح، أو الله أعلم بصحته.." مع ذكر مصدره الذي استفاد منه. ومثال ذلك تفسيره قوله تعالى من سورة يوسف: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف:55) ⁽³⁵⁾.

وربما وقف رحمه الله موقف الناقد من هذه الأحاديث، وخاصة إذا تعلق الأمر بآية من آيات الأحكام أو العقيدة، فنراه يخرجها، وربما حكم عليها بالضعف أو الغرابة، استناداً إلى مصادر علمية في الموضوع. ومن أمثلة ذلك، نذكر تفسيره لقوله تعالى من سورة البقرة: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ (البقرة:177). حيث أشار إلى وجوب النفقة في غير الزكاة، بأدلة من السنة والإجماع، استعرضها ثم أتى إلى حديث يعارض هذا الحكم فأهمله ولم يلتفت إليه ⁽³⁶⁾.

أما إذا جئنا إلى الآيات التي تعالج مسائل العقيدة نجده أشد لهجة من الأول في نقده الأحاديث وتضعيفها، مثال ذلك نقرأه عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ..﴾ (القلم؛42). حيث يستعرض الوجوه المختلفة لمعنى الساق، حتى ينتهي إلى أن الآية كناية عن شدة الأمر في ذلك اليوم وفرعه. ويستشهد لذلك من الشعر العربي، ثم يرد على من يفسر الآية بالمعنى الظاهر للساق، استنادا إلى الحديث، ويعتبر أن هذا الحديث مكذوب أو موضوع على رسول الله ﷺ ولو ورد في الصحيحين ⁽³⁷⁾.

ومن هنا يتضح لنا سر اختلاط الأمر لديه في كتابه الأول هميان الزاد الذي أورد فيه كثيرا من المرويات الصحيحة وغير الصحيحة على سواء، خاصة منها أحاديث فضائل القرآن، التي لا يورد منها أصحاب المسانيد إلا النزر القليل، مما جعل الدارسين يعتبرون أكثرها موضوعا. والشيخ اطفيش حين جاء إلى كتابه تيسير التفسير جعله مجردا من هذه الموضوعات أو يكاد ⁽³⁸⁾.

وخلاصة القول مما يمكن أن نلاحظه على منهج الشيخ اطفيش في التفسير بالسنة، أنه رحمه الله لم يهمل هذا المصدر بل حاول أن يستفيد منه كغيره من المفسرين. وقد سلك فيه منهج الناقد المتمرس الذي لا يقبل أي خبر يجده في طريقه بل يختار الصحيح منها ويناقش الباقي، فإما يؤيدها أو يؤولها. إلا أنه مع ذلك لا يلتزم دائما بتخريج الأحاديث المعتمدة من قبله. وهذا مما يضطر القارئ إلى البحث عن سندها ودرجتها من الصحة.

مصدر التفسير بأقوال الصحابة والتابعين

لقد عُرف الشيخ اطفيش في استعانتة بتفسير الصحابة رضوان الله عليهم، باحترامه لآراء الصحابة وإجماعهم، إذ لا يتعدى ذلك إلى رأيه واجتهاده. وهذا المبدأ يعد أساسيا في منهج التفسير وأصول الفقه لدى الإباضية ⁽³⁹⁾. كما هو لدى المسلمين كافة. ومثال ذلك نجده عند تفسيره لقوله تعالى من سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ (البقرة:178). متمسكا بعمل الصحابة رضوان الله عليهم في كون الحر لا يقتل بعدد. وهذا بإجماع منهم. فرد على القائلين بغير ذلك مضعفا دليلهم ⁽⁴⁰⁾.

ولعل الميزة الأساسية التي يمتاز بها الشيخ اطفيش في تعامله مع المأثورات التفسيرية والتي يمكن أن تؤكد أكثر من مرة هي تلك الروح النقدية الفاحصة، إذ يميل كثيرا إلى تحقيق الآثار و المقارنة بينها قبل اعتمادها.

لأنه إذا جاء تفسير عن الصحابي الواحد دون إجماع من غيره عليه، فإنه يناقشه ولا يرتضيه لمجرد كونه تفسير صحابي. وخاصة إذا وجد ما هو أقوى منه، ذلك ما نلاحظه عند تفسيره لقوله تعالى من سورة الإنسان: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى

سَلْسِيلاً» (الإنسان: 17-18)⁽⁴¹⁾ . والذي نلاحظه في هذه الفقرة هو أنه يقدم أحيانا قول التابعين أمثال قتادة ومقاتل بن سليمان، إذا كان تفسيرهم مما أجمع عليه المسلمون، ويرد ما أثر عن الصحابي ولو كان لمثل علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وذلك لعدم اشتهاره لدى غيره عن طريق هذا وكان الشيخ اطفَيْش رحمه الله يعتمد رواية التفسير عن الصحابة والتابعين إلى حد كبير، حتى تسربت إليه الإسرائيليات⁽⁴²⁾ ، فغمرت تفسيره تماما، مثلما وقع بالنسبة لكثير من المفسرين عبر العصور. والذي يلاحظه القارئ هو أنه رحمه الله بالرغم من اعتماده على النقد - وهي ميزة في تفسيره لآيات الأحكام وآيات الاعتقاد - فإنه لم يكن يتخرج من إيراد تلك الإسرائيليات الخرافية التي ربما ينقدها أحيانا أو يناقشها. الإجماع، لأن الإجماع يعد شرطا لحجية تفسير الصحابة والتابعين.

ومن هنا يتضح لنا أن أحاديث أهل الكتاب تعدّ مصدرا لا يستهان به في عملية التفسير، ولكن اعتمادها يكون من أجل الاستشهاد لا الاعتقاد⁽⁴³⁾ ، تبعاً لأمر الرسول ﷺ بعدم تصديقهم ولا تكذيبهم. ولهذا نجد العلماء⁽⁴⁴⁾ يقسمون هذه الأخبار إلى عدة أقسام: منها ما هو واجب قبول روايته، وهو الصنف الثاني الذي تتأكد صحته بموافقة الكتاب والسنة، ومنها ما يجب رفضه وتركه، وذلك إذا تبين بطلانه، وصنف ثالث لم تثبت صحته ولا تأكد بطلانه، فلا هو يتفق مع روح الكتاب والسنة، ولا هو معارض لهما، فهذا الصنف سيان فيه أن يُروى أو يُترك، وهو داخل في قوله ﷺ: «فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم» وقوله كذلك: «حدّثوا عنهم ولا حرج». وقد يضيف بعضهم⁽⁴⁵⁾ شرطا آخر وهو أن لا تكون هذه المرويات متعارضة مع العلم الحديث، لأنه قد اتضح في هذا العصر بطلان كثير من الإسرائيليات لذات السبب، والتي عجّت بها كثير من كتب التفسير القديمة على وجه الخصوص.

ولكي يتضح لنا موقفه هذه المرويات بالنسبة لـ "تيسير التفسير" الذي اعتبرناه منذ البداية عمدة الدراسة. يجدر بنا أن نتبع بعض تفسيراته لآيات القصص التي اتصلت بهذا المصدر التفسيري.

ففي تعرضه لقصة هاروت وماروت، التي في قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ (البقرة: 101). نجده رحمه الله ﷺ يورد أخبارا عن الملكين، ويسندهما إلى مصادر تفسيرية على سبيل التوثيق حتى يتصلّ أمام القارئ من أية مسؤولية في الموضوع، كما يعلّق على هذه الأخبار بالصحة أو عدمها بما يراه دليلا، وهذا بخلاف ما فعله في كتاب "هميان الزاد"⁽⁴⁶⁾ . وتبعاً لهذه المنهج، نجد الشيخ أحيانا يرفض بعض الخرافات التي لا تستقيم علميا كما فعل عند تفسيره لقوله تعالى من سورة المائدة: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا فِيهَا قَوْمًا

(47) جَبَّارِين (المائدة: 56) .

وكخلاصة عن هذا المصدر التفسيري، نقول إنّ الإسرائيليات في " تيسير التفسير " تظهر للقارئ بكل وضوح على أنّها أخبار غير متيقّنة من صحتها، وذلك بفضل منهج الشيخ اطفَيْش في نقدها أو التعليق عليها، ولو بعبارة موجزة تفيد الشك في صحتها، مما يجعلنا نؤكد القول بأن الشيخ اطفَيْش مفسر ناقد وواعٍ بمهمته العلمية، وخاصة في تيسير التفسير .

3- نماذج من اعتماده اللغة في التفسير

لقد كان طبيعياً أن ينطبع تفسير الشيخ اطفَيْش بشيء من لوازم ثقافته، فكانت اللغة وعلومها المختلفة من نحو وصرف وبلاغة، ظاهرة في منهجه التفسيري. والمتتبع لتفسيره يجد مباحث لغوية عديدة حاول الشيخ أن يسر من خلالها أغوار الألفاظ والتعابير القرآنية، مستعينا بآراء كبار علماء اللغة المشهورين، أمثال أبي عبيدة، والفراء، والزجاج، وغيرهم (48) . وكان يهتم كثيراً بالجانب الإعرابي في القرآن الكريم، انطلاقاً من كون الإعراب أداة مساعدة على استجلاء المعنى وتوضيحه (49) . ولما كان رحمه الله، يقرر درس التفسير على طلابه كمادة علمية، فإنّه كان حريصاً على هذا الجانب، وربما اهتم بتبسيط أسلوبه في "تيسير التفسير" ليكون في متناول كل قارئ من جهة، ولكن دون أن يفقد الكتاب طابعه التعليمي من جهة أخرى (50) .

• الجانب الإعرابي

إنّ أول ما تقع عليه عين القارئ وهو يطالع صفحات تيسير التفسير هو الجانب الإعرابي، أو بعبارة أخرى، الجانب النحوي، ومع ذلك فالشيخ محمد بن يوسف اطفَيْش لم يكن يسلك في هذا الكتاب نفس الطريقة التي كان يسلكها في كتابيه السابقين، بالنسبة لهذا الجانب. فهو لا يسترسل مطوّلاً وراء التفريعات النحوية إلا نادراً، بل قد جعل همّة الأساسي هو استجلاء المعاني وتوضيحها عن طريق فك الرموز النحوية للجملة القرآنية، وبيان الموقع الإعرابي للكلمات، وإن كان مع هذا كلّ لا يُهمل الجانب التعليمي الذي يقصد به إفادة تلاميذه.

فلو أخذنا تفسيره لقوله تعالى من سورة البقرة: ﴿فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ (البقرة: 23). وجدناه يورد احتمالين في إعراب الضمير "هاء" من كلمة "مثله"، إذ إعراب هنا وجه من وجوه التفسير، وهذا يدلنا على اهتمامه بالنسق المعنوي للآية القرآنية (51) . فالضمير "هاء" في "مثله" كما هو واضح هو مفتاح المعنى في هذه الآية، إما أن يعود إلى القرآن، أو إلى الرسول ﷺ. وذلك كما في الآية التي تسبق هذه والتي يقول فيها ﷺ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ (البقرة: 22).

وإذا كان الشيخ اطفَيْش يهدف بإيراد مختلف الوجوه الإعرابية المحتملة، إعطاء القارئ أكثر قدر ممكن من الأدلة على ما تُفسّر به الآية، فإنه يفعل ذلك أيضاً من أجل غاية تعليمية إلى

حدّ أننا نجده أحيانا يتقمص شخصية معلم اللغة العربية لا المفسر. من ذلك مثلا، تفسيره للآية الكريمة من سورة النساء، وهي قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي فِيكُمْ وَيُنَظِّقَ لَكُمْ مِمَّا قَالْتُمْ﴾ (النساء: 26) ⁽⁵²⁾.

• الجانب الصرفي

ويمتد اهتمام الشيخ اطفيشُ بالناحية اللغوية إلى مسائل تتعلق بعلم الصرف أحيانا. ومن أمثلة ذلك تفسيره لقوله تعالى من سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ ⁽⁵³⁾. حيث يقف بنا مطولا عند لفظ أشياء ويفصل بناءه الصرفي تفصيلا تعليميا، ربّما كانت الآية في غير حاجة إليه ⁽⁵⁴⁾. وقد يصرف القارئ العادي عن فحوى الآية الكريمة وهدايتها، ولهذا كان من العلماء من رفض أن يتعلّق المفسرون بمثل هذه التطبيقات اللغوية في كتب التفسير ⁽⁵⁵⁾.

ومن أمثلة ذلك أيضا تفسيره لقوله تعالى من سورة البقرة: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة: 172). إذ يتوقف عند كلمة اضطر ليفصل القول في المعنى الذي اكتسبته الكلمة وهي على هذه الصيغة ⁽⁵⁶⁾.

ولعل من المفيد هنا أن نذكر أنّ الشيخ اطفيشُ حين يورد تلك المعارف اللغوية، فإنّه لا يوردها عبثا، بل ربما كان يهدف إلى إقناع القارئ بكثرة الأدلة والتفريعات العلمية. إلا أنّه لا يخفى تأثيره بوظيفته كمعلم، مما جعله يستطرد في إجراء التطبيقات اللغوية بدون حدود أحيانا. وذلك حين وجد أن النص القرآني يعد مجالا خصبا لذلك. وربّما كانت هذه التطبيقات اللغوية مفيدة للقارئ الجزائري في فترة ما من فترات -عصر الاستعمار خاصة- لأنها تساعده على إرساء وترسيخ قواعد اللغة العربية في ذهنه.

• الجانب البلاغي

إنّ الشيخ اطفيشُ يولي اهتماما كبيرا لدلالة اللفظ حالة وقوعه للحقيقة أو المجاز. ويبيّن أثر ذلك في السياق. ففي قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ (البقرة: 178)، يعلق على لفظ (كُتِبَ) الذي انتقل من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية، ثم أصبحت هذه الدلالة المجازية له حقيقة بالعرف ⁽⁵⁷⁾.

وفيما يتعلق بوقوع المجاز في التعبير القرآني نجد الشيخ اطفيشُ في تفسيره لقوله تعالى من سورة البقرة: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (8) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ (البقرة: 8-9). يحاول أن يجد تفسيراً مجازياً للفظ (يخادعون) حيث إن مخادعة الله هنا ليست على الحقيقة، لتنزّهه تعالى عن ذلك، فلا يُصوّر أن يخادع المخلوق خالفه ⁽⁵⁸⁾.

ونجد الكتاب مليئا بالصور البلاغية القائمة على المجاز بأنواعه المختلفة، مع تحليلات مفيدة لبيان المعنى وتوضيحه، ومن أمثلة هذه الصورة نذكر ما يلي:

ففي تفسير قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿فَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنِّي شَيْئٌ﴾ (البقرة: 221). يفيدنا المفسر بأن "الحَرْث" هنا كلمة مستعارة على سبيل التشبيه البليغ، أو الاستعارة التصريحية، أو التمثيلية⁽⁵⁹⁾. وقد نجده أحيانا لا يحدّد نوع الصورة البلاغية للآية القرآنية بتاتا، إذ يكفي بشرحها من أجل بيان معناها فقط. ومثال ذلك نقرأه في تفسير قوله تعالى من سورة النبا: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ (النبأ: 10)⁽⁶⁰⁾. فكان الشيخ اطفَيْشُ يهدف إلى بيان معنى الآية جعله لا يُولي اهتماما كبيرا للتحليل البلاغي للآية الكريمة، كما رأينا في المثال السابق، وهذا يدلّ على أنّه رحمه الله، لم يكن يهتم بالجانب البلاغي بمثل اهتمامه بالجانب النحوي الإعرابي، من حيث التعمق في التحليل وذكر المصطلحات العلمية الخاصة بهما.

• استشهاد بالشعر

ومن المباحث الهامة في تفسير القرآن الكريم باللغة، أن يبحث المفسر في ديوان العرب لعله يجد فيه ما يفسر الغريب والمشكل من ألفاظ القرآن الكريم، باعتبار أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليبهم. وذلك أسوة بما فعله الصحابة رضوان الله عليهم، فقد قال عبد الله بن عباس فيما رواه عنه السيوطي: «الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن، الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه..»⁽⁶¹⁾.

إلا أن الشيخ اطفَيْشُ لم يتسغل ثراء ديوان العرب في تفسيره كما استغل ثراءهم النحوي والبلاغي، فهو قد استشهد بجملة متواضعة من الأشعار جاءت ماثورة في مواطن مختلفة من تفسيره، يتركز أكثرها في الجزأين الخامس والسادس منه خاصة. وكان يقصد من إيرادها إلى أكثر من هدف. فهو عادة يستشهد بها على سبيل الاستئناس خدمة للمعنى من حيث بيانه وتوضيحه، وأحيانا أخرى يأتي بها من أجل الاحتجاج في المسائل اللغوية أو البلاغية أو غيرها.

ولعل من أهم الأمثلة التي استوقفنا فيما يتعلق بهذا المصدر التفسيري، تلك التي تبين اهتمام الشيخ اطفَيْشُ بقواعد الاستشهاد بالشعر، وإن كانت هذه الأمثلة تعدّ نادرة بالنسبة لغيرها. فهو يبدو فيها حريصا على تأصيل المعنى وتأكيد من خلال استعراض نموذج من أشعار العرب، وربما لا يذكر اسم الشاعر وهو الغالب ولكن الآيات التي يوردها لا تخرج عن المراد.

نذكر من ذلك استشهاده ببيت شعر على لغة طي، نسبة لشاعر منهم لم يذكر اسمه، وقد جاء به من أجل بيان معنى الزمهرير، في قوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ (الإنسان: 13)⁽⁶²⁾، وهذا البيت يقول:

وَلَيْلَةٌ ظَلَامُهَا قَدْ اعْتَكَرَ **** قَطَعْتُهَا وَالزَّمْهَرِيُّ مَا زَهَرَ

وقد يستشهد الشيخ اطفيش أيضا بأشعار لعلماء اللغة من أجل تأكيد قاعدة لغوية تعرّض لها من خلال تفسيره لآية ما، ومثال ذلك نجده عند تفسيره لأول سورة غافر وهو قوله تعالى: ﴿حَمَّ تَنْزِيلِ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (غافر: 01)، حيث تعرّض لصيغة الجمع في لفظ "حم" وقال إنه «...جمع على القياس على فواعيل، يبدال ألف (حا) واوا، وهو عربي...»⁽⁶³⁾، وأورد أشعارا لأبي عبيدة اللغوي، يقول فيها:

حلفت بالسبع التي تطوّلت *** ويمين بعدها قد أمنيّت

وبثمان تليّت وكُرّرت *** وبالطواسين التي قد تليّت

وبالحواميم اللواتي سُبّعت *** وبالمفصل التي قد فُصّلت

وكما أنه رحمه الله لا يهتم بالاستشهاد بشعر الشعراء عند تقرير قاعدة لغوية، فإنه قد لا يعير اهتمامه أيضا لصحة الأشعار المستشهد بها أو ضعفها، وربما كانت مصنوعة أو منتحلة، فهو يتجوّز في الاستشهاد بأشعار المجهولين⁽⁶⁴⁾، لمجرد موافقتها لقواعد اللغة⁽⁶⁵⁾.

والى جانب اهتمامه بالقضايا اللغوية المحضة، أو الصناعة النحوية بالخصوص، فإنّه رحمه الله قد استشهد بأشعار فحول الأقدمين أمثال الخنساء وزهير وامرئ القيس، وبأشعار المتأخرين، مثل الكميّ وجريّر والمتنبي وغيرهم. وكثيرا ما يستشهد بأشعار لا يذكر أصحابها، وربما استأنس أيضا ببعض أشعاره الخاصة.

4- موقف الشيخ اطفيش من التأويل

إنّ الشيخ اطفيش في تفسيره الآية الكريمة: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: 07)، فإنّه جعل لفظ متشابه في الآية محتملا لتفسيرين، أحدهما أنه لا يعلمه إلا الله، وذلك لشدة غموضه وإبهامه، وعليه فلا يجوز تأويله، وهو مذهب جماعة من السلف، كأبي بن كعب وعائشة رضي الله عنهما⁽⁶⁶⁾. والآخر أنه مما يعلمه العلماء، وذلك بمزيد تأمل وإمعان⁽⁶⁷⁾. وعليه، فإنّ التأويل يكون جائزا في حقه، وقد نُسب هذا المذهب إلى ابن عباس فيما نقله عنه مجاهد، أنه قال: «أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله»⁽⁶⁸⁾. وابن عباس قد خصّه رسول الله ﷺ بالدعاء المشهور الذي قاله في حقه: «اللهم فقّهه في الدين وعلمّه التأويل».

وانطلاقا من هذا، فإنّ الشيخ اطفيش قد أطلق العنان لنفسه في تأويل المتشابه وطلب

معناه، والغريب أنه لم يقتصر في ذلك على النوع الذي يكون حكمه رده إلى المحكم، ولكنه حاول أن يجاري بعض المتقدمين⁽⁶⁹⁾. في تأويل بعض الآيات المتشابهات التي لا يعلمها إلا الله، مثل الحروف المقطعة. وهذا بالرغم من أنه قد أعلن بنفسه وفي أكثر من مناسبة، أنها مما استأثر الله بعلمه، ومع ذلك فقد حاول أن يفك رموز هذه الحروف معتدًا بنفسه أحياناً⁽⁷⁰⁾.

وبالرجوع إلى تفسير الشيخ نجده لا يتوانى في طلب معنى المتشابه من آيات الصفات، وخاصة منها ما يوهم ظاهره التشبيه في حق الباري ﷻ المتصف بالوحدانية المطلقة، والمنزّه عن كل نقص⁽⁷¹⁾. في حين نجده لا يؤوّل أحياناً، ومثال ذلك عندما أثبت الجسمية للعرش، في تفسير قوله تعالى من سورة طه: ﴿الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه: 05)⁽⁷²⁾.

وعلى كل حال يمكن القول إن الشيخ اطفئش قد تعامل مع نصوص القرآن الكريم بعلم، مستعملاً جميع مصادر التفسير المتعارف عليها بين العلماء، وقد كان موقفه من التأويل دليلاً ساطعاً، يبين لنا كيفية إعماله للعقل، والحدود التي تضبط هذا العقل، فإذا كانت اللغة والبلاغة أو المجاز على وجه التحديد، قد فتحا له مجالاً واسعاً في تأويل بعض الآيات المشككة أو الغريب لفظها، فإن العقل هو أيضاً وعن طريق مبدأ التنزيه المطلق الذي يتمسك به الإباضية في مفهومهم لعقيدة التوحيد، قد فتح له المجال لسبر أغوار المتشابه الغامض، وخاصة منه آيات الصفات الخيرية التي يفيد ظاهرها التشبيه والتجسيم والتحيز.. وغيرها من المعاني التي لا تتفق ومعنى آية التنزيه، وهي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: 11).

الخاتمة

وفي الأخير يمكن القول إن القطب اطفئش لم يكن بدعاً من الأمر في عالم التفسير، لا باعتباره إباضياً ولا باعتبار آخر، وإنما كان يصيب ويخطئ كما هو الحال بالنسبة لسائر المفسرين، وإن غلب عليه المنهج التقليدي العام القائم على تحليل آي القرآن الكريم. باعتقاد شتى الأدوات التفسيرية المتعارف عليها، سواء من طريق النقل أم من طريق العقل.

ولعلنا في النهاية نكون قد أسهمنا ولو بالقليل في تصحيح الرؤية من خلال نقد دراسة الذهبي وإعادة الأمور إلى نصابها، باعتماد المنهج القائم على ضرورة الرجوع إلى المصادر الأصلية ونبد العصية المذهبية المقيتة.

الهوامش:

⁽¹⁾ _ كان ذلك في سنة 1989، في بحث تقدمت به إلى جامعة عين شمس بالقاهرة لنيل درجة الماجستير في الآداب.

- (2) _ للأمانة فقد آثرنا الالتزام في الإحالات بالطبعة المعتمدة في بحثنا المذكور، وهي الطبعة الحجرية، مع الاستئناس بالطبعة العمانية.
- (3) _ الكتاب في الأصل أطروحة دكتوراه تقدّم بها صاحبها إلى جامعة الأزهر عام 1948م.
- (4) _ المهرجان (الملتقى) من تنظيم جمعية البلال الرستمية بمدينة غرداية (ميزاب) جنوب الجزائر عام 1981م.
- (5) _ ينظر: شريفي بلحاج عدون، التفسير ومناهجه عند علماء الإباضية، بحث ألقى في الملتقى الخامس عشر للفكر الإسلامي، الجزائر، 1980، ص 1.
- (6) _ وبخاصة الذين اهتموا بتصنيف المفسرين بحسب انتماءاتهم المذهبية، وهو تصنيف اعتمده المستشرقون وقلّدهم بعض الباحثين المسلمين، ينظر مثلاً: جولد تسيهر، مذاهب التفسير الإسلامي. محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون. وسائر من نقل عن الذهبي.
- (7) _ وهو ما حاول أن يقرّره الدكتور محمد حسين الذهبي الذي كان مقلداً لآراء أصحاب المقالات في موقفهم من الإباضية الذين يعدّونهم من الخوارج، ينظر: محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ص 288 وما بعدها.
- (8) _ ينظر على سبيل المثال: محسن عبد الحميد، دراسات في أصول تفسير القرآن الكريم، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط 2، 1984، ص 12. بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت، ط 2، 1986، ص 120 وما بعدها. صبري المتولي، منهج أهل السنة في تفسير القرآن الكريم، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1986، ص 210 وما بعدها.
- (9) _ محمد حسين الذهبي؛ التفسير والمفسرون، ج 2 ص 302، 303.
- (10) _ محمد عكي علواني، مفتش اللغة العربية في الطور الثانوي، متقاعد، وهو من إباضية الجزائر ومن مواليد قصر مليكة بميزاب، وبخته جاد أفردّه ل: تيسير التفسير هو الآخر، لا شك أنّه سيثري المكتبة الجزائرية والإباضية في الموضوع.
- (11) _ محمد مصطفى الخواجا، لا نعرف عنه شيء، كل ما في الأمر أننا اطلعنا عليه ضمن قائمة للرسائل المناقشة في موضوع منهج التفسير في شبكة الإنترنت .
- (12) _ أذكر على سبيل المثال وليد الطبطبائي الذي راسلني من الكويت بداية التسعينيات، مستعلما عن بعض المسائل المتعلقة بالموضوع، إلّا أنّي لم أجد له خبراً بعد ذلك، وأحسب أنّه لن يهمل دراسة منهج الشيخ ضمن جهود المفسرين الآخرين.
- (13) _ لقد أفردنا في رسالتنا للماجستير فصلاً كاملاً لتصويب ما أخطأ فيه الذهبي الحكم بشأن تفسير الإباضية والشيخ اطفيش خاصة، ينظر الفصل الثاني من القسم الثاني من الرسالة بعنوان: موقف الإباضية من تفسير القرآن الكريم.

- (14) _ ينظر موقفه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ سورة المائدة، آية 44. يراجع: اطفيش محمد بن يوسف، تيسير التفسير، ج2، ص 93.
- (15) _ الذهبي، التفسير والمفسرون، ج2، ص 306 وما بعدها.
- (16) _ شريفي بلحاج عدون، التفسير ومناهجه عند علماء الإباضية، ص 12. - طلاي إبراهيم، نظرة في تفاسير القطب، ص6.
- (17) _ ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، ص 39. - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج4، ص 174.
- (18) _ السالمي، عبد الله بن حميد، شرح طلعة الشمس، ج1، ص 183.
- (19) _ اطفيش محمد بن يوسف، تيسير التفسير، ج1، ص 48.
- (20) _ سورة المائدة، آية 2.
- (21) _ اطفيش محمد بن يوسف، تيسير التفسير، ج2، ص 3/2.
- (22) _ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج4، ص 174.
- (23) _ لقد ألف جلال الدين السيوطي كتابا ضخما في هذا النوع من التفسير، بعنوان "الدر المنثور في التفسير بالمأثور"، جمع فيه بضعة عشر ألف حديث. ينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج4، ص 214 وما بعدها. - الذهبي، التفسير والمفسرون، ج1، ص 243 وما بعدها.
- (24) _ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج4، ص 212. - وينظر: الذهبي، التفسير والمفسرون، ج1، ص 49 وما بعدها.
- (25) _ اطفيش محمد بن يوسف، تيسير التفسير، ج3، ص 104/103.
- (26) _ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار المنار، القاهرة، د.ت. ج3، ص104.
- (27) _ اطفيش محمد بن يوسف، تيسير التفسير، ج1، ص 228.
- (28) _ أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب الدييات، باب 31، حديث رقم 2683، ج2، ص895.
- (29) _ أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الدييات، باب 7، حديث رقم 4517، ج4، ص 654.
- (30) _ ينظر: المستدرك للحاكم، ج2، ص545.
- (31) _ اطفيش محمد بن يوسف، تيسير التفسير، ج1، ص 48.
- (32) _ ينظر على سبيل المثال: اطفيش محمد بن يوسف، تيسير التفسير، ج3، ص 800. ج6، ص644/640.
- (33) _ أخرجه أبو داود، لك. الأدب، باب 10، (من يقول إذا أصبح) ح رقم 5077، ج5، ص317، (بلفظ غيره).
- (34) _ اطفيش محمد بن يوسف، تيسير التفسير، ج1، ص 733/731.

- (35) _ ينظر: تيسير التفسير، ج2، ص 356.
- (36) _ ينظر: تيسير التفسير، ج1، ص 225/224.
- (37) _ ينظر: تيسير التفسير، ج6، ص 313/312.
- (38) _ جاء في كتاب "هميان الزاد" كثير من هذه الأحاديث. ولعل الشيخ اطفيش يوردها، بغرض الترغيب في القرآن الكريم والاعتناء به. ولما تفتن لذلك حاول أن يصرفها عن تفسيره "تيسير التفسير". ينظر: هيمان الزاد، ج1، ص164. - ج3، ص472/471. - تيسير التفسير، نهاية السور، مع التخريج. ج1، ص 477 (طبعة عمان). - ويراجع بوجه خاص تفسيره لأول سورة يس، حيث ينقل أحاديث ثم ينقلها: اطفيش محمد بن يوسف، تيسير التفسير، ج4، ص 987/986.
- (39) _ السالمي عبد الله بن حميد، شرح طلعة الشمس على الألفية، ج2، ص 79/78.
- (40) _ ينظر: تيسير التفسير، ج1، ص 228.
- (41) _ ينظر: تيسير التفسير، ج7، ص 444.
- (42) _ الإسرائيليات في عرف العلماء تعني ما داخل التفسير من ثقافات أهل الكتاب من اليهود والنصارى. وإنما سُميت بالإسرائيليات تغليبا للجانب الأكبر والأعم من الثقافتين. ينظر: الذهبي، التفسير والمفسرون، ج1، ص 166. - دائرة المعارف الإسلامية، مادة تفسير، طبعة دار الشعب، مجلد9، ص414.
- (43) _ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص 5.
- (44) _ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص 5. - ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، ص 42.
- (45) _ أحمد بن حمد الخليلي، جواهر التفسير، ص 32.
- (46) _ ينظر: هيمان الزاد، ج2، ص203 وما بعدها. تيسير التفسير، ج1، ص 126/125. بخلاف.
- (47) _ ينظر: تيسير التفسير، ج، ص 57/56.
- (48) _ ينظر على سبيل المثال لا الحصر: اطفيش محمد بن يوسف، تيسير التفسير، ج1، ص 710/188/128. - ج2، ص838. - ج3، ص905/902. وغيرها.
- (49) _ ينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص 260. - سميح عاطف الزين، الإعراب في القرآن الكريم، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1985، ص7 وما بعدها.
- (50) _ القارئ في "تيسير التفسير" يجد أدلة واضحة على أنه تفسير موجه أساسا للتعليم، وليس لعامة الناس، من بين ذلك، بعض العبارات التي يستعملها الشيخ اطفيش وهي توحى بأنه قالها من أجل غاية التعليم. فهو بعد أن يقرر قاعدة لغوية، أو تفسيراً معيّناً، فإنه يوقف الكلام بعبرة (ولا أعيده)، وكأنه يحث طلابه على الاهتمام.
- ينظر: اطفيش محمد بن يوسف، تيسير التفسير، ج1، ص 128.

- (51) _ ينظر: تيسير التفسير، ج1، ص 27/26.
- (52) _ ينظر: تيسير التفسير، ج1، ص 715.
- (53) - سورة المائدة، آية 101.
- (54) - اطفيش محمد بن يوسف، تيسير التفسير، ج2، ص 175/174.
- (55) - لقد اعتبر الإمام محمد عبده هذا الجانب من حلّ الألفاظ وإعراب الجمل، مما يجعل التفسير جافاً مبعداً عن المقصود. ينظر: أمين الخولي، التفسير، نشأته تدرجه وتطوره، ص70.
- (56) - ينظر: تيسير التفسير، ج1، ص 218.
- (57) - ينظر: تيسير التفسير، ج1، ص 226.
- (58) - ينظر: تيسير التفسير، ج1، ص 11.
- (59) - اطفيش محمد بن يوسف، تيسير التفسير، ج1، ص 313/312.
- (60) - ينظر: تيسير التفسير، ج6، ص 462.
- (61) - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص 55.
- (62) - ينظر: تيسير التفسير، ج6، ص 443.
- (63) - اطفيش محمد بن يوسف، تيسير التفسير، ج5، ص 97.
- (64) - لقد ذهب فريق من النحاة إلى جواز الاستشهاد بأشعار أصحابها مجهولون. فقد استشهد سيبويه في كتابه بنحو خمسين بيتاً مجهولة المصدر. يراجع: محمود زلط، منهج القرطبي في التفسير، دار الأنصار، القاهرة، (د.ت) ص286.
- (65) - ينظر: تيسير التفسير، ج5، ص 511.
- (66) - محمد رشيد رضا، تفسير المنار، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1972، ج3، ص138.
- (67) - اطفيش محمد بن يوسف، تيسير التفسير، ج1، ص 442.
- (68) - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص 349/348.
- (69) - لقد خاض في مثل هذا كثير من المفسرين، على الرغم من إجماع العلماء على أنها من المتشابه المبهم. ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص 36 وما بعدها. - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج3، ص 334 وما بعدها.
- (70) - ينظر: تيسير التفسير، ج1، ص 438/437.
- (71) - ينظر: تيسير التفسير، ج6، ص 390. ج2، ص 123. ج5، ص 38/37. ج5، ص 610.
- (72) - ينظر: تيسير التفسير، ج4، ص 88/87.

الضمانة القطب لشيخ التفسير من خلال كتابه: وفاء الضمانة

صالح البوسعيد

باحث-عمان

مقدمة

الحمد لله العزيز الحكيم، بيده الملك يعز من يشاء ويذل من يشاء، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أحسن الناس سيرة وأصفاهم سريرة، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد سلك الإمام القطب -رحمه الله تعالى- في كتابه (وفاء الضمانة بأداء الأمانة) مسلكاً فريداً لم يسبق إليه -فيما أعلم-، حيث آلى على نفسه أن يجمع أربعين حديثاً نبوياً في كل باب من أبواب العلم، ورغم قلة الوسائل المساعدة له في إنجاز هذا العمل الضخم إلا أن همته تخطت جميع الصعاب فاستطاع أن يجمع في كتابه (5880) حديثاً في مائة وسبعة وأربعين باباً من أبواب العلم.

وجمع هذا العدد الضخم من الأحاديث وانتقاؤها وتبويبها يحتاج بلا شك إلى منهجية واضحة، حيث اتهم الإمام القطب بأنه - ولأجل الوصول لأربعين حديثاً في كل باب - كان مضطراً لإيراد الضعيف والموضوع من الأحاديث في كتابه، فما هي المنهجية التي سار عليها القطب - رحمه الله - في كتابه من حيث كتب الحديث التي اعتمد عليها ونوعية الأحاديث التي ذكرها من حيث قيمتها الحديثية صحة وضعفاً ورفعاً ووقفاً وغيرها من الأمور المرتبطة بالصناعة الحديثية كذكر السند والحكم عليه وتكرار الحديث وشرح غريبه واستخراج الأحكام الفقهية منه.

كما أن الإمام القطب قدم لكتابه بمقدمة في غاية الأهمية عن مصطلح الحديث كونها تبحث في مصطلح الحديث وهو من المباحث القليلة التي تناولها علماء الإباضية بالبحث والدراسة

سنحاول في هذا البحث تسليط الضوء على كل ذلك ولو بشيء من الاختصار.

فإن وفقنا الله عز وجل فله المنة والفضل وحده، وإن كانت الأخرى ففسأله سبحانه أن يغفر

خطايانا ويسر لنا أمورنا.

المبحث الأول: حديث الأربعينات

أولاً: روايات الحديث:

روي حديث الأربعينات بعدد من الروايات أشهرها:

- 1- "مَنْ حَفِظَ عَلَى أُمَّتِي أَرْبَعِينَ حَدِيثًا لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقِيهَاً عَالِماً"
- 2- "مَنْ حَفِظَ عَلَى أُمَّتِي أَرْبَعِينَ حَدِيثًا فَهُوَ مِنَ الْعُلَمَاءِ"
- 3- "مَنْ حَفِظَ عَنْ أُمَّتِي أَرْبَعِينَ حَدِيثًا كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ"
- 4- مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَحْفَظُ عَلَى أُمَّتِي أَرْبَعِينَ حَدِيثًا لِيَعْلَمَهُمْ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ إِلَّا بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقِيهَاً عَالِماً"
- 5- "مَنْ حَفِظَ عَلَى أُمَّتِي أَرْبَعِينَ حَدِيثًا بَعَثَ فَقِيهَاً ، وَكُنْتُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَاهِداً وَشَفِيعاً"
- 6- "مَنْ حَفِظَ عَلَى أُمَّتِي أَرْبَعِينَ حَدِيثًا ، مِنْ أَمْرِ دِينِهَا بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقِيهَاً ، وَكُنْتُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَافِعاً وَشَهِيداً"

وقد روي هذا الحديث من طريق عدد من الصحابة هم: عبدالله بن عباس وأبو الدرداء عويمر بن مالك وأبو هريرة ومعاذ بن جبل وأنس بن مالك وعبدالله بن مسعود وعبدالله بن عمر ثانياً: منزلة الحديث عند العلماء:

رغم كثرة روايات هذا الحديث إلا أن عدداً من العلماء حكموا بضعفه أو حتى بوضعه، فقد قال عنه ابن حجر العسقلاني في (إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة: "رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ مِنْهُمْ : عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَبُو الدَّرْدَاءِ، وَابْنُ عُمَرَ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَأَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ، وَأَنْسُ بْنُ مَالِكٍ، بِطُرُقٍ كَثِيرَاتٍ بِرَوَايَاتٍ مُتَنَوِّعَاتٍ، وَاتَّفَقَ الْحَفَاطُ عَلَى أَنَّهُ حَدِيثٌ ضَعِيفٌ، وَإِنْ كَثُرَتْ طُرُقُهُ"¹.

وقال عنه الشوكاني: "رواه ابن عبد البر وضعفه، وقال في الذيل: هو من أباطيل إسحاق الملقبي، وقال في المقاصد: طرقه في جزء، ليس فيها طريق تسلم من علة قاذحة، وقال البيهقي: هو متن مشهور، وليس له إسناد صحيح"²

وقد فصل الكلام فيه ابن الجوزي في (العلل المتناهية) حيث تتبع طرقه طريقاً طريقاً فلم تحل طريق منها من علة قاذحة، ثم نقل عن الدارقطني قول: "كُلُّ طَرُقِ هَذَا الْحَدِيثِ ضِعَافٌ وَلَا يَثْبُتُ مِنْهَا شَيْءٌ"³

ثالثاً: تعليل القطب لعمله بهذا الحديث:

لم يكن الإمام القطب غافلاً عما قيل في هذا الحديث وطرقه حيث يقول: "واتفق الحفاظ على أن الحديث برواياته وكثرة طرقه ضعيف إذ لا يخلو طريق منها أن يكون فيها مجهول أو معروف بالضعف..."⁴، ومع ذلك فإنه لم ير بأساً في العمل به، وقد تدرج في تعليقه للعمل به.

فأولاً: لم يسلم بأن هذا الحديث موضوع بل ولا هو ضعيف شديد الضعف وإنما هو - بسبب كثرة طرقه وليس كل طرقه فيها كذاب أو متهم بالكذب - ضعيف خفيف الضعف.

وثانياً: رجح القطب رحمه الله جواز العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال إذا لم يترتب على العمل به مفسدة أو تحليل أو تحريم أو تضييع لحق الغير.

وأخيراً: فإنه ذهب إلى أن جمعه لهذه الأربعينات لم يكن عن اعتماد على هذا الحديث وحده وإنما هو داخل تحت عموم الأحاديث الحادثة على تبليغ الحديث ونقله.

وفي ذلك يقول: "وكما لا يعمل بالموضوع فكيف عمل به أئمة فخرجوا الأربعينات اعتماداً عليه؟ ويجاب بأنه لا نسلم أنه شديد الضعف لأنه (أي الحديث شديد الضعف) لا يخلو طريق من طرقه عن كذاب أو متهم بالكذب وليس هذا الحديث كذلك، واتفقوا على جواز العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال لأنه لا يترتب عليها تحليل أو تحريم أو تضييع حق الغير، وفي حديث ضعيف عنه عليه السلام: "من بلغه عني ثواب عمل فعمله حصل له أجره وإن لم أكن قلته"، واعتراض بعض بأن الفضائل تتلقى من الشرع، فإثباتها بالحديث الضعيف اختراع عبادة وشرع في الدين بما لم يأذن به الله، رد هذا الاعتراض أن الإجماع لكونه قطعياً تارة وظنياً ظناً قوياً أخرى لا يرد بمثل ذلك لو لم يكن عنه جواب فكيف وقد اتضح الجواب بأنه ليس من باب الاختراع والشرع المذكورين وإنما هو ابتغاء فضيلة ورجاءها بإمارة ضعيفة من غير ترتيب مفسدة، ولئن سلمنا ذلك لنقولن: العمدية في الأربعينات هي ما ورد من الأحاديث في إحياء الحديث مثل قول عليه السلام: "نضر الله امرءاً..." الحديث، وقوله عليه السلام: "ليبلغ الشاهد منكم الغائب"، وقوله عليه السلام: "بلغوا عني ولو آية" أي فكيف بحديث وذلك أن القرآن والحمد أكثر شهادة وحفظاً في زمانه عليه السلام عما بعده، فبالغ بالآية، والله أعلم"⁵

المبحث الثاني: مقدمة مصطلح الحديث

أولاً: أهمية المقدمة:

صدر الإمام القطب رحمه الله كتابه (وفاء الضمانة بأداء الأمانة في فن الحديث) بمقدمة مهمة عن مصطلح الحديث، وتنبع أهمية تلك المقدمة من كون مؤلفات الإباضية في مصطلح الحديث خاصة قليلة جداً، ولذا فإن هذه المقدمة تكتسب أهمية خاصة من كونها توضح القواعد التي اعتمدها الإباضية في تعاملهم مع الأحاديث المروية عن الرسول عليه السلام من حيث قبولهم أو

ردهم لها، ورغم ما قد يبدو على المقدمة من نقل للتعريفات والتفريعات والأمثلة والأحكام من كتب أهل الحديث من المذاهب الأخرى إلا أن هذا لا يعني التبعية بقدر ما يدل على التوافق في القواعد العامة، على أنه لا ضرر في التوافق في التعريفات خاصة وذلك لأن التعريفات والتقسيمات تعنى بالأنواع المختلفة للأحاديث، ولكن يمكن أن ينفرد كل مذهب بأحكامه الخاصة على تلك الأنواع، كما إن الاختلاف قد يظهر بشكل أوضح في تطبيق تلك القواعد.

ثانياً: وصف المقدمة:

جاءت المقدمة (في مصطلح الحديث) في خمس وعشرين صفحة تقريباً، وقد اشتملت على الكلام عن أغلب أنواع الحديث، فقد تحدث المؤلف فيها عن أقسام الحديث عند العلماء من حيث القبول والرد (الصحيح والحسن والضعيف والموضوع) وأقسامه من حيث قائله (القدسي والمرفوع والموقوف والمقطوع) وأقسامه من اتصال السند وانقطاعه (المتصل والمسند والمرسل والمنقطع والمعضل والمعلق) وأقسامه من حيث عدد رواته (المتواتر والآحاد بأقسامه: المشهور والعزیز والغريب).

كما اشتملت المقدمة على الكلام عن أنواع الحديث الضعيف مثل المعل والمضطرب والمدرج والمدلس والشاذ والمنكر والمقلوب وغيرها، وكذلك على الكلام عن بعض الأنواع المشتركة بين الصحيح والحسن والضعيف كالحديث المعنعن والمؤنن والمديح والمسلسل وغيرها، وكذلك تكلم المؤلف عن الإسناد العالي والنازل والناسخ والمنسوخ ومختلف الحديث والمتابع والشاهد ومسائل أخرى تتعلق بمصطلح الحديث.

وطريقة المؤلف في كل قسم من هذه الأقسام أنه يذكر تعريفه واختلاف العلماء في ذلك إن وجد، ثم يذكر حكمه وما قيل فيه، ثم يختم بمثال له أو أكثر بحيث يأخذ القارئ فكرة واضحة عن كل نوع من أنواع الحديث.

وفي بعض الأحيان تبدو بصمة المؤلف واضحة حين يصرح برأيه في المسألة، أو حين يورد مثلاً من عنده لم يذكر في الكتب السابقة، ومن ذلك قوله في الحديث الموقوف الذي يعطى حكم المرفوع: "وقول أنس: ما رأيت أشبه صلاة بصلاة رسول الله ﷺ من عمر بن عبد العزيز، فذلك رفع بأنه ﷺ يصلي كما رأيت عمر بن عبد العزيز يصلي، هذا ما ظهر لي"⁶، ومن ذلك أيضاً قوله: "وقد يستعمل (أي الموقوف) في غير الصحابي مقيداً نحو وقفه أبو عبيدة على جابر بن زيد ونحو وقفه أبو عبيدة على ضمام"⁷، ويقول في مكان آخر عند الكلام عن أنواع الحديث العالي: "... والقرب من إمام من أئمة ذي صفة عالية كالحفظ والضبط كالربيع بن حبيب وأبي عبيدة منا وكمالك والشافعي من غيرنا، والقرب بالنسبة لرواية أصحاب كتب الحديث المعبرة كالقرب من مسند الربيع..."⁸

كما أن المؤلف قد يذكر بعض الاحترازاات التي يتخذها الإباضية في تعاملهم مع أحاديث غيرهم حيث يقول: "وإذا روى قومنا حديثاً صحيحاً أثبتناه وأولناه تأويلاً صادقاً إلى ما يوافق القرآن إن كان ظاهره غير القرآن"⁹، ويوضح في مكان آخر أن الإباضية يعتبرون أحاديث الربيع أصح من غيرها فيقول: "وأصح الأحاديث ما رواه الربيع بن حبيب عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد عن الصحابي عن رسول الله ﷺ لمزيد ورع هذا السند وضبطه، وأما كتب قومنا فأصحها في الحديث كتاب البخاري ثم كتاب مسلم"¹⁰

المبحث الثالث: منهج القطب في الأحاديث

أولاً: مصادره الحديثية:

أشار الإمام القطب إلى بعض الكتب التي سينقل منها وإن لم يصرح بذلك حيث قال في الفصل الذي خصصه لمصطلح الحديث: "وأصح الأحاديث ما رواه الربيع بن حبيب عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد عن الصحابي عن رسول الله ﷺ لمزيد ورع هذا السند وضبطه، وأما كتب قومنا فأصحها في الحديث كتاب البخاري ثم كتاب مسلم، وقالوا أنهما أصح من موطأ مالك..."¹¹.

فالكتب التي ينقل منها الإمام القطب أحاديث كتابه غالباً هي:

1. الجامع الصحيح للإمام الربيع بن حبيب: حيث اعتمد القطب عليه كثيراً خاصة في باب توحيد الله عز وجل، وربما صدر به أحاديث الباب¹²، والجامع الصحيح للإمام محمد بن إسماعيل البخاري¹³، والجامع الصحيح للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري¹⁴، والجامع الصحيح للإمام الترمذي¹⁵، وسنن ابن ماجه القزويني¹⁶، والمصنف لابن أبي شيبة¹⁷، وسنن النسائي¹⁸، ومسند الإمام أحمد بن حنبل¹⁹، وسنن أبي داود²⁰، وسنن الدارقطني²¹، وسنن البيهقي²².

وهناك كتب أخرى كتفسير أبي الليث²³، وكتاب ابن أبي حاتم²⁴، وتفسير ابن جرير الطبري²⁵، وصحيح ابن خزيمة²⁶ وصحيح البزار²⁷، وكتاب أبي نعيم²⁸، ومسند أبي داود الطيالسي²⁹، وسنن البغوي³⁰ ونحن لا نستطيع الجزم فيما إذا كان قد نقل تلك الأحاديث من مصدرها الأصلي أم أنه قد استعان بواسطة نقل منها تلك الأحاديث.

ثانياً: منهجه في نوعية الأحاديث من حيث القائل:

حرص الإمام القطب رحمه الله تعالى أن تكون كل الأحاديث الأربعة في الباب من الأحاديث المرفوعة إلى الرسول سواء منها القولية أو الفعلية أو التقريرية ولكنه لا يمانع في بعض الأحيان من ذكر أحاديث موقوفة على الصحابة، وذلك ربما لأنه يعتبر تلك الأحاديث من نوعية الأحاديث التي يصفها المحدثون بأنها موقوفة تعطى حكم المرفوع لأنها ليست مما يقولها أو

يفعلها الصحابي من تلقاء نفسه وإنما لا بد أنه قد اطلع على ما يؤيد قوله أو فعله من سنة الرسول ﷺ، على أنه قد أشار إلى أنه قد يكمل الأربعين بالموقوف على الصحابة حيث قال في المقدمة "فهذا كتاب في أحاديث ترويهما الصحابة رضي الله عنهم مما له سند عند العلماء، ووصلنا من لدنهم وسميته (وفاء الضمانة بأداء الأمانة)، يشتمل على مقدمة وأربعين حديثاً في كل فن، وقد تتم بالموقوف الذي كالمتمصل المألوف"³¹.

ومن أمثلة ذلك انه ذكر آثاراً عديدة في حد شرب الخمر عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن عباس وابن مسعود وسلمان الفارسي، وذلك لأن تلك الآثار مستندة إلى ما فهمه أولئك الصحابة من سنة رسول الله في الحدود عامة وفي حد شارب الخمر على وجه الخصوص³².

ومن ذلك أنه ذكر في باب الدييات عدد من الآثار المروية عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه³³ لأن موضوع الدييات ليس مما يقال بالرأي وإنما هو مما حفظه أو فهمه عمر من سنة الرسول ﷺ.

ثالثاً: منهجه في ذكر الأسانيد:

التزم الإمام القطب عند ذكره للحديث على ذكر مصدره والصحابي الراوي للحديث أو من دون الصحابي إذا كان الحديث عبارة عن حدث أو قصة يرويها الراوي، ويقوم الإمام بحذف سلسلة الرواة التي تقع بين صاحب الكتاب والراوي المباشر للحديث، فجاءت أغلب الأحاديث بهذه الصيغة مثلاً (قال البخاري إلى عبد الله بن عمر) (قال ابن ماجه إلى أنس) وهكذا، غير أنه قد يخرج عن هذا النهج في بعض الأحيان فيذكر السند كاملاً إذا كان السند قصيراً خاصة مع أحاديث الإمام الربيع بن حبيب، وقد يذكر السند مع أنه طويل في حالات نادرة، ومن ذلك قوله: "قال أبو داود: حدثنا أحمد بن حنبل، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا عبد الله بن العلاء، حدثني أبو زياد عبيد الله بن زياد الكندي عن بلال أنه حدثه أنه أتى رسول الله ﷺ ليؤذنه بصلاة الغداة..."³⁴

أما إذا كان الحديث مروياً في أكثر من مصدر وأراد أن يعزو إلى تلك المصادر جميعاً فإنه يجمع بينها فيقول مثلاً (قال ابن ماجه وعثمان ابن أبي شيبة إلى حذيفة رضي الله عنه)³⁵.

وقد يقوم بدمج الروايات المختلفة وهي طريقة متبعة لدى المحدثين، فعوضاً عن ذكر كل رواية على حدة يقومون بدمجها غذا كانت متقاربة في الألفاظ، وقد اتبع الإمام القطب هذه الطريقة ومن أمثلة ذلك قوله: "قال الربيع بن حبيب بسنده وعبدالرزاق عن معمر عن الحسن، ومالك وسفيان عن الزهري، عن أبي سلمة: يدخل حديث بعض في بعض، عن أبي هريرة وغيره: كان رسول الله ﷺ يرغب في قيام رمضان من غير أن يأمرهم بعزيمة...."³⁶

رابعاً: منهجه في الأحاديث من حيث القبول والرد:

اعتمد الإمام القطب في مصادره الحديث بشكل أساسي على الكتب المشهورة كمسند الإمام الربيع وصحيح البخاري ومسلم والسنن الأربع وغيرها من أمهات الكتب، ولكنه فيما يبدو لم يلتزم بإيراد الأحاديث المقبولة، بل إنه قد يورد أحاديث ضعيفة بل موضوعة، وقد حكم هو بنفسه على بعض تلك الأحاديث بالوضع، ومن ذلك أنه أورد حديث كعب الأخبار: "احتلم آدم فخلقوا من نطفته والتراب" ثم قال: "لا يصح هذا لأن الأنبياء لا يحتلمون"³⁷

وقليلاً ما يتكلم المؤلف على منزلة الحديث من حيث القبول والضعف، ومن أمثلة ذلك قوله: "قال أحمد وأبو داود يساند ضعيف"³⁸.

كما إنه أورد بعض الأحاديث في أمور لا يؤمن بها الإباضية كأحاديث المهدي مثلاً³⁹.
خامساً: منهجه في التعليق على الأحاديث:

لم يرد الإمام القطب رحمه الله تعالى لكتابه أن يكون كتاباً حديثياً بحثاً ولذا فقد ضمنه الكثير من الفوائد اللغوية والعلمية، فقد أكثر من توضيحه لغريب ألفاظ الحديث، كما أكثر من التعليق على الحديث من حيث استخراج الأحكام الفقهية منه وذكر أقوال العلماء فيها، ولذا فإن القاري يجد نفسه أمام عالم فقيه وليس أمام محدث يجمع الأحاديث فحسب، والأمثلة على ما ذكر كثيرة يمكن أن يجدها القاري في أي صفحة من صفحات الكتاب.

الخاتمة

هذا ما وقفني الله لكتابته حول هذا الموضوع، وأخيراً فإنني أوصي بطباعة كتاب (وفاء الضمانة بأداء الأمانة) طبعة جديدة محققة تحقيقاً علمياً، فإن من شأن ذلك أن يجعل الفائدة من الكتاب فائدة عظيمة، حيث يمكن الاستفادة من الكتاب حيث إن الكتاب مفيد جداً لمن يريد أن يعرف ما ورد من الأحاديث في باب ما من أبواب العلم.

غير أن ما يصعب الاستفادة من الكتاب عدم تبين مرتبة كل حديث من حيث القبول والرد بشكل دقيق بحيث يجد القاري طمأنينة حين يستدل بالحديث، ولذا فإن أهم ما يحتاجه الكتاب أن تدرس أحاديثه وتخرج تخريجاً علمياً يبين مرتبة كل حديث.

الهوامش:

- 1 وفاء الضمانة 33؟1
- 2 الشوكاني، الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة
- 3 ابن الجوزي، العلل المتناهية في الأحاديث الواهية
- 4 وفاء الضمانة 34/1
- 5 وفاء الضمانة 35-34/1
- 6 وفاء الضمانة 13/1
- 7 وفاء الضمانة 12/1
- 8 وفاء الضمانة 30/1
- 9 وفاء الضمانة 9/1
- 10 وفاء الضمانة 7/1
- 11 وفاء الضمانة 7/1
- 12 انظر على سبيل المثال: وفاء الضمانة 154/1، 133/5
- 13 انظر على سبيل المثال: وفاء الضمانة 192-171/6 حيث كانت كل أحاديث هذا الباب تقريبا من صحيح البخاري.
- 14 انظر على سبيل المثال: وفاء الضمانة 95/5
- 15 انظر على سبيل المثال: وفاء الضمانة 119/6
- 16 انظر على سبيل المثال: وفاء الضمانة 138/5
- 17 انظر على سبيل المثال: وفاء الضمانة 121/5
- 18 انظر على سبيل المثال: وفاء الضمانة 95/5
- 19 انظر على سبيل المثال: وفاء الضمانة 95/5
- 20 انظر على سبيل المثال: وفاء الضمانة 91-87/5
- 21 انظر على سبيل المثال: وفاء الضمانة 72/5
- 22 انظر على سبيل المثال: وفاء الضمانة 72/1
- 23 انظر على سبيل المثال: وفاء الضمانة 63/6، 137-135/5
- 24 انظر على سبيل المثال: وفاء الضمانة 193/6
- 25 انظر على سبيل المثال: وفاء الضمانة 193/6
- 26 انظر على سبيل المثال: وفاء الضمانة 270/6
- 27 انظر على سبيل المثال: وفاء الضمانة 71/6
- 28 انظر على سبيل المثال: وفاء الضمانة 193/6
- 29 انظر على سبيل المثال: وفاء الضمانة 57/6
- 30 انظر على سبيل المثال: وفاء الضمانة 57/6
- 31 وفاء الضمانة 5/1

³² وفاء الضمانة 30-26/5

³³ وفاء الضمانة 79-77/5

³⁴ وفاء الضمانة 232/16، وانظر أمثلة أخرى 246/1، 247/1

³⁵ وفاء الضمانة 106/6

³⁶ وفاء الضمانة 233/1

³⁷ وفاء الضمانة 27/6

³⁸ وفاء الضمانة 132/5

³⁹ وفاء الضمانة 11-9/6

أثر الشيخ أحمد بن يوسف اطفيش في علم مصطلح الحديث وعصره في السنة

من خلال كتابه (جامع الشمل ووفاء الضمان)

قاسم حاج احمد

قسم الحقوق المركز الجامعي غرداية

غرداية ص ب 455 غرداية 47000 الجزائر

تمهيد

يعد العلامة احمد بن يوسف اطفيش من علماء الإباضية القلائل الذين تركوا آثارا ومؤلفات في السنة النبوية وعلومها، سواء في المشرق أو المغرب، والغالب فيما دونه في هذا الفن إما شرح لمصنفات السنة كحاشيته على مسند الربيع بن حبيب، وترتيبه وتعليقه على مدونة أبي غانم الخراساني، أو تجميع للأحاديث المروية في أبواب معينة، وهو ما يمكن أن نسميه الحديث الموضوعي، ومن ذلك كتابه في الرغائب والفضائل: "أجور الشهور"، الذي جمع فيه ما ورد من أحاديث وآثار في فضائل الأيام والليالي، و"السيرة الجامعة من المعجزات اللامعة"، وهو كتاب في الشمائل، وكذا كتابيه اللذين نحن بصدد دراستهما وهما "جامع الشمل في حديث خاتم الرسل" و"وفاء الضمانة بأداء الأمانة"، حيث أورد فيهما ما استطاع من أحاديث من مختلف مصادر السنة في عموم أبواب الفقه والعقيدة والأخلاق، وقد خصص في كلا الكتابين حيزا أورد فيه نبذا عن مصطلح الحديث كما هو مشهور في كتب المصطلح مع بعض الإضافة لما اختص به الإباضية من آراء.

وأحاول في هذه المداخلة تقديم وصف للكتابين وعرض لموضوعاتهما، وبيان لبعض آراء الشيخ في علوم الحديث من خلال ما ورد فيهما. وفق الخطة الآتية:

➤ أولاً: تحقيق نسبة الكتابين إلى المؤلف.

➤ ثانياً: وصف النسخ المخطوطة للكتابين.

➤ ثالثاً: وصف مضمون قسم المصطلح في الكتابين.

رابعاً: آراء الشيخ اطفيش في السنة من خلال الكتابين.

أولاً: تحقيق نسبة الكتابين إلى المؤلف.

لا يختلف اثنان في أنَّ صحَّة نسبة الكتابين إلى المؤلف ثابتة لأمرين:

- عدم وجود نسخة خطية أو مطبوعة تثبت خلاف ذلك، مع ما تؤكده الدراسات الموجودة حول الشيخ المؤلف التي تنسب الكتابين إليه ضمن مؤلفاته.

- تصريح الشيخ المؤلف نفسه بنسبتهما إليه، وذكرهما خلال بعض تأليفه، وأذكر موضعاً منها على سبيل المثال في تيسير التفسير، عند تفسير سورة الأحزاب:

قال: "وكانت كتب الحديث غير موجودة في مضاب، ورأى مالكي عالم من أهل مكة ينسخ شرح الثيل (للمؤلف) في مكة، ولم يجد فيه الحديث كثيراً، فأعطاني البخاري ومسلماً والترمذي وابن ماجة والنسائي وأبا داود، وغير ذلك، وأنا حاضر في مكة، فانتفعت بتلك الكتب، كما انتفعت بصحيح الربيع بن حبيب، فجمعت منها وفاء الضمانة وجامع الشمل في حديث خير الرسل، وما خالفونا فيه أولته، وإن كان هو الحق أبقيته وصحَّحته".⁽¹⁾

وعليه فالنسبة واضحة، وعنوان الكتابين كذلك: "جامع الشمل في حديث خاتم الرسل"، و"وفاء الضمانة بأداء الأمانة".

هذا، وتوجد في مواضع من تأليفه إشارة منه إلى كتاب الجامع أو الوفاء باسم "الصحيح"، ومن ذلك قوله: "وصحَّح الحاكم حديث «والذي نفسي بيده إنه لمكتوب عند الله تبارك وتعالى في السماء السابعة: حمزة بن عبد المطلب أسد الله، وأسد رسوله»، لكن تعقب، وورد من طرق أنَّ الملائكة غسلته، وصحَّحه الحاكم، لكن تعقب، ورويت بفضل الله ورحمته في صحيحي الذي منَّ الله به عليّ مع قلة علمي الذي جعلته تماماً لترتيب مسند الربيع بن حبيب وما ألحق به، ما يدل على أن تعديد فضائل حمزة عند موته جائز وأنه مختص بذلك عن غيره".⁽²⁾

ثانياً: وصف النسخ المخطوطة للكتابين.

لا بأس أن أورد هنا وصفا للنسخ المتوفرة للكتابين ببعض مكاتب وادي ميزاب، وإن كان جامع الشمل قد طبع طبعة معاصرة، وقد قام بتحقيقه وتخريج أحاديثه الأستاذ محمد عبد القادر عطا، وصدر الكتاب في مجلدين، من دار الكتاب العلمية ببيروت سنة 1887، ولكنه نقل قسم المصطلح دون تحقيق، وكان اعتماده على الطبعة الحجرية للمطبعة البارونية بالقاهرة.

كما حققه أ. عبد الرحمان عميرة وطبع في مجلد واحد، ولم يقم هو أيضاً بتحقيق قسم المصطلح بطريقة وافية، وإنما اكتفى بالترجمة لبعض الأعلام الواردة، معتمداً هو أيضاً على الطبعة الحجرية.

وأما وفاء الضمانة فقد طبع طبعة حجرية في المطبعة البارونية، وطبع في سلطنة عمان طبعة عصرية، في ثمانية أجزاء.

فأما كتاب جامع الشمل، فالطبعة الحجرية المتوفرة له، والتي اعتمدها محققا الكتاب، توجد منها نسخة في مكتبة "دار إروان" بمدينة العطف، مصنفة ضمن الكتب الشرعية، في مجلد واحد من 426 صفحة من الحجم المتوسط، تتضمن الصفحة الواحدة 25 سطراً، ويشمل قسم المصطلح 30 صفحة تقريباً (436/406)،

في آخر الكتاب قصيدة موجزة أشاد فيها الشيخ المؤلف بمعلمه في الفن أخوه إبراهيم بن يوسف اطفيش، وفي أول الكتاب البدء بسرد الفهرس، وفي أعلى الصفحة مكتوب بالصمغ "محمد بن إبراهيم بن محمد بن أبي علي"، وفي الصفحة الموالية: (هذا كتاب يسمى جامع الشمل في حديث خاتم الرسل، تأليف الإمام العلامة الشيخ محمد بن الحاج يوسف اطفيش نفعنا الله بعلومه والمسلمين. آمين)

وفي آخر الكتاب: (قد تم طبع هذا الكتاب بإعانة الملك الوهاب في غرة شهر الله المبارك ذي الحجة الحرام، سنة ألف وثلاثمائة وأربعة، على ذمة المطبعة البارونية، جعلها الله عامرة بجاه خير البرية، تم).

ويبدو أن النسخة المعتمدة في الطبعة ليست من نسخة الشيخ المؤلف بخط يده، ذلك أننا نجد في البداية: (بسم الله الرحمن الرحيم، قال الإمام العلم العلامة الحبر البحر الفهامة، وحيد دهره وفريد عصره الشيخ محمد بن يوسف اطفيش المغربي رضي الله عنه ونفعنا به آمين: قال رسول الله ﷺ...) فلم يأت الخطاب بضمير المتكلم، مع ما فيه من الإطناب.

وأما "وفاء الضمانة" فله نسخة مخطوطة، أفادني بصورة طبق الأصل لها الأستاذ الفاضل أحمد بن حمو كزوم من مكتبة "آل يدّر" ببني يزقن، والملاحظ أن قسم المصطلح ورد في أول الكتاب عكس كتاب الجامع، ويشمل 17 صفحة تقريباً، برقم فهرس (65)، عدد الأوراق 62، مخروم الآخر، مكتوب بخط مغربي واضح، برتقالي وبني، الأول ضمن مجموع به 314 ورقة من 1 وإلى 62 ظ* في وجه الجريدة الثانية: وهذه كتب زرقون محمد بن الحاج اسماعيل بن الحاج ابراهيم*** أخذ اسم "نا"، (الناسخ)، و تاريخ النسخ من الكتاب الثاني في المجموع من 173 ظ* (ظهر الورقة).

وأما الطبعة الحجرية، فتقع في ثلاثة أجزاء، والجزء الأول يتضمن قسم المصطلح، ويشمل 25 صفحة تقريباً، وفي أول الكتاب -بعد الفهرست والعنوان:

(...فهذا كتاب في أحاديث ترويهما الصحابة رضي الله عنهم، ممّا له سند عند العلماء،

ووصلنا من لدنهم، وسميته وفاء الضمانة بأداء الأمانة)، وفي آخره: (قد تم هذا الكتاب المستطاب بإعانة الملك الوهاب بالمطبعة البارونية الكائنة بمصر المحمية، سنة ألف وثلاثمائة وستة هجرية على صاحبها أفضل السلام وأزكى التحية، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا).

ويبدو أن النسخة المعتمدة هي من خط المؤلف لورود (...وسميته...)، بضمير المتكلم، خلافاً لمخطوطة "آل يدّر" التي لم يرد فيها ذلك.

ثالثاً: وصف مضمون قسم المصطلح في الكتابين.

لا بأس أن أسرد هنا مباحث المصطلح في كلا الكتابين للمقارنة بينهما:

1- مباحث المصطلح في جامع الشمل:

ذكر الحديث المرسل، المنقطع والمعضل، المقطوع، الصحيح، المسلسل، الحسن، الصالح، المضعف، الموصول، الضعيف، المسند، المرفوع، الموقوف، الشاذ، المنكر، الغريب، المعلل، المعلول، الموضوع، الشاهد، المتروك، السماع، المستفيض، المشهور، العزيز، الفرد، المقلوب، المزور، التدليس، المهمل، المعنعن، المؤنن، والمعلق، المثق، المفترق، المؤلف، المختلف، والإبهام، الاعتبار، النازل، العالي، الأثر، الخبر، المضطرب، المتواتر، النازل، المديج، المصحف، الناسخ والمنسوخ.

2 - مباحث المصطلح في وفاء الضمانة:

الحديث الصحيح، الصالح، الضعيف، المتواتر، المضعف، المسند، المرفوع، الموقوف، الموصول، المرسل، المقطوع، المنقطع، المعضل، المعنعن، المؤنن، المعلق، المفرد، الشاذ، المنكر، المضطرب، الموضوع، المقلوب، المركب، المنقلب، المديج، المصحف، الناسخ والمنسوخ، المختلف، الغريب، المعلل، المدلس، المدرج، المشهور، العالي، النازل، المسلسل.

- نلاحظ أن الكتابين اشتركا في 34 عنواناً من 54 عنواناً، اختص الوفاء بـ 07 عناوين من 41 عنواناً، واختص الجامع بـ 13 عنواناً من 46 عنواناً.

- عدم التوافق في الترتيب، ولا يظهر إن كان الشيخ المؤلف قد اعتمد تقسيماً واضحاً للمباحث.

- لم أتمكن من التوصل إلى معرفة السابق من اللاحق بين الكتابين (غير تاريخ الطبع)، ولو قلنا من باب كون الوفاء أكبر وأوسع أنه جاء بعد الجامع، لم يسعنا ذلك، لأننا نجد في الجامع عناوين غير موجودة في الوفاء، وربما يفصل ويذكر أقوالاً في الجامع لا يذكرها في الوفاء، وكان المفروض إن كان الوفاء لاحقاً أن يكون مستوعباً لما جاء في الجامع، وهذا لم يكن.

وقد قال لي الأستاذ أحمد بن حمو كروم: "في الطباعة: الجامع طبع سنة 1304، فهو أسبق من الوفاء الذي طبع سنة 1889/1306م... في نظري الجامع أسبق لأنه يعتبر تبويب الجامع الصغير للسيوطي، الذي ألف على شكل معجم، لأنه هو الكتاب الوحيد الذي كان يعتمد عليه الأصحاب (من ميزاب) أكثر، ويولون له الاهتمام، إذ وجدته في عدد من مکتبات المخطوط في وادي ميزاب، وهو يشير فيه في الأخير إلى معلّمه لهذا الفن، وهو شقيقه ح إبراهيم بن يوسف، وهذا كان في الصغر".⁽³⁾

لكن يبدو أنّ هذه القرائن لا تكفي، لأنه لا سنة الطبع، ولا اعتماد كتاب قديم يدلّان بالقطع على قدم المخطوط في حالة المقارنة كهذه، والذي تراءى لي -والله أعلم- أنّ الكتّابين قد ألفا في زمن واحد، أو على الأكثر في زمن متقارب، يقدر بالسنة أو السنتين، وجمعه بالعطف بين الكتّابين في نصّ التيسير السابق ذكره يؤيد هذا، وتبقى سنة الطبع دليلاً محتملاً لأسبقية الجامع، والله أعلم.

- نلاحظ أنّ المرجع الأساس للشيخ المؤلّف في تدوين قسم المصطلح في كلا الكتّابين، هو "إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري" للقسطاني، إذ نجد تطابقاً في مواضع منهما، يقوم الشيخ المؤلّف بعده بالتعليق والتوضيح، أو إضافة قول آخر عليه، ويحرص على إبداء رأي الإباضية، وذكر بعض العلماء كجابر بن زيد وأبي عبيدة مسلم والربيع بن حبيب وابن بركة... إلخ. كما اعتمد على جمع الجوامع للمحلي، ومقدمة ابن الصلاح، ومعرفة علوم الحديث للحاكم، والإرشاد للخليلي، ومقدمة شرح مسلم للنووي، مع التقريب له أيضاً. وكتب الحديث طبعاً.

رابعاً: بعض آراء الشيخ اطفيش في السنة من خلال الكتّابين.

أورد هنا بعضاً من آراء الشيخ اطفيش في علوم الحديث ومنهجه في نقد السنة، والتي ضمّنها في كلامه عن مباحث المصطلح، وأركز فقط على ما قد يختلف فيه الإباضية عن غيرهم دون المباحث المشهورة والمتفق عليها.

1- يجعل الشيخ اطفيش القرآن الكريم مقياساً لقبول وردّ الروايات، فما وافق القرآن منها فهو مقبول، وما خالفه فهو مكذوب به، يقول: "والحديث الموافق للقرآن مقبول، وكذا المُجمع عليه، ويُردّ ما خالفه؛ لأنه مكذوب فيه عنه ﷺ، وبعض الأحاديث بعض صحتها تحتل التأويل".⁽⁴⁾

وعمدة الشيخ في ذلك هو حديث العرض على كتاب الله، وهو ليس موضوعاً عند الإباضية كما يرى بعض نقاد الحديث، لوروده في مسند الربيع بن حبيب مسنداً، ولأنّ معناه هو

ردّ ما ناقض القرآن، وليس ردّ كلّ حديث ليس معناه في القرآن، (وهو الفهم الذي بسببه ردّ من ردّ هذا الحديث)، فنظرية العرض على كتاب الله أصل هامّ من أصول التّقد الحديثي لدى الإباضية.

قال في وفاء الضمانة: "حديث «إذا روي عني حديث فاعرضوه على كتاب الله»، ليس موضوعاً كما قيل، فإنّه جاء بسند صحيح رجاله ثقات، إلّا أنّه من مرسل ابن عباس، ومرسله كالموصول: الرّبيع بن حبيب عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد عن النبي ﷺ: «إنكم ستختلفون من بعدي، فما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله فما وافقه فعني وما خالفه فليس عني»".⁽⁵⁾

ثمّ ضرب أمثلة تبيّن ضعف بعض الأحاديث التي تخالف ما ورد في القرآن، ولم يقل المحقّقون بوضعها، وردّ هذا الزّعم بوضع الحديث السابق ومخالفته القرآن كما في كلامه، والله أعلم.

2- الخبر المتواتر قطعي الدلالة لقطعية ثبوته، وخبر الآحاد بجميع أنواعه ظني الدلالة لظنية ثبوته، غير أنّ الشّيخ المؤلّف ذكر أنّه مفيد للعلم مع القرائن، قال في الجامع: "وخبر الآحاد ما لم يستكمل عدد التّواتر على الخلاف السّابق فيه، وهو مظنة الصّدق، أفاد العلم بالقرائن المتّصلة أو لا، ولا يفيد إلّا بقرينة كنداء المنادي تحويل القبلة بحضرة رسول الله ﷺ،...، والمتواتر مجزومه، ومفيد للعلم بلا قرينة متّصلة".⁽⁶⁾

3- يختلف الإباضية عن المذاهب الأخرى في اعتبار أعلى الكتب صحّة، فهم يقدّمون مسند الإمام الرّبيع بن حبيب على صحيح البخاري ومسلم، لثقة رواة أحاديثه وتمام المعرفة بهم، قال في وفاء الضمانة: "وأصحّ الأحاديث ما رواه الرّبيع بن حبيب عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد عن الصّحابي عن رسول الله ﷺ لمزيد ورع هذا السّند.

وأما كتب قومنا: فأصحّها في الحديث كتاب البخاري، ثم كتاب مسلم، وقالوا أنّهما أصحّ من موطأ مالك، وقالوا: إنّما قال الشّافعي: ما أعلم شيئاً بعد كتاب الله أصحّ من موطأ مالك، قبل وجودهما".⁽⁷⁾

وقال في الجامع: "أصحّ أسانيد ابن عباس ؓ: الرّبيع بن حبيب عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس".⁽⁸⁾

وقال في مبحث علو الإسناد: "العالي خمسة (أي خمسة أنواع): المطلق: وهو القرب من رسول الله ﷺ بعدد قليل بالنسبة إلى سند آخر يرادّ بذلك الحديث بعينه بعدد كثير، أو بالنسبة لمطلق الأسانيد كرواية الرّبيع بن حبيب بالنسبة إلى رواية البخاري ومسلم، فإنّها أقرب إلى رسول الله منها.

والقرب من إمام من أئمة الحديث ذي صفة عالية كالحفظ والضبط، كالربيع بن حبيب، وأبي عبيدة مسلم مثلاً، وكمالك والشافعي من غيرنا.

والقرب بالنسبة لرواية أصحاب كتب الحديث المعتبرة، كالقرب من مسند الربيع، ومسند البخاري ومسلم⁽⁹⁾.

4- تعتبر كتب السنة كلها مصدراً لأخذ الأحاديث، إذا ما ثبتت صحتها حسب قواعد نقد الأسانيد والمتون، ولا يكتفي الشيخ اطفيش كغيره من فقهاء الإباضية بمسند الربيع وحده كمصدر للسنة، وفي ذلك يقول: "من له قوة على الاجتهاد فلا يأخذ باجتهاد غيره، ويأخذ من كتب الناس ما يعتمد عليه في الاجتهاد كالحديث والآية، وهو في أخذه كواجد مسألة من كتاب"⁽¹⁰⁾.

5- أحاديث مسند الربيع تُقبل مطلقاً، أما أحاديث كتب الصحاح والسنن، فإنه يعتبر فيها صحة الإسناد والمتن، وإذا وقع حديث بسند صحيح، وفي المتن ما يخالف رأي الإباضية (في العقائد خاصة)، فإنه يُؤوّل تأويلاً صادقاً إلى ما يوافق القرآن، إن كان ظاهره غير القرآن. يقول في وفاء الضمانة: "وإذا روى قومنا حديثاً صحيحاً أثبتناه وأولناه تأويلاً صادقاً إلى ما يوافق القرآن إن كان ظاهره غير القرآن"⁽¹¹⁾.

ومن تطبيقات ذلك توجيهه للحديث الدال على رؤية الله تعالى يوم القيامة بأن معناها تأكيد حقيقة لقاء الله تعالى لا الرؤية الحقيقية، لمخالفة هذا المعنى لمقتضى الآيات القرآنية النافية لها، ومقتضيات العقول.

قال في هيمان الزاد: "دعوى جواز رؤيته يدل على جواز النقص عليه، لأن المرئي لون وجسم وحال في مكان، وله عرض، لأن لكل جسم عرضاً، وتركيباً وجهات ست، وحاجة وجريان زمان عليه، وحدوث وعجز بما بعد عنه، واحتجاب عن من لا يحضره، فللزوم ذلك يجب تأويل حديث: «إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون البدر»، بمعنى أنكم ستحققون وجوده ووعده ووعيده، وتزیدون يقيناً كما تكشفون البدر، وهذا كما تعلم أشياء وتجزم بوجودها وبصفتها ولم ترها ولم تحسها، وإذا رأيته فلا بد أن تصفه بالمكان والجهة وتكيفه بأمر، فبطل ما يقال إنه كما نعلمه بلا مكان ولا حد ولا كيف. كذلك يبصره بلا حد ولا مكان ولا كيف، لأن الرؤية لا بد فيها من تكيف وحد ومكان"⁽¹²⁾.

وقال معلقاً على حديث: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» المروي في الصحاح والسنن: "وإن جاء الحديث عن أنس بن مالك أن الشفاعة لأهل الكبائر، فهو والله ما أعنى القتل، والزنى، والسحر، وما أوعد الله عليه النار"⁽¹³⁾.

ذلك أن الإباضية يعتقدون بأن الشفاعة لا يستحقها مرتكب الكبيرة المصّر ولو كان

مسلمًا، ولهم في ذلك أدلة من القرآن والسنة.

6 - مجال التصحيح والتضعيف باق غير منقطع، لمن تأهل لذلك وتمرس، وإطلاق الحكم بالصحة أو الضعف على الحديث، و الثقة أو الوهن على الراوي أمر نسبي غير مجزوم ولا مطلق.

قال في الجامع والوفاء معلقاً على تعريف الحديث الصحيح: "ومعنى كونه صحيحاً، أي إسناده صحيح، لا أنه مقطوع به في نفس الأمر، لجواز خطأ الضابط ونسيانه، نعم يُقطع به إذا تواتر".⁽¹⁴⁾

7- الخبر المرسل مقبول بشرط أن يرويه كبار التابعين، والأرجح لدى الشيخ رد الاحتجاج بالمرسل، إن لم يوجد معه عاضد، للجهل بعدالة الساقط.

قال في الجامع: "مرسل العدول المشهورين بالرواية عن الثقات أمثال سعيد بن المسيب وجابر بن زيد، في حكم المسند، وأما مرسل صغار التابعين فمردود بإطلاق، ولو مع وجود العاضد".

قال: "والصحيح رد الاحتجاج بالمرسل إن لم يوجد معه عاضد، وعليه الأكثر، منهم الشافعي، والقاضي، وأبو بكر الباقلاني، وظاهر كلام مسلم في صدر صحيحه أنه مذهب أهل العلم بالأحاديث، وذلك للجهل بعدالة الساقط، وإن كان صحابياً لاحتمال أن يكون ممن طرأ له قاذح، وهذا مبني على أن الصحابة كغيرهم يُبحث عن حالهم وعدالتهم، وقد قيل: إنهم عدول لا يُبحث عن حالهم".

وسبب قبول مراسيل كبار التابعين كون غالبهم لا يروي إلا عن الثقات، فإذا أسقطوا راوياً فالغالب في الظن أنه ثقة مقبول الرواية، قال في الجامع: "فإن كان المرسل لا يروي إلا عن عدل، كمن عُرف ذلك من عاداته كابن المسيب، فإنه لا يروي إلا عن أبي هريرة، وهو صهر أبي عبيدة، قبل مرسله لاتقاء الجهل بعدالة الساقط، وهو حينئذ مسند حكماً، لأن إسقاط العدل كذكره، فإن عُضد بمرسل كبار التابعين كقيس بن أبي حازم، وأبي رجاء العطاردي...، كان مجموع المرسل والعاضد حجة عند الشافعي.

والمراد بكبار التابعين من أكثر روايتهم عن الصحابة، والمراد بصغار التابعين من أكثر روايتهم عن التابعين، وأما مرسل صغار التابعين فلا يُحتج به ولو عوضد لشدة ضعفه كالزهري".⁽¹⁵⁾

8- الصحابة كلهم عدول حتى زمن وقوع الفتنة الكبرى، فأما بعدها، فإنه يجب التمييز، والبحث في أحوالهم لاحتمال طروء القدح فيهم، وقد صرح بذلك في الجامع قال: "الصحابة كلهم في الولاية، لأنهم تحت الإمام العدل، وهو النبي ﷺ، وتحت الصديق والفاروق، إلا من

حضر الفتن، وزل فيها ولم يتب".⁽¹⁶⁾

9- يرى الشيخ اطفيش قبول زيادة الثقة مطلقا بناء على العدالة والضبط الظاهرين، خلافا لمذاهب بعض المحدثين، قال: "المتصل مقدم على المرسل والحكم به إذا استوى السند، وكذا الرفع بالنسبة للوقف، فزيادة الثقة على هذا الاعتبار مقبولة مطلقاً".⁽¹⁷⁾

10- يرى الشيخ اطفيش جواز رواية الحديث الضعيف والعمل به في باب الفضائل مع تحديث الناس بها.

قال في وفاء الضمانة: "وتساهل قوم في رواية الحديث الضعيف في المواعظ والترغيب والترهيب، وفضائل الأعمال من قراءة وصلاة وغيرهما بلا بيان لضعفه، إلا في صفات الله تعالى، وأحكام الحلال والحرام، كما كان النسائي يخرج كل ما لم يجتمع على تركه، وكذلك أبو داود إذا لم يجد في الباب غيره، ويرجحه على رأي الرجال، و عن الشعبي: (ما حدثك عن النبي ﷺ هؤلاء فخذ به، وما قالوه برأيهم فألقه في الحش) يعني الكنيف، وقال: (الرأي بمنزلة الميتة إذا اضطرت إليها أكلتها)".⁽¹⁸⁾

وأضاف في الجامع: "الموضوع هو المكذوب به عن رسول الله ﷺ، ويُسمى المختلق، وتحرم روايته مع العلم به إلا ميئاً، والعمل به مطلقاً، وسببه نسيان أو افتراء أو نحوه".⁽¹⁹⁾

غير أنه يرد على الشيخ بعض تأليفه التي أورد فيها أحاديث ليس لها أصل، ولكنه استجاز ذكرها لتعلقها بالنوافل، قال في وفاء الضمانة: "والوضائع للحديث أصناف، وأعظمهم ضرراً من انتسب إلى الزهد فوضع احتساباً؛ ووضعت الزنادقة جملاً ثم نهضت جهابذة الحديث بكشف عوارها ومحوها، والحمد لله، فذهبت الكرامة والمبتدعة إلى جواز وضع الحديث في الترغيب والترهيب، ومن ذلك أحاديث صلوات الأيام والليالي في رمضان، وضعها بعض البغداديين لما رأوا الناس في رمضان بلا شغل، إذ كانوا يتركون القراءة للعلم والإقراء، ومع العلم بذلك، لا يكاد يتركها تارك والحمد لله، طمعاً في الثواب".⁽²⁰⁾

والشيخ يشير هنا ضمناً إلى مؤلفه "أجور الشهور على مر الدهور"، أورد فيه فضائل الليالي وشهور السنة الهجرية، والصلوات والأوراد المذكورة في الليالي من خلال أحاديث وآثار كثيرة، وتُتلى هذه النوافل على الناس في بعض المساجد ليقوم الناس بأدائها، وقد ذكر أن الشيخ نفسه قد تراجع عن ذلك الكتاب في بعض ما كتب، والله أعلم.

خاتمة

يمكن القول -في ختام هذا المقال- أن الشيخ اطفيش رحمه الله قد قام من خلال كتابيه "الجامع" و"الوفاء" بجهد تأصيلي لقضية السنة ومنهج التعامل معها عند الإباضية.

وقد حاول بذلك سد الفراغ الذي لاحظته في تراثهم من هذه الناحية، إذ بين أن لهم منهجا وقواعد قد تتفق أو تختلف مع غيرهم في نقد السنة النبوية، إلا أن الأهم هو أن لها مكانة في التشريع والعقيدة عندهم، وأن المذهب الإباضي ليس مذهب رأي وقياس صرف كما يتبادر لأول نظرة.

والدعوة ملحة لمواصلة مثل هذا الجهد في تأصيل عقيدة وفقه الإباضية من الناحية الحديثية، ونقد ما اعتمده من السنة بكل إنصاف وموضوعية، وبيان وقاعد تعاملهم معها، لاسيما من حيث المتون، وفي ذلك خدمة جليلة تسدى للمذهب ولل فكر الإسلامي بصفة عامة، وهو جهد يتساق مع الاتجاه المعاصر الذي يدعو إلى ضرورة إعادة بناء قواعد نقد السنة بالنظر إلى المتن بالدرجة الأولى، وعدم الاعتماد والاعتداد فقط بالإسناد، وهو الجانب الذي كان لفقهاء وعلماء الإباضية حظ وافر منه، والله أعلم.

الهوامش:

- 1- امحمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير، (طبعة حجرية). ت.ط: 1325هـ.
- 2- هميان الزاد إلى دار المعاد: 207/7. (نسخة رقمية من المكتبة الشاملة الإباضية، الإصدار الأول).
- 3- أستاذ مادة علوم الحديث بقسم التخصص في الشريعة، معهد عمي سعيد، غرداية.
- 4- شامل الأصل والفرع، المطبعة العربية، غرداية: 09./1
- 5- رواه الربيع بن حبيب في المسند، رقم 40، وهو عنده في المقاطيع عن جابر بلفظ آخر: «ما من نبي إلا وقد كذب عليه من بعده ألا وسيكذب علي من بعدي كما كذب علي من كان من قبلي، فما أتاكم عني فاعرضوه على كتاب الله فما وافقه فهو عني، وما خالفه فليس عني»، رقم 945.
- 6- جامع الشمل في حديث خاتم الرسل، المطبعة الشرقية، مطرح، نشر وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، 1421هـ/1992م: ص 435.
- 7- وفاء الضمانة بأداء الأمانة في فن الحديث، مطبعة عمان، مسقط، نشر وزارة التراث، 1409هـ/1988م: 07./1
- 8- جامع الشمل: ص 412.
- 9- جامع الشمل: ص 429.
- 10- شامل الأصل والفرع: 12./1
- 11- وفاء الضمانة.
- 12- هميان الزاد: 106./5
- 13- المصدر نفسه: 365./7
- 14- جامع الشمل: ص 413-414.
- 15- جامع الشمل: ص 407-408، وفاء الضمانة: 15./1
- 16- وفاء الضمانة: 406/3.
- 17- جامع الشمل: ص 410.
- 18- وفاء الضمانة: 11./1
- 19- جامع الشمل: ص 420.
- 20- وفاء الضمانة: 11/1.

مؤلف الكتاب

أحمد الكندي

السلطان قابوس عمان

مقدمة

الحمد لله المنعم علينا بشريعة الهدى، المتوج لهذه النعمة بصاحب النطق الذي لا ينطق عن الهوى، ذي السنّة الغراء العاصمة من الهوى، صلى الله وسلم عليه وآله أهل النهى، وعلى أصحابه والسالكين منهجه إلى يوم المنتهى.

أما بعد فإن السنة النبوية تمثل المصدر الثاني للهداية والتشريع للأمة المسلمة، ولا عجب في ذلك إذ هي تمثل طريقة ومنهج وسلوك المقتدى به لجميع أفراد الأمة، إذ أمروا بالإقتداء به وتبعية مسلكه لأنه مفتاح باب الهداية، ومشكاة نور طريق السعادة، ووسيلة تبليغ الحجة والرسالة، فجاءت عناية الأمة بسنته تلبية لهذه الحجة، وصارت معينا متدفقا، ومنهلا عذبا لكل عالم وطالب، واتكأت عليها مصنفات العلم، واعتمدت على فقهها مدونات الفكر والفكر والقلم.

هذا ومن عني بها في مؤلفاته الإمام القطب محمد بن يوسف اطفيش، وهذه الورقة العلمية تعنى بإبراز منهج القطب في جمع الروايات المتعارضة، والقواعد التي اعتمدها في هذا الباب قاعدة الجمع بين الروايات المتعارضة بوجوه الجمع المتعددة، وقاعدة الترجيح سواء من خلال العلوم الإسنادية أو العلوم المتنية سواء من خلال اللفظ أو المفهوم المستفاد من ألفاظ هذه المتون.

المبحث الأول تعريف القطب اطفيش وقواعد المختلف عنده:

أولا: مختلف اسم فاعل من اختلف، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ (الذاريات 8/51)، قال صاحب القاموس: "اختلف ضد اتفق"⁽¹⁾، و"تخالف القوم، واختلفوا إذا ذهب كل واحد منهم إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر"⁽²⁾، ومعنى تخالف الأمران واختلفا أي لم يتفقا، "وكل ما لم يتساو فقد تخالف واختلف"⁽³⁾.

قال صاحب مفردات القرآن: "والاختلاف والمخالفة: أن يأخذ كل واحد طريقا غير طريق الآخر في حاله أو قوله، والخلاف أعم من الضد؛ لأن كل ضدين مختلفان، وليس كل مختلفين ضدين"⁽⁴⁾، وأكثر المحدثين على ضبط كلمة مختلف بضم الميم وكسر اللام، وبذلك تكون اسم

فاعل من اختلف كما تقدم، وأما من ضبطها بضم الميم وفتح اللام فعلى أنها مصدر ميمي بمعنى الاختلاف⁽⁵⁾، أو اسم مفعول من اختلف في الأمر يُختلف في الأمر فهو مختلف فيه.

وأما المعنى الاصطلاحي فيجد أول من عبّر عن الإباضية عنه ابن بركة في قوله: "وأما الأخبار المتعارضة، فمثل ذلك أن يروى عن النبي ﷺ، خبر بإباحة شيء، ويروى خبر آخر فيحظر ذلك فيوقفا جميعاً، وينظر..."⁽⁶⁾.

ويجد القطب اطفيش المختلف: بأنه ورود حديثين مختلفين⁽⁷⁾.

طرق دفع التعارض عند القطب:

أسباب التعارض

ونجد عند القطب اطفيش ذكراً لطرق دفع التعارض كالجمع والنسخ، فهو يقدم النسخ، فإن لم يعلم المتأخر وأمكن الجمع فالجمع⁽⁸⁾

ونجد مثل ذلك عند القطب اطفيش في قوله: "فإن لم يعرف -أي التاريخ- فإن أمكن ترجيح أحدهما بوجه من وجوه الترجيح متناً أو إسناداً لكثرة الرواة وصفتهم تعين المصير؛ وإلا فيجمع بينهما فإن لم يمكن توقف على العمل بأحدهما. ويقرب المختلف من الناسخ والمنسوخ"⁽⁹⁾.

المبحث الثاني: من طرق الجمع في مختلف الحديث:

أولاً: الجمع بالتخصيص:

الجمع يطلق على ضم الشيء بعضه ببعض ومنه قولهم: "جمعتهم فاجتمع"⁽¹⁰⁾، و"جمع الشيء عن تفرقة يجمعه جمعاً إذا ضمه وألفه"⁽¹¹⁾، و"جمعت الشيء إذا جئت به من ههنا وههنا"⁽¹²⁾، وورد في القرآن هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ﴾ (القيامة 3/75)، قال الزمخشري: "والمعنى نجمعها بعد تفرقها، ورجوعها رميمًا، ورفاتها مختلطًا بالتراب، بعد ما سفتها الريح وطيرتها في أباعد الأرض"⁽¹³⁾.

إن قاعدة الجمع بالتخصيص يؤكد الفطرب في كثير من المواضع في كتبه، يقول القطب: "وَمَذْهَبُنَا حَمْلُ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ تَقَدَّمَ أَوْ تَأَخَّرَ"⁽¹⁴⁾

ويقول في موضع مؤكدا تطبيق قاعدة الجمع بين الخاص والعام، معلقاً على (مَا أَلْقَى الْبَحْرُ وَحَزَرَ عَنْهُ فَكُلُوهُ وَمَا مَاتَ فِيهِ فَلَا تَأْكُلُوهُ)⁽¹⁵⁾، بقوله: "فَقِيهِ دَلِيلٌ لِمَنْ قَالَ بِتَحْرِيمِ مَا مَاتَ فِيهِ، وَهُوَ قَوْلُ ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُ سَوَاءً مَاتَ وَوُجِدَ عَلَى الْمَاءِ أَوْ فِي الْأَرْضِ كَمَا مَرَّ، فَإِذَا صَحَّ هَذَا الْحَدِيثُ عُمِلَ بِهِ بِخُصُوصِهِ لَا بِأَحَادِيثِ عُمُومِ حَلِيَّةِ مَيْتَةِ الْبَحْرِ لِأَنَّ الْعَمَلَ بِالْخَاصِّ لَا بِالْعَامِّ إِذَا تَعَارَضَا"⁽¹⁶⁾.

ومن نماذج ذلك الجمع بين الخصوص والعموم الجمع بين حديث: (فِيمَا سَقَتْ السَّمَاءُ وَالْعُيُونُ الْعُشْرُ)⁽¹⁷⁾، قال القطب فيه: "فهو عام مُخَصَّصٌ بِحَدِيث: أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (لَيْسَ فِيهَا دُونَ خَمْسَةِ أَوْسُقٍ مِنَ التَّمْرِ صَدَقَةٌ)"⁽¹⁸⁾.

ومن أمثلة هذا النوع من الجمع الجمع بين حديث النبي ﷺ (الثَّيْبُ أَحَقُّ بِنَفْسِهَا مِنْ وَلِيِّهَا)⁽¹⁹⁾ وحديث: (أَيُّمَا امْرَأَةٍ نَكَحْتَ بِغَيْرِ رَأْيٍ وَلِيِّهَا فَنَكَاحَهَا بَاطِلٌ)⁽²⁰⁾، فظاهر الخبر الأول أن الولي لا حق له في عقد نكاح الثيب، بل هي مالكة ذلك دونه، وأما الرواية الثانية فعامة لكل امرأة كانت بكراً أو ثيباً في اشتراط الولي، "والخبر الذي ذكر... أن الثيب أحق بنفسها مخصص"، وخرجت الثيب بالخبر المخصوص وبقي الأبكار على العموم"⁽²¹⁾، لكن القطب ينقل ما يؤكد في جمعه بين الحديثين على بقاء حق الولي وشرطه وإنما للثيب مزيد حق وإفصاح لرضاها إذ "مَعْنَى كَوْنِهَا أَحَقَّ بِنَفْسِهَا مِنْ وَلِيِّهَا أَنَّ حُكْمَهَا يَبْدَأُ وَأَنَّ حُكْمَهَا أَيْضًا يَبْدَأُ وَلِيِّهَا، لَكِنَّهُ يَبْدَأُ أَعْظَمُ وَأَكْثَرُ، فَإِنَّهَا لَوْ شَاءَتْ تَزَوَّجًا بِكُفْوٍ وَأَرَادَ وَلِيُّهَا الْمَكْثَ بِلَا تَزَوُّجٍ، أَوْ أَرَادَ رَجُلًا، وَأَرَادَتْ آخَرَ وَهُمَا كُفْوَانٍ لَهَا لَكَانَ الْقَوْلُ قَوْلَهَا"⁽²²⁾.

ثانياً الجمع بحمل المفسر على المجمل⁽²³⁾:

من طرق الجمع: الجمع بحمل المفسر على المجمل: يقول ابن بركة: "الخبر المفسر يقضي على المجمل، ولا يقضي المجمل على المفسر"⁽²⁴⁾.

ونجد هذا النهج عند القطب اطفيش في مثل قوله: " السنة تقضى على القران بتفصيل مجمله وتقييد مطلقه وتخصيص عامه"⁽²⁵⁾.

ومن أمثلة هذا النوع من الجمع، الجمع بين حديث: (يَدْرَأُ الْمُصَلِّي عَنْ نَفْسِهِ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِنْ أَبَى أَنْ يَمْتَنِعَ الْمَارَّ فَلْيَقَاتِلْهُ فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ)⁽²⁶⁾، وحديث: (لَا يَقْطَعُ الصَّلَاةَ شَيْءٌ وَادْرُؤُوا مَا اسْتَطَعْتُمْ)⁽²⁷⁾ يقول اطفيش: ط أَحَادِيثُ السُّنَّةِ نَصٌّ فِي مَضَرَّةِ الصَّلَاةِ بِالْمُرُورِ قَدَامَ الْمُصَلِّي وَحَدِيثُ: { لَا يَقْطَعُ الصَّلَاةَ شَيْءٌ }، نَصٌّ فِي عَدَمِ فَسَادِهَا بِمُرُورِ مَارٍّ"⁽²⁸⁾.

الجمع بين الأدلة المتعارضة بالتأويل والتفسير:

ومن ذلك الجمع بين (لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب)⁽²⁹⁾ وحديث: (كل صلاة لم يقرأ فيها فاتحة الكتاب فهي خداج)⁽³⁰⁾ قال القطب: "أى ذات خداج أى نقصان عن حد الإجزاء فهي باطلة بدليل الحديث الآخر المذكور"⁽³¹⁾.

ثالثاً: الجمع بحمل المطلق على المقيد:

ومن طرق الجمع: الجمع بالتقييد، وفيها يحمل المطلق على المقيد، يقول القطب اطفيش:

"ومذهبنا كمذهب الشافعي في حمل المطلق على المقيد"⁽³²⁾.

ومن أمثلة هذا النوع من الجمع أيضا، الجمع بين رواية ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: (إذا لم يجد المحرم النعلين فليلبس الخفين)⁽³³⁾، وما روي من طريق ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: (فليقطعهما أسفل من الكعبين)⁽³⁴⁾ فقد ورد في رواية ابن عمر شرط قطع الخفين من أسفل الكعبين، وهذا الشرط قيد لم يرد في رواية ابن عباس والتي وردت مطلقة، وبذلك تصبح رواية ابن عمر مقيدة لمطلق رواية ابن عباس، يقول القطب اطفيش: "أما لبس الخفين فمقيد بقطعهما من أسفل الكعبين عندي. ذلك لما تقرر في الأصول من حمل المطلق على المقيد على الصحيح وقد قيد لابسهما بالقطع في حديث... الخ"⁽³⁵⁾.

ومن نماذج ذلك ما روي عن ابن عباس: قدم النبي ﷺ المدينة وهم يسلفون في الثمار الستين والثلاث فقال (أسلفوا في الثمار في كيل معلوم إلى أجل معلوم ووزن معلوم)⁽³⁶⁾.

فجاء تقييد الإباحة في السلف بما قيده الحديث من شروط؛ وفي ذلك يقول القطب اطفيش معلقا على الحديث السابق: "الْحَقَّ حَمْلُ الْمُطْلَقِ عَلَى الْمُقَيَّدِ تَقَدَّمَ أَوْ تَأَخَّرَ"⁽³⁷⁾.

رابعا: الجمع بحمل الأمر على الندب:

ومن أمثلة ذلك حمل الحديث الذي ينص على الغسل لكل صلاة أو صلاتين على الندب مع وجود أحاديث تنص على غسل واحد عقب الطهر وهو الواجب، يقول القطب اطفيش: "وَالْغُسْلُ لِكُلِّ صَلَاةٍ"⁽³⁸⁾ أَوْ لِكُلِّ صَلَاتَيْنِ⁽³⁹⁾ مَنْدُوبٌ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِذَا أَدْبَرْتَ الْحَيْضَةَ وَذَهَبَ قَدْرُهَا فَاعْسِلِي الدَّمَ عَنْكَ وَصَلِّي)⁽⁴⁰⁾، فَأَمَرَهَا بِغَسْلِ الدَّمِ فَقَطْ، وَأَمَّا الْغُسْلُ الْوَاجِبُ بَعْدَ الْخُرُوجِ مِنَ الْحَيْضِ فَمَعْلُومٌ"⁽⁴¹⁾، ويقول السالمي معلقا على هذه الروايات "والظاهر أنه استحباب"⁽⁴²⁾.

ومن أمثلة الجمع بحمل الأمر على الندب، الجمع بين الأحاديث التي ذكرت عدد التسيبحات في الركوع والسجود، فحديث أنس بن مالك حين صلى خلف عمر بن عبد العزيز قال: (ما صليت وراء أحد أشبه برسول الله ﷺ من هذا الشاب، قال: فكنا نسبح وراءه عشرا عشرا)⁽⁴³⁾ فهذا الحديث يفيد أن التسيح عشر، وحديث حذيفة بن اليمان: (أن النبي قال: سبحان ربي العظيم ثلاث مرات)⁽⁴⁴⁾.

ونجد القطب تارة يعتبر الواجب واحدة وأخرى الثلاث إلا أن يؤكد أن ما زاد على الثلاث ندب فلا "يَجِبُ أَكْثَرُ مِنَ الثَّلَاثِ، وَلَا يُقَالُ كُلُّ تَسْبِيحَةٍ سُنَّةٌ عَلَى حِدَةٍ"⁽⁴⁵⁾، وقد فصل المسألة في الشامل أيضا.

ومن أمثلة الجمع بالحمل على الندب، الجمع بين الروايات المتعارضة في مسألة ولوغ الكلب كحديث غسل السبع: (طهور إناء أحدهم إذا ولغ الكلب فيه أن يغسله سبع مرات)⁽⁴⁶⁾،

وما روي من طريق ابن المغفل (والثامنة بالتراب)⁽⁴⁷⁾، وحديث الثالث عن أبي هريرة قال: (في الإناء يلغ فيه الكلب: يغسل ثلاث مرات)⁽⁴⁸⁾

وقد ذكر القطب اطفيش والسالمي أن الإباضية قالوا بالندب في ما زاد على الثالث⁽⁴⁹⁾.

خامسا الجمع بحمل النهي على الكراهة:

ومن أمثلة هذا النوع من الجمع، الجمع بين الروايات التي ذكرت حكم شهود المرأة الجنائز، فوردت روايات تبيح ذلك كحديث أبي هريرة (أن رسول الله ﷺ كان في جنازة، فرأى عمر امرأة فصاح بها عمر، فقال: دعها يا عمر...) ⁽⁵⁰⁾، وروايات تنهى عن ذلك كحديث أم عطية قالت: (نهينا عن اتباع الجنائز، ولم يعزم علينا)⁽⁵¹⁾

يقول القطب اطفيش: "وَكُرِهَ لِلنِّسَاءِ اتِّبَاعُهَا إِنْ وُجِدَ حَامِلٌ سِوَاهُنَّ (وَيُطْرَدْنَ، فَإِنْ لَمْ يَرَجِعْنَ فَلَا يَجِبُ رُجُوعُ رَجُلٍ، فَإِنْ كَانَ مُنْكَرٌ مِنْ اخْتِلَاطِهِنَّ بِالرِّجَالِ أَوْ نُوحٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ نُهْيٌ"⁽⁵²⁾.

سادسا الجمع باختلاف الأحوال:

هناك ضرب من الجمع يمكن تسميته بالجمع باختلاف الأحوال، ومن شواهد ذلك ما أورده ابن بركة - ووافقه القطب على هذا الجمع - من أحاديث في مسألة البيع والشرط، كحديث النبي ﷺ: (أنه نهى عن شرطين في بيع)⁽⁵³⁾، وحديث بيع جمل جابر، واشترطه في البيع؛ إذ روي عن النبي ﷺ (أنه اشترى من جابر بن عبد الله بغيرا وشرط جابر ظهره من مكة إلى المدينة فأجاز صلى الله عليه وسلم البيع والشرط)⁽⁵⁴⁾ وما روي في خبر بيع بريرة وأن عائشة اشترتها لتعتقها فاشترط البائع ولاءها لنفسه فأجاز ﷺ البيع وأبطل الشرط، وقال: الولاء لمن أعتق⁽⁵⁵⁾ وما روي من (أن تميم الداري باع دارا واشترط سكنها فأبطل النبي ﷺ البيع والشرط)⁽⁵⁶⁾.

فهذه الروايات التي ظاهرها التعارض فسرهما ابن بركة كل رواية على أنها حالة مستقلة فقال: "والذي عندي - والله أعلم - أن خبر بريرة كان غير جائز؛ لأنه اشترط ما لا يجوز تملكه وهو الولاء الذي جعله النبي ﷺ كالنسب لقوله (لحمة الولاء كلحمة النسب)⁽⁵⁷⁾ والنسب لا يجوز تملكه لهذا الخبر؛ فلذلك أبطله النبي ﷺ، وأما خبر جابر بن عبد الله في بيع البعير إذ اشترط ركوبه من مكة إلى المدينة لم يكن في نفس عقد البيع وإنه كان على وجه العارية وقد روي هذا أيضا⁽⁵⁸⁾، وأما خبر تميم الداري فإنه يحتمل أن يكون الخبر الذي روي أنه اشترط في البيع سكنى الدار أيام حياته فإن الجهالة بمدة أيام حياته لا يصح البيع معها لأن ذلك غير معلوم؛ ولذلك بطل البيع والشرط، ولو كان شرط السكنى مدة معلومة لكان البيع جائزا لأن البيع إذا شرط فيه شرط له قسط من الثمن معلوم جاز البيع والله أعلم"⁽⁵⁹⁾، وقد وافق القطب اطفيش ابن

بركة ونقل طرفا من كلامه في شرح النيل مائلا إلى موافقته معلقا على ضبط شخص ابن بركة بقوله "وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَالَّذِي يُوجِبُهُ النَّظَرُ عِنْدِي أَنَّ الشَّرْطَ فِي ذَلِكَ لَا يَخْلُو إلَخَ فَمِنْ كَلَامِ الشَّيْخِ لَا مِنْ كَلَامِ ابْنِ بَرَكَةَ، وَمُرَادُهُ بِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَرَكَةَ، وَكَذَا مُرَادُ الشَّيْخِ إِسْمَاعِيلَ، وَأَمَّا أَبُو مُحَمَّدٍ فَإِنَّمَا هُوَ شَيْخُ ابْنِ بَرَكَةَ، يَحْكِي ابْنُ بَرَكَةَ كَلَامَهُ"⁽⁶⁰⁾.

سابعاً: الجمع باعتبار الزيادة

ومن طرق الجمع للروايات الجمع باعتبار الزيادة و الأخذ بها، والأخذ بالزيادة إذا صحت في أحد الخبرين معمول ومأخوذ بها لاسيما إذا كانت لها فائدة، إن "زِيَادَةَ الثَّقَةِ مَقْبُولَةٌ، وَمَنْ حَفِظَ حُجَّةً"⁽⁶¹⁾.

ومن أمثلة ذلك الجمع بين حديث عائشة عن النبي ﷺ: (من اقتنى كلبا لا لزعر، ولا لصرع نقص من أجره كل يوم قيراط)⁽⁶²⁾ وحديث ابن عمر: (من اقتنى كلبا إلا كلبا ضاريا لصيد أو كلب ماشية فإنه ينقص من أجره كل يوم قيراطان)⁽⁶⁴⁾، ففي الأول ذكر القيراط والثاني القيراطين؛ وفي الجمع بينهما يقول القطب: "وَعَنْ بَعْضٍ: يَنْقُصُ قِيرَاطٌ مِنْ عَمَلِ النَّهَارِ وَقِيرَاطٌ مِنْ عَمَلِ اللَّيْلِ، وَقِيلَ: مِنَ الْقِرْصِ قِيرَاطٌ وَمَنْ التَّفْلِ آخَرُ وَمَنْ قَالَ: (قِيرَاطَانِ) أَخْفَظُ مِمَّنْ قَالَ (قِيرَاطٌ)؛ إِذْ سَمِعَ الزِّيَادَةَ وَلَمْ يَسْمَعْهَا غَيْرُهُ بَأَنَّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قِيرَاطٌ، ثُمَّ قَالَ: قِيرَاطَانِ زِيَادَةً فِي التَّنْفِيرِ، وَقِيلَ: حَدِيثُ الْقِيرَاطَيْنِ فِي كَثْرَةِ الْإِضْرَارِ، وَحَدِيثُ الْقِيرَاطِ فِي قِلَّتِهِ، وَقِيلَ: الْقِيرَاطُ بِالْمَدِينَةِ وَالْقِيرَاطَانِ بِسَائِرِ الْبِلَادِ، وَقِيلَ: الْقِيرَاطُ فِي الْبَادِيَةِ، وَقِيلَ: فِي نَوْعٍ مِنَ الْكِلَابِ وَالْقِيرَاطَانِ كَالْمَذْكُورَيْنِ فِي أَبْوَابِ صَلَاةِ الْجَنَازَةِ وَغَيْرِهَا، وَقِيلَ ذُونَهُمَا؛ لِأَنَّهُمَا فِي الْعُقُوبَةِ وَبَابُ الْفَضْلِ أَوْسَعُ"⁽⁶⁵⁾.

ثامنا الجمع بجواز الأمرين:

ومن أمثله الجمع بين الروايات الواردة في محل سجود السهو، وقد وردت عدة أحاديث في ذلك منها حديث عبد الله ابن مسعود (أن رسول الله ﷺ صلى الظهر خمسا، فقبل له أزيد في الصلاة، فقال وما ذاك، قالوا صليت خمسا؛ فسجد سجدتين بعد ما سلم)⁽⁶⁶⁾، وحديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا شك أحدكم في صلاته فلم يدر كم صلى ثلاثا أم أربعا فليطرح الشك وليبن على ما استيقن ثم يسجد سجدتين قبل أن يسلم فإن كان صلى خمسا شفعن له صلاته وإن كان صلى إتماما لأربع كانتا ترغيبا للشيطان)⁽⁶⁷⁾.

يقول القطب في ذكر محل السجود بأنه بَعْدَ التَّسْلِيمِ "مُطْلَقًا عَلَى الْمُخْتَارِ، وَإِنْ سَجَدَهُمَا قَبْلَ فَسَدَتْ صَلَاتُهُ، وَقِيلَ: يَجُوزُ قَبْلَهُ، وَقِيلَ: إِنْ نَقَصَ مِنَ الصَّلَاةِ سَهْوًا فَقَبْلَهُ، وَإِنْ زَادَ فَبَعْدَهُ"⁽⁶⁸⁾.

المبحث الثالث الترجيح عند القطب وبعض أوجهه:

تعريف الترجيح: الترجيح مصدر من رَجَحَ: وورد هذا اللفظ بجملة من المعاني كالثقوية والتفضيل والتميل والتغليب ومنه رجحت الشيء أي وزنته بيدي ونظرت مقدار ثقله، وَرَجَحَ الميزانُ يَرْجَحُ وَيَرْجُحُ وَيَرْجَحُ: رُجِحَانًا: يعني مال، ومن المجاز قولهم: رَجَّحَ أَحَدُ قَوْلَيْهِ عَلَى الْآخَرِ⁽⁶⁹⁾، وورد في اللسان أيضا أن "الرَّاجِحُ: الوَازِنُ". "وَرَجَّحَ فِي مَجْلِسِهِ: ثَقُلَ"، و"رَجَّحَتِ الشَّيْءَ -بِتَشْدِيدِ الْجِيمِ- أي فضلته وقويته"⁽⁷⁰⁾، وذكر القطب اطفيش من معاني الترجيح لغة.

وأما في الاصطلاح فيعرفه الشماخي "اقتران أمانة بما تتقوى به على معارضة"⁽⁷¹⁾، ويعرفه نور الدين السالمي بأنه "عبارة عن اقتران الأمانة التي يستدل بها على الحكم بما تقوى به على معارضتها"⁽⁷²⁾،

وأهم وجوه الترجيح هي:

أولا الترجيح من خلال السند أو بحال الراوي وله وجوه عدة:

ومن ذلك الترجيح بعدالة الرواة فيقول القطب اطفيش: "وان لم يعلم -أي المتقدم- ولم يمكن -أي الجمع- رَجَّحَ أحدهما وعمل به إن وجد- أي مرجحاً- صريحاً لكثرة الرواة وزيادة عدالتهم"⁽⁷³⁾

ومن "الْعَدَالَةُ وَهِيَ هَيْئَةُ رَاسِخَةٌ فِي النَّفْسِ تَمْنَعُ مِنْ اقْتِرَافِ الْكِبَائِرِ وَصَغَائِرِ الْخِسَّةِ"⁽⁷⁴⁾.

ومن أمثلة ذلك عند القطب ترجيحه الروايات التي اعتبرت تعدد الطلقات طلاقة واحدة ان حصلت في لفظ واحد قال القطب "وَالْمُطَلَّقُ بِلَفْظِ الثَّلَاثِ أَوْ بِلَفْظِ تَطْلِيقَتَيْنِ أَوْ اثْنَتَيْنِ مُطَلَّقٌ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَبِمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: {أَنَّ طَلَّاقَ الثَّلَاثِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَسَنِينَ مِنْ خِلَافَةِ عُمَرَ وَاحِدٌ}، وَبِمَا رَوَى عَنْهُ {أَنَّ رُكْنَانَ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ ثَلَاثًا فِي مَجْلِسٍ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: رَاجِعْهَا إِنَّمَا مَلَكَتْ تَطْلِيقَةً}، وَالْجُمُهُورُ عَلَى مَا قَالَ الْمُصَنِّفُ، وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّ حَدِيثَ ابْنِ عَبَّاسٍ الْأَوَّلَ رَوَاهُ طَاوُسٌ فَقَطْ وَرَوَى غَيْرُهُ كَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَعَمْرُو بْنُ دِينَارٍ وَغَيْرِهِمْ عَنْهُ أَنَّهُ يَلْزَمُ مَا طَلَّقَ، وَأَنَّ الْحَدِيثَ الثَّانِي عَنْهُ وَهُمْ مِنْ رَاوِيهِ وَهُوَ ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَالَّذِي رَوَاهُ الثَّقَاتُ أَنَّ رُكْنَانَ طَلَّقَ أَلْبَتَّةَ لَثَلَاثًا، وَالْمُطَلَّقُ ثَلَاثًا بِلَفْظٍ أَوْ بِالْفَاظِ بِمَرَّةٍ مُطَلَّقٌ لِغَيْرِ السُّنَّةِ عِنْدَنَا"⁽⁷⁵⁾.

ومنها الترجيح لرواية من اعتبر فيه عدم الوهم بمرجح يمنع من ذلك، ولذا مال القطب إلى ترجيح حديث ميمونة في تزوج النبي ﷺ بها وهو محل لفظه عنها: (أن رسول الله ﷺ تزوجها وهو حلال)⁽⁷⁶⁾ على رواية ابن عباس وهو محرم، ولفظه عن ابن عباس: (أن النبي ﷺ تزوج ميمونة وهو محرم)⁽⁷⁷⁾، ورواية عثمان أن النبي ﷺ قال: (لا ينكح المحرم ولا ينكح ولا يتكلم ولا يخطب)⁽⁷⁸⁾، يقول القطب اطفيش: "وَحَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، لَكِنْ الْوَهْمُ إِلَى الْوَاحِدِ أَقْرَبُ مِنَ الْوَهْمِ إِلَى الْجَمَاعَةِ، وَحَدِيثُ عُثْمَانَ صَحِيحٌ فِي مَنْعِ الْمُحْرِمِ، فَهُوَ الْمُعْتَمَدُ، لِأَنَّهُ يُقَيَّدُ

قَاعِدَةً، وَحَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ يُفِيدُ وَاقِعَةً تَحْتَمِلُ أَنَّ مُرَادَهُ بِالْإِحْرَامِ تَقْلِيدُ الْهَدْيِ، فَإِنَّ مَذْهَبَهُ أَنَّ مَنْ قَلَّدَهُ يَصِيرُ مُحْرَمًا، أَوْ أَرَادَ بِالْإِحْرَامِ دُخُولَ الْحَرَمِ، أَوْ الشَّهْرَ الْحَرَامَ⁽⁷⁹⁾.

الترجيح لرواية الأكبر أو الأفقه من الصحابة أو المباشر للخبر من غيره ولذلك رجح القطب روايات الصحابة الذين رواوا: (أن رسول الله ﷺ أهل بالحج مفردا)⁽⁸⁰⁾، كرواية ابن عمر وجابر بن عبد الله وعائشة على رواية أنس التي تفيد أنه كان قارنا وفيها يقول أنس: (سمعت رسول الله ﷺ يقول لبيك عمرة وحجا)⁽⁸¹⁾،

يقول القطب اطفيش: "وصح من رواية جابر بن عبد الله وابن عمر وابن عباس وعائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرد في حجة الوداع وروايتهم راجحة لمزيتهم في ذلك، فأما جابر بن عبد الله فأحسن الصحابة سياقه لرواية حجة الوداع، لأنه ذكرها من حين خرج النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة... إلخ، فهو أضبط لها من غيره، وأما ابن عمر فصح عنه أنه كان آخذاً بخطام ناقة النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، وأه سمعه يلبي يحج، وأما ابن عباس فحمله من العلم والفقه في الدين معروف مع كثرة بحثه عن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما عائشة فقربها من رسول الله صلى الله عليه وسلم معروف، واطلاعا على باطن أمره وظاهره مع كثرة فقهها وعلمها"⁽⁸²⁾.

ويقول نور الدين السالمي معلقا على ترجيح رواية جابر لكونه من أكابر الصحابة: "لأن الظن بأن أكابر الصحابة أضبط للشريعة وأخبر بأحوال النبي ﷺ فخيرهم مقدم على خبر غيرهم عند التعارض"⁽⁸³⁾.

والترجيح للمجمع عليه على المختلف والمتواتر على ما دونه، يقول القطب: "المُجْمَعُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ مِنْهُ فِي الْمُخْتَلَفِ فِيهِ، وَالسُّنَّةُ الْمُتَوَاتِرَةُ بَعْدَ الْمُجْمَعِ عَلَيْهِ، وَقِيلَ بِالْعَكْسِ، وَغَيْرُ الْمُتَوَاتِرَةِ بَعْدَهُمَا"⁽⁸⁴⁾.

والترجيح بكثرة الرواة يقول القطب في ترجيح روايات فضل الجماعة "بِخَمْسٍ وَعَشْرِينَ دَرَجَةً، وَرُوي بِسَبْعٍ وَعَشْرِينَ، وَرَجَحَتْ رِوَايَةُ الْخَمْسِ وَعَشْرِينَ لِكثَرَةِ رِوَايَاتِهَا، وَرِوَايَةُ السَّبْعِ بِالزِّيَادَةِ مِنْ عَدَلٍ حَافِظٍ وَجُمَعَ بَيْنَهُمَا بِأَنَّ ذِكْرَ الْخَمْسِ لَا يُنَافِي السَّبْعَ لِعَدَمِ الْإِغْتِدَادِ بِمَفْهُومِ الْعَدَدِ، وَبِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَهُ أَوَّلًا بِالْخَمْسِ ثُمَّ أَخْبَرَهُ بِالزِّيَادَةِ بِلَا نَسْخٍ"⁽⁸⁵⁾.

إن الترجيح باعتبار صحة الطريق والسند ظاهر في عناية القطب اطفيش في تراثه؛ هاهو يناقش مسألة تحريم الضبع من تحليله ويورد حديث (الصَّبْعُ صَيْدٌ، فَإِذَا أَصَابَهُ الْمُحْرَمُ فَفِيهِ كَبِيرٌ مُسْنٌ وَيُؤْكَلُ) وينقل عن الحاكم قوله: "هُوَ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ"، ويذكر أن ابن السكك أيضاً في صحاحه قَالَ التِّرْمِذِيُّ: سَأَلْتُ الْبُخَارِيَّ عَنْهُ فَقَالَ: إِنَّهُ حَدِيثٌ صَحِيحٌ" ويورد ما يشهد لذلك حديث: (قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي عَمَّارٍ: سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ الصَّبْعِ: أَصَيْدٌ؟ قَالَ: نَعَمْ،

قُلْتُ: أَيُّكُلُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: أَقَالَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَأَنْ التَّرْمِذِيُّ أَخْرَجَهُ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

ويورد رواية معارضة عند البيهقي عن عبد الله بن معقل السلمي (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا تَقُولُ فِي الصَّبْعِ؟ قَالَ: لَا أَكُلُهُ وَلَا أَنْهَى عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: مَا لَمْ تَنْهَ عَنْهُ فَإِنِّي أَكُلُهُ) قَالَ: وَإِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ⁽⁸⁶⁾.

ثانيا الترجيح من خلال المتون ويمكن تقسيمه إلى:

ترجيح ما روي باللفظ على المعنى⁽⁸⁷⁾، أو ما اتفق على لفظه على ما اختلف في لفظه⁽⁸⁸⁾، ومن أمثلة ذلك ترجيح من رجح رواية ابن مسعود في لفظ التشهد حيث يقول: (عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وكفي بين كفيه التشهد كما يعلمني السورة من القرآن؛ التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وهو بين ظهراني فلما قبض قلنا السلام يعني على النبي ﷺ)⁽⁸⁹⁾ على رواية غيره من الصحابة كرواية ابن عباس وفيها قال: (كان رسول الله ﷺ يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن فكان يقول التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ﷺ)⁽⁹⁰⁾، وقد اختلف الإباضية في مسألة لفظ التشهد، والصيغة التي ذكر نور الدين أنها اختيار المشاركة أقرب إلى لفظ رواية ابن مسعود، بينما اختار المغاربة تشهد ابن عباس⁽⁹¹⁾... وقد ذكر القطب في شامله الألفاظ المختلفة في ذلك وتنوع اختيار فقهاء الأمة لها⁽⁹²⁾.

ترجيح ما كان متنه سالما من الاضطراب، ومن أمثلة ما علق عليها القطب باضطراب المتن ما ورد من روايات عن عائشة في قيام النبي ﷺ الليل، قال القطب: "والاضطراب في تلك الروايات عن عائشة لاختلاف الرواة واختلاف الأوقات فيحمل لك على أوقات متعددة وأحوال مختلفة بحسب النشاط وبيان الجواز"⁽⁹³⁾.

ومنها ترجيح الخبر المومئ إلى علة الحكم لأن ما حوى العلة أقرب إلى البيان، يقول نور الدين السالمي: "لأن المعلل أقرب إلى انقياد سامعه لمضمونه ولدلالته على الحكم من جهتين؛ من جهة لفظه ومن جهة دلالة عليه بواسطة دلالة على علته"⁽⁹⁴⁾، ومن الأمثلة هنا ترجيح رواية عدي بن حاتم قال: (سألت رسول الله ﷺ قلت إنا قوم نصيد بهذه الكلاب، فقال إذا أرسلت كلابك المعلمة وذكرت اسم الله فكل مما أمسكن عليكم وإن قتلن إلا أن يأكل الكلب، فإنني أخاف أن يكون إنما أمسكه على نفسه، وإن خالطها كلاب من غيرها فلا تأكل)⁽⁹⁵⁾ على رواية أبي ثعلبة الخشني قال: قال رسول الله ﷺ: في صيد الكلب (إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله

فكل وإن أكل منه، وكل ما ردت عليك يدك⁽⁹⁶⁾.

وقد رجح القطب العلمل بالحديث الأول ومال إلى دلالاته الفقهية من حديث أبي ثعلبة الخشني⁽⁹⁷⁾. ومنها ترجيح القول على الفعل⁽⁹⁸⁾ ويعد من أمثلة هذا النوع من الترجيح ترجيح حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا سجد أحدكم فلا يترك كما يترك البعير وليضع يديه قبل ركبتيه)⁽⁹⁹⁾ لأنه قول، على حديث وائل بن حجر قال: (رأيت النبي ﷺ إذا سجد وضع ركبتيه قبل يديه وإذا نهض رفع يديه قبل ركبتيه)⁽¹⁰⁰⁾ ولكن رغم تصريح القطب بهذه القاعدة – كما أسلفنا – لكنه رجح العمل بالحديث الثاني على الأول فقال: "وَالصَّحِيحُ عِنْدِي تَقْدِيمُ الرُّكْبَتَيْنِ" (101)

ومنها ترجيح رواية القول على التقرير، مثل ترجيح حديث عائشة أم المؤمنين أنها قالت: (صلى رسول الله ﷺ في بيته وهو شاكٍ، فصلّى جالسا وصلّى وراءه قوم قياما فأشار إليهم أن اجلسوا، فلما انصرف قال إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا ركع فاركعوا وإذا رفع فارفعوا وإذا صلى جالسا فصلّوا جلوسا)⁽¹⁰²⁾ ومثله حديث أنس وهما من الحديث القولي على حديث عائشة التقريري الذي ذكرت فيه مرضه وأمره ليصلي أبو بكر بالناس وأنه خرج بعد إقامة الصلاة.. (فأراد أبو بكر أن يتأخر فأومأ إليه النبي ﷺ أن مكانك ثم أتى به حتى جلس إلى جنبه، قيل للأعمش وكان النبي ﷺ يصلي وأبو بكر يصلي بصلاته والناس يصلون بصلاة أبي بكر فقال برأسه نعم، وزاد أبو معاوية جلس عن يسار أبي بكر فكان أبو بكر يصلي قائما)⁽¹⁰³⁾

وساق القطب القول القائم على ترجيح الحديث الأول إلا أنه اختار ورجح الثاني واعتبر جواز إمامة القاعد بالقائم لمثل أئمة العدل⁽¹⁰⁴⁾.

ترجيح الفعل على التقرير مثل ترجيح حديث عدم الزيادة في التلبية على ما قاله الرسول ﷺ وإن سكت عنه كما روى جابر بن عبد الله قال عن تلبية النبي ﷺ: (فخرج حتى إذا استوت به راحلته على البيداء أهلّ بالتوحيد لييك اللهم لييك، لييك لا شريك لك لييك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك، قال وأما الناس يزيدون ذا المعارج ونحوه والنبي ﷺ يسمع لا يقول شيئا)⁽¹⁰⁵⁾

يقول القطب: "الْأَفْضَلُ مَا ذُكِرَ لِأَنَّهُ تَلْيِيَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" (106).

2- الترجيح باعتبار دلالة الحديث:

ترجيح المنطوق على المفهوم⁽¹⁰⁷⁾ كترجيح حديث ابن عمر المقتضي منطوقه قبول شهادة الواحد العدل في رؤية هلال شهر رمضان، فعن ابن عمر قال: (تراءى الناس الهلال، فأخبرت رسول الله ﷺ أنني رأيته فصامه وأمر الناس بصيامه)⁽¹⁰⁸⁾ على حديث الحارث بن حاطب وفيه قال: (عهد إلينا رسول الله ﷺ أن ننسك للرؤية، فإن لم نره وشهد شاهدا عدل نسكنا

بشهادتهما⁽¹⁰⁹⁾ المقتضي مفهوم مخالفته أنه لا تقبل شهادة الواحد العدل لدخول رمضان.

وقد أشار القطب إلى ترجيح الأخبار المقتضية قبول خبر الواحد في رؤية الهلال إذ يقول: "وَفِي الصَّوْمِ بِالْعَدْلِ الْوَاحِدِ قَوْلَانِ؛ وَالصَّحِيحُ لَزُومُهُ، وَذَلِكَ عَمَلٌ بِأَحَادِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَقْلِيدًا لَا قِيَامًا لِلْحُجَّةِ بِالْعَقْلِ أَوْ بِالْمُشَاهَدَةِ"⁽¹¹⁰⁾.

ترجيح مفهوم الموافقة على مفهوم المخالفة⁽¹¹¹⁾، ومن أمثله ترجيح حديث أبي هريرة: (أن النبي ﷺ قال: لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن، قالوا يا رسول الله وكيف إذن؟ قال: أن تسكت)⁽¹¹²⁾ على حديث ابن عباس (أن النبي ﷺ قال: الشيب أحق بنفسها من وليها والبكر تستأمر وإذنها سكوتها)⁽¹¹³⁾.

وقد ناقش القطب دلالات هذه الأحاديث ونصوص أحاديث أخرى وبها يتقرر حق الولي مع حق المرأة معا في التزويج ثبته كانت أم بكرة⁽¹¹⁴⁾، الترجيح باعتبار مدلول الحديث: ⁽¹¹⁵⁾،

الخاتمة

في نهاية البحث يمكننا التأكيد على النتائج الآتية:

- يعتبر فن مختلف الحديث من الفنون المهمة في فقه الحديث ودرء التعارض بين الروايات.

- تنوعت قواعد وطرق جمع الحديث التي وظفها الإمام القطب في درء التعارض بين الروايات بين الجمع والترجيح والتوقف.

- في تطبيقات قاعدة الجمع وجدنا النظرة الأفقية الموسوعية النافذة للقطب اطفيش في طرق جمعه الروايات.

- في تطبيقات قاعدة الترجيح بدى الإمام القطب متضلعا في علوم الترجيح وقواعده اسنادية كانت أو متنا.

- يعتبر التراث العلمي للقطب واسعا، وعليه في هذا الجانب فقط لا يمكن استيعاب الكشف عن درء التعارض بين الروايات؛ بل لا بد من دراسات مستفيضة تكشف هذا الجانب، واقتراح دراسات بالعناوين الآتية:

- درء تعارض الروايات بقاعدة الجمع وتطبيقاته عند القطب اطفيش.
- درء تعارض الروايات بقاعدة الترجيح وتطبيقاته عند القطب اطفيش.
- درء تعارض الروايات بقاعدتي الجمع والترجيح لنفس النصوص وتطبيقاته عند القطب اطفيش.

الهوامش:

- (1) الفيروز أبادي، القاموس المحيط، مادة خلف، 13/3.
- (2) ابن منظور، لسان العرب، مادة خلف، 91/1.
- (3) م.س، مادة خلف، 90/9-91.
- (4) الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد (1109/502)، المفردات في غريب القرآن، تح: محمد سيد كيلاي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ت)، مادة خلف، 156/1.
- (5) أبو شهية محمد، الوسيط في علوم الحديث ومصطلحه، ص441.
- (6) ابن بركة، الجامع، 18/1، الكندي أبو عبد الله، بيان الشرع، 19/1.
- (7) اطفيش، جامع الشميل، ص428، 429.
- (8) اطفيش، جامع الشميل، ص428، 429.
- (9) اطفيش، جامع الشميل، ص 434، 435.
- (10) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة جمع، 479/1.
- (11) القاموس المحيط، مادة جمع، 678/1.
- (12) ابن منظور، لسان العرب، مادة جمع، 53/8.
- (13) الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف، 259/4.
- (14) اطفيش، شرح النيل، كتاب الزكاة، 155/5.
- (15) أخرجه البخاري في صحيحه، 529/2 (1390).
- (16) اطفيش، شرح النيل، 302/8.
- (17) بهذا اللفظ أخرجه الترمذي في سننه، 31/3، ح(639)، وأصح طرق هذا الحديث جاء عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه و سلم قال (فيما سقت السماء والعيون أو كان عثريا العشر وما سقي بالنضح نصف العشر). أخرجه البخاري في صحيحه، 540/2 (1412).
- (18) بهذا اللفظ أخرجه الترمذي في سننه، 31/3، ح(639)، وأصح طرق هذا الحديث جاء عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه و سلم قال (فيما سقت السماء والعيون أو كان عثريا العشر وما سقي بالنضح نصف العشر).
- أخرجه البخاري في صحيحه، 540/2 (1412).
- (19) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استئذان النيب... 1037/2 (1421)، وابن حبان في صحيحه، كتاب النكاح، باب الولي، 398/9 (4088).
- (20) أخرجه الحاكم في المستدرک، كتاب النكاح، 182/2 (2706)، وابن حبان في صحيحه، كتاب النكاح، ذكر بطلان النكاح... 384/9 (4074).
- (21) ابن بركة، الجامع، 120/2.
- (22) اطفيش، شرح النيل، 10 / 272.
- (23) المفسر اسم يطلق على المكشوف الذي يعرف المراد به على وجه لا يبقى معه احتمال التأويل، فهو لا يكون محتملا إلا وجهها واحدا فقط. ر: السرخسي أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي سهل (1097/490)، أصول

- السرخسي، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، 165/1.
- والمجمل عكس المفسر فهو لفظ لا يفهم المراد منه إلا ببيان وجه الإجمال فيه حتى يعرف المراد به ر:
- السرخسي، أصول السرخسي، 165/1.
- (24) ابن بركة، الجامع، 18/1.
- (25) اطفيش، رسالة إن لم تعرف الإباضية يا عقبي يا جزائري، 159/1.
- (26) أخرجه الربيع بلفظ (إن أحدكم إذا كان في الصلاة فلا يدع أحدا يمر بين يديه وليدراً ما استطاع فإن أبي فليقاتله فإنما هو شيطان) في مسنده، كتاب الصلاة ووجوبها، باب الجواز بين يدي المصلي، 103/1(243)، وأخرجه البخاري بلفظ مقارب، في كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، 1193/3(3100)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب منع المار... 362/1(505).
- (27) أخرجه بهذا اللفظ أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب من قال لا يقطع الصلاة شيء، 191/1(719)، والدارقطني في سننه، كتاب الصلاة، باب صفة السهو في الصلاة وأحكامه... 368/1(5)(6).
- (28) اطفيش، شرح النيل، 54/3.
- (29) أخرجه النسائي في السنن الصغرى، كتاب الصلاة، باب فرض الصلاة وسننها، 236/1(355)، والترمذي في سننه، كتاب أبواب الصلاة، باب ما جاء في افتتاح القراءة، 25/2(247)، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب الصلاة، باب من قال يقرأ خلف الإمام، 167/2(2758)، والطبراني في مسند الشاميين، ما أسند سعيد بن عبد العزيز التنوخي، 189/1(331).
- (30) أخرجه الربيع في مسنده، باب في القراءة في الصلاة، 95/1(222).
- (31) اطفيش، تيسير التفسير، 469/11.
- (32) اطفيش، تيسير التفسير، تفسير سورة البقرة، 253/1.
- (33) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الحج، باب الإحرام، 92/9(3781)، والنسائي في السنن الكبرى، كتاب الحج، الرخصة في لبس الخفين، 336/2(3659).
- (34) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الحج، باب الإحرام، 98/9(3788)، وابن خزيمة في صحيحه، كتاب المناسك، باب ذكر الخبر المفسر... 200/4(2683).
- (35) اطفيش، الجامع الصغير، 63/1.
- (36) أخرج البخاري في صحيحه، 7 - باب السلم إلى أجل معلوم، 784/2(2135).
- (37) اطفيش، 84/16.
- (38) حديث الغسل لكل صلاة أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار، 99/1.
- (39) حديث الغسل لكل صلاة أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار، 208/1.
- (40) الحديث أخرجه الربيع بلفظ (إذا أدبرت الحبضة فقد وجب الغسل)، 220/1 ح 547.
- (41) اطفيش، شرح النيل، 67/2.
- (42) السالمي، جواباته، 10/7.
- (43) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، كتاب التطبيق، في عدد التسييح، 241/1(721)، والمقدسي

- في الأحاديث المختارة، حديث سعيد بن جبير عن أنس، 6/145(2140).
- (44) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التسيح في الركوع، 1/305(604)، وابن ماجه في سننه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب السجود، 1/287(888)، والدارقطني في سننه، كتاب الصلاة، باب صفة ما يقول...1/341(1).
- (45) اطفيش، شرح النيل، 3/174.
- (46) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب حكم ولوغ الكلب، 1/234(279)، والحاكم في المستدرک، كتاب الطهارة، 1/265(572) وأخرجه الربيع بلفظ (إذا ولغ الكلب في إناء أحكم فليغسله سبع مرات) في مسنده، كتاب الطهارة، باب جامع النجاسات، 1/71(155).
- (47) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب حكم ولوغ الكلب، 1/235(280)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الطهارة، باب الأسار، 4/114(1298).
- (48) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار، كتاب الطهارة، باب سؤر الكلب، 1/123.
- وقال الطحاوي عقبه: "فلما كان أبو هريرة قد رأى أن الثالث يطهرن الإناء من ولوغ الكلب فيه وقد روى عن النبي ﷺ ما ذكرنا ثبت بذلك نسخ السبع لأننا نحسن الظن به فلا نتوهم عليه أنه يترك ما سمعه من النبي ﷺ إلا إلى مثله ولا سقطت عدالته فلم يقبل قوله ولا روايته ولو وجب أن يعمل بما روي في السبع ولا يجعل منسوخا لكان ما روى عبد الله بن المغفل في ذلك عن النبي ﷺ أولى مما روى أبو هريرة لأنه زاد عليه"، وأخرج عبد الرزاق الفتوى بالثلاث عن الزهري، كتاب الطهارة، باب الكلب يلغ في الإناء، 1/97(336)، وأخرج الدارقطني حديثنا من طريق إسماعيل بن عياش عن هشام بن عروة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ (في الكلب يلغ في الإناء أنه يغسله ثلاثا أو خمسا أو سبعا) في سننه، كتاب الطهارة، باب ولوغ الكلب، 1/65(13) ولكن الإشكال يلحق هذه الرواية في تقديري وذلك لتعليل النقاد رواية ابن عياش غير الشامية وهي هنا من إسناد مدني. لمعرفة تفصيل تعليل أئمة النقد والرواية لإسماعيل في غير روايته الشامية انظر: ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال، 1/291، الجوزجاني، أحوال الرجال، 1/174، البستي ابن حبان محمد بن حبان(965/354)، المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، مراجعة محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، حلب، سورية، 1396هـ، 1/124، ابن عساكر علي بن حسن بن هبة الله(571/1156)، تاريخ مدينة دمشق، تح: محب الدين العمري، دار الفكر، بيروت، 1995م، 9/45 وما بعدها، الذهبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن احمد(748/1348)، ذكر من تكلم فيه وهو موثوق، تح: محمد شكور أمير الميادين، ط1، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، 1406هـ، 1/47.
- (49) ر: اطفيش، شرح النيل، 1/113، السالمي، معارج الآمال، 5/34.
- (50) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في البكاء على الميت، 1/505(1587)، وأحمد في مسنده، مسند أبي هريرة، 2/444(9729).
- (51) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب اتباع النساء الجنائز، 1/429(1219)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب نهى النساء عن اتباع الجنائز، 2/646(938).
- (52) اطفيش، شرح النيل، 4/459.
- (53) أخرجه الربيع في مسنده، كتاب البيوع، باب ما ينهى عنه من البيوع، 1/227(569)، والدارمي في

سنه، كتاب البيوع، باب في النهي عن شرطين في بيع، 2/329(2560).

(54) تقدم تخريجه.

(55) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب إذا اشترط...760/2(2061)، والربيع في مسنده، كتاب الطلاق، باب الحداد والعدة، 1/216(535)، ومسلم في صحيحه، كتاب العتق، باب إنما الولاء...1143/2(1504).

(56) أخرجه الربيع من طريق ابن عباس في مسنده، كتاب البيوع، باب ما ينهي عنه...227/1(570)، وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، من طريق عون بن عبد الله عن عتبة، ولم يذكر إبطال البيع، كتاب البيوع والأقضية، باب في الرجل يبيع...4/546(23012).

(57) أخرجه البيهقي مرفوعاً بلفظ (الولاء بمنزلة النسب لا يباع ولا يوهب أقره حيث جعله الله) في السنن الكبرى، كتاب العتق، باب من أعتق مملوكاً له، 10/294(21331)، وأخرج مثله البيهقي وغيره موقوفاً عن عدد من الصحابة.

(58) يشير إلى رواية الربيع التي ذكر فيها -بعد ذكر رواية جابر- أن ابن عباس قال: "وانما أجاز النبي ﷺ ذلك لأن الشرط لم يكن في عقدة البيع". ر: الربيع بن حبيب، المسند، كتاب البيوع، باب ما ينهي...1/227(570).

(59) ر: ابن بركة، الجامع 1/19 - 20.

(60) اطفيش، شرح النيل، 14/266.

(61) اطفيش، شرح النيل 23/259 (ضالة الإبل والبقر).

(62) القيراط قياس هو نصف دانق، والدانق يساوي نصف درهم. ر: البركتي، التعريفات الفقهية،

ص94، 179.

(63) تقدم تخريجه.

(64) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الذبائح والصيد، باب من اقتنى كلباً ليس...5/2088(5163)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب الأمر بقتل الكلاب وبيان...3/1201(1574).

(65) اطفيش، شرح النيل، 14/78، باب بيع المحرمات.

(66) أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب السهو في الصلاة، باب إذا صلى خمسا، 1/411(1168)، وابن خزيمة في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ذكر المصلي يصلي خمس...2/131(1056).

(67) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد وأوضاع الصلاة، باب السهو في الصلاة...1/400(571)، والدارقطني في سننه، كتاب الصلاة، صفة السهو في الصلاة وأحكامه، 1/371(20).

(68) اطفيش، شرح النيل، 4/106.

(69) راجع ورود هذه المعاني في: ابن منظور، لسان العرب، مادة رجح، 2/445، الفيروزآبادي،

القاموس المحيط، مادة رجح، 1/221،، الصحاح مادة رجح، 1/466.

(70) ابن منظور، لسان العرب، مادة رجح، 2/445.

(71) الشماخي، شرح مختصر العدل، ص605.

(72) السالمي، شرح طلعة الشمس، 2/192.

- (73) اطفيش، جامع الشمل، ص429.
- (74) اطفيش، شرح النيل، 35/ 102، فصل التقيد.
- (75) اطفيش، شرح النيل، 435/12.
- (76) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب النكاح، ذكر شهادة الرسول ﷺ الذي كان بين المصطفى وبين ميمونة... 9/442(4135)، والدارقطني في سننه، كتاب النكاح، باب المهر، 3/262(67).
- (77) تقدم تخريجه.
- (78) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب تحريم نكاح المحرم وكراهية خطبته، 2/1030(1409)، وابن خزيمة في صحيحه، كتاب المناسك، باب الزجر عن تزويج المحرم...، 4/183(2649)، وأبو داود في سننه، كتاب المناسك، باب المحرم يتزوج، 2/169(1841)، والدارقطني في سننه، كتاب النكاح، باب المهر، 3/260(57).
- (79) اطفيش، شرح النيل، 11/69.
- (80) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب الأفراد والقران بالحج، 2/904(1231)، والدارقطني في سننه، كتاب الحج، باب المواقيت، 2/238(13).
- (81) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب إهلال النبي وهديه، 2/915(1251)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الحج، باب ما جاء في حج النبي...، 9/240(3930).
- (82) اطفيش، هيميان الزاد، 2/247.
- (83) السالمي، شرح طلعة الشمس، 2/203.
- (84) اطفيش، شرح النيل، 34/305، باب في التفكير.
- (85) اطفيش، شرح النيل، 3/277.
- (86) اطفيش، شرح النيل، 2/203.
- (87) م.س، 2/202.
- (88) ر:الشماسي، شرح مختصر العدل، ص607، الثلاثي، رفع التراخي (مخ)، ص268، السالمي، شرح طلعة الشمس، 2/202.
- (89) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب الأخذ باليد... 5/2311(5910)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، 1/302(402).
- (90) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، 1/302 (403) وابن حبان في صحيحه، كتاب الصلاة، ذكر الإباحة للمرء أن يتشهد... 5/282(1952).
- (91) السالمي، المعارج، 8/203.
- (92) اطفيش، شامل الأصل والفرع، 2/115-118.
- (93) اطفيش، الهيميان، 7/361.
- (94) السالمي، شرح طلعة الشمس، 2/208.
- (95) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الذبائح والصيد، باب إذا أكل الكلب، 5/2089(5166) ومسلم في صحيحه، كتاب الصيد والذبائح، باب الصيد بالكلاب المعلمة، 3/1529(1929).

- (96) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصيد، باب في اتخاذ الكلب للصيد، 3/109(2852) وأحمد في مسنده، مسند أبي ثعلبة الخشني، 4/195(17783).
- (97) اطفيش، الهيميان، 4/227.
- (98) ر: اطفيش، شرح عقيدة التوحيد، ص341.
- (99) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، كتاب التطبيق، باب أول ما يصل إلى الأرض من الإنسان في سجوده، 1/229(678)، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب كيف يضع ركبتيه قبل...1/222(840).
- (100) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، كتاب التطبيق، باب أول ما يصل إلى الأرض من الإنسان في سجوده، 1/229(676)، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب كيف يضع ركبتيه قبل...1/222(838).
- (101) اطفيش، شرح النيل، 3/185.
- (102) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجماعة والإمامة، باب إنما جعل الإمام ليؤتم به، 1/244(656) وابن حبان في صحيحه، كتاب الصلاة، ذكر البيان بأن القوم صلوا خلف...5/462(2104) وأخرج الربيع مقاربا له في مسنده، كتاب الصلاة ووجوبها، باب في القعود في الصلاة والتحيات، 1/102(240).
- (103) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجماعة والإمامة، باب حد المريض أن يشهد الجماعة، 1/236(633)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا...1/313(418).
- (104) اطفيش، شرح النيل، 3/356.
- (105) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه، كتاب المناسك، باب إباحة الزيادة في التلبية، 4/173(2626)، وابن الجارود في المنتقى، باب المناسك، 1/121(465).
- (106) اطفيش، شرح النيل، 7/41.
- (107) السيباني خلفان بن جميل، فصول الأصول، ص362.
- (108) أخرجه الحاكم في المستدرک وصححه، كتاب الصوم، 1/515(1541) وأبو داود في سننه، كتاب الصوم، باب شهادة الواحد...2/302(2340).
- (109) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصوم، باب شهادة الرجلين...2/301(2338)، والدارقطني في سننه، كتاب الصيام، باب الشهادة على رؤية الهلال، 2/167(1).
- (110) اطفيش، شرح النيل، 6/185.
- (111) السيباني خلفان بن جميل، فصول الأصول، ص362.
- (112) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا يُنكح الأب...5/1974(4843)، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب الوفاء بالشروط في النكاح، 2/1036(1419).
- (113) تقدم تخريجه.
- (114) أنظر اطفيش، شرح النيل، 10/312 فما بعدها.
- (115) ر: السالمي، شرح طلعة الشمس، 2/207.

مبادئ علم أصول الفقه في تفسير الشيخ الطبرسي

محمد بولقصاع

قسم العلوم الإسلامية المركز الجامعي غرداية

غرداية ص ب 455 غرداية 47000 الجزائر

علوم القرآن الكريم من أجل العلوم، وأعلاها، وأنفعها، إذ هو السبيل لفهم كتاب الله تعالى، وتدبره، ومعرفة حكمه، واستنباط أحكامه، وحكمه، وحل مشكله، وفهم متشابهه، بصورة صحيحة دقيقة؛ لأنه لا يمكن أن يفهم القرآن ويفسره من لا يعرف نطقه، ورسمه، وأوجه قراءته، وأسباب نزوله، وناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ونحو ذلك، فهو الأساس، والمفتاح لفهم القرآن الكريم.

من هذا المنطلق؛ فقد أدرك القطب - رحمه الله - أهمية هذا العلم، وخطورة الإقدام على تفسير كتاب الله الذي لا ينال إلا بالتمكن والتبحر في علوم القرآن، فكانت له قدم راسخة وإيمان عميق بهذا العلم في شتى مباحثه، إذ بنى عليه تفسيره، سواء بذكر قواعده أو بتطبيقاته المباشرة على الآيات، وفيما يلي سيعرض الباحث أهم مباحث علوم القرآن التي تناولها القطب - رحمه الله - في تفسيره بصورة موجزة، والحق يقال أن الأصل في هذا الموضوع أن تفرد له رسالة دكتوراه، حتى يعطى للموضوع حقه في شتى جوانبه؛ لا أن يحدد بقراءة خمسة عشر صفحة، لكن حسينا أن نقدم بحثا مختصرا في هذا الشأن.

المبحث الأول: النسخ والمنسوخ.

يعد علم النسخ والمنسوخ من المباحث الأصولية الهامة لما لها من ارتباط بالأحكام الشرعية دون غيره من علوم القرآن.

وقد نال هذا المبحث اهتماما كبيرا من المفسر قطب الأئمة - رحمه الله - وذلك من خلال تناوله من جهات عديدة أبرزها:

1- تعريفه للنسخ: "النسخ إزالة حكم قضي في الأزل أنه يُزال، لا ظهور لما خفي، تعالى الله" (1).

وهذا التعريف الذي اعتمده الشيخ مماثل لتعريف الفقهاء والأصوليين الذين عرفوه بأنه: "رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي" (2).

2- أنواع النسخ في القرآن: وافق القطب - رحمه الله - ما ذهب إليه العلماء من أن النسخ

في القرآن يكون على ثلاثة أنواع هي:

أ- نسخ الحكم والتلاوة معا: حيث قال: ومما نسخ لفظه وحكمه «عشر رضعات معلومات يحرمن»، وكثير من سورة الأحزاب، وكانت كالبقرة، إلا أنه يحتمل بقاء بعض حكمها في سورة أخرى.

ب- نسخ الحكم وبقاء التلاوة: حيث قال: ومما نسخ حكمه فقط آية عدة الوفاء بالسنة، نسخت بآية العدة بأربعة أشهر وعشر.

ج- نسخ التلاوة وبقاء الحكم: حيث قال: ومما نسخ لفظه فقط آية الرجم: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما...»، قال عمر: «قرأناها، ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا، إذا كانت البينة أو الحمل أو الاعتراف»، وكانت في سورة الأحزاب، وقيل في النور⁽³⁾.

3- أنواع النسخ من حيث البديل وعدمه: قسم القطب -رحمه الله- النسخ من حيث البديل وعدمه إلى قسمين:

أ- نسخ بلا إبدال: ينسخ الحكم ولا بدل له، ولم يضرب له مثالا.

ب- نسخ ببدل: حيث يؤتى بحكم جديد بدل المنسوخ، وهو على ثلاثة أنواع من حيث التشديد والتخفيف:

- أن يكون الناسخ أخف من المنسوخ كأربعة الأشهر⁽⁴⁾.

- أن يكون الناسخ أشد من المنسوخ كوجوب الصوم بعد التخيير بينه وبين الإطعام.

- أن يكون الناسخ مساو للمنسوخ كنسخ الصلاة إلى القدس بالصلاة إلى الكعبة⁽⁵⁾.

4- مجال النسخ: أكد القطب -رحمه الله- على قاعدة مهمة في النسخ حيث قال: "لا نسخ في الأخبار، وإنما يكون في الأحكام"⁽⁶⁾، فالنسخ يكون في الأحكام العملية لا العقائدية، وأنه لا يشمل الأخبار كالقصص والوقائع؛ لأن الأخبار الماضية لا تتبدل ولا يطرأ عليها النسخ، فلو نقل أحد خبرا مثل أن يقول: قام فلان ثم نسخ هذا فقال: لم يقد كذب.

5- مثال على إثبات النسخ أو عدمه: لم يكن القطب -رحمه الله- ممن ينفون النسخ مطلقا من القرآن، أو ممن يتوسعون في القول به؛ بل وقف موقفا معتدلا، ومن أراد أن يعرف موقف الشيخ من النسخ فليرجع إلى تفسير قوله تعالى: ﴿مَا نَسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 106]. وفيما يلي مثال على إثبات النسخ أو عدمه من قبل الشيخ.

أ- مثال عن آية ثبت نسخها عند الشيخ، فمن ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ﴾ [المجادلة: 12]: "أكثرنا التناجي على رسول الله ﷺ ولا سيما

الأغنياء لحبهم الفخر بالمناجاة ولو في غير مهم، ويغلبون الفقراء على المجلس، حتى ثقل عليه ذلك، وأصابه الملل، وكان سخي النفس لا يرد أحداً عن حاجة، فأمرهم الله ﷻ أمر نذب، وقيل: إنه أمر إيجاب، وإنه نسخ بقوله ﷻ: ﴿ أَشَقُّنَا ﴾ [المجادلة: 13] على الصحيح⁽⁷⁾.

ب- مثال عن آية لم يثبت نسخها عند الشيخ، فمن ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نَسَائِكُمْ﴾ [النساء: 15] "لما نزل الجلد والرجم قال ﷻ: «هما السيل، خذوا عني، خذوا عني»⁽⁸⁾، وليس ذلك نسخاً؛ بل غاية؛ لأنه ذكر السيل هنا غاية، وآية الجلد ودلائل الرجم بيان لا نسخ،... وكأن الأمور بالتدرج"⁽⁹⁾.

المبحث الثاني: أسباب النزول.

يعرفه العلماء بأنه: "ما نزل قرآن بشأنه، وقت وقوعه، كحادثة أو سؤال"⁽¹⁰⁾.

وسبب النزول أحد أهم علوم القرآن الكريم، وما ذلك إلا لعلاقته المباشرة بتفسير الآية، إذ يعد سبب النزول أحد الشواهد الأساسية في ترجيح معنى الآية، ولهذا الغرض اهتم به علماء التفسير عناية كبيرة حتى أن عبد الله بن مسعود ؓ قال: «والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيما أنزلت، ولَوْ أَعْلَمَ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللَّهِ تَبْلُغُهُ الْإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ»⁽¹¹⁾، وهو يقصد الاهتمام بهذا العلم.

والذي يقرأ تفسير "تيسير التفسير" يجد غاية الاهتمام بهذا العلم من قبل مؤلفه، بالعرض والتحقيق في سبب نزول الآية، وفيما يلي بعض القواعد التي تندرج تحت هذا المبحث والتي تعرض لها الشيخ في تفسيره منها:

1- العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب: حيث نرى أن قطب الأئمة . رحمه الله . في هذه المسألة قد وافق جمهور المحققين من العلماء من أن الآية وإن كان سبب نزولها متعلق بشخص بعينه، أو حادثة بعينها، إلا أن حكمها يعم سائر المؤمنين، لأن القرآن كتاب هداية عامة، لا يختص بالصحابة وحدهم، وإن كان بعضهم السبب المباشر في نزول الآية لحكمة أرادها الله.

فقرأ مثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: 195]. حيث ذكر سبب نزول هذه الآية قائلاً: "قال أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري: لما أعز الله الإسلام وكثر أهله رجعنا إلى أموالنا وأهلنا نقيم فيها ونصلحها، فنزلت الآية،... وفسر بعض التهلكة بالدخول في وسط العدو، وفسر بالبخل ونحو ذلك مما مر، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"⁽¹²⁾.

ونقرأ أيضاً في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ [البقرة: 159]. أنه: "سأل معاذ بن جبل، وسعد بن معاذ، وخارجة بن زيد نفرا من أحرار اليهود عن بعض ما في التوراة

فكتموا، فنزلت، وقيل: نزلت في الكاتمين من اليهود والنصارى، إلا أن خصوص السبب لا يدفع عموم الحكم، فالآية تعم من كتم من أهل التوحيد ما لا يجوز له كتمه من أمر الدين" (13).

من هذين المثالين وغيرهما كثير يبين القطب . رحمه الله . أن الغالب في سبب نزول الآية أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

2- تحقيق القول في أسباب النزول: كان القطب . رحمه الله . يدقق في الروايات ولا يسلم لها، فقرأ مثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: 28] أنه ناقش سبب نزول هذه الآية حيث قال: "كما روي أن أمية بن خلف ونحوه من كبار قريش، وعيينة والأقرع من المؤلفة قالوا: اطرده هؤلاء الفقراء لضعفهم، واتساح ثيابهم نجاسك، ونقل عنك، فنزلت الآية، لكن أمية في مكة والمؤلفة في المدينة، والصحيح أن السورة مكية" (14).

2- الاستعانة على فهم الآية بسبب النزول: فمن أهم فوائد معرفة سبب النزول أنه يعين على فهم الآية فهما صحيحاً؛ لأن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب.

فترى القطب -رحمه الله- عند تفسيره لكثير من الآيات يعتمد على سبب النزول الذي يوضح معنى الآية، فلا تمر آية وفيها سبب نزول إلا أوردها القطب في تفسيره، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: 26]. يستعين على فهم هذه الآية بذكر سبب نزولها حيث قال: "والصحيح ما ذكر عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه ذكر الله سبحانه أصنام المشركين فقال: ﴿وَأِنْ يَسْأَلُكُمُ الدَّيَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَغْنُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: 73] وذكر كيدها وجعله كبيت العنكبوت ﴿وَأِنْ أَوْهَنْ الْبُيُوتِ لَبِيتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: 41]، فقالوا، كيف ينزل الله ذكر الذباب والعنكبوت؟! فنزلت الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ [البقرة: 26] (15).

3- صورة سبب النزول قطعية الدخول في الآية: وافق القطب -رحمه الله- ما ذهب إليه جمهور المحققين من أن سبب النزول الذي نزلت من أجله الآية إنما داخله بالقطع والتأكيد في معنى الآية، فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33].

يقول القطب: "وزعمت الشيعة أنها لا تدخل في آل زوجها وأهل بيته إلا إن كانت من نسبه، وأخرجوا عائشة -رضي الله عنها- من هذه الآية" (16)، فيرد عليهم القطب -رحمه الله- بأن الآية تشمل أزواج النبي ﷺ بمقتضى سبب النزول حيث ذكر روايات منها: "أخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر عن عكرمة عن ابن عباس: نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة، قال عكرمة: من شاء باهلهن إنها في أزواج النبي ﷺ. وأخرج الطبري: وابن مردويه عن عكرمة: إن الآية في أزواج

النبي ﷺ لا في قرابته الذين تذهبون إليهم، وكان عكرمة ينادي في السوق: إن قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ إنما نزل في أزواج النبي ﷺ " (17).

المبحث الثالث: نزول القرآن: وهو يشتمل على مسائل عديدة منها:

1- عدد مرات نزول القرآن: اختلف العلماء في عدد تنزلات القرآن على أكثر من رأي، وهذا الاختلاف راجع إلى أن بعض الآيات وصفت نزول القرآن بأنه كان جملة واحدة مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴾ [الدخان: 3]، وقوله: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر: 1]، وآيات أخر وصفت نزوله منجما كقوله تعالى: ﴿ وَفَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ [الإسراء: 106]، وقوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: 32]، وذهب قطب الأئمة . رحمه الله . إلى أن للقرآن تنزلان وإلى هذا الرأي ذهب أكثر أهل العلم (18)، وهذان التنزلان هما:

أ- التنزل الأول: من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا جملة واحدة وهذا في شهر رمضان في ليلة القدر، وهي التي سماها الله ليلة مباركة، وهذا ما أخبرت عنه سورة البقرة وسورة الدخان وسورة القدر.

ب- التنزل الثاني: من السماء الدنيا على قلب النبي ﷺ مفردا في ثلاث وعشرين سنة، وهذا ما أخبرت عنه سورة الإسراء وسورة الفرقان (19).

2- أول ما نزل وآخر ما نزل:

أ- أول ما نزل من القرآن: جاءت روايات كثيرة ظاهرها التعارض في بيان أول ما نزل من القرآن، فقد ورد أن أول ما نزل هو مطلع سورة العلق، وقيل سورة الفاتحة، وقيل سورة المدثر.

والقطب -رحمه الله- إزاء اختلاف هذه الروايات قد حقق في جميعها وبين وجه الصواب فيها، وأزال الإشكال الذي يترأى للقارئ أنه تعارض، فقال في قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ... عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: 1-5]، "وتأخر ما بعد ذلك" (20)، وذلك خمس آيات هن أول ما نزل ... ولو كان أول ما نزل فاتحة الكتاب . كما قيل . لكان قوله: «ما أنا بقارئ» كذبا أو عنادا حاشاه عنهما، ولو صح لقلنا: إن الفاتحة أول ما نزل جملة، أو أول ما نزل متتابعاً لم يفصله غيره أو أول ما نزل في رسالته المتأخرة عن نبوته بثلاث سنين (21).

ويرد ما مزاعم من قال بأن أول ما نزل هو صدر سورة المدثر، مؤولا كلامهم بأن صدر سورة المدثر أول ما نزل في موضوع الدعوة إلى الله ﷻ حيث يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ [المدثر: 1] "عن جابر: إنها أول ما نزل، ولا يصح عنه هذا؛ فإن هذه السورة نزلت بعد سورة المزمل بثلاث سنين وهو وقت إرساله، وكان قبلها نبياً غير رسول.... ولعل جابرا أراد الأولوية بالإضافة إلى الإرسال بالإنذار، أي أول ما نزل من الإرسال بعد فترة الوحي" (22).

2- آخر ما نزل: قسّم القطب . رحمه الله . آخر ما نزل من القرآن على النحو التالي:

- آخر سورة نزلت كاملة هي سورة النصر⁽²³⁾.

- آخر سورة نزلت ولم ينزل بعدها ما ينسخها من قرآن أو سنة متواترة هي سورة المائدة، وقد قال ﷺ: « المائدة من آخر ما نزل فأحلوا حلالها وحرّموا حرامها»⁽²⁴⁾،⁽²⁵⁾.

- آخر ما نزل على الإطلاق قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 281]، وعاش ﷺ بعدها واحداً وعشرين يوماً، وهو الصحيح⁽²⁶⁾.

المبحث الرابع: المكي والمدني.

1- تعريفه للمكي والمدني: عرّف القطب . رحمه الله . المدني بقوله: "والمشهور أن ما نزل بعد الهجرة وقبل الوصول إلى المدينة مدني"⁽²⁷⁾، وزاد " وما نزل بعد الهجرة مدني، ولو نزل في غير المدينة"⁽²⁸⁾.

مناقشة التعريف:

أ- المعول عليه في هذا التقسيم بين المكي والمدني هو الهجرة، ولم يعول . رحمه الله . على المكان كأن يقول: المكي ما نزل بمكة، والمدني ما نزل بالمدينة، لأن هناك آيات وسور لم تنزل لا بمكة ولا بالمدينة كآتي نزلت بيدر وتبوك و... وهذا ضابط دقيق ينطبق على جميع السور والآيات بمجرد معرفة وقت نزلها قبل الهجرة أم بعدها، فسورة النصر مثلاً نزلت بمكة ولكن السورة مدنية باتفاق لأنها نزلت بعد الهجرة.

فنخلص من تعريف الشيخ للمكي والمدني والذي عليه الجمهور⁽²⁹⁾ بأن: المكي ما نزل قبل الهجرة إلى المدينة ولو كان نزوله خارج مكة، والمدني ما نزل بعد الهجرة ولو خارج المدينة.

- وهناك قيد في التعريف خالف فيه القطب . رحمه الله . غيره وهي مسألة ما نزل أثناء الهجرة، فاعتبر القطب . رحمه الله . أن ما نزل بعد الهجرة وقبل الوصول إلى المدينة مدني، لكن الذي عليه المحققون أن ما نزل في أثناء الهجرة قبل أن يصل النبي ﷺ إلى المدينة؛ فهو مكي، يقول السيوطي في الإتقان: « وما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغ النبي ﷺ المدينة فهو من المكي، وما نزل على النبي ﷺ في أسفاره بعد ما قدم المدينة فهو من المدني وهذا أثر لطيف يؤخذ منه أن ما نزل في سفر الهجرة مكي اصطلاحاً»⁽³⁰⁾.

إذن فهناك آيات نزلت أثناء الهجرة منها قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلُكُنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ [محمد: 13]، وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ [القصص: 85]، فهذه الآيات وغيرها عدّها العلماء من المكي لأنها

نزلت أثناء الهجرة وقبل بلوغ النبي ﷺ المدينة.

2. من ضوابط المكي والمدني: أشار القطب . رحمه الله . في عدة مواطن من تفسيره إلى بعض الضوابط التي من خلالها تعرف السورة أهي مكية أم مدنية ومن جملتها مثلا قوله:
- " وما فرض القتال إلا في المدينة"⁽³¹⁾. إذن فكل سورة جاء الحديث فيها عن القتال فهي مدنية باتفاق.

- "لأن حقوق المال شرعت في المدينة"⁽³²⁾. فالسور التي تتضمن أحكام البيوع والربا والدين والشهادة والعقود والتجارة والمعاوضات والاقتصاد... وغير ذلك من المعاملات المالية هي سور مدنية.

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ مكي، وقل مدنيا، كما في هذه السورة . يعني البقرة . والنساء والحجرات، فإنهن مدنيات"⁽³³⁾. يعني بذلك . رحمه الله . أن كل سورة فيها "يا أيها الناس" وليس فيها "يا أيها الذين آمنوا" فهي مكية.

4. الإحتجاج بالمكي والمدني: كثيرا هي المسائل التي ينتصر فيها القطب . رحمه الله . والتي يعتقد الصواب فيها وذلك بمقتضى علمه بالمكي والمدني فمثلا:

عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 8] يقول القطب . رحمه الله .: " نصّ على أن الثلاثة للزينة ولم يذكر الحلّ للأكل والآية مكية، والحرر الأهلية حرمت في المدينة عام خبير عند الجمهور، وفي الصحيحين عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ «نهى عن لحوم الحرر الأهلية»⁽³⁴⁾ أي في المدينة فهي قبل ذلك على الحل، والأصل في الأشياء قبل النزول الحل إلا ما تبين"⁽³⁵⁾.

- ومن تفاعل الشيخ مع مبحث المكي والمدني نراه مثلا عند قوله تعالى: ﴿وَلْيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [المذثر: 31] يقول بأن هذه السورة مكية، وأن النفاق لم يظهر إلا في المدينة فما المخرج؟، فيجيب: "إن السورة كلها مكية، فيكون ذلك إخباراً بالغيب بأنه سيكون النفاق في المدينة، أو هذا مدني جعل في سورة مكية، ولا مانع من أن يكون في أهل مكة قبل النزول من قرب من الإسلام فشك"⁽³⁶⁾.

المبحث الخامس: القراءات القرآنية.

تعريفها: عرفها ابن الجزري بقوله: "القراءات علم بكيفيات أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقله"⁽³⁷⁾.

شروط القراءة الصحيحة: يقول السيوطي نقلا عن ابن الجزري ما نصه: " كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا، وصح سندها، فهي القراءة

الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها سواء كانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين، ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة، أو شاذة، أو باطلة سواء كانت عن السبعة أم عن من هو أكبر منهم هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف»⁽³⁸⁾.

وقد نالت القراءات القرآنية اهتماما بالغا من الشيخ، فكان يسند أحيانا القراءات إلى الأئمة القراء، وأحيانا إلى الصحابة، وأحيانا إلى التابعين، والشيخ كما ذكر القراءات الصحيحة في تفسيره فإنه ذكر الشاذ منها أيضا، وقد اعتمد الشيخ في تفسيره على قراءة الإمام نافع كما بين ذلك في مقدمة تفسيره حيث قال: " وأنا مقتصر على حرف نافع، ولمصحف عثمان تابع" ⁽³⁹⁾.

- منهج القطب في القراءات:

كان القطب . رحمه الله . أحيانا يذكر القراءة الصحيحة ويعزوها إلى أئمة القراءة، وأحيانا يورد الشاذ منها دون التنبيه عليها، وأحيانا يورد القراءة دون نسبتها إلى القراء، وأحيانا يذكر القراءة التفسيرية، وسندل على ذلك بشواهد من تفسيره:

1- عرض القراءة مع عزوها إلى أصحابها: ففي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: 54]. يذكر وجوه القراءة في كلمة ﴿ضَعْفٍ﴾ قائلا: " والضُّعْفُ بضم الضاد لغة قريش، ويفتحها لغة تميم، قرأ ابن عمر بالفتح فقال له ﷺ: « اقرأ يا بني الضُّعْفُ لغة قومك » قرأ له بالضم، وقومه قريش..... وقرأ عاصم بالفتح، وروي عنه بالضم، وعنه الفتح في الأخير، والضمُّ في الأولين ⁽⁴⁰⁾ » ⁽⁴¹⁾.

2- عرض القراءة الشاذة دون الحكم عليها: ففي قوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن: 60] قال: " وقرأ ابن أبي إسحاق: «هل جزاء الإحسان إلا الحسن» ⁽⁴²⁾. فالقراءة التي نقلها الشيخ . رحمه الله . شاذة ولم يبين ضعفها، وربما لم يبين ضعفها لشدة ظهور شذوذها.

ونفس الشيء في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ [الليل: 3] حيث قال: "وروي عن الكسائي جر ﴿ الذَّكَرَ ﴾ توهمًا لمعنى المصدرية، أي: وخلق الذكر بجر «خلق» عطفًا على «الليل»،..... كما قرئ: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة: 2] بكسر الدال تبعًا للام بعدها، وبضم اللام تبعًا للدال قبلها" ⁽⁴³⁾. فالشيخ . رحمه الله . لم يبين أيضا شذوذ هذه القراءة ربما لشدة ظهور ضعفها وعدم تواترها، وأيا كان فالقراءة لا تثبت إلا بالشروط الثلاثة التي ذكرناها آنفا، ولا تثبت عن طريق النحو والتوجيه الإعرابي للكلمة، كما فعل

الزمخشري في توجيه هذه الآية⁽⁴⁴⁾.

- ذكر القراءات التفسيرية: ذكر القطب . رحمه الله . كثيرا من القراءات التفسيرية التي تشبه الإدراج، وهي بالطبع ليست قرآنا بإجماع الأمة لكن زادها القراء على سبيل التفسير وترجيح رأي مذهبه⁽⁴⁵⁾، فالقطب . رحمه الله . عندما يذكر مثالا من هذا النوع يقول: "وذلك قراءة تفسير"، ففي قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: 24] يقول القطب: "ويدل له قراءة أبي: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى»، وكذا قرأ ابن عباس وابن مسعود، ولعل ذلك قراءة تفسير لا قراءة تلاوة، وقد رجع ابن مسعود وابن عباس عن ذلك"⁽⁴⁶⁾.

المبحث السادس: القصص القرآني.

عرف القطب . رحمه الله . القصص بمعناه اللغوي بقوله: "قص وهو تتبع الأثر"⁽⁴⁷⁾، وقد جاء هذا المعنى اللغوي واضحا في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ [القصص: 11]. أي: "تتبعي شأنه وأخباره"⁽⁴⁸⁾.

والقصص القرآني هو ما ذكره الله في كتابه من قصص وأخبار عن الأمم الماضية، سواء تعلق القصص بأنبياء، أو بأقوام وأشخاص غير الأنبياء، ويدخل في ذلك ما تعلق بسرد الحوادث التاريخية المتعلقة بسيرة النبي ﷺ، وقد احتل القصص مساحة كبيرة من القرآن ما يعادل ثلثه، وقد نزل معظم القصص في القرآن المكي⁽⁴⁹⁾.

والقطب . رحمه الله . من جانب القصص نراه توسع كثيرا فيها، دون تمحيص منه، أو تثبيت من صحتها في الأغلب، وذكر المغزى من ذلك فقال: "واعلم أنني أذكر القصص في التفسير ولو مع كثير منها لا يصح عندي ليستريح إليها القارئ والمستمع"⁽⁵⁰⁾.

هذا السبب الذي من أجله ساق الشيخ القصص وأطال فيها في الحقيقة لا يجب أن يقبل بحال؛ لأن القرآن ساق لنا أحسن القصص فلا بد أن تفسر بأحسن الكلام وأعذبه لا بذكر الغرائب وسوق الروايات الضعيفة، علاوة على ذلك أن القرآن بحد ذاته طمأنينة للمؤمن وشفاء له وسكينة، ولا يمل منه القارئ فيحتاج إلى من يلطفه بأمثال بعض القصص التي ساقها الشيخ . رحمه الله .، ومن جهة أخرى ما الفائدة من إيراد أمثال هذا القصص في التفسير؟ مع إيمان الشيخ بأنها ليس لها أساس من الصحة، وأنها أخذت حيزا كبيرا من التفسير، والشيخ أراد من تيسيره أن يكون مختصرا بالنسبة لهميان الزاد، والأخطر من هذا كله أن كثيرا من العوام عندما يقرأ هذا القصص في التفسير يأخذ به دون تدقيق ولا تمحيص وكأنها مسلمة قطعية، وإذا نهته على شيء منها اعترض قائلا: "ومن أنت حتى تبلغ مقام القطب، أو تعقب على شيء من قوله، ويرميك بالتبديع وبالخروج عن المذهب" والمسألة واضحة لا تقبل النقاش.

فالأصل أن نتعامل مع القصة القرآنية بأنها وحي إلهي وحقيقة لا مجال للخيال فيها أو

الزيف أو الخرافات أو الأساطير، فضلا على أن نزيد فيها ما لم يثبت قطعاً كالأحاديث الضعيفة، أو قصص الغرائب والعجائب، أو نسمي المبهمات سواء لأشخاص أو أسماء أو أعداد، وبغينا ما ذكره الله في القرآن عن اللجوء إلى هذا كله لأن القصص القرآني مستقل بذاته؛ فلو كان في تعيين المبهم فائدة ترتجى لبيتها سبحانه أو بينها رسوله ﷺ في حديث صحيح. فالأصل أن نسكت عما سكنت عنه الشرع ولا نزيد على ذلك قيد أنملة.

فأغلب ما أورده الشيخ من القصص في تفسيره يعد من قبيل الإسرائيليات ⁽⁵¹⁾ التي تسربت إلى كتب التفاسير وامتزجت به، وراجت بين المفسرين، واستوت في ذلك تفاسير المتقدمين والمحدثين، على تفاوت بينهم في القلة والكثرة في النقل، فمنهم من عقب عليها بعد ذكرها ومنهم من سكنت عنها.

أمثلة على قصص إسرائيلية عقب عليها الشيخ . رحمه الله .:

ذكر في معرض قوله تعالى: ﴿ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ [الفجر: 7]. 8] حيث قال: " عن عبد الله بن قلابة أنه خرج في طلب إبل له فوقع عليها فوجدها مبنية بالذهب والفضة والياقوت، وأنواع الجواهر والعيون، والشجر المثمر في أزقتها مفروشة بذلك وبالمسك، فحمل ما قدر عليه مما فيها، فاستحضره معاوية فقص عليه، فبعث إلى كعب فسأله فقال: هي إرم ذات العماد وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أشقر قصير على حاجبه خال، وعلى عقبه خال، يخرج في طلب إبل له ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال: هذا والله ذلك الرجل. وهو كلام موضوع" ⁽⁵²⁾.

(2) وفي قصة وسوسة الشيطان لآدم، نفى القطب . رحمه الله . أن الشيطان دخل في فم الحية حيث قال: " شهر أنه دخل . أي الشيطان . في فم الحية إذ قربت من باب الجنة وهي فيها فسمها منه، فوسوس لهما فعوقبت بسلب قوائمها، وليس بصحيح" ⁽⁵³⁾.

إذن لقد نفى القطب صحة هذه القصة مع أن أغلب المفسرين نقلوها من التوراة ولم ينقدوها ⁽⁵⁴⁾.

- مثال على قصة لم يعقب عليها الشيخ . رحمه الله . بالرد والضعف:

تعجب الشيخ . رحمه الله . على من سمى المبهمات في القرآن، فمن ذلك تعجبه ممن سمى النملة التي كلمت سليمان . عليه السلام . حيث قال: " وزعم بعض أنها كذذب، وأنها عرجاء، ويقال لها جناحان، وأن اسمها طاخية أو جرمي، ولعل أهلها سموها، أو سليمان، وكيف يسمى ما لا ينطق ولا يصوت، وما نفع اسمه" ⁽⁵⁵⁾. ولكن الشيخ . رحمه الله . في موضع آخر نراه سمى ما لا ينطق ولا يصوت، ولا ينفعنا ذكر تسميته أو لونه أو غير ذلك؛ لأنه ليس محلاً للعبارة، ففي قوله تعالى: ﴿ وَكَلَّبْهُمْ بِاسِطٍ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ [الكهف: 18] يصف القطب . رحمه الله .

هذا الكلب بقوله: "واسمه قطمير، وعن مجاهد قطمور، وقيل: ثور، وقيل: كلب تبعهم، وقيل: ريان، وهو أصفر اللون، وقيل: أسمر، وقيل: كلون السماء، وقال رجل من أهل الكوفة: رأيته أحمر كأنه ثوب إنجالي.

... وقيل: فيه نمرة بيضاء، ونمرة سوداء، وهو لواحد منهم تبعه فطرده، فأنطقه الله: إني مؤمن ومحب لأحباب الله، وقيل: لراع مروا به مع غنمه فاتبعهم الراعي إيماناً بالله، إذ أخبروه بقصتهم، فتبعه كلبه فطرده، ورفع يديه ودعا فأنطقه الله بذلك، وبأني لا أضرب بل أنفعمكم إذا رقدتم أحرسكم، ولما ناموا نام، ولما استيقظوا تيقظ، ولما ماتوا مات معهم، ويدخل الجنة كفاقة صالح، وكبش إسماعيل" (56).

فمن أين استقى هذه الأوصاف، وما ذا أضفت على النص القرآني، لأن الله قال في نهاية قصة أصحاب الكهف: ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءَ ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: 22]، والقطب . رحمه الله . نفسه فسر هذه الآية بقوله: " ﴿ فَلَا تُمَارِ ﴾ تجادل ﴿ فِيهِمْ ﴾ في شأنهم من عدد ووصف ومحل ونحو ذلك ﴿ إِلَّا مِرَاءَ ظَاهِرًا ﴾ بأن نقص عليهم ما في القرآن من غير تجهيلهم، والرد عليهم من غير تعمق فيه، وتقول لمن ذكر منهم عدداً من أين أخذته، وما في القرآن كفى ردّ وحجة" (57).

فهذا الذي ذكره القطب . رحمه الله . في تفسير الآية يعد من الضوابط التي يجب التعامل بها مع القصة القرآنية، فلا نعين الأعداد والأوصاف والمحل لأنها ليست موطن عبء ولا فائدة، ولا نذكر حيثيات القصة بالتعمق فيها دون وجه صحة، ونكتفي بما في القرآن، ونحتج على من زاد على النص شيئاً كعدد مثلاً بأن نقول له: من أين أخذته؟

المبحث السابع: علم المناسبات.

إن الاهتمام بعلم المناسبات يبعث على دقة فهم القرآن، وحسن تفسيره، ويبرز نظم القرآن، وفيه من لطائف القرآن المودعة فيه ما يدل على نفاسته، ووفير ثماره، لكن قل اعتناء المفسرين به لدقته، ومع ذلك فإن القطب . رحمه الله . ذكر بعض المناسبات بين الآيات والسورة لكن بصورة متقطعة وسطحية لم تتسم بالعمق، وفيما يلي بعض أنواع المناسبات التي ذكرها في تفسيره:

1- المناسبات بين السور: ذكر القطب . رحمه الله . المناسبة بين سورة هود وسورة يوسف فقال: " لعلها نزلت بعد سورة هود التي شبيته ﷺ ليزول بها بعض همهم، وفيها أيضاً تسليية له بما لاقى يوسف ممن هو أقرب إليه وهم إخوته، عمّا لقي من عمه وقرابته إليه ﷺ، وهي في قصص من تقدم كما في سورة هود؛ إلا أن هذه سورة رحمة يستراح إليها" (58).

2- المناسبات بين الآيات في داخل السورة الواحدة: يذكر القطب . رحمه الله . المناسبة بين آية: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ ﴾

لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿[الأحزاب: 53] وآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56] قائلا: " ووجه اتصال الآية بما قبلها زيادة التشريف، كيف تؤذونه أو تكلمون نساءه بلا حجاب؟ أو تتزوجوهن مع أنه تعالى يصلي عليه، وملائكته يصلون عليه، وهو أهل لفضل الله" (59).

ونفس الشيء في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: 41] حيث ذكر مناسبة الآية بما قبلها قائلا: " واذكر يا محمد لقومك العابدين للجماد، فإنهم أصل ممن يعبد عيسى، والآية مناسبة لما قبلها في عبادة غير الله ﷻ" (60).

الخاتمة

بعد هذا التجوال والوقفات المتنوعة أردت أن أسجل موقعي من مباحث علوم القرآن من خلال " تيسير التفسير" لقطب الأئمة الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش . رحمه الله . وهو أولا موقف يعبر بالإجلال والإكبار لهذا الشيخ الفذ . رحمه الله . والذي ترك لنا تفسيراً زاخراً بالعلوم الدنيوية والأخروية وهو بمثابة مرجع للمدرسة الإباضية قديماً وحديثاً.

لقد كان الشيخ اطفيش . رحمه الله . قطباً متميزاً فيما عرض لنا من مسائل تتعلق بالقرآن وعلومه، فهو ممن أفاد وأجاد بحق، وذلك من خلال البصمات التي تركها واضحة وعميقة في كل مبحث من مباحث علوم القرآن سواء بالتعريفات أو التفريعات أو التمثيلات أو الاستنباطات، أو التطبيقات، وذلك قصد فهم وتبيين معاني النص القرآني..

لكن تيسير التفسير يبقى جهداً بشرياً، والجهد يعتره النقص والاستدراك، أما العصمة من الخطأ فللملائكة والأنبياء في مجال الوحي، ولهذا أسجل على هذا التفسير مأخذان هما: أولاً: توسعه في ذكر الإسرائيليات من غير تدقيق ولا تعليق عليها في الأغلب، وهو مأخذ أتى على أغلب المفسرين، ثانياً: كثرة الاستطراد في قضايا التي لا علاقة لها بالتفسير.

كما أنني أوجه توصية إلى الباحثين والمختصين والمحققين: وهي إعادة خدمة هذا التفسير خدمة شاملة مميزة لكافة ما يتضمنه من علوم . كالفقه والحديث والعقيدة واللغة وعلوم القرآن وتاريخ وسيرة . وفنون . كالطب والفلك .، وتنقيحه من كل شائبة وناقصة كالروايات والأخبار الإسرائيلية والتوسعات التي تفقد رونق التفسير وجماله، فتفسير بهذا الشمول وهذه الموسوعية حري أن تبحث فيه الرسائل الأكاديمية وأن تعقد له مؤتمرات وأيام دراسية لزيادة التدقيق والتحقيق في مسائله، واستخراج كنوزه ولآئنه المبتوثة فيه، وتجلية فوائده ولطائفه، حتى نوفي الحق للمفسر ونفسره.

الهوامش:

- 1- اطفيش، تيسير التفسير، ج1، ص309.
- 2- انظر: الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج2، ص132؛ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص261؛ مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ص238.
- 3- اطفيش، تيسير التفسير، ج1، ص: 215.214.
- 4- يقصد بذلك: نسخ عدة المتوفى عنها زوجها من سنة إلى أربعة أشهر.
- 5- انظر: اطفيش، تيسير التفسير، ج1، ص 215.
- 6- اطفيش، تيسير التفسير، ج5، ص320.
- 7- المصدر نفسه، ج14، ص405.
- 8- مسلم، صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب حد الزنى، ج3، ص1316، حديث رقم1690.
- 9- اطفيش، تيسير التفسير، ج3، ص167.
- 10- المجالي، الوجيز في علوم الكتاب العزيز، ص67.
- 11- البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، ج4، ص1912، حديث رقم.4716.
- 12- اطفيش، تيسير التفسير، ج1، ص: 421 . 422.
- 13- المصدر نفسه، ج1، ص 327.
- 14- المصدر نفسه، ج8، ص330.
- 15- اطفيش، تيسير التفسير، ج1، ص50.
- 16- المصدر نفسه، ج6، ص443.
- 17- المصدر نفسه، ج11، ص286.
- 18- انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص228. الزرقاني، مناهل العرفان، ج1، ص 33.
- 19- انظر: اطفيش، تيسير التفسير، ج16، ص: 307 . 308.
- 20- يعني: بعد الآية الخامسة إلى آخر سورة العلق تأخر نزولها.
- 21- المصدر نفسه، ج16، ص291.
- 22- المصدر نفسه، ج15، ص380.
- 23- اطفيش، تيسير التفسير، ج3، ص440.
- 24- لم أعثر على الحديث. لكن ذكره السيوطي في الدر المنثور، ج3، ص4. وابن حجر في فتح الباري، ج5، ص412. لكن دون نسبته إلى النبي ﷺ حيث قال: سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن حتى صح عن ابن عباس وعائشة وعمرو بن شرحبيل وجمع من السلف أن سورة المائدة محكمة.
- 25- المصدر نفسه، ج3، ص479.
- 26- المصدر نفسه، ج2، ص: 205 . 206.
- 27- المصدر نفسه، ج16، ص124.
- 28- المصدر نفسه، ج5، ص362.

- 29- انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، ج2، 143. ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، ج1، ص5.
- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج6، ص30.
- 30- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص35. وانظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص188. الألوسي، روح المعاني، ج26، ص36.
- 31- اطفيش، تيسير التفسير، ج14، ص204.
- 32- المصدر نفسه، ج16، ص249.
- 33- المصدر نفسه، ج1، ص35.
- 34- البخاري، صحيح البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب لحوم الحمر الإنسية، ج5، ص2102، حديث رقم 5202.
- 35- اطفيش، تيسير التيسير، ج7، ص410.
- 36- المصدر نفسه، تيسير التفسير، ج15، ص400.
- 37- ابن الجزي، منجد المقرئين، ص15.
- 38- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص203.
- 39- اطفيش، تيسير التفسير، ج1، ص1.
- 40- ذكر القطب أن عاصما قرأ بالفتح، وجاء بصيغة التضعيف. روي. أن عاصما قرأ بالضم في الأولين. أي في كلمة ضعف الأولى والثانية. فما دام أن القطب جاء بصيغة التضعيف فإنه لم يثبت عن عاصم وحمزة إلا القراءة بالفتح في المواضع الثلاثة وهذا ما نقله أئمة القراءة. انظر: ابن مجاهد، السبعة في القراءات، ج1، ص508. ابن زنجلة، حجة القراءات، ج1، ص562.
- 41- المصدر نفسه، ج11، ص144.
- 42- المصدر نفسه، ج14، ص249.
- 43- اطفيش، تيسير التفسير، ج16، ص248.
- 44- كثيرا ما كان الإمام الزمخشري يذكر أوجه القراءة للآية استنادا على إعرابها، وهو عين ما ذكره في قراءة " وما خلق الذكر والأنثى " بالكسر، وربما نقل عنه القطب هذه القراءة، وكثيرا ما كان القطب يرجع في تفسيره إلى الكشف. [انظر: الزمخشري، الكشف، ج4، ص766].
- 45- مثال ذلك/ من قرأ: فصيام ثلاثة أيام متتابعات. فكلمة متتابعات ليست قرآنا وإنما هي على سبيل التفسير.
- 46- اطفيش، تيسير التفسير، ج3، ص192.
- 47- المصدر نفسه، ج4، ص114.
- 48- المصدر نفسه، ج10، ص401.
- 49- انظر: الخالدي صلاح عبد الفتاح، مع قصص السابقين في القرآن، ص 15. 16. المجالي، الوجيز في علوم الكتاب العزيز، ص231.
- 50- المصدر نفسه، ج6، ص406.

- ⁵¹ – الإسرائيلية هي روايات من أسلم من أهل الكتاب نقلا عن ثقافتهم السابقة المرتبطة بكتبهم المقدسة وشرحها. ويبقى موقف المفسر من الإسرائيلية الحيلة والحذر، والإعراض عن روايتها، لعدم الحاجة إليها. [انظر: المجالي، الوجيز في علوم الكتاب العزيز، ص211. محمد أبو شهبة، الإسرائيلية والموضوعات في كتب التفسير، ص12].
- ⁵² – اطفيش، تيسير التفسير، ج16، ص207.
- ⁵³ – المصدر نفسه، ج5، ص30.
- ⁵⁴ – انظر مثلا: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص312. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص82. أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج1، ص91.
- ⁵⁵ – اطفيش، تفسير التيسير، مصدر سابق، ج10، ص327.
- ⁵⁶ – اطفيش، تيسير التفسير، ج8، ص308.
- ⁵⁷ – المصدر نفسه، ج8، ص321.
- ⁵⁸ – المصدر نفسه، ج7، ص65.
- ⁵⁹ – المصدر نفسه، ج11، ص ص 333 . 334.
- ⁶⁰ – المصدر نفسه، ج9، ص47.

القطب الفيلسوف والمؤونة الفيلسوف

مصطفى باجو

جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة

المبحث الأول: القطب اطفيش والفقه الإباضي

• معالم شخصية القطب

أجمعت كلمة الدارسين الذين تناولوا شخصية العلامة الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش (و/ت1332هـ 1914م) أنه كان شخصية موسوعية، استطاع أن يستوعب الثقافة الإسلامية بمختلف فروعها، ويتخطى الفهم التقليدي الذي يحصر العلم في علوم الشريعة إلى دائرة أوسع، فكتب في الطب والفلك والزراعة والتاريخ، فضلا عن علوم اللغة التي برع فيها وأبدع، واختار في قضاياها آراء شخصية تجعله في مصاف المبرزين في علوم اللسان. أما علوم الشريعة المحضة من الفقه والأصول والتوحيد والتفسير فقد ضرب فيها بسهم وافر، وأثبت جدارة وتضلعا، ورسوخ قدم تشهد به المؤلفات التي دونها في مختلف هذه العلوم.

ولست بصدد إحصاء ما كتبت يمينه من هذه المؤلفات، إذ كفاني المؤونة باحثون مقتدرون استفرغوا جهودا طيبة في إحصائها وتصنيفها، بين المؤلفات الذاتية والحواشي والشروح، والرسائل المختصرة، والموسوعات البسيطة، والردود والتعليق⁽¹⁾.

وقد أغنى نتاج القطب المكتبة الإسلامية، وتلقى العلماء والطلبة هذا النتاج بالقبول منذ صدوره مخطوطا ومطبوعا طبعاً حجراً، ثم جاء عصر الطباعة الحديثة فانتشر في مكتبات العالم، وعرف الباحثون من خلالها قيمة هذا العالم الموسوعي، واطلعوا أيضا على جانب من التراث الإباضي الذي ظل مغمورا ومجهولا لدى معظم المسلمين، خاصتهم وعامتهم، لظروف تاريخية واجتماعية ليس هذا مقام تفصيلها.

وتأكد من خلال قائمة نتاج القطب العلمي أن مجال الفقه نال نصيب الأسد من اهتمامه، مقارنة بغيره من العلوم.

• مركزية الفقه في نتاج القطب

لقد بلغت مؤلفات القطب الفقهية عددا معتبرا، ويمكننا حصر هذه المؤلفات في

هذه القائمة:

- 1- «شرح كتاب النيل وشفاء العليل»: وهو موسوعة فقهية جامعة لآراء المذاهب الإسلامية، يقارن فيها بين الأقوال بروح منفتحة، ويرجح ما يراه بالحجة والدليل، وأصبح هذا الكتاب معتمد الإباضية في الفقه. طبع مرارا، وبواسطته تعرّف العالم الإسلامي على الفقه الإباضي، واعتمدته لجان موسوعات الفقه الإسلامي في مصر والكويت.
- 2- نظم الشيخ البطاشي العُماني في 124 ألف بيت، سمّاه: «سلاسل الذهب في الأصول والفروع والأدب» وصدر في عشر مجلدات.
- 3- كما أنجزت له جمعية التراث فهارس فنية شاملة صدرت في مجلد واحد، وينتظر إعداد فهرس موضوعي للمسائل الفقهية التفصيلية للكتاب.
- 4- «إطالة الأجرور وإزالة الفجور»، حققه الأستاذ عمر بازين، وهو مطبوع.
- 5- «الذهب الخالص المنوّه بالعلم القالص»، حققه الشيخ أبو إسحاق اطفيش، وطبع عدة مرات.
- 6- «ترتيب تحفة الأديب وتخصيب القلب الجديب»، (مخ). وهو ترتيب كتاب لعمر بن رمضان التالتي.
- 7- «ترتيب كتاب اللقط للشيخ عمرو بن رمضان التالتي»، (مخ).
- 8- «ترتيب كتاب المعلقة»، لمؤلف مجهول، (مط).
- 9- «ترتيب المدونة الكبرى لأبي غانم بشر بن غانم الخراساني»، مطبوع، وسنفرده بالحديث لاحقاً.
- 10- «ترتيب نوازل نفوسة»، (مخ)، وهي مجموعة أجوبة ورسائل لبعض أئمة الإباضية.
- 11- «تفقيه الغامر بترتيب لقط موسى بن عامر»، (مط).
- 12- «جامع الوضع والحاشية»، الوضع لأبي زكرياء الجنائني، وحاشيته لمحمد بن عمر أبي سئة المحشي، (مط).
- 13- «حاشية أبي مسألة»، لأبي العباس أحمد (مخ).
- 14- «حاشية القناطر»، لإسماعيل الجيطالي، (مخ).
- 15- «حاشية على جواب ابن خلفان»، (مخ).
- 16- «حاشية على شرح الرائية»، (مخ).
- 17- «حكم الدخان والسعوط»، مطبوع. وقد حقّقها ودرسها الأستاذ بكير بن يحيى الشيخ بالحاج، في إطار رسالة الماجستير بمعهد أصول الدين بالجزائر.

- 18- «حيّ على الفلاح: وهي حاشية على كتاب الإيضاح» للشيخ عامر بن علي الشّمّاخي، مخطوط.
- 19- «شامل الأصل والفرع»، ذكر فيه أنّه كتبه بعد أن بلغ درجة الاجتهاد. حققه وطبعه الشيخ أبو إسحاق اطفيش.
- 20- «شرح الدعائم»: شرح بعض منظومات فقهية من ديوان ابن النظر العماني المسمّاة: الدعائم، (مط).
- 21- «شرح الدعائم الموسّع»، (مخ).
- 22- «القنوان الدانية في مسألة الديوان العانية»، مطبوع.
- 23- «كتاب التحفة والتوأم»، في علم الموارث، مطبوع.
- 24- «كشف الكرب»: ترتيب أبي الوليد، تحقيق: محمّد علي الصليبي، (مط).
- 25- «مختصر في عمارة الأرض»، اختصار لكتاب أصول الأرضين، في علم العمارة. حققه د. محمد ناصر والشيخ بكير باشعادل، وهو مطبوع.
- وتجلى هذه القائمة أن كتبه الفقهية تجاوزت عشرين عنواناً، يتصدرها من حيث الحجم كتاب "شرح النيل وشفاء العليل" وهو شرح لكتاب "النيل" للشيخ عبد العزيز الشميني. وطبع عدة مرات، وانتشر في مكتبات العالم المختلفة⁽²⁾.
- ودخل القطب الفقيه عالم النشر من أوسع أبوابه، وتعرف عليه العالم بنتاجه ورقيا وإلكترونيا.
- ولكنه لم يعرف إلا من خلال شرح النيل، وظلت الكتب الفقهية الأخرى على أهميتها محدودة التداول، تكاد تنحصر في الدائرة الإباضية.
- والمهم أن مجموع نتاج القطب الفقهي يمثل الرصيد الأوفر من مؤلفاته، وتلك دلالة واضحة، تكشف عن قناعة راسخة لدى القطب بأن الفقه محور البناء المعرفي للفرد المسلم، ودليل الالتزام الواقعي بالدين في الحياة. ولذلك أولاه اهتماما يناسب مقامه وخطره في حياة الفرد والأمة على حد سواء.
- مجال العمل الفقهي لدى القطب: التأليف، الحواشي، الشروح، التدريس، الإفتاء.
- من خلال قائمة منتجات القطب الفقهية يتجلى لدى تعدد الاهتمام الفقهي لديه، إذ تناول الدرس الفقهي تدوينا بصور عديدة، من المؤلفات المستقلة إلى الشروح والحواشي، إلى التجميع والاختصارات، إلى الفتاوى والمراسلات.

ولكن فتاوى القطب لا يزال أغلبها مخطوطا، ومنها مراسلاته مع علماء المشرق في كتابه "كشف الكرب".

واللافت لاهتمام الدارس أن الشيخ اطفيش لم يكن قابعا في مكتبه متفرغا للتأليف، معزولا عن واقع الحياة، بل كان له معهد للتدريس، ومنبر للإرشاد في المسجد. فكانت جهوده موزعة بين الكتاب والطلاب والمنبر.

لقد آمن القطب بضرورة هذه المواقع لتفقيه الناس بأحكام دينهم، فظل مرابطا مع العامة في النشاط المسجدي، ومع الطلبة في برنامج تكوين تربوي اضطلع به في معهده، لتكوين الخلائف التي تحمل أمانة الفقه والاجتهاد.

وقد نجح القطب في كل هذه المساعي بحفظ الموروث الفقهي المتقدم، ونشره مشروحا ومختصرا، ومحشى، وبث الوعي الفقهي لدى العامة بدروس الإفتاء، وتكوين الكفاءات الفقهية المتمثلة في تلاميذ معهده، الذين وفدوا إليه من مختلف الأرجاء.

• القطب ونتاج المدرسة الإباضية الفقهية:

من خلال العرض السابق يتجلى للدارس أن القطب قد انكب على الفقه الإباضي تأليفا وشرحا وتفقيها وتدريسا، وربما يظن أنه ظل منحصرًا في إطار مدرسته الفقهية لا صلة له بغيرها من نتاج علماء الإسلام.

بيد أن الاطلاع على مضامين نتاج القطب الفقهي يُشَدُّ لما يراه من موسوعية في الاطلاع على آراء علماء الإسلام، منذ الصدر الأول إلى العصر الحاضر.

ويتملكه الإعجاب لما يتسم به من قدرة على العرض والتحليل، والاستدلال والتأصيل، ثم ما يتسم به من موسوعية في النقد والترجيح.

وليس غريبا بعد ذلك أن يراه الدارس لكتبه يرجح رأي المالكية أو الحنفية أو الشافعية أو ما سواها من آراء المذاهب الإسلامية، يقينا منه أن ذلك كله سائغ محمود، إذ المقصود التوصل إلى الرأي السديد، مشفوعا بأدلة الشرع وقواعد الاجتهاد.

وكتبه "شرح كتاب النيل" و"الذهب الخالص" و"شامل الأصل والفرع" شواهد صادقة على هذه المميزات، كاشفة عن هذه السمات.

ونجتزئ بهذه الملاحظات عن القطب فقيها، ومجتهدا. ونعرج إلى الشق الثاني من هذه الورقة، وهي الحديث عن القطب وكتاب المدونة الكبرى، نستجلي ما فيها من معالم وخصائص، ونستعرض بعض ما بذل فيها من جهد، وننبه إلى ما ينتظر الباحثين من سعي وعمل علمي رصين.

المبحث الثاني: القطب اطفيش والمدونة الكبرى.

• المدونة الكبرى، قصة ومسار.

مدونة أبي غانم بشر بن غانم الخراساني، كتاب ينسب إلى الإمام الحافظ الفقيه أبي غانم بشر بن غانم الخراساني⁽³⁾.

ويضم آراء كبار فقهاء الإباضية الأوائل من تلاميذ أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، تلميذ الإمام جابر بن زيد، إذ حفظ أبو غانم فتاويهم التي سمعها منهم مباشرة، أو بواسطة من أخبره بها، فدونها في كتابه هذا، وهي فتاوى متفاوتة في الحجم وفرة وكثرة، كما سيتجلى في تفصيل معالم هذه المدونة.

وتعتبر هذه المدونة صورة لفقه المدرسة الإباضية في أصوله ومعالمه، وفي منهجه وخصائصه.

قدم أبو غانم إلى البصرة لتلقي العلم عن الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، لكنه لم يحظ بمعاصرته إلا زمنا يسيرا، فما لبث أن توفي أبو عبيدة سنة 150 للهجرة، ولما يقض أبو غانم نهيمته من العلم، فكان له في تلاميذ أبي عبيدة عوض عما حُرِمه من التعلم على يديه.

ولا تمدنا المصادر بتفاصيل عن حياة أبي غانم، ولا تشير إلا إلى محطات معدودة من مسيرته، لا تكاد تشفي الغليل، إذ تذكر أنه لبث في البصرة زمن التعلم، حيث كانت مزدهرة بتلاميذ أبي عبيدة، وحين خفت الإشعاع العلمي بها إثر وفاة الإمام الربيع بن حبيب (توفي حوالي 170هـ)، أحد أبرز تلاميذ أبي عبيدة؛ الذي خلفه في الرئاسة العلمية بالبصرة، حينها توجه أبو غانم إلى بلاد المغرب في رحلة علمية قاصدا الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (توفي سنة 208هـ)، في تاهرت؛ عاصمة الرستميين⁽⁴⁾.

وفي طريق رحلة أبي غانم مرّ بمصر، وفيها لقي ابن عباد المصري، أحد فقهاء الإباضية بمصر، فأفاد من لقائه آراء علمية فقهية ضمّنها مدوّنته. ثم اجتاز على جبل نفوسة (ليبيا حاليا)، ولقي بها عمرو بن فتح المَسَاكِينِي، (توفي سنة 283هـ)، واستودعه نسخة من المدونة، ثم أكمل مسيره إلى تاهرت، حيث لقي الإمام عبد الوهاب.

وذكر معجم أعلام الإباضية أن أبا غانم عرض على الإمام مدوّنته، فكانت تلك النسخة من نصيب مكتبة المعصومة بتاهرت. بيد أن الدرجيني لم يشر إلى نسخة ثانية للكتاب غير التي استودعها عند عمرو بن فتح نفوسة⁽⁵⁾.

ولما رجع أبو غانم إلى نفوسة طلب من عمرو وديعته، فردّها إليه بعد أن نسخ منها نسخة لنفسه. وواصل أبو غانم طريقه صوب المشرق⁽⁶⁾.

• الجانب العلمي في المدونة:

تعدّ مدونة أبي غانم الخراساني أهم وأقدم مصدر بعد مسند الربيع بن حبيب، حفظ لنا آراء الإمام جابر بن زيد وتلاميذه، إذ رواها أبو غانم عن سبعة من تلاميذ أبي عبيدة مسلم عن جابر. والمدونة كتاب فقه وحديث، شمل كل أبواب الفقه الإسلامي التي عالجه فقهاء الإباضية آنذاك. وتقدم لنا صورة واضحة لتناج هؤلاء الفقهاء، كما تتضمن معالم اجتهادهم وقواعدهم في استنباط الأحكام.

كان هدف أبي غانم من تدوين كتابه رصد آراء فقهاء سلفه وحفظها للأجيال، ضماناً لاستمرار نفعها، وتبصير الناس بأحكام دينها. وكان موقعه موقع التلميذ الحافظ، والمسائل المتفق، والراوي الأمين، لا يتجاوز حدوده تلك، إلا فيما ندر، فلا نجد له آراء خاصة في الكتاب، بل طابع الكتاب العام كان أسئلة من التلميذ وأجوبة من المشايخ والفقهاء، ومن مجموع ذلك كانت المدونة.

ولعل انشغال أبي غانم بالرصد والتقييد حال دون اهتمامه بالترتيب والتنسيق لما جمعه وقيده، فجاء الكتاب غير متناسق في ترتيب أبوابه ومسائله. ويحتمل بعض الباحثين أن أبا غانم كان قد وضع لكل باباً كراساً مستقلاً، ثم جمعت تلك الكرايس بعد ذلك من قبل تلامذته، أو يكون أبو غانم قد قام بضم بعضها إلى بعض بنفسه⁽⁷⁾.

ويفتقر هذا الرأي إلى دليل مقنع واضح، فإن نسخ المدونة التي بين أيدينا -ونعني المدونة الصغرى تحديداً-، تكشف عن تداخل الأبواب وتناثر المسائل. فبرغم وجود تصنيف عام للأبواب بأسمائها المعروفة في كتب الفقه، بيد أن توزيع المسائل عليها كان مشوشاً إلى حد كبير، إذ قد نجد مسألة في الصلاة في باب المعاملات، ومسألة في النكاح في باب الجنائيات.

وظل الكتاب بحاجة إلى استدراك لضم المتناسب وتفريق المتباين، وهو العمل الذي قام به القطب اطفيش مؤخراً.

الجانب الفقهي والأصولي في المدونة:

وأياً ما كان، فإن الكتاب بما احتواه من مسائل وآراء في غاية الأهمية، فهما لنصوص الشارع، واستدلالات للآراء، واعتماداً على الحوار العلمي القائم على الحجة والبرهان، قاعدته الذهبية "إن كنت ناقلاً فالصحة، وإن كنت مدعيًا فالدليل".

هذا الجو الفكري كان سيد الحياة العلمية في الصدر الأول للمجتمع المسلم، إذ عرف الفقهاء حوارات مفتوحة، ونقاشاً علمياً رصينا حول قضايا التشريع: قواعد وأدوات، ومسائل ومشكلات.

وقد عرضت المدونة بوضوح آراء الإباضية وآراء غيرهم أيضاً حول قضايا الساعة التي

عرفها المجتمع المسلم آنذاك، وأوردت وجهات نظر هؤلاء العلماء، واختلافهم والحجج التي ساقها كل فريق لتأييد رأيه. كما تضمنت المدونة بواكير القواعد الأصولية، وأصول الاستنباط عند الإباضية.

ففي أحضان المدونة نجد المصطلحات الأصولية، ومفاهيمها لدى أئمة الإباضية الأوائل، وتحديدهم لمصطلح السنة وحجيتها، وكيفية الترتيب بين الأدلة، وطريقة إزالة التعارض بينها إذا وقع، فضلا عن القياس والرأي وإجماع الصحابة والاختلاف، وغيرها مما يعدّ بدايات التدوين في موضوعات علم الأصول، ثم تواصل مساره، واكتمل بناؤه على أيدي اللاحقين من العلماء، أمثال ابن بركة والعوّتي وأبي يعقوب الوارجلاني.

فقد تمازج الفقه وأصوله في ثنايا المدونة، بما عرضت من مسائل واجتهادات، كشفت عن عناية بالتأصيل واعتماد الدليل، إذ نجد في المدونة توظيفا لقواعد الاجتهاد، وضبطاً لأسسه، وترتيب أدلته عند التعارض، فضلا عن العناية بمقاصد الشريعة، واعتبار مآلات الأفعال عند تنزيل الاجتهاد على أرض الواقع. وهو ما تفيدته حوارات تلاميذ أبي عبيدة حول عديد من القضايا.

وتسعفنا المدونة بصورة جلية لهذا التفاعل الحي بين العقل والوحي، والمراوحة بين النص والواقع، في رحاب الفقه الإسلامي الأصيل. وتستوقفنا فيها عديد من المشاهد الحية للحوار العلمي، سواء بين الفقهاء أنفسهم، أم بينهم وبين تلاميذهم، بعيدا عن فرض الرأي عاريا عن البرهان، أو إلزام المرء به دون قناعة وبيان.

وبهذا كشفت المدونة عن أصالة الفكر الاجتهادي لدى المدرسة الإباضية، ورسوخ النظرة النقدية الفاحصة لدى فقهاءها، إذ لم يأسروا أنفسهم في حدود اجتهاد رجل بعينه، مهما علا قدره ورسوخ قدمه، لأن معتمدتهم الدليل لا أقوال الرجال، ومرجعهم نصوص الكتاب وسنة المصطفى عليه السلام. وأبو غانم في مدونته لم يكن حبيس آراء الإباضية لا يعدوها، بل تضمنت المدونة آراء فقهاء المسلمين، كإبراهيم النخعي وشريح القاضي والحسن البصري، وريعة الرأي، وأبي حنيفة النعمان، ومحمد بن الحسن، وعمر بن عبد العزيز، وابن أبي ليلى. على تفاوت في ما نقل من آراء هؤلاء العلماء ⁽⁸⁾.

وقد ورد ذكر إبراهيم النخعي زهاء أربعين مرة، وكان ابن عبد العزيز معجبا بآرائه، لقوة استدلالاته، ويعلن ذلك لتلميذ أبي غانم غير مرة، ويصرح له بذلك دون مواربة، ويبيّن له أنه يتبع الدليل ولا يظل أسير أقوال الرجال.

وكثيرا ما يسأل أبو غانم ابن عبد العزيز عن سبب اختياره قول إبراهيم وعدوله عن آراء فقهاء مذهبه، فيجيبه قائلا: «وقول إبراهيم عندي أعدل، وبه نأخذ». «قلت لابن عبد العزيز: سبحان الله، أتأخذ بقول إبراهيم وتدع قول جابر وأبي عبيدة؟ قال لي: أنت رجل مقلد، وما لي لا

أخذ بقول من أرى قوله عدلاً، نافياً لريبة نفسي، ومُبعداً عن مقارفة الخطأ. والأخذ بالثقة قول إبراهيم، فاعتمد عليه»⁽⁹⁾.

وفي هذا الحوار صورة حية للتلميذ الحريص على الالتزام بفقه مدرسته، وجواب الشيخ المنصف الذي يتخذ الحق وجهته وغايته، لا يعنيه أن يصدر عن إمام المذهب أو أحد تلامذته، أو عن غيره، ما دام يعضده الدليل. وحين ساد أفق الحوار العلمي المفتوح، عرفت الآراء طريقها إلى الظهور، ثم التدوين والإثراء، مما صيغ فقه المدرسة بصيغة المرونة وتعدد الآراء، والاستفادة من مختلف الرؤى والاجتهادات، وكان ذلك مصدر ثراء وحيوية أمدّ حلولاً واقعية لمشاكل الناس على اختلاف مستوياتهم وظروف معاشهم.

ومن الإنصاف القول إن مدونات الفقه الإباضية كانت أنموذجاً للفقه المقارن منذ الصدر الأول، فيها تأصل منهجه، وطبقت قواعده، ونما غرسه عبر القرون، فأرنا موسوعات فقهية مقارنة متقدمة، مثل "كتاب الجامع" لابن بركة البهلولي، في القرن الرابع الهجري، و"الضياء" لسلمة بن سعيد العوتي، في عشرين مجلداً في القرن الرابع كذلك. و"المنصف" لأبي عبد الله أحمد بن عبد الله الكندي في اثنين وأربعين مجلداً، و"بيان الشرع" لمحمد بن إبراهيم الكندي في ثلاثة وسبعين مجلداً، ختاماً بكتاب "قاموس الشريعة" لخلفان بن جميل السعدي، في تسعين مجلداً، و"شرح كتاب النيل" لامحمد اطفيش في سبعة عشر مجلداً. وكلها مؤلفات تؤكد نهج المقارنة الذي اختطته المدونة، وظل فقهاء مدرستها أوفياء له إلى العصر الحديث.

ومما ميز اجتهاد هؤلاء النظرة الواقعية، وربط الاجتهاد بمشاكل الناس اليومية وقضاياهم الملحة، وتلك سمة غلبت على الفقه في عصوره الأولى، فكان فقهاً واقعياً لا افتراضياً، وكان الفقهاء مشغولين بتلبية حاجة الناس لمعرفة أحكام الدين، ولم يكن لهم متسع لافتراض مسائل نادرة لم تقع، والتحليق في عالم "أرأيت إن وقع"، وإعنات العقل بالبحث عن حلول لنوادير المسائل، ووهمي المشاكل.

والطريف أن نجد في المدونة معالجة لقضايا نحسبها من إفرازات عصرنا، فإذا بها نتاج تلك الفترة، قد عرفها الناس من قديم، وذلك مثل قضية زواج الميسار، الذي تتنازل فيه الزوجة عن حقوقها في النفقة والسكنى. نظراً لضغوط الواقع، وشيوع ظاهرة العنوسة في المجتمعات المعاصرة، نتيجة عوامل اجتماعية واقتصادية قاسية، فكان في زواج الميسار بعض حلولها.

وقد أورد أبو غانم في "باب الشرط" حوار الفقهاء حول هذه القضية وأشباهها؛ فقال: «قلت لابن عبد العزيز: المرأة تنزوج الرجل وتشترط أن الصداق عليها، والطلاق والجماع بيدها؟ قال: بلغنا عن ابن عباس أنه كان لا يرى شرطها عليه شيئاً. ويقول: إن فعل ذلك وأعطاه شرطها، فالصداق عليه واجب، والطلاق والجماع بيده»⁽¹⁰⁾. وعلق الشيخ اطفيش على المسألة بقوله:

«وإن شَرَطَتْ طلاقها بيدها مطلقاً، أو لا يمسهها، أو شَرَطَ أن لا ينفقها، أو تنفقه، أو تُسَكِّنَه، أو تكسوه، لم يصح ذلك. وصح النكاح. وإنما بطل مع أنه شرط ليس فيه معصية، لأنه مناقض لما اختار الله لهما من أن الطلاق بيده، والنفقة عليه، لا له»⁽¹¹⁾.

ولئن تضمنت المدونة آراء فقهاء الإباضية الأوائل، سواء إمام المدرسة جابر بن زيد، أم خليفته أبا عبيدة مسلم، أم تلاميذه فإن ثمة تفاوتاً في حجم تلك الآراء بين مُقلِّ ومُكثِّر، والسبب يرجع إلى ملازمة أبي غانم لبعضهم أكثر من بعض، فكان نصيب الأسد لآراء ابن عبد العزيز وأبي المؤرج، والربيع بن حبيب، وإن كانت روايته عن الربيع في الغالب بواسطة محبوب ووائل.

كما نشير إلى أن آراء ابن عبد العزيز وآراء الربيع جاءت متطابقة في أغلب مظانها في المدونة، رغم اختلاف المنهج بين الرجلين، إذ كان ابن عبد العزيز ميالاً إلى الرأي والقياس، والربيع ميالاً إلى التزام الآثار، والتسرح من الاجتهاد عند فقدان النص.

هذا عن الجانب الفقهي والأصولي أما الجانب الحديثي ففيه حديث يطول.

الجانب الحديثي في المدونة:

تعتبر المدونة مصدراً غنياً للرواية الحديثية، بما حوته من أحاديث مرفوعة إلى النبي ﷺ، وآثار موقوفة، وأقوال للصحابة في مختلف أبواب الفقه. ولكن الملاحظة البارزة عدم اهتمام أبي غانم في رواياته بالسند كثيراً، اكتفاء بثقته بمن يروي عنهم، فكانت كثير منها في صورة مراسيل ومقاطيع وبلاغات.

- وقد اعتمد الباحث صالح البوسعيدي على المدونة الصغرى فأحصى فيها 140 حديثاً لرسول الله ﷺ، و245 قولاً للصحابة، و1907 قولاً لفقهاء الإباضية، و40 قولاً لفقهاء المذاهب الأخرى⁽¹²⁾.

واعتمادنا هذا الإحصاء لتقريب الصورة ليس إلا، فقد تضمنت المدونة التي نحن بصددتها حجماً أكبر من الآثار والأقوال، نظراً لاستقلالها بأبواب إضافية غير موجودة في المدونة الصغرى. وأحاديث المدونة مروية عن عدد كبير من الصحابة، يمكن ترتيبهم حسب وفرة مروياتهم كالآتي: ابن عباس، عائشة، ابن مسعود، عمر بن الخطاب، أنس بن مالك، أبو هريرة، معاذ بن جبل، البراء بن عازب، عمار بن ياسر، أبي بن كعب، جابر بن عبد الله، حذيفة بن اليمان، عمرو بن خارجة، علي بن أبي طالب، أسامة بن زيد، أبو عبيدة عامر بن الجراح⁽¹³⁾.

وطريق رواية الأحاديث في المدونة كانت عبر فقهاء الإباضية أساساً، كما نجد عدداً لا بأس به من رواة غيرهم، كالحسن البصري، وإبراهيم النخعي، وقتادة السدوسي، وسعيد بن المسيب، وربيعة الرأي، وهؤلاء تابعون أئمة للمسلمين جميعاً. وأفادنا تصنيف البوسعيدي للأحاديث النبوية

إلى: 21 حديثا متصلا، و 18 حديثا مرسلا، و 16 حديثا منقطعا، و 66 حديثا معصلا، و 19 حديثا معلقا. بمجموع 140 حديثا.

وهو إحصاء يكشف عن عدم اهتمام أبي غانم بالصناعة الحديثية في كتابه، لأن غايته كانت مجال الفقه دون الأخبار، وتبين نصوص المدونة أن أبا غانم كان مطمئنا إلى روايتها غالبا، أو إلى شهرة تلك الأحاديث إن كانت في محل الاحتجاج. وأحيانا يوردها على سبيل النقد وعدم الثقة بها فيحكم بضعفها، أو يدع المجال مفتوحا لمن أراد أن يستوثق. وفي كل الحالات كان أمينا في الرواية، فما بلغه متصل السند ذكره بسنده، وما بلغه مرسلا أو منقطعا أو معصلا ذكره كذلك.

وبالمقارنة وجدنا أغلب هذه الروايات موصولة الإسناد في كتب السنة المشهورة، من الصحاح والسنن، وإن كانت في أحيان عديدة بألفاظ متقاربة، وهو ما يزكي أمانة الناقلين الذين اعتمد عليهم أبو غانم، أو من رووا عنه تلك الأخبار. بيد أن هذه السمة لم نجدها في الفصول المدرجة في المدونة مما كان وليد عصر متأخر، وبخاصة في كتاب الصلاة المضاف الذي تضمن عددا من الأحاديث الضعيفة والموضوعة، نظرا لاختلاف العصر، وظهور أثر الوضع في كتب الأعصر التالية، وبخاصة زمن الركود الفقهي والعلمي في العالم الإسلامي.

ورغم هذه المآخذ فلا ينكر فضل المدونة في حفظ هذه الروايات، سواء منها أحاديث المصطفى عليه السلام، أم أقوال الصحابة والتابعين الكرام، وأئمة الصدر الأول للإسلام.

• الأعمال العلمية حول المدونة.

من اهتمام الإباضية بالمدونة أن نقلوا نصوصها واعتمدها في مؤلفاتهم، ونجد في أجوبة ابن خلفون نماذج لاقتباسات عديدة من المدونة، وهو أمر سارت عليه مؤلفات الإباضية مشرقا ومغربا. ومن صور هذا الاهتمام أيضا وضع حواش عليها، فقد ذكر النامي أن لها حاشية لأبي القاسم بن ناصر، دون أن يقدم لنا تفصيلا عن هذه الحاشية التي لم نتوصل إليها بعد.

ثم وضع القطب اطفيش حاشيته على المدونة ورتبها، وحفظت هذه التعليقات وانتشرت، وسوف نفرها بمزيد توضيح بعد حين. كما قام الشيخ يحيى بن عبد الله النبهاني والأستاذ إبراهيم بن محمد لعساكر بتحقيق المدونة الصغرى، ومقابلتها على نسخ متعددة، وطبعت سنة 2006م

ترجمة المدونة:

ذكر الشيخ أبو إسحاق اطفيش في مقدمة كتاب الوضع أنه رأى نسخة من مدونة أبي غانم بشر بن غانم مترجمة إلى البربرية⁽¹⁴⁾. ولم يقدم معلومات أخرى عنه. وسعى بعض الباحثين المعاصرين للحصول عليها، ويذكر الأستاذ محمد أومادي الليبي أنه توصل إلى هذه النسخة بعد جهود خارقة من البحث والمعاناة، وعثر عليه في مركز الدراسات الآسيوية في مدينة شوزان لوروا

بضواحي باريس⁽¹⁵⁾.

وأوضح بأن المخطوط شرح للنص العربي، وليس ترجمة كاملة له كما ذكر الشيخ أبو إسحاق، وأن ناسخه مسعود بن الحاج صالح، أكمل نسخه في 20 رجب 1208هـ [21 فبراير 1794م] وقدم صوراً منه مع إعادة شرح ألفاظها البربرية باللغة العربية، عوداً بالنص إلى أصله الأول، ومقارنة الشرح بنص المدونة العربي.

• عمل القطب في المدونة: الترتيب والحاشية.

شاع بين المتعاملين مع التراث الإباضي مؤخراً وجود كتابين للمدونة، أحدهما يُعرف بالمدونة الصغرى، والثاني: بالمدونة الكبرى، وكلاهما لأبي غانم الخراساني. ثم تداول هؤلاء خبر العثور مؤخراً على مدونة أكبر، تضم اثني عشر كتاباً، هي أوسع مما بين يدي الناس اليوم.

والخبر في أصله مذكور في طبقات الدرجيني، أن المدونة تقع في اثني عشر جزءاً⁽¹⁶⁾. بيد أن الرواية الأخيرة أفادت أن المدونة تقع في اثني عشر كتاباً، كل كتاب جزء قائم بذاته. وكان الخبر مثار حيرة، وباعثاً على البحث والتقصي، وبدأت رحلة السؤال فهداني البحث إلى الشيخ يحيى بن عبد الله النبهاني العماني، إذ أطلعني على نسخته الأكبر للمدونة، وكانت المفاجأة أنها نسخة دار الكتب المصرية التي وصفها الدكتور النامي، وسماها بالديوان المعروف.

وهي في حجمها لا تشكل اثني عشر كتاباً، بل تبلغ صفحاتها أربعاً وعشرين وثلاثمائة صحيفة. (مرقمة بالصفحات) من القطع الكبير، كتبت بخط مغربي دقيق.

أما قصة الاثني عشر كتاباً فأحسبها تعني موضوعات المخطوط، وهي مقسمة إلى كتب، على عادة الفقهاء في تصانيفهم، وقد حدد النامي هذه الأبواب في وصف المدونة بقوله: «والمدونة تتكوّن من اثني عشر كتاباً، وكل كتاب منها يحتوي على عدد من الأبواب، وذكرها بأسمائها. والذي يعكر على هذا التصنيف عدم تطابقه مع النسخ المتوفرة للمدونة سواء الصغرى منها أم الكبرى، إذ تذكر أحياناً اسم الكتاب وأحياناً اسم الباب، فأبواب الصلاة لم تذكر تحت اسم كتاب الصلاة، وكذلك الزكاة والحج، وإن كانت هذه الموضوعات موجودة بكاملها في المدونة، مع تفاوت في الترتيب بين الصغرى والكبرى. فضلاً عن تضمينها كتباً أخرى لم يذكرها النامي مثل: كتاب الشفعة، وكتاب الإعتاق⁽¹⁷⁾.

ولئن تبدد سراب الحديث عن مدونة أكبر، فإن التذئب ظل قائماً بخصوص المدونة الصغرى والمدونة الكبرى، وبخاصة عند طبعهما بهذين العنوانين، وانتشارهما بين الناس. فقد طبع المدونة الكبرى سنة 1974م، في مجلدين اثنين، ونشرتها دار اليقظة لبنان، برعاية وتقديم الشيخ سالم بن حمد الحارثي. ثم أعادت طبعها وزارة التراث القومي والثقافة بعمان سنة 1984م.

كما طبعت الوزارة مشكورة المدونة الصغرى في العام نفسه في مجلدين أيضا، بحجم يقارب حجم المدونة الكبرى.

ودفعت حاجة البحث العلمي ببعض الدارسين إلى عقد مقارنات بين الكبرى والصغرى، وخلصوا إلى أن ثمة تطابقا كبيرا بينهما في مواطن كثيرة، واختلافا في مواطن أخرى⁽¹⁸⁾. وكنا نحسب الأمر كذلك إلى عهد قريب⁽¹⁹⁾. وكان هذا التشابه أحد الدوافع لاستقصاء الحقيقة بحثا عن جواب شاف حول حقيقة المدونتين، وتبين لنا بعد المقابلة الدقيقة بينهما أنها مدونة واحدة لا اثنتان. ويظل السؤال قائما: من أين جاء تسمية المدونة الكبرى، والمدونة الصغرى؟

لم تذكر المصادر القديمة هذين الاسمين، ولم تورد إلا اسم المدونة، أو مدونة أبي غانم، أو الغانمية. ثم ظهر هذا التمييز في النسخ الحديثة، بعد ترتيب القطب للمدونة. وقد نسب بعضهم التسمية إلى القطب نفسه، إذ جعل المدونة الأصلية صغرى، وأما التي رتبها وأضاف إليها تعليقاته فسمّاها المدونة الكبرى.

وعزا النامي هذا إلى رأي العالم العُماني الشيبية محمد بن عبد الله السالمي⁽²⁰⁾. وأكد معجم أعلام الإباضية (قسم المشرق) نسبة هذا القول للسالمي نقلا عن المستشرق الألماني شاخت⁽²¹⁾.

وهذا توجيه معقول، ولكن يعكر عليه أن القطب اطفيش نفسه، قال في أول ترتيبه المدونة: «أما بعد، فهذا ترتيب المدونة الكبرى بألفاظها رجاء لثواب الله وبركة الأوائل». فقد قصر عمله على ترتيب المسائل، وإضافة التعليقات التي كان أمينا فيها، إذ يستهلها بعبارة: قال المرتب، ويختمها بعبارة: انتهى. ثم يعود إلى نص المدونة. وأضاف القطب في آخر المدونة فصلا عنوانه بقوله: "تكملة خارجة عن المدونة"، ضمّنها ترجمة لرجال المدونة. وفي شرح النيل للشيخ اطفيش ورد ذكر المدونة الكبرى مرة واحدة⁽²²⁾، بينما ورد ذكر "المدونة" هكذا دون وصف، مرات عديدة⁽²³⁾، وأحيانا يذكر "مدونة أبي غانم"⁽²⁴⁾.

علما بأنه يذكر أحيانا لفظ المدونة ويقصد به مدونة المالكية، وأحيانا يوضحها باسم "مدونة مالك"، و"مدونة ابن القاسم"، ومدونة المالكية⁽²⁵⁾. وهذه ليست محل اهتمامنا الآن.

ولكن الإشكال يظل قائما، لأن القطب نفسه نص على تسمية "المدونة الكبرى" ولم يشير إلى أنه وضع هذا الاسم من عنده، ثم نفى كل احتمال حين قال: "بألفاظها"، فهل يكون القطب موهما أو ناسيا لذلك؟ لا نظنه كذلك. ثم إنني اعتمدت في تحقيق الكتاب على نسخة بخط الشيخ الشيبية محمد بن عبد الله السالمي، كتّب في أولها "المدونة الكبرى" وقال إنها مقابلة مع النسخة التي أرسلها القطب إلى والده الإمام نور الدين السالمي.

فالتسمية إذن حادثة، ولا نملك الجزم بأن القطب هو الذي سمّاها، وإن ذهب إلى ذلك بعض الباحثين. كما ذهب البعض إلى أن وزارة التراث وضعت التسمية عند طبع الكتاب، تمييزاً بين التي بها تعالّق القطب وبين أختها⁽²⁶⁾. ولكن الصواب وجود التسمية قبل طبع الوزارة كما تؤكد المخطوطات المعتمدة، والنصوص التي أوردناها للقطب وغيره.

وأياً ما كان فإن الكتاب في أصله واحد، وقد تأكد لدينا يقيناً بالمقابلة الدقيقة الشاملة بواسطة الحاسوب، كما تبين لنا موقع وحجم الاختلاف بين الكبرى والصغرى، وأنها تتعلق بعدة فصول اختصت بها الصغرى دون الكبرى، وببضعة أبواب أضيفت إلى الكبرى وليست في الصغرى. منها أبواب عديدة في كتاب الصلاة، وفي كتاب الصوم، إضافة إلى كتاب القسمة كاملاً. وهي أبواب تختلف في صياغتها ومضمونها عن أسلوب ونهج المدونة الأصلية، وبخاصة منها أبواب الصلاة، إن نجد عليها سمات التدوين في العصر اللاحقة للمدونة، وينعدم فيها أسلوب الحوار بين التلميذ وشيوخه، كما سادها أسلوب الخطاب المباشر الموجه إلى الجماعة، بلهجة وعظمية متكلفة، لم نعهد في كتب الصدر الأول، مع عناية بالغة بتفاصيل الأحكام، في باب الاستنجاء والطهارة، والتمييز بين الرجل والمرأة في ذلك.

وقد اعتمد القطب هذه الأبواب ووضع عليه تعليقات كثيرة، ولا ندري من الذي أدرجها في المدونة، وبوسع القارئ اكتشاف هذا التباين الواضح بين الفصول والأبواب المضافة، وبين أصل المدونة. وقد تركناها للأمانة، مع التنبيه إلى ذلك في موضعه من الكتاب. ويؤكد هذا الإدراج ما في أبواب الصلاة المزينة من أحاديث عديدة ضعيفة أو موضوعة، خلافاً لأحاديث المدونة الأصل، إذ نجدها متطابقة مع ما جاء في كتب الصحاح والسنن، وإن عريت عن الإسناد في أغلب الأحيان.

ويطرح السؤال الجديد: من الذي أضاف هذه الأبواب إلى المدونة؟ وفي أي عصر أضيفت؟ يرى بعض الدارسين أن القطب هو الذي قام بهذه العملية ضمن ترتيبه وتعليقه على المدونة، إذ أضاف هذه الفصول من مصادر أخرى، وصارت بها المدونة كبرى. وقد صرح لي بعض الإخوة بذلك⁽²⁷⁾، ولكني لم أستسغ هذا التفسير وقفاً عند صريح عبارة القطب "هذا ترتيب المدونة بألفاظها".

فهل يقبل أن يكون القطب موهماً في عبارته أو قاصداً التعمية على القارئ؟ أو يجزؤ أحد على تهمته بالتدليس فيما كتب؟ رغبة في صوغ الكتاب بهالة من الثقة بكل ما حواه، لأنه من نتاج القرون الأولى؟ لا أحسب أن هذا يدور بخلد القطب بحال. فأمانته وورعه يحولان دون تصديق هذا التفسير، وما يضيره أن يذكر ذلك، وقد حشّى على كتب كثيرة، ورتب وشرح كتباً عديدة، وأوضح للناس تفاصيل ما أنجز وعمل. فالأمانة العلمية تقضي بعدم إلقاء التبعة على القطب

اطفئش، ما دام قد صرح بأن عمله منحصر في الترتيب والتعليق، وعبارته واضحة لا لبس فيها ولا غموض. فهو لم يستمها بالكبرى، ولم يُدرج فيها ألفاظا من غيرها، وهو العالم المحقق، والمسلم الورع الأمين. ويظل السؤال قائما، بلا جواب مقنع، لمعرفة صاحب هذا الإدراج؟

لكننا عثرنا على مصادر الإدراج، وهي أبواب مستقاة من كتب مختلفة، بعضها من الديوان المعروف، وهي أبواب الصيام وكتاب القسمة، أما أبواب الصلاة فمن كتاب مستقل بعنوان "كتاب الصلاة" يقع في ثلاثة أجزاء صغيرة، لم يسجل عليها اسم صاحب الكتاب. أمداً به الفاضل يحي بوراس من مكتبة الاستقامة ببني يسجن. وقد وصفناه ضمن المخطوطات المعتمدة في التحقيق. وأمكننا بتلوين النص بالحاسوب تغطية هذه الفصول المضافة، حسب مصادرها، وكشفت المقارنة أن حجمها معتبر بالنظر إلى أصل المدونة، وهي تزيد عن نصف الجزء الأول، إذ غطت معظم أبواب الصلاة، وأبواب الصيام.

وبما أن المدونة الكبرى قد خلت من فصول تضمنتها الصغرى، ثم حوت من جهة ثانية فصولاً إضافية أخرى ليست في الصغرى، فقد جاء الكتابان متقاربين في الحجم. وعملنا على ضم الناقص إلى الكبرى مما انفردت به الصغرى، فجاءت الكبرى وافية بما فيهما جميعاً.

وبناء على هذه الاعتبارات آثرنا الإبقاء على تسميتها "المدونة الكبرى" حفاظاً على اختيار القطب في ترتيبه، لأنه ترتيب منهجي يفضل ما كانت عليه المدونة في أصلها "الصغرى"، وإن قصر عن الدقة المطلوبة، إذ ظلت كثير من المسائل في غير موضعها الصحيح، كما نتج عن إعادة الترتيب تكرار بعض المسائل والفصول، ولولا استعمال الحاسوب لكان الكشف عنها في غاية العسر، إلا بفضل مسائله في قصاصات أوراق مستقلة، وهو عمل يستغرق من الزمن ما لا يقدر بثمن.

ويتجلى جهد القطب بالمقارنة مع وضع المدونة الأصلي، إذ كان ترتيبها مشوشاً غاية التشويش، حيث تتناثر المسائل وتباين كثيراً، رغم ما بينها من وئاج وحدة الموضوع، مما يجعل استيعابها أو الوصول إلى المبتغى منها أمراً عسيراً، لا ينال إلا بزيادة من الصبر الجميل والنفس الطويل. والذي يرجح الإبقاء على ترتيب القطب أيضاً، ما حلّى به الكتاب من هوامش مفيدة، وتعليقات علمية قيمة، تنبئها أو توضيحاً، أو استدراكاً وتصحيحاً، أو ردّاً لرأي فطير أو اجتهد غير سديد. وقد نالت الأبواب الأولى من الكتاب نصيباً موفوراً من هذه التعليقات، ثم بدأت تتناقص في عددها وفي حجمها تدريجياً، حتى كادت تنعدم مع أواخر الكتاب، إلا أن تكون شرحاً للفظ أو ما شابه ذلك.

ولا يعني هذا أن ترتيب القطب كان نموذجاً كاملاً لما ينبغي أن يكون، فإن الكتاب لا يزال بحاجة إلى إعادة ترتيب دقيق، أو على الأقل وضع فهرس موضوعي لمسائله، تيسيراً للوصول

إليها بأقصر سبيل، وأيسر مجهود.

• مساهمة الباحث في تحقيق المدونة.

سأقت الأقدار إلينا كتاب المدونة، فاشتغلنا به زمنا، وكانت سنوات شاقة وشائقة، في مقابلة متأنية بين نسخ المدونة الصغرى والمدونة الكبرى، ويتوفيق الله اطمأننا إلى نص الكتاب الكامل، فصدر مضبوطا مخرّجا، بما أمكن من التوثيق والتوضيح لما تضمنه من نصوص حديثة وأعلام ومصطلحات. تمثّل عملنا في تحقيق الكتاب في الخطوات الآتية:

1. نسخ الكتاب كاملا من مخطوطة الأصل إلى الكمبيوتر.
2. فصل تعليقات القطب عن نص المدونة، ووضعها في الهامش، والإشارة إلى هذه التعليقات بأرقام ونجمة؛ هكذا: (1★)، تميزا لها عن أرقام الهوامش العادية. وفي الهامش وضعنا تعليقات القطب مصدرة بهذه الصيغة: "(1★) – قال المرتّب:....". ولم نر ضرورة لوضع كلمة "انتهى"، ما دام التعليق مفصّلا عن صلب المدونة.
3. حافظنا على ترتيب الكتاب كما وضعه القطب، وهو مختلف تمام الاختلاف عن ترتيب المدونة الأصلية الصغرى، ولكنه أفضل منه بكثير.
4. وكانت المقابلة بين نسخ عديدة من المدونة الكبرى والصغرى. ونظرا لاختلاف الترتيب بينهما وبين الأصل، استعنا بالحاسوب، وكان العمل شاقا، إذ قد تجد مسألة في أول الأصل، وأخرى في وسطه أو آخره، فخلص لنا في النهاية المنطقة التي تتطابق فيها الكبرى والصغرى، وما تستقل به كل منهما عن الأخرى. وثمة أبواب عديدة ناقصة من الصغرى، وأخرى ناقصة من الكبرى، أشرنا إلى ذلك بالتفصيل في ثنايا التحقيق.
5. واقتضى العمل أيضا ضبط النص وتخريج الآيات والأحاديث، سواء ما كان في أصل المدونة أو في تعليقات القطب، وهي كثيرة جدا. فضلا عن التعريف بالأعلام والبلدان وشرح المصطلحات.
6. كما ألحقنا فصولا من مخطوط الديوان المعروف لم تكن في المدونة، وهي مطابقة لنصوصها وأسلوبها، وروحها، وجعلناها ملحقا بالكتاب، وتتناول قضايا بالغة الأهمية في السياسة الشرعية.

7. والملاحظ أن "باب الحج" من أقصر أبواب المدونة، إذ لا يتجاوز نصف صحيفة يتيمة، وردت فيه مسألتان، الأولى في إشعار الهدي، والثانية في فساد العمرة وكيفية قضائها. ولا يعقل أن يُغفل أبو غانم تفصيل أحكام هذا الركن الخامس من أركان الإسلام، وقد كان لأئمة الإباضية عناية خاصة بالحج، واشتهر عنهم الإكثار منه، وتذكر المصادر أن الإمام جابرا حجّ

أربعين حجة، وضروري أن يتكلموا في مسأله باستفاضة وتفصيل، وغالب الظن ضياع هذا الجزء من الكتاب.

8. وقد قام الشيخ الفاضل خميس بن راشد العدوي برصد آراء فقهاء المدونة وشيوخهم حول باب الحج، استقاهم من مصادر عدة، فكان بابا وافيا اقترح علينا إضافته إلى هذا العمل، فجعلناه ضمن ملاحق الكتاب، لتكتمل الصورة ويتدارك النقص، لعل الله ييسر يوماً سبيل العثور على هذا الباب الضائع، ولكل أجل كتاب.

9. وتيسيرا لمن أراد المقارنة بين أصول المدونة وضعنا ملحقا بفهارس موضوعات المخطوطات المعتمدة. وهي على ثلاثة أنواع: فهارس المدونة الكبرى، وفهارس المدونة الصغرى، وفهارس الديوان المعروض.

إلى جانب أعمال تفصيلية أخرى لا يتسع لها هذا المقام⁽²⁸⁾.

كما ينتظر كتاب المدونة أعمال علمية جادة ومتكاملة، تتناول جوانبه المتعددة، وهي في غاية الأهمية والثناء، فالكتاب ينظر أيادي متخصصة تنخله، حديثا، وفقهيا وأصوليا، وتاريخيا، وتستخرج مكنوناته، وتستثمر مخزونه المتنوع. وقد انطلقت مشاريع علمية هنا وهناك تتعامل مع الكتاب وتستفيد منه، وإن ظل بحاجة إلى مزيد جهود تتضافر، ويتم بينها التعاون والتنسيق، سعيا لمواصلة بناء أمتنا الحضاري، وتشجيع صرحها العلمي، الذي أقامه علماء الإسلام. والحمد لله في البدء والختام.

الهوامش:

(1) - ينظر كتاب الدكتور مصطفى ويتن، الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش، وآراؤه العقدية، فهو مرجع موثوق شامل في حصر نتاج القطب العلمي وتصنيفه، نشر جمعية التراث. القرارة، غرداية.

(2) - وقد طبع طبعة حجرية في زنجبار، لم تكتمل ثم أتمها الشيخ أبو إسحاق اطفيش ابن أخ القطب، في مصر، فجاءت في عشر مجلدات، وظلت معتمدة وكثر الطلب عليها، فأصبحت نادرة، ثم أعادت طبعتها ونشرها دار الفتح في لبنان، ودار الإرشاد بجدة سنة 1972، وجاءت في سبع عشرة مجلدا، وظلت معتمدة إلى اليوم، إذ صورت عنها طبعة ثالثة سنة 1985، واعتمدت في النشر الإلكتروني لمختلف الجهات، وأهمها برنامج "جامع الفقه الإسلامي" الذي أصدرته شركة حرف لتقنية المعلومات برعاية أمانة الأوقاف بالكويت.

(3) - ولم تذكر المصادر عن اسمه أكثر من هذا.

ونسبته إلى خراسان موطنه الأصلي، إذ كانت من البلاد التي انتشر فيها الإباضية، ونشأ فيها عدد من علمائها، منهم أبو غانم هذا، وأبو عيسى الخراساني.

أبو العباس أحمد الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1974م، ج2، ص313.

- (4) – الدرجيني، طبقات المشايخ، ج2، ص323؛ أبو العباس أحمد بن سعيد الشماخي، كتاب السير، ج1، ص194.
- (5) – الدرجيني، طبقات المشايخ، ج2، ص323.
- (6) – فلا إشكال إذن أن يكون لقاء أبي غانم بعمروس في بدايات القرن الثالث، أو قبلها بقليل، ويكون تقدير النامي لسنة وفاته عام 205هـ معقولا، وإن كنا لا نملك دليلا حاسما على سنة محددة لوفاته.
- ولا تفيدنا المصادر عن وجهته ولا منتهى رحلته، ولا تذكر شيئا عن تفاصيل حياته إثر عودته من بلاد المغرب. كما لا تسعفنا أيضا بتاريخ محدد لوفاته، وإن ذكر بعض الباحثين المعاصرين أن وفاته كانت سنة 200 للهجرة. ينظر: صالح البوسعيد، رواية الحديث عند الإباضية، ص98، نقلا عن مشهور حسن حمود وآخرين، موسوعة العالم الإسلامي، ص132.
- (7) – صالح البوسعيد، رواية الحديث عند الإباضية، ص103.
- (8) – للمقارنة ينظر فهرس الأعلام ضمن فهرس الكتاب.
- (9) – أبو غانم، المدونة الكبرى، ج3، كتاب الوصايا، ص78.
- (10) – أبو غانم، المدونة الكبرى، ج2، باب الشرط، ص247.
- (11) – المصدر نفسه.
- (12) – صالح البوسعيد، رواية الحديث، ص111.
- (13) – البوسعيد، رواية الحديث، ص122.
- (14) – أبو زكرياء الجنائني، كتاب الوضع، مقدمة اطفيش، ص10.
- (15) – قدم الباحث هذه الدراسة ضمن "سلسلة دراسات نفوسية" (3)، وعرض ست صفحات منها في موقع "تاوالت" tawalt.com في الأنترنت. مع صورة لآخر المخطوط، وأسطر معدودة من داخله.
- (16) – الدرجيني، طبقات المشايخ، ج2، ص323.
- (17) – ينظر فهرس مخطوطات المدونة في الملحق الخاص بها في هذا الكتاب.
- (18) – البوسعيد، رواية الحديث، ص99.
- (19) – مصطفى باجو، منهج الاجتهاد عند الإباضية، ص32.
- (20) – د. النامي، دراسات عن الإباضية، ص136.
- (21) – معجم أعلام الإباضية (قسم المشرق) ترجمة أبي غانم. وقد تناول شاخت المخطوطات الإباضية ومكتباتها في شمال افريقيا في بحث مطول بالمجلة الإفريقية، عدد 100.
- (22) – اطفيش، شرح النيل، ج10، ص402.
- (23) – اطفيش، شرح النيل، ج2، ص67، 159، ج10، ص40، 401، ج12، ص107، ج13، ص253، 513، 515.

(24) - اطفيش، شرح النيل، ج10، ص399.

(25) - اطفيش، شرح النيل، ج1، ص178، 237، ج7، ص93، 446، ج8، ص25، 41، ج13، ص287.

وغيرها.

(26) - البوسعيدي، رواية الحديث، ص99.

(27) - كان هذا رأي الزميل مصطفى بن محمد ابن دريسو في رسالة بعث بها إليّ في الموضوع جاء فيها قوله: «وخلاصة كلامي أن القطب أدرك أن المدونة الصغرى هي جزء من كتاب ضائع، ومنتشت، لذلك عمد إلى ما بين دفتي الصغرى، مضيفاً إليه مسائل من الديوان المعروض الذي ذكره النامي، ومن بعض كتب النكار التي لم ندرکہا بعد، وغير مستبعد أن تكون هي المخطوطة التي في مكتبة الاستقامة ببني يزقن، تحت رقم: ف 27، والتي اعتمدتها في البحث، وبها نسختان من كتاب القدر للفزاري، وأجزاء من كتب في الصلاة أوردت مسائلها بنفس أسلوب المدونة والديوان» تاريخ الرسالة: 1 مارس 2005 أرسلها بالإنترنت.

(28) - ينظر تفاصيل هذا العمل في مقدمة تحقيقنا لكتاب المدونة الكبرى. طبع وزارة التراث، سلطنة

عمان، 2007م.

الإمام القطب محمد بن إبراهيم أطفيش ومنهجه الاستدلالي

التواتي بن التواتي

جامعة عمار التليجي الأغواط

الحمد لله الذي أنزل الأحكام لإمضاء علمه القديم، وأجزل الإنعام لشاكر فضله العقيم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له البر الرحيم، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المبعوث بالدين القويم، المنعوت بالخلق العظيم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم أفضل الصلاة والتسليم (وَيَعُدُّ):

أيها العلماء الأجلاء والأستاذة الأفاضل، أيها الحضور الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد: اسمحو لي أن أقدم لكم عناصر المداخلة حتى أمكنكم من متابعتها، فأقول-سائلا الله تعالى التوفيق:- لما كان هذا اللقاء خاصة بذكر مآثر الشيخ الإمام القطب محمد بن يوسف أطفيش، فكان موضوع مداخلتني "الإمام أطفيش ومنهجه الاستدلالي"

إن الحديث عن سيرة حياة الشيخ العلامة القطب محمد بن إبراهيم أطفيش -قدس الله سره- يؤول بنا إلى ذكر المؤلفات التي تناولته بالدرس، وأسهب في سرد أخباره وسلوكاته ومواقفه، مثل:

- و" نهضة الجزائر الحديثة " لمحمد علي دبور.
- و" قطب الأئمة العلامة محمد بن يوسف أطفيش " ليكيبر بن سعيد أعوش.
- و" الشيخ محمد بن يوسف أطفيش ومذهبه في تفسير القرآن " ليحيى صالح بوتردين.
- و" آراء الشيخ امحمد بن يوسف أطفيش العقديّة " لمصطفى بن الناصر وينتن، وغيرها من الكتب التي تفيد القارئ وتجعله يحيط بجوانب كثيرة من حياة هذا العلامة الفذ، الذي كان يعي بشاعة الاستعمار، وكان يجد بكل ما أوتي من قوة وبأس للمحافظة على الشخصية العربية الإسلامية التي حاول الاستعمار الفرنسي طمسها، تشويهها.

أولا- الإمام محمد بن يوسف أطفيش (1236 – 1332 الموافق 1914م): معنى لفظ "أطفيش" قيل: إن أحد أسلافه لقبه به مناداته صديقا له يدعوه إلى الطعام، فلفظ "أطفيش" لفظ

أمزيغي مركب تركيباً مزجياً من ثلاث كلمات:

الأولى: "أطف" بفتح الهمزة وتشديد الطاء المفتوحة وسكون الفاء، ومعناها في بعض لغات الأمازيغ "أمسك"

الثانية: "أيا" بفتح الهمزة وشديد الياء ومعناها: "أقبل، تعال".

الثالثة: "أش" ومعناها "كل". ومجموع الجملة: "أطف، أيا، أش" ومعناها: "أمسك، تعال، كل"

ولد في مدينة بني يزجن بوادي ميزاب أخذ العلم عن أخيه إبراهيم أطفيش وظهر نبوغه في العلم مبكراً - واشتهر بقطب الأئمة لغزارة علمه ومؤلفاته، واشتهر بالإصلاح والتجديد، وكان إماماً في علوم شتى أي: إمام عصره في العلم، تفرغ لتدريس آخر عمره وأخذ عنه: أبو إسحاق اطفيش، وإبراهيم أبو البقطان. ومؤلفاته تربو عن ثلاثمائة مؤلف في شتى العلوم.

البيئة التي نشأ فيها: وأحب هنا أن أقف عند دور المرأة العظيمة نموذجين من النساء لهما دور ومشاركة في العلم بل لها فضل على المذهبين المالكي والإباضي معا.

إن والدته الإمام مالك رحمه الله التي كانت توجهه وتختار له المشايخ الذين يأخذ عنهم، ولها كل الثقة في تكوينهم ابنها، ومن رجع إلى سيرته أدرك ذلك وعلمه، وإن السيدة (ماما ستي) - رحمها الله تعالى - والدته الشيخ اطفيش - رحمه الله تعالى - هذه الأم الكريمة من الأمهات اللاتي بذلن مجهوداً مضنياً في سبيل العلم الصحيح وتأسيس المعرفة الإسلامية العلمية، فمن هذه الأمة القدوة؟ واسمها ماما ستي وهي ابنة الحاج سعيد بن عدون، ورثت من أسرتها الذكاء والعلم والفضل، فكان جدها وعمها وأخوها من العلماء الأفاضل الذين نبغوا في عصرهم، اتصفت ماما ستي بالورع والتمسك بالدين، ونشأت محبة للعلم والعلماء، تعرف فضل العلماء ومكانتهم وقدرهم، وأن العلم أنفس شيء في الوجود، تزوجت من السيد الصالح الحاج يوسف، وكان ذا أثر بليغ فيها، فقد رسخ فيها ما ورثته من أسرتها من حب العلم والدين والحماس للنهضة الحديثة وقواه، ولقد رزق الله هذا الزوج نعمة الذهاب إلى حج بيت الله الحرام، وبعد طوافه نام فرأى رسول الله ﷺ في منامه يدنو منه باسمًا مهلاًلاً، ويكتب شيئاً في ظهره فاستفاق الحاج يوسف، وقلبه يغمره الانشراح، فلما رجع إلى وطنه استقبلته زوجته ماما ستي في حبها وحنانها وأشواقها فحدثتها بالرؤيا، فاستبشرت، ثم حملت بعد مدة قصيرة بالولد السعيد، وبعد ولادته كان كما تمنيناه غلاماً جميلاً قوي البنية تبدو على نظراته وسميائه وجهه آيات الذكاء والنبوغ وعلامات الصلاح والنجاح، وأسمياه محمداً تيمناً وتبركاً بالرسول ﷺ، وتمنيا من الله أن يكون ولدهما في مصاف العلماء.

وكان لا يرى الطفل محمد أباه بعد رجوعه من العمل أو المسجد إلا بين كتبه يقرأها، فنشأ

الطفل الصغير محباً للكتب توافاً للمعرفة، وما يكاد يبلغ محمد الخامسة من عمره حتى يرى والده محمولاً على الأعناق إلى المقبرة، فارتاع وسفح الدمع الغزير، ولكن أمه ماما ستي أخذت تحنو عليه وتبالغ في الحنو وتكفكف دمه، وتعوضه برعايتها وحسن تربيتها وتوجيهها ما فقدته من حنان أبيه ورعايته.

وكانت الأم ترقب تصرفات ولدها، فترى حبه للعلم منذ نعومة أظافره لدرجة أنه لا يكاد يجد ورقة مكتوبة في الشارع أو في الدار، إلا ويأخذها ويرأها أعز ممتلكاته، وكان في ألعابه يقلد أصوات القراءة متلذذاً بها، فأيقنت الأم نجاحه لا يكون إلا في العلم وأن الله قد حقق آمالها وآمال أبيه فوهبها هذا الولد الذكي، وأورثه الشغف بالعلم والقراءة منذ صباه، وآلت أن تصارع الدهر والحاجة وتترك ابنها يتعلم حتى ينبغ.

كانت ماما ستي حسيصة العقل، قوية الشخصية، عالمة نشيطة، تثبت في وجه الحياة المكشورة العابسة، فقد كان زوجها المتوفى مع حبه للعلم وأهله، تاجراً إلا أنه لم يتفرغ للتجارة وبالتالي لم يحقق ثراءً يذكر، فعندما توفي لم يترك لابنه وزوجته سوى دار يسكنانها، وثلاث نخلات، ومال يسير سرعان نفد، ولكنها بحسن تديرها اعتمدت على منسجها، وبراعتها في النسج، فعالت نفسها وابنها ولولاها لاتبج ابنها اتجاها ماديا يودي بنبوغه كما أودى الفقر والجهل بنبوغ كثير من اليتامى وأبناء الأمهات الجاهلات، وقد عهدت بولدها إلى أحد المؤدبين فحفظ القرآن، وختمه وأتقن حفظه وهو ابن ثمان سنوات، وقتها انتشت الوالدة باستظهار ولدها للقرآن الكريم، وكان ذلك اليوم أعظم عرس لها في الحياة، وقد أولمت له، وامتلأت دارها بالمهنئات، وأسرع إليها أقاربها يباركون للطفل ويهنئونها، وأسرع الطفل بعد ذلك إلى دور العلم يزاحم بالركب زملاؤه في حقل العلم، وأظهر ميلاً قوياً لحضور مجالس العلماء حتى إنه حين وصل العشرين من عمره كان يعد من أكابر العلماء، فقام بدور رائد في إحداث نهضة علمية في بلده وتخرج على يديه كثير من طلبة العلم، كان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر وتصدى للبدع في عصره، ثم لقب بقطب الأئمة عن جدارة، فحقق به وصف الشيخ الخليلي حين يقول: (كان رحمه الله أمة في فرد وفرداً في أمة فقد جمع بين العلم والعمل)، فهنيئاً لماما ستي التي كانت هي السبب بعد توفيق الله عز وجل في اتجاه القطب إلى العلم، فقد دلت ابنها على طريق الفوز والنجاة ورتبة الشرف في الدارين: الدنيا والآخرة، ولها من الأجر -إن شاء الله- بعدد ما قدم الشيخ من حسنات وأعمال صالحة.⁽¹⁾

مواقفه النبيلة الخالدة: وهنا تحضرني واقعة رائعة ذكر لي الشيخ الفاضل الحاج صالح البليدي مما تعطينا صورة عن الشيخ أطفيش -قدس الله سره- ومدى تمسكه بدينه فقد وقف موقفاً مخالفاً لمن عقد الصلح مع الاستعمار، وقيل: له إن الاستعمار دخل الأغواط، وهو على

مقربة منا، وإذا دخل الأغواط فقد دخل غرداية، فبقي متمسكا برأيه-رحمه الله تعالى-، وهنا وقعت حكاية طريفة تبين لنا شخصية الشيخ أطفيش الإسلامية، وعقيدته المتينة التي تؤكل من الأطراف: حدث أن زاره أحد الحكام الفرنسيين في بيته فأمر بإحضار كرسي لهذا الضيف، وجلس هو بأعلى الدرج، فلما جاء هذا الحاكم أن يخلع نعله، له لا تفعل وتستطيع أن تمشي بنعليك، فلما سئل عن ذلك بعد انصراف الضيف، أجاب-رحمه الله تعالى-

-أما جلوسي بأعلى درج فذلك؛ لأنني أحمل القرآن الكريم في صدري والقرآن كلام الله لا ينبغي أن أجلس في مستوى هذا الكافر، أما تركه يمشي على الفراش بحذائه فإن حذاءه أظهر من جسده.

وقيل: لما أراد الحاكم الفرنسي أن يضع نيشا على صدره قال: ضعه في أسفل برنوسي، وهي واقعة اشترك فيها عالم إباضي مع عالم مالكي، إذ أراد أحد القادة العسكريين الفرنسيين أن يضع نيشا على صدر شيخ الزاوية العثمانية، (والد عبد القادر العثماني) فقال له: ضعه في أسفل برنوسي، وذلك لأنني أحمل القرآن الكريم على صدري.

آثار الشيخ: من تصانفيه التي ربت عن 300 كتاب منها:

- تيسير التفسير وهنا أحدثكم عما قال لي لما فتح لي قلبه كتابا: أما بعد، فإنه لما تقاصرت الهمم عن أن هيّم بـ"هميان الزاد إلى دار المعاد"، الذي ألفته في صغر السن، وتكاسلوا عن تفسيري "داعي العمل ليوم الأمل" أنشطت همّتي على تفسير يغتبط ولا يملّ. وهو هذا التفسير الموسوم يسير التفسير، وهذا الأخير من المصادر التي اعتمدتها في تفسيري الموسوم بـ"الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين".

أما التصنيف الذي صاحبت فيه الشيخ القطب-قدس الله سره- زمانا غير يسير فهو كتابه "شرح النيل وشفاء العليل" هذا المصنف، الذي كان الشيخ فاتحا قلبه لي كتابا كلما عدت إليه، فدلّ على أنّ الشيخ، عالم فقه

وأصول وعالم تفسير ولا يتأتى له ذلك إلا إذا بحرا لا تكدره الدلاء في علوم اللغة.

فقد قرأت هذا الكتاب أكثر من عشرين مرّة، أي: الكتاب في جملته، أما عن النصوص فقد أقرأها مرات كثيرة متأملا متدبرا مقارنا، ولعلكم تتساءلون لما كلّ هذه العناية، فقد وجدت الشيخ-رحمه الله تعالى- بلغ درجة الاجتهاد، فهو بحر زاخر في العلوم فهو عالم فقه، عالم نحو ولغة، وعالم تفسير، عالم أصول.

ومن مصنفاته اللغوية:

- نظم المغني وهو عبارة عن أرجوزة في نحو خمسة آلاف بيت: أذكر هنا أنّ الشيخ قام

بنظم المغني اللبيب في قصيدة رائعة، حسب ما قيل لي إذ لم يسعفني الحظ الإطلاع عليها، ويستهلها -رحمه الله تعالى-:

مغني اللبيب جنة ❖ أبواها ثمانية

ألا تراها وهي لا ❖ يسمع فيها لاغية

- تلخيص المعاني من ربة جهل المثاني في البلاغة.

- بيان البيان في علم البيان.

- ربيع البديع في علم البديع.

- إيضاح الدليل إلى علم الخليل في علم العروض.

ولازلت ألحّ عند أصدقائي وإخواني من العلماء الإباضية بوفااتي بهذه المخطوط قصد قراءته ما دمت أعدّ من فقهاء المذهبين الأخوين: المالكي والإباضي، وكتابي في الفقه المقارن "دراسة تقابلية بين المذهب المالكي والإباضي" خير دليل على ذلك إذ أصبح مرجعا لدى لجنة الفتوى في الفقه الإباضي، وهذا ما يدلّ على سعة الصدر والتسامح لدى أهل الفقه؛ لأنّ كلّ منا من مشكاة النبوة يقتبس ويلتمس.

ومما يزيدنا يقينا بتضلع الشيخ القطب-قدس الله سره-في علم النحو كيفية تحليله في تفسيره للمسائل النحوية، ولعلّ ما نورد هاهنا يعطينا صورة عن مكانته في علم النحو: من خلال تفسيره تيسير التفسير و"هميان الزاد إلى دار المعاد"، وتيسير التفسير.

1- وفي هميان الزاد: - قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ وجه الاستدلال بهذه الآية أن الأسماء كلها إما أن يراد بها نفس الأسماء أو صفات المسميات ومنافعها، وعلى كلا التقديرين المسميات موجودة في ذلك الوقت، للإشارة إليها في قوله: {هؤلاء}

والمراد بأسماء الألفاظ الدالة على مسميات سواء كانت أسماء نحوية، وهي ما قابل الأفعال والحروف، أو كانت أفعالا، أو كانت حروفا، وإطلاق الاسم على ذلك كله، وعلى كل ما يدل على الشيء ويدفعه إلى الذهن، ولو بلا تلفظ. وهو ما ذهب إليه القرطجني في كتابه واشتهر لفظ الاسم عرفاً في كل لفظ دل على مسمى، في مقابل الحرف والفعل وقل في الحرف والفعل، ثم خص في النحو بمقابل الفعل والحرف.

فإن الله -تعالى- علم آدم الأسماء ومعانيها، والأفعال ومعانيها، والحروف ومعانيها، ووجه تعميم ذلك كله بلفظ الاسم أن اللفظ يرفع المعنى إلى الذهن، ويكون عليه علامة فقام علامة على معناه، وبه يرتفع معناه إلى الذهن.

وكذا (إن وما) أشبههما من الأفعال والحروف والمراد في الآية: المعنى الذي ذكرت أنه أصل اللغة، أو المعنى الثاني العرفي، وهو يستلزم الأول؛ لأن العلم بالألفاظ من حيث الدلالة متوقف على العلم بالمعاني، وقيل علمه

الألفاظ فقط-وهو ضعيف-لخلوه من عظم الفائدة.

واستدل مكي بن أبي طالب القيسي بالآية على الاسم هو المسمى، ولا دليل في ذلك، في كون الاسم هو المسمى، بل الحق أن الاسم فيها هو اللفظ ولا ننكر إطلاق الاسم على اللفظ في سائر الكلام.

2- في تيسير التفسير: قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ألقاها في قلبه مرة، لا بتعليم ملك كما

قيل {كُلَّهَا} من جميع اللغات، وهي الحروف، والأفعال، والأسماء، وواضع اللغة الله؛ فالمراد بالأسماء الألفاظ الدوال، على المعاني، فشملت الحرف والفعل إقراءً وتركيباً، حقيقة ومجازاً، ودخلت أسماء الله كلها، بل قيل: أراد أيضاً ما يدل بلا لفظ كالنصب، والإشارة بالجراحة، وحال الشيء، والمراد الأنواع كالإنسان، والفرس والجبل، والنخلة.

وذكر الأسماء مراداً بها الدوال، ورد الضمير إليها مراداً به المدلول على الاستخدام، وضمير الذكور العقلاء تغليب على الإناث وغير العقلاء ﴿عَلَى الْمَلَائِكَةِ الْقَائِلِينَ أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ ﴿فَقَالَ أَنبِيُّنَا بِأَسْمَاءٍ﴾ بالألفاظ ﴿هَؤُلَاءِ﴾ الأنواع المعروضة، أحضر كل نوع، فقال: ما اسم هذا، جسماً أو عرضاً، مثل أن يلهمهم في قلوبهم الفرح ما اسمه، والنفل ما اسمه، كما يقول لهم، ما اسم هذا مشيراً للحجر، وقد عرفوا بعض الأسماء والأفعال والحروف بلغة من اللغات، كما هو نص الآية، وإنما خص آدم بجمعه ما لم يعلموا إلى ما علموا، أو ذلك تعجيز لهم، لا تكليف بما لا يطاق ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى أنكم أحق بالخلافة، والاقصار عليكم عما يفسد ويفسك، وأنكم أعلم، وقد قالوا لن يخلق الله تعالى خلقاً أعلم منا ولا أكرم.

﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ﴾ عن أن نكون في قولنا أتجعل الآية معترضين ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ بتلك المسميات وغيرها ﴿إِلَّا مَا﴾ أي: إلا علم ما ﴿عَلَّمْتَنَا﴾ إياه، أو لا معلوم لنا إلا ما عَلَّمْتَنَا، هذا اعتراف بالعجز، وشكر على إظهار الحكمة في الخليفة لهم ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ﴾ بكل شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ في جميع ما فعل وما قال، وما يقول، وما يفعل، لا يكون منه سفه، أو لا يخرج الأمر عما أراد، يقال أراد فلان إحكام شيء، أي إتقانه فأتقنه، أي لم يخرج عما أراد.

وقدم العلم على الحكمة؛ لأن المقام له ولقوله: وعلم، وقوله: لا علم، ولأن الحكمة تنشأ عن علم وأثر له، ولا حكمة بلا علم؛ لأن العلم لا يكون إلا صفة ذات، والحكمة تكون صفة

ذات، بمعنى أنه أهل لأن لا يكون منه إلا الصواب وإلا الإتقان، وتكون فلا بمعنى إتقان الأمر والإتيان به صواباً.

وإذا تأملنا قوله في التفسيرين نجد أنّ ما قاله في "تيسير التفسير" تكملة لما قاله في "هميان الزاد"، وأنه لم يخرج عن منهج المفسرين، في توظيف اللغة والنحو، وأنّ ما ورد في تفسيريه كان أكثر عمقا وفائدة، وأقرب إلى ما يدعو إليه البحث اللغوي النحوي الحديث وذهب إليه اللسانيون في زماننا.

– وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ﴾ إلا هي: إن الشرطية ولا النافية، لكن أبدلت النون لاما وأدغمت في لام لا، ولذلك حذفت النون في تنصروه، وابن مالك على جلالته في النحو والتصريف كغيرهما من الحديث والتفسير، والفقه واللغة، والعروض، ذكر (إلا) هذه في شرح التسهيل من أقسام إلا، وإنما ذلك منه على جهة الغفلة، أو زلة القلم، وجواب إن محذوف تقديره فسينصره الله وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا﴾ كالدليل عليه القائم مقامه، وذلك أن نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد يتضمن أنه ينصره، وقد كان معه آلاف رجل، وهذا باعتبار شأن الإنسان في النظر إلى الوسائط، وإلا فالقلة والكثرة عند الله سبحانه سواء، أو الآية مشيرة إلى أن وجودكم وعدمه سواء، ألا ترون أنه نصره إذ لم تكونوا معه، ولم يكن معه إلا واحد، وأجاز جار الله كون قوله تعالى: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ جواباً على أن المعنى فقد أوجب الله له النصر المطلق في ذلك الوقت الذي

كان فيه ثاني اثنين، فنصره فيه، وينصره في غيره انتهى بإيضاح.

مسألة لغوية أخرى: الله اسم مشتق من السمو وهو الارتفاع عند البصريين، فالله جل وعلا لم يزل مسمى وموصوفاً قبل وجود المخلوقات وبعد وجودها وبعد فنائها لا تأثير لهم في أسمائه وصفاته، وذلك معتقداً ومعتقداً الأشعرية، أو مشتق من السمة وهي العلامة عند الكوفيين، قالت الكفار والمعتزلة: كان الله في الأزل بلا اسم ولا صفة، وهذا خطأ فاحش، ولا يخفى أن الاسم إذا أريد به اللفظ غير المسمى، وإذا أريد به المعنى فهو غير المسمى، وهذا في قولك اسم بالهمزة والسين والميم في سائر الأسماء كزيد وعمرو، وإذا أطلق لفظ عمرو ولفظ زيد على الحروف الملفوظة بها كقولك عمرو وزيد ثلاثياً، أو مبتدأ أو خبر أو فاعل أو نحو ذلك فمجاز من تسمية الدال باسم المدلول أو على المسمى، فحقيقة عكس قولك اسم وأصل الله آلاه؛ أي عال حذفت همزته وعرض عنها أل، وليس حذفها قياساً لأنها متحرك، وبدليل وجود التعويض وإدغام الدال في لام الله، ولو كان قياساً لما وجب التعويض والإدغام لأن المحذوف قياساً في حكم الثابت.

وهو الاسم الأعظم إذ لا يشاركه فيه أحد وتسند إليه الصفات مثل: الله حافظاً، الله مغيثاً،

الله قدير، الله ودود، الله حي، الله عليم، الله مريد، الله متكلم، الله سميع، الله بصير.
ولذلك قيل: الله اسم تبنى عليه الصفات فهو وضعاً واستكمالاً لا غلبة فيه ولا اشتقاق،
وقيل: اسم لمن يستحق العبادة إلا هو، وهو قول القائلين بالأقوال السابقة من الاشتقاق لا قولان
أصله في السريانية.⁽²⁾

وقد ذهب الإمام القطب . رحمه الله . كما نقل عنه إلى ترجيح "تيهرت" بالياء بدلاً من
"تاهرت" بالألف

حيث قال -رحمه الله تعالى-: وتيهرت بكسر التاء وإسكان الياء بعدها إسكاناً ميتاً،
ويفتحها وإسكان الياء بعدها حياً والفتح أول، ويفتح الهاء وبعدها راء مهملة ساكنة والتاء مجرورة
في السطر لا على صورة هاء؛ لأنها تاء تأنيث في لغة البربر ويقال: تاهرت بالألف وهو ضعيف.⁽³⁾
رأيه في كيفية تلاوة قرآن الكريم: عن أبي عُبَيْدَةَ عَنْ جَابِرِ بْنِ زَيْدٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ: «إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَرَتِّلْهُ تَرْتِيلاً وَلَا تَغْنُوا بِهِ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ الْمَلَائِكَةُ لَذِكْرِهِ».
مسند الربيع بن حبيب.

رأيه في قوله: «فَرَتِّلْهُ تَرْتِيلاً»: أي: اقرأه على تودة وتبيين حروف بحيث يتمكن السامع من
سماعها وفهمها، وترتيل القراءة: الترسل فيها والتبيين بغير مجاوزة للحد. وقيل: الترتيل رعاية
مخارج الحروف وحفظ الوقوف.

وقيل: هو خفض الصوت والتخزين بالقراءة، وفي حديث حفصة عند المصنف وغيره
أنه ﷺ كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها.

وقال قتادة: سألت أنس بن مالك عن قراءة النبي ﷺ فقال: كان يمدُّ مدًّا، والأمر بالترتيل
للاستحباب عند أكثر العلماء، وفائدته تدبُّر القارئ وتفهُم معانيه.

وفصل الإمام مالك فقال: من الناس من إذا هدَّ كان أخفَّ عليه، وإذا رتلَّ أخطأ، ومن الناس
من لا يحسن، قال: والناس في هذا على قدر درجاتهم، وما يخفُّ عليهم وكلُّ واسع. وقد روي
عن جماعة من السلف أنهم كانوا يختمون القرآن في ركعة وهذا لا يتأتَّى إلا بالهدُّ.

قوله ﷺ: «وَلَا تَغْنُوا بِهِ»: أي: لا تمدُّوا الصوت بالقراءة مدًّا يشبه الغناء، وهو الإفراط في
الترسل فيشمل

الترجيع والتضريب، والترجيع عبارة عن ترديد الصوت في الحلق كقراءة أصحاب الألحان،
والتضريب: عبارة عن مدِّ الصوت وتحسينه.

والحاصل أنه ﷺ أمر بالترتيل ونهى عن التغني، وعُلِّلَ بقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ
الْمَلَائِكَةُ لَذِكْرِهِ»، وهذا

يفيد أن الملائكة تستمع للترتيل دون التغني، فإنهم ينفرون عنه، وذلك يقتضي المنع، فإن حضورهم مطلوب، وعلى المنع أكثر العلماء، وخالف أبو حنيفة والشافعي واحتجوا بحديث فيه: «رَبَّنَا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»، وآخر فيه: «من لم يتغن بالقرآن فليس منّا». إن ترين الصوت لا ينحصر في التغني بل يكون في الترتيل أيضاً، وأمّا قوله ﷺ: «من لم يتغن بالقرآن فليس منّا»، فمعناه أن من لم يستغن به عن غيره من كتب اليهود والنصارى وأضرابهم يقال: تغنى وتغانت واستغيت، وقيل: أراد من لم يجهر بالقراءة فليس منّا، وقد جاء مفسراً في حديث آخر: «ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي يتغن بالقرآن يجهر به». قيل: إن قوله: «يجهر به» تفسير لقوله: «يتغن به».

قال ابن الأعرابي: كانت العرب تتغن بالركبان إذا ركب، وإذا جلست في الألفية وعلى أكثر أحوالها، فلماً

نزل القرآن أحب النبي ﷺ أن تكون هجيراهم بالقرآن مكان التغني بالركبان، ومعناه: اجعلوا مكان غنائكم تلاوة القرآن، وأول من قرأ بالألحان عبيد الله بن أبي بكرة، فورثه عنه عبيد الله بن عمر، ولذلك يقال: قراءة العمري، وأخذ عنه ذلك سعيد بن العلاف، وسمع سعيد بن المسيب عمر بن عبد العزيز يؤم الناس فضرّب في قراءته، فأرسل إليه سعيد: أصلحك الله، إن الأئمة لا تقرأ هكذا! فترك عمر التضريب بعد ذلك.

وقرأ رجل في المسجد النبوي فضرّب، فأنكر ذلك القاسم بن محمد وقال: يقول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ فصلت/42 وقال مالك: إنما هو غناء يتغنّ به ليأخذوا عليه الدراهم.⁽⁴⁾

منهج الاستدلال عند الشيخ اطفيش:

يقول أحد الدارسين النابهين: إن المناهج العلمية بوجه عام لا تستلزم معرفتها القدرة على البحث، لكنها تنمي ما لدى الإنسان من استعدادات موجودة بالفعل، هي كالماء الفرات الذي يسقي الأرض الجالحة للزراع فتخرج حبا ونبتا وجنات أفا فما لم يكن الباحث أو الفقيه مؤهلا بالفطرة للبحث والاجتهاد، فإن دراسته للمناهج لا تجدي فتىلا.

والإمام الشيخ اطفيش من الذين رزقوا استعدادات فطرية ساعدت على الغوص وراء الحقائق العلمية، وشهد له بحدة الذكاء حتى لقب بالذكي مما مكّنه من الإطلاع على منهج من سبقه من فقهاء الإسلام في التأصيل والتفريع وكان في عرضه للمسائل الفقهية يذكر كل أقوال الفقهاء بدون تقييد بمذهب، وكان في كتابه الموسوعي شرح النيل وشفاء الغليل شاهد على ذلك إذ كان كثيرا ما يرجح أقوال مالك على غيره من الفقهاء ولم يمنعه ذلك من مخالفته لبعض أقوال الإمام وترجيح ما ذهب إليه غيره من الأئمة.

وأشير إلى أنه من العسير تتبع منهج الشيخ العلامة اطفيش في كل ما كتب في العلوم الشرعية، وذلك أن بعض ما ألف مازال مخطوطاً أو لم يكن باستطاعتنا الوصول لما صنف، إلاّ أشير إلى أن الشيخ قدس الله سره-يعتمد على المنهج النقلي: ونقصد به هنا الاستدلال بالقرآن والسنة:

فقد كان الإمام اطفيش يعتمد على عنصرين أساسيين هما: الأثر والنظر وهما ضروريان لكل عمل فقهي، فلا

يمكن لأي عمل من الأعمال الفقهية أن يستقل فيه الأثر على النظر استقلالاً تاماً بحيث لا يكون للنظر مدخل بحال في العمل الفقهي الذي هو استنتاج، ولا يمكن أن يستقل النظر بحيث لا يكون للأثر أي اتصال بذلك الاستنتاجي؛ لأنّ الاستنتاج حينئذ يخرج عن حقيقة الاجتهاد إلى حقيقة الهوى.

ولذلك كان العنصران ضروريين لكل عمل فقهي وذلك أن أصول الفقه أو مدارك الأحكام الشرعية كما تسمى إنّما هي قولية مأخوذة من القرآن المؤدى بطريق الوحي، أو بطريق السنة الشريفة، وهي النصوص القولية هي التي تعتبر الأدلة الإجمالية للأحكام التفصيلية، بحيث إنّها التي تعتبر أصول الفقه، فإذا كانت أصول الفقه مدارك قولية فإنّ الفقه لا يمكن أن ينشأ إلاّ بأصوله.

ولما كان هذان العنصران الأثر والنظر هما عمدة الإمام القطب في الاستنباط الفقهي على طريقة إمامه المقتدى به سيدنا جابر بن زيد عليه السلام، ولم يخرج عن مبادئه، وذلك بالنظر إلى ما استنبطه الإمام من الكتاب الكريم والسنة النبوية، فكان القطب يعدّ مجدداً بحكم بلوغه درجة مجتهد مذهب.

وكان الإمام القطب يرتب أدلته بحسب درجاتها في الاستدلال الشرعي، وهي تنقسم-كما ذكرنا-إلى قسمين: الأثر والنظر.

فالقسم الأول: الأدلة الأثرية وهي القرآن الكريم وقراءاته والسنة النبوية وكان فيها بصيراً، وآثار الصحابة، والإجماع.

القسم الثاني: أدلة النظر وهي القياس والمصلحة المرسلّة، والاستحسان، وسد الذرائع. وهذا المنهج الذي سار عليه مقتفياً أثر من سبقه من الفقهاء حتى غدا مثلاً يحتذى، فقد استفاد من منهجه الفقهي هذا فحول الفقه وأئمنته اعتمدوا كثيراً على ما حرره القطب الإمام اطفيش، وعلى ضوء ما ذكرنا فيمكن أن نلخص ما يمتاز به.

ولعلّه من المفيد أن نورد مثالين كتّحقيق لما نسبناه للشيخ اطفيش وذلكم من خلال كتابه

"شرح النيل وشفاء الغليل"، وتفسيره "هميان الزاد إلى دار المعاد"، ويسير التفسير".

أولاً: أما من تفسيره فنورد آية من القرآن الكريم هي محل خلاف في فهم دلالتها بين القوم، لقد تناقلت المصادر الإباضية نصوصاً عن الإمام جابر بن زيد يرفعها إلى رسول الله ﷺ وتتمثل في ما يلي: روي عن جابر بن زيد -رحمه الله- أن رجلاً قال: يا أبا الشعثاء، أرايت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ الآية فقال له جابر: أو أنبأك الله لمن يشاء أن يغفر؟ قال: وأين أنبائي يا أبا الشعثاء، قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَبِئُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ النساء/31.

وذكر جابر أن رسول الله ﷺ قال: «هلك المصرون» ثلاثاً فقال رجل: يا رسول الله فأين قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «أفيكم أحد يقرأ سورة طه؟ فقال أبي بن كعب: أنا يا رسول الله فقال: اقرأ ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ طه/82

فقال رسول الله ﷺ: «لهؤلاء وقعت المشيئة ثلاثاً»، وكان جابر يذكر أن النبي ﷺ يقول: «من أطمع في الجنة من آيسه الله منها جمع الله بينهما في النار».

هذه نصوص نقلية لا نجد لها أثر عند غير الإباضية يتناقلها الإباضية عن إمامهم جابر بن زيد مسندة إلى رسول الله ﷺ تتطافر في ما بينها فتفسر قوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ تفسيراً واضحاً لا تترك المشيئة مطلقة بل

تربطها بضرورة التوبة، وعلة ذلك إقرار حكمة الله تعالى إذ ليس من الحكمة أن يسوى بين التائب والمصر.

وهنا أذكر ما يكون دليلاً لجواز الحكم بالأمانة أو مناسباً من القرآن أو السنة أو الأثر؛ لأنه حجة على من هو مقلد؛ لأن أحاديث الحكم باليمنة واليمين والإقرار وما يتعلق بها من الأثر راسخة في القلوب لصحتها وشهرتها، فكانت القلوب تأتي عن الإجزاء بالأمانة التي تذكر في الدماء، قال الله تعالى: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾، فدل على أن السيمة حال تظهر على الشخص حتى أن لو رأينا ميتاً في دار الإسلام عليه زنار أو هو غير محتون وهو كبير لا ندفعه في مقابر المسلمين، ويقدم من ذلك على حكم الدار، وكذا مما يشبهه في قول جماعة، بل نسب للأكثر، وإن وجد بزناار وهو محتون فليل: لا يصلى عليه؛ لأن النصارى قد يخسئون، وقيل: يصلى عليه، وقال الله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾، ولما أتوا بقميصه إلى يعقوب فلم ير فيه خرقاً ولا أثر ناب استدلل بذلك على كذبهم وقال: متى كان الذئب حليماً يأكل يوسف ولا يخرق قميصه، أرادوا أن يجعلوا الدم علامة ففرق الله هذه العلامة بعلامة تكذبها وهي سلامة القميص من التمزيق، قيل: أجمعوا على أن يعقوب عليه السلام استدلل على كذبهم بصحة القميص، وقال

تَعَالَى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ﴾ { إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنْ كَذَبْتُمْ عَظِيمٌ﴾، وَكَانَ بَعْضُ قَوْمِنَا يَرَى الْحُكْمَ بِالْأَمَارَاتِ وَالْعَلَامَاتِ فِيمَا لَا تَحْضُرُهُ الْبَيِّنَةُ فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ تِلْكَ الشَّرِيعَةَ لَا تَلْزُمُنَا مَعَ أَنَّهُ أَيْضًا كَلَامٌ غَيْرُ اللَّهِ حَكَاهُ اللَّهُ، قُلْتُ: إِنَّ كُلَّ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّمَا يُنَزِّلُهُ لِغَايِدَةٍ فِيهِ وَمَنْفَعَةٍ لَنَا، وَالْأَصْلُ الْإِفْتِدَاءُ بِهِ حَتَّى يَصْرِفَهُ دَلِيلٌ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَفْتَدِ﴾ فَأَيُّهُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُقْتَدَى بِهَا مَعْمُولٌ عَلَيْهَا، سَوَاءٌ كَانَ الشَّاهِدُ الْمَذْكُورُ فِيهَا رَجُلًا عَاقِلًا وَزِيرًا يَسْتَشِيرُهُ فِي أُمُورِ الْعَزِيزِ أَوْ طِفْلًا، فَانْظُرْ تَفْسِيرَنَا: "هَمِيَانُ الرَّادِ" لِأَنَّهُ وَإِنْ كَانَ طِفْلًا فَالْحُجَّةُ قَائِمَةٌ مِنْهُ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى أَرْشَدَنَا عَلَى لِسَانِهِ إِلَى التَّفَقُّطِ وَالتَّيَقُّطِ إِلَى الْأَمَارَاتِ وَالْعَلَامَاتِ الَّتِي نَعْلَمُ بِهَا صِدْقَ الْمُحَقِّقِ، وَطُطْلَانِ الْمُبْطِلِ؛ وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ فَوْرَ التَّنْوِيرِ عِلَامَةً لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى خُلُوفِ الْعَرَقِ بِقَوْمِهِ، وَجَعَلَ فَقْدَ الْخُوتِ عِلَامَةً لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى لِقَاءِ الْخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَجَعَلَ مَنَعَ زَكْرِيَاءَ الْكَلَامَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا عِلَامَةً لَهُ عَلَى هَبَةِ الْوَلَدِ، وَوَرَدَ فِي السُّنَّةِ مَوَاضِعٌ مِنْ ذَلِكَ مِنْهَا مَا رَوَى { أَنَّهُ ﷺ حَكَمَ بِوُجُوبِ اللُّوثِ فِي الْقَسَامَةِ }، وَقَدْ بَيَّنَّتْهُ فِي هَمِيَانِ الرَّادِ " وَهُوَ مِنْ كَلَامِ قَوْمِنَا.

وجاء في "هميان الزاد": قال مالك وأحمد: فإن لم يكن ثم لوث فالقول قول لما هي عليه؛ لأن الأصل براءة ذمته من القتل، وهل يحلف يميناً واحدة كما في سائر الدعاوى، والثاني يحلف خمسين يميناً تغليظاً لأمر القتل، وعند أبي حنيفة ألا حكم للوث ولا يبدأ بيمين المدعى، بل إذا وجد قتيلاً في محلة يختار الإمام خمسين رجلاً من صلحاء أهلها فيحلفهم أنهم ما قتلوه ولا يعرفون له قاتلاً، فإن حلفوا وإلا أخذوا الدية من سكانها، والدليل على أن البداءة بيمين المدعى عند وجود اللوث، ما روى عن سهل بن أبي حثمة.

ونبت قصة خُوَيْصَةَ وَمُحَيِّصَةَ التي أشار إليه الشيخ أطفيش: عَنْ عَبْدِ الرَّزَّاقِ، قَالَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، أَخْبَرَنِي يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ، أَخْبَرَنِي بِشِيرُ بْنُ يَسَارٍ، أَنَّهُ: سَمِعَ سَهْلَ بْنَ أَبِي حَثْمَةَ يَقُولُ: وَجَدَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَهْلٍ قَتِيلًا فِي فَقِيرٍ أَوْ قَلِيبٍ مِنْ فَقْرٍ، أَوْ قُلْبٍ خَيْرٍ، فَاتَى النَّبِيَّ ﷺ أَخُوهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَهْلٍ، وَعَمَّاهُ خُوَيْصَةُ، وَمُحَيِّصَةُ، ابْنَا مَسْعُودٍ، فَذَهَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَتَكَلَّمُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "الْكُبَرُ الْكُبَرُ"، فَتَكَلَّمَ مُحَيِّصَةُ، فَذَكَرَ مَقْتَلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَهْلٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا وَجَدْنَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَهْلٍ قَتِيلًا، وَإِنَّ الْيَهُودَ أَهْلَ كُفْرٍ وَعَدْرٍ، وَهُمْ الَّذِينَ قَتَلُوهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "فَتَحْلِفُونَ خَمْسِينَ يَمِينًا، وَتَسْتَحِقُّونَ صَاحِبَكُمْ أَوْ دَمَ صَاحِبِكُمْ"، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ نَحْلِفُ عَلَى مَا لَمْ نَحْضُرْ وَلَمْ نَشْهَدْ؟ قَالَ: "فَتَبَرَأُ إِلَيْكُمْ يَهُودُ بِخَمْسِينَ يَمِينًا"، قَالُوا: كَيْفَ نَقْبَلُ أَيْمَانَ قَوْمٍ مُشْرِكِينَ؟ فَوَدَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ عِنْدِهِ، قَالَ سَهْلٌ: فَلَقَدْ رَكَّضَتْنِي بَكْرَةٌ مِنْهَا. أَخْرَجَهُ مُحَمَّدٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يُوسُفَ، وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ مَنْصُورٍ، عَنْ بَشْرِ بْنِ عَمَرَ، كِلَاهُمَا عَنْ مَالِكٍ.

ومعنى اللوث: اللوثُ بَأَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا سَمَاعًا فَاشِيًا أَنَّ فَلَانًا قَتَلَ فَلَانًا فَشَهَادَةُ السَّمَاعِ لَوُثٌ.

وعرفه آخرون: بأنه العداوة الظاهرة بين المقتول والمدعى عليه، لنحو ما كان بين الأنصار ويهود خيبر، وما يكون بين القبائل والأحياء وأهل القرى الذين بينهم الدماء، وما بين البغاة وأهل العدل، وما بين الشرطة واللصوص، وكل من بينه وبين المقتول ضغن يغلب على الظن أنه قتله، فإن لم تكن عداوة ظاهرة بين المتهم والمقتول ولكن غلب على الظن صدق المدعى كتفريق جماعة عن قتيل أو في زحام أو شهد نساء وصبيان وفساق أو عدل فليس لوثاً. وإن ادعى شخص القتل من غير وجود عداوة، فلا بد من تعيين المدعى عليه. وإذا رفعت الدعوى على عدد غير معين لم تسمع الدعوى، كما قال الشافعية..

قَالَ مَالِكُ: الَّذِي أَحْمَعَتْ عَلَيْهِ الْأَيْمَةُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا أَنَّ الْمُدْعِينَ يَبْدَأُونَ فِي الْقَسَامَةِ، وَلِأَنَّ جَنَبَةَ الْمُدْعَى صَارَتْ قُوَّةً بِاللُّوْثِ.

قال في شرح النيل: وَجَوَزَ لِلْمُدْعِينَ أَنْ يَحْلِفُوا خَمْسِينَ يَمِينًا وَيُسْتَحَقُّ دَمُ الْقَتِيلِ فِي حَدِيثِ خُوَيْصَةَ وَمُحَيِّصَةَ، وَاللُّوْثُ دَلِيلٌ عَلَى الْقَتْلِ، وَلَا نَشْتَرِطُ اللَّوْثَ مَعَشَرَ الْإِبَاضِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي قِصَّةِ خُوَيْصَةَ وَمُحَيِّصَةَ إِلَّا أَنْ قَالُوا: إِنَّ الْحَدِيثَ فِيهِ ذِكْرُ الْعَدَاوَةِ بَيْنَهُمْ، وَأَنَّهُ قُتِلَ فِي بَلَدِهِمْ، وَلَيْسَ فِيهِ إِلَّا الْيَهُودُ وَاسْتَظْهَرَ الْمَازِرِيُّ أَنَّ الْقَرَأَيْنِ تَقُومُ مَقَامَ الشَّاهِدِ فَيَكُونُ قَدْ قَامَ مِنَ الْقَرَأَيْنِ مَا دَلَّ عَلَى أَنَّ الْيَهُودَ قَتَلُوهُ وَجَهِلُوا عَيْنَ الْقَاتِلِ، وَمِثْلُ هَذَا لَا يَبْعُدُ إِثْبَاتُهُ.

التأويل وعدم الاكتفاء بالظاهر أي الاستدلال بالعقل والتأويل:

ومما تحتج به المرجئة ولا نعلم لهم في كتاب الله حجة أوثق في أنفسهم منها قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ

أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فقالوا: إن الكبائر التي هي دون الشرك فإن الله يغفرها بلا توبة.

قال لهم: أخبرونا عن هذه الآية أتحميلونها على ظاهرها أو تحتها معنى؟ فإن قالوا: ليس تحتها معنى وحملوها على ظاهرها فإنما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ فهو إذن لا يغفر الشرك لمن تاب، وإن كان تحت الآية معنى غير ظاهرها فينبغي أن يكون إنما يغفر لمن تاب من الكبائر، ويغفر الصغائر لمن اجتنب الكبائر؛ لأن ذلك كله دون الشرك، ولو حمل القرآن على ظاهره لتناقض، ألا ترى أنه قال في هذا الموضع لا يغفر الشرك، فلو حمل القرآن على ظاهره لم يغفر الشرك به لمن تاب منه.

وقال في موضع آخر ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ فدخل في الجميع الشرك وغيره من

الذنوب فلو حملت الآية على ظاهرها لكان الشرك مغفورا بلا توبة؛ لأنه قال: ﴿يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

ونلمس من هذه التأويلات أنها لم تنتهج نهج الجدل العقلي في تحميل النصوص مالا تحتمل وإنما سلكت مسلكا مقارنا حصل منه تعزيز للقول بإنفاذ الوعيد في أهل الكبائر.

وواضح أنها نصوص متكاملة تأخذ من بعضها البعض لتصل إلى نفس النتيجة والمدار في كل ذلك أنه كما يخرج المشركون والمنافقون وأهل الكتاب من عموم الآية ينبغي أن يخرج أهل الكبائر المصرون وتبقى المشيئة مرتبطة بأهل الصغائر والمتأمل مليا يتبين أن هذه التخريجات ليست إلا صياغة كلامية لما نقله جابر بن زيد عن رسول الله ﷺ وسيبقى في هذا المحيط ما عبر عنه بالخصوص والعموم.⁽⁵⁾

ثانيا: أما من كتابه الموسوعي "شرح النيل وشفاء الغليل" في معرض حديثه عن استطاعة القيام بفرض الحج فيقول: عن عبد الله بن عمر سأل رجل رسول الله ﷺ ما الحج؟ قال: الشعث والثفل، فقام آخر فقال: يا رسول الله أي الحج أفضل؟ قال: الحج والثج فقام آخر فقال: يا رسول الله ما السبيل؟ قال: زاد وراحلة، وعلى هذا فيجب على من وجدهما ولو كان غير صحيح البدن غير آمن الطريق وغير واجد للمرافقة، فيجب عليه من حين وجدهما إلى أن يصح ويأمن الطريق ويجد المرافقة فيحج أو يوصي به أو يستأجر من يحج له حين كان مريضا أو غير آمن أو غير واجد للمرافقة وأيس من ذلك أو من الصحة بحسب الظاهر، وإن قدر على المشي بلا ركوب لزمه إن كان الزاد، ويدل على أن الحج يجب بالمال قوله ﷺ الذي قالت له: إن فريضة الحج أدركت أبي شيخا كبيرا لا يستطيع أن يثبت على الراحلة أفأحج عنه؟ رأيت لو كان على أبيك دين فقضيته أكنت قاضية عليه فقالت: نعم، فقال ﷺ: «فذا كذلك» حيث قالت: إن فريضة الحج أدركت أبي وهو شيخ، أي: نزلت آية وجوب الحج فشمله وجوبه فأقرها ﷺ على قولها إن فريضة الحج أدركته ولم ينهها عن قولها ذلك، فظهر أنه لزمه الحج ولو كان شيخا لا يثبت على الراحلة، وما لزمه الحج مع ذلك إلا لكونه ذا مال فليوص به أو يحج أحدا أو يقضيه عنه أحد.

وأیضا شبه حجها عنه بقضاء الدين فظهر أن الحج في ذمته كالدين، يقضى كما يقضى الدين، لكن يحتمل أن تريد بإدراك فريضة الحج نزول وجوبه على من استطاع، فأرادت الحج عنه ولو لم يجب عليه، فأجابها بأنه يصح قضاء الدين فكيف لا يصح أن تحجي عنه نفلا مثلا، ثم إنه لا يخفى أن (هل)؟ لطلب التصديق، وإذا أتى لها بمعادل كانت لطلب التصور، إلا إن تلاها فعلا متغايران مثل: هل قعد زيد أم قام؟ وسواء في ذلك (أم) و (أو) ونص بعض على جواز أو بعدها، والقاعدة تقضي بالتسوية...

أما قوله عن الحكم الشرعي للعمرة: فيعرض أقوال الفقهاء المذاهب عن حكم الشرعي

للعمره فيقول: والأكثر على أن العمرة فرض كالحج وهو مذهبنا وقول ابن عباس، وقال النخعي والشعبي ومالك: سنة حسنة مرغوب فيها، وعبارة بعض عن أبي حنيفة وأصحابه أنها تطوع، ولعلمهم قالوا: إنها سنة لم تبلغ مبلغ السنة المرغوب فيها المتأكدة، وقيل عن أبي حنيفة: إنها سنة كمالك، فلعله يقول سنة غير متأكدة كما قال مالك: إنها متأكدة، فيجتمعان في أنها سنة ويختلفان في التأكد، ولا تكرر في السنة عند جابر بن زيد.

وقيل: تكرر إلا في أشهر الحج فلا توقع فيها إلا عمرة الحج، وهو قول باقي أصحابنا، وقيل: تكرر في السنة كلها متى شاء، ويدل لهذا أنه لو دخل بعمرة مثلاً في أشهر الحج ثم خرج لزمه الدخول بإحرام إما بها، أو بحج، أو بهما، وبها فقط قبل أشهر الحج.

التحليل البلاغي والنحوي: يورد الشيخ اطفيش كلام الزمخشري في التفسيرين حيث يقول: "فإن قلت: قد ثبت أن الله عز وجل يغفر الشرك لمن تاب منه، وأنه لا يغفر ما دون الشرك إلا بالتوبة فما وجه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ قلت: الوجه أن يكون الفعل المنفي والمثبت جميعاً موجهين إلى قوله تعالى - لمن يشاء - كأنه قيل إن الله لا يغفر لمن يشاء الشرك، ويغفر لمن يشاء ما دون الشرك على أن المراد بالأول من لم يتب وبالتالي من تاب ونظيره قولك: إن الأمير لا يبذل الدينار ويبذل القنطار لمن يشاء، تريد لا يبذل الدينار لمن لا يستأهله ويبذل القنطار لمن يستأهله".

وقد زاد محمد اطفيش القضية تحليلاً في ما بعد: فالإباضية حينئذ استفادوا هذا الدليل من المعتزلة وتبنوه، ومهما يكن من أمر فإن هذا التخريج البلاغي ليس من التعسف في شيء كما ذهب إلى ذلك علي بن محمد الجرجاني في حاشيته على الكشاف حيث يختم انتقاده بقوله: "وما هذا إلا من جعل القرآن تبعاً للرأي نعوذ بالله من ذلك" ما دامت اللغة العربية تتحمل ذلك، والزمخشري لا يشق له غبار في هذا الباب وهو من أئمة اللغة قبل كل شيء، فلا ضير إن أخذنا برأيه البلاغي النحوي.

والعزف على وتر البلاغة والإعراب فهذا طبيعي في فهم النصوص ففي قوله تعالى: ﴿وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ﴾

غافر/ حيث يقول الزمخشري وينقل عنه محمد اطفيش: "المطاع مجاز في المشفع؛ لأن حقيقة الطاعة نحو حقيقة الأمر في أنها لا تكون إلا لمن فوقك، فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ﴾؟ قلت: يحتمل أن يتناول نفي الشفاعة والطاعة معا وأن يتناول الطاعة دون الشفاعة كما تقول: ما عندي كتاب يباع فهو محتمل نفي البيع وحده وأن عندك كتاباً إلا إنك لا تبيعه ونفيها جميعاً وألا كتاب عندك ولا كونه مبيعاً ونحو ما قالته العرب: "ولا ترى الضب بها ينحجر" يريد نفي الضب وانجحاره". والحقيقة أن القضية البلاغية هنا تعلقت بنفي الشفيع أو

إثباته ولم تتعلق بالمشفوع له حيث رجع الأمر إلى التخصيص والتعميم.⁽⁶⁾

فتوى فقهية: طعام أهل الكتب: وموضوع طعام أهل الكتاب، فيه مباحث طويلة بين علماء الأمة وفقهائها، وعندما يتحدث الفقهاء عن طعام أهل الكتاب فهم يقصدون الذبائح بالدرجة الأولى، لا يختلفون في أن طعام أهل الكتاب حلال للمسلمين عندما يكون أهل الكتاب تحت الذمة، أي: تحت الحكم الإسلامي، خاضعين لرقابته، ولا يختلف الإباضية عن غيرهم من المسلمين في هذا الحكم للنص القرآني الكريم:

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ(5)﴾ المائدة/.

ولا يوجد أحد من علماء الإباضية يخالف النص، ويقول بتحريم أهل الكتاب هكذا على الإطلاق -كما ادعى ابن حزم- ولكن منهم من يشترط لحلية ذبائح أهل الكتاب أن يكونوا تحت الذمة أي: تحت إشراف الدولة المسلمة ورقابتها. فإذا كانوا كذلك حل طعامهم ونكاح الحرائر من نسائهم أمّا إذا خرجوا عن الذمة، بأن لم يكن بينهم وبين المسلمين صلة ولا علاقة أو كانوا محاربين لله ورسوله، أو كانوا مؤيدين لمن يحارب الله ورسوله، مساعدين له، فإنه لا يحل طعامهم أي: ذبائحهم، ولا نكاح الحرائر من نسائهم كما هو الحال في وقتنا الحاضر لمن لم يكن تحت الحكم الإسلامي، ومن علماء الإباضية من يعمل بعموم الآية فيجيز ذلك على جميع الأحوال.

ولا شك أن المسألة مسألة فرعية اجتهادية تحدث عنها علماء الإباضية وغير الإباضية بإسهاب وتطويل واختلفت فيها آراؤهم ولا يوجد أحد من علماء الإباضية لا في القديم ولا في الحديث يحرم طعام أهل الكتاب إذا كانوا تحت الذمة أو تحت رقابة الأمة المسلمة في أي عهد من العهود.

ويفتى بتحريم ذبائح أهل الكتاب في الوقت الحاضر؛ لأنهم ليسوا تحت الذمة، وقد أعلن ذلك بفتاوى عدة مرات، ومما قاله من أفتى بذلك: إن المسلم لا يمكن أن يرفض الميتة؛ لأنها جاءت عن يد مسلم ثم يتقبلها من يد مشرك بدعوى أنه من أهل الكتاب فذبائح أهل الكتاب عنده في هذه الحالة في حكم الميتة، وهذا المفتي مالكي المذهب متمسك بمذهبه إلى حد التعصب مع احترامه للمذاهب الأخرى وأنتمتها.

شروط تولي القضاء: وهناك مسألة هامة وهي شروط التي يجب أن تتوفر فيمن يتولى منصب القضاء:

قال الشيخ أطفيش: قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ وَهُوَ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ وَعِيَاضٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْجَزَائِرِ وَالْمَازِيرِيِّ مِنْ عُلَمَاءِ تُونِسَ: إِنَّ الْعِلْمَ مِنَ الشُّرُوطِ الْوَاجِبَةِ وَلَا يَنْعَقِدُ الْقَضَاءُ لِلْجَاهِلِ مُطْلَقًا وَلَا لِمَنْ لَمْ يَبْلُغِ الْجَهَادَ إِنْ وَجِدَ مَنْ بَلَغَهُ، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّهُ يَنْعَقِدُ لِمَنْ لَمْ يَبْلُغْهُ مَعَ وَجُودِ بَالِغِهِ إِنْ كَانَ ذَا عِلْمٍ وَنَبَاهَةٍ وَفَهُمْ بِمَا يَتَوَلَّى أَمْرُهُ وَزَعَمَ قَوْمٌ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ الْقَضَاءُ إِلَّا لِلْمُجْتَهِدِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَلَا يَلْزَمُ الْقَاضِي الْمَقْلَدُ الْإِفْصَارُ عَلَى قَوْلِ مُقْلَدِهِ بَلْ إِنْ كَانَ لَهُ طَرَفٌ تَرْجِيحٌ فَلْيُجَرِّحْ وَإِلَّا لَمْ يَلْزَمْهُ وَقِيلَ لَزِمَهُ وَمِمَّنْ قَالَ بِأَنَّهُ لَا يَصِحُّ الْقَضَاءُ إِلَّا لِلْمُجْتَهِدِ مُطْلَقًا الشَّافِعِيُّ وَعَبْدُ الْوَهَّابِ الْمَالِكِيُّ وَمِنْ شُرُوطِ الْكَمَالِ الْفِقْهُ، جَمَعَ الْفَقْهُ وَالْحَدِيثَ كَمَا قَالَ الْعَاصِمِيُّ لِيَتَهَيَّأَ لَهُ النَّظَرُ فِي التَّوَازُلِ.

وَالْبَحْثُ عَنِ الدَّلَائِلِ وَالتَّجْرِيعِ عَنِ وَفُوعِ الْخِلَافِ وَالِاخْتِيَارِ عِنْدَ تَعَارُضِ الْأَقْوَالِ، وَمِنْ شُرُوطِ الْكَمَالِ كَوْنُهُ غَيًّا لَا دَيْنَ عَلَيْهِ بَلَدِيًّا مَعْرُوفَ النَّسَبِ غَيْرَ مَحْدُودٍ حَلِيمًا مُسْتَشِيرًا لَا يُبَالِي لَوْمَةً لَأَنَّهُ سَلِيمًا مِنْ بَطَانَةِ السُّوءِ غَيْرَ زَائِدٍ فِي الدَّهَاءِ لِأَنَّ الْفَقِيرَ وَمَنْ عَلَيْهِ الدَّيْنُ قَدْ يَتَذَلَّلَانِ لِلْغَنِيِّ وَمَنْ لَهُ الدَّيْنُ وَيَتَهَوَّنُ بِهِمَا وَيَحْتَاجَانِ إِلَى غَيْرِهِمَا وَالْبَلَدِيُّ يَعْرِفُ الشُّهُودَ وَالنَّاسَ الْمُقْبُولِينَ وَقَدْ يُرْجَحُ غَيْرُ الْبَلَدِيِّ لَيْسَوِيَّ بَيْنَهُمْ وَلَا يَرْكَنُ وَلَقَدْ تَوَجَّدَ الْمُنَافَسَةُ وَلَكِنْ قَدْ تَوَجَّدَ بِهِ الْمُنَافَسَةُ فَيَقُولُونَ كَيْفَ يَتَوَلَّى عَلَيْنَا مَنْ لَيْسَ مِنَّا وَلَكِنْ يَنْظُرُ الْإِمَامُ أَوْ نَحْوُهُ مَنْ يَصْلُحُ.

دعوته حفظ حقوق المسلم:

قال: الشيخ الإمام أطفيش: ومن حقوق المسلمين الإصلاح بينهم وهو أفضل الصدقات، وألا يقبل فيهم ما يسمع من النمام والحساد، ولا يسيء الظن بهم، ولا يحل النظر لمسلم بعين الاستصغار، ولا الدنيوي بعين التعظيم، وليس حقاً لهم كف الأذى عنهم فقط بل كفه ونفعهم، فأهل القبور قد كفوا أذاهم، وإنما شرح الله أخوة الإسلام ليستفيد بعضهم من بعض، ومن ذب عن عرض أخيه كان له حجاباً من النار.

وحق المسلم أوجب من حق الأب غير المسلم، والمسلمون كالبنين يشد بعضهم بعضاً، ولا خير فيمن لا منفعة للمسلمين فيه، وإن لله عباداً خصهم الله بنعمه لمنافع خلقه، يقرها فيهم ما بذلوا، وإن ضيعوها حولها إلى غيرهم، وإن لله وجوها خلقهم لحوائج خلقه يرغبون في الحمد، وأن الله يحب مكارم الأخلاق، وأن أفضل الناس ثواباً غداً أنفعهم للناس اليوم، وإذا أراد الله بعبد خيراً استعلمه في قضاء حوائج الناس، وهذا لعامة الناس، فكيف فيمن فعل الخير في المسلم، والمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد، ومثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائرته بالحمى والسهر، ولا يغير المسلم ولا يضره ضرراً ما، ولا يغشه ولا يخذله...

وأخيراً: أحب أن أختتم إن كلامنا هذا من الفضول الأدبي المقبول، على أن ما جاء به وتركه

لنا الشيخ الإمام القطب علم العلماء وكهف الفقهاء محمد بن يوسف اطفيش من علم غزير أودعه في يقرب عن 300 مجلد تكفيينا عن مؤونة الوثبة القلمية إذ قلم الشيخ كان طوع بنانه ﷺ وبارك لنا في حياته بما ترك من علم غزير، ورحمه الله تعالى مع العلماء العاملين والأئمة المخلصين أمثال مالك بن أنس والمازري والشافعي وأحمد وأبي حنيفة والشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ إبراهيم بيوض، والشيخ المرحوم عبد الرحمن بكلي. والشيخ الناصر بن محمد المرموري رحمهم الله تعالى جميعا آمين يا رب العالمين والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

الهوامش:

- ¹ - السيرة الزكية للمرأة الإباضية لبدرية الشقصية، 81/1
- ² - الجامع الصغير للقطب اطفيش، 21-18/1
- ³ - الرد على العقبي، محمد اطفيش، ص: 70
- ⁴ - شرح الجامع الصحيح لنور الدين السالمي، 483/4
- ⁵ - البعد الحضاري للعقيدة عند الإباضية لفرحات الجعيري، 18/2
- ⁶ - البعد الحضاري للعقيدة عند الإباضية لفرحات الجعيري، 15/2

اللقاء الإباضي الأشعري في زيارت الشيخ أطفيش

مصطفى وينتن

قسم العلوم الإسلامية المركز الجامعي غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000، الجزائر

1- مقدمة

يعتبر البحث العقدي والدرس العقدي من أهم المجالات العلمية التي أنتج فيها الشيخ اطفيش امحمد بن يوسف، وكتب وترك تراثا ثريا، حري بالدارسين الاهتمام به ونقده، من أجل الاستفادة منه، واستثماره.

ومادام الشيخ ينتمي إلى إحدى المدارس الإسلامية، فقد تعرض لما تعرض له سابقوه من علماء الأمة، وناقش مسائل الفكر والعقيدة والكلام مثلهم، وشكلت بذلك آثاره مساحة واسعة للقاء المذهبي، وللحوار بين المسلمين فيما بينهم، وبينهم وبين غيرهم من الأديان الأخرى.

والحوار المذهبي بالنسبة إلى الشيخ اطفيش محمد بن يوسف كاد يتخصص في اللقاء الإباضي الأشعري، إذ نجد في تراثه الكثير من المناقشات العلمية للمسائل والقضايا العقدية والكلامية، يقارن فيها بين المذهبين، ويدرس النصوص المحتج بها في كل منهما، إضافة إلى مذاهب أخرى كانت أقل حضورا من المدرسة الأشعرية.

وهذا اللقاء والحوار المذهبي الخاص بين الإباضية والأشاعرة جدير أن يكون موضوع بحث متميز من الجانب العلمي، لما له من نتائج محتملة على المستوى العلمي والمنهجي، والحضاري أيضا، وهو ما تحاول هذه الورقة البحثية أن تسهم به، في إطار مثل هذه الدراسات، بغية الوصول إلى الإجابة على أسئلة متعددة، منها:

1- على مستوى الأعمال العلمية التي قدمها الشيخ اطفيش: ماذا يمثل النقاش المذهبي، وحضور الحوار العقدي الإباضي الأشعري في تراثه؟

2- وما هي الطرق المتبعة عند الشيخ اطفيش في تجسيد اللقاء؟ من حيث أشكال المناقشات وأوعيتها، من الرسائل، أو الردود، أو الكتب...

3- ما هي الأسباب الموضوعية العلمية، والاجتماعية والتاريخية التي أدت إلى اللقاء الإباضي الأشعري في تراث الشيخ اطفيش؟

4- ما هو المنهج العلمي المتبع في تناول القضايا الخلافية بين المذهبيين، ودرجة قبول القول الآخر أو رفضه، بين الشدة والحدة والهجوم، أو التوفيق ومحاولة التقريب،...

5- ما مدى أهمية مثل هذه المواقف؟ وكيف يمكن الاستفادة من هذه التجربة في البحوث العلمية العقدية المعاصرة؟

هذه التساؤلات من شأنها أن تفتح مجالا واسعا في البحث العلمي، وتثير الطريق في سبيل معرفة أهمية اللقاء المذهبي، والحوار العلمي بين المسلمين، وأدبياته، وأخلاقه، ومعرفة تعامل العلماء المسلمين عند اختلافهم فيما بينهم.

ومن خلال البحث في الموضوع نتعرف على المرجعية العلمية التي تشكلت في الجزائر خاصة، وكيف أن اختلاف الرأي فيها على مر الزمن لم يكن سببا في الإقصاء أو الإلغاء.

وهذا ما نرجو من هذه المداخلة أن تصل إليه، لنقدم بها جانبا من التراث الإسلامي الجزائري في فترة متأخرة، كان لها أثرها الواضح في مسيرة الأحداث في الجزائر بعد الشيخ اطفيش، من خلال أعمال تلاميذه.

2- اللقاء المذهبي في التراث الإسلامي:

واللقاء المذهبي على مستوى الأعمال العلمية بالنسبة إلى التراث الإسلامي ليس جديدا فقد شهدت العلوم الإسلامية نشأة علم المناظرة والاستدلال والمناقشات وأخلاقها، وأنتجت فيها أعمال نظيرية وأخرى تطبيقية وهي الأكثر، وهو ما جسده التراث الإسلامي وتاريخ المسلمين عبر الزمن، ولنا في بيئة الدولة الرستمية نموذج واقعي وهو قريب فكريا من بيئة موضوعنا؛ فهي شاهد على اللقاء المذهبي كما شهد لها من عاشها، وقيل فيها إن العاصمة تهرت كانت ملتقى الأفكار والمدارس الإسلامية في عصرها من المعتزلة والإباضية خاصة وغيرهما كما قال المالكي ابن الصغير: «من أتى إلى حلق الإباضية من غيرهم قربوم وناظروه أطف منظره، وكذلك من أتى من الإباضية إلى حلق غيرهم كان سبيله كذلك»¹.

واستمر هذا اللقاء في المغرب الإسلامي، وإن شهد فترات ذهبية من التعايش والحوار العلمي، وفترات أخرى من الصدام والصراع المذهبي، شكل كل ذلك ذاكرة تاريخية وماضيا ينبغي النظر إليه بموضوعية، ومن غير تحمّل ولا تحميل للمسؤولية فيه بالضرورة، كما يقول الله تعالى ويعلمنا: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة، 134]، لأن من الإشكالات التي ترال تعاني منها الأمة عدم الالتزام بمبدأ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ۖ﴾ [الأنعام 164].

ويهما أن نرى من التراث ما كان سلفا للشيخ اطفيش في البحث العقدي المقارن، وهنا نستحضر أعمال الإباضية أمثال:

أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني (500-570هـ/1105-1175م) في كتابه "الدليل والبرهان".

وأبو عمار عبد الكافي (ت 570هـ/1174م) في الموجز الذي يعتبر موسوعة في التراث الكلامي، تتبع فيه المؤلف أقوال المسلمين وغيرهم في الوجود وقضايا العقيدة والمنطق.

وإسماعيل بن موسى الجيطالي (ت 750هـ/1349م).

وأبو يعقوب يوسف بن خلفون (النصف الثاني من القرن السادس الهجري).

ثم في العصر العثماني نجد الثميني عبد العزيز (1130-1223هـ/1718-1808م)، وغيرهم كثير، ويستمر الحال عند الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش، ولا ينتهي عنده.

هذا العالم الذي اتبع خطى من سبقه، وكانت ميزته الموسوعية واشتغاله بالعلوم الشرعية وإنتاجه الغزير فيها، وكان البحث العقدي والكلامي أهم أعماله وأكثر ما ألف فيه².

في هذه الأعمال نجد الحضور المذهبي بشكل واضح بل مكثف أيضا، فلا نجانب الصواب والحقيقة إذا قلنا إن الحوار المذهبي ظل موجودا وحاضرا في مؤلفات القطب من أوائلها إلى آخرها، وتفاوت هذا الحضور في كفاءاته ومظاهره ودرجاته.

3- الحوار المذهبي في تراث الشيخ اطفيش وأشكاله:

تشكل اللقاء المذهبي عند الشيخ اطفيش في مظاهر أساسية منها:

- اللقاء الفعلي بالمعاصرة والاجتماع بينه وبين من التقى بهم في مناسبات الرحلات
- المراسلات التي كانت بينه وبين جهات متعددة وشخصيات معروفة أو بقيت مجهولة.

- المناقشات العلمية والمقارنات التي كان يجريها فيما ألفه من كتب.

أولا- اللقاء الإباضي الأشعري في الواقع

لقد تعرف الشيخ على شخصيات متعددة في عصره من الأشاعرة، جمعته بهم مجالس في رحلاته، وكانت مناسبة للتعارف وتبادل الرأي والخبرات أيضا، وشعر بأهمية هذا اللقاء وسجله على شكل ذكريات متفرقات في ثلثيا كتبه حسب السياق الذي كان يناقش فيه القضايا العلمية من مختلف المواضيع، وكانت هذه مدونات في تاريخ حياته، تشكل مصدرا مهما لها.

ومن بين هذه اللقاءات نذكر لقاءه بالعلماء الآتية أسماؤهم³:

الشيخ أحمد زيني دحلان⁴،

ومحمد سليمان حسب الله⁵،

ومحمد حقي بن علي بن إبراهيم⁶،

وعليش محمد بن أحمد⁷.

ورحمة الله بن خليل الرحمن الهندي⁸.

هذه العلاقات التي كانت بين الشيخ وغيره لم يكن لها من سبب سوى المجهود العلمي الذي قدّمه، والعمل الإصلاحي الذي قام به، والحضور الفعلي من خلال زيارته للحرمين المدني والمكي.

ويذكر في أول مخطوطة كتابه "إيضاح المنطق في بلاد المشرق" هذه العلاقة التي نشأت بينه وبين علماء مكة، وقال: «إيضاح المنطق في بلاد المشرق ألفت في مكة ولعلماء مكة تناول إليه؛ وذلك في عهود الشيوخ الشافعيين، دحلان ومحمد حسبي الله ورحمة، والشيوخ الحنفيين عجماً وعرباً؛ فمن العجم التركيين الشيخ محمد حقي بن علي بن إبراهيم، مؤلف "حزب الأبرار وحصن الأخيار"، وغير ذلك، وكلهم محبوبون لي ولأموري»⁹.

وقد استطاع الشيخ اطفيش بعلاقته مع مثل هذه الشخصيات من العالم الإسلامي ومن الوسط الأشعري بخاصة أن يربط هذه المنطقة النائية من الجنوب الجزائريّ بجملته من عواصم العلم في الشرق؛ مما جعل الجزائر بهذا تساهم مباشرة في نهضة العالم الإسلامي منذ نهاية القرن الثامن عشر رغم الوضع الاستعماري الذي عاشته¹⁰.

وضمن هذا الحضور نسجل مشاركة الشيخ في التدريس بمسجد الرسول ﷺ، حين تمكن مضيفه من استصدار رخصة له بذلك، والذي يدل على اهتمام الشيخ باللقاء المذهبي في فكره وبالمذهب الأشعري خصوصاً أنه اختار أن يشرح متن العقيدة السنوسية في هذه الحلقات التي أقامها في المسجد النبوي، وقال إنه درس السنوسية بالمنطق: «درس السنوسية بالمنطق»¹¹.

ثانياً- اللقاء الإباضي الأشعري على مستوى المراسلات:

وهذا جانب من عمل الشيخ اطفيش، يشكل جزءاً كبيراً من تراثه، وفيه أيضاً يتجلى اللقاء الإباضي الأشعري، وهو أهم لأنه عبارة عن إجابات لأسئلة يوجهها إليه أحياناً الإباضية وأخرى الأشاعرة في المغرب، وخاصة من المالكية، والفرق بينها وبين المؤلفات أن هذه المراسلات تحكي الواقع، وهي من قبيل النوازل، وتظهر أهميتها في أنها تمثل جانباً مهماً من التعايش المذهبي ووضعيته في حياة الشيخ، وفي فترة من أصعب المراحل التي عاشها المجتمع المسلم والجزائري بخاصة، فترة الاستعمار وما اكتنفها من عوامل متعددة حكمت منطق التعامل وطبيعة

العلاقات الاجتماعية في وقتها.

من المراسلات نتبين جوانب متعددة يهمننا الوقوف عند بعضها:

1- إنها تثبت أن اللقاء كان موجودا بين الطرفين وباستمرار بغض النظر عن طبيعته؛ فالمراسلات تأتي من إباضية زوارة بليبيا عن أسئلة كانت نتيجة حوار كان بينهم وبين إخوانهم المالكية، فيه أسئلة واستشكالات حول قضايا خلافية رجوا من الشيخ اطفيش أن يتولى الإجابة عنها.

2- إن هذا اللقاء لم يقتصر على الحوار المذهبي في شكل الجدل والمناظرات بل اتسع إلى الاستفسار عن قضايا مستجدة مثل: حكم صلاة البلاد التي يقصر فيها الليل أو النهار كثيرا، كما نجد في "جواب أهل البلغار"، أو جواب مشائخ مكة، في مسألة حكم بلل أهل الكتاب والمشركين، والقول في العلاقة بين الإنس والجن، كما جاء في "البرهان الجلي في رؤية الجني"، وحكم الدخان والسعوط، في رسالة: "حكم الدخان والسعوط"، فهي مراسلات في مسائل عقدية وفقهية، دلت على تبادل البحث والدراسة بين الإباضية وغيرهم سواء في الجزائر أو خارجها، مما دل على أهمية المرجعية الدينية في الجزائر في هذا العهد رغم الظرف التي كانت تعيشه.

فقد ورد في أول "جواب علماء المالكية" قول الشيخ: «أما بعد فقد سألني بعض علماء المالكية سؤال استفادة عن بلل أهل الكتاب وغيرهم من أهل الشرك، وقال إني أَرْضَى وأكتفي بما تقول وأترك منازعة بني مضاب في ذلك، وقال إن كلامك حكم بيننا»¹²، ثم أجاب بما في الموضوع عند الإباضية والمالكية وغيرهما من المذاهب.

ومن ذلك أيضا السؤال المتعلق بالدخان والسعوط، فقد جاء في مقدمته وقد طبع في حياة الشيخ سنة 1326هـ قوله: «وبعد فهذه رسالة المؤلفها [كذا] شيخنا العلامة سيدي الحاج امحمد بن الحاج يوسف اطفيش رضي الله عنه في حكم الدخان والسعوط المسمى بالشمة إذ سألته عن ذلك بعض علماء فاس وتلمسان من المالكية، فقال مستعينا بالله عز وجل: «اعلم أن كل أدلة تحريم الخمر من القرآن والحديث أدلة لتحريم ما يغير العقل من الدخان وغيره؛ ويأتي تفصيل إن شاء الله، وأما اتخاذ الخمر خلا بالاحتياط لما يبطل إسكارها ويزيله فمنعه أصحابنا الإباضية، واختلف فيه الشافعية وأنتم معشر المالكية، أحله بعض الشافعية وبعض المالكية، ومنعه بعض الشافعية وبعض المالكية»¹³.

ولم يعد هذا اللقاء على مستوى المراسلات الجانب الجدلي والانتصار للمواقف، وإن كان أمرا غير جديد في تاريخ اللقاء المذهبي الإسلامي، وظهر في شكل حركة الأجوبة وردود الأفعال على المواقف، وفي تراث الشيخ اطفيش نصيب من هذا النوع، منه الرسائل الآتية:

- "الرد على حمى الطاهر"، أو "إزهاق الباطل بالعلم الهائل".

- "الرد على الصفرية والأزارقة".

- "الرد على العقبي".

وهي ردود في أغلبها أجوبة لبعض الأشاعرة في مواقفهم من الإباضية على عصر الشيخ، أو حتى من غيرهم كما هو الشأن في "الرد على الصفرية".

فالمبتادر عن هذه الشخصيات أنها لم تكن من أهل العلم في أغلبها، فلم يعرف أصحابها، أو ربما عرفت مستقبلا بمزيد البحث، مثل شخصية العقبي في "الرد على العقبي"، أو شخصية حمى الطاهر؛ ولكن الشيخ قد استجاب لطلب الجواب، ويبدو أنه تأثر بمحتوى الإشكالات؛ وقد تكون استفزازات أيضا، كانت من خارج المذهب، كما يمكن أن يكون لكل عالم معارضون من أهل مذهبه، أو من غيرهم.

أظهر الشيخ في هذا النوع من الأجوبة شدة وتحيزا إلى مذهبه، وانتصارا لمواقفه، لإظهار مكانته عبر الزمن، وصلاحيته ما فيه، ولكن ينبغي أن يقال إنه رغم ذلك لم يكن يتهم على الآخر إلا قليلا، بالمقارنة إلى أسباب التأليف والأقوال التي تصله، ونحن لا نستبعد فيها اليد الاستعمارية، لما فيها من أفكار التفرقة والتمييز، وإثارة النعرات، والخصومات.

ثالثا- اللقاء الإباضي الأشعري على مستوى المصنفات:

إن المظهر الأخير للقاء الإباضي الأشعري في مؤلفات الشيخ يختلف من حيث إنه كان أثرا من علمه وأصالته منه، إذ أفسح في مؤلفاته للقاء الإباضي الأشعري، واستجاب لحاجة علمية، مثل غيره من علماء الإسلام، فناقش الآراء المذهبية، وحاورها، من زاوية العمل العلمي، واهتم بهذا الحوار المذهبي في نموذج المقارنات بين الآراء المذهبية والمواقف في القضايا العقدية والفقهية أيضا.

ويتبع تراثه وجدنا من أعماله ما كان خاصا خالصا في المناظرات والجدل المذهبي، وجاء على شكل رسائل ذات موضوع واحد، أو متعدد، وما كان كتب في علم من علوم الشريعة، وخاصة منها العقيدة وعلم الكلام والفقه.

فمن النوع الأول الرسائل ذات الموضوع الواحد نجد:

1- رسالة: "عدم الرؤية وإدحاض مذهب أهل الفرية"¹⁴.

2- "إزالة الاعتراض عن محققي آل إباح".

فعلى مستوى العناوين نلاحظ أنها كانت بلفظ يدل على شدة وجدل، يرجع سببها إما إلى أنها من مؤلفات الشيخ في بداية عهده بالتأليف، أو أنها كانت ردود أفعال، خاصة ما كان منها

أجوبة مثل رسالة "الرد على العقبي" أو "إزالة الاعتراض"، ورسالة "نفي الرؤية"، لأن هذه الروح ما فتئت أن اختفت من المؤلفات الأخرى.

وفي المؤلفات نجد هذه القائمة:

- 1- "تلقين التالي لآيات المتعالي، وهو: شرح جامع حرف ورش" في رواية ورش عن نافع.
- 2- "الذخر الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى".
- 3- "شامل الأصل والفرع".
- 4- "وفاء الضمانة بأداء الأمانة في فن الحديث".
- 5- "الذهب الخالص المنوّه بالعلم القالص"؛ أو جامع القواعد والحاشية: كتاب "قواعد الإسلام" للشيخ اسماعيل الجيطالي، و"الحاشية" لأبي عبد الله بن أبي ستة.
- 6- "تيسير التفسير" تفسير القرآن الكريم.
- 7- "الجنة في وصف الجنة"، شرح القصيدة العبرية في أوصاف الجنة، للشيخ أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن سليمان الكندي¹⁵
- 8- "داعي العمل ليوم الأمل"، تفسير القرآن الكريم.
- 9- "شرح أصول الدين"، وهو شرح كتاب "أصول الدين" للشيخ تبيغورين بن عيسى الملشوطي.
- 10- "شرح الدعائم المختصر"؛ وهو ثاني شرح للشيخ اطفيش على ديوان ابن النصر العماني، كامل ومختصر.
- 11- "شرح عقيدة التوحيد"، متن العقيدة لأبي حفص عمرو بن جميع.
- 12- "شرح كتاب النيل وشفاء العليل".
- 13- "شرح لامية ابن النصر العماني"؛ في الولاية والبراءة.
- 14- "فتح الله: شرح مختصر العدل والإنصاف".
- 15- "هميان الزاد إلى دار المعاد"، تفسير القرآن الكريم.
- 16- "حاشية على شرح النونية": النونية منظومة لأبي نصر فتح بن نوح في العقيدة، والشرح للشيخ عمر بن رمضان التلاتي.
- 17- "حاشية الموجز": كتاب "الموجز" للشيخ أبي عمار عبد الكافي.

وتبدو المؤلفات بعناوينها العلمية، أقل حدة، بل تختفي منها، لأنها بحوث علمية تقوم على إيراد الرأي ودليله ومناقشة الرأي المخالف، وهذا كثير في مؤلفات القطب سواء منها العقدية أو

الفقهية.

والذي نلاحظه هو أن هذا التراث العلمي الذي تركه الشيخ كان ما يقرب من رבעه في المقارنات واللقاء المذهبي، وإن لم يخصص كتابا في الموضوع، لكن يمكن استخلاص طريقة تعامله في مناقشة الأقوال وموقفه في القضية المذهبية.

وللوقوف على هذا نختار المؤلفات العلمية التي أنتجها الشيخ اطفيش، فحضور النقاش المذهبي في الرسائل أمر بدهي باعتبارها ردودا تبني على مواقف متخالفة. وإن كانت دراستها كذلك تمكننا من الحصول على نتائج مهمة في اللقاء المذهبي.

ومن أهم المؤلفات كتاب "شرح كتاب أصول الدين"، أصله كتاب للشيخ تبغورين بن عيسى من علماء أجلو بتقوت في القرن السادس الهجري، وقد ألفه خصيصا في بيان الأصول المميزة للمذهب الإباضي عن غيره، وتناوله الشيخ اطفيش بالشرح والبيان، وهو في التراث الكلامي المذهبي، أجرى الشيخ اطفيش ضمنه مقارنات بين الآراء الإباضية وآراء غيرهم، وبهنا أن نتعرف على منهج تعامله في مثل هذه الأعمال مع الرأي الآخر.

فالدراسة التي أمكن لنا إجراؤها عليه وتحقيق الجزء الأول منه كفيلة بأن تعطي ضوءا على الموضوع وتعتبر مدخلا إليه.

لقد وجدنا أن الشيخ يكثر من ذكر الأشاعرة أو المالكية -وهو المذهب الأشعري السائد في المغرب-، وهذا بتسمية الأشاعرة أو غيرها من الأسماء، أو بذكر أعلامهم وأئمة المذاهب بخاصة، فقد أكثر من الاستشهاد ونسبة الأقوال والآراء عند بيان المواقف المتعددة، ونقتصر هنا على الأعلام الذين رجع إليهم الشيخ في مؤلفاتهم، فنجد حوالي أربعين شخصية منهم:

أئمة المذاهب: مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد، وابن حزم.

والأعلام أمثال: أبو بكر بن العربي ومحيي الدين ابن عربي، وابن القاسم، وابن الماجشون، والإسفرائيني، والإيجي عضد الدين، والتفتازاني مسعود بن عمر، وابن فورك، والآمدي والباقلاني، والجرجاني والجويني، والرازي...

يضاف إلى هذه القائمة أعلام الإباضية وأعمالهم، وتبعاً لهذا فقد تشكلت المصادر الأساسية التي استقى منها الشيخ اطفيش مادة كتابه من كتب متعددة إباضية وأشعرية، ومن الثانية خاصة كتاب "المواقف" للإيجي، وشرحه للجرجاني، و"شرح المقاصد" للتفتازاني، وكذا "الحكام القرآن" للقرطبي، و"الفتوحات" لابن عربي الصوفي، و"المدونة" للإمام مالك وغيره.

ولذا كثرت أيضا المباحث التي يجتمع فيها الشيخ اطفيش مع الأشاعرة، ويرد اللقاء الإباضي الأشعري في أهم المباحث العقيدية والكلامية، وبل في غالبها. كما يشته واقع مؤلفاته.

ومن بين القضايا التي يهمننا أن نرى فيها نتيجة اللقاء المذهبي، والسمة التي طبعت هذا اللقاء، قضية إثبات الرؤية أو نفيها، ومسألة أفعال العباد.

أولاً- مسألة الرؤية:

لقد ناقشها الشيخ اطفيش وبين فيها موقف الإباضية، وبين آراء غيرهم وخاصة الأشاعرة، الذين ذكرهم في جملة من ذكر ونسب إليهم القول بالرؤية بغير كيفية، وبعد بحثه الموضوع، نجده يناقش أقوالاً تقرّب بين الآراء، ومنها القول بالرؤية القلبية، وهو منسوب إلى الإمام الغزالي أبي حامد، الذي عبر عن الرؤية القلبية بأنها إدراك القلب للحقيقة مثل رؤية العين، وإن كان الشيخ اطفيش لم يرض أن يصل العبد إلى إدراك حقيقة ربه إدراكاً كاملاً بشيء من جوارحه، وقال إن المحذور أن يقال بإدراك المخلوق للخالق، وهو منفي عنه، وأما أن يصل إلى معرفة يقينية به يقيناً يزيل كل شك، دون حقيقة الإدراك؛ فهو في نظره ممكن، ولا محذور منه، وقال هذا تعديلاً لموقف الإمام الغزالي ومحاولة للجمع بين الأقوال، وقال في شأنه: «وأما الرؤية بالقلب بمعنى الإيقان به وازدياد اليقين بازدياد الدلائل فكلنا يقول به»¹⁶.

وهذا من شأنه أن يقرب البحث من تنزيل مثل هذه القضية الفرعية في الآراء العقديّة منزليها، ولا يضخم من شأنها كما هو الحال في الجدل المذهبي الذي ما يزال سائداً بين المسلمين، خاصة بين الإباضية والأشاعرة والحنابلة.

فالشيخ بقوله قرب بين أطراف الأقوال التي كانت تبدو متباعدة عند تناولها من منهج الاستدلال المقتصر على الرأي والرأي المخالف له، ومناقشة الأدلة دون الوقوف على حقيقة توجيه المسألة.

ثانياً- قضية فعل الإنسان ومسؤوليته عليه:

وهي أيضاً من القضايا المهمة لدى المتكلمين ولا تزال؛ لأنهم لم يصلوا فيها إلى حل الإشكال الأساسي، من حيث فك أجزاء معادلة تبدو مستعصية على الإدراك البشري؛ كيف يكون الإنسان حراً ولا يستطيع أن يفعل إلا شيئاً قد علمه الله وكتبه في الأزل...؟

لذا نجد الشيخ اطفيش يجتهد في الوصول إلى حل في الموضوع وقد جاء متأخراً، وناقش المسألة من وجوها، واطلع على مواقف من سبقوه سواء من الإباضية، أو الأشاعرة أو المعتزلة، وقد بين كل مذهب وأنه لا يشفي الغليل في الموضوع، حتى انتهى إلى الاتفاق مع القاضي عبد الجبار والشيخ ابن تيمية في أن الصواب هو التسليم، والوقوف كما قال الله تعالى عن نفسه: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء، 23]¹⁷.

وفي بحثه المسألة يذكر الاتفاق الإباضي الأشعري في نظرية الكسب، التي أخذ بها الإباضية باعتبارها حلاً وسطاً بين جبر المجبرة، وجبل أهل الجبل، واختيار أهل الاعتزال.

درس هذا الموضوع في شرحه الأصل الثاني من أصول الدين وهو أصل القدر، وقد كان من أهم مصادره التي أخذ عنها ونقل كتاب "المواقف" للإيجي، وشرح الجرجاني عليه، و"شرح المقاصد" للتفتازاني، كما استفاد من أعمال الآمدي.

وقرر اتفاق الإباضية مع الأشاعرة في نفي توارد قدرتين على مقدور واحد وقال:

«واتفقنا نحن والأشعرية ومن نحنا نحونا على امتناع قدرتين كاسيتين على مقدور، لأنَّ الكسب تعلُّق فعل بالقدرة الحادثة، والقدرة الحادثة لا تعلُّق بفعل خارج عن محلِّ تلك القدرة الحادثة؛ فلا يقدر زيد على عين فعل عمرو، ولا يتصوَّر اثنان هما محلُّ فعل واحد، بل يكون كلُّ واحد من الاثنين محلاً لفعل مغاير لفعل الآخر»¹⁸.

وناقش أيضا إشكال الاختلاف في نسبة الفعل إلى العبد ونسبته إلى الله تعالى، وقال مشيراً إلى أقوال متعددة منها قول الأشعرية في خصوص بعض علمائهم مثل الإسفراييني والباقلاني، ثم في عمومهم:

« وقال الأستاذ بمجموع قدرة الله ﷻ وقدرة العبد متعلّقتين بالفعل نفسه، إجازة لمؤثرين على أثر واحد.

وقال الباقلاني: تعلّقت قدرة الله بأصل الفعل، وقدرة العبد بكونه طاعة أو معصية، ورغبة ورهبة وإجلالا، وطمعا وخوفا ورجاء، وغير ذلك ممّا لا يوصف الله ﷻ به، كلطم العبد تأديبا وإيذاء، فاللطم واقع بقدرة الله وتأثيره، وكونه طاعة على الأوّل ومعصية على الثاني بقدرة العبد وتأثيره عنده.

وقالت الحكماء وإمام الحرمين: واقعة على سبيل الوجوب وامتناع التخلف، بقدرة يخلقها الله في العبد، إذا قارنت حصول الشرائط وامتناع الموانع.

وضابط الأقوال أنّ المؤثر إمّا قدرة الله كمذهبنا ومذهب الأشعرية، أو قدرة العبد كمذهب جمهور المعتزلة، أو هما مع اتّحاد المتعلّقين كمذهب الأستاذ والنجار¹⁹ من المعتزلة، أو دون الاتّحاد مع كون قدرة العبد متعلّقة لقدرة الله صادرة عنها بلا عكس لاستحالة تأثير الحادث في القديم، كما هو مذهب إمام الحرمين والحكماء، أو بدون تعلُّق أحدهما للآخرى، كما هو مذهب الباقلاني²⁰»²¹.

وفي الأخذ بالكسب الأشعري يظهر تأثر الإباضية المتأخرين بالأشاعرة، إذ اعتبر بالنسبة إليهم وسطا بين الجبر والاختيار، رغم أن البعض يرى أنهم كانوا على مذهب الكسب مفهوما قبل أن يكون مصطلحا، والواقع أنهم كانوا على التفويض في هذه القضية، حتى تأثروا برأي الأشاعرة فأخذوا به، ولذلك حاول إباضية جبل نفوسة الحفاظ على الأصل بالقول بنظرية الجبل عوض الجبر، وهكذا نجد الشيخ اطفيش يبرر الأخذ

بالكسب ما اعتقد فيه من التوسط بين الأطراف المختلفة، فقال مدافعا عن المذهبين الإباضي والأشعري:

«والملجئ لنا وللأشعرية إلى التوسط بين مذهبي الجبر والاعتزال لزوم المحذور على كل منهما»²².

والواقع أننا عندما ندرس القضية عند الشيخ اطفيش لا نجد خلافا ذا شأن في الموضوع، وهو يشير أنه خلاف لفظي، ويقول: «ومشهور الأشعرية أن له قدرة غير مؤثرة أي لا تؤثر بذاتها فالخلاف لفظي، أو لم يسموا ما للعبد تأثيرا»²³.

والذي يهمننا في الموضوع هو اهتمام الشيخ بالمقارنة وإظهار التوافق بين المذهبين، وتتبع القول بالكسب عند الأشاعرة، من الأشعري إلى الجويني، ويقول بمثل قول الأشاعرة بعد الأشعري الذي قال إن للإنسان قدرة لكن غير مؤثرة²⁴، بينما ذهب إلى القول إلى قول غير بعيد عن هذا وهو تأثير قدرة العبد لكنها متوقفة على إرادة الله تعالى وإذنه، ورأى أن هذا موافق لأتباع الأشعري من بعده، حتى قال إن أتباعه خالفوه، والواقع تطور نظرية الكسب التي انتهت إلى مثل قول القطب عند الجويني.²⁵

فهذان نموذجان من اللقاء الإباضي الأشعري عند الشيخ اطفيش، يضافان إلى الأعمال الأخرى التي حوت فضاء هذا اللقاء، وله خصوصيته من حيث أسبابه ونتائجه.

4- أسباب اللقاء الإباضي الأشعري عند الشيخ اطفيش

تجتمع عدة أسباب وراء هذا اللقاء المذهبي، منها الموضوعية والعلمية، والاجتماعية والتاريخية، كل هذه العوامل حفزت بل أنتجت ضرورة اللقاء المذهبي، على مستوياته المتعددة وأشكاله المختلفة؛ نذكر بعضا منها:

أ- طبيعة المادة العلمية:

فإن الفكر الإسلامي على مر تاريخه الطويل كان مجالا خصبا للمقارنات، واختلاف وجهات النظر، مما استدعى البحث في أي مسألة الاستقصاء للوصول إلى القول الفصل إن أمكن، فقد كانت المادة التي شكلت سبب اللقاء ذات سمة تراثية جدلية، فالشيخ اطفيش كان سائرا على خطى سابقيه في هذا الموضوع، وكان مخلصا لنهجهم، وكانت العقيدة والتراث الكلامي بخاصة ميدانا فسيحا للقاء الإباضي الأشعري عنده.

ب- كثرة الآراء واختلافها:

ولكثرة الأقوال واختلاف الرؤى أهميته في هذا اللقاء، فإن المسألة الواحدة يمكن أن تحتمل الأقوال المختلفة مما شكل ثراء الفكر الإسلامي، وساعد على ضرورة الاستقصاء

في الأقوال، خاصة عند العلماء المدققين وكان هذا سببا في تتبع أقوال المذاهب والعلماء في الموضوع الواحد، وأحيانا لا يكون في المذهب الواحد قول واحد، كما كان الشأن لمسألة فعل الإنسان وغيرها.

ج- الجوار الإباضي الأشعري شرقا وغربا جغرافيا

وهو من بين أهم الأسباب التي أدت إلى اللقاء الإباضي الأشعري، وخاصة بالمغرب، إذ تجاوز هذان المذهبان على مر التاريخ منذ وجودهما، وكان المذهب الإباضي بتجربته في الدولة الرستمية وما سبقها قد عاش الجوار مع غيره، واستمر مع قدوم الأشاعرة بعد هذه الدولة، ولمدة طويلة -وما تزال- تجاوز المذهبان، وكان هذا سببا كافيا للتعرف والتعرف بينهما.

وإن كانت طبيعة التعرف ودرجة الميل إليه تختلف من عالم إلى آخر، ومن وقت إلى آخر، نحسب أنها بلغت ذروتها في فترة متأخرة، وبخاصة من الجانب الإباضي. وقد يكون ذلك بحكم موازين القلة والكثرة، والانحسار الإباضي عبر الزمن من حيز جغرافي إلى آخر، وبحكم التجاور الذي لم يكن بحساب مدن أو حواضر متجاورة بل تطور وتوسع إلى الجوار السكني والحي الواحد.

د- القرب المنهجي بين الإباضية والأشاعرة

ونقصد بهذا القرب المنهجي، تقارب طريقة الاستدلال ومصادره، بين الإباضية والأشاعرة، فقد كان المذهب الإباضي يشكل واسطة بين العقل الاعتزالي ونصية المحدثين المقابلة له، ولما ظهر الفكر الأشعري بمحاولة أبي الحسن التوسط، أصبح أقرب إلى منهج المذهب الإباضي في بعض قضايا الصفات، أو في الأخذ بالتأويل، مما جعل الشيخ اطفيش باعتبار انتمائه يجد لدى الأشاعرة نقاط تلاق متعددة، وإن لم تصل في بعضها إلى حد التطابق، فقد كان الإباضية في منهجهم أميل إلى النص القرآني والتعامل معه بمنطق التأويل والعقل، بينما كان الخط المنهجي الأشعري أميل إلى النص الحديثي وأقرب إلى التسليم بظاهر النص، وظهر هذا جليا في قضايا الخلاف بين المذهبين. وتجسد بشكل واضح في أن هذه القضايا الخلافية يتفق فيها الإباضية مع المعتزلة، ويتفق فيها الأشاعرة مع المحدثين.

وكان هذا الوضع سببا كافيا ليناقد الشيخ اطفيش ويلتقي مع الأشاعرة في تراثه بشكل واسع مظهرا مدى الاتفاق ومواطن الاختلاف.

هـ- الوجود الاستعماري الفرنسي بالجزائر

وهذا عامل آخر لا يمكن إهماله، حيث كان للاستعمار يد في إثارة النقاش الإباضي الأشعري، والمالكي بالخصوص في الجزائر، وهو ما ترجمته مراسلات الشيخ اطفيش، حين يجيب على أسئلة حول المذهب تثار من عوام الناس، أو من خاصتهم، فيها للجوار أثر، وللإستعمار أيضا نصيبه.

4- أهمية اللقاء الإباضي الأشعري في تراث الشيخ

لقد جسد الشيخ في تراثه اللقاء والحوار، وتعددت مواقفه فيه، فهو يختلف بين الانتصار إلى المواقف والانتماء أحيانا، ولكن لم يمنعه ذلك من الميل إلى تخفيف شدة الخلاف ومحاولة التوفيق بين المذهبين، وأتباع المنهج العلمي الرصين في تناول القضايا الخلافية بين المذهبين، وتجلّى هذا خاصة في المؤلفات التي شكلت القدر الأكبر من عمله العلمي، وينبغي القول إنه كان يتسم بخلق أهل العلم في إيراد أقوال المذاهب، كما دلت أعماله على سعة اطلاعه وأخذه الآراء والأقوال من مصادرها رغم صعوبة حصوله عليها.

وهذا ما يدلنا على أهمية دراسة هذا الجانب في أعمال الشيخ اطفيش وتراثه، واستخلاص نتائج لها صلة وثيقة بعصرنا وواقعنا.

وهذا الجانب من التراث الإسلامي جدير بالاهتمام في عصرنا ووقتنا أكثر من أي وقت مضى، فقد كان لفكر الشيخ اطفيش، ولموقفه من الآخر امتداده الواضح في أعمال تلاميذه الذين جاؤوا من بعده، ولنا في أمثال الشيخ أبي إسحاق إبراهيم اطفيش خير نموذج على الاهتمام بالآخر، واللقاء معه، وكذا في أعمال الشيخ أبي البقطان، وجهاده بالقلم من بعد الشيخ.

وقد تبلورت آثار هذا المنهج في ما بعد في شخصية الشيخين علي يحيى معمر وثلاثيته: "التعارف والمعرفة والاعتراف"، وفي جهود الشيخ إبراهيم بيوض.

فقد استطاع الشيخ اطفيش باهتمامه برأي الآخر والموقف منه أن يسهم في الحوار المذهبي في الجزائر، والعالم الإسلامي، من خلال مراسلاته وعلاقاته ومؤلفاته، وأن يفلح في تربية جيل من تلاميذه استمروا على نهجه، واستجابوا لداعي الوحدة.

والذي يمكن استخلاصه من هذه المحاولة هو أن سنة الله تعالى في الاختلاف لا يمكن إنكارها، وأن قوة كل أمة في تعاملها مع اختلاف المواقف، وتعدد الرؤى، والدين أوسع بكثير من أن يسعه فكر رجل أو مجموعة دون أخرى، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ

مَدَدًا﴾ [الكهف، 109]، فقد جسد السابقون اللقاء بينهم من خلال أعمالهم ومؤلفاتهم، بأشكال مختلفة، وبدرجات متفاوت في قبول الآخر أو رفضه وأحيانا إغائه.

وما يحيط بالأمة والوطن في عصرنا أكثر إلحاحا علينا بالاهتمام، وإن العهدة على أهل العلم أولا في تجسيد قيم التلاقي والحوار والدعوة إليها، وتربية الإنسان عليها من خلال منظومة التعليم في أطوارها المتعددة.

الهوامش:

- ¹ ابن الصغير، السير، ص 57، نقلا عن إبراهيم بكير بحاز، الدولة الرستمية (160-296هـ / 777-909م)، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، منشورات ألفا، ط3، الجزائر 1431هـ / 2010م.
- ² وينتن مصطفى، آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقديّة، نشر جمعية التراث، القراة، الجزائر، 1417هـ / 1996م، ص 69.
- ³ انظر في ذلك مثلا: القصيدة الحجازية، مخطوط مكتبة القطب (أ.ز، 07)، ص 90، 91 - شرح لامية ابن النظر، مخطوط في مكتبة القطب (أ، ث، 1)، ج 1، ص 934 - إيضاح المنطق في بلاد المشرق، (مخطوط) مكتبة الاستقامة (65)، 1 - الذخر الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، طبع قديم دم 1326 هـ، ص 240، - الرد على العقبي: المطبعة المديرية تونس 1321 هـ، ص 11، 10؛ شرح عقيدة التوحيد، تحقيق مصطفى وينتن، نشر جمعية التراث، القراة، الجزائر، 1421هـ / 2001م، ص 70 - تيسير التفسير، تحقيق الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1423هـ / 2003م، ج 9 ص 34 - جواب مشايخ مكة، ط2 الجزائر 1301هـ، ص 11، 10؛ - خطبتا العيدين: مخطوط في مكتبة القطب رقم (أ.ز، 03)، ص 11، 12 - إزهاق الباطل بالعلم الهاطل، طبع قديم 1317م، ص 22 - 24.
- ⁴ أحمد زيني، (1232-1304هـ / 1817-1886م)، الزركلي، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء والعرب والمستعمرين والمستشرقين، دار العلم للملايين ط7 بيروت 1986م، ج 1، ص 129.
- ⁵ محمّد سليمان حسب الله، (1244-1335هـ / 1828-1917م)، المرجع نفسه، ج 6، ص 125.
- ⁶ محمّد حقي بن علي بن إبراهيم (1301هـ / 1884م) المرجع نفسه، ج 6، ص 108.
- ⁷ محمّد بن أحمد بن محمّد عlish، فقيه مالكي من أصل مغربي، توفي في السجن لَمَّا قامت الثورة العربية (1217-1299هـ / 1802-1882م)، المرجع نفسه، ج 6، ص 19.
- ⁸ رحمة الله بن خليل الرحمان الهندي، (-1306هـ / 1888م)، المرجع نفسه، ج 3، ص 18.
- ⁹ اطفيش، إيضاح المنطق في بلاد المشرق، مخطوط، مكتبة الاستقامة ببني يزقن، رقم (65)، 1 ظ.
- ¹⁰ عبد القادر جغلول، الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر، ترجمة سليم قسطون دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت دت، ص 14.
- ¹¹ اطفيش، شرح كتاب النيل، ط3، دار الفتح، بيروت ومكتبة الإرشاد جدّة، 1985م، ج 1، ص 47، ينظر: وينتن، آراء الشيخ اطفيش، مرجع سابق، ص 96.
- ¹² اطفيش، جواب حكم بلل أهل الكتاب، طبع قديم، مع رسالة "حكم الدخان والسعوط" الجزائر 1326هـ، ص 73.
- ¹³ المصدر السابق، ص 02.
- ¹⁴ اطفيش، مجموع الرسائل، (مخطوط بمكتبة القطب، رقم أ.ز، 6)، ص 25 - 28.
- ¹⁵ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سليمان الكندي، عالم عمانيّ من الموسوعيين، له كتاب "بيان الشرع" توفي سنة 557؛ انظر، سالم ابن حمد الحارثي، العقود الفضية في أصول الإباضية، نشر وزارة التراث، عمان، 1403/1983، ص 277.

- ¹⁶ اطفيش، حاشية القناطر: مخطوط في مكتبة القطب (ا. و: 5)، ج 2، و: 15؛ انظر: اطفيش، هيمان الزاد إلى دار الميعاد: ط 1 المطبعة السلطانية زنجان 1305هـ، ج 14، ص 490؛ - الذخر الأسنى، مصدر سابق، ص 132؛ التيسير، مصدر سابق، ج 1، ص 81؛ ج 3، ص 410؛ وفاء الضمانة وأداء الأمانة: مطابع سجل العرب نشر وزارة التراث القومي والثقافة، عمان: 1982م، ج 6، ص 285؛ إزالة الاعتراض: ط 2 المطبعة الشرقية ومكتبتها نشر وزارة التراث القومي والثقافة، عمان 1982م، ص 03.
- ¹⁷ اطفيش، شرح الدعائم (شرح بعض منظومات ابن النظر العماني المسماة الدعائم): طبعة قديمة 1325هـ، ج 1 ص 167؛ حاشية القناطر، مصدر سابق، ج 2، و، ظ 04؛ انظر: مصطفى وينتن، آراء الشيخ اطفيش، مرجع سابق، ص 380، 381.
- ¹⁸ اطفيش، شرح كتاب أصول الدين، تحقيق مصطفى وينتن، أطروحة دكتوراه، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، سنة 2007، ص 397.
- ¹⁹ الحسين بن محمد بن عبد الله النجار (نحو 220هـ - ص 835م) رئيس الفرقة النجارية المعتزلية. ينظر: الزركلي، الأعلام، مرجع سابق، ج 2 ص 253.
- ²⁰ ينظر: الجرجاني علي بن محمد، شرح المواقف، تحقيق عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، لبنان، 1417هـ، ج 3 ص 215.
- ²¹ اطفيش، شرح كتاب أصول الدين، مصدر سابق، ص 399.
- ²² اطفيش، شرح النيل، مصدر سابق، ج 17، ص 728، 729، وينتن، آراء الشيخ اطفيش، مرجع سابق، ص 372.
- ²³ اطفيش، التيسير، مصدر سابق، ج 4، ص 328، وينتن، آراء الشيخ اطفيش، مرجع سابق، ص 375.
- ²⁴ الأشعري أبو الحسن، الإبانة عن أصول الديانة: دار العلم للطباعة والنشر جدة، د.ت، ص 54.
- ²⁵ القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة: تحقيق عبد الكريم عثمان نشر مكتبة وهبة مصر، 1384هـ/1965، ينظر هامش رقم 1، ص 364، وينتن، آراء الشيخ اطفيش، مرجع سابق، ص 375.

آثار الشيخ محمد الفيش في أصول الفقه

زهير مسعود بابا واسماعيل

باحث غرداية

تمهيد

غزارة النتاج الفكري للشيخ امحمد بن يوسف اطفيش:

يعتبر الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش من الأعلام المجددين في الفقه الإباضي خلال القرنين الماضيين، كما يعتبر في عهده مرجعا للفتوى والاجتهاد عند الإباضية، حيث تعتبر آراؤه الأصولية واجتهاداته الفقهية عمدة المجتهدين من بعده، ومرجعا للدارسين للفكر الإباضي.

وقد عُرف القطب بتأليفه وإنتاجه الفكري الغزير، أمد المكتبة الإسلامية بأكثر من مائة وخمسة وثلاثين أثر.⁽¹⁾ إلا أن هذا لا يعد التحديد الدقيق لآثاره، إذ يمكن أن تكون أكثر من ذلك؛ بالنظر إلى كون أغلب مؤلفاته لا يزال مخطوطا، إضافة إلى أنه كان يبعث بمؤلفاته إلى أقرانه لنسخها، فإما أن تبقى في تلك الديار، أو أن تضيع في الطريق.⁽²⁾

وأما عن المجالات التي ألف فيها القطب فهي تزيد عن خمسة وعشرين نوعا، غير أن مجال أصول الفقه يعد من أقل المجالات تأليفا عند القطب، حيث أنه لم يؤلف كتابا كاملا في هذا الفن سوى "فتح الله"، إضافة إلى بعض المباحث الأصولية التي بثها في ثانيا كتبه الفقهية والعقدية مثل: "شامل الأصل والفرع"، و"حاشية على رفع التراخي للتلاميذ". أو التي كان يبعثها إلى بعض العلماء في شكل أجوبة عن بعض القضايا والمسائل الأصولية.

وسنحاول من خلال هذا العمل أن نعرف ببعض من هذه التأليف، وأهم المحاور التي تناولتها، وبيان منهجه في التأليف الأصولي.

وسنركز الحديث عن مؤلفه الوحيد الذي صنفه خالصا في أصول الفقه، وهو كتاب "فتح الله"، إضافة إلى كتاب شامل الأصل والفرع الذي حوت أبوابه على بعض المباحث الأصولية، وكذا بعض الأجوبة الأصولية التي كانت ردا لأسئلة ترد عليه من أقرانه.

أولا: كتاب فتح الله: شرح مختصر العدل والإنصاف.

1- التعريف بكتاب "فتح الله" من خلال عنوانه:

من خلال عنوان كتاب "فتح الله"، نجد بأن عمل القطب كان على ثلاث كتب أصولية وهي:
أ العدل والإنصاف في معرفة أصول الفقه والاختلاف لأبي يعقوب الوارجلاني (500هـ-570هـ):

هو أول كتاب إباضي متكامل في أصول الفقه، ألفه صاحبه بعد عودته من الأندلس لملء الفراغ الموجود عند الإباضية في هذا الفن. سلك فيه الوارجلاني منهج المتكلمين، وكان أسلوب الكتاب أدبيا راقيا تفتن فيه المؤلف بألفاظ قوية، وقد بالغ أحيانا في استعمال ألفاظ غريبة، وتراكيب معقدة،⁽³⁾ جعلت من كتابه سفرا صعب المنال، وحملت كل من البرادي (حي في: 810هـ)، والشماعي (ت: 928هـ). على وضع شرح عليه يسطة.

ب كتاب مختصر العدل والإنصاف لأبي العباس الشماخي:

لما رأى الشماخي ضخامة كتاب العدل والإنصاف وعدم تناهي مسائله، وبطلب من بعض إخوانه،⁽⁴⁾ حاول اختصاره فأبعد عنه المسائل الكلامية والمنطقية، وجعله خالصا في أصول الفقه، وأضاف إليه مسائل أصولية من مصنفات أخرى. فكان مختصره في عشرة أبواب مع مقدمة، وخاتمة. وقد ظهر أثر المنهج الكلامي في مختصر الشماخي من ترتيبه للمسائل ترتيبا منطقيًا، إضافة إلى اهتمامه بالتعاريف، وتحديد المصطلحات.⁽⁵⁾

ج شرح مختصر العدل والإنصاف لأبي العباس الشماخي:

لما فرغ الشماخي من تأليف مختصر العدل والإنصاف، شعر بأن مختصره جاء مخلا، عجزت عباراته القليلة عن استيعاب معاني أصول الفقه الكثيرة، فوضع شرحا عليه يبين لفظه ومعناه ويتمم فائدته.⁽⁶⁾ وقد حاول الإعراض عن التفصيل في المسائل الكلامية والمنطقية، بالاقصار فيها على الشرح اللفظي، والعناية بالقضايا الأصولية الواردة في العدل والإنصاف.⁽⁷⁾ وبعده جاء القطب فوضع شرحا موسعا لشرح المختصر سماه "فتح الله".

2- دواعي تأليف الكتاب:

إن الدافع الأول لتأليف القطب لهذا السفر-كغيره من المؤلفات- هو رغبته في تحمل واجب التأليف عن غيره، واعتباره عبادة، إضافة إلى دواعي أخرى يمكن إجمالها فيما يلي:

1. استجابة لطلب علماء عمان، الذين بعثوا إليه يلتمسون منه أن يؤلف لهم كتابا جامعاً في أصول الفقه.⁽⁸⁾

2. حاجته إلى مرجع في أصول الفقه لتدريس تلاميذه، على غرار الفنون العلمية الأخرى، فاختار القطب شرح مختصر الشماخي، وعمد إلى وضع شرح مبسط عليه يليق بتدريس المبتدئين.⁽⁹⁾

3- الصورة النهائية للكتاب:

إن المتوفر حاليا من كتاب "فتح الله" هو ثلاثة أجزاء، في ثلاث نسخ، نسختين منها في مكتبة القطب في ثلاث مجلدات متداخلة، والثالثة بمكتبة عشيرة آل خالد.

وقد تعرض القطب في هذه الأجزاء إلى شرح ستة أبواب من شرح مختصر العدل، وهي: باب المجمل والمبين، وباب الأمر والنهي، وباب الظاهر والمحكم، وباب الخاص والعام، وباب: المنطوق والمفهوم، وباب الخبر. وبقيت أربعة أبواب وهي: النسخ، والإجماع، والاجتهاد، والقياس. إضافة إلى خاتمة التعارض والترجيح.

وقد ذكر أبو إسحاق اطفيش. (1305-1385هـ) أن الكتاب يقع في ستة أجزاء متوسطة الحجم.⁽¹⁰⁾ وهو ما يعني أن النسخ المتوفرة حاليا تمثل نصف الحجم الكلي للكتاب، والباقي لا يزال مفقودا.

ومن المؤكد بأن القطب قد أكمل شرح مختصر العدل، ويدل على ذلك مايلي:

1. إن القطب قال في "شرح النيل" عند حديثه عن معنى الترخيص: «ويستطت الكلام على ذلك في شرحي على شرح مختصر العدل، وهو قدر النيل أربع مرات أو أكثر».⁽¹¹⁾ فهذا تصريح من القطب عن إتمامه لهذا الكتاب، ببيان حجمه.

2. إن أبا اليقظان (1306-1393هـ)، في ترجمته لتلميذ القطب سليمان الباروني (1287-1359هـ)، ذكر بأن عبد الله الباروني (1236-1332هـ) كتب تقریظا على كتاب "فتح الله" لما أفرغ القطب من تأليفه.⁽¹²⁾

3. إن القطب قد أحال في أجزائه الأولى من "فتح الله"، وفي كتب أخرى إلى مباحث تقع في آخر الكتاب، أي في الأبواب المفقودة من الكتاب، وفي ذلك دلالة على أنه قد أتم الكتاب.⁽¹³⁾

4- منهج القطب في ترتيب موضوعات الكتاب:

1) منهجه في شرحه لمتن الشماخي:

لقد سار القطب في شرحه وفق التقسيم والتبويب العام الذي وضعه الشماخي، فقام بتتبع الأبواب بالشرح والتفصيل، وإثرائها بالعديد من المسائل التي لم يفصل فيها الشماخي، حتى صارت عبارات متن الشماخي عناوين لمسائل كتاب القطب.

وقد اتبع القطب في تناوله لمتن شرح المختصر المنهج التالي:

1. يورد عبارة متن الشماخي ثم يشرحها شرحا لغويا، مستفيضا في بيان الأوجه اللغوية والبيانة إن وجدت.⁽¹⁴⁾ كما يقوم بتوجيه عبارة الشماخي إلى المعنى الذي أراده، ببيان وجه الإعراب الصحيح، والذي يتفق مع مقصوده.⁽¹⁵⁾
2. يضبط أقوال وآراء العلماء الواردة في متن الشرح، ويحقق في نسبتها إلى أصحابها من مظانها، وقد يصحح ما أخطأ الشماخي في نسبته.⁽¹⁶⁾
3. يعتني بتخريج الأحاديث الواردة في المتن من كتب التخريج، وذكر روايات الحديث من طرق أخرى، مع بيان درجتها، وأقوال علماء الحديث فيها.
4. يثري المسألة بإضافة تعاريف أو أقوال أو أدلة وحجج، أو غير ذلك، وقد يعتمد إلى نقل نص من كتاب قد أشار الشماخي إلى أن المسألة مبسوبة فيه.⁽¹⁷⁾
5. يدرج مسائل فرعية تطرق إليها الأصوليون في مؤلفاتهم، ولم يوردها الشماخي، وذلك في آخر الفصل أو الباب، على شكل فصول، أو تنبيهات، أو فوائد، أو خاتمة، أو استدراك.⁽¹⁸⁾
6. يورد مسائل وقضايا تتعلق بالفنون العلمية الأخرى، كعلم المنطق، وعلم الكلام، واللغة، وعلم الفلك والرياضيات والطب....⁽¹⁹⁾ مستطردا في بيانها وشرحها، جاعلا من كتابه موسوعة علمية شاملة.
7. يحيل القارئ إلى كتبه التي ألفها في مختلف الفنون كلما سنحت له الفرصة. مخافة الإطالة، وبغية تعريف القارئ بكتبه وتشهيرها.
- (2) خصائص منهج القطب في كتابه:
أ. مآخذ منهج القطب في كتابه:
كان كتاب "فتح الله" من بواكير تأليف القطب، التي تميزت بالجمع والتدوين، وإكثار المسائل، على حساب المنهجية العلمية.⁽²⁰⁾
- لذا فقد غاب التحقيق العلمي في ترتيب أغلب مسائل الكتاب وعباراته، وقد تجلّى ذلك فيما يلي:
1. الإطالة والاستطراد في تحليل المسائل، وإيراد الأدلة ومناقشتها، وقد يفصل في مسائل غير أصولية، ولو لم تكن لها علاقة مباشرة بالموضوع، كما هو شأن العديد من المسائل اللغوية، والكلامية للكتاب.⁽²¹⁾
- ولعل غرضه من ذلك أن يكفي طلبته مؤونة البحث، خاصة وأن الكتاب كان مرجع طلبته في تدريس أصول الفقه في معاهده.⁽²²⁾

2. تكرار المسائل، إذ نجده يتطرق إلى مسائل ومواضيع ضمن مباحث لا تشملها، وعلى غير الترتيب المعهود به عند الأصوليين، وعندما يصل إلى حيث يجب ذكرها يتعرض لها ثانية مفصلة، أو يكفي بإيراد ما ذكره سابقا، ويشير إلى تقدم مباحث المسألة.⁽²³⁾
 3. كثرة النقل، والاقتباس من غيره، مع إغفال نسبة بعض الأقوال إلى أصحابها، إذ كان همه جمع ما حوته الكتب التي توفرت لديه في عصره. وهذه سمة التأليف الأصولي المتعارف عليها عند علماء عصره، بل وحتى المتقدمين منهم، ونادرا ما تجد من يلتزم منهم بما يعرف حاليا بالمنهجية العلمية.
 4. التداخل بين الموضوعات، حيث أدرج في كتابه العديد من المواضيع المتعلقة بفنون العلم التي ألفت فيها، ولو لم تكن لها علاقة مباشرة بالباب أو المسألة الأصولية، وهذه هي السمة الغالبة على أكثر تأليفه،⁽²⁴⁾ ويعود ذلك إلى أنه كان يؤلف مجموعة من الكتب في آن واحد.⁽²⁵⁾
- ب. مزايا منهج القطب في كتابه:
- إن ما ذكرناه آنفا من مآخذ على منهج مؤلف كتاب "فتح الله"، لا يمكن أن يحجب عنا تلك المزايا التي اتسم بها، ومن بين هذه المزايا التي وجدناها ونحن نتبع مباحث ومسائل الكتاب نذكر ما يلي:
1. الحرص على تبسيط المسائل وتحليلها، بتحرير محل النزاع، وعرض أقوال العلماء فيها، مقرونة بأدلتها، وذكر الاعتراضات التي وجهت إليها، والمقارنة بينها، ثم ترجيح الصحيح منها بالدليل. ملتزما في ذلك الدقة والوضوح، بعيدا عن الأساليب المعقدة، تيسيرا على القارئ، خاصة طلبته المبتدئين.⁽²⁶⁾
 2. رغم النزعة الكلامية لديه، إلا أنه لم يجمد على منهج المتكلمين في عرض المسائل، بل إننا نجده يحرص على إسقاط القواعد الأصولية على المسائل الفقهية، محيلا إلى مظانها في كتبه الفقهية.⁽²⁷⁾
 3. يعرض جميع آراء المذاهب دون استثناء، محاولا توجيه أقوالهم، وحملها على أحسن وجوهها، أو التوفيق بينها إن أمكن، موظفا في ذلك عبارات لطيفة ومتسامحة، ليس فيها جرح أو تنقيص بعالم.
 4. له استقلالية في الرأي، فيختار ويرجح الأقوى دليلا، ولو خالف في ذلك آراء علماء مذهبه، فكثيرا ما يناقش الشماخي في تعاريفه وأسلوبه، كما يخالفه في آرائه في بعض المسائل الأصولية والكلامية.⁽²⁸⁾

5. استطاع إدراج النصوص التي ينقلها ضمن مباحثها ومسائلها الواردة فيها، والتلفيق بينها، بحيث لا يشعر القارئ بأنها من نسج غيره، إلا بعد التحقيق والتمحيص.

ثانيا: كتاب شامل الأصل والفرع:

1- التعريف بالكتاب وأقسامه:

هو كتاب أصولي فقهي كما يدلّ عليه العنوان، ألفه القطب على طريقة المتقدمين، ووضعه في متناول المبتدئين، فكانت عباراته سهلة، وأدلتها واضحة.⁽²⁹⁾

والكتاب يقع في جزأين ويشتمل على أربعة أقسام أطلق عليها لفظ الكتاب، ثلاثة منها حواها الجزء الأول، حيث خصص الكتاب الأول منه للحديث عن فضل العلم وأصناف العلماء، إضافة إلى بيان أصوله التي اعتمد عليها في الوصول إلى الأحكام الفقهية العملية، كما اشتمل على العديد من المسائل الكلامية والآراء العقدية للإباضية. أما الكتاب الثاني فقد تطرق في أبوابه الأولى إلى مسائل عقدية، ليخصص الأبواب الأخرى للحديث عن سنن الفطرة وبعض الآداب العامة. وأما الكتاب الثالث فقد كان في الطهارات وما يتصل بها كمسائل الحيض والجنائز.

أما الجزء الثاني من الكتاب فقد أفرد للكتاب الرابع الخاص بمسائل الصلاة، والذي تضمن عشرين باباً؛ خاتمة هذه الأبواب كان حول مسألة القصر واتخاذ الوطن، وفيها توقف تأليف القطب.

والكتاب توجد منه نسخ مخطوطة بمكتبات وادي مزاب، وقد قام حفيد أخيه الأكبر أبو إسحاق بطبعه في جزأين.

2- أهمية الكتاب:

تتجلى أهمية الكتاب في كون القطب ألفه في آخر حياته بعد أن بلغ درجة الاجتهاد المطلق كما صرح بذلك في الكتاب بقوله: «...وقد كنت أجتهد بالقياس على أصل إمامي، ولا أكاد أصيب إلا قولاً يوافق ما قلت والحمد لله، ثم انتقلت عن هذه الدرجة إلى ما فوقها والحمد لله...»⁽³⁰⁾ وهذا يدل على أنّ آراؤه الأصولية في كتاب شامل الأصل والفرع هي آخر ما استقرّ عليه اجتهاده الأصولي.

3- المباحث الأصولية في الكتاب:

احتلت القضايا الأصولية الباب الخامس والسادس والسابع والثالث عشر والرابع عشر من الكتاب الأول.

وقد عنون الباب الخامس منه بأصول الدين ويقصد به مصادر التشريع الأصلية من قرآن وسنة وإجماع وقياس، فتحدث عن السنة كمصدر تشريعي أصلي جاحده مشرك، يقبل من

أحاديثها ما وافق القرآن، وكذا ما أجمع عليه.⁽³¹⁾

كما بين رأيه في بعض المباحث المتعلقة بأصل الإجماع، من ذلك أنه لا يرى اعتبار العوام في انعقاد الإجماع، ولا يشترط انقراض عصر المجتهدين لانعقاده. كما صحح حجّة الإجماع السكوتي.⁽³²⁾

أما القياس فلم يقطع عذر المخالف فيه،⁽³³⁾ وصحح القول بحجّيته، واستدل على حجّيته بالقرآن والسنة وبعمل الصحابة، كما حمل الآثار الواردة عن الصحابة في إنكار القياس على القائس عند ورود النص.⁽³⁴⁾

أما الباب السادس منه فقد خصصه لمسائل الاجتهاد والفتيا، من ذلك أنه يرى أن الحجة مع الواحد إذا كان الحق معه، وأن من بلغ درجة الاجتهاد لا يجوز له تقليد غيره، وأما غير المجتهد فلا يجوز له أن يقيس مسألة على أخرى ولو تشابهتا لأنه لا يأمن الخطأ.⁽³⁵⁾

كما يرى أنه لا يجب الأخذ بالرخص إلا ما كان مجمعا عليه أو متعينا؛ كأكل ميتة أو لحم خنزير لا ضرار بمخمصة.⁽³⁶⁾

وبعد ما تطرق إلى مسائل حول علاقة المفتي بالمستفتي وما يجوز له إتباعه فيه، كما بين الحالات التي يقطع فيها عذر المستفتي فيما تبع فيه المفتي، وقد شدد في الأخذ بقول المخالف،⁽³⁷⁾ خلافا لما سيأتي ذكره في بعض أجوبته، وربما يعود ذلك إلى أن هذا الكتاب وجهه أساسا للمبتدئين - كما صرح بذلك - خلافا للأجوبة التي كان يرسل بها فطاحل العلماء. واختتم الباب ببيان بعض آداب المفتي.⁽³⁸⁾

وأما الباب السابع فقد بين فيه بعض مسائل التقليد. فاعتبر قبول القول بدليل منزلة بين التقليد والاجتهاد سماها: "تقييدا".⁽³⁹⁾

وأما الباب الثالث عشر فقد خصصه لذكر اختلاف الأصوليين في حد المحكم والمتشابه، مع التمثيل لكل منهما. ثم بين فائدة ورود المتشابه في القرآن الكريم.⁽⁴⁰⁾

وفي الباب الرابع عشر تطرق إلى ذكر القواعد المتعلقة بالأمر والنهي، فذكر أن الأمر إذا تجرد عن قرينة فهو عنده للوجوب وللفور، وأن النهي المجرد عن القرينة للتنجيز.⁽⁴¹⁾

4- منهجه في ترتيب مواضيع الكتاب:

- لم يخرج القطب عن المناهج والأساليب القديمة في هذا الكتاب على غرار أكثر تأليفه، غير أن الملاحظ في منهجه في هذا الكتاب أنه قد تطور مقارنة بكتابه شرح النيل؛ إذ تميز بالاختصار والوضوح بعد أن كان يعتمد على الجمع والتدوين.⁽⁴²⁾

- إلى جانب تمكّنه في المذهب الإباضي، نجد القطب من خلال كتابه أنه كان مطلعا على

تراث المذاهب الأخرى اطلاعا واسعا، وكان لا يرى بأسا من الأخذ من كتب غير الإباضية، فيعرض أقوالهم بكل أمانة، وقد يرجح مذهبهم على مذهب أصحابه، فإنه يرى أن في كل مذهب راجحا ومرجوحا.⁽⁴³⁾

ثالثا: رسائل وأجوبة أصولية:

وتتمثل في مجموعة من الرسائل التي كانت ترد إليه من علماء ومشائخ الإباضية في ربوع العالم الإسلامي، وبخاصة منهم علماء عمان؛ إلى جانب بعض الأجوبة لعلماء أهل زوارة بليبيا.⁽⁴⁴⁾

وكان لا يتوانى في الإجابة عن أي مسألة ترد إليه، لأنه يرى في ذلك تحملا لواجب الاجتهاد الكفائي عن الأمة، رغم ما كان يعاني منه من شظف العيش وارتفاع تكاليف النسخ.⁽⁴⁵⁾ وقد عكف الإخوة في مؤسسة الشيخ عمي سعيد مؤخرا على جمع شتات هذه الأجوبة وتحقيقتها وترتيبها في سفر لتكون في متناول أيدي الباحثين والدارسين.

وفي هذا الكم الهائل من المراسلات أخذ علم الأصول نصيبه الوافر من خلال أجوبة عن بعض القضايا الأصولية والقواعد العامة، أو بعض المسائل الجزئية في دلالات الألفاظ، إضافة إلى مسائل تتعلق بأصول الاجتهاد وشروطه.

1- أجوبة في الاجتهاد والفتوى وشروطهما:

فبين من خلال مجموعة من الرسائل شروط بلوغ درجة الاجتهاد وأنه لا يجوز لمن لم يبلغ هذه الدرجة أن يقول برأيه. كما تطرق إلى الخلاف في حكم من قال في المسألة برأيه من دون اجتهاد ووافق الحق، ورجح هلاكه مستدلا لما ذهب إليه بأدلة من القرآن والسنة والمعقول. وفي رسالة أخرى بعثها إلى السالمي أجاز فيها لمن لم يبلغ درجة الاجتهاد إن كان ممن قرأ الكتب على شيخ أن يفتي بما نص في الكتب.⁽⁴⁶⁾

ويظهر لنا من خلال جواب له عما يتعين على المجتهد طلبه من فنون العلم عباراته المتسامحة مع مذهب المخالف حيث يقول لسائله: «فإنه يجوز تقليد من عرف بالعلم ولم يعلم منه خيانة في العلم ولو مخالف...»⁽⁴⁷⁾

وفي سؤال ورد له في حكم الأخذ بروايات قومنا وقبول الفتوى عنهم ونقل العلم من كتبهم أجاب بما يدل على سعة اطلاعه وعدم جموده على رأي مذهبه، مبينا منهجه في النقل عن الغير، فقال: «...ولا أذكر من كلام القوم إلا ما لا بأس به ولو وجد في مذهبنا ما يخالفه، إذا كان له وجه صحيح ظاهر لا تكلف فيه، وربما رجحته على ما في المذهب لقوته بأدلة وجدها؛ لأن القول بالحق واجب مع الحبيب والبغض...»⁽⁴⁸⁾.

بل يرى أن يذكر ما ترجح من أقوال الغير على أقوال المذهب ولو من دون نسبة لأصحابها حتى لا يرتاب القارئ بذكر اسم العالم، حيث يقول: «إذا كانت المسألة راجحة من مذهبهم ولو لم تذكر في مذهبنا هي حق، فذكرها بلا نسبة إليهم أولى؛ إذ تراب بذكرهم وليست باطلة. وفي القرآن ﴿الْحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ﴾⁽⁴⁹⁾ وما بعد الحق إلا الضلال، والحق يقبل من كل من جاء به ولو مشركا...»⁽⁵⁰⁾ ويقول: «ومن العجيب أن تكون المسألة حقا فترك لأنها جاءت من مخالف هذا غلو واذكروا قوله تعالى في غير أهل القبلة: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ﴾⁽⁵¹⁾». ⁽⁵²⁾

2- في الحكم الشرعي، ودلالات الألفاظ:

ثمة أجوبة أخرى عن مسائل أصولية نذكرها من غير تفصيل منها: ⁽⁵³⁾

- في جواب له لأهل زوارة تحدث عن الواجب فيما لا يتم الواجب إلا به هل يدخل في الواجب لفظا أم التزاما، مستعرضا أقوال الأصوليين في المسألة، ومستشهدا ببعض الفروع الفقهية المخرجة على القاعدة. ⁽⁵⁴⁾

- وفي جواب له عن تعريف الدليل والشرط بين فيه للسائل الفرق بين السبب والعلة، وذكر أمثلة توضيحية في فقه الأحوال الشخصية. ⁽⁵⁵⁾

- وفي جواب لعلماء أهل زوارة فيما ذهبوا إليه من أن النوافل مأمور بها، بين حقيقة الأمر، وساق مختلف آراء علماء الأصول في دلالة الأمر المطلق. ⁽⁵⁶⁾

- كما أشار في أحد أجوبته إلى حجية خبر الآحاد وتقديمه على المفاهيم عند التعارض، وأنه لا حجة لمفهوم اللقب. ⁽⁵⁷⁾

الخاتمة:

ينتمي القطب إلى المدرسة الإباضية، التي تأخر علماءها في التدوين، إذ لم يهتموا به في القرون الأولى، وإنما وجهوا جهودهم إلى التفريع. وقد أثرى القطب المكتبة الإسلامية بكتبه النفيسة في فنون العلم المختلفة، فشكل بذلك حلقة مهمة في التجديد الفكري الإباضي، بمنهجه المتميز في التأليف، الذي واكب فيه التطور الذي شهده التأليف.

ورغم أن أصول الفقه لم يحظى بالنصيب الأوفر في هذا النتاج، إلا أن قيمة ما صنف فيه تحمل الدارسين والباحثين على توجيه جهودهم لسير أغواره واستخراج كنوزه، خاصة إذا علمنا أن أغلب مؤلفاته لا يزال مخطوطا، مرتعا للأرضة، يترقب اللحظة التي يخرج فيها، فيرى النور على أيدي الغيورين.

الهوامش:

- (1)- وتن: آراء الشيخ اطفيش العقديّة، 1996م، ص 480-497.
- (2)- القطب: كشف الكرب، 1985م، 1/6-7.
- (3)- التواجيني: تحقيق شرح مختصر العدل، 1990م، (القسم الدراسي)، ص 74.
- (4)- الشماخي: شرح مختصر العدل والإنصاف، (مخ)، 1ظ.
- (5)- باجو: أبو يعقوب الوارجلاني وفكره الأصولي، 1995م، ص 160.
- (6)- الشماخي: شرح مختصر العدل، (مخ)، 1ظ.
- (7)- باجو: المرجع السابق، ص 162.
- (8)- القطب: مجموع رسائل للقطب، مكتبة القطب، أز: 2/9، 30.
- (9)- دبوز: نهضة الجزائر، 1965م، ج 1/ص 373.
- (10)- القطب: الذهب الخالص، 1998م، (مقدمة أبي إسحاق)، ص 11.
- (11)- القطب: شرح النيل، (مط)، 1973م، ج 1/ص 64.
- (12)- أبو اليقظان: سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، 1956م، ج 1/ص 37.
- (13)- القطب: فتح الله، (مخ)، 1/23 و، 2/2ظ، القنوان الدانية، 1314هـ، ص 8.
- (14)- القطب: فتح الله، (مخ)، 2/85 و، 104 و.
- (15)- المصدر نفسه، (مخ)، 1/90 و.
- (16)- المصدر نفسه، (مخ)، 1/92 و.
- (17)- المصدر نفسه، (مخ)، 1/35 و-35ظ.
- (18)- المصدر نفسه، (مخ)، 2/82 و-83ظ، 3/98ظ-101ظ، 119ظ-120 و.
- (19)- المصدر نفسه، (مخ)، 1/8ظ-9ظ، 1/6ظ-8ظ، 27 و، 39 و-44 و، 84 و-84ظ، 53ظ-62ظ. 2/72 و-82 و.
- (20)- القطب: كشف الكرب، 1985م، ج 1/ص 12.
- (21)- من ذلك: المقولات العشر، 1/24ظ-26ظ، مسألة ثبوت اللغة بالقياس، 1/91ظ-98ظ، خطاب المعدوم، 2/25ظ-27 و، التحسين والتقيح العقليين، 2/53ظ-83ظ، عصمة الأنبياء قبل بعثتهم، 2/92ظ-97 و، أنواع الاستفهام، 3/105 و-108ظ.
- (22)- دبوز: نهضة الجزائر، 1965م، ج 1/ص 373.
- (23)- القطب: فتح الله، (مخ)، 2/9ظ، 2/127ظ، 3/104 و، 3/104ظ، 3/160 و.
- (24)- بوتردين: الشيخ اطفيش ومذهبه في تفسير القرآن، 1989م، ص 63.
- (25)- أبو اليقظان: ملحق السير، ج 2/ص 157.
- (26)- وقد يستعمل بعض الأشكال والرسوم لمزيد توضيح وبيان، ينظر: القطب: فتح الله، (مخ)، 1/45 و-45ظ، 79ظ، 84ظ.
- (27)- القطب: المصدر السابق، (مخ)، 2/106 و، 134ظ، 143ظ، 3/147ظ.
- (28)- المصدر نفسه، (مخ)، 1/23 و-23ظ، 2/63ظ، 139 و، 3/136 و.

- (29) - ينظر: القطب: شامل الأصل والفرع، 2006م ج1/ص2.
- (30) - القطب: شامل الأصل والفرع، 2006م، ج1/ص13.
- (31) - ينظر: المصدر نفسه، ج1/ص9
- (32) - ينظر: المصدر نفسه، ج1/ص9-10
- (33) - ينظر: المصدر نفسه ج1/ص9.
- (34) - ينظر: المصدر نفسه، ج1/ص10.
- (35) - ينظر: المصدر نفسه، ج1/ص14.
- (36) - ينظر: المصدر نفسه، م.ن.
- (37) - ينظر: المصدر نفسه، ج1/ص15-16.
- (38) - ينظر: المصدر نفسه، ج1/ص17-18.
- (39) - ينظر: المصدر نفسه، ج1/ص18.
- (40) - ينظر: القطب: شامل الأصل والفرع، ج1/ص48-51.
- (41) - ينظر: المصدر نفسه، ج1/ص51-52.
- (42) - أعوش: قطب الأئمة، 1989م، ص161.
- (43) - القطب: كشف الكرب، 1985م، ج1/ص93
- (44) - ينظر: المصدر نفسه، 1985م، ج1/ص161-170، 220-222، 229، ج2/ص10.
- (45) - ينظر: المصدر نفسه، ج1/ص6، 8
- (46) - ينظر: المصدر نفسه، ج1/ص81-82، 86.
- (47) - ينظر: المصدر نفسه، ج1/ص88.
- (48) - ينظر: كشف الكرب، ج1/ص90.
- (49) - يونس35
- (50) - ينظر: القطب: المصدر نفسه، 1985م، ج1/ص91.
- (51) - المائدة8.
- (52) - ينظر: المصدر نفسه، ج1/ص95.
- (53) - ينظر غيرها في: المصدر نفسه، ج1/ص231، 235، 241.
- (54) - ينظر: المصدر نفسه، ج1/ص225-226.
- (55) - ينظر: المصدر نفسه، ج1/ص250-251.
- (56) - ينظر: المصدر نفسه، ج1/ص229-230.
- (57) - ينظر: المصدر نفسه، ج1/ص231.

مختصرات الشيخ أطفيش وفي التأليف الفقهي، كتاب =الذهب الخالص= لهو

محمد حمدي

جامعة الحاج لخضر باتنة

مقدمة

يعتبر الشيخ أطفيش -رحمه الله- عالما موسوعيا لكثرة التأليف التي صنفها ولتنوع الموضوعات التي كتب فيها، منها العقيدة والفقه والتاريخ والطب واللغة وغيرها، ومما ساعده على ذلك أنه وهب حياته كلها للعلم تدريسا وتأليفا، فلم تلهه مناصب الدنيا ووظائفها، فإلى جانب إنتاجه الموسوعي المطول صنف في المختصرات، منها كتاب "الذهب الخالص المنوّه بالعلم القاص" الذي اختصر فيه مسائل العقيدة والفقه والحقوق من كتابي: "قواعد الإسلام" للشيخ الجيطالي، و"الحاشية" للشيخ أبي ستة. ولهذا المختصر خصائص تميز بها، منها أنه اعتمد فيه منهج المقارنة بين مختلف آراء فقهاء المذاهب الإسلامية. وفي هذه الورقة إطلالة على هذا السفر الهام الذي أجادت به قريحة الشيخ، فقد استطاع أن يُصنف المؤلفات الموسعة شارحا ومحللا ومبدعا، مثل شرحه لكتاب النيل للشيخ عبد العزيز الثميني في سبعة عشر مجلدا كاملا، كما أنه صنف في المختصرات، فلخص المجلدات المطولة في سفر واحد مثل ما قام في الكتاب الذي هو بين أيدينا. وهذا ما يُعبر عن عبقرية الشيخ وتحكمه لآليات الكتابة والتأليف. نبذة عن حياة الشيخ أطفيش -رحمه الله-

في ظل أوضاع فكرية واجتماعية وسياسية متردية عايشها العالم الإسلامي وعلى المستوى الإقليمي والمحلي من القرن التاسع عشر الميلادي ولد وعاش وترعرع شيخنا الشيخ أطفيش امحمد بن يوسف بن عيسى بن صالح، وتلقب أسرته بلقب "أطفيش"، واشتهر عند الإباضية بلقب "القطب"، وأما عن تاريخ مولده هو سنة 1238 هـ/1821م بمدينة "غرداية" حيث كان يقيم والده مؤقتا، أما أصله فهو من "بني يزقن"، نشأ حياة اليتيم والفقر والحاجة في بداية حياته تحت رعاية أمه التي كانت له الأثر البالغ في تكوينه وتعليمه إلى جانب إخوته (وتسن مصطفى، 1998، ص23).

حياته العلمية: تنوعت وتعددت مصادره تكوينه وتعلمه، منها ما يعود إلى نسبه، ومنها ما كان

بالتردد على المشائخ ومنها ما يعود إلى عصامية الشيخ وجهده الذاتي، هو العامل الأساس في تكوينه، فالإنتاج الذي تركه لا يعادل المحيط الذي يعيش فيه والظروف التي عرفها من نقص في المشائخ وفي الكتب، إلا أن المواهب التي حباها الله بها والطموح والرغبة في العلم جعلته يشمر عن ساعد الجد من أجل تجديد الدين والمذهب، فقد راعه وآلمه واقع الأمة الإسلامية فيما تعيشه من جهل وجمود وتخلف وتفكك وتسلب استعمار بغض على مقدراتها، فرأى ألا سبيل من الخروج من هذه الوضعية إلا بالعلم، فانكب على التحصيل والتعلم والتكوين آملاً أن ينتشل أمته ومجتمعه ويكون مجدد عصره فأنشد قائلاً:

واني لأرجو أن أكون المجددا لدينك يارب ويا مظهر الدخر

اتخذ الشيخ التدريس رسالته في الحياة، وجلس للتعليم ولما يتجاوز السن الخامسة عشر من عمره فأفنى عمره المديد في سبيل ذلك، وجعل من داره معهداً يؤمه التلاميذ والطلبة من كل قرى وادي ميزاب وترك تلاميذ أكثر حملوا لواء التربية والتعليم والاصلاح من بعده. أما عن آثاره العلمية فهي غريرة ومتنوعة حتى أنه يصعب حصرها وإحصائها، وقد حدها أحد الباحثين بخمسة وثلاثين ومائة أثر منها الكتب والرسائل ما عدا المراسلات، (وتن مصطفى، 1998، ص64) ومن أهم أشهر مؤلفاته على الإطلاق كتاب "شرح النيل" الذي يعد المرجع الأساس للفقهاء الإباضي في الوقت الحاضر.

التعريف بالكتاب "الذهب الخالص المنوه بالعلم القالص"

اختار الشيخ عنوان كتابه "الذهب الخالص المنوه بالعلم القالص" قلص بمعنى ارتفع واجتمع وعلا وبُعد وانضم وذهب ونقص وقلّ، وهو من الأضداد. يقول صاحب لسان العرب "قلص الشيء يقلص قلوصاً تداني وانضم وفي الصحاح ارتفع، وقلص الظل يقلص قلوصاً، انقبض وانضم وانزوى. وقلص الماء يقلص فهو قالص وقليص ارتفع في البئر، والقلص: كثرة الماء وقلته وهو من الأضداد (ابن منظور، 2004، ص175)

ومن المعنى اللغوي ندرك مفهوم الشيخ ومراده فيقول أبو إسحاق "محقق الكتاب": يحتمل أن يريد الإمام بالقالص الكثير المتداني والمنوه أي الرفيع الشأن، ولا شك أن علم الشريعة من أرفع العلوم شأنًا إذ به يتقرب العبد إلى الله تعالى، ويحتمل أن يريد بالقالص الداهب، وهو الإشارة إلى أن علم الفروع تقلص أي ذهب وترك العمل به" (أطفيش امحمد، تعليق، أبو إسحاق، 1980/1400، ص2). أرى أن المفهوم الأول أولى بالإعتبار والأقرب في التأويل لأن العلوم الشرعية حقاً هي أرفع العلوم وأسماءها، وكأنه يقصد "بالذهب الخالص" الأصل والأساس الأول في العلم الشرعي الذي لا يستغني عنه أي مكلف .

ويحدثنا الشيخ عن أصل الكتاب فيقول "فهذا الكتاب يجمع القواعد والحاشية مختصراً"

(نفسه، المرجع السابق) ويقصد بالقواعد: كتاب "قواعد الإسلام" للإمام أبي طاهر اسماعيل بن موسى الجيطالي وهو من علماء الخمس الثانية للقرن السابع والأولى من القرن الثامن، ترك مؤلفات كثيرة أحى بها المذهب الإباضي منها كتاب "قواعد الإسلام" الذي اختصره الشيخ، ومنها كتاب "قناطر الخيرات" ومنها شرح النونية في أصول الدين على قصيدة الشيخ أبي نصر فتح بن نوح التمولوشاني وغيرها كثير، توفي -رحمه الله- بجزيرة بالقطر التونسي سنة: 750هـ (الجيطالي، اسماعيل بن موسى، 1400\1980، ص 5)

ويقصد الشيخ بالحاشية: "الحاشية على كتاب القواعد للشيخ أبي ستة محمد بن عمر القصبي الجربي من علماء القرن الحادي عشر المشهور عند إباضية المغرب بـ "المحشي" لكثرة حواشيه التي قيل أنها بلغت نيفاً وعشرين حاشية وقد جمع مؤلفاته أحد أبرز تلاميذه وهو علي بن سالم بن بيان، توفي في 1088هـ/1679م (جمعية التراث، معجم أعلام الإباضي، 1999، مج 4، ص815).

يذكر الشيخ ما أضاف إليه إلى جانب اختصاره للكتابين أن فيه زيادة من عنده يصل إلى ثلث الكتاب، ثم يُعدّ هذه الإضافات:

أ- تحرير المسائل التي أشار إليها المحشي إلى تحريرها وإثباتها.

ب- ذكر ما خالف الشيخ في بعض المسائل التي يرى فيها رأيه.

ج- إحالة ما يتعلق بالآيات القرآنية إلى تفاسيره، خاصة "هميان الزاد".

د- تصحيح غير المصحح من الآثار.

يؤنّه الشيخ بفضل الشيخ أبي ستة "المحشي" فقد كفاه مؤونة كثيراً من المسائل وتفرغ هو لما لم يذكره.

ومما يضيفه الشيخ في هذا المختصر ويتميز به تميزاً واضحاً هو اعتماده على المنهج المقارن بين مختلف المذاهب الإسلامية في ذكر أية مسألة من مسائل الكتاب ورمز لكل إمام مذهب برمز معين (الميم) للإمام مالك و(الشين) للإمام الشافعي و(الحاء) للإمام أبي حنيفة، ولم يعتمد قول ورأي الإمام أحمد بن حنبل، ربما لعدم توفر مصادر هذا المذهب لديه. أما ما لم ينسبه إلى تلك المذاهب ولم يحكيه بقليل، فهو مذهب معشر الإباضية، وأما إذا رأياً يخصه رمز له بـ (التاء).

طبع الكتاب والتعليق عليه

قام بطبع الكتاب والتعليق عليه تلميذ المؤلف، حفيد أخيه وشيخه، أبو إسحاق إبراهيم بن الحاج محمد أطفيش المولود ببني يزقن سنة: 1886 م ففتح عينيه يحفه وقار العلم وجلاله، إذ

يكفيه شرفاً أن يكون عمه القطب أحد أولئك الذين حفوه بالرعاية والتوجيه والتعليم، ثم توجه إلى تونس للإستزادة من زاد العلم والمعرفة ثم نُفي إلى أرض الكنانة، مصر، بسبب نشاطه السياسي وموقفه من الاستعمار الفرنسي الجاثم على أراضي المغرب العربي آنذاك، (محمد ناصر، 1992/1413، ص20) وفي القاهرة تألق نجمه ووجد الجو المناسب لمواصلة نشاطه الفكري والسياسي، وقد اهتم بتحقيق ونشر التراث الإسلامي عامة والإباضي خاصة، وساعده على ذلك طبيعة عمله بدار الكتب المصرية، فقام بطبع كتاب "الذهب الخالص" والتعليق عليه فأخرج هذا السفر إلى النور في ربيع الأنوار سنة 1343 هـ.

وقد أعيد طبع الكتاب طبعة ثانية بمطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، سنة: 1400هـ/1980م، بمبادرة من أحد تلاميذ الشيخ غير مباشرين وهو الأستاذ: ابراهيم طلاي، الذي بذل جهده لتكون هذه الطبعة أكثر تنظيماً وأشد إتقاناً مع إصلاح ما يرى اصلاحه، فيقول في حق هذا الكتاب "وقد حفزني إلى إعادة طبع الكتاب -مع كثرة ما كتب في الموضوع- ما يمتاز به من الجمع والاحتواء على أتم ما قاله علماء الشريعة الإسلامية في الأركان الخمس وآداب السلوك والمعاملات من مختلف المذاهب الإسلامية دون الاقتصار على المذهب الإباضي كما يتبادر إلى الأذهان، فهو يسوق الأقوال ويبحث في الأدلة ويقارن، ولا ييحل قول عالم دون أن يكون الدليل يعضده والحجة تقوم له، فالكتاب من هذا الجانب سلك المسلك الحديث في دراسة الفقه بالمقارنة بين أقوال أصحاب المذاهب والآراء الفقهية، انطلاقاً من مبدأ أن اختلاف المذاهب في الإسلام ثروة علمية، لا شرارة فتنة ومدعاة انغلاق وتعصب" (محمد أطفيش، 1980/1400، ص:هـ).

وقد طبع طبعة ثالثة بمكتبة الضامري للنشر والتوزيع، السيب، سلطنة عُمان سنة 1419 هـ/1998، بدون أية تعليقات أو إضافات تذكر

عرض الكتاب

يشتمل كتاب "الذهب الخالص" على سبعة أركان كما سماها ووضعها الناشر الثاني الأستاذ ابراهيم طلاي، موزعة كمايلي:

الركن الأول: في معرفة الله وتوابعها، من صفحة 3 إلى صفحة 80، حوالي ثمانون صفحة.
الركن الثاني: في الصلاة وتوابعها، من صفحة 80 إلى صفحة 216، حوالي مائة وثلاثون صفحة.

الركن الثالث: في الزكاة: من صفحة 216 إلى صفحة 240، حوالي أربع وعشرون صفحة.
الركن الرابع: في الصوم من صفحة 241 إلى صفحة 261، حوالي عشرون صفحة.
الركن الخامس والسادس: في الحج والعمرة، من صفحة 262 إلى صفحة 290، حوالي

ثلاثون صفحة.

الركن السابع: في الحقوق والمظالم والمحارم والآداب، من صفحة 291 إلى صفحة خمسون صفحة.

فالكتاب جمع بين العقيدة وأصول الدين وفقه العبادات والحقوق والمظالم والآداب، وهي مسائل أساسية وضرورية لكل مكلف لا ينبغي الاستغناء عنها، وأحسب أن الشيخ قصد من تصنيفه هذا الإقتصار على أولويات وأبجديات الدين الإسلامي، لذلك لم يتعرض لفقه المعاملات والفرائض والدماء والأحكام غيرها من أبواب الفقه وترك ذلك للمطولات من تصنيفه، كما لا ننسى أن الشيخ ملتزم باختصار مصنفات غيره فلا يمكنه الخروج عما ورد فيها.

قسّم المصنف مساحة الكتاب حسب أهمية كل باب (ركن)، فالعقيدة التي استهل بها كتابه تناولها في ثمانين صفحة، أي ما يقارب رُبع الكتاب الذي يشتمل على حوالي أربعين وثلاث مائة صفحة، وبعدها تطرق لفقه العبادات الذي نال الحيز الأكبر وأعطى منه لفريضة الصلاة حصة الأسد لأهميتها ومكانتها بين سائر الفرائض فشغلت حوالي ثلاثين ومائة صفحة أي أكثر من ثلث الكتاب، أما بقية الأركان: الزكاة والصوم والحج والعمرة فهي متقاربة في حجمها وحيزها من الصفحات، ونال الباب الأخير: الحقوق والمظالم والآداب الذي جمع مباحث عدة، عرضها مختصرة باعتبار بقية المباحث الأخرى.

ففي الركن الأول رسم معالم عقيدة المسلم ومعرفة خالقه ومبدعه والإيمان بكتبه ورسله وحدّد مفهوم الشرك والتوحيد، ثم أفاض في مبحث الولاية والبراءة والوقوف لما لهذه المسائل من مكانة خاصة في مباحث العقيدة عند الإباضية، ثم استعرض قواعد الدين الأربعة وهي العلم والعمل والنية والورع.

الركن الثاني استهله بأحكام الطهارات والنجاسات ثم الوضوء وأحكامه والاعتسال والتيمم وعرّج على أحكام الحيض والنفاس، وكل هذه المسائل بمثابة المقدمات للصلاة، إلى أن وصل إلى صلب موضوع الصلاة فذكر شروطها وأركانها ونواقضها وصلاة الإقامة والسفر، بعدها تناول صلاة الجماعة والجمعة وثانها بذكر أحكام صلاة الميت والصلوات المسنونة والرواتب والنوافل.

وفي الركن الثالث لخص أحكام فريضة الزكاة بذكر مشروعيتها والأصناف الزكوية ونصاب كل منها وما يستثنى من الزكاة، ومن هم الأصناف التي تجب عليهم الزكاة ومن هم المستحقون من الزكاة وشروطهم وأسلوب توزيعها، وختم الباب بذكر زكاة الفطر وأحكامها.

وفي الركن الرابع استعرض مفهوم الصوم ومشروعيته وبما يتحقق بداية الصيام وذكر أركان الصيام من نية وشهود الهلال وغيرها وعرّج على شروطه ومكروهاته ومبطلاته ومسوغات الإفطار

من رمضان كالسفر والمرض، وخصص مبحثا للإعتكاف وفضله.

وفي الركن الخامس والسادس تناول فريضة الحج والعمرة، استهله بمشروعية الحج وعلاقته بالعمرة وثناه بشروط الاستطاعة ووقت الحج ومواقيته وأركانه المعروفة والنحر والهدي وغيرها من أحكام الحج، و أرى أنه لا ضرورة منهجية تميز بين الحج والعمرة، فكان من الأولى بالناشر وضعهما في باب واحد.

وفي الركن السابع والأخير جمع المصنف فيه عدة أبواب مبتدئا بالحقوق وعلى رأسها حقوق الوالدين والأولاد والزوجين متدرجا إلى حقوق جميع المسلمين ورد المظالم وتكلم عن الديات والقصاص، منتهيا بحقوق الحيوان، ثم انتقل إلى الكبائر ووعيدها وختم الباب بالأداب العامة منها آداب الأكل واللباس والجماع وانهى الباب بحكم ماثورة في الأخلاق والاجتماع.

تلكم هي أهم محاور الكتاب والتي أراد شيخنا من ورائها إعطاء لمحة موجزة عما ينبغي أن يُعلم من الدين بالضرورة.

خصائص الكتاب

يتميز الكتاب -الذي بين أيدينا- بخصائص تجعله جديرا بأن يكون محل اهتمام الدارسين والفقهاء، ويمكن إجمال ذلك في أربعة خصائص هي:

أ- غزارة المادة الفقهية العلمية.

ب- الأسلوب السلس الواضح.

ج- اعتماده على المنهج المقارن.

د- عدم الاستطراد والاحالة والاستشهاد.

أ- غزارة المادة الفقهية العلمية، فالقارئ يشعر أنه أمام فيض من المعلومات مركزة تساق إليه، فهو بمثابة وجبة دسمة غنية بالفيتامينات والمقومات، يغني القليل منها، فقد حاول أن يستوعب كل المعلومات والمسائل المحتواة في كتابي القواعد والحاشية في عبارة مختصرة غير مخللة ولا مطولة، فقد لا يستطيع القارئ العادي فهمها، مما قد يضطر اضطرارا للعودة للمطولات.

ب- الأسلوب السلس الواضح، لقد اختار المصنف في هذا الكتاب لغة أقرب ما تكون إلى السهولة واليسر بحيث يتمكن القارئ العادي من قراءته متى توفرت له خلفية فقهية ودربة على التعامل مع المصنفات الشرعية، ولو أجرينا مقارنة بين اللغة التي وظفها الشيخ في الكتاب مع شرح النبل لألفينها أبسط وأوضح، فلم أجد لذلك تفسيرا إلا أن الشيخ أراد من مصنفه هذا الجمهور العريض من القراء، لكونه هو الأساس والقاعدة التي ينبغي على كل مسلم الإلمام بها.

ج- اعتماده على المنهج المقارن، هذه أهم ميزة تميز بها هذا الكتاب، وظهر ذلك جليا في الجانب الفقهي أكثر منه في الجانبين الآخرين: العقدي والحقوق والآداب، فوجد الشيخ يذكر المسألة ويبين فيها قول المذهب الثلاثة التي اعتمدها وهي المالكية والشافعية والأحناف، ولم يورد أقوال المذهب الحنبلي لعدم توفر مراجعه لديه حسب ما أرى، ورمز لكل من المذاهب الثلاثة برمز ذكره في المقدمة فجعل حرف (الم) للمذهب المالكي، وحرف (الشين) للمذهب الشافعي وحرف (الحاء) للمذهب الحنفي، فتجده أحيانا يذكر تطابق الأقوال بين مذهبين واختلاف مذهب آخر وتفرد برأي، فيقول في مسألة في صلاة السفر مثلا: "ويجوز أن نقول فرضت أربعاً ثم قصرت حتماً إلى الركعتين والتقصير في سفر التقرب. أو فيه أو في السفر المباح والمكروه (نا) و(م) و(ش) وهو(ص)" (محمد بن يوسف أطفيش، 1980/1400، ص146) وهذا يعني أن القول قال به الإباضية والمالكية والشافعية وهو الصحيح.

د- عدم الاستطراد والإحالة والاستشهاد: إن طبيعة هذا المصنف كونه مختصرا يستلزم عدم الاستطراد في المسألة حفاظا على حجم الكتاب وهدفه، كما أنه لا يغوص في الاستدلال بالأدلة كما هي عادة الفقهاء في مصنفاتهم إلا قليلا، بل يكتفي بذكر الرأي الذي يراه أو يسوق آراء غيره مجردا من الدليل، فمن أراد اشفاء غلبه من البحث والتقصي فليعد إلى الموسوعات والمطولات. مما يجعلنا اعتبار الكتاب أقرب إلى المتن والأحكام النهائية، وهو في هذه الميزة يشبه كتاب "الوضع" لأبي زكرياء يحيى بن أبي الخير الجناوي، الذي يعد بدوره من أهم المراجع المختصرة في الفقه الإباضي، إلا أن مصنفنا أشمل وأوسع والذي يجتنب إلى النهج المقارن الذي يوجد له أثر في كتاب الوضع.

نماذج من نصوص الكتاب

لقد وقع اختياري على ثلاثة نصوص موجزة من الكتاب لتكون نماذج لمحتويات الكتاب، واخترت النص الأول من محور العقيدة والنص الثاني من فقه العبادات والثالث من الحقوق والآداب.

النص الأول: يقول المصنف في الاعتقاد بالبعث والنشور: "يجب اعتقاد البعث والمبعوث هو الأجساد الفانية بعينها(نا) -يعني عندنا معشر الإباضية- وعند الجمهور، أو أجسام مثلها وهو باطل (ق)-على قول- فيعاد ما فني بعينه. أو مثله القولان ويؤلف ما تفرق وبقي وذلك مبني على أن الفناء إنما يعم الحياة لا الأجسام كما قيل بقاء العرش وعلى أن الهلاك في الآية يشمل العدم المحض والموت تفرق الأجزاء، وذكر الشيخ عن أبي يعقوب في الدليل أنه لم يأت خبر في فناء العرش والسموات والأرض فإن فنيت عادت وإن لم تفن بقيت إلى المحشر وجاز فناؤها وإن العلماء استبعدوا قول من يقول أن العرش وما دونه والسموات والأرض تفنى وتعدم كحالها في

الأزل. " (محمد بن يوسف أطفيش، 1980/1400، ص14)

ففي هذا النص يقرر المصنف الاعتقاد بعث الأجساد الفانية بعينها، إذ أجمع المسلمون على وقوع البعث، إلا أن الجدل كان في شأن المحشور: هل هي الأجساد التي كانت في الحياة الدنيا؟ وقد عرف عن الفلاسفة خاصة أنهم يستبعدون حشر الأجساد بذاتها لأنها قد فُتيت، وإنما الحشر هو حشر الأرواح لأنها خالدة. فرد الشيخ على هذا القول ردا قويا واعتبره باطلا، ويذهب الشيخ أن الحشر يكون للأجساد والأرواح معا، والأجساد هي ذاتها التي كانت في الحياة الدنيا، وإذا تفرقت جمعها الله تعالى. وهذا قول الإباضية وجمهور فقهاء المذاهب الإسلامية.

فعلى المسلم المكلف أن يعتقد بذلك ويجزم به وهو الثابت بالنصوص القطعية، أما ما قيل عن فناء العرش والسموات والأرض ففيها أقوال فلا يكلف المؤمن بالقطع والجزم فيها.

النص الثاني: يقول المصنف في مقدمته عن فريضة الزكاة "وجبت بلا حد بمكة وحدت بطيبة، فيثابون على القبول والاذعان والاستعداد ولم تجب عليهم قبل أن تُحد ولا تكليف بما لا يطاق في ذلك، ولا تأخير بيان عن وقت الحاجة. أو يعطون فيها مجازفة وفي طيبة تفصيلا. أو فرضت في السنة الثانية من الهجرة. أو الرابعة (أق) وأشرك مستحل تركها، وبطلت صلاته وغيرها على ما مرّ، ووافق تاركها بلا استحلال ولا ثواب لصلاة وغيرها. (محمد بن يوسف أطفيش، 1980/1400، ص216).

ففي هذا النص يحدد المصنف تاريخ مشروعية الزكاة إلى ثلاثة أقوال، القول الأول أنها فرضت بمكة إجمالا بدون تحديد صنف أو نصاب أو مقدار ثم حدّد ذلك بعد الهجرة إلى المدينة، فبين أن المؤمنين يثابون على إذعانهم واستعدادهم لإخراجها ولو لم يدفعوها فعلا لكون المسألة مجملة غير مفصلة، أو أنهم يدفعونها جزافا بلا تحديد ثم فصلت بعد الهجرة إلى المدينة، ثم يقرر قاعدة هامة في التكليف، بأنه لا تكليف بما لا يُطاق، ولا تأخير بيان عن وقت الحاجة، القول الثاني أنها فرضت بعد الهجرة في السنة الثانية مع بيان مجملها وتفصيل أركانها وشروطها، وهو القول المشهور، والقول الثالث أنها فرضت في السنة الرابعة، ولم يرجح أيًا من الأقوال مكثفيا بالتركيز على أن المكاف لا تكلف إلا بما يطيق ويستطيع، وأن المشرع لا يحاسب إلا بعد البيان والبلاغ. ثم يذكر حكم تارك الزكاة، فمن تركها استحلالا معتقدا أنها ليست من الشرع وأركانها فهو مشرك، وانهدمت صلاته وأعماله، ومن تركها استهتارا وتهوانا، معتقدا بمشروعيتها فهو منافق ولا حظ له من ثواب صلاته وأعماله إلا بعد التوبة والإنابة وأداء الحقوق.

النص الثالث: يقول المصنف عن حقوق الطريق: "لعن مؤذي المسلمين في طرقهم ولا يلقي فيها ماء أو مزلق أو شوك أو نجس ولا تترك فيها دابة إلا قدر الرفع أو الحط عنها، وجاز إعداد

مئونة البناء فيها إذا قرب ولا تسد بها حتى لا يمكن المرور ولا تسقف وهو (ص) -يعني الصحيح- أو تسقف فوق سبعة أذرع. أو فوق يد ممدودة من قائم على حمل فوق أعلى دابة. أو بلا مد يد (اق)-يعني على أقوال- ويفعل بطريق الخاصة ما شاء إن أذنوا له، ولا يقعد في طريق فمن قعد فحقها عليه الغض وكف الأذى ورد السلام والأمر والنهي والذكر وإرشاد الضال وهداية الأعمى ونصر المظلوم وإغاثة الملهوف وعون الضعيف وإعطاء السائل" (محمد بن يوسف اطفيش، 1980/1400، ص313).

ففي هذا النص أجمل المصنف حقوق الطريق مقتبسة من حديث الرسول (ص)، مستهلاً آياه بالوعيد الذي أعده الله لمن يؤذي المؤمنين في طرقاتهم وعدّد أنواع الأذى مثل إلقاء الماء والشوك أو النجاسة، وألا تصرف عن مهامها كوسيلة عبور للمارة الراجلين والراكبين، فلا تترك الدابة -وهي سيارة اليوم- إلا قدر الرفع والحط، وأجاز وضع مئونة البناء متى اقترب وقت الإنجاز بشرط ألا تسد وتعرقل حركة المرور، وذكر أن الأصل في الطريق تبقى غير مسقفة، وإن سقفت فاشترط علواً معينا حتى لا تعرقل سير الدواب المحملة بالأمعة، هذا عن الطريق العامة أما الطريق الخاصة فيجوز فيها ذلك متى أذن له، وانتهى إلى النهي عن الجلوس في الطريق، لكن من قعد فعليه أداء حقوقها، فلأحصاها في اثني عشر.

الخاتمة

بعد وقفة قصيرة مع أثر من آثار الشيخ الكثيرة والمتنوعة فقد ظهر لنا منهجه في تناول القضايا العقدية والفقهية بأسلوب علمي رصين متفتح على غيره من المذاهب الإسلامية ويدي رأيه بشجاعة ربما خالف مذهبه ومال إلى رأي غيره إن بدى له أنه الأقرب إلى الصواب. فقد وقفنا على أسلوب الكتاب وتتبنا خصائصه التي يتميز بها، واستعرضنا نماذج مختلفة من الكتاب للوقوف أكثر على أسلوبه ومنهجه في إيراد الآراء والأقوال.

أوصي بإعادة طبع كتاب "الذهب الخالص" على نفقة المركز الجامعي بغرداية ثم اعتماده كمصدر أساسي من بين المصادر في مادة ومقياس الفقه المقارن المقرر في كليات العلوم الإسلامية بجامعة الوطن.

المراجع:

- * محمد بن يوسف أطفيش، الذهب الخالص المتوه بالعلم القالص، الجزائر، دار البعث، ط2، سنة 1980/1400
- * مصطفى بن الناصر وتن، آراء الشيخ أمحمد بن يوسف أطفيش العقديّة، جمعية التراث، القراة، الجزائر، الطبعة العربية، ط1، سنة 1998.
- * أبو طاهر اسماعيل بن موسى الجيطالي، قواعد الإسلام، تصحيح وتعليق بكلي عبد الرحمن، مكتبة الاستقامة، ط2، سنة: 1995/1416
- * محمد ناصر، الشيخ ابراهيم أطفيش في جهاده الإسلامي، مكتبة الضامري للنشر، مسقط، ط2، سنة: 1992/1413
- * ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين ، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، سنة: 2004.
- * جمعية التراث، لجنة البحث العلمي، معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، نشر جمعية التراث، القراة، غرداية، الجزائر، سنة: 1999/1420.
- * الجناوي ابوزكرياء يحيى بن الخير، كتاب الوضع نشر وتعليق: ابو اسحاق ابراهيم أطفيش، مطبعة الفجالة، القاهرة، ط: 1 (د س).
- * محمد بن يوسف أطفيش، شرح كتاب النيل وشفاء العليل، مكتبة الارشاد، جدة، ط: 3، سنة 1405هـ/1985م.

ملكة عن النهضة المقارن عند الشيخ أطفيش القطب

يحي باحيو

باحث الجزائر

مقدمة

إن من الإشكاليات التي نعيشها قديما وحديثا في تراثنا الإسلامي تقوقع المسلمين وانغلاقهم في دائرة معارفهم المذهبية وتهميش بعضهم بعضا وتجاهل الثروة الفكرية العامة للأمة الإسلامية.

إن سعة الإسلام في أصوله وفروعه والمناهج العلمية الحديثة ووسائل الإبداع الجماعي عبر الشبكات والمنتديات العلمية وآليات الفقه المقارن كلها وسائل متكاملة كفيلة لإخراج تراثنا للوجود الذي بتمينه وتحيينه سوف نجد حلولا للنوازل العصر الحديث؛

وفي جو هذه الإشكالية العامة نقد عرضا موجزا حول مجهودات العالم الفقيه الشيخ الحاج أمحمد أطفيش القطب الذي جاهد في سبيل العلم ووحد المسلمين وفي سبيل تبيين صيدهم الفقهي.

نبدا هذا العرض بنبرة وجيزة عن حياة الشيخ قطب الأئمة مبرزا فيها الجوانب الهامة التي تأثرت في تكوين شخصيته كمتعلم ومعلم، وكواعظ منفتح إلى العالم الخارجي، وكعالم باحث مساهم في كل الأنشطة العلمية المتداولة في عصره، وكمجتهد يستنبط ويرجح ويصحح ويقارن معارفه بمعارف أقرانه؛

ثم نذكر شهادات بعض معاصريه للاطلاع على شخصيته الفريدة وعلى ضوء ذلك سنرى كيف تكونت فيه ملكة البحث والمقارنة سابقا لعصره، ثم نبين ماهية الفقه المقارن عموما وعند الإباضية ولدى الشيخ القطب خصوصا، ونقدم كتابه الذهب الخالص المنوه عن العلم القالص ونستقري نماذج من فقهه المقارن؛ ونختتم بحثنا المتواضع بعرض مواضيع وأسئلة مفتوحة لمزيد من البحث والتقيب من طرف الدارسين والباحثين.

نبذة وجيزة من حياته العلمية وتطور فكره

نستعرض قبل دخولنا في البحث نبذة موجزة عن تاريخه ونحاول أن نستكشف -باستقراء مراحل نموه- عن تطور ذكائه وكيف أصبح يوازي فطاحل علماء عصره وكيف أعجز الداني والقاصي منهم وشق لهم طريق البحث والتنقيب سابقا لعصره.

هو الشيخ الحاج أمحمد بن الحاج يوسف أطفيش الملقب بقطب الأئمة ولد في مدينة- بني يزقن- سنة 1236هـ الموافق لسنة 1820م- وتوفي والده وهو ابن خمس سنوات وحفظ القرآن الكريم بكامله ولم يبلغ عمره تسع سنوات؛ وقد أخذ مبادئ العلم في الكتاتيب وبرز بين أقرانه بذكائه واجتهاده وحبه للعلم.

لم يسعفه الحظ ليطمه وفقره لطلب العلم خارج بلده، لكن الله أنعم عليه بمكتبتين هامتين لأبرز علماء عصره أمثال الشيخ عبد العزيز الثميني صاحب النيل وشفاء العليل جعلتا تحت تصرفه؛ وهكذا وجد القطب نفسه أمام عدد من خزائن الكتب ونشأ عصاميا متكلا على ذكائه، ومطالعا مثابرا مقارنا بين ما تجود عليه كتب عصره في رحاب تراثه الإباضي خاصة، وكان حبه للعلم جعله يشترك دائما إلى مزيد من الكتب الإسلامية لاقتنائها.

وفي عهد المراهقة فتح داره للتدريس وعمره لا يتجاوز سبعة عشر عاما وذلك سنة 1253 هـ/1837م، ودخل حلقة العزابة غاسلا للأموات ثم شيخا للحلقة خلفا للشيخ الحاج محمد بن يحيى باحيو بمسجد آت ايزجن يوم 25 ديسمبر 1878م/1296 هـ وعمره ثمانية وخمسون سنة؛ كان دأبه الدراسة والتدريس والتأليف والوعظ والفتوى وقد تجاوز عدد مؤلفاته مئة مؤلف في شتى العلوم وطال الله في عمره مجاهدا مجتهدا؛ فوفاه الله يوم السبت 23 ربيع الثاني 1332هـ الموافق لمارس 1914م.

شهادات بعض أقرانه وتلاميذه

لقد أوردنا هنا بعض شهادات أمينة لتعرف على شخصيته الصامدة التي تطورت عبر السنين واستفادت وأفادت وأثرت وتأثرت بما حولها.

قال فيه الشيخ ناصر بن محمد المرموري:

* إن الشيخ أطفيش رحمه الله من الأفذاذ الذين يقل نظراؤهم عبر التاريخ فهو يجمع إلى سعة العلم، دقة النظر وصدق الحكم، وحب الله عمرا طويلا في خدمة العلم ورزقه التوفيق وحلاه بالورع والتواضع والاستقامة، الشهير بقطب الأئمة عند المغاربة، وبقطب المغرب عند المشاركة* وهذه شهادة على سعة علمه وذكائه وإخلاصه وأخلاقه العالية وقد لقبه أقرانه بقطب الأئمة غربا وبقطب الغرب شرقا.

وقال عنه تلميذه أبو اليقظان يصف لنا شمائله:

* كان شديد الوطأة على الفساق والعصاة، آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم شفوفا على الفقراء والمساكين، كريم النفس، سخي اليد، عطوفا على الملهوف، يفكر تفكيراً إنسانياً في أوسع آفاقه، شديد الاهتمام بأحوال العالم الإسلامي يفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم*

هذه شهادة تليده على جهاده ضد الفساد، وعلى شجاعته في الأمر والنهي، وعلى شففته على الفقراء والمعوزين، وعلى اهتمامه بحالة المسلمين كافة.

يقول الأستاذ المؤرخ محمد علي دبور عنه:

* وكانت مكتبته تحتوي على آلاف من نفايس الكتب، لقد استطاع بجده وعزيمته القولاذية وغرامه وشغفه بالعلم أن يملك من الكتب النفيسة في أعماق الصحراء في وقت الفتن وصعوبة المواصلات، وقلة المطابع ما لم يملكه أغلب العلماء الجامعيين اليوم*

وفي شهادة المؤرخ محمد دبور بيان لغزارة اطلاعه وحبه للعلم وجمع مصادره، ولاقتحامه للعقبات المتعددة رغم إمكاناته المادية المحدودة، ورغم الفتن وصعوبة الاتصالات في ذلك الزمان.

تكوين ملكة البحث والمقارنة لدى الشيخ القطب

كانت مسيرة حياته صعبة لكنها ناجحة. وقد تكونت فيه شحنة ربانية ساعدته لاقتحام عقبات الفقر واليتم ليتفرغ كلياً إلى استظهار كلام الله تعالى أولاً وهذا مما أفصح لسانه الأعجمي مبكراً، ثم عكف على التعلم وعلى المطالعة المتواصلة متزوداً بما يحصل عليه من الكتب حتى استوعب معظم ما فيها وتفرغ بصفة موازية إلى التعليم والوعظ والتأليف حتى صار مصدراً لعلوم عصره بما أتاه الله من حافظة واسعة وأنه يدرك أي مسألة قرأها أين توجد بالضبط ويرشد إليها طلبته بتعيين الكتاب والصفحة؛

كان تدريسه المبكر جعله أكثر حرصاً لمزيد من التعلم ومن التمهين إذ حمّله تلاميذه الوافدون عليه من شتى النواحي مسؤولية الإجابة على مسائلهم المتعددة والمتنوعة حتى صار قبلة للتدريس والتوجيه والاستشارة؛ وحمّله ذووه عبء الفتوى في الصغيرة والكبيرة؛ وكل هذه المسؤوليات تحمّلها على صغر سنه وجعلته أكثر حرصاً لمزيد من التفقه ولتمهين معلوماته بصفة دائمة ومستمرة.

وكان إخلاصه وحرصه على تحري إجاباته الفقهية والعلمية صفات تدفعه حتماً إلى جمع المعلومات وتمحيصها ومقارنتها باستمرار تلك الصفات التي عندما تجتمع في عالم تؤهله للفقه المقارن وتبعده عن التوقع والتقليد والتعصب؛

كان محيط الشيخ القطب الداني والقاضي لم ينضج بعد لتقبل آراء الغير وهذا لم يعدله عن عزمه، أملا أن يحذو حذوه غيره من علماء الإسلام ليستكشفوا ثروة مذهبه وتراث سلفه الصالح بعيدين عن التوقع والتعصب والتهميش.

وكان دأبه رحمه الله تدريس كل ما يقتنيه ويقتنع به مما يجد في كتب السلف، وكان مع طلبته مدرسة منتقلة لا يرتادها العام؛ فللعامة وعظ وتوجيه بما يفهمونه كما كان يوصي دائما 'اخطبوا العامة بما يفهمون'؛ وكان يخصص تدريسه لطلبة العلم معتمدا على بعض مؤلفاته التي لا يصلح سردها للعامة في المنابر وهي تشكل أرضية التدريس وقد لا يدع مسألة ذكرها وتحققها إلا ووردها في وقتها، ولو استطرادا، فيما هو بصدد تدريسه أو تأليفه حرصا على تسجيلها وخوفا أن ينساها؛

يا ليت يملك الآليات العصرية ليضع بسهولة كل مسألة في إطارها ويسهل علينا إدراك خبايا علمه في بعض المسائل دون عناء كبير، ولو ملك آليات عصرنا لسهل عليه تحديث كتبه وتحسينها دون إعادة نسخها من جديد وحتى يسهل علينا أن نعرف رأيه الأخير في مسألة حررها مرارا؛ ونحن لا نملك إلا أن نقول أن آخر رأي له في مسألة وقع تحديثها مرارا -إن استطعنا أن نعرف تواريخ تدوينها- هو رأيه الذي استقر عليه بحكم مراجعته وتصحيحاته المستمرة.

كانت تأليفه مادة للدراسة وكان يؤلف في شتى الفنون وبصفة موازية ويراجع كتبه عندما يفتح الله عليه مزيدا من المعرفة، وهكذا ارتقت كتبه التي ألفها في آخر عمره كتنسيير التفسير إلى شبه محاضرات علمية فنية فقهية أدبية قد يصعب استيعابها من طرف العامة وهي بمثابة المراجع والموسوعات للدارسين والباحثين.

وتبع لهذا التكوين وهذه المجهودات المتواصلة واشتراكاته في كثير من الأنشطة العلمية جعلت منه حتما مؤلفا قديرا يستوعب ما كتبه الأولون وبفكره الناقد يرجح ويقارن ويصحح ويستنبط وقد أطل الله عمره حتى صار عمدة للفتوى ومرجعية للإسلام عامة في بعض القضايا وللإباضية خاصة.

الفقه المقارن عند الإباضية عامة

لقد امتاز القرن الخامس الهجري بالتأليف الموسوعي والفقه المقارن، وبرز فيه أئمة وعلماء وفقهاء ومصنفون في مختلف البلاد الإسلامي وبرز فيه من علماء الإباضية أمثال الشيخ يوسف بن خلفون الذي عاش في ورجلان وهو ممن أعطى الأهمية للفقه المقارن إنصافا لجهود المذاهب الأخرى ونبذا للتعصب.

وقد اقتدى الشيخ يوسف بن خلفون بأئمة الأوائل كجابر بن زيد إمام المذهب الذي كان

يعتمد في الفروع آراء من خالفه كحسن البصري ويأخذ من جملة الصحابة والتابعين الذين عاصروهم؛

ثم هذا حذوه الإمام إسماعيل الجيطالي ثم أبو ستة الذي كان يرد نصوصاً كاملة في الحواشي، وأرسى دعائم الفقه المقارن قطب الأئمة حيث اعتمد ما صح عنه من كتب الحديث كالبخاري ومسلم وغيره من الكتب الستة وجمعها في كتابين هامين 'وفاء الضمانة بأداء الأمانة' و'جامع الشمل في حديث خير الرسل'.

وكان عمله رحمه الله بعيداً عن الهوى، أو التشهير، معتقداً أنه إذا أصاب له أجران، وإن أخطأ فله أجر مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم

إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى

وكان الشيخ القطب عالماً راسخاً في المواضيع التي يتناولها، وكان على دراية كافية بأقوال المذهب، وآراء العلماء الذين يقارن بينهم، وهو ملمٌ إلماماً كافياً بأصول الفقه، وعالماً بها لشدة مطالعته المتواصلة وكان يعرض الأقوال والآراء من الكتب المعتمدة في المذهب بأمانة كاملة وينقلها عن الإمام أو المجتهد أو المذهب، وينقل بدقة وأمانة القول الراجح المعتمد، وإلا صرح بأنه ينقل قولاً له، أو رواية عنه، أو قولاً مرجوحاً، حتى يصح نسبة الرأي لصاحبه، أو القول في المذهب.

فالمدرسة الإباضية مثل نظيرتها من المدارس الفقهية الإسلامية أسهمت الكثير في إثراء الفقه عن طريق عقد المقارنات بين آراء الفقهاء، سواء داخل المدرسة الواحدة وهو الوارد في معظم الأحيان وخاصة عند القدماء، أم بين المذاهب المختلفة، وهو منهج جرى العمل به منذ عهد مبكر لتدوين المؤلفات الفقهية لدى المدرسة الإباضية.

كان إمام المذهب جابر بن زيد يعوّد تلاميذه على النظر المستقل، فلم تكن متابعتهم له تقليداً مقدساً، بل اتباعاً للحجة والدليل، وكانوا لذلك لا يقفون عند آرائه، بل يخالفونه في عديد منها إذا وجدوا العدل فيما سواها. كما نشأ حوار علمي رصين بين تلاميذه وتلاميذ تلاميذه أيضاً، وحفظت لنا المدونات الفقهية الأولى هذا الحوار في مواقف كثيرة.

وفي كتاب "المدونة" التي وضعها أبو غانم بشر بن غانم الخراساني في القرن الهجري الثاني، نماذج وفيرة لحوارات علمية شيقة بين هؤلاء التلاميذ، ومدى التزامهم الجدية والموضوعية في ترجيح الآراء بعد النقاش، ولو كانت آراء غير أئمة المذهب كجابر وأبي عبيدة والربيع وغيرهم.

كان علماء الإباضية يجتهدون دون قيود معجزة، حتى أبدعوا حركية علمية فقهية، توائم مقتضيات الزمان والمكان، وفي هذا الإطار ولد ما يعرف بفقه المشاركة، وفقه المغاربة،

مصطلحات كثر ورودها في كتب الإباضية؛

ومما يلاحظ في هذا الشأن أنَّ الفقهاء الإباضية بداية من ابن خلفون، وابن بركة، وأبي ستة، ونهاية بالعلامة السالمي في شرح الجامع، والمعارج وغيرها، وبالقطب اطفيش في الذهب الخالص وشرح النيل وغيرها من المؤلفات، كلُّ هؤلاء أسَّسوا لفقه مقارن بمفهوم واسع، جمع بين فقه الإباضية وفقه المذاهب الإسلامية الأخرى. بينما المدرسة الإباضية وما تحمل من تراث فقهي توجد نادرا عند المدارس الأخرى في كتب "الفقه المقارن" وكان "شرح النيل وشفاء العليل" للقطب اطفيش، نموذجا، لكونه أكبر موسوعة فقهية في المغرب، استوعب ما عندهم وزاد عليه.

قال الدكتور محمد بن موسى بابا عمي في مداخلة له تحت عنوان: الحضور المشرقي في فقه المغاربة – قراءة في المنهج (شرح النيل نموذجا)

* لا اختلاف في العقيدة والدين وإنَّ المتتبع لمصادر التراث المشرقي والمغربي على السواء يلاحظ بداية أنَّ ثمة وحدة عضوية تجمع بين علماء الإباضية، وهي أنَّهم غير مختلفين فيما لا يجوز الاختلاف فيه... ذلك أنَّهم يجمعون على أنَّ الديانة بمعنى العقيدة «اسم يشتمل على ما بانت به كل فرقة من صاحبها، مما اعتقدوه ديناً يدان لله تعالى به»*

وقال الشيخ القطب:

والأصل يقطع فيه عذر مخالفة الفرع بخلافه، وهو ما طريقه غلبة الظن والاجتهاد. والحق في الأصل في واحد ومع واحد، والفرع الحق في مع واحد وفي واحد، ولا يضيق على الناس خلافه

ويضيف الشيخ القطب ما في معناه:

مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب مخالفينا خطأ يحتمل الصواب؛ لأنَّك كما قال: لو قطعت القول بأنَّ مذهبنا صواب فقط، ما صحَّ قولنا: المجتهد يخطئ ويصيب، وإذا سئلنا كما قال عن الديانة أي العقيدة وجب أن نقول: الحق ما نحن عليه، والباطل ما عليه مخالفونا، لأنَّ الحق عند الله واحد

لقد ظلَّ المسلمون لقرون عدَّة يخطئون من يخالفهم في المذهب، لأجل جزئية فرعية لا تدخل في مسائل التوحيد وقد ثبت الاختلاف داخل المذهب الواحد، بل عند العالم الواحد، فيفتي بما يحقُّ، ثم يثبت له نقيض ذلك..

ومما يلاحظ في هذا الشأن أنَّ الفقهاء الإباضية بداية من ابن خلفون، وابن بركة، وأبي ستة، ونهاية بالعلامة السالمي في شرح الجامع، والمعارج وغيرها، وبالقطب اطفيش في الذهب الخالص وشرح النيل وغيرها من المؤلفات، كلُّ هؤلاء أسَّسوا لفقه مقارن بمفهوم واسع، جمع بين

فقه الإباضية وفقه المذاهب الإسلامية الأخرى. ومن جهة أخرى ما زال الفقه الإباضي، غير وارد في الكتب المعتمدة للمذاهب الأخرى؛

كان الفقه المشرقي في المدرسة الإباضية حاضرا في مصادر الفقه المغربي، وبالذات الموسوعات الفقهية الكبرى، للقرنين الخامس والسادس الهجريين، ولقد اعتمد القطب على العديد منها. يأتي كتاب الجامع للإمام ابن بركة، على رأس قائمة المصادر أهمية وحضورا في فقه المغاربة، وبخاصة في مجال فقه المعاملات. ومع هذا لوحظ عدم اعتماد القطب على أكبر الموسوعات الفقهية المشرقية: بيان الشرع، وقاموس الشريعة ولم يعرف بعد سبب ذلك.

ومما يجب فيه التفكير جدبا إنشاء "المجمع الفقهي الإباضي" ليكون سنداً للمجامع الفقهية العالمية وأرضية خصبة لإنشاء المجمع الفقهي الإسلامي الشامل؛

كانت الأمة الإسلامية تعاني التفرقة الممقوتة ذلك أن كل جهة تستثني الجهة الأخرى من إمكانية الحق والصواب، والخروج من الدين، وترفض ما يأتي منها بأسماء وعناوين مختلفة، ومن بين أكثر المذاهب معاناة من هذا الوضع، المذهب الإباضي، الذي همّش كلية عبر العصور، وقد نقل عن ابن حجر قوله في كتاب "كف الراعي":

«إن كثيرين من المجتهدين الخارجين عن الأئمة الأربعة لا يجوز تقليدهم، كما هو مقرر في كتب الفقه والأصول»

ماهية الفقه المقارن لدى القطب خاصة

فالمقارنة لغة هي الجمع والوصل والمصاحبة، ويقال الأدب المقارن، أو التشريع المقارن، أو الفقه المقارن أو الفقه الموازي؛ والفقه المقارن دراسة الآراء الفقهية المختلفة في المسألة الواحدة مع مستنداتها من الأدلة الشرعية، وتقويمها، وبيان ما لها وما عليها بالمناقشة، وإقامة الموازنة بينها

وقد نهج الشيخ القطب في كتابه 'شرح النيل والشفاء العليل' نهج الفقه المقارن، وكتابه هذا يوازي الأمهات الفقهية ويعتبر موسوعة فقهية كبرى على غرار الموسوعات المذهبية الأخرى.

وقال الشيخ القطب في جواب لسائل له عن مذهبه:

إعلم يا أخي رحمك الله أنني استقرأت المذاهب المعتمدة كمذهبنا معشر الإباضية ومذهب المالكية ويؤكد أنه كان في استقرائه يرد المنقول والمعقول وينتهي إلى ترجيح المذهب الإباضي بحجة أنه خال عن التشبيه والتعطيل.

وتعتبر هذه خطواته المبدئية في الفقه الأصولي المقارن، فأصول الدين قاسم مشترك بين الأمة الإسلامية جمعاء وأصول المذاهب ثوابتها. وبما أن ثوابت المذاهب لا تخضع للفقه المقارن

الذي من شأنه أن يقرب بين المدارس المذهبية دون المساس بثوابتها فقد اهتم الفقه المقارن عامة بالفروع؛

لقد فتح الفقه المقارن المجال عامة للفقهاء للاستفادة من سائر المذاهب، ولاختيار القول الأنسب الذي يحقق مصلحة الناس حسب أحوالهم وأزمنتهم ويتحقق بذلك المقولة المشهورة 'اختلاف العلماء رحمة' وصارت المقارنة والاستفادة من الرأي الآخر أمر مسلم فيه ومن ثوابت المنهج العام اليوم في الدراسة وفي الرسائل العلمية والندوات والمؤتمرات.

تقديم كتاب الذهب الخالص المنوه عن العلم القالض لقطب الأئمة

قال المؤلف في المقدمة ما نصه:

*فهذا الكتاب يجمع القواعد والحاشية مختصرا... وفيه زوائد كثيرة تكاد تكون ثلثا لا تكاد مسألة أمر المحشي بتحريرها إلا حررتها وأثبتها... والفضل لأبي ستة 'المحشي' لأنه الذي أسس وكفاني فشرغت لبعض ما لم يذكره و'ت' علامة على قلت؛ و'م' على مالك؛ و'ش' على الشافعي؛ و'ح' على أبي حنيفة؛ وما لم أنسبه إلى هؤلاء ... فهو مذهبنا معشر الإباضية ... حيث كتبت لفظة 'نا' ... و'ق' على قولين و'اق' على أقوال؛ و'ظ' على الظاهر؛ و'ص' على الصحيح وأذكر الخلاف بلفظة 'أو' ... *

وكان الشيخ القطب يورد مسألة ويقول عندنا أو عند المغاربة ويقصد علماء الإباضية في المغرب وعند المشاركة ويقصد علماء الإباضية من المشرق وعند أصحابنا أو عندنا ويقصد الإباضية عامة وعند مخالفتنا أو عند قومنا ويقصد المذاهب الإسلامية غير الإباضية ويقول عندي عندما يحزر مسألة يرى رأيه باجتهاده الخاص وعندما يجد من يوافقه من أئمة المسلمين يحمد الله تعالى على ذلك (القطب، 1985، ص2)

وقد أعجب الكثير بكتابه الذهب الخالص الذي يجمع كتاب القواعد لأبي إسماعيل الجيطالي وحاشية أبي ستة بما يمتاز به من الجمع والاحتواء على ما قاله العلماء في الأركان الخمس وآداب السلوك والمعاملات من مختلف المذاهب الإسلامية فهو يسوق الأقوال ويقارن، وقد سلك مسلك الفقه المقارن بين أقوال أصحاب المذاهب والآراء الفقهية .

وقد بين الشيخ القطب رحمه الله في كتابه كشف الكرب الجزء الأول ص 89 1405 1985 تحت عنوان: الأخذ بروايات قومنا وقبول الفتوى عنهم ونقل العلم من كتبهم ما مفاده أن الأمر برهاني وإقناعي:

أما البرهان فقولته صلى الله عليه وسلم:

*ما أتاكم عني فاعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فعني ولو لم أقله ... إلى أن قال: وكيف

أخالفه وبه هداني ربي...*

ويقطع العذر في الأصول التي الحق فيها مع واحد ولا يجوز الاختلاف فيها... ويقول رحمه الله: *'ولا أذكر من كلام القوم إلا ما لا بأس به ولو وجد في مذهبنا ما يخالفه إذا كان له وجه صحيح ظاهر لا تكلف فيه وربما حجته على ما في المذهب لقوته بأدلة وجدتها لأن القول بالحق واجب...*

ويقول كذلك: *وفي كل مذهب راجح ومرجوح وأكبر مسائلنا في الفروع راجحات... وإذا ترجح قول غيرنا في مسألة من الفروع على قولنا بأدلة... جاز ذكرها في كتبنا ولو بلا نسبة لها لقومنا...* (القطب، 1985، ص 90)

وورد قوله تعالى: ﴿الْحَقُّ أَحقُّ أَنْ يَتَّبَعَ﴾ وقوله ﴿وما ذا بعد الحق إلا الضلال﴾

ثم استأنف قائلاً:

*اتفق أصحابنا على من عمل بقول مخالف في الفروع نجا فجابر - بن زيد - يأخذ الحديث مطلقاً ويستعين بالحسن البصري؛ والشيخ يوسف بن إبراهيم - الورجلاني - قرأ في قرطبة، وابن عمار في تونس، وفي سند الربيع رجال ليسوا من أصحابنا - أي من الإباضية - * وختم قوله

من العجيب أن تكون مسألة حقاً تترك لأنها جاءت من غيرنا هذا غلو

(القطب، 1985، ص 95)

استقراء نماذج من الفقه المقارن عند الشيخ القطب

وقد برز عمله بالفقه المقارن في كتابه القيم الذهب الخالص المنوه بالعلم القائل وسنرد منه بعض الأمثلة من طبعته الثانية 1400 هـ - 1980م

في الركن الثاني في الصلاة وتوابعها وخاصة في باب طهر النساء يقول القطب:

والطهر إما ماء رقيق كالجير أو كمائه أو الفضة وهو أقعد (نا) وبعض ال(م)

وقد يستدل القطب في مسألة بما اعتمد في مذهب ما أو بما اشتهر به بعضهم كالمالكية في وصف طهر النساء.

وفي باب الكلام على أوقات الصلوات الخمس ص 132 تكلم القطب وبالتحديد بداية صلاة العشاء قائلاً: *والعشاء بفناء الأحمر - أي غيوب الشفق الأحمر - (نا) و(م) و(ش) وهو (ص) لحديث: *وقت العشاء غيوب الشفق والأحمر* وأكد المسألة أنها صحيحة وذكر من صحت عنده وهم الإباضية والمالكية والشافعية وذكر ما جاء به الحنفية بقوله: *أو ذهاب

الأبيض بعده عن موضعه (ح) * (القطب، 1985، ص133)

وفي باب التحيات ولفظها وحكمها ص160 قال القطب:

*وسنت قراءة التحيتين (م) و(ح) أو فرضتا (ش) (ت) هو (ص) لأن الأصل فعله وقوله ص في الصلاة الوجوب إلا الدليل إذ قال صلوا كما رأيتموني أصلي... *
يبدأ القطب هنا بذكر آراء المالكية والحنفية ثم يعقب بما صح عند الشافعية وعنده بقوله قلت وهو الصحيح ويرد الدليل من الحديث النبوي الشريف.

وفي باب صلاة الجماعة وأحكامها ص 172 يقول القطب: *وأما قوله لا صلاة لسامع الأذان إن لم يجب إلا لخوف أو مرض فمعناه لا صلاة كاملة (أق) ومن صلى فرضا فذا أو مأموما أو إماما ووجد إماما ولو في غير مسجد يصله معه نفلا لعموم الحديث: *إذا جئت والناس يصلون فصل معهم (ش) أو إلا الفجر والعصر (نا) إذ لا نافلة عندئذ -الحديث- مخصوص بحين يجوز النفل وفيه أنه يحتمل أنه يعيد على أنها فرض والتي قبلها نفل كما هو رواية عن (ش) أو إلا المغرب عند (م) -لئلا تشفع ستا- * (القطب، 1985، ص 173)
وفي تفضيل الإمامة قال القطب:

* الأئمة القارئ أفضل للإمامة (م) و(ش) أو الأقرأ الفقيه (ح) (ت) هو (ص) لحديث يؤم القوم أقرأهم لكتاب الله... * (القطب، 1985، ص174)

وفي باب الكلام على قيام رمضان ص 201 قال القطب:

*... فهو أربع وعشرون (نا) أو عشرون (ح) و(ش) واستحبه (م) بست وثلاثين وبعض بأربعين والوتر زائد على ذلك كله * (القطب، 1985، ص202)

وفي باب الركن الثالث في الزكاة من نفس الكتاب ص 216 ورد الكاتب كثيرا من امسائل في دقائق الأمور مبينا فيها آراء المذاهب الثلاثة بصفة خاصة المالكية فالحنفية فالشافعية...
(القطب، 1985، ص 216)

في باب الركن الرابع في الصوم وفي فصل 'لا صوم إلا بالنية من الليل' ص245 قال القطب:

*لا بد من تخصيص النية بما يصام (نا) و(م) وهو الحق كتعيين صلاة بالنية أو... *
لقد تبين له قول المالكية هو الصواب وعلمه ثم ذكر أقوالا أخرى بلا تعليق؛ (القطب، 1985، ص246)

وفي الباب الثالث كفارة العمد تخيرية قال القطب ص250:

*قال لأعرابي فطر في رمضان - أعتق أو صم شهرين متتابعين أو أطعم ستين مسكينا

(نا) و(م) وهو(ص) أو بالترتيب (ش) و(ح) ولا دليل...*

قد أتى برأي المالكية وأقره ثم أتى برأي من الشافعية والحنفية فردهما لافتقارهما للدليل.

وفي الباب الخامس ص 252 قال القطب:

*وصوم المسافر أفضل (ن) و(م) و(ح) لأن الأداء أفضل من القضاء...ولأن الإفطار
رخصة*

ويرد القطب أن رخصة الله قد تجب وقد تستحب وقد تكره وقد تباح...فيبقى هنا - على
أصل الرخصة وهو المرجوحية إلا ما فيه مضرة أو كما قال. (القطب، 1985، ص 253)

وفي الركن الخامس والسادس في العمرة والحج وفي باب شروط لزوم الحج قال القطب
عن المرأة: *وانما يجب عليها مع رفقة مأمونة ولو لم يكن فيها زوج أو محرم(نا) و(م) و(ش) أو
إن وجدت زوجا أو محرما يذهب معها (ح)(ق)*

ذكر القطب ما صح عنده وأقره من وافقه عليه من المالكية والشافعية وذكر القول الآخر
من الحنفية بدون تعليق؛ (القطب، 1985، ص 264)

وخلاصة القول في ما يتعلق بالفقه المقارن الوارد في هذا الكتاب نجمل القول أنه بدأت
مقارنات الشيخ القطب المستفيضة في فصول الطهارات وانتهت عندما وصل إلى الركن السابع
في الحقوق والمظالم والمحارم والآداب ولا شك أن بقية الكتاب متفق عليه إجمالا فلا داعي إلى
استعراض أقوال المذاهب الأخرى؛ ومما يمكن ملاحظته في هذا الكتاب أن مقارناته كانت خاصة
مع المذهب المالكي ثم الشافعي ثم الحنفي؛

الخاتمة

كانت مسيرة حياة الشيخ القطب صعبة لكنها ناجحة. وقد تكونت فيه شحنة ربانية ساعدته
لاقتحام عقبات الفقر واليتم ليتفرغ كليا إلى استظهار كلام الله تعالى أولا وهذا مما أفصح لسانه
الأعجمي مبكرا، ثم عكف على التعلم وعلى المطالعة المتواصلة متزودا بما يحصل عليه من
الكتب حتى استوعب معظم ما فيها وتفرغ بصفة موازية إلى التعليم والوعظ والتأليف حتى صار
مصدرا لعلوم عصره بما أتاه الله من حافظة واسعة وأنه يدرك أي مسألة قرأها أين توجد بالضبط
ويرشد إليها طلبته بتعيين الكتاب والصفحة؛

إن الشيخ الحاج أمحمد أطفيش قطب الأئمة موسوعة علمية ومرجعية فقهية هامة لكل
دارس في البحوث الفقهية والعلمية والأدبية؛ ويجدر بنا أن ننوه ببعض الجوانب الهامة التي
يستطيع الباحث أن يعمل فيها لإثراء تراث الشيخ وتقديمه للأجيال الصاعدة كمثال حي لعالم
جزائري لم يملك من آليات البحث العصرية ولم يتخرج من جامعات ولا من معاهد عليا وأنه رغم

قلة عدته وفقره ويتمه استطاع أن يرقى المراتب العلى في الفقه وعلوم عصره؛ ومن المواضيع التي تستأهل التقريب والبحث والتي لها العلاقة الوطيدة بالفقه المقارن وبما نحن بصدد ما يلي:

1. الاهتمام بأعماله في الفقه المقارن وإبراز منهجه في الاستدلال والمقارنة لاستكشاف جانباً من شخصيته كعالم عصامي يثبت معارفه في المسائل الخلافية؛
2. دراسة أسلوبه في استقراء آراء المذاهب في الأصول واقتناعه الكامل المؤصل بما جاء به المذهب الإباضي منذ نشأته؛
3. دراسة اجتهاداته الخاصة ومقارنتها باجتهادات غيره وبيان وجه الشبه ووجوه التميز؛
4. دراسة تطورات آرائه في بعض المسائل وأسلوبه في التدقيق والتحديث عبر مؤلفاته.

وأخر ما نخلص إليه هو أن على علماء الأمة الإسلامية اليوم أن يضبطوا الفتوى حسب تغير الزمان والمكان والعرف ووفق ضوابط شرعية علمية منهجية؛ فحاجتنا اليوم أكيدة إلى الاجتهاد الجماعي؛ ولا يكون ذلك إلا بإشراك فقهاء الأمة من كل المذاهب وصياغة مجمع فقهي شامل يتعامل مع النوازل بسرعة ودكاء؛

المراجع:

القرآن الكريم

– مدونة أبي غانم الحرساني تحقيق وترتيب يحيى بن عبد الله البهاني وإبراهيم بن محمد العساكر 2006 770 صفحة الناشر مكتبة الجيل الصاعد

– الشيخ أمحمد بن يوسف أطفيش، الذهب الخالص المنوه بالعلم القالض، أبو إسحاق إبراهيم أطفيش، فسنطينة، 1985، 340 صفحة

– الشيخ أمحمد بن يوسف أطفيش، كشف الكرب الجزء الأول 1985

– الدكتور: محمد بن موسى باباعمي: أصل البحث مداخلته قُدمت في إطار ملتقى الفقه الإباضي، من تنظيم وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، مسقط، سلطنة عُمان، بتاريخ: 29 محرم 1426هـ/3 مارس 2005م.

من المواقع:

م www.ibtesama.com

www.mzabnet.com/men2.htm

www.univ-emir.dz/yahia-bouterdin.htm

www.alfida.jeeran.com/qtubalaemme.htm

www.9alam.com/forums/showthread.

iraq.iraq.ir/islam/maktaba_fkreia/book02/feg_mo01.htm

<http://www.taddart.org/ar/?p=464>

الشيخ محمد بن يوسف اطفيش لغويًا

أحمد جيلالي

المركز الجامعي بالنعامة

لقد كانت لمحمد بن يوسف اطفيش إسهامات وإضافات ذات أهمية في الدراسة اللغوية الجزائرية، وما هذا العدد الضخم الذي تركه إلا دليل على غزارة عطائه في علوم اللغة العربية بفروعها المتنوعة، فمن هو هذا الرجل؟

هو محمد بن يوسف بن عيسى اطفيش الإياضي¹، واشتهر بلقب اطفيش أو اطفيش بالمدّ، وهو اللقب العائلي للشيخ، ويعرف أيضا بلقب القطب وهو من رتب المتصوفة، واختص به في وادي ميزاب، وعند الإياضيين جميعهم إلى يومنا هذا.

ولد اطفيش سنة 1238 هـ/1821م في بني يزقن² بغرداية، وتوفي فيها يوم السبت 23 ربيع الثاني سنة 1332 من الهجرة الموافق لشهر مارس سنة 1914 ميلادية³.
مؤلفاته⁴:

إننا ركزنا على مؤلفاته القيمة في مختلف العلوم والفنون، ذاكرين أسماءها اختصارا، فاصطفينا كل تأليف يرقى إلى درجة الكتاب، وأعرضنا عن أشباه الكتب التي لا تغني الباحث عن أهدافه لبساطة مضامينها، كالترتيبات⁵ والتقارير والخطب والردود والرسائل والمراسلات وكذلك الأعمال المنسوبة إليه⁶، وأعرضنا عليها لكثرتها ولتشابه موضوعاتها، أو لضعف قيمتها العلمية، وسنورد مؤلفاته في البحث على قسمين اثنين: قسم عام مختصر، يضم المؤلفات جميعها، اللغوية والأدبية والدينية والتاريخية وغيرها، وقسم خاص مفصل، يضم الكتب المتخصصة في علوم اللغة المتوفرة غير المفقودة في المكتبات العامة والخزائن الخاصة، وهي كالتالي:

أ- القسم العام المختصر

أولا- النحو والصرف:

1- تسهيل الاجتهاد في تفسير أشعار الاستشهاد (خ)، وهو شرح شواهد ثلاثة شروح على الآجرومية:

- الأول: لأبي سليمان داود بن إبراهيم التلاتي.

- الثاني: لأبي القاسم يحيى بن أبي القاسم الداوي.

- الثالث: للشريف محمد بن يعلى الحسني.
- 2- حاشية ثانية على شرح المرادي على الألفية (خ).
- 3- حاشية على شرح المرادي على الألفية (خ).
- 4- شرح أبي سليمان داود التلاتي على الأجرومية (خ).
- 5- شرح لامية الأفعال لابن مالك (ط).
- 6- شرح على العيني، يذكره الشيخ اطفيش على أنه كتاب في النحو.
- 7- قصيدة الغريب، نظم "مغني اللبيب" لابن هشام الأنصاري.
- 8- الكافي في التصريف (خ).
- 9- المسائل التحقيقية في بيان التحفة الأجرومية (خ).
- 10- معتمد الصواب، شرح شواهد قواعد الإعراب، لابن هشام (خ)
- ثانيا- القراءات:
- 11- جامع حرف ورش، وهي المنظومة التي أقام عليها الشرح المذكور سابقا.
- 12- شرح جامع حرف ورش، وهو المسمى بتلقين التالي لآيات المتعالي (خ).
- ثالثا- البلاغة:
- 13- الانشراح في بيان شواهد التلخيص والمفتاح (خ).
- 14- بيان البيان، في علم البيان (خ).
- 15- تخلص العاني من ريقة جهل المثاني (خ).
- 16- ربيع البديع، في علم البديع (خ).
- 17- شرح الاستعارات، وهو شرح على شرح عصام الدين إبراهيم بن محمد على متن "الاستعارات".
- رابعا- الخط العربي :
- 18- الرسم في تعليم الخط.
- 19- مختصر ثان في علم الخط (خ)، وهو شرح لما في "جمع الجوامع" للسيوطي.
- خامسا- العروض:
- 20- إيضاح الدليل إلى علم الخليل (خ)، وهو حاشية على شرح الخزرجية لأبي يحيى زكرياء الأنصاري.

سادسا- المؤلفات التاريخية:

21- تحفة أهل بريان (ط).

22- الرسالة الشافية في بعض تواريخ أهل وادي ميزاب (ط).

سابعا- المؤلفات الدينية:

وهذه المجموعة هي أكثر مؤلفاته، ولا يمكن حصرها على وجه التحديد، لذلك نذكر بعضها على سبيل التمثيل في التفسير والحديث والفقه التوحيد.

23- أجور الشهور على مرور الدهور (ط).

24- إزالة الاعتراض عن محقي آل إياض (ط).

25- ساس الطاعات والنيات لجميع الطاعات (ط).

26- إطالة الأجور وإزالة الفجور (ط).

27- الإمكان فيما جاز أن يكون أو كان (ط).

28- تيسير التفسير، في ستة أجزاء، والجزء الرابع منه في سفرين، طبع في الجزائر سنة

1326هـ

29- جامع الشمل في أحاديث خاتم الرسل - صلى الله عليه وسلم - (ط).

30- جامع الوضع والحاشية (ط).

31- الجنة في وصف الجنة (ط).

32- حاشية القناطر، "قناطر الخيرات" (خ). وهي حاشية على كتاب إسماعيل الجيطالي.

33- حاشية المنصف في نفي تأويل المحرف (خ).

34- الحجة في المحجة في التوحيد بلا تقليد (ط).

35- حي على الفلاح، في ستة أجزاء (خ).

36- داعي العمل إلى يوم الأمل. تفسير للصور الأواخر من القرآن الكريم (خ).

37- الذخر الأسنى في أسماء الله الحسنى (ط).

38- الذهب الخالص المنوّه بالعلم القالض (ط).

39- السيرة الجامعة من المعجزات اللامعة (ط).

40- شامل الأصل والفرع في علوم الشريعة (ط).

41- شرح دعائم المختصر، وهو شرح ثان للشيخ على ديوان ابن النظر العماني (ط).

- 42- شرح الدعائم الموسع (خ).
- 43- شرح عقيدة التوحيد لأبي حفص عمرو بن جميع (ط).
- 44- شرح لامية ابن النظر العماني في الولاية والبراءة (خ).
- 45- شرح النيل، منه عشرة أجزاء كبيرة في الفقه (ط).
- 46- الغسول من أسماء الرسول (ط).
- 47- فتح الباب للطلاب، شرح معالم الدين للشيخ عبد العزيز الثميني (خ).
- 48- مختصر الوضع والحاشية في الفقه (ط).
- 49- مسائل السير، وهو اختصار للمسائل الفقهية من كتاب «سير المشايخ» لأبي العباس أحمد بن سعيد الشماخي (خ).
- ثامنا- القصائد الشعرية⁷ :
- شعره الخاص بحياته، ومواقفه مع الناس.
- 50- البائية، في أوضاع عصره (خ).
- 51- الرائية، في رحلة إلى ورجلان (خ).
- 52- العينية، في بعض الأحداث أيضا (خ).
- 53- القصيدة الحجازية في رحلته الثانية إلى الحجاز (خ).
- 54- اللامية، يشتكي فيها مما أصابه من الناس (خ).
- 55- الميمية، في بعض الخلافات مع غيره أيضا (خ).
- شعره في مدح الرسول، عليه الصلاة والسلام.
- 56- الرائية.
- 57- رائية في غزوة بدر.
- 58- الدالية.
- 59- اللامية.
- 60- الميمية.
- شعره في مدح شخصيات معاصرة، وهي مخطوطة.
- 61- تعزية علي بن حمودة سلطان زنجبار.
- 62- شكر باي تونس أثناء فتحه لطريق الحج.

63- مدح أخيه، الحاج إبراهيم بن يوسف اطفيش.

64- مدح حمود بن محمد.

65- مدح السلطان فيصل حمود بن محمد بن عمان.

66- مدح سليمان بن ناصر، أمير زنجبار.

ب- القسم الخاص المفصل

ولأهمية الكتب اللغوية في مجالات البحوث والدراسات إرتأيت أن أفصل فيها القول على نحو ما تيسرنا جمعه⁸، من أصوات؛ وصرف؛ وخط؛ ونحو؛ وتفسير، وهي كالآتي:

1- تيسير التفسير: هو ثالث كتب في التفسير، ألفه بعد كتابه: «هميان الزاد إلى دار المعاد»؛ و«داعي العمل ليوم الأمل» بعد أن تقدم به السن؛ وشعر بنفور القراء من التفسيرين السابقين، ذلك لقوله: «أما بعد، فإنه لما تقاصرت الهمم عن أن تهيم بـ "هميان الزاد" الذي ألفته في صغر السن، وتكاسلوا عن تفسيري "داعي العمل ليوم الأمل" انشطت همتي إلى تفسير يغتبط ولا يمل، فإن شاء الله قبله بفضل، وأتمه قبل الأجل، وأنا مقتصر على حرف نافع ولمصحف عثمان تابع، وأسأل ذا الجلال أن ينعم علي بالقبول والكمال»⁹.

إن "تيسير التفسير" كان خلاصة لتجربة الشيخ في تفسير القرآن الكريم، حيث تجنب فيه التطويل والاستطراد المخل اللذين أحدثهما في تفسيره "هميان الزاد"؛ و"داعي الأمل" حسب قوله في مقدمة "التيسير"، ولكن على الرغم من حذر التطويل والاستطراد المخل، ففي "التيسير" بعض الاضطراب والإخلال.

وهذا الكتاب يمتاز بكماله وشموله لسور القرآن، ويمتاز أيضا بالتهذيب والتخليص من الشوائب التي وقعت في "هميان الزاد إلى دار المعاد"، والتي على إثرها وجهت إليه انتقادات وطعون خطيرة¹⁰، لما فيه من تصريحات وفتاوى؛ لا نراها تخدم وحدة المسلمين وتجمعهم؛ بقدر ما تضعفهم وتفرقهم.

وطبع "تيسير التفسير" في أول طبعة حجرية في الجزائر سنة 1326هـ، في ستة أجزاء من الحجم الكبير، والجزء الرابع منه في سفرين، وأخيرا أخرجت منه أجزاء محققة في الجزائر ابتداء من سنة 1996م، ولا يزال بعضه قيد التحقيق.¹¹

انتهج فيه الشيخ اطفيش طريقة مزج الآيات بالشرح، مستخدما إياها استخداما تقليديا، وما يلاحظ فيه أن الشيخ كان منوعا في الاستدلال على القضايا العقديّة والفقهية بألوان الاستدلال المعروفة، التي منها تفسير الآية بنظائرها، أو تقوية الأحكام بالقراءات الشاذة، وقد يعتمد الأحاديث النبوية، أو أشعار العرب. وما يتميز به الشيخ في هذا الكتاب وغيره تعدد مصادر ثقافته

وتنوعها إلى درجة الإعجاب، بيد أنه لم يسلم من سرد الخرافات وافتقاد المنهجية والعلمية¹².

2- شرح جامع حرف ورش:

هذا الكتاب هو شرح لمنظومة ألفها الشيخ اطفيش في القراءات؛ اتباعا لرواية ورش¹³ عن نافع¹⁴ حسب رسم المصاحف المغربية، ويسمى أيضا بـ"تلقين التالي لآيات المتعالي"، يقول فيه الشيخ: «هذا النظم محتو على المسائل البعيدة لصعوبتها، أو عدم شهرتها، وثابت مما روى ورش لا قالون¹⁵ عن نافع، بحسب الوجه الذي الضبط واقع بذلك، أي: به كتب المغرب، ولا أذكر ما يروى له غير ورش، ولا ما ينسب لسائر القراء، كالكسائي¹⁶؛ وابن كثير¹⁷؛ وأبي عمرو¹⁸؛ ونافع من أهل المدينة، مدينة النبي -صلى الله عليه وسلم»¹⁹. هذه أهم المعالم الكبرى التي رسمها الشيخ لكتابه وسار عليه في تأليفه.

وأما مناسبة تأليف هذا الكتاب فيتحدث عنها الشيخ اطفيش نفسه فيقول: «أما بعد، فإن الله عز وجل أوجب مراعاة القرآن عملا وحفظا؛ وأصلا ولفظا، ووفقني نظم بعض قواعده، وإيضاح بعض فوائده، وطلب مني بعض مالكية المعسكر²⁰ شرحه، كما اشتد الشيخ عمر بن عيسى التدميري²¹ من طلبة الشيخ عبد الله ابن يحيى النفوسي²² في طلبه، ونظم قصيدة في مدح ذلك النظم، وأرسلها إليّ، فأسأل الله الرحمن الرحيم في مساعدتهما أن أكون مخلصا، وأن يعينني، فأفرغ في مدة قليلة»²³.

ولقد عالج الشيخ في كتابه مسائل متعددة في القراءات نذكر منها بعد البسملة والاستعاذة: باب همزتي القطع المفتوحين²⁴، وتعريف القراءة الصحيحة²⁵، وباب الهمزتين المكسورتين من كلمتين²⁶، وفصل في مدّ ميم الجمع بالواو وإن قطع همز بعده²⁷، وباب الإخفاء²⁸، وفصل جامع في الإدغام الصغير²⁹، وفصل في الحروف المتقاربة المخارج³⁰، وفصل في أحكام النون الساكنة والتنوين³¹، وفصل جامع في الإدغام الكبير³²، وفصل في أفراد القراءات وجمعها³³، وباب في ترقيق الرءاء³⁴، وتفخيم اللام³⁵، وباب في الإمالة³⁶، وباب في الوقف³⁷ وباب في الشكل³⁸، وفصل في محاسن الأندلس³⁹، وفصل في ترجمة ابن الجزري⁴⁰، وفصل في لا نقط ولا شكل لهمزة الوصل⁴¹، وفصل في الهمزة إذا لم يكن لها صورة، وفصل في كيفية تلاوة القرآن الكريم ومحاسنها.

هذه أهم العناوين الكبرى في الكتاب، والتي أدرج فيها كثيرا من القضايا الصوتية والصرفية، وسرد أحيانا جملة من تراجم القراء والعلماء.

إن كتاب "شرح جامع ورش" يشبه إلى حد كبير كتاب "النجوم الطوالع على الدرر اللوامع في أصل مَقْرَأ الإمام نافع" لإبراهيم المارغني، الذي يعد شرحا لأرجوزة من نظم أبي الحسن علي بن محمد المشهور بابن بَرّي، المسماة بـ"الدرر اللوامع في أصل مقر الإمام نافع"، والتي ضمنها

قراءة نافع من روايتي قالون وورش، وبَيَّن الخلاف بينهما في الأصول والفرش⁴²، وأورد فيها ما أمكنه من الحجج والتوجيهات، مع الاختصار وقلة التعقيد في العبارات.

إلا أن الفارق بين الكتابين، يتمثل في اقتصار الشيخ اطفيش على قراءة نافع من رواية وورش فقط، كما أنه اقتصر على مواضيع صوتية وصرفية اختلف فيها القراء ورواتهم، اختصت بالفاظ قرآنية، كالهمز وحالاته؛ من تحقيق وتسهيل؛ وإبدال؛ وكالإدغام؛ والإمالة؛ والحذف والزيادة، الذي تتعرض له بعض الحروف، وغيرها من المواضيع التي يهتم بها علماء القراءة والتجويد. وهذه المواضيع نفسها هي التي تحدث عنها الشيخ إبراهيم المارغي في كتابه "النجوم الطوالع" مع فارق في تقديمها وتأخيرها؛ وكيفية شروحاتها، بالإضافة إلى إدراج رسائل أربعة في آخر الكتاب، يعالج فيها المارغي جزئيات من علم القراءة، لذلك فالكتابان متشابهان، لأنهما يعالجان موضوعات في القراءة والتجويد، كما أنهما يتناولان قراءة نافع عند وورش، ويتشابهان أيضاً لأنهما شرعان على منظومتين، ويمتاز الشيخ اطفيش بإنجاز النظم والشرح معا.

وأما المنهج المتبع في الكتاب، فهو منهج تعليمي تقليدي، لم ينح فيه من قبضة المنهج العربي القديم في التأليف اللغوي، إذ وضع لكتابته مقدمة يبين فيها: أسباب التأليف، وعنوان الكتاب، والطريقة التي سلكها في الشرح، قاصداً من وراء ذلك الإفهام والتبيين لطلابه، وقسم الشيخ كتابه – على غرار التأليف الذي جرى في عصره وفي عصور سابقة – أبواباً وفصولاً وتبسيهات وفوائد، عرض فيها آراء العلماء؛ معوزة إلى أصحابها في مضانها، ولكنه لا يناقش هذه القضايا إلا نادراً ويأجيز شديد، خلافاً لما اتبعه في كتبه الأخرى، مثل "تيسير التفسير"، و"شرح لامية الأفعال"، و"المسائل التحقيقية في بيان التحفة الآجرومية".

وما يسترعي انتباهنا فيه هو كثرة تراجم العلماء، نحة ولغويين وقراء، كما انه كان شغوفا بعلماء الأندلس والمغاربة، حيث أورد ترجمة لأبي حيان النحوي (ت745هـ) بلغت أربعة عشرة صفحة في المخطوطة، ويتجلى شغوفه أيضاً بالأندلس إذ تحدث عن تاريخها الطويل من سكان أصليين، وفاتحين، ووصف طبيعة البلد، وعمارته من دور ومساجد، وسرد ما قيل فيها من شعر، وهو كثير، إلى أن بلغ مجموع الصفحات في المخطوط حوالي ثلاثين صفحة، وهذا استطراد في غير موضعه، ولكن ارتضاه علماؤنا الأولون لما فيه من استراحة ذهنية وتوسيع الفائدة.

3- شرح لامية الأفعال:

"لامية الأفعال" منظومة في علم التصريف لابن مالك (ت 672هـ) مطلعها:

الحمد لله لا أبغي به بدلاً	✽	حمداً يبلغ من رضوانه الأملاً
ثم الصلاة على خير الورى وعلى	✽	ساداتنا آله وصحبه الفضلاً
و بعدُ فالفعل من يُحكّم تصرّفه	✽	يحز من اللغة الأبواب والسُّبُل

فَهَاكَ نِظْمًا مُحِيطًا بِالْمُهِمِّ وَقَدْ يَخْوِي التَّفَاصِيلُ مِنْ يَسْتَحْضِرُ الْجُمْلَا



وعَالَجَتْ هَذِهِ الْمَنْظُومَةُ بَعْدَ الْمَقْدَمَةِ الْأَبْوَابِ الْآتِيَةِ:

- باب أبنية الفعل المجرد وتصاريفه-فصل في اتصال تاء الضمير أو نونه بالفعل -باب أبنية الفعل المزيد فيه -فصل في الفعل المضارع -فصل في فعل ما لم يسم فاعله-فصل في فعل الأمر-باب أبنية أسماء الفاعلين والمفعولين -باب أبنية المصادر-فصل في مصادر ما زاد عن الثلاثي -باب المفعَل والمَفْعِل ومعانيهما -فصل في بناء المَفْعَلَة -فصل في بناء الآلة.

وعلى منظومة "لامية الأفعال" شروح منها:⁴³

- "شرح ابن الناظم"، بدر الدين (ت 686هـ)، وهو شرح مختصر في وركات.
- "تحقيق المقال وتسهيل المنال في شرح لامية الأفعال"، لأبي عبد الله محمد بن العباس التلمساني، (ت 871هـ)، فرغ منه سنة 851هـ.

- "فتح الأفعال وضرب الأمثال"، لأبي عبد الله محمد بن عمر الحضرمي (ت 930هـ).
- "شرح لامية الأفعال" لمحمد بن يوسف اطفيش، أنهى تأليفه سنة 1260هـ.⁴⁴ وهو الكتاب المقصود في هذه الدراسة، يقول صاحبه في أسباب تأليفه: «إني لما رأيت علم التصريف فرضاً من فروض الكفاية، وكثراً يجب القصد إليه بأكمل العناية، ورأيت أهل هذه البلاد وما والاها جاهلين فوائد العلم صغاراً، واستنكافهم عن تعلمه كباراً، تعين عليّ أن أقوم بقرضه، ليسقط الكفر عني وعنهم، طالبا من الله الثواب، معرضاً عن الجفاء الصادر منهم».⁴⁵

فمن دوافع تأليف هذا الكتاب الجهل الذي أصاب بلده وما والاها من المدن والقرى. و يقول أيضاً في منهج الكتاب: «وجاء بحمد الله شرحاً تقر به عين الودود، ويفرح به قلب الحسود، معتمداً فيها على ما حفظت من شيعي، وعلى ما استخرجته وحققته من كتب الفن، لا مقلداً فيه ألفاظ شرح من شروحها، لئلا أكون كالمستعير من الفن، وكل ما كان فيه من مباحث أو مناقشة، في تصريف أو وزن، أو عروض، فإنما هو من بنات أفكار، ومن المقصورات في الخيام من حسن أبحاري، إلا ما فيه من حكاية لغات أو خلاف، أو موافقة وائتلاف، فإنما هو من تقليد في هذا الفن حولاً بعد حول، وتتبعي لكلام علمائه قولاً بعد قول...»⁴⁶

إننا نلمس غلواً ومبالغة في هذه المقدمة، لأن الكتاب لا يخل من عبارات التقليد شكلاً أو مضموناً، ولكن مهما يكن فالكتاب يحوي معارف جديدة بالدرس في علم الصرف لا يستهان بها، ولا سيما منهجه في عرض الآراء العلمية وطريقة مناقشتها.

وميزة أخرى ترصع بها هذا الكتاب هي تنوع مصادره اللغوية التي قد تندرج في أمّات الكتب، ولسنا مبالغين إن أضفنا حلية أخرى لهذا الشرح هي التوسع، إذ بلغ الكتاب أربعة

أجزاء في طبعة غير محققة، وهي ميزة قلما يرقى إليها شرح من شروح "لامية الأفعال"، ناهيك عما فيه من براعة في الاستدلال بأنواعه، من قرآن وقرآيات شاذة، وحديث نبوي، وأشعار، وكلام العرب.

4 - الكافي في التصريف:

يقول فيه بعد البسملة: «الحمد لله صارف الضر مولى اللطف والبر، مضاعف ثواب الأعمال، المنزه عن الجوف وكل نقص ومثال، جابر الكسر ميسر العسير، وبعد، فهذا تأليف في الصرف بمنّ ذي اللطف ينتفع به المبتدئ، فالى غيره يهتدي، إن شاء الله عز وجل، قابل ما جلا أو قل، وسميته بـ"الكافي"، والله الولي المعافي، وفيه مقدمة وسبعة أبواب...»⁴⁷.

وكانت خطة الكتاب مبنية على النحو الآتي :

- المقدمة: حديث عن علم الصرف وأهميته، وعرض للاشتقاق بأنواعه من صغير وكبير وأكبر⁴⁸.

- الباب الأول: المصدر ومشتقاته⁴⁹، وتنطوي تحت هذا الباب فصول هي: الفعل الماضي⁵⁰،

والفعل المضارع⁵¹ وفعل الأمر⁵²، وحروف الزيادة⁵³، واسم الفاعل⁵⁴، والصفة المشبهة⁵⁵، واسم التفضيل⁵⁶، وصيغ المبالغة⁵⁷، واسم المفعول⁵⁸، واسما المكان والزمان⁵⁹، واسم الآلة⁶⁰.

- الباب الثاني: في المضاعف⁶¹، وتحت الإدغام⁶²، وصفات الحروف⁶³. - الباب الثالث: في المهموز⁶⁴، وتحدث فيه عن همزتي القطع والوصل⁶⁵. - الباب الرابع: في المثال⁶⁶. - الباب الخامس: في الأجوف⁶⁷، وفيه حديث عن الإعلال؛ والروم؛ والإشمام؛ والإخلاص⁶⁸. - الباب السادس: في الناقص⁶⁹، وفيه فصل عن الإبدال وحروفه⁷⁰. - الباب السابع: في اللفيف بنوعيه، مقرون ومفروق⁷¹. وأنهى الكتاب بخاتمة فيها الحمدلة والبسملة⁷². فهذه أهم موضوعات "الكافي في التصريف" والتي كانت شبيهة إلى حد بعيد في موضوعاتها بكتاب "مراح الأرواح" لصاحبه أحمد بن علي بن مسعود (القرن الثامن الهجري)⁷³.

وما هو جدير بالذكر هنا أن "الكافي في التصريف" يعد من الأعمال الإبداعية للشيخ في علم التصريف، فلم يكن شرحاً لمتن، أو ترتيباً لمواضيع، أو نظماً لنثر، وهو كتاب مختصر، اقتصر فيه على موضوعات صرفية مميزة، من أجلها صنف الشيخ أطفيش من إتباع المدرسة الصرفية التي يتزعمها المازني⁷⁴. ويلاحظ أيضاً في هذا الكتاب ندرة الأعلام والمصادر المعتمدة، خلافاً لما لاحظناه في مؤلفاته الأخرى حيث الوفرة والتنوع، ومرد ذلك أن الكتاب مختصر أعد للمتعلمين المبتدئين، ولكن قد لا يحجم الشيخ فيه عن آرائه، فكثيراً ما كانت معلنة إن تبين له

رأي مخالف للنحاة.

5- كتاب الرسم في تعليم الخط:

ورد في هذا الكتاب أن صاحبه ألفه في المسجد الحرام⁷⁵، وهو يحتوي على بحثين اثنين: أولهما: بحث خطي ممزوجا بقواعد صرفية وصوتية في أغلب الأحيان، وضح فيه الشيخ كيفية كتابة الحرف العربي، إما وحده أو مع غيره من الحروف، مركزا في شروحه على الحروف التي تتغير صورها في الخط شذوذاً؛ ولا سيما في خط المصحف، وخط المغاربة، ومن هذه الحروف: الهمزة والألف والتاء واللام والنون والواو والياء. فكلما رسم اطفيش صورة للحرف أو اللفظ أردفها بتعليلات صوتية أو صرفية أو نحوية، وقد تكون أحيانا نحوية أو دلالية، كقولهم: لالتقاء الساكنين أو لكثرة الاستعمال أو مخافة اللبس، أو للإفراد أو التركيب، وما شابه هذه العبارات التي كانت تعد عند النحاة أصولاً.

الثاني: هو بحث صوتي محض عرض فيه الشيخ مخارج الحروف الهجائية، وبين صفاتها مقلداً فيها القدماء، ناقلاً ما توارثته النحاة والقراء.

وفي هذا الكتاب خطة عامة مرسومة في مقدمة وأبواب وفصول، وتتميز البحث الأول منه بعد المقدمة بأبواب وفصول، ولكن قد لا نشعر أحيانا بميز الباب عن فصوله، مبتدئا فيه بعرض مسائل في الوصل والفصل، ثم مسائل الحذف، ثم مسائل الزيادة، وأخيرا مسائل متنوعة. وتتميز خطة البحث الثاني من الكتاب بمجموعة من الفصول من غير أبواب، وكان فيها لكل حرف من حروف الهجاء فصل.

ونشير هنا إلى أن "كتاب الرسم في تعليم الخط" يشبه إلى حد كبير جزءاً من كتاب "همع الهوامع" الذي وسّمه السيوطي بـ"خاتمة في الخط"⁷⁶، كما نلاحظ أن العنوان "كتاب الرسم في تعليم الخط" لا يعبر بصورة دقيقة عن مضمون الكتاب، لأنه لا يتناول قواعد الخط العربي فحسب، فموضوعاته كانت متنوعة فيها الصوت والصرف وكذلك النحو والدلالة. ولا يكون هذا العنوان في نظرنا مضبوطاً إلا من باب التغليب أو التقليد. وهو مطبوع بالمؤسسة الوطنية للكتاب في الجزائر سنة 1986م في حجم لا يتعدى ورفات.

6- المسائل التحقيقية في بيان التحفة الآجرومية:⁷⁷

من الكتب النحوية التي ما تزال مخطوطة، يقول الشيخ اطفيش في مقدمته «وبعد، فإن التطويل قد أخذنا منه حظنا، والحمد لله، وأما الاختصار والاقتصار، فهذا أوان الشروع فيهما تخفيفاً على المبتدئ بشرح الآجرومية شرحاً أذكر فيه قولاً واحداً من الأقوال أو اللغة، أو احتمالاً أو اثنين من ذلك، وربما ذكرت أكثر، وسميته "المسائل التحقيقية في بيان التحفة الآجرومية"»

فالكتاب صحيح النسبة إلى الشيخ، وهو شرح على المقدمة الآجرومية⁷⁸. لذلك كانت موضوعاته هي الموضوعات نفسها التي صنفها ابن آجروم في متنه، مع زيادة ما يسمى بالفوائد، وهي كالآتي:

- مقدمة الكتاب - الكلام وما يتعلق به - باب الإعراب - باب معرفة علامات الإعراب - فائدة: ردّ بعض شراح الآجرومية على من قال في ﴿ربنا أَرْنَا الَّذِينَ﴾ - فصل المعربات - باب الأفعال - مرفوعات الأسماء - باب الفاعل - باب المفعول الذي لم يسم فاعله - باب المبتدأ والخبر - باب العوامل الداخلة على المبتدأ والخبر - باب النعت - فائدة: يتعدى اللارزم بهمزة النقل... - باب المصدر - باب ظرف الزمان وظرف المكان - باب الحال - باب التمييز - فائدة: قال الدماميني والصبّان: يجب مطابقة تمييز الجملة للاسم السّابق إن كان الثاني عين الأول - باب الاستثناء - باب لا - باب المنادى - باب المفعول من أجله - باب المفعول معه - باب محفوظات الأسماء - خاتمة الكتاب.

هذه أهم موضوعات "المسائل التحقيقية"، ومن الملاحظات التي نسجلها هي التطويل والاستفاضة في الشرح، حيث بلغت صفحات المخطوطة خمسا وخمسين ومائتين (255) صفحة، من الحجم المتوسط، على الرغم مما ورد في مقدمتها بأنها اختصار واقتصار، لأنها أعدت للمتعلمين المبتدئين. ومهما يكن فلا ضير، لأنه من عادة المؤلفين قديما أن ينتهجوا هذا النهج في التأليف من غير مشاحة ولا اعتراض.

وما يلاحظ أيضا ف أن الشيخ اطفيش كان مجار في شرحه لمتن المصنف، معبرا في كثير من المواضع بتعابير ابن آجروم وبمصطلحاته، بل كثيرا ما كان متقيدا بأرائه غير مناقش إياها ولا معارض، ولعلّ غُدرَ الشيخ في هذه المواقف هو أولوية تيسير النحو للمتعلمين.

7- قصيدة الغريب "نظم مغني اللبيب":

هو منظومة لكتاب "مغني اللبيب عن كتب الأعراب" لابن هشام الأنصاري (ت761هـ)، يقول الشيخ في مطلعها⁷⁹:

تحتوي المخطوطة التي بين أيدينا⁸⁰ على أربع وسبعين وخمسمائة (574) بيتا، يبدأها بقوله:

قال عُبَيْدُ الله ذو التقصير	✽	محمّد بن يوسف الشهير
أول ناطق به لساني	✽	حمّد إله العرش ذي الإحسان
ثم أكمل بالصلاة والسلام	✽	على النبي وآله خير الأنام
و بعد، إن هذه قصيدة	✽	تقرب المسألة الشريفة
سميتها قصيدة الغريب	✽	تبعثُ فيها مغني الأريب

«الباب الأول في المفردات»، مستفتحا فيه بالهمزة، ومتوقفا في حرف اللام، وآخرها قوله⁸¹:

وهذه أحكام حرف اللام	✽	إن أفردت فهي على أقسام
عاملة للجر في الأسماء	✽	[و هكذا] تكسر في الأشياء
إلا مع المضمر فهي فتحة	✽	إلا مع الياء فكسرٌ امنحه
وافتحه مع مباشر للياء	✽	من مستغاثك بلا امتراء
وللجر معان يا فتى	✽	فالاستحقاق معها قد ثبتا
للاختصاص والتعدي ووردا	✽	ملك وتمليك وشبه قصدا
كذلك التعليل والتوكيد	✽	كذلك التبليغ والمزيد

ويبدو واضحا أن المنظومة مبتورة، لأنها لم تتضمن جميع المفردات الواردة ذكرها في مقدمة النظم، ولأنها لم تتضمن الأبواب الأخرى المذكورة في "مغني اللبيب" وهي:

– الباب الثاني: في تفسير الجملة، وذكر أقسامها وأحكامها⁸² – الباب الثالث: في ذكر أحكام ما يشبه الجملة⁸³ – الباب الرابع: في ذكر أحكام يكثر دورها⁸⁴ – الباب الخامس: في ذكر الجهات التي يدخل الاعتراض على المغرب من جهتها⁸⁵ – الباب السادس: في ذكر أمور اشتهرت بين المعربين والصواب خلافها⁸⁶ – الباب السابع: في كيفية الإعراب⁸⁷ – الباب الثامن: وهو الأخير في ذكر أمور كلية...⁸⁸.

والظاهر أن بتر المنظومة يعود إلى أن الشيخ اطفيش لم يكمل نظمها، أو أنه أكملها وجزؤها الأخير ما يزال مفقودا.

وبالإضافة إلى المؤلفات التي ذكرناها، فإن الشيخ اطفيش أشار إلى مؤلفات له في علم النحو، وبحسنا عنها وتأكد أنها في حكم المفقودات⁸⁹، وهي:

– الحاشية الأولى على شرح أبي القاسم الداوي على الآجرومية⁹⁰.

– حاشية التمرين لخالد الأزهرى.⁹¹

– حاشية الشذور وشرحه، لابن هشام.⁹²

– حاشية على إعراب الألفية، لابن مالك.⁹³

– حاشية على التصريح على التوضيح، لخالد الأزهرى.⁹⁴

– حاشية على القطر وشرحه، لابن هشام.⁹⁵

وعموما فلقد أحصيت أعمال الشيخ الموجودة في المكتبات الخاصة والعامة وكان عددها

واحدا وعشرين ومائة كتاب، باستثناء المراسلات، وأما الأعمال المفقودة فعددها يقارب أربعة عشر كتاباً⁹⁶، وكان معظمها في علمي الصرف والنحو.

وأخيراً إن وفرة الكتابة ونهمها لدى الشيخ اطفيش تعكس بصدق تسارعه مع الزمن، لتأسيس مدرسة شعارها تعليم اللغة العربية مجابهة للمنظومة الفرنسية التي كانت تسعى إلى طمس التراث العربي وهدم قيم الدين الإسلامي.

فلا ريب إذن أن تكون كتابته سلاحاً لمقاومة الغزو اللغوي والثقافي الفرنسي، والبدع والخرافات التي تفتشت في قومه، ولا ريب أن تكون إشحاداً للهمم بغية بناء نهضة فكرية وعلمية، ولا ريب أيضاً أن تكون هذه الغزارة في التأليف دلالة على استعجاله في التغيير لواقع متخلف أحس فيه بمسؤولية التربية والتعليم.

الهوامش:

¹ - نسبة إلى المذهب الإباضي، الذي ينسب إلى عبد الله بن اباض التميمي (ق 86هـ) ولكن الإمام المسس لهذا المذهب حسب رواية الإباضيين هو جابر بن زيد الأزدي (ق 93هـ) الذي ولد بقرية نزوى بعمان سنة 21هـ، وأخذ العلم عن عبد الله بن عباس. و نشأ المذهب الإباضي في البصرة في القرن الأول الهجري ثم انتشر في جنوب الجزيرة العربية ثم شمال أفريقيا في القرن الثاني للهجرة. يراجع: الشيخ محمد ابن يوسف اطفيش ومذهبه في التفسير ص: 75، وآراء الشيخ محمد ابن يوسف اطفيش العقديّة. مصطفى بن ناصر وينتن. (دط) نشر جمعية التراث القرارة غرداية - الجزائر. 1996م، ص: 19.

² - بني يزقن: حي من الأحياء المشكلة لمدينة غرداية حالياً، وما يزال الإباضيون الميزابيون يسكنونها إلى يومنا هذا.

والمراجع التي أثبتت ولادة الشيخ فيها هي: الذهب الخالص، (مقدمة أبي إسحاق اطفيش)، ص: ب. نهضة الجزائر، 1/290. ومعجم أعلام الجزائر، ص: 19. ومعجم المفسرين: 658/2، والأعلام للزركلي 156/7، وتاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجلالي. (دط). ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر. 1994م: 4/454.

³ - ملحق سير الشماخي: 167/2 ونهضة الجزائر: 386/1 والأعلام الزركلي 156/7. و معجم أعلام الجزائر: ص: 19، ومعجم المفسرين: 658/2. وتاريخ الجزائر العام: 454/4، والفكر السياسي عند الإباضية من خلال آراء الشيخ محمد ابن يوسف اطفيش، عدون جهلان، نشر جمعية التراث القرارة غرداية، الجزائر، (دت)، ص: 105

⁴ - اعتمدنا في عرض مؤلفات الشيخ اطفيش ما صرح به هو نفسه في كتبه، التي اطلعنا عليها، وفهارس خزائن الكتب في بني يزقن (غرداية) وكذلك كتاب «آراء محمد بن يوسف اطفيش العقدية» لمصطفى ويتن، وأشرنا إلى ما هو مخطوط، وإلى ما هو مطبوع، وأغلب مخطوطاته مودعة بخزائن بني يزقن، وأكثرها في مكتبة القطب اطفيش.

⁵ - قام الشيخ اطفيش بإعادة ترتيب بعض الكتب التي تناول فيها مؤلفوها مواضيع في التوحيد والحديث والفقهاء الإباضي ومنها ترتيب وتحقيق "المدونة الكبرى" لصاحبها أبي غانم الخرساني (أواخر القرن الثاني الهجري)، والكتاب المرتب مطبوع في دار اليقظة العربية بسوريا ولبنان. وأعد مصطفى ويتن قائمة الكتب المرتبة للشيخ وأحصاها سبعة.

يراجع: آراء محمد بن يوسف اطفيش العقدية، ص: 488.

⁶ - أحصى مصطفى ويتن أربعة أعمال منسوبة إلى الشيخ، وأثبت له (106) مراسلة، و (22) من الخطب والردود والرسائل، والمراد بالمراسلة كل ما كتبه الشيخ اطفيش إلى شخص أو هيئة على شكل طلب أو جواب على سؤال أو استفتاء، وأما الرسالة فهي ما تضمنت عملا ذا موضوع واحد ولكنها لا تشكل كتابا كاملا، لذلك فهي أسمى من الرسالة. يراجع: آراء الشيخ محمد بن يوسف اطفيش العقدية، ص: 488، 492.

⁷ - اعتمدنا ترتيب وتصنيف القصائد الشعريّة طريقة الباحث مصطفى ويتن، مع حذف بعضها اختصارا.

يراجع: آراء الشيخ محمد بن يوسف اطفيش العقدية، ص: 490.

⁸ - على الرغم من الجهود المضنية والمتكررة في جمع المؤلفات اللغوية للشيخ اطفيش فإننا لم نحصل إلا على ما سنذكره في هذا العرض، من مكاتبات بني يزقن (غرداية) فلقد زرنا مرارا مكتبة القطب، وهي المكتبة التي تحوي أكثر عدد من كتب الشيخ، ومنعنا فيها من تصوير المخطوطات لأسباب يقدمها قيموها بالية واهية، ولولا جهود بعض الأصدقاء ووساطتهم لما استطعنا جمع هذه المادة التي بين أيدينا، فهم مشكورون على صنيعهم هذا.

⁹ - تيسير التفسير، (الطبعة الحجرية): 2/1.

¹⁰ - يقول إبراهيم بن حسن بن سالم: «إن ما جاء في تفسير "هميان الزاد إلى دار المعاد" من تعابير سخيفة وقحة ومن أوصاف نال بها من عليّ وعثمان - رضي الله عنهما - من مثل قوله (ضلالة عليّ)، (وإن أول من كفر بتلك النعمة وجحد حقها عثمان بن عفان)، ومن مثل نسبة البغي والكفر بآيات الله وباللقاء به إلى الإمام علي، ونسبة خيانة المسلمين إلى عثمان، ونسبة التبديل والتغيير في الدين لهما، جميع هذا يمثل السخافة في القول والتهور في التعبير والضلالة في الحكم، ومع هذا فهو يحاول أن

يجعل ما ذهب إليه سندا من القرآن ومن السنة بواسطة التأويل، والحق الذي لا يقبل جدلا، إن كلاً من القرآن والسنة يكذب هذا النوع من التأويل ويلعن من يقول به ويدين به.»

يراجع: قضية التأويل في القرآن الكريم بين الغلاة والمعتدلين، إبراهيم بن حسن بن سالم، (ط1)، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1993م: 44/2

¹¹ – يقوم بتحقيقه الشيخ إبراهيم طلاي بمساعدة لجنة من الأساتذة في غرداية، الجزائر.

¹² – ومنها علامات قيام الساعة وتقدير ميقاتها وخروج الدابة ونزول عيسى والمهدي المنتظر، وأشياء أخرى.

يراجع: تيسير التفسير (الطبعة الحجرية): 72/2، 408/3، 519، 859، 4(ق1)/89. والذهب الخالص ص: 13. وآراء محمد بن يوسف العقدي، ص: 161.

¹³ – ورش هو عثمان ابن سعيد المصري، ويكنى أبا سعيد، ولقب ورش لشدة بياضه، توفي بمصر سنة 197هـ. التيسير في القراءات السبع. أبو عمر الداني. تصحيح أنوير تزل. (ط1). دار الكتب العلمية بيروت. 1996م. ص: 17. وتحرير التيسير في قراءات الأئمة العشر. ابن الجزري (محمد بن محمد). (ط1)، دار الكتب العلمية، بيروت. 1404هـ/1983م، ص: 14.

¹⁴ – نافع هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم، توفي في المدينة سنة 169هـ. التيسير في القراءات السبع، ص: 17. وتحرير التيسير، ص: 14.

¹⁵ – قالون: هو عيسى ابن مينا المدني الزرقى، ويكنى أبا موسى، توفي بالمدينة قريبا من سنة 220هـ، التيسير في القراءات السبع، ص: 17. وتحرير التيسير، ص: 14.

¹⁶ – الكسائي: هو علي بن حمزة النحوي، توفي برئثويه من قرى الري، سنة 189هـ. التيسير في القراءات السبع ص: 19. وتحرير التيسير، ص: 16.

¹⁷ – ابن كثير: هو عبد الله بن كثير الداري، توفي بمكة سنة 120هـ. التيسير في القراءات السبع، ص: 17. وتحرير التيسير: 14.

¹⁸ – أبو عمرو: هو أبو عمرو بن العلاء بن عمار، توفي بالكوفة سنة 154هـ. التيسير في القراءات السبع، ص: 18. وتحرير التيسير: 14.

¹⁹ – شرح جامع حرف ورش، (مخطوط)، ورقة: 3 (و).

²⁰ – لعله يقصد سكان مدينة معسكر وضواحيها من المذهب المالكي في الجزائر.

²¹ – من علماء نفوسة بليبيا متوفى سنة 1903م. معجم أعلام الإباضية: 946/3.

²² – زعيم العائلة البارونية ومعاصر للشيخ اطفيش. معجم أعلام الإباضية: 969/4.

²³ – شرح جامع حروف ورش، ورقة: 1 (و)، مخطوط في مكتبة الاستقامة بني يزقن غرداية، رقم:

(ج: 67)

²⁴ – جامع حرف ورش، ورقة: 7 (ظ).

²⁵ – المصدر نفسه، ورقة: 8 (ظ).

²⁶ – المصدر نفسه، ورقة: 13 (ظ).

²⁷ – المصدر نفسه، ورقة: 46 (ظ).

- 28- المصدر نفسه، ورقة: 48 (ظ).
- 29- المصدر نفسه، ورقة: 50 (و).
- 30- المصدر نفسه، ورقة: 51 (و).
- 31- جامع حرف ورش، ورقة: 52 (ظ).
- 32- المصدر نفسه، ورقة: 55 (و).
- 33- المصدر نفسه، ورقة: 56 (ظ)، و 98 (ظ).
- 34- المصدر نفسه، ورقة: 57 (ظ)، و 59 (و).
- 35- المصدر نفسه، ورقة: 61 (ظ)، و 62 (و).
- 36- المصدر نفسه، ورقة: 62 (ظ).
- 37- المصدر نفسه، ورقة: 73 (و).
- 38- المصدر نفسه، ورقة: 114 (ظ).
- 39- المصدر نفسه، ورقة: 113 (و).
- 40- المصدر نفسه، ورقة: 118 (و).
- 41- المصدر نفسه، ورقة: 151 (ظ).
- 42- المقصود بالأصول هو الحكم المطرد الكلي الجاري في كل ما نحقق فيه شرط ذلك الحكم، كالمد والقصر والإظهار والإدغام ونحو ذلك.
- والمقصود بالفرش هو الحكم غير المطرد المنفرد، وهو ما يذكر في السور من كيفية قراءة كل كلمة قرآنية مختلف فيها بين القراء، مع عزو كل قراءة إلى صاحبها، كتسكين راء قرية في التوبة لقالون، وضمها لورش، ونحو ذلك، وهذا ما يسمى بفرش الحروف، أو الفروع. يراجع: النجوم الطوالع على الدرر اللوامع، ص: 142.
- 43- المذهب في علم التصريف، هاشم طه شلاش وآخرين (دط) مطبعة التعليم العالي، الموصل بغداد 1989م، ص: 4.
- 44- شرح لامية الأفعال، (ط1) وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، 1986م: 482/4.
- 45- المصدر نفسه: 9/1.
- 46- شرح لامية الأفعال: 10/1.
- 47- الكافي في التصريف، اطفيش، مخطوط غير مرقم، مكتبة الحاج صالح لعللي، بني يزقن، غرداية، الجزائر، ورقة: 1 (ظ).
- 48- المصدر نفسه: 1 (ظ).
- 49- الكافي في التصريف: 2 (ظ).
- 50- المصدر نفسه: 6 (ظ).
- 51- المصدر نفسه: 9 (ظ).
- 52- المصدر نفسه: 11 (و).
- 53- المصدر نفسه: 11 (و).

- 54- المصدر نفسه: 13 (و).
- 55- المصدر نفسه: 14 (و).
- 56- المصدر نفسه: 14 (و).
- 57- المصدر نفسه: 14 (و).
- 58- المصدر نفسه: 14 (ظ).
- 59- المصدر نفسه: 15 (و).
- 60- المصدر نفسه: 15 (ظ).
- 61- المصدر نفسه: 15 (ظ).
- 62- المصدر نفسه: 16 (و).
- 63- المصدر نفسه: 17 (و).
- 64- المصدر نفسه: 18 (و).
- 65- المصدر نفسه: 21 (ظ).
- 66- المصدر نفسه: 21 (ظ).
- 67- المصدر نفسه: 22 (و).
- 68- المصدر نفسه: 25 (و).
- 69- المصدر نفسه: 25 (ظ).
- 70- الكافي في التصريف، 26 (و).
- 71- المصدر نفسه: 27 (ظ).
- 72- المصدر نفسه: 28 (و).
- 73- يراجع مراح الأرواح، احمد بن علي بن مسعود، (دط)، دار سعادت، استنبول، تركيا، 1975م.
- 74- المدارس الصربية، ص: 50، والتصريف (موضوعاته ومؤلفاته)، ص: 61.
- 75- كتاب الرسم في تعليم الخط، اطفيش. (دط) المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص: 5.
- جرت عادة العلماء القدامى انهم يؤلفون في المسجد الحرام للتبرك به، وبغية الانتفاع بالعلم وانتشاره بين القراء، وكان ابن آجروم قد قيل ذلك عنه في المقدمة الآجرومية.
- 76- يراجع: همع الهوامع: 231/2.
- 77- المسائل التحقيقية في بيان التحفة الآجرومية، اطفيش، مخطوط بمكتبة القطب رقم: (أ-م: 5)، غرداية، الجزائر.
- 78- المقدمة الآجرومية، هي متن مختصر في علم النحو، لمؤلفها: أبو عبد الله محمد الصنهاجي، ولد بفاس، ومات فيها سنة 723هـ، شاع تدريس وتحفيظ مقدمته في الكتاتيب والزوايا والمدارس الكبرى، وخاصة في المغرب العربي، ولشهرتها أعدت عليها شروح، منها المبسوط ومنها المختصرة، وكان لعلماء الجزائر قديما حظ وافر من هذه الشروح.
- يراجع: شرح المقدمة الآجرومية للشيخ خالد الأزهرى، تحقيق: أحمد جلايلي، رسالة ماجستير مودعة بقسم اللغة العربية وآدابها، جامعة تلمسان، 1996م، ص: 74.

- 79 - قصيدة الغريب (نظم مغني اللبيب)، اطفيش، مخطوطة بمكتبة القطب برقم (أ-م: 9) غرداية الجزائر، ص: 1.
- 80 - تحتوي مخطوطة قصيدة الغريب (نظم مغني اللبيب) التي بين أيدينا على اثنين وثلاثين (32) صفحة.
- 81 - المصدر نفسه، ص: 32.
- 82 - مغني اللبيب، ابن هشام، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (دط) المكتبة العصرية بيروت، 1991م، 431/2.
- 83 - المصدر نفسه، 499/2.
- 84 - المصدر نفسه، 521/2.
- 85 - مغني اللبيب: 605/2.
- 86 - المصدر نفسه، 749/2.
- 87 - المصدر نفسه، 767/2.
- 88 - المصدر نفسه، 779/2.
- 89 - آراء محمد ابن يوسف اطفيش العقديّة، ص: 493.
- 90 - شرح لامية الأفعال،: 169/1.
- 91 - المصدر نفسه: 280/1، 235/3.
- 92 - آراء محمد ابن يوسف اطفيش العقديّة، ص: 494.
- 93 - شرح لامية الأفعال، 168/1.
- 94 - آراء محمد ابن يوسف اطفيش العقديّة، ص: 494.
- 95 - شرح لامية الأفعال، 110/1.
- 96 - آراء محمد بن يوسف اطفيش العقديّة، ص: 497.

الشيخ اطفيش (القطب) وعلمه النبيلة (مقارنة في الموضوع والمنهج)

محمد السعيد بن سعد

قسم اللغة العربية وآدابها المركز الجامعي غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000، الجزائر

إنه لمن الواجب والاعتراف بالجميل، أن نتذكر علماءنا الأفاضل الذين أعطوا فأجزلوا العطاء، وجاهدوا في سبيل تنوير عقول الأمة، في الجزائر عامة، والصحراء منها بخاصة، نذكر منهم: العلامة ابن باديس، والشيخ محمد البشير الإبراهيمي، الشيخ بيوض، عمر بن عيسى بلعيد (بريان) المقرئ أبو العباس، بن الوقاد التلمساني، سعيد قدورة، عبد الكريم الفكون، وأبو القاسم بن يحيى بن أبي القاسم بن محمد الغرداوي المصعبي، وابنه حمو والحاج، والشيخ محمد بن الكبير، الشيخ باي بلعالم، وغيرهم كثير.

آثارا أن نقارب شخصية جلييلة منهم ألا وهو: الشيخ قطب الأئمة محمد بن يوسف اطفيش، في كتابه الموسوم: "تخليص العاني من ربة جهل المعاني". [فك العاني من ربة جهل المعاني]¹، فمن هو الشيخ اطفيش: هو الشيخ امحمد بن يوسف بن عيسى بن صالح بن عبد الرحمن بن عيسى بن اسماعيل اطفيش من مواليد 1238هـ/1821م على خلاف في ذلك (1236 و 1237، 1238)² بغرداية.

تلقب أسرته "اطفِيش" وهي في لغة ميزاب: "خذ تعال كل، من ثلاث مقاطع بهذا الترتيب"، يقول الباحث: "ربما هو كناية عن الكرم والجود"³

أما وصفه "بالقطب" فليس رتبة من رتب التصوف ولكنه يدل على مكانته في مجتمعه وعلى كونه مرجعا للإباضية في وقته ولا يزال⁴، يقول د. أبو القاسم سعد الله في ذلك: "حظي بلقب القطب دلالة على المكانة السامية التي وصلها بين معاصريه، بحيث أطلقه عليه أحد العلماء فلصق به، وحجبه تلاميذه وأنصاره، فأصبح اسمه لا يذكر ولا يعرف إلا بذلك اللقب.

عاش الشيخ اطفيش يتيمًا تحت رعاية أمه وإخوته وكفالتهم، عانى ويلات الفقر حتى لم يكن يجد ما يستسخ به كتبه لكن سرعان ما تحسنت أحواله، اشتغل بالتدريس، وتولى القضاء، سجل رحلته إلى الحجاز ذاكراً من التقى بهم من علماء، وذكر أهم المدن التي مرّ بها، وما اقتنى من كتب حينها.

وعرف الشيخ بجهوده في الإصلاح كمحاربة البدع، وإصلاح اعتقاد الناس وإبعاده عن الاعتقادات الفاسدة، والشعوذة والركون إلى الكسل وانتظار الخوارق⁵.

وقد ضيق عليه الاحتلال الفرنسي وقيد من حركته، حتى أصبح لا ينتقل إلا برخصة من القائد العسكري⁶.

توفي الشيخ محمد بن يوسف اطفيش يوم السبت 23 ربيع الثاني سنة 1332هـ/1914م. مخلّفاً آثاراً عديدة فاقت المائة (100) مؤلف في مختلف الفنون⁷، وقيل أكثر⁸.

من مؤلفاته في بشكل عام نذكر:

- 1- نظم المعاني (أول تأليف له) مخطوط.
- 2- شرح لامية الأفعال مخطوط طبع في سلطنة عمان.
- 3- شرح شواهد القزويني مخطوط.
- 4- شرح شواهد قواعد الإعراب مخطوط.
- 5- حاشية شرح الأجرومية للدواوي مخطوط.
- 6- إيضاح الدليل إلى علم الخليل في العروض مخطوط.
- 7- كتاب الرسم في تعليم الخط مخطوط طبع 3 مرات.

أما مؤلفاته البلاغية موضوعنا الرئيس، فنشير إلى:

- 1- تخلص العاني من ربة المعاني، تحقيق د. محمد زمري (جامعة تلمسان 2009)، والذي نركز عليه بخاصة.

- 2- ربيع البديع في علم البديع مخطوط.
- 3- بيان البيان في علم البيان مخطوط.
- 4- الانشراح في بيان شواهد اللخيص والمفتاح مخطوط.

5- شرح الاستعارات

مخطوط.

وبعضهم أورد له تلخيص العاني وريع البديع فقط، والظاهر من خلال هذه الكتب الثلاثة الأولى أن القطب تناول بالدراسة علوم البلاغة الثلاثة: علم المعاني، علم البيان، وعلم البديع. (ظهر) عرض اللوحة الأولى: باب فصاحة المفردات، واللوحة السابعة: باب فصاحة المتكلم ثم اللوحة الثالثة والتسعون (وجه): في الشرط والجواب. وأخيرًا اللوحة الأخيرة (والصلاة والسلام على خاتم النبيين وجميعهم وآله وصحبه، وختم الله لي ولوالدي ولأمتنا ولجميع المسلمين، سبحانه ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، مع العلم أن بدأ بتنزيه الله عن الشريك، وبعدها تخلص العاني من ربة جهل المعاني، تقبله الله مني وجعله محوًا للذنوب عني)، وهذا دأبه في جل كتاباته.

عوامل نبوغ الشيخ اطفيش: من عوامل نبوغه نذكر⁹:

– النشأة العصامية، أي أنه نشأ نشأة علمية اعتمد فيها على نفسه.

– الوراثة والبيئة:

* بحيث إن أخاه إبراهيم كون فيه الرغبة المتأججة في كل المعارف ووجهه التوجيه السليم.

* كما درس عليه العلوم الشرعية والعقلية والعلمية والتاريخ الإسلامي.

* وأعطاه كل كنهه التي اقتناها من المشرق العربي، [فدرسها دراسة مستفيضة، معتمدا على نفسه دون أستاذ، وتمكن فيها كل التمكن، بحيث فهم مسائلها: لغة ونحوًا وفقهاً ومنطقًا].

– الذكاء الوقاد وسرعة الفهم، لعمري إنهما ما توفرا في طالب إلا بز الآخرين.

– الفاعلية الإسلامية والاجتماعية التي طبعت سلوكه العام.

– حفظ القرآن وهو ابن ثمان، فكيف لا يغمره الفتح الرباني.

– اقتناء الكتب واستنساخها، (يجتهد في طلبها وشرائها) تزوج امرأة لأنها تملك مكتبة خزانة الشيخ ضياء الدين عبد العزيز الثميني.

– نشأ يتيمًا، فقيرًا، ذلك مما يعد حافزًا للتفوق عادة.

– المسارعة إلى دروس العلماء.

– جلس للتدريس في 16 من عمره. (أصبح عالمً وادي مزاب وهو ابن العشرين (20 سنة).

ولتقف بداية مع كتاب تخليص العاني من ربة جهل المعاني .

1- من حيث الموضوعات: إن العنوان يدل دلالة واضحة على نهج القطب في الإصلاح، فالتخليص¹⁰ من معانيه: التصفية والتنقية، الإخراج، النجاة، البلوغ. والربة¹¹: من دلالاتها: الرباط، العقد، القيد، الكربة، فهي من أسباب التخليص. ذلك أن الشيخ على وعي كبير بمجتمعه وما يعاني منه. والمعاني: من علوم البلاغة ولعل هو الأساس في علم البلاغة والمحور، ونقطة التقاطع بين البلاغة والنحو.

والعاني¹²: تعني: التعب، الاهتمام، المشقة، التعب، كلها تتطلب تخليصاً.

وجهل المعاني: تقتضي: التركيب والإنشاء، ضعف في اللغة من حيث الفصاحة وقوانينها والبلاغة ودقائقها، بل بالنحو أي السلامة اللغوية، بخاصة إذا كان الكاتب ممن يأخذون بنظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني، فبلاغة الكلام تتطلب أولاً السلامة اللغوية¹³. ناهيك عن أن بعض الناس يخلط بين النحو وعلم المعاني¹⁴.

ضم المؤلف 139 باباً، بدءاً من باب فصاحة المفردات، وانتهاءً باب الإطناب بالاعتراض. ومن ذلك باب فصاحة الكلام، باب الإسناد الخبري، باب المجاز العقلي، باب العطف بالحروف على المسند إليه، باب الخروج عن مقتضى الظاهر بالقلب، باب كون المسند فعلاً أو اسم فعل، باب حذف المفعول لاستهجان ذكره، باب قصر القلب، باب الاستفهام بهل، باب الإطناب بالإغفال، ومما يمكن أن يلاحظ على هذه الموضوعات:

1. كثرة التفريعات: بحيث كان حريراً بالمؤلف أن يقسم الأبواب إلى مباحث أو عناصر، إذ إن بعضها لا ينبغي أن يعالج في باب كامل، ومن أمثلة ذلك:

* باب الخبر: يتفرع إلى

– باب الصدق والخبر.

– باب النسبة.

– باب الإسناد الخبري.

– باب فائدة الخبر

- باب لازم الفائدة

- باب خالي الذهن من الحكم

- باب خطاب المتردد في الحكم أو لازمه

- باب خطاب المنكر للحكم أو لازمه.

من المستحسن أن يضع كل هذه المباحث أو العناصر تحت باب الخبر: مفهوما وأغراضا وأضربا، ولذلك نقول إنه في إمكاننا تقليص هذه الأبواب إلى: اثني عشر بابا (12) مثلا:

1- باب الفصاحة.

2- باب البلاغة.

3- باب الخبر.

4- باب الحقيقة والمجاز.

5- باب المسند إليه.

6- باب الخروج عن مقتضى الظاهر.

7- باب المسند.

8- باب المفعول به.

9- باب القصر.

10- باب الإنشاء.

11- باب الفصل و الوصل.

12- باب المساواة والإيجاز والإطناب.

2. ومن أمثلة ذلك:

- الخروج عما تعارف عليه البلاغيون بخاصة السكاني: كجعل المفعول به مبحثا أو بابا من أبواب علم المعاني، والحال أنه باب من أبواب النحو، إلا اللهم إن كان من باب الحذف أو التقديم، وكل هذا له باب خاص في البلاغة.

- باب الحقيقة والمجاز (مبحث في علم البيان)، تناوله الشيخ في مباحث علم المعاني،

على أننا نحسب أن علم المعاني هو محور علوم البلاغة.

- باب الخروج عن مقتضى الظاهر (مبحث أساسا في علم البيان)، ومنه الانزياح و العدول، السكاني لمح إليه في علم البديع (مخالفة مقتضى الظاهر) ثم حصره في الالتفات ، وهي نظرة توسعية، يقول عنه ابن قتيبة "مخالفة ظاهر اللف ومعناه، قدامة يجعله من نعوت المعاني وتوسع فيه ابن فارس، وابن جني، وهو عند الزمخشري: (الانتقال من أسلوب إلى أسلوب)، يقول رجاء في كتابه فلسفة البلاغة بين التقييد والتطور: "إنّ الالتفات وإنّ أدرجه كثيرون تحت مباحث علم البديع، خليق بعلم المعاني، لأنه نسق... خاص ببناء الجملة، يتصل بالتركيب نفسه وليس إضافة تحسينية له. وهذا يعزز ما ذهب إليه القطب.

- الفصل بين أبواب يفترض أن تكون متتابعة (الخير والإنشاء مثلا)، بل إن بعضهم يرى أن الإنشاء فرع عن الخبر.

- الاقتصار في المجاز على المجاز العقلي، لست أدري لم أغفل الجاز اللغوي والمجاز المرسل، هل لأنه يعتبر المجاز العقلي مبحثا من مباحث علم المعاني أصالة.

- المخالفة في المصطلح (باب القصر بالسلب والاستثناء...)، أي طريق القصر بالنفي والاستثناء.

هذا ما يمكن القوف معه في الموضوعات، على أننا لم نعط الموضوع حقه من الدراسة، ولنلج التو المنهج.

2- من حيث المنهج: فالمنهج منهجان: منهج على مستوى الدرس، وآخر على مستوى التنظير.

أ- منهج الشيخ على مستوى الدرس البلاغي: ورد في معجم أعلام الإباضية ما يشير إلى هذا المنهج من ذلك¹⁵:

- التركيز على التلقين، إذ لم ينج من قبضة المنهج العربي القديم ؛ درسا وتأليفا.

- استعمال اللسان البربري المحلي (عند الاقتضاء). هذا لعمرى حرص منه إلى إيصال المعلومة واضحة إلى كل المتلقين.

- الحرص على استغلال الوقت، يدرس في سائر أيام الأسبوع - ما عدا الجمعة- من الضحى إلى الزوال، ثم يضيف دروسا في العشية بعد العصر.

- العناية بأسئلة التلاميذ إلى درجة أنه يكتبها ويحقق مسائلها بالرجوع إلى المصادر ولوائئها
الدرس.

- كان يروح على التلاميذ إذا ما رأى تعباً، لدفعهم إلى النشاط والتركيز.

- إن القطب غزير المادة، طويل النفس، متفانيا في العلم.

- لا يحاسب تلاميذه على الغياب أو الإبطاء.

ب- منهج الشيخ من حيث التأليف (التنظير): منهج تعليمي في عمومته، ومما يدل على ذلك إكتنازه من لفظ "اعلم"، على أنه لا يخلو من غموض، نتيجة للاستطرادات من حين لآخر، القصد منها شرح الفكرة والتعمق في دقائقها بل ومزجها بالسمت العقدي لم يفارق الشيخ، ومن ذلك:

1- يعرض الشيخ الموضوع ويقلبه ويظهر لبطن ويحيط بمعرفته، ثم يجزئ قضاياها ويفصلها، هذا شائع من أول الكتاب إلى آخره، فهو يمضي شارحاً وباسطاً ومستطرداً بآرائه وآراء العلماء: من النحاة والفقهاء والمذاهب الكلامية وغيرهم.¹⁶

2- عرض آراء من سبقوه من العلماء وأصحاب المذاهب، مدعماً ذلك بالحجة، يقول في باب الخبر: "...وصدق الخبر: موافقة معناه لما في نفس الأمر، وكذبه عدم موافقة معناه لما في نفس الأمر، هذا مذهب الجمهور وهو صحيح؛ فينقسم الكذب إلى ما يؤاخذ عليه، وهو ما يعتمد فيه عدم الموافقة... وإذا قيل: الخبر صدق أو كذب، فمعناه: ذو صدق أو ذو كذب أو صادق أو كاذب، قال النظام: -من المعتزلة- صدقه موافقته لاعتقاد المخبر (بكسر الباء) صواباً أو خطأ، وكذبه عدم موافقته لاعتقاد المخبر (بكسرهما) ولو كان خطأ، وهو مذهب سخي، لأنه يوجب أن يكون قول اليهودي: الإسلام باطل صدقاً، أو أن يكون قوله: الإسلام حق كذباً، وذلك لموافقة خبره لمعتقده..."¹⁷.

3- يتناول المباحث من جوانب عديدة: من حيث اللغة، النمو، الاعتقاد، النقد والبلاغة، وأحياناً يغوص في الفكر والمنطق مستنداً إلى كلام وآراء المعتزلة والأشاعرة والظاهرين، وأحياناً يبيد رأيه وفق مذهبه الإباضي: "ونحن معشر الإباضية والوهابية"، ومستخدماً عبارة: "وعندي، وعندنا، والظاهر أو ورأي، مذهبنا، هذا ما ظهر لي، الحق قلته، وأقول...، يقول في باب المخالطات للفعل أو ما ذكر معه المناسبات في الجاز العقلي عند شرحه لقول الشاعر الفضل

بن قدامة العجلي (أبو النجم) كشاهد: "...وقيل الله"، قول الله أي إرادته، أي تعلق قضائه الأزلي بوجوب ما اقتضاه، "واطلي" مفعول القيل على أنه باق على المصدرية، إن كان بمعنى اسم المفعول "فأطلي" بدل أو بيان والخطاب بلفظ "كن" في إيجاد الأشياء يصح في مذهبنا...¹⁸. وفي موطن آخر يقول -باب الإسناد-: "...فإنه ليس المراد بقولهم الإسناد إلى المكان أو الزمان مجاز عقلي... هذا ما ظهر لي...¹⁹ وفي باب الإبدال من المسند إليه، يقول: "...لأن مذهبي: أن بدل الاشتمال هو الذي بينه وبين المبدل منه ملابسة بغير الجزئية أو الكلية... وتبقى النفس"، ويقول: "...بحث تبقى النفس عند ذكر المبدل منه متشوفة إلى ذكره منتظرة له، وعندي: تنتظره بعينه وذاته...²⁰، ويضيف: "...فقد ظهر لك أن الحق ما قلته لا ما قاله البصريون وأقره الرضي...²¹، وجاء عنده أيضا في باب الحال الشبيهة بالوصل، قوله:

"...وهي بعد ذلك في قبضة القدر؛ إن شاء المولى أبقاها وإن شاء أعدمها. ومذهبنا معشر الإباضية الوهاية وسائر المحققين هو القول الأول أن العرض لا يبقى أكثر من حال²².

4- مراعاة الصفة التراتبية للشاهد النصي: القرآن الكريم، الحديث الشريف، كلام العرب، ورد في باب الاستفهام بهل: "...وقد تكون هل بمعنى قد بلا استفهام كقوله تعالى: "هل أتى على الإنسان..."، ومن الحديث قوله: "...وأجازه ابن مالك، لقوله صلى الله عليه وسلم: "هل تزوجت بكرا أم ثيبا"²³. ومن كلام العرب، يقول: "...واعلم أن هل تخص المضارع للاستقبال بعد أن صلح للحال... وقوله في الحماسة (من الطويل).

سأغسل عني العار بالسيف جالبا علي قضاء الله ما كان جالبا²⁴

5- السمت الرباني الأخلاقي: "... والله أعلم"²⁵. "والله أعلم وأحكم"²⁶. تردد ذلك بشكل لافت، وهذا مما يدل على تواضع الشيخ.

6- اعتماد الأمثلة، يقول في باب البدلية: "...ولا يخفى أن نحو "قتل الأمير سيفه" و"بنى الأمير عماله" بدل اشتمال عندي لا عند الجمهور...²⁷. ويقول: "...والى أنه لا يشترط أن لا يصح الإسناد إلى المبدل منه ظاهرا شرطه بعض مثل: "ركبت عمرا حماره، فإن الركوب لا يسند تحقيقا لعمر بل للحمار إسنادا إيقاعيا...²⁸، وللاشارة أن العندية تشكل ظاهرة أسلوبية عند القطب.

7- عدم التزامه الترتيب - أحيانا- المعهود في أبواب البلاغة كما أشرنا في حديثنا عن

الموضوعات، ويعال لذلك الدكتور اجلايلي قائلا: " وهذا لا يعني أن أطفيش غير مدرك لأهمية الترتيب في التأليف، فكيف يصح ذلك وهو الذي قام بإعادة ترتيب كثير من المسائل حسب أبوابه، ولكن الذي دعاه إلى عدم الترتيب هو حضور الفكرة، كما صرح به، لأن المسائل المدروسة لا تحتاج إلى أهمية الترتيب، إضافة إلى هذا إن أطفيش في مؤلفاته معلم فهو الذي يختار ماذا يقدم وماذا يؤخر، بحسب حاجة المتعلم تيسيرا للفهم في تلقي المعارف 11.

الخاتمة:

حسبنا ما قال المحقق لمخطوط تلخيص العاني: "ويتبدى مما ورد في كتابه الموسوم: تلخيص العاني من ربة جهل المعاني، أن آراءه ومواقفه ترسم شخصيته، وتبعث فينا مشاهد عديدة من سمات العلماء والأدباء، ففيه: صرامة ابن الأثير، وتواضع القاضي الجرجاني، ونباهة الجاحظ، وقوة عبد القاهر الإقناعية، وقدرة ابن رشد الاستدلالية، وسعة معرفة السكاني وصفى الدين الحلي، وجرأة ابن حماد، فهو بحق أحد المراجع الأساس في الفكر الإباضي، وأحد رواد الإصلاح الذي أغمض حقه.

نقول:

– إن مؤلفاته البلاغية حوت مادة غزيرة ومتنوعة حري بنا وبطلبتنا الوقوف عليها واستقراء لطائفها ودررها.

– كما يعد قدوة حسنة في كثير من عوامل منهجه على مستوى الدرس بخاصة، فمين بالمعلمين الاقتداء بها.

– مادته تتطلب القراءة والقراءة ثم التركيز فهو ليس مروحة للكسالى النائمين.

وعلى العموم فإننا نقول إن الشيخ اطفيش على مستوى الموضوع البلاغي فقد طرق جميع أبواب علوم البلاغة في كتبه الثلاثة، وأضاف بعض الشروح كتخصيصه مؤلفا في شرح الاستعارات (ينظر مكتبة القطب ببني يزقن).

أما على مستوى المنهج فمن خصائصه تعزيزا لما ذكرنا، فإننا نلاحظ:

– ظاهرة التكرار، بحيث ألفيناه يوظف بعض الألفاظ والعبارات ويعتمد تكرارها ابتغاء لليسير، وهي لا تخرج عن منهجه التعليمي، كما نقف من خلالها على تواضع الشيخ وورعه وحرصه على تبليغ المعلومة وبيانها، كيف لا وهو من أساطين البلاغة، ومن ذلك: اعلم، الله أعلم،

افهم أفهمك الرحمن الرحيم، احفظ ذلك، وغيرها.

- اعتماده الحواروي ظاهرة بيداغوجية تركز عليها النظريات التعليمية والتربوية الحديثة.

- وأهم ما كان ينبئ إلى منهجه البيداغوجي، الاستراحة والترويح على التلاميذ.

ليسعنا أمام هذه الشخصية الموسوعية إلا أن نقول: إن من يعيش لفكرة، لغيره، لا يموت إن مات الجسد وغاب عن الأعين، ولكنه يبقى حيا في تلايذه، في مؤلفاته، في موقفه، في سلوكاته، وهكذا كان الشيخ أطفيش القطب.

الهوامش:

- ¹ ينظر، بكير بن سعيد أعوش، 1989، ص: 121.
- ² ينظر مصطفى ويتن، 1417هـ/1996م، ص: 24-25. ينظر، بكير بن سعيد أعوش، سابق، ص: 21.
- ³ نفسه، ص: 24
- ⁴ نفسه، ص: 24 وينظر، محمد علي دبوز، ص: 1/290، أ. يحيى صالح بوتردين، د.ت، ص: 36.
- ⁵ ينظر، بكير بن سعيد أعوش، سابق، ص: 32-33.
- ⁶ نفسه، ص: 28.
- ⁷ نفسه، ص: 121.
- ⁸ ينظر، صالح بن داود يوسف بافلولو، 2009، ص: 112.
- ⁹ ينظر، معجم أعلام الإباضية، ص: 52
- ¹⁰ المعجم العربي الأساسي، مادة، خ.ل.ص، ص: 415
- ¹¹ نفسه، مادة، ر.ب.ق، ص: 205
- ¹² نفسه، مادة، ع.ن.ي، ص: 873
- ¹³ ينظر، الجرجاني عبد القاهر، 1402/1981، ص: 44-45.
- ¹⁴ ينظر، عبد الفتاح لاشين، 1980.
- ¹⁵ ينظر، موسى باباعمي، إبراهيم بن بكير بحاز، مصطفى بن صالح باجو، مصطفى بن محمد شريفي، 1421/2000، ص: 400/02.
- ¹⁶ ينظر، الشيخ أطفيش، ص: 374 و 144-145-366-369-374-375 وغيرها كثير.
- ¹⁷ نفسه، ص: 39.
- ¹⁸ نفسه، ص: 65-70.
- ¹⁹ ينظر، الشيخ أطفيش، المصدر السابق، ص: 71.
- ²⁰ نفسه، ص: 142.
- ²¹ نفسه، ص: 145.
- ²² نفسه، ص: 175.
- ²³ نفسه، ص: 303.
- ²⁴ نفسه، ص: 305-306.
- ²⁵ نفسه، ص: 245. 248. 249.
- ²⁶ نفسه، ص: 71.
- ²⁷ نفسه، ص: 144.
- ²⁸ ينظر، نفسه، ص: 144.

منهج القريب القليل في دراسة العروض = الليل إلى علم الليل =

عاشور سرقمة

قسم اللغة العربية وآداب المركز الجامعي غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000 الجزائر

اهتم عدد من علماء العرب بموسيقى الشعر أو ما يُصطلح عليه بـ "علم العروض"، وهو علم يُبحث فيه عن أحوال الأوزان المعتمدة، أو هو ميزان الشعر به يُعرف مكسوره من موزونه. وكلمة «العروض» : على وزن فَعُول، كلمة مؤنثة، تعني القواعد التي تدل على الميزان الدقيق الذي يُعرف به صحيح أوزان الشعر العربي من فاسدها.

وقد اختلف علماء العربية في معنى كلمة (العروض)، وسبب تسمية هذا العلم بها على خمسة أقوال:

(1) فليل : هي مشتقة من العَرَض؛ لأن الشعر يُعرضُ ويقاس على ميزانه. وإلى هذا الرأي ذهب الإمام الجوهري. ويعرّز هذا القول ماجاء في اللغة العربية من قولهم: ((هذه المسألة عَرُوض هذه)) أي نظيرها.

(2) وقيل: إن الخليل أراد بها (مكة)، التي من أسمائها (العروض)، تبركا؛ لأنه وضع هذا العلم فيها.

(3) وقيل: إن معاني العروض الطريق في الجبل، والبحور طرق إلى النظم.

(4) وقيل: إنها مستعارة من العروض بمعنى الناحية؛ لأن الشعر ناحية من نواحي علوم العربية وآدابها.

(5) وقيل: إن التسمية جاءت تَوْسَعًا من الجزء الأخير من صدر البيت الذي يسمى (عروضا).

وأقرب هذه الأقوال إلى الصواب (والله أعلم) الرأي الأول، فالكلمة مشتقة من العَرَض؛ لأن الشعر يُعرضُ ويقاسُ على ميزانه».

وفي الاتجاه نفسه يذهب محجوب موسى إذ يرى أيضاً أن كلمة (العروض) جاءت من (العَرْض) «لأن الكلام يُعرض على قواعده فإذا حدث بينه وبينها تطابق حكمنا بأنه منظوم؛ وإلا فهو منثور ولا ثالث... ولا بد أن نضع نصب عيوننا أن كلمة عروض تعني: العرض لأن الموزون يُعرض على الميزان لإجراء عملية الوزن؛ التي لا تتم إلا بإشتراك الموزون والوحدة الوزنية في أمر لا مناص منه، هذا الأمر هو المماثلة بحذافيرها وإلا فلا وزن...»

أما أهمية هذا العلم وفوائده فيرى سعد بن عبد الله الواصل أن منها:

1- صقل موهبة الشاعر، وتهذيبها، وتجنّبها الخطأ والانحراف في قول الشعر.

2- أمّن قائل الشعر على شعره من التغيير الذي لا يجوز دخوله فيه، أو ما يجوز وقوعه في موطن دون آخر.

3- التأكد من معرفة أن القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف ليسا بشعر معرفة دراسة لا تقليد؛ إذ الشعر: ما اطردت فيه وحدته الإيقاعية التزاماً. أي (كلامٌ موزون قصداً بوزن عربي). وبذا يدرك أن ما ورد منهما على نظام الشعر وزناً لا يحكم عليه بكونه شعراً؛ لعدم قصده؛ يقول ابن رشيق: ((لأنه لم يقصد به الشعر ولا نيته، فلذلك لا يعد شعراً، وإن كان كلاماً مُتَرَنّاً)).

4- التمكين من المعيار الدقيق للنقد؛ فدارس العروض هو مالك الحكم الصائب للتقويم الشعري وهو المميز الفطن بين الشعر و النثر الذي قد يحمل بعض سمات الشعر.

5- معرفته ما يرد في التراث الشعري من مصطلحات غروضية لا يعيها إلا من له إلمام بالعروض ومقاييسه.

6- الوقوف على ما يتسم به الشعر من اتساق الوزن، وتآلف النغم، ولذلك أثر في غرس الذوق الفني، وتهذيبه.

7- التمكين من قراءة الشعر قراءة سليمة، وتوقّي الأخطاء الممكنة بسبب عدم الإلمام بهذا العلم.

ومن العلماء الذين اهتموا بعلم العروض نجد الخليل بن أحمد الفراهيدي (100هـ)، وهو الذي قعد لهذا العلم ووضع أسسه، وأيضاً ابن جني (322هـ) وذلك في مصنفه "كتاب العروض"، وأيضاً الزمخشري (467هـ) في كتابه "القسطاس في علم العروض"، وكذا السكاكي (626هـ) الذي يُنسب إليه كتاب بعنوان "الكافي في علمي العروض والقوافي"، ونجد أيضاً الفارابي (كان حياً قبل سنة 1279هـ) ومؤلفه "المقصد الوافي في العروض والقوافي".

اهتم هؤلاء العلماء وغيرهم بعلم العروض تنظيراً وتطبيقاً.

وألف بعض العلماء الآخرين كتباً منها "فتح رب البرية بشرح القصيدة الخزرجية" لأبي يحيى زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري السنيكي المصري الشافعي (926هـ)، ومما ورد في بدايتها: «بسم الله الرحمن الرحيم وبه تقتي وعليه الاعتماد وهو حسبي، قال سيدنا ومولانا الشيخ الأجل شيخ مشائخ الإسلام ملك العلماء والأعلام... الحمد لله الذي وضع علم العروض؛ ليعلم به أوزان المنظوم، وجعل أفكارنا قافية لآثار العلماء بالمنطوق والمفهوم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد فهذا شرح على الخزرجية المنظومة على بحر الطويل في علمي عروض والقوافي، نظم العلامة ضياء الدين أبي محمد عبد الله ابن محمد الخزرجي المالكي الأندلسي طيب الله ثراه؛ وجعل الجنة مأواه، يحل ألفاظها ويبين مرادها، ويفتح رموزها، وسميته بفتح رب البرية بشرح القصيدة الخزرجية، والله أسأل أن ينفع به ويجعله خالصاً لوجهه (كذا) الكريم...»

ومتن الخزرجية هي قصيدة في علم العروض والقوافي والمسماة أيضاً بـ "الرامزة" و"الأندلسية" وذكر كارل بروكلمان بأنها تسمى بـ "الرامزة الشافية في علم العروض والقافية"، أو "القصيدة الخزرجية"، وهي لصاحبها ضياء الدين عبد الله بن محمد الأنصاري الخزرجي الأندلسي المالكي (767هـ) والمعروف بأبي الجيش.

وصُنفت حول هذه القصيدة عدة شروح ذكر كارل بروكلمان بعضها منها شرح لأبي القاسم الفتوح بن عيسى بن أحمد الصنهاجي، أكمله في غرة جمادى الأولى سنة 816 هـ/30 يولية سنة 1413م. شرح لأبي القاسم محمد بن أحمد الحسني الشريف الأندلسي السبتي الغرناطي (المتوفى سنة 760هـ/1359م). شرح لمحمد بن عز الدين خليل بن محمد البصري محب الدين (حوالي سنة 881 هـ/1476م). للمؤلف السابق، شرح أكبر. شرح لأحمد بن محمد الدمشقي الصالحي بن شكور (المتوفى سنة 893 هـ/1488م). شرح لأبي البقاء محمد بن علي بن خلف الأحمدى، ألفه سنة 904 هـ/1499م. شرح لبدر الدين بن عمر خوج بن عبد الله الفتاني (من علماء النصف الثاني للقرن عشر الهجري). شرح لأحمد بن عمر بن محمد النقاسي. رفع حاجب العيون الغامرة، لمحمد بن محمد الدلجي (المتوفى سنة 950 هـ/1544م). تقييد الأبيات المشار إليها في القصيدة الخزرجية (تقطيع الأبيات لا غير)، لأبي العباس أحمد بن علي المنجوري (المتوفى سنة 995 هـ/1587م). شرح لمحمد بن أحمد بن مرزوق التلمساني الحفيد (المتوفى سنة 781 هـ/1379م) وعليه النفحات الأرجية، لمحمد بن القاسم بن محمد بن زاكور (المتوفى في العشرين من المحرم سنة 1120 هـ/11 أبريل سنة 1708م). حواش لمحمد بن أحمد بن الغازي العثماني المكناسي (المتوفى سنة 919 هـ/1513م). المواعد الوفية بشرح الشواهد الخزرجية، لبدر الدين أبي الفتوح عبد الرحيم عبد الرحمن بن أحمد العباسي (المتوفى سنة 963

هـ/1556م). شرح لمحمد بن محمد بن محمود الداعي البخاري (حوالي 863 هـ/1457م). شرح للطف الله بن محمد الأرزرومي. شرح لأبي عمر عثمان بن صاحب المالكي. شرح لصفى الدين الأزرق الرومي. شرح لمحمد بن محمد الحلبي البكري (من علماء القرن الثاني عشر الهجري). شرح ليحيى بن محمد بن محمد الخطاب المالكي (المتوفى سنة 954 هـ/1547م). شرح للمقدسي. حل الرامزة، لمحمد بن أحمد الإزنيقي وحيي زاده. شرح لملا غلام نقشبندی بن عطاء الله الشافعي اللكنوي. شرح لمحَب الدين البصري ... مختصر في علل العروض وضروب خاصة.

ومن تلك التصنيفات أيضاً التي عُقدت حول متن الخزرجية " علم القوافي من ذات راجزة الخزرجي" لمحمد بن أبي بكر البدر الدماميني، وله أيضاً " العيون الغامزة على خبايا الرامزة للخرزجي"، ومن الكتب الأخرى نجد كتاب " شرح الخزرجية " لأحمد ابن إسماعيل الأبيشيبي، وغيرها كثير.

وقد افتح ضياء الدين الخزرجي قصيدته الخزرجية بقوله:

«وللشعر ميزانٌ تُسمَّى عَرُوضُهُ بها التَّقْصُ والرُّحان يدريهما الفتى

وأَنواعُهُ قُلْ خمسة عشر كلها تُؤَلَّفُ من جُزئين فرعين لا سِوى

وأوَّلُ نُطقِ المرءِ حَرْفٌ مُحرَّكٌ فَإِنْ يَأْتِ ثَانٍ قِيلَ ذا سَبَبٍ بَدَى...»

واختتمت بقوله:

«وقد كُملتُ ستاً وتسعين فالذي تَوَسَّطَ في ذا العلم تُوسِّعه حِبا

ويَسْأَلُ عبد الله ذا الخزرجي مِنْ مُطالعتها إِتِحافَهُ مِنْهُ بالدُّعا»

وتحتوي هذه المنظومة على 98 بيتاً، وتسمَّى بـ " الرامزة" لأن الناظم رمز في كلامه عن التفاعيل والأبهر والدوائر اختصاراً، وتسمَّى "الخرزجية" نسبة إلى مؤلفها، وهي من بحر الطويل. وقد صَنَّفَ القطب الشيخ اطفيش حاشية عنوانها "إيضاح الدليل إلى علم الخليل" يعني علم الخليل بن أحمد الفراهيدي، وهو كتاب ما يزال مخطوطاً؛ وَقَفْتُ على نسخة منه بمكتبة جمعية أبي إسحاق اطفيش بغرداية الجزائر.

ويحتوي هذا الكتاب على أربع وعشرين ومائة صفحة، قام فيه بوضع حواشٍ موجزة على شرح الخزرجية المسمى بـ "فتح رب البرية بشرح القصيدة الخزرجية" للعلامة أبي يحيى زكرياء الأنصاري، ويذكر أنه انتهى من كتابتها في ثامن يوم من ذي الحجة عام ألفٍ ومائتين وثلاثة وسبعين.

وأظن أن القطب قصد بإيضاح الدليل إلى علم الخليل: إيضاح الطريق أو المنهج للمبتدئين والمتعلمين إلى علم الخليل ويقصد به علم العروض.

وقد شاعت في المغرب العربي ظاهرة الشروحات، فكثيراً ما تجد -كما لاحظنا- عدة شروحات على كتاب أو متن واحد، بل قد تجد شرحاً على شرح آخر، أو هامشاً على هامش آخر...، ولكن أهمية كتاب الشيخ اطفيش -رغم أنه شرح على شرح- هو أنه كان يستهدف مباشرة ما أشكلت من القضايا أو احتاجت إلى توضيح أو التي أضافها هو؛ دون إعادة ذكر جميع القضايا التي تمت الإشارة إليها في الشرح الأول، فتجد الشيخ اطفيش يقول مثلاً: «فائدة الظاهر أنه لا يجوز لنا أن نكتب مثل قوله في حق الناظم طيب الله ثراه...»

أو قوله: «تنبيه زعم بعض أن حرف المد في آخر البيت عوض عن المحذوف في الخرم...» أو كقوله: «ظهر لي أنه يُحتمل أن الناظم لم يذكر مذهب الخليل في التشعيت، وأن قوله شعت أمرٌ بمطلق التشعيت، ويُنْبِئُه بثلاثة أقوال بعد ذلك...»

أو «فائدة لا يخفى ما في المتقارب من الثقل، وما ألطف قول ابن نباتة المصري يُمازح شخصاً اسمه عثمان مستخبراً عن المتقارب وزناً:

فقولوا ثقيل ثقيل ثقيل ثقيل ثقيل ثقيل ثقيل ثقيل

وقد كُتِبَ في بداية النسخة التي بين أيدينا من هذه الحاشية (الكتاب):

«بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً

هذه فهرسة الحاشية المسماة بإيضاح الدليل إلى علم الخليل، للعالم العلامة شيخنا الحاج امحمد بن الحاج يوسف اليسجني، حفظه الله آمين، على شرح العلامة أبي يحيى زكريا الأنصاري على متن الخزرجية في علم العروض...».

وابتدأها الناسخ بقوله: «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً، أما بعد فهذه حاشية تُسمى بإيضاح الدليل إلى علم الخليل لشيخنا وإمامنا العالم العلامة وحيد دهره وفريد عصره، كنز المفاهر ومعدن المآثر شيخ الإسلام وسراج الأنام؛ بحر العلوم ومعدن الفهوم عمنا الشيخ الحاج امحمد بن يوسف اطفيش اليسجني...».

ومما ذكره في ختام هذه الحاشية «...قوله إتحافه أي إكرامه وإبراره. قوله بالدُّعا مقصودٌ للضرورة. قوله بخير كغفران الذنب وإعطاء الدرجات في الجنة. ولمَّا طلب من مُطالعها الدعاء بخير دعا له الدماميني:

فجوزى بالحسنى وعنه إلهه

عفا فلقد أحيا من العلم ما عفا

وقابله يوم الحساب بخيره

وعامله بالصَّفح عنه وبالرضا

وساقَ لمتواه حقائبَ رحمةٍ

تفضُّ ختامَ المسك عن أطيب الشذا

وخولنا حسنَ الخواتيم إنها

لحليَّة أعمال الورى حين تُجتلى

ووالى على خير الأنام صلاته

وتسليمه في الابتداء وفي الانتهاء (كذا)»

وقد وقف فيها الشيخ اطفيش عند عدة نقاط تطرق لها أبو يحيى زكريا الأنصاري في شرحه، وعدد هذه الوقفات التي ذكرها الشيخ اطفيش هو: خمسمائة وثمانية (508)، وإننا لا نستطيع التحدث عنها جميعاً في هذه الوريقات؛ ولكن حسبنا أننا سنستشهد ببعضها للتدليل على المنهج الذي استخدمه الشيخ اطفيش في كتابه هذا.

ولعلَّ من تلك النقاط أو الأبواب: "الشروط التي يُسمى بها العالم شيخاً إذا وُجدت فيه"،

ومما قاله فيه: «وشروط الشيخ أن يكون جوال الفكر جوهرى الذكر كثير العلم كثير الحلم قليل المنازعة كثير المراجعة أوسع الناس صدرًا وأذلهم نفسًا، مُجالسًا للعلماء مُعلماً للجُهلاء، وضحكته تبسم واستفهامه لا يؤذي من بين يديه ولا يخوض فيما لا يعنيه...».

ويذكر في باب آخر تحدّث فيه عن سبب تسمية العروض بهذه التسمية، وكذا التسميات الأخرى التي تُطلق عليه، فيقول: «... وسُمي صدر المقدمة على المصراع الثاني؛ وكذا يُسمى الجزء الأول لتقدمه على باقي الأجزاء، وصدر الشيء أوله، وصدر السهم ما جاز من وسطه إلى مُستدقه... فإن إطلاق العروض على التفاعيل ليس لغويًا بل من كلام الخليل، وما ذكر هنا وهو الجزء الآخر من المصراع الأول والعطف على ذا ويُطلق العروض أيضًا على المصراع الأول من البيت، وسُمي ذلك الجزء عروضاً لأن الخليل لمّا امتحن الشعر؛ وجد الاختلاف والتقل في أواخر أبياته أكثر منه في أواسطها؛ فسَمَّى وسط البيت الذي هو منتهى قسمه الأول عروضاً تشبيهاً له بالعروض؛ وهو العمود المعترض في وسط الخباء لثباته وقلة تبدله، أو لأن آخر النصف الثاني يُعرض عليه...».

وقد خصص الشيخ اطفيش جزءاً كبيراً من شرحه للبحر الشعرية، وأوردها على الترتيب الآتي: - الطويل - المديد - البسيط - الوافر - الكامل - الهزج - الرجز - الرمل - السريع - المنسرح - الخفيف - المضارع - المقتضب - المُجتث - المتقارب.

يقول عن المنسرح «... واستقلوا وزن هذا البحر لكثرة ورود الأسباب فيه؛ وشبهها من الأوتاد المفروقة فاستعملوه مطوياً، حتى أن الأخفش زعم أن فاء مستفعلن زائدة لمّا رآها تُحذف كثيراً، والعروض الثالثة يُحتمل أن تكون من منهوك الرجز دخله القطع، ولكنه عند الخليل من المنسرح، والأخفش لا يعده والذي قبله شعراً على أصل مذهبه، والصحيح أنه شعر؛ لأنه مُقَفَّى جارٍ على نسبة واحدة في الوزن كقوله: ويل أمّ سعدٍ سعدا، وفيه نظر، وزعم المعري أن الثانية والثالثة ضربان للمنهوكة من الرجز على أصلهما السابق...».

وعموماً يمكننا أن نعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب التي أُلُفت في العروض وموسيقى الشعر.

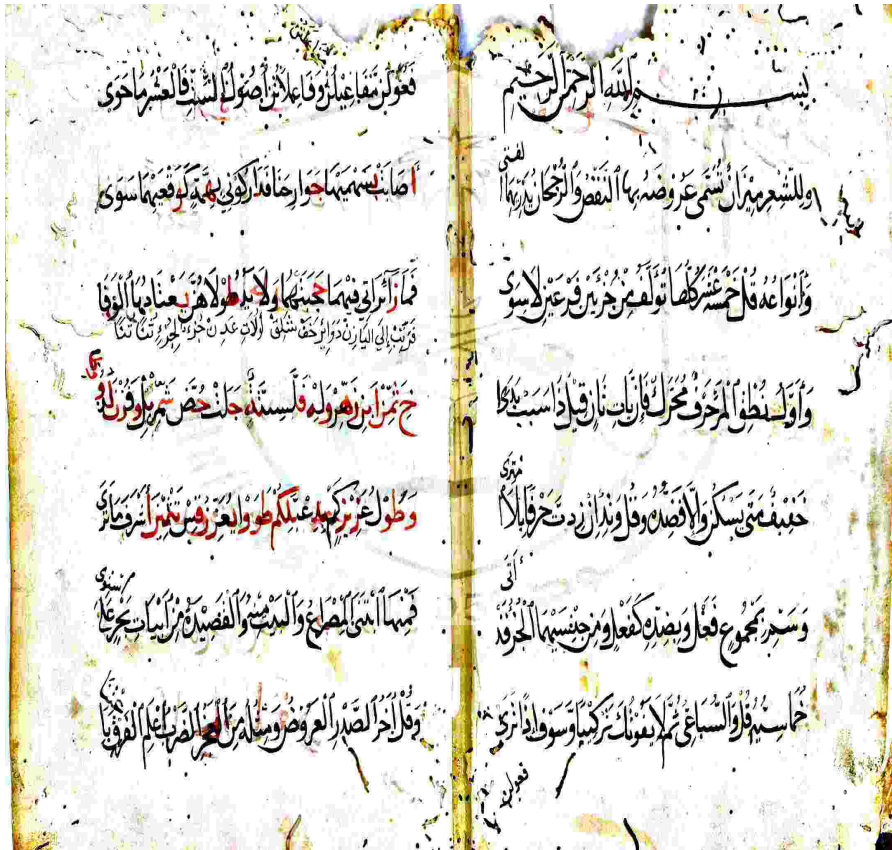
توصيات:

- جَمْع كل مؤلفات الشيخ اطفيش المطبوعة منها والمخطوطة.
- تحقيق كل ما هو مخطوط من كتبه.
- تشجيع الطلبة لاختيار أحد كتب الشيخ اطفيش؛ أو جزء منها في بحوثهم الأكاديمية.
- الاعتماد على جهوده اللغوية في مناهج وبرامج التدريس بالجامعة.

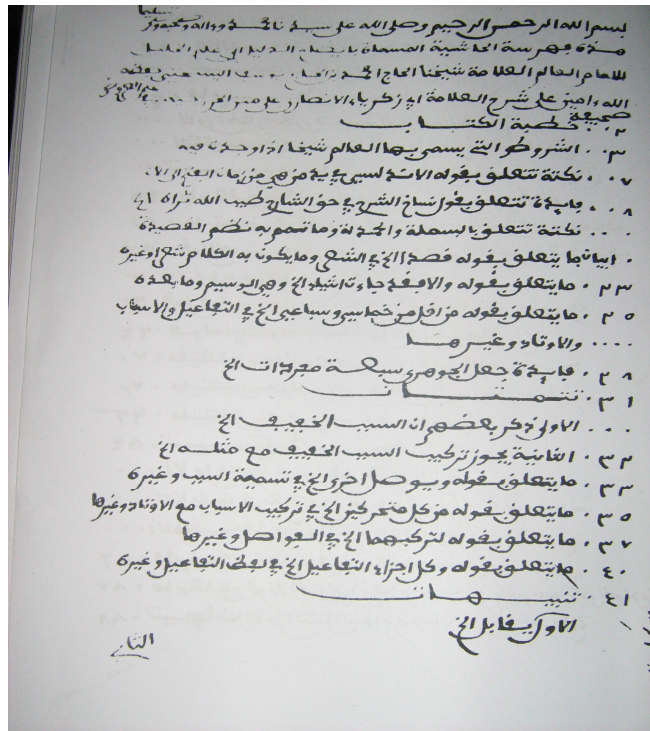
- اعتماد "إيضاح الدليل إلى علم الخليل" مصدراً من مصادر البحث في علم العروض وموسيقى الشعر.



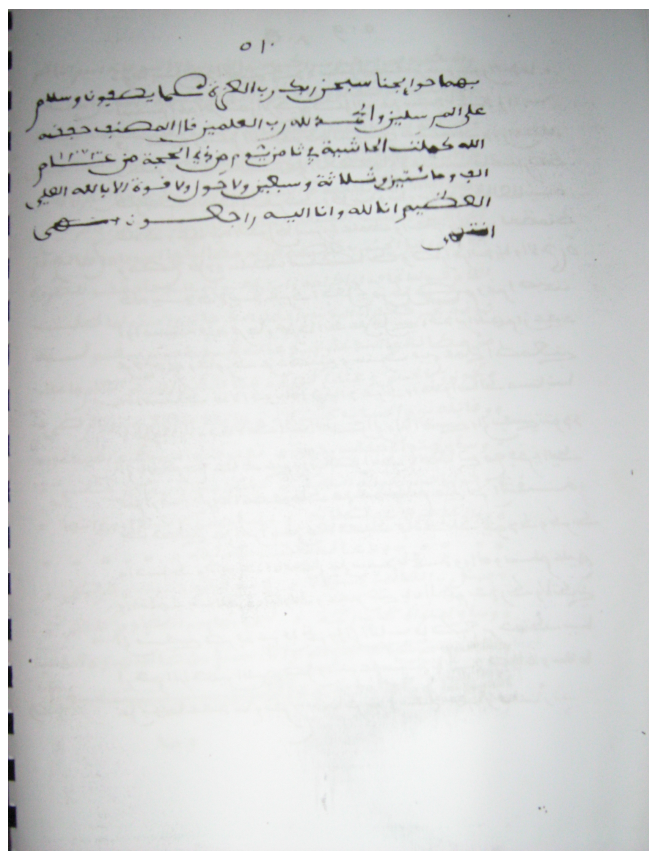
الصفحة الأولى من مخطوط "فتح رب البرية بشرح القصيدة الخرجية" لأبي يحيى زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري السنيكي المصري الشافعي.



الصفحة الأولى من متن الخزرجية لضيء الدين عبد الله بن محمد الأنصاري الخزرجي
الأندلسي المالكي



الصفحة الأولى من مخطوط "إيضاح الدليل إلى علم الخليل" لأحمد بن يوسف اطفيش.



الصفحة الأخيرة منه

القروي، كما دَرَسَ الأدب وفنونه التي كانت معروفة في أيامه، حتى تفوق في النحو والنظم والنثر وإجادة الخط، ودَرَسَ في عدة مدارس، وناب في القضاء، واشتُهر ذكره كثيراً، وعُرف بسعة الإدراك، وقوة الحافظة.

ألف بضعة عشر كتاباً في الأدب والنحو والعروض والحديث، طُبع منها اثنان فقط هما: "تحفة الغريب بشرح مُغني اللبيب"، وهو حاشية على كتاب مُغني اللبيب لابن هشام الأنصاري، و"العيون الغامزة على خبايا الرامزة" في علم العروض لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، أما كُتبه التي لا تزال مخطوطة فمنها: "نزول الغيث" و"عين الحياة"... مات الدماميني في الهند مدينة "كلبرجا". أنظر: الأعلام، خير الدين الزركلي، ج: 6، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط 5، 1980، ص: 57.

²³ / "بَحْثُهُ" وردت عند الدماميني في "العيون الغامزة" "بَحْثُهُ". أنظر: الدماميني، العيون الغامزة على خبايا الرامزة، تح: الحسّاني حسن عبد الله، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط2، 1415هـ/1994م، ص: 277.

²⁴ / "وَحْوَْلْنَا" وردت عند الدماميني "وَوَلْنَا"، أنظر: الدماميني، العيون الغامزة على خبايا الرامزة، م. س، ص: 277.

²⁵ / امحمد بن يوسف اطفيش، إيضاح الدليل إلى علم الخليل، م. س، و508. وانظر في هذا "العيون الغامزة على خبايا الرامز" للدماميني، م. س، ص: 277.

²⁶ / امحمد بن يوسف اطفيش، إيضاح الدليل إلى علم الخليل، م. س، و3.

²⁷ / امحمد بن يوسف اطفيش، إيضاح الدليل إلى علم الخليل، م. س، و112.

²⁸ / نفسه، و 375 376.

منهج الشيخ أطفيش (ت1914م) من خلال كتابه "إيضاح الدليل إلى علم الخليل" =

بوعبد الله لعبيدي

جامعة سعد دحلب-البليدة

لا شك في أنّ "الشيخ أطفيش" يعدّ من علماء الجزائر الذين أسهموا في الحفاظ على الثقافة العربيّة والإسلاميّة بصلابة منقطعة التطير؛ وذلك من خلال دروسه ومؤلفاته ومصنّقاته وشروحه وتعليقاته الهامّة.

وبعدّ كتابه "إيضاح الدليل إلى علم الخليل" حاشية على شرح أبي زكريّا الأنصاريّ الشافعيّ (ت926هـ / 1520م)⁽¹⁾ لمنظومة "الزّامة في علمي العروض والقافية" لأبي محمّد عبد الله بن محمّد الخزرجيّ الأندلسيّ (ت626هـ / 1229م)⁽²⁾، المعروفة بـ "المنظومة الخزرجيّة" نسبة إليه. وهو كتاب في غاية الأهميّة لدارسي "علم العروض والقافية". بحيث يعدّ أنموذجاً يكشف لنا عن منهج "الشيخ أطفيش" في تبسيط المادّة العلميّة للمتعلمين من جهة، وفي تعميق معارفهم من جهة أخرى.

وسأحاول في هذا المقال إبراز بعض الجوانب العلميّة الهامّة للكتاب، من خلال الإجابة عن تساؤل وهو: ما هو المنهج الذي اتّبعه "الشيخ أطفيش" في شروحه وتعليقاته، وبخاصّة في كتابه "إيضاح الدليل"؟

وللإجابة عن هذا يجدر بنا أن نشير إلى نقاط أساسيّة، تتعلّق بتوظيف المصطلحات العروضيّة، والاستشهاد، والتعليل، وبعرض الأقوال وشرحها، وبأسلوبه.

وقبل ذلك لا بدّ من الإشارة إلى القيمة العلميّة للكتاب.

– القيمة العلميّة للكتاب:

إنّ هذا الكتاب من أهمّ مصنّقات "الشيخ أطفيش" التعليميّة في مجال "العروض"؛ ولعلّ ذلك يعود إلى سهولة مادّته العلميّة وتنوّعها، وطرافة أسلوب تناولها، ودقّة سبكها وصياغتها. إلى جانب اهتمام المؤلّف بمسائل لطيفة، قلّما يلفت إليها أصحاب المطوّلات الانتباه فضلاً عن أصحاب المختصرات، إضافة إلى أنّه حاشية على شرح لمنظومة ذات قيمة عالية في مجال الدرس العروضيّ وهي "الخزرجيّة"، ولا أدلّ على ذلك من كثرة شروحيها⁽³⁾، على أنّ كثرة الشروح

بوعبد الله لعبيدي

لا تدلّ على الصّوبة بقدر ما تدلّ على أهميّة المشروح، بل كثيراً ما رفعت الشّروح والحواشي المتون إلى مراتب عالية. وهذا كلّ جعل "الشيخ أطفيش" يعلّق عليها، ويقدم لنا المفاهيم العروضية في أوضح صورة وأبسط وجه؛ لتكون في متناول المبتدئين للفهم والمذاكرة، والمتمرسين للتبصر والاستئناس.

هذا التّلاقح الأندلسيّ المصريّ الجزائريّ كشف لنا عن فكر منهجيّ ضارب في أصول النظريّات العلميّة الحديثة، مبنياً في أساسه على تحديد المفاهيم والمصطلحات العروضية والنحويّة والصّرفيّة والبلاغيّة والفقهيّة والكلاميّة كلّها بدون استثناء لأنّها مفاتيح العلوم، وعلى نقد الآراء وتمحيصها، والتّعقيب عليها بشكل منهجيّ واضح ودقيق.

ولم يجد "الشيخ أطفيش" بعد ذلك من ضرورة في أن يضع في العروض مصتفاً آخر؛ لوضوح ما جاء في تعليقاته.

لهذا نظنّ أنّه لولا تلك المسحة من السّهولة والبساطة والوضوح والعمق التي تبدو على ملامح كتاب "إيضاح الدليل" لكان له شأن آخر عند "الشيخ" أو عند تلاميذه من بعده، وفي مجال الدرس العروضيّ التعليمي على العموم. ممّا يظهر لنا في غير إبهام أنّ الكتاب قد بلغ الهدف الذي كان قد حدّده "الشيخ" من خلال تعليقاته.

I- منهج "الشيخ أطفيش" في شرحه:

1- المنهج الفني:

أ- عنوان الكتاب:

إنّ عنوان الكتاب هو "إيضاح الدليل إلى علم الخليل"⁽⁴⁾، وقد أورده بهذا العنوان "خير الدّين الزركلي" في "الأعلام"، نقلاً عن "الشيخ إبراهيم" ابن أخي "الشيخ أطفيش"⁽⁵⁾.

وأما تبويب مادة الكتاب فلا يمكننا القول بأنّ "الشيخ أطفيش" كانت له الحرّية المطلقة في اختيار طريقة عرض عناصر المادّة العروضية، بل إنّ تقسيم عناصرها جاء مطابقاً لما قد رسمه الشّارح "أبو زكريّا الأنصاري" سابقاً، وهذا الأخير مقيّد بما جاء في المنظومة الخزرجيّة.

ورغم ذلك فلم يمنعه العقد المبرم مع "أبي زكريّا الأنصاري"، ومع "الخزرجي" من أن يطوّف بقرائنه دون تطويل ولا تمحّل، أو يقطف له من رياض العروض زهوراً، عطرها اللّمحة الدّالة، والمنهل القريب، والشّاهد الواضح.

فكان له فضل توضيح كثير من المصطلحات، وبيان الدّلالات اللّغويّة، والمسائل العروضية، والأوجه النحويّة، والتّكت البلاغيّة، والتّمثيل لما يستوجب ذلك، والفوائد التي يحيل عليها متى دعاه إلى ذلك داعي الإحساس بملل القارئ من دسامة المادّة المقدّمة.

ب- خطبة الشرح:

وتجدر الإشارة إلى أنّ خطبة الكتاب قد وردت مقتضبة جداً، على خلاف بعض كتبه الأخرى، خالية من براعة الاستهلال، حيث أورد فيها بعد الحمدلة والصلاة والسلام على نبيّنا الكريم: ثلاثة أدعية، وذلك بعد قوله: «يا حيّ يا قيوم برحمتك نستغيث»⁽⁶⁾.

وعلى الرغم من تشعب المباحث الواردة في كتب اللغة وغزارة مادّتها إلّا أنّ "الشيخ أطفيش" قد استطاع في تعليقاته على شرح أبيات الخزرجية أن يجعل كتابه دليلاً يهتدي به تلاميذه في علوم العربية عموماً، والمشتغلون بالعروض والإيقاع والقوافي على وجه الخصوص. كما استطاع أن يجعل من تعليقاته أيضاً دليلاً واضحاً لما روي عن "الخليل بن أحمد الفراهيدي" في "علم العروض" الذي لا يختلف اثنان في نسبة العلم إليه.

- تقويم المنهج:

ويمكننا بعد هذا أن نتلمس بعضاً من البواعث التي حدثت به لانتهاج مثل هذا الأسلوب في شرح عناصر المادّة العروضيّة، وطريقة ربطه لها مع المباحث اللغويّة والتحوّية والصرفيّة والدلاليّة، بحيث جاءت خالية من العناوين إلّا من عناوين التّنبّهات والفوائد. وذكر خصائصه الفكرية التعليميّة أثناء الشرح.

لقد سبقت الإشارة إلى أنّ "الشيخ أطفيش" لم تكن له الحرّية المطلقة في تفرّيع مادّة الكتاب وتبويبها، إلّا أنّ له ذلك وهو أمام ألفاظ الشرح يعلّق عليها بحسب الحاجة التي يراها مناسبة للمتعلّم. فيقف عند أيّة نقطة يكشف من خلالها عن الغامض من المسائل، ويفكّ العويص من الألفاظ.

ويمكن القول بأنّ ما يتحلّى به "الشيخ أطفيش" أثناء الشرح هو الذّهنية الرّياضيّة. وتتجلّى من خلال تقسيمه بعض المسائل إلى عناصر، وكلّ عنصر إلى أقسام فرعيّة.

أو من خلال ما يضعه من تنبيهات وفوائد وتتمّات وخواتم عقب انتهائه من كلّ مسألة، حتّى ولو طال ذلك منه، ثمّ يعود ليكمل ما بدأ التعليق عليه. بالإضافة إلى استحضر ألفاظ الشرح والمنظومة، واستدكار ما أشار إليه أو ما سيوضّحه.

وكذا اعتماده الاحتمالات الواردة في توضيح المفاهيم العروضيّة، كما في قوله: «يحتمل أنّ من أثبتهما معترف بتركيّتهما من ذلك...»⁽⁷⁾. وقوله: «ويحتمل أنّه يريد تلك الطّريقة فقط»⁽⁸⁾. وقوله: «ويحتمل أن يكون مراده مذهب ابن بري...»⁽⁹⁾.

هذا وإنّ تأثّره بالفكر الرّياضيّ والمنطقيّ يتجلّى كذلك من خلال استخدامه مصطلحات العلمين، مثل: "التّصديق"⁽¹⁰⁾، "التّصوّر"⁽¹¹⁾، "المعقوليّة"⁽¹²⁾، بل حتّى استخدامه التّعاريف

المنطقية، كما في قوله: «الجنس... وفي اصطلاح المنطق كَلِّي مقول على كثير مختلف بالحقائق»⁽¹³⁾.

وأما طريقته في التعليق فإنها وإن كانت موافقة لبعض حواشي "الخزرجية" وشروحها مثل:
- "المفاتيح المرزوقية لحلّ الأقفال واستخراج خبايا الخزرجية": لابن مرزوق الحفيد (766-842هـ / 1364-1438م)⁽¹⁴⁾.

- و"حاشية يوسف بن سالم بن أحمد الحفني" (ت 1176 / 1763م)⁽¹⁵⁾، وغيرهما.
فلم تكن غرضاً؛ لا التزام كل شارح من هؤلاء بالمتن، أو الاكتفاء بالإعراب، أو بالشرح اللغوي فقط.

وأما "الشيخ أطفيش" فقد تميّز بشرح كلّ الألفاظ الأساسية (الكلمات المفاتيح) في البيت شرحاً معجمياً ثم اصطلاحياً عند العروضيين والتّحاة والبلاغيين والفقهاء والمتكلمين، فضلاً عن باقي الكلمات، وبيان كثير من المسائل الصرفية والتعليقات التحوية، والتعقيب على المسائل العروضية واستدراك ما أغفله الشارح. ومن ذلك التعقيب على قضية نسبة "بحر المتدارك" إلى "الأخفش" وهو الذي عليه كثير من العروضيين المحدثين اليوم، فقد قال: «واختلفوا فيمن استدركه فقيل "الأخفش"، وهو المشهور، قال "أبو الحكم"⁽¹⁶⁾: إنّ "الأخفش" نصّ على إهماله وأنّ مجيزه "الجوهري" و"التديم" ومن تابعهما. قال "ابن بري": لم تقل عليه العرب، ولم يحكه "الخليل" ولا غيره من القدماء، وإنّما استدركه "الجوهري"، وغيره من المحدثين»⁽¹⁷⁾.

ويؤيد ما ذهب إليه من أنّ "الأخفش" لم يتدارك "المتدارك" أمران:

- أولهما: كتاب "العروض" للأخفش فقد عثر عليه مؤخراً، وليس فيه أية إشارة إلى هذه القضية لا من قريب ولا من بعيد، مع أنّ في الكتاب أشياء خالف فيها "الأخفش" أستاذه "الخليل".

- الأمر الآخر: إنّنا لا نجد هذه الشائعة في التراث العروضي بعد "الخليل" لأكثر من ثلاثة قرون، فلم يذكره "ابن عبد ربّه" (ت 328هـ) في كتابه "العقد الفريد"، يقول في أرجوزته:

وَبَعْدَهَا خَامِسَةُ الدَّوَائِرِ لِلْمُتَقَارِبِ الَّذِي بِالْآخِرِ
يَنْفَلِكُ مِنْهَا شَطْرُهُ وَشَطْرُ لَمْ يَأْتِ فِي الْأَشْعَارِ مِنْهُ الذِّكْرُ

كما لم يذكره "الصاحب بن عباد" (ت 385هـ) في كتابه "الإقناع في علم العروض"، ولا "ابن جني" (ت 392هـ).

وبالفعل فإنّ أول من ذكر "المتدارك" هو "الجوهري" (ت 400هـ)، ولم ينسبه إلى "الأخفش". وأما أول من نسب إليه هو "ابن واصل الحموي" (ت 697هـ)⁽¹⁸⁾ في كتابه "الدّر

التضيد" في قوله: «ثم أخذ في ذكر "المتدارك" وهو البحر الذي أثبتته "الأخفش" وأنكره "الخليل"»، ولم يذكر لكلامه هذا مصدراً⁽¹⁹⁾.

دون أن يتوانى عن التطرق للجانب البلاغي والفقهّي مثلما سبق ذكره.

لذلك يمكن اعتبار كتاب "إيضاح الدليل إلى علم الخليل" أنموذجاً للتأليف العلميّ التعليمي يكشف لنا عن فكر "الشيخ أطفيش" وطريقته في التعليم عموماً، وتعليم "علم العروض" على الخصوص، لم يكن يهدف فيه إلى التجديد الشكليّ أو الهيكليّ في أنموذج شرح المادة العروضيّة، بقدر ما كان يريد توصيل المادة بكلّ دقة وأمانة إلى الرّاعيين في معرفة العروض والقوافي، على غرار شارح المنظومة.

في حين بقي منهج الدّراسة العروضيّة عند "الشيخ أطفيش" على ما كان قد وضعه "الخليل"، ومن جاء بعده.

2- المنهج العلميّ:

أ- توظيف المصطلحات:

لقد استخدم "الشيخ أطفيش" في شرحه سجلاً اصطلاحياً متنوعاً، يتألف بالدرجة الأولى من المصطلحات العروضيّة إلى جانب توظيفه المصطلحات البلاغيّة والنحويّة والصّرفيّة والفقهيّة والكلاميّة والمنطقيّة، وغيرها من المصطلحات العلميّة.

ب- الاستشهاد:

- القرآن الكريم:

لم يكن الشيخ يستشهد بالآيات القرآنيّة؛ نظراً لطبيعة المادة المقدّمة في الكتاب؛ ومع ذلك فهو يستشهد بالآيات القرآنيّة كلّما دعاه إلى ذلك داعي تعليل القواعد، وهذا ليس غريباً، إذ الشّيء إذا خرج من معدنه لا يستغرب!

بل إنّ هذا ناتج عن الثقافة الدّينيّة التي تشبّع بها الشيخ منذ صباه⁽²⁰⁾، وكذا اهتمامه بالقرآن الكريم أفصح كلام عربيّ، كيف لا وهو صاحب تفسيره⁽²¹⁾. وهذا كلّ من شأنه أن يجعل لتعليقاته أهميّة خاصّة.

ومن أمثلة استشهاده قوله: «فيقبل قياساً على الزيادة في السّعة كقوله _عزّ وجلّ_: ﴿فِيمَا رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ﴾⁽²²⁾» زيادة "ما" على أحد أوجه...⁽²³⁾. كما نجده يستشهد بالقراءات القرآنيّة، كما ورد في شرحه لفظ "قال" في قوله: «وقرئ ﴿قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ تَمَتَّرُونَ﴾⁽²⁴⁾»⁽²⁵⁾.

- الحديث الشّريف:

لقد ندر الاستشهاد بالحديث النبويّ لدى "الشيخ أطفيش" في كتابه، ولعلّه اتّبع في ذلك

سلف التّحاة الذين قلّمَا يستشهدون بالأحاديث؛ متذرّعين بأنّ كثيراً من الأحاديث رويت بالمعنى.

- الشّعْر:

بخلاف الشّعْر فلقد حفل "إيضاح الدّليل" بشواهد شعريّة كثيرة، و"الشيخ أطفيش" لا ينسب الأبيات إلى قائلها إلا نادراً.

ج- التعليل:

لقد اهتمّ "الشيخ أطفيش" بتعليل القواعد والآراء التي اعتمدها والمصطلحات التي وظّفها اهتماماً بالغاً. والتعليل عنده يعتمد على الواقع اللّغويّ، والأصول التي توصّل إليها عن طريق استقراء بعض العلل التّحوية، كما في قوله: «امتنع حذف التّون لئلاّ يوقف على متحرّك، فكانت الباء محذوفة لثبات معاقبها، فلو حذفت لحذف المعاقبان؛ والعرب إذا حكمت بشيء لمعنى طرده، وإنّ عدم ذلك المعنى في بعض المواضع»⁽²⁶⁾.

وإنّ اعتماده على مثل هذه التّعليلات نابع - مثلما سبقّت الإشارة إليه - من تصوّره المنطقيّ وذهنيّته الرّياضيّة، ونزعتة التّأصيليّة.

د- عرض الأقوال وشرحها:

لقد زخر كتاب "إيضاح الدّليل" بأقوال كثيرة، نسب "الشيخ أطفيش" قسمًا منها إلى أصحابها، مشيراً في البداية كقوله: «وهو الذي ذكره "أبو سليمان داود"»⁽²⁷⁾.

وترك الباقي دون نسبة إيجازاً واختصاراً، أو اكتفاءً واستغناءً، من ذلك قوله: «قال "صاحب الكلّيات العروضيّة"»⁽²⁸⁾، و«قال "صاحب القاموس"»⁽²⁹⁾.

والجدير بالملاحظة أنّ أقوال "الخليل" و"سيويه" و"الزّجاج" و"الأخفش" قد أخذت الحظّ الأوفر من "إيضاح الدّليل"، وذلك اهتمام واضح يبيّن منزلة هؤلاء عند "الشيخ أطفيش" ومعاصريه.

هذا، ولم يكن هدف "الشيخ أطفيش" على ما يبدو الإكثار من الاستشهاد بالأقوال والآراء، وإنّما انصبّ هدفه في التّعليق على شرح المنظومة على القدر الذي يتمّ به الكشف عن غامض المسائل، وينقل به أقصى فائدة إلى المتعلّمين بأسلوب علميّ، وفّق البرامج التّعليميّة المتّبعة آنذاك. ولا بدّ هنا من أن أشير في الأخير إلى بعض الجوانب من خصائص أسلوبه.

II - أسلوبه:

لا يمكننا إدراك أسلوب "الشيخ أطفيش" اللّغويّ في كتابه "إيضاح الدّليل" حتّى وإنّ افلغت من بين يدي ألفاظ الشّارح أو أبيات الناظم، ليعلق ويدقّق، مرسلاً العبارات تلو العبارات.

وليس لنا أن نعرف ذلك أيضاً من خلال خطبته المقتضبة جدّاً. وربّما كانت السّمة الغالبة

على أسلوبه قصر العبارات، والدقة في تخييرها لتناسب المعنى، دون تطويل ممل أو استطراد مخل، وهو ما يستسيغه الأسلوب العلمي بل يتطلبه.

كما يلاحظ عليه اعتماده أسلوب "المناظرة والجدل"، كقوله: «واعترض ذلك الجواب الذي من جانب الجمهور أيضاً بأنه لو كان على ما قاله لسمي ذلك الضرب حينئذ مقصوراً لا محذوفاً! وإجماعهم على خلاف ذلك، ويرد عليه: "إنه لما دخل القبض ثم القصر كانت صورته صورة المحذوف فسمي محذوفاً مراعاة للصورة...»⁽³⁰⁾.

هذا ما يمكن لي إيراد في هذا المقام، وإلا فالكتاب بشكل عام حسن الدلالة، سهل المادّة، جيد التوضيح، لم يتكلف فيه صاحبه، وإنما ترك فيه العنان لرخمه المعرفي، فعلق على الشرح بعفوية، فجاء شديد التبسيط، بعيد الفائدة.

الهوامش:

¹ - هو أبو يحيى زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري السنيكي المصري الشافعي. شيخ الإسلام، قاض مفسر، من حفاظ الحديث. ولد في "سنيكة" (بشرقية مصر) عام 823هـ / 1420م، وتعلم في القاهرة، وكفّ بصره سنة 906هـ. نشأ فقيراً معدماً، قيل: كان يجوع في الجامع، فيخرج بالليل يلتقط قشور البطيخ، فيغسلها ويأكلها. ولما ظهر فضله تنابعت إليه الهدايا والعطايا، بحيث كان له قبل دخوله في منصب القضاء كل يوم نحو ثلاثة آلاف درهم، فجمع نفائس الكتب وأفاد القارئ عليه علماً ومالاً. وولاه "السلطان قايتباي الجركسي" (826-901هـ) قضاء القضاة، فلم يقبله إلا بعد مراجعة وإلحاح. ولما ولي رأى من السلطان عدولاً عن الحق في بعض أعماله، فكتب إليه يزرجه عن الظلم، فعزله السلطان، فعاد إلى اشتغاله بالعلم إلى أن توفي سنة (926هـ / 1520م). تنظر ترجمته في الأعلام: خير الدين بن محمود الزركلي (1310-1396هـ)، ط10، دار العلم للملايين، بيروت، 1412هـ / 1992م: 46 / 3.

² - هو أبو محمد عبد الله بن محمد الخزرجي، ضياء الدين: عروضي أندلسي، نزل بالإسكندرية. وتوفي قتيلاً سنة 626هـ / 1229م. له "الرامزة في علمي العروض والقافية"، منظومة تعرف بـ "الخرزجية" نسبة إليه، و"علل الأعراب". تنظر ترجمته في: الأعلام: 4 / 124.

³ - من شروحيها:

- كشف الرّموز: وهي رسالة منظومة في شرح القصيدة الخزرجية للهشتوكي، وهو أبو العباس أحمد بن محمد بن داود بن يعزى ابن يوسف الجزولي التملي نسباً، أخزي يفتح الهمزة وضمّ الحاء وكسر الزاي المشددة. الشهير بالهشتوكي، ويعرف بالجزولي (ت1127هـ / 1715م)، تنظر ترجمته في الأعلام: 240 / 1.

- شرح البكاء: وهو عبد المعين بن أحمد، ابن البكاء البلخي (ت1040هـ / 1630م)، تنظر ترجمته في الأعلام: 4 / 155.

- شرح العصامي: وهو عبد الملك بن حسين بن عبد الملك المكي العصامي (ت1049-1111هـ / 1639-1699م). تنظر ترجمته في الأعلام: 4 / 157-158.

- شرح قاسم بن محمد البكرجي (1094-1169هـ / 1683-1756م). تنظر ترجمته في الأعلام: 5 / 183.
- شرح الشريف الغرناطي: وهو أبو القاسم محمد بن أحمد الحسيني (697-760هـ / 1297-1359م). تنظر ترجمته في الأعلام: 5 / 327.
- المفاتيح المرزوقية في شرح الخرزجية لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد، ابن مرزوق العجيسي (710-781هـ / 1311-1380م). تنظر ترجمته في: الأعلام: 5 / 328.
- شرح البصروي: وهو محمد بن خليل بن محمد، أبو عبد الله، محب الدين ابن الإمام غرس الدين خليل، البصروي الدمشقي (ت نحو 889هـ / 1484م). تنظر ترجمته في الأعلام: 6 / 117.
- شرح محمد الدلجي (860-947هـ / 1456-1540م)، وهو: محمد بن محمد بن محمد الدلجي العثماني، شمس الدين. تنظر ترجمته في الأعلام: 7 / 57.
- ⁴ - لقد ورد في خطبة الكتاب: «وبعد، فهذه حواشٍ موجزة على شرح الخرزجية، الذي هو للعلامة أبي يحيى زكريا الأنصاري...». إيضاح الدليل: 2.
- ⁵ - ينظر: الأعلام: 7 / 156-157. وينظر أيضاً: رحلة القطب: امحمد بن يوسف بن عيسى أطفيش، دراسة وتحقيق: يحيى بن بهون حاج امحمد، ط1، مطبعة Mondial Print Service، الجزائر، 1427هـ / 2007م: 33.
- ⁶ - إيضاح الدليل: 2.
- ⁷ - إيضاح الدليل: 37.
- ⁸ - المصدر نفسه: 234.
- ⁹ - المصدر نفسه: 483.
- ¹⁰ - المصدر نفسه: 224.
- ¹¹ - المصدر نفسه: 224.
- ¹² - المصدر نفسه: 224.
- ¹³ - المصدر نفسه: 39.
- ¹⁴ - وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد، ابن مرزوق العجيسي التلمساني (766-842هـ / 1364-1438م). تنظر ترجمته في الأعلام: 5 / 328.
- ¹⁵ - تنظر ترجمته في: الأعلام: 8 / 232.
- ¹⁶ - هو: أبو الحكم ابن عذرة.
- ¹⁷ - إيضاح الدليل: 410.
- ¹⁸ - هو محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم ابن واصل، أبو عبد الله المازني التميمي الحموي، جمال الدين: مؤرخ، عالم بالمنطق والهندسة والأصولين، من فقهاء الشافعية. مولده في حماة (بسورية) سنة 604هـ / 1208م، ووفاته بها سنة 697هـ / 1298م. أقام مدة طويلة في مصر، واتصل بالملك "الظاهر بيبرس"، فأرسله في سفارة عنه إلى ملك صقلية "الانور مانفريد" "Manferd"، وهناك صنف رسالته

"الانبوريّة" في المنطق، وتسمّى "نخبة الفكر". ولما عاد خلع عليه بلقب قاضي القضاة وشيخ الشيوخ بحماة. تنظر ترجمته في: الأعلام: 6/ 133.

¹⁹ - ينظر: مقال لمحمد عبد المجيد الطويل: في عالم الكتب، مج 18، ع8، 14018هـ/ 1998م.

²⁰ - تنظر ترجمته وأخباره في الأعلام: 7/ 156. رحلة القطب: 22-61.

²¹ - عنوان تفسيره للقرآن الكريم: "تيسير التفسير"، وهو مطبوع، ينظر الأعلام: 7/ 157. رحلة

القطب: 32.

²² - سورة آل عمران، من الآية: 159.

²³ - إيضاح الدليل: 216.

²⁴ - سورة مريم، من الآية: 34.

²⁵ - إيضاح الدليل: 364.

²⁶ - المصدر نفسه: 285.

²⁷ - المصدر نفسه: 443.

²⁸ - المصدر نفسه: 264.

²⁹ - المصدر نفسه: 233.

³⁰ - المصدر نفسه: 287.

عنديات القاب أطفيش البلاغة من أجل فهمه في التفسير والبلاغة

امحمد لقدي

جامعة الجزائر

يعد الشيخ امحمد بن يوسف أطفيش من الموسوعيين القلائل الذين ساهموا في إعادة بناء التراث العربي بما خلفه من مراجع وكتب في مختلف فنون المعرفة الإنسانية، فشكل بذلك مكتبة تراثية زاخرة تغني القارئ وتنمي معرفته.

وحظيت البلاغة العربية بجانب واسع من تأليفه، إذ ضمنها عدة كتب توزعت بين التأليف المتخصص في البلاغة من ممثل: "بيان البيان" في علم البيان، و"ربيع البديع" في علم البديع، و"تخليص العاني من ربة جهل المعاني" في علم المعاني؛ والكتب التي بُحثت البلاغة فيها بما له علاقة بالتفسير ضمن منظومة إعجاز القرآن، وقد ظهر ذلك بشكل خاص في كتابيه العظيمين في التفسير: "هميان الزاد إلى دار المعاد" و"تيسير التفسير".

وفي هذا البحث حاولت أن أعرض بعضا مما أسميته "عنديات" الشيخ أطفيش التي ظهرت في تصانيفه البلاغية المتخصصة وكذا في تفسيريه المذكورين، حيث تجلت مهارات الشيخ في تقليب أوجه الكلمات والآي القرآنية بما تقتضيه الصنعة العربية بجمايلاتها المتعددة الظاهرة والمكونة.

وبدأت بالبلاغة القرآنية التي ساقها في تفسيريه، تبجيلا لكاب الله وتبركا بكلامه العزيز، وثبتت بالحديث عن بعض "عندياته" في كتبه البلاغية المتخصصة.

عندياته في البلاغة القرآنية من كتب التفسير

احتلت البلاغة وفنونها حيزا واسعا من مؤلفات الشيخ القرآنية، وذلك للعلاقة الوثيقة بين معرفة كتاب الله حق المعرفة وبين هذه الفنون، وقد قال في "الكشاف" ﴿الرمخشري، دت، 41/1﴾: "ومن حق مفسر كتاب الله الباهر وكلامه المعجز، أن يتعاهد في مذهبه بقاء النظم على حسنه والبلاغة على كمالها وما وقع به التحدي سليماً من القادح، فإذا لم يتعاهد أوضاع اللغة فهو من تعاهد النظم والبلاغة على مراحل"، ونبه في "الإتقان" (السيوطي، 1405 هـ، 2/536) أن على

من يتعاطى التفسير أن يتقن علوم البلاغة من معان وبيان وبيدع، وهي من أعظم أركان المفسر، لأنه لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، ولا يدرك إلا بهذه العلوم.

1- عندياته البلاغية من كتاب: "هميان الزاد إلى دار المعاد".

كان تفسير القرآن العظيم المسمى: "هميان الزاد إلى دار المعاد" أول تأليف للشيخ في هذا الفن، إذ بدأ في تأليفه وله من العمر أربع وعشرون سنة. وقد طبع الكتاب أكثر من مرة، والطبعة الثانية له كانت بمطابع سجل العرب، ونشرته وزارة التراث القومي بسلطنة عمان سنة 1980م، وقد وقع في (13) ثلاثة عشر مجلدا.

ومما جاء فيه من العنديات البلاغية:

- إعجاز وبلاغة الأحرف المقطعة أوائل السور ﴿أطفيش، 49/1، 1980﴾: فلقد أسر الإعجاز القرآني في ناحيته اللغوية والبلاغية عقل الشيخ أطفيش، وكان مما استوقفه إعجاز وبلاغة الأحرف المقطعة أوائل السور، فراح - كغيره من المفسرين - يذكر في أوائل سورة البقرة ما عرف من اختلاف العلماء حول حقيقة وكنه هذه الأحرف، واستوقفه - إثر ذلك - كلام الإمام اللغوي قطرب (محمد بن المستنير) تلميذ سيويه، وأعجبه حينما قال: "هي حروف مزيدة للتبسيط والدلالة على انقطاع كلام واستئناف آخر"، ورد اعتراض القاضي البيضاوي عليه، ثم قال شارحا ومفصلا ومستشهدا بغيره: "وعندي أن قول قطرب حسن، وكنت أشبه المقام بمقام من أراد أن يتكلم لمن استغرق قبله في شيء، فيقدم إليه ما يصغى به إلى الكلام كأن يجده أو يغمز بدنه أو يقرعه بالحصى، ومن ذلك الوادي أن تشير إلى من كان في كلامه دنوي بالبسملة تنبيهاً على أن يقر، ثم رأيت عن الجويني ما يناسبه إذ قال: القول بأنها تنبيه جيد، لأن القرآن كلام عزيز، وفوائده عزيزة، فينبغي أن يرد على سمع متنبه، فكان من الجائز أن يكون الله قد علم في بعض الأوقات كون النبي صلى الله عليه وسلم في عالم البشر مشغولا فأمر جبريل بأن يقول عند نزوله "ألم" "حم"، ليعلم النبي صلى الله عليه وسلم صوت جبريل فيقبل عليه ويصغى إليه، وإنما لم تستعمل الكلمات المشهورة في التنبيه كـ "ألا" و"أما"، لأنها من الألفاظ التي تعارفها الناس في كلامهم، والقرآن كلام لا يشبه الكلام فناسب أن يؤتى فيه بألفاظ تنبيه لم تعهد لتكون أبلغ في قرع سمعه".

- وفي قوله تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ﴿أطفيش، 1980، 442/12﴾ ذكر الشيخ وجهها نحويا له كبير تعلق بالمعنى المراد للآية، وبخاصة في شقه البلاغي الإعجازي. ففي قوله تعالى: "وَفِي خَلْقِكُمْ" و"وَمَا يَبُتُّ" كلام للنحويين بينه الشيخ بقوله: "ما" معطوف على "خلقكم" بتقدير مضاف؛ أي: وفي خلق ما يبت، أو بدون تقديره فإن بته وتنوعه واستجماعه لما يتم معاشه إلى غير ذلك دلائل على وجود الصانع المختار، ولا يعطف

على "الكاف" لقبح العطف على ضمير الجر المتصل بلا إعادة خافض أو لمنعه، ولو أريد لقليل: وخلق ما يث - بسكون اللام-؛ لأن الخافض المضاف ولو كان منفصلاً باستعارة لجاز نحو: إنا كأنت وزيد، بجرّ "زيد" عطفاً على "أنت". ومن أجاز ذلك فلا قبح عطف "ما" على الكاف إن شاء". ثم انفرد الشيخ برأي فيه وجه نحوي آخر اعتمده وأقام عليه الدليل بقوله: "وعندي هنا وجه لم أره لغيري وهو عطف "ما" على محل الكاف الذي هو النصب، لا محله الذي هو الجر، وذلك أن "الخلق" مصدر مضاف للمفعول".

- وفي قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ﴿أطفيش، 1980، 128/1﴾، ناقش الشيخ وجوه ما تحتمله الآية الكريمة من البلاغة، فذكر أن في قوله: "اشترؤا" استعارة تبعية تصريحية تحقيقية، والمعنى: اختاروا الضلالة واستحبوها على الهدى الذي فطر الله الناس عليه. وفي قوله تعالى: "فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ" ذكر الربح والتجارة ترشيح الاستعارة المذكورة في "اشترؤا"، لأنهما ملائمان للمشبه به، فإن الربح إنما ينفي عما من شأنه أن يقع فيه ولم يقع وهو الشراء الحقيقي، والتجارة طلب الربح بالبيع والشراء... وأولى منه أن يقال: هو الصرف بالبيع والشراء للربح، والربح الفضل على رأس المال، وكل ذلك ملائم للمشبه به ولكون الربح الفضل على رأس المال... ونفي ربح تجارتهم تمثيل لخسارتهم وتصوير لحقيقتها.

غير أن الشيخ سارع إلى دفع إيهام من يتوهم أن بالآية تخليطاً بلاغياً، فيه -رحمه الله- بقوله: "فيحوز عندي أن يكون ذلك استعارة تمثيلية، لا يمنع ذلك كونه ترشيحاً للاستعارة السابقة عن هذه". ثم ذهب أكثر من ذلك لبيان أن للآية وجهاً بيانياً ثالثاً، حيث قال: "...وحقيقة الكلام عما ربحوا في تجارتهم بإسناد الربح لأرباب التجارة، أو من الإسناد إلى السبب أو الملزوم، فإن التجارة سبب للربح وملزوم له ملوئماً بيانياً، أو من الإسناد للمخالط المجاور، فإن التجارة تخالطت التاجر، أو شبه التجارة بعبدهم أو خادهم أو من يقيمونه على التصرف في أموالهم للربح على طريق الاستعارة المكنية، ورمز إليها بالربح؛ فكما أن العبد أو الخادم أو نحوهما جالب الربح أو خسران كذلك التجارة...".

- وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿أطفيش، 1980، 350/5﴾ وهنا ينبغي أن نشير إلى أن كثيراً من أهل التفسير تحاشوا الخوض في إعراب جملة "لو" الأولى والثانية، فقد ذكر ذلك شيخ المفسرين التونسيين العلامة الطاهر بن عاشور ﴿الطاهر بن عاشور، 1974، 113/6﴾ بقوله: "وقد سكت المفسرون عن موقع إعراب هذه الجملة وهو دقيق...". وذلك أن المفهوم المتبادر للآية يفيد الاستحالة، إلا إذا قدر ما يسمى اختلاف الوسط، وهو الذي أفاده ابن هشام في تخريج المعنى بقوله ﴿ابن هشام، 1985،

ص154. ﴿: "وتوجيهه-أي توجيه الكلام في جمليتي أو- أن الجملتين يتركب منهما قياس، وحينئذ فينتج: لو علم الله فيهم خيراً لتولوا، وهذا مستحيل، والجواب من ثلاثة أوجه اثنان يرجعان إلى نفي كونه قياساً وذلك بإثبات اختلاف الوسط، أحدهما: أن التقدير لأسمعهم إسماعاً نافعاً، ولو أسمعهم إسماعاً غير نافع لتولوا، والثاني: أن تقدر ولو أسمعهم على تقدير عدم علم الخير فيهم، والثالث: بتقدير كونه قياساً متحد الوسط صحيح الإنتاج، والتقدير: ولو علم الله فيهم خيراً وقتاً ما لتولوا بعد ذلك الوقت.

وإلى قول ابن هشام الأخير، متحد الوسط، أشار الشيخ أطفيش بقوله: "ولك أن تجعل ذلك على طريق القياس الاقتراضي، أن تجعل الوسط متحداً كما علمت، وتجعل الخير بمعنى الإيمان، والانتفاع مطلقاً بمعنى السعادة، ولا بمعنى الإيمان والانتفاع الذين يموت عليها الإنسان، أي: لو علم الله في الأزل أنهم يؤمنون ويعملون الصالحات لأسمعهم الآيات والوعظ، ولو أسمعهم الآيات والوعظ لارتدوا عن ذلك للشقاوة، فينتج لو علم فيهم الإيمان والعمل الصالح لتولوا عنهما بعد العمل بهما للشقاوة". غير أن الشيخ استظهر القول باختلاف الوسط دفعاً للالتباس في تقرير المعنى بقوله: "والوجه الأول أظهر عندي...".

ولم ينس الشيخ أن يذكر بأن القياس الاقتراضي يكون في القضايا الشرطية غير مختص بالقضايا الجمالية كما زعم الأخضرى، فقال: "... وما ذكرته من جواز كون الكلام على طريق القياس الاقتراضي مبني على التحقيق، لأنه يكون في القضايا الشرطية، كما يكون في الجملة، لا كما قال الأخضرى إنه مختص بالقضايا الجمالية، وهو هنا من قضيتين شرطيتين متصلتين".

- في قوله تعالى: ﴿فَأَسْأَلُ بِهِ خَيْراً﴾ ﴿أطفيش، 1980، 345/9﴾. يقول الشيخ أطفيش في هذا التركيب مبرراً اختياره: "ويجوز عندي أن يكون من التجريد البديعي؛ أي: أسأل بسؤاله خيراً، كقولك: رأيت به أسداً؛ أي: رأيت برؤيته. والمعنى: إن سأله وجدته خيراً. وإنما قدرت المضاف هنا لصلاحيته، ... ويجوز أن يقدر مضاف في التجريد الذي في الآية فيكون على طريقة: أسأل بفلان البحر، تبالغ في اتصافه بالسماحة حتى نزعته منه بحراً في السماحة...".

- وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ ﴿أطفيش، 1980، 483/6﴾. يقول الشيخ في هذا التركيب: "هذا عندي من الاستعارة التمثيلية، فإن هذا المركب موضوع للإخبار بالكذب، وليس هذا مراده لعلم الله سبحانه بكل شيء، ولكنه استعمله في إظهار أنه يدعوا عليهم لتكذيبهم للوحي، لا لاستخفافهم بحقه عليه السلام".

2- عندياته البلاغية من كتاب: "تيسير التفسير".

كتاب "تيسير التفسير" من أهم تأليف الشيخ، حيث إنه كان اختصاراً لكتابه الأول

"هميان الزاد"، وجمع فيه زبدة ما جادت به قريحته العلمية بعد أن بلغ في العلم مبلغ النضج والفحولة. طبع الكتاب على مراحل امتدت طبعته الثانية بين سنتي 1982 و 1987 للميلاد، ووقع حينها في 14 أربعة عشر جزءاً، وتكفلت بنشره وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان.

ومما جاء فيه من عنديات الشيخ:

- في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ ﴿أطفيش، 1980، 368/3﴾. قال الشيخ مفسراً: "فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ" عهدهم: اطرحه، شبه العهد وهو معنى بجسم حقير يطرح، فرمز لذلك بالنبذ، فهذا استعارة بالكناية، وإثبات النبذ تخيلية، والنبذ على حقيقته عند الجمهور، أو أمر موهوم يناسب العهد، فالنبذ تخيلية عند السكاكي."

غير أن للآية وجهها بيانيا أفاده الشيخ أطفيش، وهو أن النبذ هنا بمعنى الإبطال؛ أي: إبطال المعاهدة؛ وعلى هذا فالرسول صلى الله عليه وسلم أن يقاتل بني قريظة وبني النضير بلا إعلام بالقتال بعد إعلام بالإبطال. وعلى هذا التأويل يصبح التعبير القرآني جارياً على الاستعارة التصريحية، يقول الشيخ مفنداً ما ذهب إليه: "وعندي يجوز أنه تصريحية للإبطال... فقول: إني قد أبطلت العهد، ولا يلزم أن يقول: لأنه بانت لي منكم أمانة الخيانة، وإن علم بالنقض منهم لم يلزمه أن يصرح لهم بإبطاله كما مضى صلى الله عليه وسلم إلى مكة بلا إعلام لأهلها، حين نقضوا العهد وقتلوا خزاعة الذين في ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى بلغ من الظهوان على أربعة فراسخ من مكة، ولا يلزم أن يعلمهم بالحرب إن خاف خيانة كما قيل، بل بالإبطال، فله قتالهم بلا إعلام بالقتال بعد إعلام بالإبطال."

- وفي قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾ ﴿أطفيش، 1980، 17/11﴾. أكثر المفسرين على أن المعنى البياني للآية جارٍ على الاستعارة التمثيلية؛ فكان الله عز وجل قال: "سأترك الأشغال كلها وأعاملك بما تستحق، والله عز وجل لا يشغله شيء عن شيء، لكن قضى الأشياء مرتبة، ولكن كنى عن التوفر في الانتقام بحيث لا شيء يعارضه عن تمام الانتقام، كمن ترك المهام إلى مهم واحد."

وللشيخ أطفيش كلام في معنى بياني آخر تحتمله الآية، فقال: "ويجوز أن تكون مفردة بأن استعمل "سنفرغ" في أن نأخذ في جزائكم فقط، فتكون تبعية بأن يشبه الأخذ في الجزء فقط بالتفرغ إلى الشيء وحده، ويشق منه تفرغ بمعنى نأخذ فيه وحده، وعندي الاستعارة أصلية في مثل هذا كناطق الحال، وإنما التبع في التشبيه فقط لا في استعارة متقدمة، والآية وعيد وتهديد على المعصية للمجموع...؛ لأن الثقلين يعم...".

- وفي قوله تعالى: ﴿وَاشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ ﴿أطفيش، 1980، 454/5﴾. ذكر غير

واحد من أهل التفسير أن هذا من أحسن الاستعارة في كلام العرب، لما في هذه الجملة من الخصوصيات من مبنى المعاني والبيان، فكان لها أعظم وقع عند أهل البلاغة نبه عليه صاحب "الكشاف"، ووضحه صاحب "المفتاح".

ومما أورده الشيخ أطفيش فيها اختياره وتحقيقه لمسألة جواز انفكاك الاستعارة المكنية عن التخيلية، فبدأ كلامه عن الآية ودحض فيه قول الأخفش وغيره من أن "شيبا" مفعول مطلق، فقال: "شيبا تمييز محول عن الفاعل بمعنى انتشر شيب الرأس، ولا حاجة إلى دعوى أن شيباً مفعول مطلق، وأن اشتمل بمعنى شاب". ثم أورد ما حققه في كتبه الأخرى عن مسألة الانفكاك المذكورة سابقا بقوله: "... شبه الشيب بشواظ النار لجامع عدم السواد فيها، وثبوت بعض بياض فيها، وشبه انتشاره في الشعر باشتغالها لجامع التثقل، ففي اشتمل استعارة تصريحية تبعية، وفي الشيب مكنية، والتحقيق جواز انفكاك المكنية عن التخيلية، كما بينته في "شرحي على شرح عصام الدين"، و"بيان البيان". وفائدة بناء الكلام على التمييز إفادة العموم، إذ لو قيل: اشتعل شيب الرأس لم يعد العموم، مع أنه مراد، كما إذا قلت: اشتعل البيت نارا، أفاد العموم تصرحياً، وإذا قيل: اشتعل نار البيت لم يفده ولو أريد بالنية".

عندياته في كتبه البلاغية المتخصصة

1- عندياته في كتابه: "تخليص العاني من ربة جهل المعاني"

في كل كتاب من كتب الشيخ أطفيش تتجلى في ثناياه منهجيته المحكمة، التي تتم على اطلاعه الواسع في العلوم، وتظهر آراؤه ومواقفه التي ترسم شخصيته، وتكشف للباحثين في تصانيفه سمات العلماء والأدباء.

وكتابه: "تخليص العاني من ربة جهل المعاني"، موضوعه - كما هو ظاهر - علم المعاني، وهو رابع أربعة كتب البلاغة التي ألفها الشيخ أطفيش، وقد حققه الأستاذ محمد زمري من جامعة تلمسان، وتكفلت بطابعته وزارة التراث والثقافة بسلطنة عمان سنة 2009 م.

وفي هذا الكتاب اخترنا بعضاً من "عنديات" الشيخ، فكانت كالاتي:

- تكلم الشيخ -رحمه الله- بعد المقدمة عن باب مهم في علم البلاغة، ألا وهو باب فصاحة المفردات؛ فعرف البلاغة والفصاحة وما اشتق منهما، ثم انتقل إلى باب آخر بعنوان: "باب التناثر في الكلمة"، وهنا تعرض لمصطلحي الثقل المتناهي والثقل القريب منه. فكلمة "الهعنع" -بوزن قنفذ ودرهم- وهو نبت أسود، حروفها متناهية الثقل -كما يقول أطفيش- لجمعه بين الهاء الخارجة من أسفل الحلق والعين الخارجة من وسطه، وذكرت مرتين، والخاء الخارجة من أعلاه. وأما مادة "عهد" في قوله تعالى: "ألم أعهد" فقد اعتبرها الشيخ أطفيش من النوع الثاني وبين صحة ما ذهب إليه بقوله: "قلت: الجواب عندي أن مادة "عهد" تدرب عليها اللسان في

القرآن وغيره، وخفت في الذوق فصارت كسائر الكلمات التي لا ثقل فيها، فلم يحصل الثقل بزيادة الهمزة...". وقال في "هميان الزاد" ﴿أطفيش، 1980، 265/11﴾: "والتحقيق أن أعهد غير ثقیل ثقلاً مخلاً بالفصاحة كما يعلم بالذوق السليم، فإنه إنما يعد ثقيلًا متعسر النطق ما عده الذوق السليم كذلك... فإن التنافر وصف في الكلمة يوجب ثقلها على اللسان وعسر النطق بها، وهو مزيد ذكاء يعرف به المعاني الخفية بحسب قران الأحوال، وليس "أعهد" كذلك ولا سيما على قراءة ورش، بنقل فتحة الهمزة وحذف الهمزة، فلا يبقى إلا حرفان متقاربان: العين والهاء."

- وفي: "باب خطاب خالي الذهن من الحكم من لازمه وملزومه والتردد في ذلك"، ذهب الشيخ أطفيش إلى جواز تأكيد خالي الذهن لأسباب بينها بقوله: "إذا أريد خطاب الخالي عن ذلك لم يؤكد الحكم، لأنه يتمكن في ذهنه بلا تأكيد... وعندي أنه يجوز التأكيد بزيادة في التمكين وترغيباً في العمل بمقتضاه، فقد يخلو الذهن ولا ينشط بالكلام حتى يؤكد..."

وفي الباب ذاته ناقش الشيخ مسألة التأكيد الواردة في قوله تعالى: "لا ريب فيه"، حيث اعتبر أن "لا" جاءت مؤكدة للنفي، لأنها استغرقت الجنس، فقال: "ومعنى قلبي إن "لا" للتأكيد أن النفي بها قوي، لأنها استغرقت الجنس، وكذا أراد ابن مالك ومن تبعه في قوله: إن "لا" لتأكيد النفي إذا عملت عمل "إن"، كما أن "إن" لتأكيد الإثبات، فلا يشكل عليه أنه لا نفي قبل وجود "لا" فضلاً عن أن تؤكد، وأيضاً "لا" لتأكيد المحكوم عليه فيما قيل لا لتأكيد الحكم. والكلام إنما هو في تأكيد الحكم، وهذا غير مسلم عندي إلا إذا أريد بالتأكيد الاستغراق بـ"لا"، لأن تأكيد المحكوم ليس بالذات بل باعتبار الحكم، إذ لا يخفى أنه لا معنى لتأكيد أنفس الرجال في قولك: لا رجل قائم إلا باعتبار القيام المنفي، والجملة الاسمية ولو أفادت التأكيد في الجملة، لكن ليست للتأكيد مطلقاً بل إذا اعتبرت مؤكدة-بكسر الكاف- كذا قيل. ولا أسلمه إلا إن أريد بالتأكيد عدم الدلالة على الحدث، مع أن الجملة الاسمية الخبر فيها دال على الحدث، ولا نسلم أنها لا تدل على الحدث. والله أعلم." ﴿أطفيش، 2009، ص50﴾

- وفي: باب الحقيقة العقلية المطابقة للواقع و الاعتقاد معاً، ذكر الشيخ ما يستشهد به علماء الفن على الحقيقة العقلية، وهو قول المؤمن: أنبت الله البقل. غير أنه لم يسلم كون الحقيقة العقلية محصورة بشرط أن يكون المخاطب مؤمناً عالماً بأن المتكلم مؤمن، أو يكون المخاطب كافراً يعلم أن المتكلم يضيف الإنبات إلى الله حقيقة، فقال: "التحقيق عندي حصول الحقيقة العقلية مطلقاً بإسناد لفظ الفعل أو نحوه إلى مستحقه ولو ادعاء، أو إذا كان ذلك فهو حقيقة عقلية علم المخاطب ذلك الاستحقاق وكون الإسناد حقيقة عقلية، أو لم يعلم، كما لا يمنع كون اللفظ حقيقة لغوية جهل المخاطب أنه حقيقة لغوية، ولا يمنع كون اللفظ مجازاً لغوياً جهل المخاطب بأنه مجاز إذا نصب القرينة، ولا يمنع كون الإسناد مجازاً عقلياً جهل المخاطب

به إذا نصب القرينة". ﴿أطفيش، 2009، ص60﴾

- وفي: "باب تقييد الحكم بالشرط"، وذلك كقولهم: زيد قائم إن قمت، وقولهم: إذا قمت أقم، ونحو ذلك. ذكر الشيخ استعمالات "إن" في الجملة العربية، ومن ذلك استعمالها في حال الجزم لعدم جزم المخاطب، كقولك لمن يكذبك: إن صدقتُ فماذا تفعل؟، وذلك بأن يكون المخاطب شاكا في صدقك أو متوهما له. وهنا يتدخل الشيخ ليقول: "وعندي يجوز أن تقول ذلك لمن يجزم بكذبك بأن تنزلت له لتجره إلى التصديق، وأن تقول ذلك تجاهلا".

وتستعمل أيضا في تغليب غير المتصف بالشك على المتصف به في المضى إذا كان لفظ "كان" وفي المستقبل "إن كان"، وذكر الشيخ شاهدا قرآنيا، وهو قول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ "إذ غلب غير المرتابين على المرتابين، لأنه كان من المخاطبين من يعرف الحق وينكره عنادا... والمراد بغير المرتابين من لم يتصف بالريب لا من شك في ربهم... ولأن مخاطبهم بهذا الكلام هو الله تعالى.."، ثم يضيف الشيخ كلاما استنبطه لم يسبق إليه: "ويبحث بـ"إن" حقيقة التغليب أن يوجد للكلمة ما ليس لها ويغلب ما لها على ما ليس لها، وهنا ليس كذلك لأن البعض مرتاب قطعا والبعض غير مرتاب قطعا، فلم يوجد ما يليق بـ"إن"، فمجرد التغليب لا يكفي، بل لا بد من انضمام شيء آخر يصح به استعمال "إن". قلت: قد يجاب بوجود صورة الشك تنزيلا لا تحقيقا في جانب من لم يرتب وأنكر، بأن اعتبر مخالفتها لما لم يرتب فيه مما يُشكك به في ارتيابه، فناسب "إن" فغلب جانبه على جانب من يقطع بشكه، فافهم ذلك فإنك لا تراه لغيري".

- وفي: "باب تعريف المسند لإفادة السامع" تكلم الشيخ عن مسألة قصر المبتدأ على الخبر وعكسها، وفيها أورد بيت الخنساء:

إِذَا قُبِحَ الْبُكَاءُ عَلَى قَتِيلٍ رَأَيْتُ بُكَاءَكَ الْحَسَنَ الْجَمِيلَ .

وأورد كلام السعد التفتازاني في المطول ﴿التفتازاني، 1966 ، 229﴾: من أنه "لا قصر فيه إذ ليس المعنى عليه عند الذوق السليم والطبع المستقيم، ولو أمكن بحسب النظر والتأمل القاصر؛ لأن هذا الكلام للرد على من يتوهم أن البكاء على أخيها الذي ترثيه قبيح كغيره، فالرد على هذا المتوهم بمجرد إخراج بكائه من القبح إلى كونه حسنا، وليس هذا الكلام واردا في مقام من يسلم حسن البكاء، إلا أنه يدعي أن بكاء غيره حسن أيضا حتى يكون معناه: إن بكاءك هو الحسن الجميل فقط، إذ لا يلائمه قولها: إذا قبح البكاء على قتيل، وإنما الملائم له إذا ادعى حسن البكاء عليك وعلى غيرك، فيقال حينئذ: إن بكاءك فقط هو الحسن الجميل".

وقول السعد هذا لم يرتضه الشيخ أطفيش، فقد قال بعده: "والذي عندي غير هذا؛ وهو أن فيه القصر مبالغة منها في المقابلة، والجواب أنها تدعي أن الحسن الجميل كله مقصور على

بكائك، وتقول: إن البكاء إنما يقبح على غير أخيها من القتلى لا على أخيها، بل البكاء على أخيها هو الحسن الجميل، حتى كأنه لا جمال غيره زعما ودعوى، وإلا لقلت حسنا جميلا بالتنكير، ففيه ما يلائم قولها: "إذا قبح البكاء على قتيل" وزيادة، وليس هذا قصور نظر كما قال السعد. والله أعلم." (أطفيش، 2009، ص 248) ﴿

- وفي: "باب الوصل" وهو عطف المفردات و عطف بعض الجمل على بعض. ومن العطف الممنوع أصالة عطف الصفة على الصفة، كما في قوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾، ويكون العطف ضروريا عند إيهام التضاد، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾، ليفهم الجمع وينفي التضاد. كل ذلك وغيره إذا كان العطف بالواو وما استعمل في معناها مجازا من مطلق الجمع وحده. وأما غيرها من الحروف فللشيخ رأي فيه تفصيل، حيث قال: "وعندي لا يكفي في ذلك القبول معنى ذلك الحرف، بل لا بد من وصف خاص. فلو قلت: قام زيد ثم قعد حمار لم يكن بليغا إلا الفاء، فالسببية فيها كافية، نحو: قام زيد فهرب حمار أو فقعد حمار، ولكونه لا بد من الوصف الخاص الجامع عيب على أبي تمام قوله:

لَا وَالَّذِي هُوَ عَالِمٌ أَنَّ النَّوَى صَبْرٌ وَأَنَّ أَبَا الْحُسَيْنِ كَرِيمٌ

فإنه لا مناسبة بين كرم أبي الحسين ومرارة النوى، أي البعد، ولا يحتمل أن المراد: البعد عن أبي الحسين فتحصل المناسبة، لأننا نقول: الكلام السابق يدل على أن المراد البعد عن حبيته، فإن قبل هذا البيت:

زَعَمْتَ هَوَاكَ عَفَا الْعِدَاةَ كَمَا عَفَا عَنْهَا طَلَالٌ بِاللَّوَى وَرُسُومٌ

ولفظ "لا" نفي لما ادعته حبيته من اندراس هواه كما ذكره في هذا البيت بالزعم..": (أطفيش، 2009، ص 354 - ابن الأثير، 1983، 3/149) ﴿

2- عندياته في كتابه: "ربيع البديع":

كتاب "ربيع البديع" من مؤلفات الشيخ التي لم تحقق بعد، وقد اطلعت على نسخة بخط المؤلف تقع في 50 ورقة، معدل مسطرتها 35 سطرا، بها تلوين بالأحمر للأبواب، ورقم تصنيفها لدى مكتبة القطب: أس/3.

وقد قسم الشيخ فن البديع إلى قسمين: قسم يزين المعنى سواء أزيّن اللفظ أم لم يزيّنه، وقسم يزين اللفظ فقط. فذكر في الأول 134 بابا، وذكر في الثاني 57 بابا.

ومن عنديات البلاغية واللغوية التي جاءت فيه اخترنا:

- في: "باب الطباق" (أطفيش، 2 ظ)، وبعد أن عرفه ومثل له ذكر أن السعد التفتازاني

في كتابه "المطول" وعصام الدين في كتابه "الأطول" قالاً بأنه لا يكون الطباق بين الاسم والحرف، ولا بين الفعل والحرف. غير أن الشيخ أثبت وقوعهما، فمثل للأول بقوله هو: زيد المرحوم وعمرو عليه ما كسب، ومثل للثاني بقوله هو أيضاً: رحم الله زيدا وعلى عمرو ما كسب. ثم قال بعد ذلك: "وقال السعد في المطول وعصام الدين في الأطول أنه -أي الطباق- لا يكون بين الاسم والحرف ولا بين الفعل والحرف، وإثباته بين أحدهما والحرف من عندياتي وكذا التمثيل من عندي..":

- وفي: "باب التقسيم" ﴿أطفيش، 11و-11ظ﴾، وهو ذكر متعدد ثم إضافة ما لكل إليه، ومنه قول المتلمس:

وَلَا يَقِيْمُ عَلَى ضِيْمٍ يُرَادُ بِهِ إِلَّا الْأَذْلَانِ: عَبْرُ الْحَيِّ وَالْوَتْدِ
هذا على الخُسْفِ مربوطٌ بِرَمْتِهِ وَذَا يُشْجُ فَلَا يَرْتِي لَهُ أَحَدٌ

وبعد أن بين الشيخ معاني الكلمات، شرح البيتين إجمالاً ثم قال: "...والعبر: الحمار، والإشارة بلفظ هذا إليه... والإشارة بذا إلى الوتد... وذلك أنه ذكر العبر والوتد ثم أضاف إلى الأول الربط على الخسف، وإلى الثاني الشج على التعيين، ولا يقال ليس هذا بتعيين إذ صلح كل من هذا وذا أن يكون إشارة إلى العبر أو الوتد، لأننا نقول يكفي في التعيين تعيين المتكلم أن هذا كذا وهذا كذا في عبارته ولو لم يفهم السامع حقيقة تعيينه. هذا ما ظهر لي في الجواب، ثم رأيت للسعد غير هذا... وجوابي أحسن إن شاء الله تعالى".

- وفي: "باب الطاعة والعصيان" ﴿أطفيش، 37ظ﴾ ذكر الشيخ أن هذا النوع استخرجه أبو العلاء المعري، وسماه بهذا الاسم في شرحه لكلام أبي الطيب في قوله:

يَرُدُّ يَدًا عَنْ ثَوْبِهَا وَهُوَ قَادِرٌ وَيَعْصِي الْهَوَى فِي طَيْفِهَا وَهُوَ رَاقِدٌ

ومعنى البيت بحسب أبي العلاء أن المتنبى أراد أن يقول: "وهو مستيقظ" فعصاه الوزن فعدل إلى "وهو قادر"، فانقاد معه إلى الجناس المقلوب بين قادر وراقِد. يقول الشيخ بعد هذا: "والصواب عندي غير ذلك، بل أراد أنه تعفف يقظة ونوما مبالغة مع القدرة في الاستيقاظ".

- وفي: "باب لزوم ما لا يلزم" ﴿أطفيش، 41ظ﴾، ذكر الشيخ شاهدا شعريا من تأليفه هو لهذا النوع البديعي، فقال:

تَبَارَكَ مَنْ أَحْيَا الْفَتَى فَتَنَوْرًا فَشَابَ بِهَا وَعَتَادَ هَوْلًا مُطَوَّرًا

أي: سكن نؤرة، وهي قرية من قرى مُزَاب، فلزم الفتح قبل الراء، وهنا مذهبي ومذهب غيري. فمذهبي أن كل ما يكون تركه عيبا فليس من لزوم ما لا يلزم، لأنه إذا جاء به أولاً كان لازماً حتى تتم القصيدة أو السجعتان أو بيت الرجز، وذلك كالتأسيس والردف ولزوم الألف في الردف

إذا جاءت. وأما الردف بالياء والواو فتعاقبان فيه، وكما إذا سكن الروي التزمت الحركة قبله ولا تتبدل بأخرى. وأجيز تعاقب الضم والكسر، فلزوم ذلك عندي لزوم اللازم لا لزوم ما لا يلزم وكذا ما أشبه ذلك، كما أنه إذا جاء بعد الروي حرف من الحروف التي تأتي بعده لا يعد ذلك لزوم. ومذهب غيري أن ذلك كله أيضا من لزوم ما لا يلزم."

قائمة المراجع والمصادر

- ابن الأثير، المثل السائر، منشورات دار الرفاعي، الرياض، 1983.
- أطفيش، بيان البيان، مخطوط.
- أطفيش، تحليلي العاني من رقة جهل المعاني، وزارة التراث القومي، سلطنة عمان، 2009م.
- أطفيش، تيسير التفسير، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، بين سنتي 1982 و 1987 للميلاد.
- أطفيش، ربيع البديع، مخطوط.
- أطفيش، هيمان الزاد إلى دار المعاد، وزارة التراث القومي، سلطنة عمان، 1980 م.
- أبو تمام، الديوان، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1969.
- الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم الأقاويل في وجوه التأويل، دار الفكر، بيروت، دت.
- السكاكي، مفتاح العلوم، مطبعة البابي الحلبي، مصر، 1937م.
- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار التراث، القاهرة، 1405 هـ.
- شروح التلخيص، مصر، 1966م.
- عبد القادر البغدادي، خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب، دار صادر، بيروت، دت.
- عمر راشد حسن، جلال الدين السيوطي وجهوده البلاغية «دكتوراه»، كلية الآداب-الجامعة الأردنية، 2002.
- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1974م.
- فنون البلاغة بين القرآن وكلام العرب، فتحي عبد القادر فريد، دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض، 1980م.
- ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، دار الفكر، بيروت، 1985م.

السياحة السياحية في المغرب العربي (تجربة الرحلة الجبلية للشيخ أبي الفتح)

محمد مدور

قسم اللغة العربية وآدابها المركز الجامعي غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000 الجزائر

تقوم هذه الدراسة بقراءة (رحلة القطب) قراءة سيميائية محاولة استجلاء خصائص المكان ودلالاته ومرجعياته.

أهمية المكان: المكان هو المنطلق. وهو الوسيلة فمنه يبث الشيخ الفتوى، ويعلق آراءه، وفيه يكون التواصل، وبث العلم وتدوين الملاحظات.

– إن الرحلة إلى المكان المقدس يحمل قيمة دينية وثقافية (1).

– النص يكشف عن الهوية المكانية للأديب (2).

– يتميز أدب الرحلات باتساع الحيز المكاني وانتشاره.

– ارتباط المكان بالزمان.

أسلوب التعامل مع المكان:

1- الضبط اللغوي.

2- مناسبة التسمية.

3- ذكر بعض أعلام الأمصار.

4- ذكر الأحداث المتعلقة بالمكان.

5- ترتيب الأمصار.

أصناف المكان: المكان الكنائي والمكان الصريح.

المكان الكنائي: مساقط الرؤوس، فاتحة القرى، الحجاز، مدينة ذي القرنين.

المكان الصريح: بعض الأماكن أبرز من غيرها. (فهناك مكان مركزي حاضر باستمرار) (3): مكة

وتتنوع الرحلة بين الأماكن والعلامات المرجعية، فهي مجرد أسماء تتجه من خلالها العلامة

بين الإنسان والمكان اتجاهها أفقياً حسياً. بينما يمثل ذلك تطور في الوعي الشخصي يحدث كلما اقترب الرحالة من المكان المركزي.

إن الرحلة تتضمن أماكن ساكنة وأخرى متحركة.

الأماكن الثابتة مثل: البلدان.

الأماكن المتحركة مثل: السفينة التي تعد من وسائل السفر.

– إن ذكر المكان فرصة للتعريف بأشرف تلك البلاد: كبنى نابل من الأشراف من ولد الحسين ومنهم أبو القاسم من الأحراش، وهو فرصة للتعريف بالفرق الدينية والطوائف كالتائفة الصفوية المتصلة بمنطقة الصفرا.

المكان الرمز:

المكان في قصيدة الرحلة الحجازية: هو المكان التقليدي بحيث لم يحاول الشاعر أن ينقله إلى مستوى الرمز. ولم يتجاوز بالمكان مستوى الدلالة المركزية، فالجلفة هي الجلفة. وتونس هي تونس. وكذلك جدة، وعرفة، ومنى، ومكة الخ. وإنما جاء ذكر المكان لغايات علمية وتعليمية، وما المكان إلا محطة عبور.

إن الأمكنة واضحة مرتبة لم تتشابه كما عند الشعراء. إن الشاعر القطب "لم يصبح الحديث عن الوطن الذاتي ومسقط الرأس هما وحيدا له بل تعداه إلى أوطان أخرى، متجاوز المجال القطري ليشمل قضايا أعم. فالشعر الإنساني يكون أكثر عمقا وتأثيرا عن ما لا يرتبط بالمجال القطري الضيق" (4).

"وقد تميز استخدام المكان في نصوص الشعراء الجزائريين -في أغلبه- بالذكر الجغرافي لأسماء الأمكنة دون التفاعل معها أو تحويلها إلى رموز." (5)

وقد رصد الدكتور عز الدين المناصرة ثلاث طرق للتعامل مع المكان:

1- الطريقة الإلصاقية : ذكر أسماء الأمكنة.

2- الطريقة السياحية : التعامل الخارجي مع مظهر المكان.

3- الطريقة النقدية : الانصهار في دم النص وإعطائه صفات جديدة. (6)

ويبدو أن الشاعر الشيخ اطفيش استعمل الطريقة الثانية: وهي الطريقة السياحية، حيث التعامل الخارجي مع مظهر المكان ، وذكر المكان كمادة خام في النص.

"إن شعرية النص لا تقاس بمدى ورود الأمكنة في النص وذكر هندستها وتواريخها، وإنما تقاس بطريقة التعامل معها داخل النص ، وتوظيفها في البنية العامة له بوعي فني متميز يعيد صياغة الأشياء." (7)

. هجرنا مساقط الرؤوس

هجرنا مساقط الرؤوس وما نرى سوى الحج إن الحج قد آن أن يرى

. أهل العطف

كسائر اهل العطف جلهم ذوو سخاء ورفق بالذي برا وقرا

. بريان : وعن اسمها فيقول القطب:

فريان هو اسم لحافرها وقد أضيف إليه البير تطوى وتبرى .

وقل ان تشأ معناه برّ قد ارتوى بوصف وموصوف وتركيبه اجترى

. الأغواط:

ومن بعده الأغواط أغواط من حضر وشرق وقدا كان من أهلها القرى

تسمى لأن أرضه بعضها سفلى وبعض علا، والله ما يشا برا

وفيهما أتاني أهلها يسالونني عن القصر أمن الكتاب له امطر

فقلت لهم من قول طه وفعله وقولكم من النساء به ازدرى

. الجلفة:

ومن بعدها الجلفا دخلنا وسميت لأن ذويها القلف في رقة القرى

ولكنها الدلفاء ذا الوقت غذ سكن ذوو العطف فيها بالتملك والكرا

. المدية:

ولما دخلنا في المدية ردت النص ارى لترك مسجدا محكم الجرا

وأصل مد مدينة بضم ميم وكسر الياء المشدد إذ هرا

. البليدة:

تليها بليدة البليد محمد تمشيخ للصبان في مصر وادرى

وفيهما سنلت عن مقال إصابة أبا الجرام الرفع في قول من ضرى

. الجزائر:

وقيل لنا لدى جزائر مزغنة تمد فشت أصلها ومنها ابتنى البرا

أصوم وفطر والصلاة بساعة وسلك وتنجيم تحلل أم حرى

فقلت حرام ليس يؤمن مشرك على دين ربي في خفاء أو القرا

– مألطة:

وبعد مآت أربع مع أربعين جاء كفور مع عساكر قد مر
لمالطة الإسلام حينئذ بها فقال ذوو الإسلام قولاً له الغرا
- جبل طارق:

سفينة المكرة من مساكن جبل إلى طارق يعزى يضاف لمن درى
- الاسكندرية: مدينة ذي القرنين
فباهتاج البحر حين دنوت من مدينة ذي القرنين في سمت ذي انخرا
فذل بتكبير عليه فإنه يهون به كالصيد في نسبة الفرا
- مصر:

في مصر هل يحل ما قد تخللا من الخمر ؟ قلت : لا رواه القبعتر
ياسناده إلى أبي الرضى وعن ولد العباس أيضاً له استرا
- قناة السويس:

وبحر السويس من جبال تقطعت من البحر فوقه على سمت منخرى
- البحر الأبيض المتوسط:
كما أن بحر الروم الأبيض قطعاً له جبل في الترك حيز فلورى
- القلزم : البحر الأحمر :

وما القلزم المضاف بحر إليه قلت: بلع كبلع بضعة اللحم بازدر
فإغراقه فرعون والقوم بلعه وقيل هو اسم قرية هي عزبرى
- جدة:

جددنا فارسينا بجدة فانتهى الب حار فكنا مثل ناقة مرى
وذا الجيم مضموم فما صح أنها لديهم حوت حواء فالفتح في المرا
- الحل . الحرم:

وحيث أضاء البيت أو أسود الحجر حرام وما سواه حل به حرى
- الميقات: وحيث يكفون المواقيت فاختلف لذلك الميقات بعداً أو اقتر
- مكة: وقد أكثر السؤال في مكة الموافقون وأصحاب المذاهب واحتر
- الجعرانة: بجعرانة في الأصل تلقب ربطة التي وللشافعي فيهما قيل مدرا
- عسفان: ولما وصلنا ماء عسفان قال لي أشاعرة ممن أتى العلم وافترا

- الخليصاء: وكان الجواب في الخليصا خالصا بحتم مسد الأنف والفم واندرنا
- الصفراء: ولاحت لنا الصفرا وصفرية بها وجوههم بالطاعة اصفرت اصفرا
- بدر: تبادر من شهود بدر عيوننا دموعا وشانها حنين فما ترى
- وسمي بدرا إذ صفاء ماء بثره وفيها يرى البدر الصغير لذي استرا
- حنين: فكيف هناك ما بين طائف مكة فاعتروا بذلكم اعترا
- إضم، وكاظمة: فبيننا نسير إذ بدا لضم لنا فكاظمة يحجره ميدا الفرا
- المدينة: فطاب مقام طيبة عند من أرسى شغافي وناظري وما عن لي وري
- طيبة: وطيبة قد والله طابت لساكن وطاب لها في يسره وبضيظرا
- ينبوع (ينبع) فروحي مفروش بطيبة والجسد إلى وجهة ينبوع أو وجه من وري
- البحر: يقصد العودة على طريق البحر مروراً بقناة السويس والاسكندرية
- تونس: وتونس قد والله تونس كاسمها فلا وحشة فيها ولا وصبا نرى
- الزيتون: فقالوا لها زيتونة تونس الوري فسمي ذاك المصر تونس وأدرى
- بونة: هي عنابة والشاعر اختار الاسم التاريخي ذي الأصول فينيقية "بمعنى الخليج أو الملجأ.

- إلى أن وصلنا قصر يحيى بن صالح بيونة في الحالات والمشي حيزرا
- قسنطينة: بقسنطينة والأصل قسنطين وهو من بناها وزيد التاجلته العبوتري
- قالمة: وقالمة وأصلها أقل مأوها أو قطعت أصل العدا بالحيكرا
- باتنة: وبتنا وأصله يقينا مباتنا فحرف وأكد راسمها أيما كدرا
- بسكرة: وذاك زمان فتح مصر هناك في يسار الذي يمضي لبسكرة اقترأ
- "إن عنصر المكان لا يكتسب أهمية إلا إذا عبر عن أبعاد النماذج الانسانية النفسية والاجتماعية". (9)

فالشاعر تربطه بالأمكنة وشائج وروابط مختلفة وله أتباع وأصحاب في كل الأمكنة المذكورة.

تتحول الأمكنة عند الشعراء إلى هواجس ورموز ينطلق منها الشاعر لتحقيق غايات مختلفة معرفية أو وجدانية وقد استطاع الشاعر أن يجمع بين الغايتين .

وإن الشاعر كما يقول عز الدين المناصرة استعمل الطريقة السياحية في التعامل الخارجي

مع مظهر المكان: لأن المكان عند الشيخ اطفيش هو وسيلة للانطلاق في رحاب العلم ونشر المعرفة وبث الفتوى، ولقاء الإخوان وليست غاية الشيخ هي السيطرة على المكان واحتوائه. وما المكان عنده إلا نقطة عبور إلى آفاق المكان المقدس، فهناك تستقر المشاعر، وتهب الروح وتشرق أنوار اللقاء والجوار.

الهوامش:

- 1- أحمد زغب: سيمياء الرحلة في الشعر الشفاهي.
- 2- أحمد طالب: جماليات المكان. مجلة الأثر ج 4 / 2005
- 3- نفس المرجع.
- 4- صالح خرفي. سيمياء المكان في شعر عثمان لوصيف. السيمياء والنص، ص15، 2002.
- 5- صالح خرفي. المرجع نفسه.
- 6- المرجع نفسه.
- 7- المرجع نفسه.
- 8- محمد خان: المكان ومرجعيتيه في رواية وليمة لأعشاب البحر. محاضرات الملتقى الوطني الأول للسيمياء والنص.
- 9- أحمد طالب: جماليات المكان في القصة القصيرة الجزائرية مجلة الثر 4 / 2005 ورقلة.

الشيخ محمد بن يوسف أطفيش قرب الأئمة - وأسس أمانه التاريخ

د/ إبراهيم بحاز

قسم التاريخ المركز الجامعي غرداية

غرداية ص ب 455 غرداية 47000 الجزائر

كم كانت دهشتي كبيرة وتعجبي أكبر، لما سألتني عديد الزملاء الأساتذة في الجامعة، غداة إعلان فخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة، أثناء زيارته لولاية غرداية ربيع عام 2009م، عن قراره تسمية المركز الجامعي بغرداية باسم:

"جامعة الشيخ اطفيش امحمد بن يوسف القطب"

- سألوني من يكون هذا العالم ؟
- متى كان هذا الرجل؟
- هل هو أكبر علما من الشيخ بيوض والشيخ أبي القظان؟
- لماذا لم نسمع به؟

وطبعا كان ردي وجوابي بعد إظهار التعجب والاستغراب، أن هذا العالم هو شيخ أبي القظان وهو بالنسبة للشيخ بيوض شيخ شيخه أو بعض شيوخه، أي أن أولهما تلميذه وثنائهما تلميذ تلميذه، وكلاهما لا يصل إلى ربع علم الشيخ اطفيش ولا إلى ربع إنتاجه دون أن يكون هذا تقليلا من علم أحدهما وجهاده، لأن الشيخ اطفيش وحيد زمانه وفريد عصره وعصره، وهو آية من آيات الله في الموسوعية والإحاطة دون أن يكون لمصطلح "آية" ما له عند الشيعة. فالشيخ اطفيش هو هذا الذي قال عنه تلميذه الشيخ إبراهيم أبو القظان في كتابه ملحق السير: ⁽¹⁾

"... يتصل نسبه بسيدنا عمر بن الخطاب (ض) فهو من بني عدي نسباً."

هو علامة عصره وإمام الإسلام في زمانه ومجتهد العلماء المتأخرين في وقته...

ليس في تأليفه كسائر الناس يؤلف كتابا واحدا فكتابا، ولكنه يؤلف جملة كتب في آن واحد في فنون متعددة وفي ألوان مختلفة كأنه اتخذ هذه الطريقة ترويحاً للنفس واستجماما لقواه حتى

إذا مل من نوع رجع إلى تحرير آخر فإذا أتم واحدا أتم الجميع وخرج من الجميع على غاية من الدقة والإحاطة والتحقيق العلمي. وقد ألف في سائر الفنون العقلية والنقلية...

كان...في نهاية الغيرة على الإسلام وعزة الدين، شديد الوطأة على الفساد والعصاة آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر لا تأخذه في الله لومة لائم شفوفا على الفقراء والمساكين كريم النفس سخي اليد عطوفا على الملهوف...

يكبر (أي يُعظم) علماء الإسلام خصوصا علماء مصر وعلماء الأندلس ويهتز للأدب الأندلسي ونكتته ولطائفه، يفكر تفكيراً إنسانياً في أوسع آفاقه شديد الاهتمام بأحوال العالم الإسلامي، يصرف أعز أوقاته للابتغال إلى الله والدعاء له بلهفة وبحرارة للإسلام بالعزة والنصرة للمسلمين. يفرح لفرحهم ويحزن لحزنهم...شغوف بحب محمد وآل محمد...

ويؤكد الشيخ أبو اليقظان دقة أقواله وشهاداته هذه، التي سجلها عن شيخه فيقول: "لست ألقى الكلم على عوانها وإنما ألقيا عن خبرة ودراية...لأني عاشرته معاشرة طويلة ودقيقة فقد وردت عليه لطلب العلم في شوال عام 1325هـ..." أي السنوات الخمس أو الست الأخيرة من حياة القطب.

فهذه بعض المقتطفات من شاهد على شيخه في أخريات حياته، أما تلميذه الآخر وهو الشيخ إبراهيم حفار وتلميذ بعض تلامذته الشيخ محمد علي دبور فمما قالاه كل على حدة في كتابه: إن القطب كان يؤلف في الحضر والسفر في وقت الشدة والرخاء حفاظاً على وقته ومع ذلك كان لا يفوته حضور الصلوات الخمس في المسجد مع الجماعة ويبحث تلاميذه على ذلك، والقطب لم يخرج من بلده مزاب إلا عندما سافر إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج وكان ذلك في مرتين والأخيرة منهما في أوائل القرن العشرين، وقد زار في طريقه بعض الحواضر العلمية مثل جامع الزيتونة والجامع الأزهر وألقى دروساً في الحرم المدني، ويذكر حفار أن الشيخ محمد عبده المصري عرف قدر القطب فعظمه واحترمه وقد جاء ذلك في بعض مراسلات كانت بينهما⁽²⁾

وفي هذا الأمر، قرأت في كتابه تيسير التفسير فقرة يتحدث فيها عن نفسه يقول فيها: "وقد بينه العلامة الشيخ محمد عبده للحق ودخل تونس وأشار عليهم أن يسألوا الفقير صاحب هذا التفسير في ما أشكل وكذا عالم قبله مصري وسبب ميل علماء مصر إليّ مع تخالف المذهب وتباعد البلاد أنه أشكلت عليهم مسألة في الربا وأرسلوا إليّ سؤالاً في مضاب (أي مزاب) وجادلهم إنكليزي وأرسلوا إليّ سؤالاً، فأجبت لهم بما استحسنوا، وأيضاً اطلعوا على شرح النيل وغيره مما طُبع في مصر من تأليفي"⁽³⁾

أما الأستاذ عادل نويهض وهو أول من كتب كتاباً في أعلام الجزائر بعامة مشكوراً، فذكر أن

نسب الشيخ اطفيش "ينتهي إلى عمر بن حفص الهنتاتي جد العائلة الحفصية المالكة في تونس، (وهم يعيدون نسبهم إلى عمر بن الخطاب ض)، مجتهد من أكابر العلماء بالفقه والأدب واللغة والتفسير ومن رجال النهضة الإصلاحية الحديثة بالجزائر"، ثم يحصي مؤلفاته ذكرا باختصار...⁽⁴⁾

أما الدكتور عبد الكريم بوالصفصاف ومن معه من مؤلفي معجم أعلام الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، فنجدهم خلطوا بينه وبين تلميذه الشيخ أبي إسحاق إبراهيم اطفيش نزيل مصر (توفي في ديسمبر من عام 1965م) كما خلطوا في التعريف بمؤلفاته فالتى للفقه جعلوها للحديث والتي في العقيدة جعلوها للفقه وهكذا وختموا ترجمته بالقول " ... ترك تراثا قيما ... على مختلف المذاهب الإسلامية وكانت فكرته في الإصلاح سلفية تدعو المسلمين إلى الاقتداء بالسلف الصالح والأخذ بما جاء في التراث الإسلامي في جميع المجالات".⁽⁵⁾

أما نحن في جمعية التراث فكتبنا في معجم أعلام الإباضية ترجمة وافية وأحصينا مؤلفاته مع ذكر مخطوطها من مطبوعها فكانت كما يلي:

"ومن أهم آثار الشيخ اطفيش تأليفه التي أغنى بها المكتبة الإسلامية، كمّا ونوعاً، فقد عدّها بعضهم وقال: إنّها تبلغ الثلاثمائة مؤلف، ما بين كتاب ورسالة.

واتسع له العمر، لترك هذا التراث الجليل، فقد عمّر ستّة وتسعين عاماً، وكان حريصاً على الكتابة، لا يتركها في حضر ولا سفر،... فألف في بني يسجن، والقرارة، ووارجلان، وبريان، والحجاز، وفي السفينة قاصدا الحجّ.

وشملت تأليفه مختلف فروع المعرفة، في المنقول والمعقول:

في تفسير القرآن وفي التجويد وفي الحديث وفي السيرة النبوية وفي التوحيد وعلم الكلام وفي أصول الفقه وفي الفقه وفي التاريخ وفي النحو واللغة والعروض وفي المنطق وفي الطبّ والفلك والحساب وفي الشعر وفي الخط وفي الأجوبة والردود والفتاوى وله العشرات من المراسلات في مواضيع مختلفة

1- في تفسير القرآن، له ثلاثة تفاسير هي:

«تيسير التفسير»: ط1 قديمة، الجزائر 1326هـ في سبع مجلدات، وط2 مطبعة الباي الحلي، مصر، نشر وزارة التراث القومي والثقافة، عُمان، من سنة 1982 إلى سنة 1987م، في 14 جزءاً. وطبعة ثالثة بتحقيق الشيخ إبراهيم طلاي، 2003م. وهو آخر تفاسيره وأهمّها، إذ كتبه بعد نضجه العلميّ.

«داعي العمل ليوم الأمل» (مخ)، نسخة منه بمكتبة القطب؛ وأخرى في مكتبة الشيخ حمو

باباوموسى بغرداية، وَقِيلَ: إِنَّهُ تَفْسِيرٌ لَمْ يَتِمَّ، بِدَأْهِ مِنَ الْخَاتَمَةِ وَانْتَهَى إِلَى سُورَةِ الرَّحْمَنِ. وَلَا يَزَالُ مَخْطُوطًا فِي مُجَلَّدٍ كَبِيرٍ. صَحَّحَهُ الْأَسَاطُذُ مَصْطَفَى بَاجُو، وَضَبَطَهُ وَصَفَّهَ الْبَاحْثَانِ مُحَمَّدٌ بَابَاعِمِي وَمَصْطَفَى شَرِيفِي، وَهُوَ يَنْتَظَرُ الطَّبْعَ.

«هميان الزاد إلى دار الميعاد»: ط1 المطبعة السلطانية، زنجبار؛ ط2: مطابع سجل العرب، نشر وزارة التراث القومي، سلطنة عُمان، ابتداء من سنة 1980م، ويقع في 13 مُجَلَّدًا، بدأ في تأليفه وله من العمر أربع وعشرون سنة.

2- في التجويد:

• «تلقين التالي لآيات المتعالي»، (مخ).

• «جامع حرف ورش»، (مط).

3- في الحديث:

• «ترتيب الترتيب»، وهو إعادة ترتيب مسند الربيع بن حبيب، بعد ترتيب أبي يعقوب يوسف الوارجلاني، طبع قديم، الجزائر، 1326هـ.

• «جامع الشمل في أحاديث خاتم الرسل»، تحقيق محمد عبد القادر عطا، (مط)

• «وفاء الضمانة بأداء الأمانة»: (مط)

4- في السيرة النبوية:

سنتحدث عنها عند تطرقنا للتاريخ وفروعه عند الشيخ.

5- في التوحيد وعلم الكلام:

• «إزهاق الباطل بالعلم الهاطل»، طبع قديم، 1317هـ.

• «البرهان الجلي في الرد على الجري علي»، (مخ).

• «الجنة في وصف الجنة»، (مط).

• «الحجة في بيان المحجة في التوحيد بلا تقليد»، (مط).

• «الذخر الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»، (مط).

• «الرد على الإنجليز الطاعن في الدين»، (مط).

• «الرد على الصُفَرِيَّة والأزارقة»، (مط).

• «الرد على العقبي»، (مط).

• «القول المتين»، وهو شرح مُقَدِّمَةِ الشَّيْخِ تَيْيَغُورِينَ بْنِ عَيْسَى الْمَلْشُوطِيِّ، (مط).

- «التقريرات على حاشية الديانات للسدويكشي، وتتمتها للمصعبي»: (مخ).
- «حاشية السؤالات» لأبي عمرو عثمان، (مخ).
- «حاشية على شرح التونية»، (مخ).
- «حاشية على كتاب الموجز» لأبي عمار، (مخ).
- «شرح أصول تبيغورين»، (مخ).
- «شرح عقيدة التوحيد»، لعمر بن جميع، (مط).
- «شرح لامية ابن النظر العماني»، (مخ).
- «عدم الرؤية وإدحاض مذهب أهل الفرية»، (مخ).
- «فتح الباب للطايب، شرح معالم الدين»، لعبد العزيز الثميني (مخ).
- 6- في أصول الفقه:
- «فتح الله: شرح مختصر العدل والإنصاف»، (مخ)، وهو موسوعة في أصول الفقه المقارن، لو طبعت لكانت في اثني عشر مجلداً.
- 7- في الفقه: وهو أوسع مجالات تأليفه:
- «شرح كتاب النيل وشفاء العليل»: موسوعة فقهية جامعة لآراء المذاهب الإسلامية، يقارن فيها بين الأقوال بروح متفتحة، ويرجح ما يراه بالحجة والدليل، وأصبح هذا الكتاب معتمد الإباضية في الفقه. طبع مراراً، وبواسطته تعرّف العالم الإسلامي على الفقه الإباضي، واعتمدته لجان موسوعات الفقه الإسلامي في مصر والكويت.
- نظمه الشيخ البطاشي العماني في 124 ألف بيت، سمّاه: «سلاسل الذهب في الأصول والفروع والأدب» (مط).
- كما أنّ جمعية التراث اجتهدت في إعداد الفهارس الشاملة لشرح النيل، وقد طبعت الجزء الخاص بالفهارس التقنية، وبقي فهرس المسائل الفقهية.
- «إطالة الأجور وإزالة الفجور»، تحقيق الباحث: عمر بازين (مط).
- «الذهب الخالص المنوّه بالعلم القالض»، (مط).
- «ترتيب تحفة الأديب وتخصيب القلب الجديد»، (مخ). وهو ترتيب كتاب لعمر بن رمضان التلاتي.
- «ترتيب كتاب اللقط للشيخ عمرو بن رمضان التلاتي»، (مخ).
- «ترتيب كتاب المعلقات»، لمؤلف مجهول، (مط).

- «ترتيب المدونة الكبرى لأبي غانم بشر بن غانم الخراساني»، (مخ) وقد حققه الدكتور مصطفى باجو تحقيقاً علمياً .
- «ترتيب نوازل نفوسة»، (مخ)، وهي مجموعة أجوبة ورسائل لبعض أئمة الإباضية.
- «تفقيه الغامر بترتيب لقط موسى بن عامر»، (مط).
- «جامع الوضع والحاشية»، الوضع لأبي زكرياء الجنائني، وحاشيته لمحمد بن عمر أبي سبته المحشّي، (مط).
- «حاشية أبي مسألة»، لأبي العباس أحمد (مخ).
- «حاشية القناطر»، لإسماعيل الجيطالي، (مخ).
- «حاشية على جواب ابن خلفان»، (مخ).
- «حاشية على شرح الرائية»، (مخ).
- «حكم الدخان والسعوط»، (مط). حققها ودرسها الأستاذ بكر بن يحيى الشيخ بالحاج، في إطار رسالة الماجستير بمعهد أصول الدين بالجزائر.
- «حيّ على الفلاح: وهي حاشية على كتاب الإيضاح» للشيخ عامر بن علي الشماخي، (مخ).
- «شامل الأصل والفرع»، (مط). ذكر فيه أنه كتبه بعد أن بلغ درجة الاجتهاد.
- «شرح الدعائم الموسّع»، (مخ).
- «شرح الدعائم»: شرح بعض منظومات ابن النظر العماني المسماة: الدعائم، (مط).
- «القنوان الدانية في مسألة الديوان العانية»، (مط).
- «كتاب التحفة والتوأم»، (مط).
- «كشف الكرب»: ترتيب أبي الوليد، تحقيق: محمد علي الصليبي، (مط).
- «مختصر في عمارة الأرض»، (مخ).
- 8- في التاريخ:
- سنتحدث عنه عند تطرقنا للتاريخ وفروعه عند الشيخ.
- 9- في النحو واللغة والعروض:
- «إيضاح الدليل إلى علم الخليل»، (مخ).
- «الحاشية الثانية على شرح أبي القاسم الداوي»، (مخ). وضعه وهو لا يزال يتعلم على

أخيه الحاج إبراهيم.

- «الكافي في التصريف»، وهو بصدد التحقيق، في إطار رسالة ماجستير، (مخ).
- «المسائل التحقيقية في بيان التحفة الأجرومية»، (مخ).
- «بيان البيان»، (مخ).
- «حاشية على شرح المرادي على الألفية»، (مخ).
- «شرح شرح أبي سليمان داود على الأجرومية»، (مخ).
- «شرح شرح الاستعارات» لعصام الدين، (مخ).
- «شرح شواهد القرويني»، (مخ).
- «شرح شواهد الوضع»، (مخ).
- «شرح لامية الأفعال»، (مط).
- «قصيدة الغريب: نظم متن مغني اللبيب» لابن هشام، (مخ). وهو في خمسة آلاف بيت نظمه وله من العمر ست عشرة سنة.
- 10- في البلاغة:
- «تخليص العاني من رتبة جهل المعاني»، (مخ).
- «ربيع البديع في علم البديع»، (مخ).
- 11- في المنطق:
- «شرح سلم الأخضرى»، (مخ).
- «إيضاح المنطق في بلاد المشرق»، (مخ).
- 12- في الطبّ والفلك والحساب:
- «تحفة الحبّ في أصل الطبّ»، (مط).
- «مطلع الملك في فنّ الفلك»، (مخ).
- «مسلك الفلك»، (مخ).
- «شرح القلصادي»، (مخ).
- 13- في الشعر: له قصائد عديدة في مواضيع تربوية، ومدائح، ومواعظ، منها:
- «ديوان نظم»، (مط).
- «قصائد القطب»، (مخ).

• «القصيدة الحجازية»، (مخ).

• «قصيدة المعجزات»، (مخ).

• «قصيدة بائية»: ضمن مجموع قصائد، (مخ).

• «قصيدة بدر»، (مخ).

• «مجموع قصائد وأجوبة»، (مخ).

14- في الخط:

• «كتاب الرسم»، مطبوع.

15- الأجوبة والردود والفتاوي:

له من الأجوبة والفتاوي عدد هائل، جمع بعضها الشيخ عمر بن يوسف اليسجني، ولا يزال أغلبها مخطوطا، ومتفرقا بين المكتبات، وتعد مرجعا فقهيا هاما، خاصة في نوازل عصره، نذكر منها ما يلي:

• «أجوبة لأهل عُمان»، (مخ).

• «جواب أهل زوارة»، (مط).

• «جواب إلى محمد بن عبد الله الخليلي»، (مخ).

• «جواب مشايخ مكة»، (مط).

16- المراسلات:

راسل القطب علماء من مختلف مدن الجزائر، ومن خارجها. راسل شخصيات من الجزائر والبحرين، والحجاز، وعُمان، ومصر، وتونس، وجبل نفوسة، وجربة، وفاس، والقسطنطينية، وبعض العواصم الأوروبية.

ولو جمعت هذه الرسائل لألفت مجلدات فيها من أنواع العلوم، والأخبار التاريخية الهامة، ما يصلح لدراسات أكاديمية متخصصة، نذكر منها على سبيل المثال:

• «رسالة إلى الوالي العام الفرنسي بالجزائر»: مؤرخة في ربيع الأول 1304هـ بقسنطينة، محفوظة في أرشيف إكس أون بروفونس.

• «مجموع الرسائل»، (مخ).

• «مجموع رسائل بين القطب والإدارة الاستعمارية»، (مخ).

17- مواضيع مختلفة:

• «تفسير ألغاز»، (مط).

- «خطبتا العيدين»، (مخ).
- «شرح المَحْمَسَة»، (مخ).
- «شرح لغز الماء»، (مط). وهو حلٌّ للغزِ نال به وساما عالميا، عجز عن حله علماء العالم.

هذه الشَّخصية الموسوعية كانت نادرة العصر في رسوخها وعطائها العلميِّ. ولم يقصر الشيخ جهوده في هذا المجال، بل اهتمَّ بالإصلاح الاجتماعيِّ، ومحاربة الجهل والبدع، وتولَّى رئاسة مجلس العزَّابة ببني يسجن، كما تولَّى منصب القضاء، ثمَّ اعتزله كما بسط الاستعمار الفرنسي نفوذه على منطقة ميزاب سنة 1882م.

وكان القطب عدوًّا عنيدا لفرنسا، وممن وقف بقوة في وجه الاحتلال، ودعا إلى مقاطعة المستعمر وعدم التعامل معه، ويذكر أنَّه نصب خيمة في حومة الدبدابة بين غرداية وبني يسجن، احتجاجا على دخول فرنسا المنطقة.

وكان حريصا على وحدة المسلمين، يعصره الألم على ما آل إليه أمرهم، من فرقة وهوان، وذلٍّ واستعمار، يدعو للنصر للمجاهدين في كلِّ بلاد العالم الإسلاميِّ.

وقد دفعه هذا التصوُّر إلى أن يعيش على أمل التخلُّص من المستعمرين، وأن يُفكَّر في المشاركة بما يستطيع لتحقيق هذا الأمل...

وكان مؤيدا للخلافة العثمانية على ما داخل نظامها من انحراف لأنَّها كانت تمثل في نظره وحدة المسلمين.

له مراسلات مع السلطان عبد الحميد الثاني، وغيره كسلطان زنجبار، وإمام عُمان. أهديت له النياشين، وشهادات التقدير من مختلف سلاطين العالم الإسلاميِّ

وكان معتزًّا بإسلامه، غيورا على دينه، فقد، وبخاصَّة لَمَّا أجاب على لغز الماء، فقيل هذه الهدايا، إلَّا نيشان الحاكم الفرنسي، فإنَّه لَمَّا جاء ممثل الحكومة ليوشِّح صدر الشيخ به، قدَّم له طرف ردائه السفليَّ ليعلِّقه عليه، ولَمَّا سئل عن ذلك قال: «الإسلام يعلو ولا يُعلَى عليه».

شهد له بالرسوخ في العلم علماء كثيرون: منهم الشيخ محمَّد عبده، والشيخ زيني دحلان، وبعض علماء الحجاز.

ولقَّبه الشيخ نور الدين السالمي، معاصره ومجدِّد العلم بعُمان لقبه ب: «قطب الأيِّمة»، دون أن يكون لعبارة "القطب" ما لها عند المتصوفة.

توفِّي بمرض دام أسبوعا، بعد أن قضى قرابة قرن في الجهاد العلميِّ، والإصلاح الاجتماعيِّ.

هذا ما قلناه في معجم أعلام الإباضية منذ أكثر من ثلاثين (30) عاما، ولقد ظهرت بعد ذلك دراسات وافية أكاديمية علمية وغيرها، تتناول جانبا من جوانب حياته الموسوعية... ولقد اهتم زميلنا الدكتور مصطفى ونتن في دراسته الأكاديمية الدقيقة والموسومة:

"آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقيدية 1238-1332هـ/1821-1914م" بإحصاء تراث القطب، ويمكن من معرفة أن تلك المؤلفات تبلغ خمسة وثلاثين ومائة أثر منها الكتب ومنها الرسائل ماعدا المراسلات، ووضع لذلك ملحقا بين فيه الكثير مما وهم فيه الكثير، وانتهى إلى أن هذا الإحصاء لا يزال بحاجة إلى عمل ومتابعة⁽⁶⁾

وأختم بما كتبه الشيخ في "التاريخ" كتباً مستقلة أو إشارات هنا وهناك في ثنايا كتبه التي جاوزت المائة، فسأكتفي بذكر عناوين الكتب مطبوعها ومخطوطها وذكر بعض المقتطفات التاريخية من تفسير التيسير تنم عن منهجه وتبين إلمامه التاريخي، وأبدأ بالسيرة النبوية وهي إحدى فروع التاريخ الإسلامي معتمدا على ما ذكرناه في معجم أعلام الإباضية مع بعض الترتيب المناسب للموضوع .

في السيرة النبوية:

- «مسائل السيرة»، (مخ).
- «شرح نونية المديح»، (مخ)، والنونية أرجوزة وضعها ابن ونان المغربي في مدح خير البرية محمد عليه السلام

• «السيرة الجامعة من المعجزات اللامعة»، (مط).

• «الغسل في أسماء الرسول»، (مط).

في التاريخ :

- «الرسالة الشافية في بعض تواريخ وادي ميزاب»، منه نسخة مختصرة (مط)، وأخرى موسعة (مخ)،

• «إزالة الاعتراض عن محقق آل إباح»، (مط).

• «الإمكان فيما جاز أن يكون أو كان»، (مط).

• إزهاق الباطل بالعلم الهاطل

• الرد على العقبي

كتاب الرسالة الشافية في بعض تواريخ وادي ميزاب كتاب بين فيه أصول العشائر المزابية وذكر بعض أحداث المنطقة، وهو من المصادر الأساسية لكل من رام الكتابة حول ميزاب

والمزايين، ويقوم حاليا أحد طلبة العلم بتحقيقه تحقيقا علميا.

أما كتب: إزالة الاعتراض...، الإمكان فيما جاز أن يكون...، إزهاق الباطل...، الرد على العقبي، فهذه من كتب الردود على الطاعنين في الإسلام أو الإباضية كثيرا ما تطرق فيه القطب إلى التاريخ مستشهدا به أو معتمدا على حقائقه لإفحام الطاعن في الدين أو في مذهبه

ومن التاريخ كذلك اهتمامه بأسباب النزول في تفسيره تيسير التفسير معتمدا على من سبقه في هذا المجال وربما في التفسير تجده يروي روايات السابقين إلا أنه يعلق على ما لا يراه مناسبة أو يجد فيه تكلفا لا يقبله منهجه التاريخي ونكتفي بمثال واحد على ذلك، ففي تفسيره لقوله تعالى " ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسول "، الآية 87 من سورة البقرة، ذكر بعض أسماء الأنبياء عليهم السلام فقال : ط ويُقال عدد الأنبياء بين موسى وعيسى عليهم السلام سبعون ألفا وقيل أربعة آلاف، وكلهم على شريعة موسى عليه السلام وبينهما ألف سنة وتسعمائة سنة وخمس وعشرون سنة... " ثم يعلق تعليقا يدل على فكر تاريخي نقدي : " ولا حجة لهذه الأعداد والعلم عند الله " (7)

والحقيقة أن المحقق الفاضل الشيخ إبراهيم طلاي والفريق الذي كان معه أحسنوا عملا لما وضعوا للتيسير فهارس توضيحية وفي المتن أضافوا عناوين فرعية من مثل (تاريخ) و (السيرة) و (أسباب النزول) فيجد القارئ في الفهارس بسهولة مبتغاه، ولولا مخافة الإطناب لجئت بأمثلة أخرى، ولعلنا نعود إلى التاريخ عند الشيخ اطفيش في مناسبة أخرى، وإنما أردت من هذه الورقة البحثية التعريف العام بالقطب إلى زملائي الأساتذة بالجامعة أولا فضلا عن غيرهم من الطلبة وعامة الناس وخاصتهم.

حفظ الله جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية أن تبنت هذا التقليد الحضاري بأن تسمي دفعاتها المتخرجة في أحضانها بأسماء علماء الجزائر والبلاد الإسلامية وتفتح المجال لإصدار كتاب بالمناسبة يُعرف بصاحب اسم الدفعة.

الهوامش:

(1) أبو اليقظان : ملحق السير، (مخ) ورقات 153-165

(2) إبراهيم حفار: السلاسل الذهبية في الشرائع الطفيلية، ص 10، 46، دبوز: نهضة الجزائر الحديثة، 352، 308/1

(3) اطفيش: تيسير التفسير تح. إبراهيم طلاي، 35/10

(4) عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ص 19-21

- ⁽⁵⁾ بوالصفصاف وآخرون: معجم أعلام الجزائر في القرنين 19 و 20م، 189/1
- ⁽⁶⁾ مصطفى ويتن: آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقديّة، 64، وانظر الملحق ص 479-497
- ⁽⁷⁾ اطفيش : تيسير التفسير، تح: إبراهيم طلاي، 170/1

مقدمات في نظرية = ألوهة الخراب = الكتاب المفسر الموهب

محمد بابا عتي

معهد المناهج الجزائر

حين يولد المرء تكون جملة من المحدّدات قد رسمت معالم شخصيته، غير أنّه في هذه السن المبكّرة يتميّز باستقلالية عالية وتحرّر فريد؛ ثم يكبر الولد وتكبر معه "النمطية"، و"المألوف"، و"العادة"، و"التقليد"؛ وكلّما توغلّ في "الدرس الرسمي" من خلال مدارس حكومية، وبرامج إعلامية وطنية، وخطابات محلية، ترسّخت تلك الصفات أكثر فأكثر، ولا ينجو من قيدها في الأخير إلا النزر القليل.

لكنّ النجاة لا تعني التحرّر بالضرورة، بل قد تعني تبنّي الرأي والموقف النقيض، فإذا كان النمط هو "أ" مثلاً، كان النقيض "ـ أ" (ناقص أ)؛ ومن ثمّ فحتى من كانت هذه حاله كان كالسّمك، لم يغادر مسبحه البتّة، ذلك أنّه يسبح ضدّ التيار وفقط.

وتحتدّ النمطية في المجتمعات المحليّة التقليدية، بينما تخفّ في المدن والتجمعات الكبرى، لكنها مع ذلك لا تذوب كلية، ذلك أنّ لها طرقاً مختلفة ووسائل متكاثرة تثبّتتها، منها: السياسة، والحزبية، والإعلام، والعلم، والاقتصاد، والسوق، والمصلحة... الخ. حتى إنّ كثيراً من المجتمعات التي يبدو - ظاهرياً - أنها متحرّرة، هي في الحقيقة "قوالب جاهزة"، و"شخصيات اصطناعية"، و"أفراد على المقاس"؛ وليس أدلّ على ذلك من المجتمع الأمريكي المفبرك ثقافياً من قبل جماعات الضغط المتحكّمة، ومجموعات المصالح المسيّرة للدوايب¹.

إذا كان الفكر هو "فصل الأشياء، ومحنة الفصل"، أي أنّه "قلق العلاقة" عند هيغل، فإنّ الإنسان حين تفكّر في العلاقات التي بينه وبين ذاته، وبينه وبين غيره، وبينه وبين موجدّه، ومحيطه، وبيئته... يتحوّل - من خلال هذا التفكير في العلاقات بمنهج وجدّيّة - إلى مرحلة "القلق المعرفي"، التي لا يبلغها إلا القلّة من الناس، والذين يلجونها قلّ منهم من ينجو منها بسلام.

في هذا المستوى الرفيع من التفكير، غالباً ما يحدث الخلط بين "المعتقد" و"العقيدة"، وكذا بين "العلم" و"شبه العلم"؛ فالمرء إذا وقّف على أرض صلبة من العقيدة، يقلق معرفياً ولا

يتخلى عن عقيدته، وهو مع ذلك حريص على أن لا يقع في "المعتقد" (dogm)، وهو كذلك يجتهد أن يكون علميا، ويحذر من الوقوف في هشاشة اللاعلم، أو فيما يشبه العلم.

بناء على هذه الحشيات - وغيرها - وُلدت "نظرية الوعاء الحضاري"، باعتبار أن العلم في حقيقته يبدأ من المسائل وليس من المشاهدات، وأن المسائل محملة بالنظرية سلفا، وقد وفق كارل بوبر في قوله: "إن عمل رجل العلم هو اقتراح النظريات، واختبارها" (انظر - منطق الكشف العلمي).

فها أنذا أقترح نظرية، وأسعى لاختبارها، مستعينا بجملته من المعطيات، ضمن "نموذج الرشد"²، وبخاصة منها ما كان من علاقة حلزونية بين الفكر والفعل، وبين العلم والعمل.

فما هي نظرية الوعاء الحضاري؟

تجيبنا العديد من الأحداث والوقائع، حين نلاحظها، من ذلك:

* أني التقيت بشاب في تركيا، وقد ألف كتابا في السيرة النبوية العطرة، مكّن من جزأين، وطبع منه في السنة الأولى مائة ألف نسخة، وفي السنة الثانية أربعمئة ألف نسخة. فسألت من حولي: هل لو طبع نفس الكتاب، بنفس المحتوى، من عالم ذائع الصيت، وبنفس المواصفات... في بيئة أخرى، وفي محيط آخر، وليكن هو "العالم العربي، مثلا"... هل سيلقى نفس الإقبال، وهل سيطبع بنفس الكميات؟

وهل يكمن الفرق فقط في جودة العمل - ولا نكرها - أم في اعتبارات أخرى، فنية وحضارية؟

هنا أجد الجواب في "الوعاء الحضاري".

* باحث نشأ وترعرع في تخصص علمي إنساني، غير أنه عوض أن ينصب جهده في النتاج المعرفي، وفي "العلم العام"، وفي المسار البشري، ضمن خطه المكاني والزمني، أي "الآن" و"اليوم"... عوض ذلك كله، راح يعالج قضايا ومسائل علمية أملاها عليه محيطه الضاغط... ذلك أن هذه القضايا والمسائل من زمن غابر، غير زمانه؛ ومن بيئة أخرى، غير بيئته... ومن سياق، وفي سياق آخر، غير السياق الذي خلق فيه، وخلق له.

ما الجواب إلّا في نظرية "الوعاء الحضاري".

* قطب الأيمة الشيخ اطفيش، موضوع ملتقانا هذا³ (1) - رحمه الله - عالم وُجد ضمن بيئة جغرافية مغربية، داخل ساحة سياسية هي الجزائر المتسعمرة من فرنسا، وتحت إطار عرقي سابق هو انتماء البربري، ومذهب، وبلدة، وعشيرة، وعائلة... ليست في الحقيقة من اختباره.

لو حللنا القدرات العلمية لهذا العالم لصنّفناه في رتبة مرموقة بين عقول العالم الإسلامي في

القرن العشرين، غير أننا لو بحثنا عنه اليوم في الدوائر العالمية، وقارناه بمحمد عبده - مثلاً -، لوجدناه غائبا كلية عن الذكر، وعن الاعتبار... ولو طالعنا مؤلفاته لبهزنا بسعتها، لكنها ليست كلها في خطّ الزمن الذي خلق فيه، وخلق له. أي أنها لم تعالج قضايا وإشكالات القرن العشرين، بروح ولغة ذلك العصر.

نقول إذن، إنّ مجالات اهتمامات الرجل، ومبلغ أثره، ونسبة قراءته... كل ذلك كان رهينة "وعائه الحضاري"، فلو كان من وعاء حضاري آخر لكان له شأن أكبر من هذا الشأن الذي نعرفه له اليوم.

من هنا نقول إنّ الوعاء الحضاري هو كل ما يؤثر في مسير الإنسان ومصيره - الدنيوي - أكيدا، والأخروي غالبا؛ فهو: جغرافيته، وتاريخه، ومحيطه، وبيئته، وخصائصه الموروثة، وأحداث عصره، والمؤثرات في فكره، والمحرّكات لمشاعره... وهو - بلغة فن الرسم - الخلفية التي يضع عليها الرسام لوحته، حجمها، ونوعها، وشكلها... وهو الحال النفسية التي يكون عليها ذلك الرسام، والطبيعة التي تحيط به، والأفكار التي تعتلج في خاطره... كل ذلك ليس هو الرسم نفسه، ولكنه محدّد ومؤثّر فيما سيصدر من أشكال وألوان ورسوم.

يرز مالك بن نبي - في مشكلة الأفكار - العلاقة بين الفرد ومؤثرات محيطه الاجتماعي، بكل أبعاده، فيقول: "وهكذا فالفرد يدفع ضريبة عن اندماجه الاجتماعي إلى الطبيعة وإلى المجتمع. وكلما كان المجتمع مختلفاً في نموّه ارتفعت قيمة الضريبة"، وكأنّ ابن نبي هنا يشير إلى الوعاء الحضاري، لكن دون أن يسمّيه ويضبطه حيثياته كلية.

فهل نقول إنّ الوعاء الحضاري قدر مقدور، أم هو من قبيل الاختيار؟

حسبنا أن نعرف أنّ المرء محاسب - عند الله تعالى - عن الجانب الاختياري لا عن الجانب الاضطراري؛ فلا يضير سيّدنا نوحا عليه السلام أنه بعد ألف سنة إلا خمسين عاما، "ما آمن معه إلا قليل"؛ ذلك أنّ ما يملكه هو الجهد، والفكر، والفعل... أمّا ما لا يملكه فهو "الوعاء الحضاري" المحيط به، والضغوط عليه... ومن ثمّ كان عند الله تعالى ناج، ومجازي، ومبلغا لما أمر به.

أمّا من حيث الثمار الحضارية الزمنية فلا شك أنّ الوعاء الحضاري لسيدنا سليمان عليه السلام مثلاً، قد مكّنه من تسخير الجن والإنس والطير... ومن بسط نبوته على الآفاق... وهو ما لم يتسنى لنوح عليه السلام، بسبب وعائه الحضاري المشبّط. حتى إنّ أعلنها أخيرا: "رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك، ولا يلدوا إلّا فاجرا كفارا!".

فروح وسليمان عند الله تعالى سواء، كلاهما قد بلغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الله، فبال رضوانه؛ أمّا "الوعاء الحضاري" لنوح - عليه السلام - فهو دون الوعاء الحضاري لسليمان - عليه

السلام- بأشواط؛ ولا يمكن أن نعزو ذلك للمواهب، أو للجهد، أو لأي أمر آخر.

الموضوع للنقاش، والنظرية للتطوير والصف. ولقد كتبت فيها مقالات، جنباً إلى جنب مع نظرية "النسيج الحضاري"، أدعو الله أن ييسر إخراجهما في صورة لائقة مقبولة، تحت إطار نظري واسع هو "نموذج الرشد"؛ والله نسأل أن ينفع بكل ذلك البلاد والعباد، وأن يسخر لنا "وعاء حضارياً" محرّكاً لا مسكناً، ميسراً لا معسراً.

الوعاء الحضاري والظروف العامة للحضارة (مالك بن نبي):

لم يأل مالك بن نبي جهداً في توضيح العلاقة بين مكونات الحضارة فيما بينها، باعتماد مدخلين اثنين هما في الحقيقة من ابتكاره وإبداعه، ويتمثلان في:

* العوالم الثلاثة: عالم الأشياء، وعالم الأشخاص، وعالم الأفكار " (مشكلة الأفكار)

* عناصر الحضارة: الإنسان، والوقت، والتراب " (شروط النهضة).

ولو سألنا - جرياً مع نسق محاضرتنا هذه - ابن نبي: هل العالم، وهو في حالنا هذه قطب الأيمة، هو الذي يصنع الظروف العامة لحضارة ما، أم أن العالم هو نتاج هذه الظروف؟

هنا يصوغ ابن نبي قانوناً صارماً ليجيبنا، يستمدّه من أصول الفيزياء والطبيعة، يقول فيه: إن "جميع ضروب الخلق هذه، لا تقبل التصوّر إلّا ضمن الشروط العامة لحضارة معيّنة، وليس ضمن أبعاد عقريّة إنسان مفرد، ولا حتى بضع مئات من العباقر" ثم يمثل لذلك بأوروبا في عصر النهضة، ويقول: "فأمثال غاليليه، وليونارد دي فانشي، وميكايل أنج، ودانتي، ومن لفّ لفهم، ليسوا الذين صنعوا النهضة، ولكن شروط هذه الأخيرة هي التي صنعتهم" (القضايا الكبرى؛ ص 43-44).

أمّا مثاله الحيّ من التراث الإسلامي، أو أن حضارته وازدهاره، فهو ابن سينا، الذي "لم يكن مجرد معطى مضمّن ضمن أحد الصبغيات (chromosomes). والظروف العامة للمجتمع الإسلامي في عصره هي التي حققت بالصورة التي برز عليها إلى الوجود" (نفسه؛ ص 45).

ثم يستند في حكمه هذا إلى المنطق البسيط الذي يقرّر "أن النتيجة لا تسبق سببها"، وقد استعار من الفلاح الذي يعلم - يادراكه السليم - أن "المحراث لا يوضع أمام الثور"؛ ولم يقتصر ابن نبي على المنطق البسيط، ولا على بداهة الفلاح، ولكنه استعان بعلم المناهج، وبعلم الاجتماع، واعتمد طريقة البرهان بالخلف (raisonnement par l'absurde) ليثبت أن الظروف العامة للعالم الإسلامي، منذ عصر النهضة، ليست نتاج شخص أو أكثر، بل هي التي صنعت علماءها وروادها بشكل من الأشكال؛ وإن لم يكن لينكر آثار أولئك الأشخاص في مجرى تلکم الحضارة.

وغني عن البيان أنَّ ما أسماه ابن نبي بالظروف العامة للحضارة قريب في دلالته من مصطلح "الوعاء الحضاري"، محور هذه المداخلة، مع فروق فنية ليس المقام مقام بيانها. وفي سياق آخر يستخلص ابن نبي حكما بعد عرضه لأدلته، وهو "أنَّ الثقافة ليست ظاهرة صادرة عن المدرسة، ولكنها ظاهرة ناجمة عن البيئة" (القضايا الكبرى، ص77)، وهل البيئة سوى "الوعاء الحضاري" بكل أبعاده.

لو ألقينا وابلا من الأسئلة، بناء على منطلقات مالك بن نبي، في شأن القطب اطيّش وعلاقته بوعائه الحضاري، في دوائره المنداحة: المحلية، والوطنية، والعالمية؛ لتولدت لدينا أرضية بحث خصب، مستقتل، قد يشغل وقتنا وحيزا كبيرا، لكننا نترك لأوانه، ونعمل العقل في أمثلة من ذلك:

ما هي الزاوية التي تفصل - أو تصل - بين القطب اطيّش العالم وواقعه الاجتماعي الحضاري، المحلي أو الاستعماري أو الإسلامي العام؟

إذا جاز أن نقول عن ابن سينا: إنه "لم يكن مجرد معطى مضمّن ضمن أحد الصبغيات (chromosomes). والظروف العامة للمجتمع الإسلامي في عصره هي التي حققتها بالصورة التي برز عليها إلى الوجود؟" إذا اعتبرنا هذا الحكم قانونا صارما؛ فما هي الظروف العامة التي صنعت القطب، وصاغته على الصورة التي كان عليها؟

ومعلوم أنَّ القطب اطيّش ليس وليد مدرسة نظامية، بل هو وليد تعليم لدى ثلة من أقاربه، وعلماء بلده؛ ثم ارتقى إلى مستواه بفضل العصامية، والعمل الدؤوب، والجهاد المتواصل؛ بناء على هذا، ما هي الجهة الرسمية التي سطرت معالم القطب، والتي أعطته هذا التفوق؛ ما دامت الثقافة "ناجمة عن البيئة"؟ ثم، هل صنعت ذات البيئة علماء في قامة القطب؟ إذا كان الجواب بالنفي، فالسؤال: لم؟ وإذا كان بالإيجاد، فمن هم هؤلاء، وما الفروق بينهم وبين القطب؟ ولماذا لازمت الشهرة القطب على حساب غيره، باستثناء الشيخ بعده؟

كل هذه الأسئلة حرة بالبحث، وليس لها جواب مصمت مغلق، بل هي من نوع الأسئلة الديناميكية المولدة للفكر، والدافع للجدل العلمي الخصب.

الوعاء الحضارة، والعمق الاستراتيجي (داود أغلو)

ألف وزير خارجية تركيا، المفكر الاستراتيجي ذائع الصيت، أحمد داود أوغلو، كتابا متميزا عنوانه "العمق الاستراتيجي"؛ ولقد أثبت فيه أنَّ ما نطلق عليه "بالوعاء الحضاري"، هو في الأساس من "المعطيات الثابتة" في استراتيجية أي بلد، وحددها في: "الجغرافيا والتاريخ وعدد السكان والثقافة". وقال: "المعطيات الثابتة عبارة عن العناصر التي لا يمكن لإرادة الدولة أن تغيّرهما على المدين المتوسط والبعيد، ضمن المقاييس الموجودة" (ص35)؛ وبهذا تصبح "المعطيات المتغيرة"

أو القشرة التي يسهل تغييرها، متمثلة في "الاقتصاد والتكنولوجيا والفكرة العسكرية"؛ ويعرفها هذه المعطيات بأنها "العناصر التي يمكن تفعيلها في المدى المتوسط والقريب، وهي العناصر التي تعكس مدى قدرة الدولة على استخدام القوى الكامنة فيها" (ص43).

وفي سياق منهجي آخر، أسس أوغلو نظريةً في البحث الاستراتيجي، يصدق أن تعمم على مجالات البحث الأخرى، وذلك بإخضاع أي بحث استراتيجي إلى خمسة مراحل، إذا تتبعها الباحث أمكن أن يهتدي إلى الحقيقة في عمقها، وإلا كان عمله مجرد تخمين لا غير؛ وهذه المراحل هي: "الوصف، والتوضيح، والفهم، والتفسير، والتوجيه"؛ وفيما يخص موقع الباحث، أو ما يطلق عليه في علم الكوسمولوجية بالراصد، يقول أوغلو: "إن التحليل الاستراتيجي الذي يتناول المجتمع كوحدة مستقلة، وهو يمر بفترة تطور ديناميكي، يمكن تشبيهه بحال الشخص الذي وضع نفسه في مجرى سريع الجريان والتدفق، وهو يراقب هذا النهر، وسرعة واتجاه تدفقه، وعلاقته بغيره من الأنهر. وبطبيعة الحال إذا ما تخيلت نفسك داخل هذا النهر، فستجد نفسك وأنت تراقبه من الداخل، تنساق مع تيار النهر من جهة، ويقه على عاتقك، من جهة أخرى، مسؤولية فهم خصائص تدفقه..."

ويواصل الباحث في بيان علاقة الباحث الراصد بالوعاء الحضاري محل بحثه، إلى أن يقرر أن "الاغتراب عن روح ومصير هذا النهر سيساهم في غياب المسؤولية الأخلاقية؛ أما الاستسلام لتيار النهر فسيعمل على تضيق مساحة المسؤولية العلمية" وبناء على هذا يقترح التوفيق بين المسؤوليتين، ويصوغ بذلك لب نظريته بقوله: "إن الباحث الذي لا يستطيع أن يوفق بين المسؤولية الأخلاقية والمسؤولية العملية هذه - سواء كان مفكراً أو أكاديمياً - يصعب عليه أن يحقق لشخصيته التماسك والانسجام، ويصعب عليه أن يحقق الانتماء الاجتماعي والثقافي، وأن يكون له دور مؤثر في تكوين الواقع العالمي" (ص15)

وفي سياق بحثنا هذا، يمكن أن نتخذ هذا النص منطلقاً، ضمن نظرية الوعاء الحضاري، للسؤال عن قطب الأيمة بين "المسؤولية الأخلاقية والمسؤولية العملية"؛ ونسأل: إلى أي مدى تفاعل الشيخ اطفيش مع وعائه الحضاري؟، وإلى أي مدى كان مراقباً له من خارج النهر؟ وهل كانت شخصيته العلمية متماسكة منسجمة؟ أم أنه عرف بعض الاضطراب، فيما يتمثل؟ وهل نصف القطب أنه منتم اجتماعياً وثقافياً إلى وعائه الحضاري في دوائره المنداحة: المحلية، والوطنية، والدولية؟ وهل كان صاحب دور في تكوين الواقع العالمي؟ أم أنه حضر في دائرة معينة وغاب عن أخرى؟

هذه الأسئلة قد لا تجد الجواب إلا ضمن بحث أكاديمي، يستقصي ظروف العصر، وخصائص المجتمع، وأسباب الحركة والفعل في البيئة المحيطة بالقطب؛ ولا يكفي أن نستهل

بعناوين فضفاضة من قبيل: "عصر القطب"، و"الاستعمار الفرنسي"... الخ. ذلك أنَّ هذه العناوين اختزالية، وتتناول ظاهرة العلاقة بين العالم ووعائه الحضاري في إطار ساكن جامد، بينما العلاقة في حقيقتها تتحدد ضمن إطار متحرك ديناميكي.

القطب اطفيش، ونقاط التماس مع وعائه الحضاري

هل ينتظر أن يفرش الناس الحريز للقطب اطفيش، ويستقبلوه بحفاوة، ويتقبلوا جميع مواقفه وأفكاره وإصلاحاته؟

إنَّ القانون العام، الذي خضع له الأنبياء، ويخضع له كل من سار على نهجهم إلى يوم الدين، هو أنَّ فعل الاحتكاك، وقوة المكابح، والرفض المبني على "إنا وجدنا آباءنا على أمة..."، كلُّ أولئك قدر مقدور لكلِّ مصلح، ولذا قال تعالى لنبيه الكريم: "كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون". وأكد جل من قاتل، وهو العليم بطبيعة عبادته، أنه "ياحسرة علي العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون".

يقول ويتن مصطفى، الباحث المتخصص في فكر القطب: "تعتبر الظروف والأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية من أهمِّ المؤثرات على أفكار العلماء وآرائهم... ولم يشدَّ الشيخ اطفيش عن هذه الوضعية" (آراء القطب، ص17).

وسنحاول أن نتعرض لهذا الاحتكاك في دوائره الثلاثة: المحلية، والوطنية، والإسلامية

أولاً- وادي ميزاب، الدائرة الأصغر

إذا ما استعرضنا العلاقة بين القطب والدوائر المندوحة لوعائه الحضاري، فإنَّ الدائرة الأولى هي "وادي ميزاب"، التي وإن كان لها بعض المميزات الاجتماعية والعمرانية والتنظيمية، إلا أنَّها ليست بدعا من جسم العالم الإسلامي، فقد حملت ما حمل من أمراض وأعراض، يقول ويتن: "أما الناحية الاجتماعية والفكرية، فإنَّ وادي ميزاب لم يخل من بعض الاضطرابات بين أهله، وإسراف في سفاسف الأمور، فبقي أهل العلم حتى القرن التاسع عشر الميلادي يعيشون على أنقاض ما خلفته عصور الانحطاط والتقليد والجمود" (آراء ص22)؛ ثم استدل الباحث بنص للقطب ورد في حاشية السؤالات، يصف فيه القطب هذه الحال، ويقول: "وإنما أطنبت في هذا المقام؛ لأحرِّك أذهانا ألفت الجمود، وأهيج أفهاما طالما مال نيرانها إلى الخمود" (نفسه).

إن العمل على وصف قدرات القطب، وعرض نتاجه المعرفي، والتنبؤ به بخصاله... كلُّ ذلك إذا كان منفصما عن حال بيئته، وعن مؤثرات مجتمعه، وعن النهر الذي يجرف اهتماماته، والحية التي تزلزل تفكيره... لا يجدي نفعا، وقد يحملنا إلى اعتبار القطب ظاهرة إعجازية، وأن لا مثيل لها، وأنه من عالم آخر غير عالم البشر؛ كما قد يؤدي إلى التقليل من جهاده واجتهاده، ومطالبته بما يفوق قدرات البشر؛ وهذا الخطأ في الفهم هو الذي حدا بالمشرِّكين أن يطلبوا من الله إرسال

"ملك رسول"، أو أن يكون النبي عليه السلام خرقا للمعتاد، فجاء الجواب الصريح الواضح: "قل سبحان ربي، هل كنت إلا بشرا رسولا؟! وإذا كان هذا صادقا في النبي الموحى إليه، فهو من باب أولى حقيق على من دونه من المصلحين والعلماء.

وضمن هذا السياق نفهم ما ورد من أحكام في رسائله، يشتكي فيها هول قومه وعنادهم، ومن ذلك قوله في رسالة إلى عمان، للإمام محمد بن عبد الله الخليلي: "وافاني سؤالك في حال اضطراب أهل البلد عليّ، وعدم الانقياد للحقّ، أعاني الله عليهم وعلى أهل الشرك" (شرفي، قراءة في مراسلات القطب؛ مجلة الحياة، عدد 15، ص254).

ولنا أن نسأل بناءً على نظرية "الوعاء الحضاري": لو افترضنا أن القطب عاش في حضيرة من حواضر الإسلام، بغداد، أو القاهرة، أو فاس مثلاً؛ فهل ستكون اهتماماته ذات الاهتمامات التي اشتغل بها؟ وهل ستتغير طبيعة مؤلفاته؟ وهل ستكون أكثر ارتباطاً بالقضايا الحضارية للأمة الإسلامية قاطبة؟ أي، هل ستكون حركيته نهضة عالمية الصبغة، على شاكلة معاصريه جمال الدين الأفغاني (1838 – 1897)، ومحمد عبده (1849–1905)؟

لا شك أن للوعاء الحضاري دور في هذا لا ينكره أحد؛ ولا أدل على ذلك من "التعظيم المقصود أو غير المقصود الذي يلحق علماء المغرب الإسلامي عموماً، والجزائر بالخصوص، عبر تاريخها المعاصر؛ فقد تجد الواحد منهم عالماً ومجدداً في مجاله، إلا أن القدر يكتب لمن هو أدنى منه، وما ذلك إلا لكون الأول مغربياً والثاني مشرقياً.

ثانياً- الجزائر، الدائرة الأوسط

القطب اطفيش "مواطن فرنسي"، هذا تعريف ونسبة يصعب على العقل والقلب أن يستوعبهما؛ لكنها الحقيقة والواقع، وما كان عليه القطب في علاقته بوطنه المستعمر، إذ إن القطب شهد غزو فرنسا للجزائر، وعمره لا يتجاوز تسعة أعوام، فعاش طول حياته وهو لا ينعم بنعمة الاستقلال، وقد كان ذلك مؤثراً قوياً في تحديد معالم شخصيته، وتوجيه مواقفه، حتى إنه كان دوماً يمين النفس بالجهاد، لكن الظروف القرية والبعيدة، والتيار الجارف الغالب والملمزم، كل ذلك منعه، حتى أنشد:

لولا ثلاث هن: تعليم جاهل وخدمة ربي، والجهاد لذي الكفر

لما كنتُ أخشى الموت والموت لازم وإلا فما الحياة والمرء في قهر

والحق أن أثر الاستعمار على القطب كان شديداً، يقول ويتن: "وهذا الشعور يقتضي منه قيادة ثورة، لكن لم تتح له الظروف لذلك، فقام بمحاولة أولى وقمعها الاستعمار في مهدها لما دخل أرض وادي ميزاب، وبعدها رجع الشيخ إلى التأليف والتعليم" (آراء، ص37) وما أبلغ قول القطب مبرراً لموقفه هذا: "أكب على التأليف إذ لم أجد بنا غازياً يوماً، ولا ما به أغزو" (التيسير، ج4، ص377).

وقد أرجع ويتن أسباب عدم القدرة على الغزو إلى ما هو في الحقيقة - لو حللناه - مكونات "اللوعاء الحضاري"، في مستوياته الأولى: "الوضع الاجتماعي"، و"فقدان العدد والعدة"، و"البيئة الصحراوية"؛ بل وحال أهله وقومه الذين - مع الجهل - لا يقدرّون على شيء، ولا يستجيبون للمعالي؛ ولذا راح يجتهد في التعليم، وإعداد أجيال مستقبلية لعلها تكون اللبنة لهذا الجهاد المبارك؛ فكان من تلاميذه: الشيخ أبو اليقظان إبراهيم، حامل لواء ثورة الإعلام؛ والشيخ أبو إسحاق اطفيش، صاحب لواء الجهاد في المشرق؛ وسليمان الباروني باشا، قائد ليبيا إلى الثورة على إيطاليا... وغيرهم كثير.

من هنا نستنتج أنّ على المصلح أن يعتبر المرحلة، وأن لا يحصر الجهاد في صورة واحدة، فما يكون لائق في ظروف معينة قد يكون تهوراً في ظروف مختلفة، ومن أبلغ الفقه الوعي بمتطلبات العصر والظروف، أي إدراك حقيقة الوعاء الحضاري الذي يتحرك هذا العالم ضمنه.

ثالثاً- العالم الإسلامي، الدائرة الأوسع

لم يكن العالم الإسلامي في عصر القطب أحسن حالا من الجزائر، وبخاصة أنّ الخلافة العثمانية ضعفت، ثم تهاوت، ثم شارك في اغتيالها العديد من المسلمين، ونعوها، كأنهم يقيمون عرساً، أو يحتفلون بنصر؛ إلّا أنّ القطب، مع كونه معزولاً عن العالم الخارجي عموماً، لأسباب عديدة، منها إقامته الجبرية، ومنها موقع ميزاب الجغرافي، وغياب وسائل التواصل والاتصال... إلّا أنه حمل الهم، وتفاعل مع العالم الإسلامي بهم واهتمام.

ويمكن التمثيل لهذا التفاعل الإيجابي، في إطار الإمكان، تلك العلاقات التي ربطته بثلة من علماء عصره، وكذا العلاقة التي "كانت بينه وبين سلاطين عمان وزنجبار... كما كانت للشيخ اطفيش اتصالات بالخلافة العثمانية أيام عبد الحميد الثاني" (ويتن، ص53).

أمّا في مستوى الهمّ والاتصال والتواصل، فإنّ القطب لم يتوان، ولم يقصّر في أي فرصة واته، من ذلك الرحلتان الحجازيتان، وكذا المراسلة، والدعاء... غير أن مستوى الفعل المباشر رهين بالوعاء الحضاري الذي يحيط بالعالم، فلو أنّه كان في - الباب العالي، أو في بغداد، مثلاً - لكانت أفعاله ومواقفه وحركيته خلاف ما كانت عليه وهو في صحراء نائية في الجزائر المستعمرة. ولذا ليس من الحكمة أن نعت القطب، ولا أن نطلب منه فوق طاقة البشر، أو نحاكمه إلى ظروف وأسباب غير الأسباب التي تحيط به؛ فهو إنسان، بشر، عاجز، عامل، مجتهد، مصيب أحياناً، ومخطئ أخرى... ويكفي أن ندرك أنّ حساب الله تعالى لا يكون بناء على معيار ومقياس موحّد، لكنه سيكون حسب ظروف المرء، وهذا معنى قوله سبحانه: "على الموسع قدره، وعلى المقتر قدره"، والسعة والقتر لا يقتصران على المال فقط، بل يتجاوزان إلى كل الأسباب.

خاتمة: العالم يحرك الأمواج، ولا يصنع المحيط

لسائل أن يسأل: ما هو دور العالم إذن، إذا كان رهينة وعائه الحضاري؟
الجواب هو أن العالم "يحرك الأمواج"، ويحدث التغيير، ويشارك في الإصلاح أو الثورات، بكل مقاييسها، وقد يتحول جهده بعد أمد إلى "قطعة من طبيعة الوعاء الحضاري لأُمته"؛ غير أن العالم لا يستطيع أن "يصنع المحيط"، ولا أن يقوم بانقلاب جذري، في ظروف زمنية قصيرة، لا تتجاوز عمره؛ وليس من العلم في شيء أن نربط تاريخ أمة على عالم أو حدث أو طفرة، بل إن هذا من الأخطاء التي ترتكب تكرارا في منهج التأريخ للفكر والتراث الإسلامي.
من هنا نقول: "إن العالم يحرك الأمواج، ولا يصنع المحيط"؛ وإن القطب اطفيش علامة فارقة في تاريخ أُمته، وليس علامة – ولا ينبغي له أن يكون علامة – لتاريخ أُمته ووعائه الحضاري.

الهوامش:

- 1- انظر مثلا، مقال: "جماعات الضغط"، هشام محمد علي؛ موقع النور. الرابط: www.alnoor.se/article.asp?id=4829
- 2- انظر – محمد بابا عمي؛ البراديم كولن، الأستاذ فتح الله كولن ومشروع الخدمة، من خلال نموذج الرشد؛ نشر دار النيل، 2011.
- 3- للتذكير، نحن نعيش ذكرى المائة لوفاة القطب اطفيش، سنة 1332هـ، ويجب أن تكون الذكرى لإعادة الإحياء، والبحث في أسباب الحضارة؛ لا على شاكلة مهرجانات قاتلة، لا طعم لها ولا لون.

المسألة الفلكية عند قطب الأئمة

(تقرئها في المناسبات والمنهج)

محمد حدبون

قسم العلوم الإسلامية المركز الجامعي غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000 الجزائر

توطئة

من أعراض النكوص الحضاري للمسلمين نشوء فجوة مفتعلة بين المؤرخين وعلوم هي أساسية في صناعة الحياة وبناء الحضارة، وترسيخ العقيدة، وبسط الشريعة؛ تلكم التي اهتمت بالفلك والطب والعمران، ولعل الورقات المعدودة في فهارس العديد من المكتبات لشاهد على هذا الجفاء. ورغبة في إعادة التوازن لمفهوم العلم الصحيح، الذي لم يفرّق بين الدنيا والآخرة، ولم يرتّب العلوم من حيث الشرف إلا من نظرة قاصرة، نلجّ إلى جانب مهم من اهتمامات القطب، هو "المسألة الفلكية عند قطب الأئمة".

وتنبؤاً جهود القطب في تقريب المسألة الفلكية وترسيخ مبادئ هذا الفن لعامة الناس دورا بارزا في حركة التأليف، من خلال ما أفردته القطب من تأليف مستقل متخصص، أو الإشارات والنكت التي حوتها كتب التفسير والعقيدة والفقه، والتي يمكن تجميعها وتنسيقها؛ ولو أحصينا ما ورد من مصطلح فلكي فيما كتبه القطب، لخرجنا بقاموس فلكي معتبر، ما بين أسماء للنجوم والكواكب، والظواهر والأحداث الفلكية، والأعلام والمناطق.

وتهدف الورقة إلى إلقاء الضوء على الجوانب الخفية لاهتمامات القطب بعلم الفلك، تمهيدا لدرس المادة الخام وتحليلها وكشف معالم منهجها، وذلك ما سيكشف لا محالة عن مستوى لم يقدر حق قدره، لعلوم هُجرت أو عدّت من الدرجة الثانية؛ وتلك نظرة قاصرة وآفة مفتعلة، نأى عنه القطب، وتحمل عن منطقته وزمنه عبء تدليل هذه العلم إقامة للدين وما به قوام الحياة.

ويعترف المتابع المتفحص لمؤلفات قطب الأئمة الشيخ امحمد بن يوسف أطفيش بالموسوعية في التأليف، والتبحر في صنوف العلوم؛ فقد تعددت مجالات تأليفه وتنوعت،

واتسعت ميادين اهتمامه وتشعبت، حتى استحق القطب لقب مجدد المذهب الإباضي بجدارة، وبات "مرجعاً أساسياً من مراجع الفكر الإباضي، تُعرب أعماله عن حقيقة مبادئ هذا المذهب"⁽¹⁾ فكان علامة عصره في علوم كثيرة، له الكعب المعلى تأليفاً وشرحاً وتعقيماً وتصويماً.. بذلك كله استطاع احتواء مادة علمية غزيرة، تمكّن من إعادة تقديمها وصياغتها في مستوى يناسب عصره. وإن تصدر شرح النيل والتيسير وغيرهما مؤلفات القطب، وربما حازاً فضل العلمية عليه، فثمة فنون اهتم بها القطب، وأظهر فيها تمكناً وقدرة لا تقل شأنًا عما اشتهر به في الدين وأصوله، والفقه وفروعه، والقرآن وعلومه، والحديث وفنونه.. ومن ذلك علم الفلك، والحساب، والمنطق، واللغة، والطب.

1. تأصيل النظر الفلكي عند القطب.

يؤسس القطب لمسألة النظر في ملكوت الله تعالى (الكون)، ويوجهه الوجهة التي ينبغي أن تكون عليه، فالنظر عنده هو ذلك الذي يثمر إيماناً، "وَالْمُرَادُ نَظَرٌ اِعْتِبَارِي لَا نَظَرُ الْعَيْنِ"،⁽²⁾ ولا بأس بنظر مجرد، غير مستحضر للعظمة، "لأنه قد يكون مفتاحاً لنظر الاعتبار بالقلب". والنظر الوارد في قوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾⁽³⁾ قال: "والنظر بمعنى العلم؛ ويرى أنّ للوسائل حكم المقاصد، بمعنى أن الأخذ بما يحقق هذا النظر من آلات واجهزة أمر مطلوب شرعاً لتحقيق هذا الأمر.

وترك النظر كان سبباً لضعف المسلمين حتى اعتدى عليهم الكفار، تلك هي نظرتهم الشهيرة في أسباب استعمار العالم الإسلامي. لذلك وغيره كان يدعو إلى التفكير في ملكوت الله تعالى، ويقول في هذا الصدد: "وَأَنْظُرْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالنُّجُومِ، وَمَنْ نَظَرَ فِي غَيْرِهَا فَقَدْ فَاتَهُ النَّظَرُ، فَالْأَرْضُ وَالْبَحَارُ وَالْهَوَاءُ وَكُلُّ جَسْمٍ بِالإِضَافَةِ إِلَى السَّمَاوَاتِ كَقَطْرَةٍ فِي بَحْرٍ وَأَصْغَرٍ، وَأَنْظُرْ كَيْفَ تَكَرَّرَ ذِكْرُهَا فِي الْقُرْآنِ وَفِي السُّورَةِ الْوَاحِدَةِ".⁽⁴⁾

وقال ناصحاً "واعتبر دوام طلوع الشمس والقمر والنجوم بلا فتور في مطالع وغروبها في مغارب متفاوتة وسيرها سيرا مقدرًا لا يريد ولا ينقص، وبعض نجومها على صورة العقرب والحوث والحمل والثور والأسد والإنسان، ولا صورة في الأرض إلا لها مثال في السماء، وأنظر اختلاف الليل والنهار والفصول الأربعة، والحر والبرد وزمان الاعتدال".⁽⁵⁾

كل ذلك "دليل على وحدانية الله تعالى في السموات؛ من نجوم وذوات أذنان وغيرها وتغير أحوالها، والقطب الشمالي ودوران النجوم عليه والقطب الجنوبي.. والمجرة وفيها نجوم كبار تدور معها وسط السماء ومطلعها ومغربها، وإذا استقبلت جهة تقوست إليها، وبنات النعش الصغرى والكبرى، وإضاءة ما قابل الشمس من القمر، وخلو ما لم يقابلها منه وغير ذلك".⁽⁶⁾

هذا ومما يؤكد مستوى تحكّم القطب في علم الفلك، والتمكّن من ناصيته، ذكره للمئات من المصطلحات الخاصة بهذا الفنّ، وعلى أدق وجه واستعمال؛ ولو أحصينا ما ورد من مصطلح فلكي فيما كتبه القطب، لخرجنا بقاموس فلكي معتبر، ما بين أسماء للنجوم والكواكب، والظواهر والأحداث الفلكية، والأعلام والمناطق.

2. المسألة الفلكية في مؤلفات الشيخ:

تبرز اهتمامات الشيخ بالجانب الفلكي في نظرنا في صورتين:

أولاً: التأليف المستقل، المصنّف أساساً ضمن فنّ علم الفلك، ونعني بذلك مؤلفه الذي أشار إليه في مقدمته لكتابه "شرح كتاب النيل وشفاء العليل"؛ نوّه به قائلا "فَانْظُرْ كِتَابِي فِي فنّ الْفُلْكِ الَّذِي سَمَّيْتُهُ "مَطْلَعُ الْمُلْكِ فِي فنّ الْفُلْكِ"⁽⁷⁾.

وصف المؤلف: الكتاب مخطوط، رقمه في مكتبة القطب (أض 1)، يُشتهر بعنوان "مسلك الفلك" اختصاراً، وله اسم آخر ذكره القطب في مقدمة المخطوط "وسميته الرسالة الفتحية في الأعمال الجيية". وأصله شرح لرسالة "الرُّبُعُ المَجِيبُ"⁽⁸⁾ لعالم الفلك والرياضيات سبط المارديني، كما يصرّح بذلك في مقدمته للكتاب "فهذه رسالة في الرُّبُعِ المَجِيبِ...".⁽⁹⁾

والمخطوط في حالة جيّدة، يضمّ مائة وثمانية وعشرين صفحة (الوجه والظهر)، غير مخروم الحواشي، بخط واضح مقروء، وبلونين (أسود، وأحمر للعناوين)، بحواشيه تعليقات وإضافات، مُشَفَّعٌ بجداول ورسومات توضيحية. ويبدو أنّ الناسخ لم يفرغ من نسخه، أو أنّ القطب لم يكمل شرحه، ما يرجح الاحتمال أن النسخة الموجودة هي من خط القطب نفسه؛ وفي الكتاب تصريح يتضمن الكتاب لعشرين باباً مع مقدمة، لكن المخطوط انتهى عند الباب التاسع عشر، في ذكره لفوائد، ويؤكد السياق هذا الانقطاع "الفائدة الخامسة عشر... (فراغ)".

وقد ذكر الأستاذ مصطفى ويتن في بحثه القيم عن القطب "آراء الشيخ امحمد بن يوسف أطفيش العقديّة" تشكيلك الأستاذ عدون جهلان نسبة هذا الكتاب إلى القطب؛ ثم فنّد ذلك وصحّح نسبة الكتاب إليه، بأدلة كافية تثبت ذلك، لعلّ أقواها تنويه المؤلف بكتابه هذا في شرحه للنيل -كما أسلفنا-، ووجوده ضمن فهرس مؤلفات الشيخ.

ومن عناوين الأبواب التي حواها الكتاب نذكر: باب معرفة الارتفاع، معرفة الجيب من القوس وعكسه، معرفة الظل المجهول من الارتفاع المعلوم وعكسه، معرفة الميل الأول المجهول من درجة الشمس، معرفة عرض الميل، معرفة الماضي ومعرفة الباقي من النهار، معرفة سعة المشرق والمغرب، معرفة الارتفاع الذي لا سمت له، معرفة مقدار السمّ، معرفة مقدار سمّت القبلة، معرفة استخراج الجهات الأربع، معرفة بعد الكوكب، معرفة حال الكوكب في وقت

مفروض.

ومن الجدير التنبيه إلى أن القطب قد دُعم هذه المباحث برسومات توضيحية، وأشكال، تسهل الجانب التطبيقي لمن رام أن يجسد المعلومات المقدمة عمليا، فهو كتاب يجمع بين النظر والتطبيق. (ينظر ملحق الرسومات التوضيحية، ص 07).

ثانيا: الآراء الفلكية للقطب من ثانيا تأليفه: وهي اجتهادات وتوضيحات في مسائل فلكية بثَّ فيها القطب، لكنَّها مبنوثة في مؤلفات خارج تخصص فن الفلك، وبخاصة تفسيره "تيسير التفسير"، هذا الذي ينطوي على علم غزير بالجانب الفلكي، اقتضته آيات الكون في القرآن الكريم، فسَّرها القطب من أفق معرفيٍّ لعالمٍ بالفلك. ولو قُدِّر لباحث تتبَّع تلك الآراء بمسح شامل لكلِّ مؤلفات الشيخ لخرج بمؤلف مستقل آخر، يُعنى بإبراز المسألة الفلكية عند القطب، على أكمل وجه، وأعمق تصوُّر. ولعلَّ فيما نقله من النثر اليسير من خلال التيسير، الخطوة أولى، والنواة لهذا المشروع.

وما من شك أنَّ الاهتمام بهذا الجانب لأمر يستحق العناية والعناء من الباحثين، وسيكشف لا محالة عن مستوى اهتمام الشيخ بهذا العلم ومتابعته للجديد فيه، كذكره لعالم الفلك الشهير "هرتشل"، وما ظفر به من معرفة للكواكب السيارة فوق المعروفة. يقول في تفسيره للآية 54 من سورة الأعراف "وزاد بعضُ الآن سناوز ونوا وبلاس وسرس أو أرنوس، ويُسمَّى هرشل وهو اسم المنجم الذي ظفر برصده"⁽¹⁰⁾ أو ما أضاف إليه انطلاقا من منطقته بمزاب، نحو اجتهاده تحديد خطوط الطول والعرض لبلاد مزاب في كتابه "مسلك الفلك". وكيف وظَّفه خدمةً لأداء العبادات، ويظهر ذلك من حرصه الشديد على معرفة ضبط الأوقات، لضبط مسألة أداء العبادات. وللقطب مزولة شمسية لضبط الوقت بدقة متناهية، قام بإنجازها.

وفي السياق نفسه نجد له اهتماما بمسألة بالغة الأهمية في جغرافيا الأرض، وهي خطوط الطول والعرض حيث يقول واصفا شكل الكرة الأرضية إجمالا "ثم إنني قد أخبرتك أنَّ الأرض ليست تامة التكوين، بل بُسطت عند القطبين، ومنشفة عند خط الاستواء، وذلك من قياس خط نصف النهار، وهو الدائرة العظيمة المارة بالقطبين التي تقسم الأرض إلى نصفين كرة، أحدهما شرقي، والآخر غربي. وقياس خط الاستواء وهو الدائرة العظيمة التي تقسمها إلى نصفين كرة، أحدهما شمالي، والآخر جنوبي، فوجد أن خط الاستواء يزيد على طول نصف النهار بنحو سبعين ألف متر، وكذا قطره، ويزيد عن قطر خط نصف النهار بنحو عشرين ألف متر، فعلى فرض تكوير الأرض ليس تكويرها تاما".⁽¹¹⁾

3. مباحث من الفلك القديم لم يستدرکها القطب:

ككلّ عالم له مأخوذ ومتروك، وصحيح ومهجور، فقد وردت للقطب آراءً نقلها في مسائل كوسمولوجية،⁽¹²⁾ لا يمكن للعقل المعاصر أن يقبلها، وعذره فيها أنه لم يدركه العلم الصحيح فيها بل كان ابن عصره وما استقر إليه علم ذلك الزمن؛ وخلاصة ما فيها خلط بين مفهوم السماء المادي والغيبى.⁽¹³⁾ ونورد لذلك نماذج وردت عند القدامى من غير تصحيح ولا تمحيص:

- حديثه عن مادة خلق السماوات، بما ينافيه العلم الحديث المعاصر، كقوله "فالأولى: من زبد الماء متجمداً، والثانية: من رخام أبيض، والثالثة: من حديد، والرابعة: من نحاس، والخامسة: من فضة، والسادسة: من ذهب، والسابعة: من ياقوت أحمر"،⁽¹⁴⁾ ومفهوم السماوات اليوم أعقد ما يكون، يلتبس فيه المفهوم المادي بالغيبى، وإن كان يقصد بالسماوات الكون المرئي فإن فروع الفلك الحديث لا تقول بذلك مطلقاً.

- إيراؤه للمسافات بين السماوات بالمقاييس القديمة، نقلها من غير تعليق، أو لنقل هي نسبية غير واضحة، كقوله "وبين كلّ سماء وأخرى، وأرض وأخرى، والأرض والسماء خمسمائة عام".⁽¹⁵⁾ وعلم الفلك الرصدي اليوم يميز بين المجرات وعناقيد المجرات، وفيه تنضوي الكواكب بأبعادها، والزمن معلّم، لكن بدلالة أية حركة.

- اعتباره "السماوات والأرض ساكنات، والكواكب والشمس والقمر متحركات في أفلاك غير السماوات، أو في غير أفلاك".⁽¹⁶⁾ وقد حسمت مسألة امتداد الكون وتوسعة الأبحاث المعاصرة، ابتداء من إدوين هبل بما لا يدع مجالاً للشك. أما سكون الكون تصوّر يوناني قديم، لا أساس له في العلم الفلك الحديث.

- أخذه بالنظام الجيومركزي الذي يجعل من الأرض مركز الكون، وأنّ الشمس هي التي تدور حول الأرض، ومن المعلوم أن نيكولاي كوبرنيكوس قد قلب هذه المسلمة، رأساً على عقب، وبها يؤرخ للعلم الفلك الحديث؛ ما يجعلنا نعتقد أنّ ذلك لم يبلغ القطب. ونلمس منه هذا الرأي في حديثه عن الليل والنهار إذ يقول: "يتحقق الاختلاف بدوران الشمس على الأرض"⁽¹⁷⁾ وقال في تفسيره لآية في سورة الرحمن "ويستدل بجريان الشمس بدليل الآية ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ ثم يقول "وهو الظاهر ولا يلتفت إلى زعم من زعم أن المتحرك هو الأرض".⁽¹⁸⁾

- في ظلّ غياب وسائل الرصد لديه، بقي الشيخ متمسكاً باعتبار الأرض مركز الكون وذات حجم لا يضاهي، يقول "وليست النجوم المنكردة -كبيرة كما في علم الهيئة بل هي كما

ترى أو أكبر بقليل وهذا هو الصواب ألا ترى إلى تقاربهم وإدراك العين لما لا يحصيه إلا الله عز وجل ويجمعها مقدار من الأرض تحيط به العين".⁽¹⁹⁾ ويقول في الموضوع ذاته "والنجم على ما زعموا أعظم من الأرض".⁽²⁰⁾ ومقتضى الزعم كما أوردته يعني استبعاد الامر والقول بالعكس.

• ومع تقدّم أبحاث الضوء، وتطوّر الفيزياء الفلكيّة، فقد ردّ القطبُ بعضًا من نتائج هذه التخصصات الفلكية الدقيقة والتي لم تصل إليه أمام الحصار الذي فرض المستعمر في تنقلاته، وأمام قلة الوسائل والإمكانات العلميّة المتاحة لديه لم يصل إلى إدراك بعض الحقائق العلميّة الثابتة في زمنه. يقول "وزعم الفلاسفة قبحهم الله عز وجل أنّ من النجوم ما لا يصل إلينا شعاعه إلا في عدة سنين، وأنّ شعاع الشمس يصل إلينا في ثماني دقائق وثلاث عشرة ثانية، وأن بيننا وبينها أربعة وثلاثين مليوناً من الفراسخ، والمليون ألف ألف والمليار في هذه اللغة ألف مليون".⁽²¹⁾

4. مسائل كوسمولوجية صحّحها القطب وردّها:

وأما ما تبين له فيه وجه الحق والصواب، فقد صحّحه وردّ المغلوط منه، ومن الأمثلة نذكر:

• ردّه للاعتقاد الميثولوجي الهندي القديم في اعتبار الأرض على ظهور بعض الحيوانات تحملها. قال مهاجما هذه الأفكار البالية التي سماها تخاليط "وقيل سيع أرضين متماسة يحملهن ثور على صخرة إلى آخر التخاليط".⁽²²⁾ ثم قدم النظرة الصحيحة فقال "والأرض أنزلها الله تعالى في الفراغ لا ترتكز على شيء كما ظنه اليهود أنها ارتكزت على قرن ثور، أو ظهره، وأنّ الثور على صخرة، والصخرة على حوت، والحوت في بحر، والبحر على الظلمة، ونحو ذلك من الأقوال الباطلة، وهل ترى الظلمة جسما يحمل شيئا، ولزم التسلسل، فدع السلسلة إلى قدرة الباري الماسك لها بالتكوين دون مركز، ولعلّ بعض الفراعنة الذين يعبدون البقر وضع ذلك عمدا أو تعتمد أن الثور المعبود هو الواسطة في حرثها وغرسها ومنفعها".⁽²³⁾

• اعتباره الظلمة أصل في الكون والضياء حادث، وقد تناول أولبرز ذلك في مفارقاته. قال "وقدّم الليل، لأنّه أصل بتقدم الظلمة والنور حادث".⁽²⁴⁾

• تمييزه بين النجوم ذات النور والإشعاع الذاتي، والكواكب التي تكتسب ضوءها من غيرها من النجوم، قال "ونور الشمس والنجوم مخلوق فيهن.. ونور الكواكب من نور الشمس".⁽²⁵⁾

• اعتباره الفرق الكبير الشاسع بين الشمس والقمر، بما لا يصح المجال للمقارنة حتى مثله بأحسن مثال للفرق فقال "وقد قيل إن القمر إلى الشمس كالبعوضة إلى الفيل".⁽²⁶⁾

• مناقشته لمسألة النسبية في الزمن، خاصة في آيات الخلق، قال في معرض تفسيره لآية الخلق في سورة ق "والآية ردّ على اليهود لعنهم الله، أو نزلت فيهم إذ قالوا عن التوراة كذبا، إن

الله تعالى بدأ خلق العالم في يوم الأحد، وفرغ منه يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، واستلقى عن العرش سبحانه عن ذلك وأمثاله، أو كان شيء من ذلك في التوراة ولم يفهموه" ثم يبين حقيقة الزمن إذ يقول مصححا "والأحد والإثنين وغيرهما أزمنة، فإذا كان ابتداء خلق السموات والأرض في يوم الأحد لزم تقدم الزمان على الأجسام، والزمان لا ينفك عن الأجسام، وقبل خلق السموات والأرض لم يكن شمس لا قمر".

5. مصادر المعلومة الفلكية عند القطب.

بعد عرض مقتضب لنماذج من آراء القطب الفلكية، لسائل أن يسأل عن مصادر المعلومة الفلكية لديه ومنهجها فيها؛ ويبدو السؤال أكثر إلحاحا، إن نحن استحضرنا ما أشرنا إليه سابقا من شح المصادر الثقافية والمعرفة لدى القطب.

وفي تقديري -والله أعلم- أن مصادر المعلومة الفلكية لدى القطب تتلخص في يلي:

1. التكوين الذاتي والاعتماد على النفس في تحصيل العلوم: وهو السمة الغالبة على جل العلوم التي اكتسبها القطب، فكما أسلفنا فقد "عُرِفَ القطبُ باعتماده شبه الكلي على نفسه في تعلّمه؛ فالإنتاج العلمي الذي تركه لا يعادل المحيط الذي عاش فيه، والظروف التي عرفها من نقص في المشايخ والكتب.. بل كان يتحنن الفرص للتعلّم، ويترقب مجيء أهل العلم من المشرق ليأخذ عندهم؛ هذا ما جعله يعتقد أن الاجتماع بشيخ إنما يحدث في بداية تعلّم كل فنّ، والطالب بعد ذلك يستطيع أن يواصل ما بقي من الفنّ بالمطالعة"⁽²⁷⁾ وهذا الذي جعله يخطئ التقدير في بعض المباحث الفلكية كما مرّ بنا آنفا. ويقرّر الباحث مصطفى ويتن أن القطب قرّر هذه القاعدة على نفسه، وكانت له المخرج في تعلّمه في بيئة فقيرة من أسباب العلم. وربما ساعده في ذلك ذاكرته القوية في الحفظ، وموهبته في الفهم السريع، لينتقي كل ذلك مع رغبته الشديدة في التلقي والتعلّم، وقد أثمرت هذه العصامية نتاجا علميا معتبرا.

2. الاهتمام بالملاحظة والتجريب والتحقيق الميداني: وذلك من صميم المنهج التجريبي الذي كان سمة المنهج العلمي الحديث، وأحد أسباب التطور العلمي في شتى الأصعدة ومنه علم الفلك. يقول القطب مبيّنا هذا المسلك من التحقيق والتجريب، وهو بصدد رصد الهلال "ويستتر القمر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين، وليلة إن كان تسعة وعشرين، هذا غالب، وتحققت مرتين أنه روى بعد الفجر". فالوصول إلى الحكم بالتغليب كان مبنيا على التحقيق والملاحظة.

3. متابعتة للأخبار والمستجدات في الموضوع: ويبدو أن القطب كان مولعا بالجديد في الموضوع ما أمكنه الأمر، مشتغلا بالمستجدات فيه، وإن لم نستطع تحديد مصدر أخباره الجديدة (جرائد أم مجلات أم أخبار تصله ويسأل عنها)، ومما يدل على متابعتة لأحداث الأرصاد

وهو يسمى النجوم، قوله "وزاد بعضُ الآن سناوز ونوا وبلاس وسرس أو أرثوس، ويُسمَّى هرشل وهو اسم المنجم الذي ظفر برصده".⁽²⁸⁾

4. متابعته للأخبار ممن يُطَنُّ أنه أهلٌ لذلك، وإفادته للعلم بالسماع والمشاهدة؛ يقول وهو في صدد الحديث عن كروية الأرض "نعم أخبرني رجل أنها -أي الشمس- تقطع المحيط كله"⁽²⁹⁾

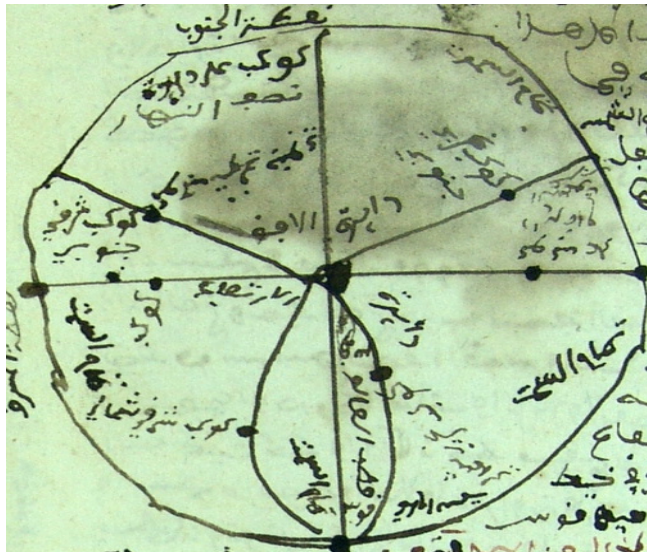
هذا ما من الله به، من توضيح لاهتمام القطب بالمسألة الفلكية، وفي الحسان القريب إن شاء الله تعالى أن يوفقنا الله تعالى لتحصيل الآراء الفلكية من كل ما كتب، ويكتمل الصرح الفلكي للقطب بتحقيق رائعته "مطلع الفلك في مسلك الفلك". والحمد لله أولاً وآخراً.

ملحق:

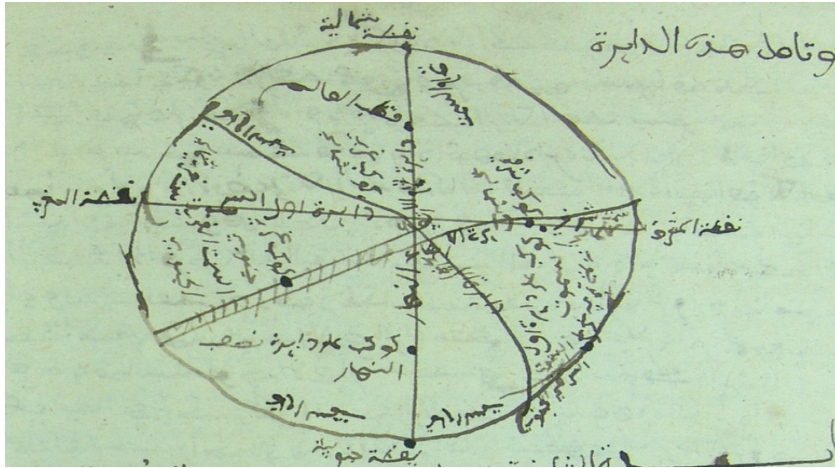
نماذج لأشكال بيانية توضيحية لبعض المسائل الفلكية اعتمدها القطب في كتابه "مسلك الفلك"

الشكل رقم 01

يوضح كيفية معرفة ارتفاع جرم ما عن الأفق



الشكل رقم 02: يوضح تقسيم خارطة السماء إلى جهاتها الرئيسة الأربع ورصد حركة كوكب ما، مع اعتبار الأرض مركز العالم.



الهوامش:

- 1) ينظر: مصطفى وبتن: آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقديّة؛ نشر جمعية التراث، ط1، 1996، ص:08.
- 2) امحمد بن يوسف أطفيش: تيسير التفسير 246/10.
- 3) سورة ق: آية 06.
- 4) ينظر: امحمد بن يوسف أطفيش: شرح كتاب النيل وشفاء العليل، 299/16.
- 5) المصدر والصفحة نفسه.
- 6) المصدر نفسه: 395/4.
- 7) ينظر: شرح كتاب النيل وشفاء العليل، 36/1.
- 8) كذا ضبطه المؤلف في حاشية المخطوط "بضم الراء والباء، أو بضمّها وإسكان الباء". ينظر المخطوط ط:1.
- 9) الربع المجيب sine quadrant واحد من أنواع أرباع الدائرة، وهو في الأصل من الأسطرلاب ينقش على ظهره. وهو آلة بسيطة أساسها ربع دائرة، مكونة من قوس مقسم إلى 90 درجة، ترسم عليها خطوط متنوعة، تستخدم عادة لقياس ميل منطقة البروج، وأكثر الأعمال التي يقوم بها الاسطرلاب.
- ومع هذه الآلة توجد آلات أخر مقارنة منها آلة الربع التام perfect quadrant وآلة الربع الدائري أو الربعية، كلّها آلات فلكية تراثية قديمة كانت تستعمل لحساب المواقيت. ينظر: عبد الأمير مؤمن: قاموس دار العلم الفلكي، بيروت، دار العلم للملايين، ط1، 2006؛ ص: 218-219.
- 10) امحمد بن يوسف أطفيش: تيسير التفسير 144/03.
- 11) المصدر نفسه 13/12-14.
- 12) الكوسولوجيا علم تاريخ الكون، وهو فرع من علم الفلك العام، الذي يهتم بدراسة نشأة الكون وتطوره ومصيره، موظفا في ذلك تفرعات أخرى كالفيزياء الفلكية، والأرصاد.
- 13) ينظر: نضال قسوم، جمال ميموني: قصة الكون من الصور البدائية إلى الانفجار العظيم، ص: 35 وما بعد.
- 14) امحمد بن يوسف أطفيش: تيسير التفسير 332/01.
- 15) المصدر والصفحة نفسه.
- 16) المصدر نفسه: 105/03.
- 17) المصدر نفسه: 106/03.
- 18) المصدر نفسه: 214/14.
- 19) المصدر نفسه: 75/16.
- 20) المصدر نفسه: 190/15.
- 21) امحمد بن يوسف أطفيش: تيسير التفسير 259/11.
- 22) المصدر نفسه: 234/11.
- 23) المصدر نفسه: 15-12/12.
- 24) المصدر نفسه: 446/12.

²⁵ المصدر نفسه 77/12.

²⁶ المصدر نفسه 25/12.

²⁷ المرجع السابق، ص 47-48.

²⁸ امحمد بن يوسف أطفيش: تيسير التفسير 144/03.

²⁹ امحمد بن يوسف أطفيش: تيسير التفسير 247/10.

فلسفة الأخلاق عند الشيخ أحمد بن يوسف الفيلسوف

خضير بن بكير بابا واعمر

باحث غرداية

مقدمة

الحمد لله الذي سوى النفس البشرية، فألهمها فجورها وتقواها، وحكم بالفلاح المحقق على من رزّاها، وبالنخبة الكبرى على من دسّاها، والصلاة والسلام على النبي الأمي الذي امتدحه خالقه تعالى بالعظمة الأخلاقية فقال جل علاه في شأنه مؤكدا ومقررا: ﴿وانك لعلی خلق عظیم﴾ [القلم:4].

أما بعد:

إن البحث في الأخلاق قد شغل حيزا من اهتمام المفكرين والفلاسفة والعلماء على مرّ العصور نظرا لأهمية الأخلاق في تنظيم العلاقات الاجتماعية، وضبط سلوكيات الأفراد والجماعات، فهي تشكل لا محالة العامل الحاسم في صلاح الأمم إن صلحت، وفي فسادها وزوالها إن فسدت. وصدق الشاعر حين قال:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت وإن هم ذهب أخلاقهم ذهبوا

فقد سعى كل فريق من هؤلاء الدارسين انطلاقا من توجهاتهم الفلسفية، والدينية، والاجتماعية إلى وضع معايير للقيم الأخلاقية، ورسم قواعد مُلزمة لسلوك البشر والجماعات.

بيد أن ما يضعه البشر لأنفسهم من معايير محدّدة للقيم تبقى دوما مصبوعة بمسحة من الذاتية، والنسبية، والفردية، وهوى النفس، وظرفية الزمان والمكان، والتغير، وعدم الثبات والاستمرار، واللاتوازن... صفات دالة على العجز البشري الفاضح، ولانماص منه، لأن الإنسان هو الباحث والمبحوث فيه في آن واحد، فأنّى له أن يصل بمفرده إلى المعايير العليا، ويحيط بالمثل الفضلي التي تضبط سلوكه، ويلزم بها نفسه أو جماعته؟؟

فاعترافا بهذا العجز والقصور وجب على الإنسان اللبيب أن يُسلم بمصدرية الدين الحنيف في تشريعه للقيم الأخلاقية السامية لأنه السبيل الآمن لتحقيق إنسانية الإنسان، وما فيه سعادته في العاجل والآجل.

ولقد بذل علماء الإسلام جهودا في شرح هذه القيم الأخلاقية، وتفصيلها، وبيان آثارها،

ودعوة الناس إلى الالتزام بها كما بينها القرآن الكريم، وجسدها الرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم. فكان النموذج العملي الفاضل، والقدوة الحسنة لكل المریدين في اكتساب القيم الفاضلة، والارتقاء في مدارجها العالية.

وسأحاول -من خلال هذا المقال- الكشف عن معالم فلسفة الشيخ اطفيش الأخلاقية، ونظراته الروحية، وهو جانب جوهري من مناحي فكره الموسوعي يحتاج إلى دراسة وتحليل.

(1) - دوافع اهتمام الشيخ اطفيش بالأخلاق:

لا ريب أن منشأ الشيخ اطفيش في أسرة محافظة بأصول دينها، وفي وسط اجتماعي متمسك -في الغالب الأعم- بأعرافه وتقاليده الإسلامية، والتحاقه المبكر بالكتاب لتعلم آي القرآن الكريم، وأحاديث خاتم الرسل، وتحصيله المبادئ الأولى من علوم الدين واللغة، قد ترك في شخصيته الأخلاقية انطبعا حسنا واستقامة في سلوكه، حملة ذلك على أن يتعهد نفسه بالتربية والتزكية وتحليتها من الشوائب.

كما أن اطفيش قد ذاق في بدايات حياته آلام اليتيم، ومعاناة الفقر، وشظف العيش، فانطبعت نفسه بمعاني الرحمة والشفقة، والرفق بالضعيف، يتحدث الأستاذ مصطفى وتن عن نشأته الأولى قائلا: "وبعد رجوع العائلة من غرداية إلى بني يزقن توفي الوالد فعاش الشيخ يتيما تحت رعاية أمه وإخوته وكفالتهم، وكان لأمه الأثر البالغ في تربيته وتكوينه وتعليمه، وقد عانى مع عائلته الفقر وشظف العيش، وهذا ما نجده في ثنايا كتبه ورسائله، خاصة تلك التي بعث بها إلى العمانيين حتى أصبح يتخرج من نفقات المراسلات التي يبعث بها إليهم، ولم يكن يجد ما يستسخ به كتبه،"⁽¹⁾

ثم تتلمذ اطفيش وتلقى تعليمه على يد ثلة من مشايخ عصره أبرزهم شقيقه الحاج إبراهيم الذي كان له الفضل الكبير في بناء شخصيته العلمية والأخلاقية، وقد أشاد بفضله عليه كثيرا، وخلد ذكره في قصيدة خصها بمدحه⁽²⁾

ولقد كانت هاته المرحلة بالنسبة إليه مرحلة تأسيس وبناء لفكره الأخلاقي، ثم اعتنى بتكوين ذاته، وتنمية عقله وتغذيته بالعلوم والمعارف لينتقل بعدها إلى مرحلة العطاء، فيسهم بكل ما أوتي في إصلاح النفوس وتهذيب الطباع، وتوجيه الإنسان المؤمن توجيها أخلاقيا سليما، لاسيما وقد سادت في عصره أنماط سلوكية فاسدة عند العامة والخاصة، وتفننت فيه مساعي المستعمرين الرامية إلى طمس الشخصية الجزائرية المسلمة وقيمها الفاضلة.

ومفاد القول: إن نشأة اطفيش الأولى في بيئة متمسكة بدينها، ومعاناته من آلام اليتيم وشظف العيش، وتلمذته على أهل العلم و العرفان، وحضوره في عصر تدهورت فيه القيم، وبسيطر فيه الجهل، ويحكم فيه مستعمر صليبي حاقدا، كانت هي العوامل الرئيسة التي دفعت اطفيش إلى الوجهة الروحية والأخلاقية والاهتمام بها، ويتجلى ذلك في المجالات الآتية:

أ- نشاطه التربوي والتعليمي:

ركز الشيخ اطفيش على التربية والتعليم، وإعداد الناشئة قصد إقامة مجتمع صالح تسوده الفضائل، وتحكمه القيم، فقد اتخذ التدريس رسالته في الحياة وقضى حوالي ثمانين عاما معلما.

وإذا كان الإنسان قابلا للتأثر والتأثير في مختلف مراحل عمره، فإن التوجيه له لازم في كل الأطوار ونافع له وبالأخص لحديثي السن ليتعودوا على محبة الفضائل، ويسهل عليهم تجنب الرذائل، وأهمية التربية نابعة من أن الفضائل مكتسبة، تتحقق بالعلم والعمل، فإن العلم هو المبدأ والعمل هو التمام، والمبادئ الأخلاقية تنبني على المعرفة. يقول اطفيش: " لا ينفع علم أو عمل بلا آخر، ولا يصح عمل بلا علم"⁽³⁾

ولقد كان جل المتخرجين من معهد الشيخ قدوات صالحة في الالتزام الأخلاقي، والوفاء الديني، والعمل العلمي الرصين أمثال: أبو اليقطان إبراهيم (1888م - 1973م)، و أبو إسحاق إبراهيم اطفيش (1886م - 1965م)، و سليمان باشا الباروني الليبي (1887م - 1940م)، و الحاج صالح بن عمر لعلي (1871م - 1928م) وغيرهم كثير⁽⁴⁾...

فقد وفق الشيخ اطفيش أيما توفيق في تربية مريديه على القيم والمبادئ السامية وتزويدهم بالعلم النافع فكانوا مرجعيات ذات مصداقية في مجتمعاتهم.

ب- إصلاحه الدعوي والاجتماعي:

ت- لم يعزل اطفيش عن واقعه الاجتماعي، ويشغل بتأليفه وبحوثه النظرية بل كان مخالطا للناس، حاضرا في عصره، موجها لمن حوله سواء في المسجد، أو في حلقات التدريس، أو في السفر والحضر، وقد تعامل مع طبقات المجتمع المختلفة من طلبة العلم والعلماء والحكام والعامة، كما أنه لم يهمل العنصر النسوي في دعوته فقد خصص لهم أوقاتا لإرشادهن والإجابة عن أسئلتهن⁽⁵⁾.

ويرى اطفيش أن مخالطة الناس والصبر على أذاهم أولى من الانعزال، يقول مجيبا لمن سألته عن الاشتغال بقضايا الناس: " ومما سألتما عنه الاشتغال بأمر المسلمين، اعلمنا أنه أولى من الانفراد لكن مع تحمل الأذى ومعالجته، وإذا قوي عليكما الإخلاص سهّل عليكما الأذى فتجدان راحة في قلوبكما تصلان معها إلى التعلم والتعليم."⁽⁶⁾

وقد ارتكزت دعوته على إصلاح المعتقدات الفاسدة والأخلاق المتردية، والتقاليد البالية: كالشعوذة، وتقديس بعض الأماكن والأموات، وانتشار روح التواكل، والبطالة، والفرقة والاختلاف، والذلة والخنوع في وجه الاستعمار وأعداء الدين، وغيرها من العادات المستحكمة، كعادة ترك السلام، وانتقاده الشديد لأسلوب التربية السائد في عصره الذي يعتمد على القسوة والفظاظة والحرمان، ويقتل في الأبناء شخصيتهم ومواهبهم.⁽⁷⁾

وقد احتمل الشيخ في سبيل نشر دعوته الأخلاقية والإصلاحية الأذى الكبير، فلم يسلم من ألسنة الحاسدين، وأقاويل المستهزئين، والكيد له، ونفيه من بلده، ومحاولة الفتك به. لكنه بقي رغم أنف الأعادي كالطود الأشم جريئاً صامداً، ومحتسباً صابراً إلى أن مكّنه الله تعالى من نشر دعوته، ودحر مناوئيه.

ج- مؤلفاته وكتابه المتنوعة:..

لا تخلو كتابات اطفيش المتنوعة من إشارات مفصلة أو مقتضبة إلى علم الأخلاق والقيم، فقد اهتم بهذا العلم وهو يكتب سواء في مجال العقيدة أو الفقه أو التفسير أو الأدب، وفي تأليفه الذاتية، وفي شروحه وتلخيصاته ومراسلاته. وتتمثل أهم أعماله فيما يأتي:

■ شرح كتاب النيل وشفاء العليل حيث خصص الكتاب الثاني والعشرين منه في الأفعال المنجية من المهلكة (ج16 وج17 ومجموع صفحاتهما 1590) وقد شرح بإسهاب وتحليل مقامات الأخلاق، وبين موقعها من علوم الشريعة، وآثارها في سعادة الفرد أو شقاوته.

■ الذهب الخالص المنوّه بالعلم الخالص وقد خصص الركن السابع منه لعلم الأخلاق والآداب والحقوق، ويبرز الشيخ أبو إسحاق أهمية الكتاب قائلاً: "هو من أسمى الكتب الفقه الإسلامي الشامل لمستنبطات المجتهدين المشهورين الجامع لأصول الدين وفروعه جمعا غير ممل ولا مخل، ولقسم من علم الأخلاق والاجتماع المفتقر إليهما في الأوساط الإسلامية أشد افتقار في هذا العصر الذي ضربت فيه المدنية الخادعة الأوربية بقسط أوفر حتى هرعت إليها نفوس الضعفاء وما أكثرهم، وذرفت لهول تأثيرها قلوب المخلصين وقليل ما هم".⁽⁸⁾

■ الحاشية على كتاب القناطر للجيطالي، وكتاب القناطر "كتاب قيم في مقاصد التشريع وفلسفة الأخلاق يقع في ثلاثة مجلدات ضخمة (مجموع صفحاتها 1557 صفحة) قسمه الجيطالي إلى سبع عشرة قنطرة، إذ شبه الفرائض بالقناطر التي يمكن للسالك عليها العبور للوصول إلى السعادة الأبدية"⁽⁹⁾ وقد وضع الشيخ اطفيش عليه حاشية قيمة، ولا يزال الكتاب مخطوطاً بمكتبة القطب ببني يزقن رقم: (أ.و.5).

■ الذخر الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى: كتاب قيم في التربية الإيمانية والروحية يقع في (273 صفحة) يرى الشيخ أن معرفة أسماء الله الحسنى دافع إلى تربية النفس وحملها على التخلق بما توحى به هذه الأسماء من معاني جليلة، وقد بين أن قول الرسول صلى الله عليه وسلم: ((إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة))⁽¹⁰⁾ لا ينحصر الإحصاء في العدد والذكر المجرد الآلي فحسب، بل يتعدى ذلك إلى التخلق بمعانيها في السلوك⁽¹¹⁾.

■ تفسيره للقرآن الكريم: حيث نجد فيه إشارات مهمة إلى المباحث الأخلاقية سواء في تيسير التفسير أو في هيمان الزاد إلى دار المعاد.

■ منظومات شعرية في المواعظ والحكم الأخلاقية، وأدب السلوك. ومنها قصيدة بائية تقع في 117 بيتا يقول في بعض أبياتها:

بُنِيَ تجاف عن فراشك واقتن وسامر علوم الدين تفتح لك البابا
... ولا ترج جودا من بخيل فليس في لظى من مُنى وليس في الرجس ما طابا
... أرى في قيام الليل فوزا وفي الغنى عن الناس عزا فاتخذ منهما دأبا
وكن مولعا بالسيف تخضبه الدما ولا تولعن بالسيف يُخضِب إذهابا
ومن حُسْن إسلام الفتى تركه اللغا وترك الهوى في كل حال وإسهابا
وذُر حيث دار الحق واجتنب الهوى بوقت الرضى أو أغضبت إغضابا⁽¹²⁾
(2) - البحث الأخلاقي

إن فلسفة الأخلاق في الإسلام نابعة من الدين وكفيلة بالخير المطلق وصالحة للناس جميعا، وهي تتسم بالثبات والاستقرار، خلافا للأخلاق الوضعية الخاضعة لأهواء الأفراد والمستخلصة من فلسفات الحكام ومصالحهم يطبعها التقلب والاضطراب والتعدد والتبديل في العصر الواحد بله سائر العصور.

لم يبحث الشيخ اطفيش في قواعد جديدة لفلسفة الأخلاق لأن الدين قد حدد نظريته الأخلاقية المتكاملة، وإنما اجتهد في بيان الأفعال المنجية من المهلكة، فشرح القيم والفضائل التي يجمل بالنفس التحلي بها، وحذّر من الرذائل التي ينبغي التحلي عنها، وتوقّوها. ثم دعا المكلفين إلى تطبيق الأخلاق الإسلامية التي لا يأتيها الباطل، ولا تشوبها ميول الأشخاص.

أ) في الفضائل:

نعرض جملة من الفضائل ونبين مفهومها الأخلاقي عند الشيخ اطفيش فيما يأتي:

■ فضيلة اليقين

عرف اطفيش اليقين بأنه العلم الذي لا يشوبه شك بأن الأمور كلها من الله تعالى⁽¹³⁾، ويتفاوت الناس في الدرجات قدر تفاضلهم في اليقين، فالزيادة في اليقين تفيد مطلق الفضل، كما أن العاقل لا يشك في أن عين اليقين أقوى من علم اليقين، وأن حق اليقين أقوى من عين اليقين، ودليله قوله تعالى: ﴿أولم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ [البقرة: 260] فأثبت لنفسه حقيقة الإيمان وبقينه، وطلب زيادة الطمأنينة برؤية العيان فلا منافاة فيه لما قاله على خلاف لمن وهم فيه.

وقد تعرض إلى اختلاف المتكلمين والصوفية في مصطلح اليقين، فأما المتكلمون والنظار فيعنون به عدم الشك، وأما المتصوفة فيعنون بها استيلاء الشيء المصدق به على القلب، وغلبته عليه حتى يصير هو المتحكم والمتصرف في النفس بالتحريض والمنع.

بيد أن اطفيش يرى أن من شأن علماء الآخرة صرف العناية إلى تقوية اليقين بالمعنيين جميعاً، وهو نفي الشك، ثم تسليط اليقين على النفس حتى يكون هو الغالب المتحكم عليها، وهو المتصرف فيها⁽¹⁴⁾. فبناء على المعنى الأول يوصف اليقين بالقلّة والكثرة من جهة متعلقاته، ومتعلقات اليقين هي ما جاء به الأنبياء، وفي مقدمتها التوحيد. كما يوصف بالقوة والضعف حسب المعنى الثاني وذلك في الغلبة والاستيلاء على القلب.

ويسوق نماذج لمتعلقات اليقين وثمراته مثل:

– الثقة بضمان الله الرزق في قوله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ [هود:6] فإن صحت ثقته لم يشتد خوفه ولا حرصه وشربه وتأسفه، وأثمرت هذه الثقة جملة من الطاعات والأخلاق الحميدة.

– اليقين بالنواب والعقاب وهو أن يغلب على قلب المرء قوله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ [الزلزلة:7-8] فإن صح ذلك منه حرص على الطاعات قليلها وكثيرها، وتجنب المعاصي قليلها وكثيرها كما يتجنب السم قليله وكثيره.

– اليقين بأن الله تعالى مطلع عليك في كل حال شرك وظاهره، فإن صح ذلك منك تأدبت في خلوتك وفي قلبك كالمشاهد لملك عظيم أكثر مما تأدبت به في مشهد الناس وفي ظاهرك، وورثت الحياء والخضوع والانكسار والخوف، فهذه أخلاق تورث أنواعاً من الطاعات رفيعة.

فاليقين في كل باب من هذه الأبواب كالشجرة، والأخلاق كالأغصان، والأعمال الصادرة من الأخلاق كالثمار والأنوار⁽¹⁵⁾.

■ فضيلة الإخلاص والنية والإرادة

الإخلاص تطهير الفعل من أمر مُدنس أو مفسد. والأمر المدينس كالصغائر، والمفسد كالكبائر وإظهار العمل رياء أو المن والأذى. قال الله تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ [البينة:5] وقال تعالى: ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ [الزمر:3] وقد أورد الشيخ اطفيش تعاريف كثيرة للعلماء والمتصوفة للإخلاص، منها⁽¹⁶⁾:

قول الجنيد: الإخلاص تصفية العمل من الكدورات

وقول المحاسبي: الإخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب

وقول أبي عثمان: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق.

كما تحدث الشيخ عن النية وهي القصد، أي عزم القلب المقترن بالفعل، يقول: "واعلم أن النية والإرادة والقصد عبارات تتوارد على معنى واحد وهو حالة، وصفة للقلب يكتنفها أمران علم

وعمل، العلم يتقدمه لأنه أصله وشرطه، والعمل يتبعه لأنه ثمرته وفرعه، لأن كل حركة أو سكون اختياري فإنه لا يتم إلا بثلاثة أمور: علم، وإرادة، وقدرة، لأنه لا يريد الإنسان ما لا يعلمه، ولا يعمل ما لم يرد فلا بد من إرادة⁽¹⁷⁾

وبين معنى الإرادة بأنها " انبعاث القلب إلى ما يراه موافقا للغرض إما في الحال أو في المآل، فقد خلق الإنسان بحيث يوافق بعض الأمور، ويلتزم غرضه، ويخالفه بعض الأمور، فاحتاج إلى جلب الملائم الموافق إلى نفسه، ودفع الضار المنافي لنفسه"⁽¹⁸⁾ وقد وضع جملة من الصوابط تتعلق بالنية، وهي⁽¹⁹⁾:

- الابتدار إلى استحضار النية، لأن صحة الأعمال واعتبارها بالنيات لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى"⁽²⁰⁾

- لا تغلب المعصية طاعة بالنية، بخلاف المباح فينقلب معصية بالنية، وينقلب طاعة بها.

- تكثير النيات للعمل الواحد، فيقدر تكاثر النيات يتضاعف الأجر، ولقد ورد في الخبر أن كل نية حسنة، وكل حسنة بعشر أمثالها، ويدعو المكلف أن لا يكتفي في الطاعة الواحدة بالنية الواحدة، بل عليه أن يعدد نياته في التقرب حتى تشمل خيرات كثيرة تعود بالتزكية على عمله.

■ فضيلة الشكر

عرفه الشيخ اطفيش أنه فعل ينبئ عن تعظيم المنعم لكونه منعما سواء كان باللسان أو بالجنان أو بالأركان، ومتعلقه لا يكون إلا النعمة. وهو واجب بالسمع والشرع والعقل.

ويرى أن الشكر ينتظم في علم وحال وعمل، فالعلم الأصل يورث الحال، والحال يورث العمل، فالعلم معرفة النعمة من المنعم، والحال الفرع الحاصل بالإنعام، والعمل القيام بمقصود المنعم، ويتعلق ذلك العمل بالقلب والجوارح واللسان، ولا بد أن يعرف أن النعم كلها من الله والأواسط مسخرون من جهة.

ويؤكد الشيخ أنه على المؤمن استعمال نعم الله عليه وعدم تعطيلها فكل ما خلق الله تعالى في الدنيا إنما خلقه ليتوصل به إلى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالى، فمن استعمل ما أنعم عليه من جوارحه وماله وعقله في معصية فقد كفر نعمه تعالى، ومن أهملها ولم يستعملها فقد كفر نعمه أيضا إذ عطّلها عما خلقت له⁽²¹⁾.

وتوظيف هذا المفهوم الأخلاقي للشكر يسعد الفرد ويقوى المجتمع المسلم ويحقق الاستخلاف المنشود.

■ فضيلة الصبر

هو حبس الإنسان نفسه على فعل الطاعة وعلى ترك المعصية أو حبسها عن الحزم. ويجب

الصبر على عمل الفرائض، واجتناب العصيان، وعند نزول البلاء⁽²²⁾.

والصبر هي خاصية إنسانية، وضرورة له، فهو محتاج إليه في كل حال، فالإنسان مخلوق للصبر دون البهائم والملائكة. لأن البهائم سلطت عليها الشهوات، وأما الملائكة فقد جردوا للشوق من القرب ولا شهوة تصرفهم عن ذلك.

ويقتر الشيخ اطفيش أن الصبر تختلف أسماؤه باختلاف ما يصبر المرء عليه، فهو جماع كثير من الفضائل، أو هو نصف الإيمان، فالصبر عن شهوة البطن والفرج يسمى عفة، وعن احتمال المكروه يسمى صبرا فقط، وضده الجزع، وفي احتمال الغنى يسمى ضبط النفس وضده البطر، وفي الحرب يسمى شجاعة وضده الجبن، وفي كظم الغيظ والغضب يسمى حلما وضده السفه، وفي نائبة مضجرة يسمى سعة الصدر وضده الضجر والتبرم وضيق الصدر، وفي إخفاء كلام يسمى كتمان السر، وعن فضول العيش يسمى زهدا وضده الحرص، وعلى قدر يسير من الحظوظ يسمى قناعة وضده الشره.

وقد استدل الشيخ بآيات كريمة وأحاديث شريفة في فضل الصبر وثمراته وثواب الصابرين كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10] وقوله تعالى ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 46].

أما عن حكم الصبر: فالصبر عن إتيان الواجبات وترك المحظورات فرض، وعن المكروهات مندوب، والصبر على العبادة غير الواجبة مندوب، والصبر عن المباح للتوصل بتركه إلى عبادة أو ليقهر نفسه بتركه مندوب.

ويمكن تحصيل الصبر بإضعاف باعث الشهوة بقطع مادتها من حيث الإكثار والتبوع، وتقوية باعث الدين بالتصدي إلى مغالبة باعث الهوى، والمجاهدة والتفكير⁽²³⁾.

■ في توقي الرذائل :

عالج الشيخ اطفيش في بحوثه الأخلاقية جملة من الرذائل مبينا أسبابها وعلاماتها وأضرارها، ونورد بعضا منها فيما يأتي:

■ رذيلة الكبر

ابتدأ حديثه عن الكبر موضحا أن الكبرياء صفة واجبة في حق الله تعالى لقوله عز وجل: ﴿الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: 23] وقوله ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الجاثية: 37] فالعظمة لله وحده لاستحقاقه لنعوت الجلال وتقدسه عن النقائص والآفات، والكبر في الخلق مذموم وحرام وباطل غير صدق لأن الخلق محلّ النقص، فمن تكبر تكلف أن يتصف بغير صفته، ومن عرف علوه سبحانه وتعالى وكبريائه لازم طريق التواضع وسلك

سبيل التذلل⁽²⁴⁾.

وقد عرف الكبر بأنه هو تسفيه الحق وغمط الخلق⁽²⁵⁾، ويقرر أنه خصلة مهلكة تقدح في أصل الدين والاعتقاد بخلاف سائر الكبائر التي تقدح في العمل، فإذا قويت في النفس واستحكمت لم تُندارك، لقوله تعالى: ﴿إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾ [البقرة: 34] وأقل أضرار الكبر على صاحبه أربع عواقب وخيمة:

الأولى: حرمان الحق وعمى القلب عن معرفة آيات الله وفهم أحكامه لقوله تعالى: ﴿سأصرف عن آياتنا الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ [الأعراف: 146]

الثانية: مقت الله وبغضه، لقوله تعالى: ﴿إنه لا يحب المستكبرين﴾ [النحل: 23]

الثالثة: الخزي، فالمتكبر لا يموت حتى يرى الهوان من أرذل أهله وخدمه.

الرابعة: النار في الآخرة لقوله تعالى في الحديث القدسي: "الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما قذفته في النار"⁽²⁶⁾ وأما عن أسباب الكبر فسيعة هي:

1. العلم وهو أعظمها لعلو قدره، فيعالج بمعرفة أن فضل العلم إنما هو بالعمل به، ومن العمل به ترك الكبر، وبمعرفة أن الكبر مشاركة لله تعالى، وأن فضل العلم إنما هو لتوحيد الله عن الشراكة وخشيته تعالى.

2. الورع والعبادة، ويعالج بمعرفة أنه خارج عنهما إذا تكبر، ومعرفة أن الكبر حرام.

3. الحسب والنسب، فيعالج بمعرفة أن التعزز بهما تعزز بكمال الغير

4. الجمال، وأكثر ما يجرب به النساء ويعالج بمعرفة أن ذلك نظر للظاهر وغفلة عن الباطن

5. القوة والغلظة، أو كلاتهما، فيعالج بمعرفة أن تلك صفات سبقته إليه البهائم، وأنها تزول بحمى ساعة أو يوم ولا سلطان له في حفظها.

6. المال.

7. البنون والأقارب والعلمان والجواري والتلاميذ وسائر الأتباع والقرب من السلطان ويعالج بمعرفة أن ذلك خارج عن ذاته شاركته فيه اليهود والنصارى والمجوس، وأنه سريع زوال ذلك عنه وانقلابه.

وأما عن علامات الكبر فقد ذكر الشيخ اطفيش أنها تظهر في سلوك الرجل وصفاته وحركاته: كمحبة قيام الناس له أو بين يديه تعظيما له بلا وجدان كراهة من نفسه، وفي مشيته وتبخره وفي جلوسه، وفي عدم قبوله الحق عند النصيح والمناظرة⁽²⁷⁾.

■ رذيلة الكسل والعجز والتواني:

حدد الشيخ معنى الكسل بأنه هو التناهي عن الشيء والفتور فيه، قال تعالى: ﴿ولا يأتون الصلاة إلا وهم وكسالى﴾ [النساء: 142] أي متهاطلون كأنهم أكرهوا عليها. وأما معنى العجز فهو الضعف عن الشيء ، ولو حزم لقوي عليه، والعجز عجزان: التقصير في طلب الأمر وقد أمكن، والجد فيه وقد فات. والعجز في هذا الباب ليس هو العجز عن الشيء بحيث يسقط التكليف عنه بل معناه قريب من الكسل كما سبق، وضده الحزم⁽²⁸⁾.

وبين الشيخ أن العجز والكسل في أمور الدنيا وإتيان النوافل قد يؤديان إلى العجز والكسل في أمر الدين والفرض، ولا يحسن وصف المتولي بهما. ويكونان من القلب كأن يفعل شيئاً ولا رغبة لقلبه فيه، ويكونان من الجوارح كأن لا تنشط جوارحه لحز أو برد أو غيرهما وقد رغب فيه قلبه، ويكونان منهما معا بأن لا يرغب قلبه، ولا تنشط جوارحه⁽²⁹⁾.

وأما التواني فهو الكسل، وتضييع الحزم، وعدم القيام على مصالح النفس، وترك التسبب، والاحتراف، والإحالة على المقادير، وترك العمل.

وقد حذر الشيخ من هذه الرذائل الثلاث التي قد تؤدي إلى العصيان إذا تعلّق الأمر بتضييع الفرائض الدينية والدينية. إنها صفات مشؤومة وآفات عظيمة قد تعوّد منها الرسول صلى الله عليه وسلم في دعائه.

ج- في الحقوق والواجبات:

إذا كان الحق هو ما لك، والواجب هو ما عليك فإننا نجد الشيخ قد يضع كلمة واجب موضع كلمة حق، وفي مواضع أخرى نجده يوظف كلمة أدب.

اهتم الشيخ في كتاباته بالأخلاق الاجتماعية التي ينبغي أن تسود في المجتمع المسلم، وفصل القول في الحقوق والواجبات والآداب، كحقوق الوالدين، وحقوق الأزواج، وحقوق الأولاد، وحقوق الخدم والجيران، وحقوق الضيف، وابن السبيل،

وحقوق الأصحاب، وحقوق اليتامى والمساكين، وحقوق الأقارب وحقوق المسلم للمسلم وواجباته، وحقوق المساجد، وحقوق مجالس العلم والذكر، وحقوق الأزمنة والأمكنة، وحقوق الحيوان. ووجوب الإحسان إلى كافة الخلق، وحذر من وعيد الظلم والاعتداء والإيذاء بشتى أنواعه. كما تطرق إلى أهم الآداب في الأكل والشراب واللباس والضيافة والسفر...⁽³⁰⁾

وفي ذكره لهذه الحقوق والواجبات والأدبيات تفاصيل دقيقة وفوائد جليلة وهو في كل ذلك كثير الحذر شديد الحيلة، يوضح المعاني وقد يكررها أحيانا حتى ترسخ في القارئ والمتلقي.

(3) - أسماء الله الحسنى مصدرا للتخلق:

اتخذ الشيخ اطفيش من أسماء الله الحسنى منبعاً يستقي منه القيم وأصول السلوك، ومنهلاً من مناهل التخلق، ثم اندفع يُحدّث بها طلبته ومريديه، ويحثهم على السير في هداياتها، يقول: "والله عز وجل يحب الاتصاف بصفاته وذلك بحسب الإمكان، وبأفعاله كذلك فالله عالم يغيض الجاهل، وجواد كريم نافع يغيض البخيل، وقادر يغيض من ترك نفسه للعجز والكسل، وأنت خبير بأنه لا يتصف أحدٌ بصفته تعالى وأفعاله، وإسناد البركة للاسم بمعانيها السابقة مجاز، والمتصف بها حقيقة واجب الوجود"⁽³¹⁾

وقد خصص كتابه الجليل الموسوم بـ "الذخر الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى" لهذا الغرض يقول في مقدمته: "أما بعد، فهذا كتاب وضعته في أسماء الله الحسنى ومعانيها ليشغل به الطلبة عملاً ودعاءً لأن يمنح الله المسلمين الغلبة، ويجعل كلمة الذين كفروا السفلى، ويظهر في هذا العصر مضمون قوله: وكلمة الله هي العليا"⁽³²⁾

وبين أن الأسماء الحسنى هي الألفاظ الحسنى لذاتها ولمعانيها وبركاتها وثواب ذكورها، وأنها لا تنحصر في التسعة والتسعين اسماً، لأن العدد لا يفيد الحصر مستدلاً بآثار عديدة تدل على ذلك.

وقد شرع الشيخ اطفيش في شرح هذه الأسماء، وبيان معانيها، ثم استنتاج ما يلزم المكلف من سلوك عملي يستخلصه من ذلك الاسم، وفوائد الذكر به وبركاته المرجوة. ونعرض بعض النماذج فيما يأتي:

■ الرحمن الرحيم: الرحمن بنعم الدنيا والآخرة والرحيم بنعم الآخرة، ويقال الرحمن أبلغ من الرحيم لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، وتتخذ الزيادة تارة باعتبار الكمية وأخرى باعتبار الكيفية فعلى الأول قيل يا رحمن الدنيا لأنه يعم المؤمن والكافر، ورحيم الآخرة لأنه يخص المؤمن، وعلى الثاني قيل يا رحمن الدنيا والآخرة، ورحيم الآخرة لأن النعم الأخروية كلها عظام، ونعم الدنيا جليلة وحقيقية.

الأثر العملي: لزم على المكلف أن يتصف بما يناسب صفة الله فيكون راحم القلب لا قاسيه. ومن شأنه أن يرحم خلق الله إذا مرضوا، أو جاعوا، أو أصيبوا بمصيبة، ويسعى لإزالة الضرر⁽³³⁾.

■ القدوس: التقديس التطهير، والأرض المقدسة المطهرة عن الشرك، ومعناه في حقه يرجع إلى استحالة النقائص في وصفه، وتنزيهه.

الأثر العملي: فالواجب أن يطهر الإنسان نفسه عن الشهوات، وماله عن الحرام والشبهات، ووقته عن دنس المخالفات، وقلبه عن كدورات الغفلات، وسره عن ملاحظة الخلق، والالتفات عن الحق، وأن يتزه المكلف عما يشين دينه أو دنياه⁽³⁴⁾.

■ السلام: معناه السالم عن الفناء والآفات والحاجات وصفات الخلق والنقص

الأثر العملي: ولابد أن يتصف المكلف بالسلامة من الظلم وقلبه من اعتقاد السوء في التوحيد والخلق لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "المسلم من سلم الناس من لسانه ويده"⁽³⁵⁾، وأن ينزه نفسه عن كل لهو، ولسانه عن كل لغو، وقلبه عن كل مغايرة، ويأتي ربه بقلب سليم، ويتأكد عليه إفشاء السلام ودفع المضار على الناس⁽³⁶⁾.

■ الحسيب: معناه الكافي من قولك أعطاني حتى أحسبني، أي حملني على أني قلت حسي، من فاعل بمعنى مفعول كألیم بمعنى مؤلم، أو معناه المحاسب لعباده، كالجلس بمعنى المجالس، وقيل الحسيب هو الذي يعد عليك أنفاسك، ويصرف عنك بفضلته بأسك، وقيل معناه الشريف بمعنى أنه مختص يشرف الألوهية وكل كمال، والتفسير الأول أولى.

الأثر العملي: على المكلف أن يسعى في كفاية حاجات المحتاجين، وسد خللتهم، ويحاسب نفسه بالمعرفة والطاعة، وأن يتقي الله حق تقاته⁽³⁷⁾.

بهذا المنهج التحليلي والتربوي تعامل الشيخ اطفيش مع أسماء الله الحسنى وصفاته، وقد كان موفقاً إلى حد كبير في ربط سلوك الإنسان بخالقه جل علاه، وإعطاء العقيدة أبعادها العملية والاجتماعية مؤكداً أنها السبب الرئيس في تحسين سلوك الإنسان وتحقيق سعادته.

4- علاقة الشيخ اطفيش بالصوفية وموقفه من التصوف:

في كتابات الشيخ نلمس أنفاس التصوف، ونلتقي بأعلامه الكبار كالجنيد (ت298 هـ) الذي هو رئيس الصوفية وسيد علماء الآخرة في نظر أهل هذا الفن، وأبو عبد الله المحاسبي (ت243 هـ) الذي سمي بهذا اللقب لكثرة محاسبه لنفسه وهو شيخ الجنيد، وأبي حامد الغزالي (ت505 هـ)، وغيرهم، وكان الشيخ يوظف مقالاتهم، ويستعمل لغتهم، ومصطلحاتهم، ويورد تعاريفهم لدعم أحكامه الأخلاقية، حتى ليخال للقارئ من أول وهلة أنه هو أحد أتباعهم. بيد أن الحقيقة غير ذلك، فبعد قراءة متفحصة لأهم آثاره نصادف نصا يصرح فيه الشيخ اطفيش عن موقفه من الصوفية والتصوف بلغة واضحة، يقول فيه: "ولا بدّ من علم الظاهر وإلا زلّ أهل الباطن، ومن علمه [أي علم الباطن] وإلا زلّ أهل الظاهر، وقد كنتُ ممارساً لعلم التصوف، ولا يخفى عليّ مقاصدُهم والحمد لله تعالى، وأجيب عما أشكل، وكَرِهْتُه لأنه يؤهم تفسير القرآن بما هو خطأ، وكذا تفسير الحديث، والحقّ علم الظاهر مع مراعاة العمل... ومع ذلك أذكر أقوالاً لأهل التصوف في تفسير الأسماء الحسنى إيناساً للطلبة ولنفسي، وفي ذلك وجهان:

الأول - قصدهم ما في نفس الأمر عمدا ولم يقصد نفس التفسير.

والثاني - دعوى أن المراد بها في حق الله تعالى هو ما يذكرونه وأنه المراد، لا معانيها الظاهرة في اللغة المؤولة بما يناسب، وهذا لا يحسن إذ لا يعرفه أهل اللغة العربية، والله تعالى أنزل

القرآن بها، ولا يرضى بما يخالفها.

ومن علم التصوف الجائز تدرّجوا إلى علمه المشوب، ثم إلى الكفر... وزعموا أن من أجهد نفسه في العبادة مغبون، ومن تمسك بالشرعية محجوب، وأن هناك باطنا يخالف الظاهر إذا عرفه كَمُلَ وانحلَّ عنه التكليف، ويسمونه مرشدا، صدقوا ولكن مرشد إلى النار.⁽³⁸⁾

من خلال هذا النص تنكشف لنا رؤية الشيخ اطفيش إلى علم التصوف، وتمييزه الدقيق بين الجائز منه والمحظور، وتمسكه بالالتزام بالشرعية الإسلامية في علمها الظاهر والباطن، فلا انفكاك لأحد منهما عن الآخر، ثم دعوته إلى تفسير نصوص القرآن والسنة وفق قواعد اللغة العربية الفصحى لأنها الوعاء المبين لمعانيها من دون إيغال في التأويل، وخروج عن مقاصد الوحي.

(5) - علاقة علم الأخلاق بالعقيدة والفقه

إن التداخل الحاصل بين العلوم والمعارف وتشابك علاقاتها وتفاعلها في الممارسة التراثية ميزة أساسية تدل على التوجه التكاملي في التراث الإسلامي⁽³⁹⁾. وقد كان الشيخ اطفيش أنموذجا يعكس لنا هذا التوجه السائد في الفكر الإسلامي، حيث يتجلى لنا التداخل في مستويات مختلفة من فكره، مما جعل الآراء العقدية تمتزج بالمباحث الأخلاقية والأحكام الفقهية تجتمع بالمعاني الصوفية، وكان يعنى في مصنفاته بالفقه والتوحيد والأخلاق، وهي فنون متداخلة في نسق تكاملي. ونعرض مثالا واحدا لتوضيح هذا الملحظ:

■ ذكر الشيخ اطفيش أن قواعد الإسلام أربع، هي: العلم والعمل والنية والورع، ثم شرح كل قاعدة على حدة، موضحا العلاقات التي تربط بينها إذ إن كل واحد من الأربعة قاعدة للثلاثة الأخر، أي لا يصح واحد منها إلا مع الثلاثة الباقية⁽⁴⁰⁾.

فأي حكم شرعي إلا ويستند إلى مقصد أخلاقي يتمثل في النية وهي معيار قبول الفعل أو بطلانه، والإخلاص في النيات هو من متعلقات توحيد الله سبحانه.

(6) - تقييم وتعقيب

بعد هذا العرض التحليلي يمكن لنا تسجيل النتائج الآتية:

■ إن المنحنى الروحي للشيخ اطفيش بدأ من نقطة ميلاده في بيت أسرة متدينة وفقيرة وفي بيئة صحراوية قاسية، ثم ارتفع بالتدرج مع تحصيله للمعارف على مشايخ عصره واعتماده على عصاميته في التكوين، ليبلغ الذروة والاستقرار، ويشهد بذلك مرحلة النضج والاقتدار على الاجتهاد والنقد، ويسهم في التنوير والعطاء.

■ استوحى فلسفته الأخلاقية من منابع الشريعة الإسلامية معتمدا على أصولها ونصوصها الثابتة في القرآن والسنة، ويهدف من خلال اهتمامه ببحوثه الأخلاقية إلى النهوض بأمتة وإصلاح

أوضاعها الاجتماعية لتكون لها الغلبة والتمكين، والخروج من قبضة الاستعمار المهين. مما جعل فلسفته الأخلاقية ذات طابع عملي اجتماعي هادف.

■ عَرَفَ الشيخ علم التصوف دراسة وممارسة، ثم اتخذ منه بعد ذلك موقفا نقديا يميز بين الجائز منه والمحذور.

■ تأكيده على التوفيق بين علم الظاهر والباطن، وأن في انشطار أحدهما عن الآخر سبباً للزلل والضلال.

■ مزجه للعلوم الإسلامية في وحدة متكاملة: توحيد وفقه وأخلاق وتصوف وتفسير وأصول ولغة، يعكس لنا تكوينه الشمولي الموسوعي.

■ أما عن الجانب السلبي في بحوثه الأخلاقية فيتجلى في تساهل الشيخ في إيراده لأحاديث ضعيفة وموضوعة أحيانا، وروايات إسرائيلية صريحة، وآثار وقصص من اللامعقول من غير تمحيص أو تعليق، قصد استقصائه في جمع الشواهد المتعلقة بالموضوع المبحوث واستثناسه بها.

ونحن لا نشك في نزاهة الشيخ وورعه وتقواه وبعده من الكذب عن الرسول صلى الله عليه وسلم إلا أن اتصافه بشيء من الغفلة والسهو في هذا الجانب جعله يغلب عليه طابع التجميع على حساب تحري الصحة في النقل.

الهوامش:

⁽¹⁾ _ مصطفى ونتن : آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقديّة، نشر جمعية التراث، المطبعة العربية، غرداية ط1، ، 1996م، ص: 26

⁽²⁾ _ المرجع نفسه، ص: 46

⁽³⁾ _ محمد بن يوسف اطفيش: الذهب الخالص المنوه بالعلم القالص: تح. أبي إسحاق اطفيش، البعث، قسنطينة، ط2، 1980م، ص: 75

⁽⁴⁾ _ عن تلاميذ الشيخ يراجع: محمد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، المطبعة التعاونية، ط1، 1965م: ج 1/ ص 377_381

⁽⁵⁾ _ المرجع نفسه: ج 1/ ص: 340، 347_348 ، 350 . ونتن: آراء الشيخ اطفيش العقديّة، ص: 32

⁽⁶⁾ _ محمد اطفيش: كشف الكرب: ج 1/ ص 106 . ونتن: آراء الشيخ اطفيش، ص: 31

⁽⁷⁾ _ محمد علي دبوز: نهضة الجزائر، ج 1/ ص 333_336

⁽⁸⁾ _ محمد اطفيش: الذهب الخالص، كلمة الناشر، ص: 339_340

⁽⁹⁾ _ خضير باباوا عمر: الإمام إسماعيل الجيطالي وفكره العقدي، نشر جمعية التراث، المطبعة العربية، غرداية، ط1، 2009 ، ص: 77.

⁽¹⁰⁾ _ البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الشروط، باب مايجوز في الشروط: رقم: 2585 .

- ⁽¹¹⁾ _ محمد اطفيش: الذخر الأسنى في شرح أسمى الله الحسنى، طبعة حجرية، 1326 هـ، ص: 10،
- 29 ⁽¹²⁾ _ محمد علي دبور: نهضة الجزائر، ج1/ ص 321
- ⁽¹³⁾ _ محمد اطفيش: شرح النيل وشفاء العليل، تح أبي إسحاق اطفيش، مكتبة الإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط3، 1985م، ج17/194.
- ⁽¹⁴⁾ _ المصدر نفسه: ج17/ 198 _ 202
- ⁽¹⁵⁾ _ المصدر نفسه: ج17/ 203
- ⁽¹⁶⁾ _ المصدر نفسه: ج17/ 213
- ⁽¹⁷⁾ _ المصدر نفسه: ج17/ 225
- ⁽¹⁸⁾ _ المصدر نفسه: ج17/ 225
- ⁽¹⁹⁾ _ المصدر نفسه: ج17/ 228، 236
- ⁽²⁰⁾ _ البخاري: الجامع الصحيح، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم: 1
- ⁽²¹⁾ _ المصدر السابق: ج17/ 277_280
- ⁽²²⁾ _ المصدر السابق: ج17/ 309
- ⁽²³⁾ _ المصدر السابق: ج17/ 324_332
- ⁽²⁴⁾ _ المصدر السابق: ج16/ 19
- ⁽²⁵⁾ _ المصدر السابق: ج16/ 21
- ⁽²⁶⁾ _ أبو داود: السنن، كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر، رقم: 3567
- ⁽²⁷⁾ _ المصدر السابق: ج16/ 26_29
- ⁽²⁸⁾ _ المصدر السابق: ج16/ 445
- ⁽²⁹⁾ _ المصدر السابق: ج16/ 450
- ⁽³⁰⁾ _ محمد اطفيش: الذهب الخالص، تح أبي إسحاق، ص: 291_339
- ⁽³¹⁾ _ محمد اطفيش: الذخر الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ، ص: 26_27
- ⁽³²⁾ _ المصدر نفسه، ص: 2، وكان الشيخ يعيش في فترة الاستعمار الفرنسي المستبد، فأراد أن يربي نفوس الشعب الجزائري المسلم على القيم العليا، ويذكر فيهم روح العزة، ويربط قلوبهم بالله عز وجل واهب النصر والقوة، من خلال تعلقهم بأسماء الله الحسنى وتخلقهم بها، فألف من أجل ذلك هذا الكتاب.
- ⁽³³⁾ _ المصدر نفسه، ص: 20_22
- ⁽³⁴⁾ _ المصدر نفسه، ص: 51_52
- ⁽³⁵⁾ _ البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه، رقم:
- 09 ⁽³⁶⁾ _ المصدر السابق، ص: 52_54
- ⁽³⁷⁾ _ المصدر السابق، ص: 142_143
- ⁽³⁸⁾ _ المصدر السابق، ص: 39_41

- ³⁹ _ يراجع عن التداخل المعرفي وتكامل التراث: طه عبد الرحمن: تجديد المنهج في تقويم التراث، نشر المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2007 ، ص:89 وما بعدها. وعن مشكلة الحد الفاصل بين العلوم:كارل بوبر: منطق البحث العلمي، ترجمة:محمد البغدادي ، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2006، ص:69_82
- ⁴⁰ _ محمد اطفيش: شرح عقيدة التوحيد، تح.مصطفى وفتن، نشر جمعية التراث، المطبعة العربية، غرداية، ط1، 2001 ، ص:143_148

الشيخ المفكر القريب إلى الله، وأتباعه، وفكره

عمر نسيل

قسم الحقوق المركز الجامعي غرداية

غرداية ص ب 455 غرداية 47000، الجزائر

تمهيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين
وبعد:

لا شك أن شريعة المولى تبارك وتعالى كتاباً وسنةً، هي خير نظام يصلح لبني البشر، ذلك أنها شريعة نزلت من لدن حكيم خبير، تنزهت عن كل نقص وعيب، وكمالها من كمال منشئها، لا تحوّل ولا تزول، ولا تتأثر بتغير الزمان والمكان، والإسلام باعتباره ديناً، ومنهجاً للحياة، أشبه ما يكون بالخطّ المستقيم الذي يكشف اعوجاج الخطوط الأخرى، التي لا تتصف بصفاته، ولا تختص بخصائصه، وقد أولى الفقه الإسلامي عناية فائقة بقانون الحرب، أو ما بات يعرف اليوم بالقانون الدولي الإنساني، والذي يعني احترام الكرامة الإنسانية أثناء القيام بالأعمال الحربية.

الأصل في الحروب إذا نشبت، أن يُغيب فيها نداء العقل، وتطغى فيها نزوات الشر، وتُهيم الرغبة في الانتقام، وفهر الآخر، وإذلاله، بكل الوسائل المتاحة، ولما كان هذا ديدن الحروب، لم يؤمن في الغالب الأعم أن يستعر بنار الحرب، من ليس له علاقة بها لاعتبارات بدنية، أو نفسية، أو غير هذا، وذاك ممن استنته الشرائع، والأعراف، والقوانين، وأمام التطور الهائل الذي شهدته عصرنا في وسائل التخريب، وأسلحة الدمار، أصبح من البديهي دخول هذه الفئات في عداد الضحايا، بل إن المخيف أن أكثر الضحايا، هم ممن نهت الشرائع، والقوانين عن استهدافهم بالعمليات الحربية.

والإسلام بطبعه هدب فكرة الحرب، وحدد مقاصدها، فالحرب الإسلامية لا تُفبرها الأطماع السياسية، ولا التنافس على المصالح الدولية، وإنما هي الحرب من أجل الإنسان، وتحريره من عبودية المخلوق إلى عبودية الخالق، ومن ثم فقد استثنى فقهاء الإسلام طائفة كبيرة من فئات المجتمع، وحرم قسدهم بالعمليات الحربية. ولا شك أن تراث العلامة القطب محمد بن يوسف

اطفيش (رحمه الله)، يعد جهدا من الجهود التي تصب في هذا المجال.

ولما تشرفت مع زميلي بالإطلاع على مؤلفات القطب، ذات الصلة بمجال قانون الحرب والنزاع المسلح، وما يلزم الجندي المسلم من أخلاق أثناء تأديته للمهام الحربية، وجدت الرجل قد بث في موسوعته أصول قانون الحرب، أو كليات القانون الإنساني، على نحو يبعث على الإعجاب من دقة الرجل وكثرة تفريعاته، وتفصيلاته، وقد سبقت كتاباته بوادر ظهور هذا القانون، والمؤتمرات التي كانت وراء تأسيسه.

لذلك ارتأيت أن تكون بحثي موسوماً بـ: "ملاحم القانون الدولي الإنساني في مؤلفات العلامة محمد بن يوسف اطفيش" راجياً أن تسهم هذه المحاولة العلمية في إبراز جهود الشيخ العلامة محمد بن يوسف اطفيش، من خلال آثاره، وآرائه في إثراء الفقه الإسلامي.

وقد ضمنت هذه المداخلة محورين، بينت في الأول ماهية القانون الدولي الإنساني، وظروف نشأته، وبينت في الثاني أصول هذا القانون عند الإمام العلامة محمد بن يوسف اطفيش.

أولاً: ماهية القانون الدولي الإنساني :

كانت الحرب، ولا تزال أداة لتسوية الخلافات منذ وجود الإنسان، وتشير الإحصاءات إلى أن أربعة عشر ألف حرب، قد نشبت خلال خمسة آلاف سنة من التاريخ، وبلغت الخسائر بالأرواح، نحو خمسة مليارات من بني البشر، ولم يعرف العالم خلال ثلاثة آلاف، وأربعمائة سنة الأخيرة، سوى متين، وخمسين عاما من السلام، وبحلول الحرب العالمية الأولى، بلغت خسائرها بالأرواح نحو واحد وثلاثين مليون نسمة، وبلغت في الحرب العالمية الثانية نحو أربعين مليون نسمة، نصفهم من المدنيين⁽¹⁾، ولعل التطور الذي تشهده وسائل الحرب في عصرنا يمكن أن يفاقم الوضع إلى أسوأ مما شهدنا في القرن الماضي.

من أجل ذلك كان لا بُدَّ من السَّعي لإيجاد حلولٍ ممكنة تخفِّفُ من ويلاتِ هذه الحروب قدر الإمكان، ولا شك أن القانون الدولي الإنساني أعظم هذه الحلول.

1- تعريف القانون الدولي الإنساني :

لل قانون الدولي الإنساني، تعاريف كثيرة، فقد عُرِّف بأنه: "مجموعة المبادئ، والأحكام المنظمة للوسائل، والطرق الخاصة بالحرب بالإضافة إلى الحماية للسكان المدنيين، والمرضى، والمصابين من المقاتلين أسرى الحرب"⁽²⁾.

كما عُرِّفه البعض بأنه: "مجموعة القواعد الدولية الموضوعية بمقتضى اتفاقيات، وأعراف دولية مخصَّصة بالتحديد لحل المشاكل ذات الصلة الإنسانية الناجمة مباشرة عن المنازعات المسلحة الدولية، أو غير الدولية، والتي تحدُّ - لاعتبارات إنسانية - من حقِّ أطراف النزاع في

اللجوء إلى ما يختارونه من أساليب، أو وسائل للقتال، وتحمي الأشخاص، والممتلكات التي تتضرر من جراء النزاع"⁽³⁾.

أما اللجنة الدولية للصليب الأحمر فقد عرّفت القانون الدولي الإنساني بأنه: "مجموعة القواعد الدولية المستمدة من الاتفاقيات، والأعراف، التي تهدف بشكل خاص، إلى تسوية المشكلات الإنسانية الناجمة بصورة مباشرة، عن النزاعات المسلحة الدولية، أو غير الدولية، والتي تقيد -لأسباب إنسانية- حق أطراف النزاع في استخدام أساليب الحرب، وطرقها التي تروق لها، أو تحمي الأشخاص، والأماكن المعرضين، أو يمكن أن يتعرضوا لأخطار النزاع"⁽⁴⁾.

وقد عرفه بعضهم بتعبير آخر على أنه: "مجموعة المبادئ، والقواعد المتفق عليها دولياً، والتي تهدف إلى الحد من استخدام العنف في وقت النزاعات المسلحة عن طريق حماية الأفراد المشتركين في العمليات الحربية، أو الذين توقفوا عن المشاركة فيها، والجرحى، والمصابين، والأسرى والمدنيين، وكذلك عن طريق جعل العنف في المعارك العسكرية مقتصرًا على تلك الأعمال الضرورية لتحقيق الهدف العسكري"⁽⁵⁾.

وقد جرى استخدام مصطلح "قانون الحرب" في الفقه التقليدي، ثم استخدام اصطلاح قانون النزاعات المسلحة، ومن ثم شاع اصطلاح القانون الدولي الإنساني⁽⁶⁾، وقد لوحظ إقرار هذا المصطلح في المؤلفات الحديثة ذات الصلة، ويلاحظ ذلك بالخصوص في منشورات الهيئات الدولية المتخصصة، ولئن ظلت بعض المؤلفات تستعمل عبارتي "قانون الحرب"، و"قانون النزاعات المسلحة" فإن الرأي العام يسير نحو اصطلاح "القانون الدولي الإنساني"⁽⁷⁾.

وقد استخدم مصطلح القانون الدولي الإنساني لأول مرة، من طرف اللجنة الدولية للصليب الأحمر حينما تقدمت بوثائقها إلى مؤتمر الخبراء الحكوميين للاجتهاد في إنماء، وتطوير القوانين، والأعراف المتبعة في النزاعات المسلحة، والتي عقدت دورتها الأولى في جنيف في الفترة الواقعة بين (24) مايو، و(12) يونيو (1971م)، وبينت اللجنة أن استخدام الاصطلاح الجديد يعكس الرغبة في إبراز الطابع الإنساني الخالص لقانون النزاعات المسلحة، لأن الغاية من هذا القانون أساساً حماية ضحايا الكائن البشري، وما يتبعه من أموال وممتلكات، كما أكدت اللجنة أن هذا الاصطلاح الجديد لا يقتصر في دلالته على اتفاقيات جنيف الخاصة بحماية ضحايا الحرب فحسب، وإنما يتجاوزها ليشمل تلك القواعد العرفية، أو الاتفاقية التي تضع القيود على سير العمليات الحربية، أو استخدام الأسلحة وغيرها من القواعد التي تخدم الأبعاد الإنسانية⁽⁸⁾.

ومما سبق يمكننا القول أن القانون الدولي الإنساني، عبارة عن مجموعة من القواعد الدولية، التي تهدف إلى حماية شئئين أساسيين الأول هو حماية الإنسان، وهو من أهم الغايات

الأساسية لهذا القانون، والثاني هو حماية الأعيان، والممتلكات الذي تخص هذا الإنسان، غير أن الإنسان المشمول بهذه العناية بحسب الاتفاقيات هو الإنسان غير المشترك في الحرب، والإنسان غير القادر على مواصلة الاشتراك في الحرب، والمقصود بالمثل الأول المدنيين الذين يعتزلون الحرب، ولا يشتركون فيها، والمقصود بالمثل الثاني الأسرى، والجرحى من المحاربين⁽⁹⁾، وأما الأعيان، والممتلكات المحمية بموجب الاتفاقيات فهي الأعيان المدنية، والمراد منها كافة الأهداف التي لا تعتبر عسكرية بالمفهوم العسكري، ويعتبر الهدف عسكرياً إذا كان يخدم هدفاً عسكرياً، أو محمياً عسكرياً⁽¹⁰⁾.

2- تطور القانون الدولي الإنساني:

وبحلول القرن الثامن عشر، بدأ الاهتمام بمصير الأشخاص أثناء المعارك، وبدا ذلك واضحاً من آراء فلاسفة التنوير، حيث عارض (مونتسكيو)، و(روسو) فكرة إبادة الرق، وجعلاً الحرب سبباً من أسبابه، أو مُبرراً من مبرراته، وفرّق الاثنان بين المقاتلين، وغير المقاتلين، واعتبر (مونتسكيو)، أن قانون الشعوب يقوم على المبدأ القائل: إن على مُختلف الأمم أن تُعَلَب جانباً كبيراً من الخير أثناء السلم، وتحجم عن الشر قدر الإمكان أثناء الحرب،

بينما اعتبر (روسو)، أن الحرب علاقة دولة بدولة، والمقاتلون فيها مجرد وسيلة قتال، تنتهي صفة العدو منهم بمجرد انتهاء المعارك⁽¹¹⁾.

ولم تحظ المبادئ العرفية للقانون الدولي الإنساني رغم ذلك بالاحترام الكافي خلال النزاعات التي نشبت في تلك العصور، حتى سنة (1859م)، حيث دارت رحى معركة ضروس على أرض سولفرينو، بمقاطعة لومبارديا، بإيطاليا، اصطدم فيها النمساويون مع الفرنسيين، والإيطاليين، وكانت موقعة (سلفرينو) واحدة من أكثر المعارك دموية في التاريخ.

وكان ممن شهد الموقعة شاب سويسري، هو (هنري دونان)، الذي أفرغته المجازر الرهيبة ومشهد الجرحى المكდسين وهم يموتون متأثرين بالآلم رهيبة، وأمام هول الأحداث، أَلَفَ (هنري دونان)⁽¹²⁾ كتاباً أسماه " تذكّار سلفرينو "، يروي هذه المشاهد المروعة، وقد تملكته رغبة في عدم تكرارها، وتَمَنَّى أن تنشأ في كل بلد جمعية تطوعية، تعد نفسها في زمن السلم لتقديم الخدمات الصحية للجيش في وقت الحرب، وأن تُصادق الدُول على مبدأ اتّفاقيّ، ومُقَدَّسٍ يُؤمَّن الحماية القانونية للمستشفيات العسكرية، وأفراد الخدمات الطبية⁽¹³⁾.

وسرعان ما بدأت هذه الأمانة تأخذ مكاناً لها على أرض الواقع، حيث تم إنشاء مؤسسة الصليب الأحمر الدولي، وبعد ذلك بزمن يسير تمَّ عقْدُ أول اتفاقية ذات طابع إنساني هي اتفاقية جنيف لسنة (1864م)، بعد جهود دَفَعَت الحكومة السويسرية إلى عقد مؤتمر دولي حضرته ستة عشر دولة، أين أُبرمت هذه الاتفاقية الدولية المكوّنة من عشرة مواد بسيطة،

"لتحسين حال العسكريين الجرحى في الجيوش الميدانية"، وكانت هذه الاتفاقية نقطة انطلاق للقانون الدولي الإنساني⁽¹⁴⁾.

ومنذ العام (1864م)، وهو تاريخ أول اتفاقية تعقد في ظل القانون الدولي الإنساني وحتى العام (1977م)، وهو تاريخ البروتوكولين الإضافيين، مرَّ القانون الدولي الإنساني بعدة مراحل يمكن عرضها فيما يلي بإيجاز⁽¹⁵⁾:

- اتفاقية جنيف، المؤرخة في (1864/08/22م)، والمتعلقة بتحسين حال العسكريين الجرحى في الميدان.

- اتفاقية لاهاي، بشأن تعديل مبادئ اتفاقية جنيف (1864م)، لملائمة النزاع المسلح في البحار.

- اتفاقية جنيف، لعام (1906م)، الخاصة بتحسين حال الجرحى، والمرضى العسكريين في الميدان.

- اتفاقية لاهاي لعام (1907م)، بشأن تعديل وتطوير اتفاقية (1899م)، الخاصة بالنزاع في البحار.

- اتفاقيات جنيف لعام (1929م).

وكانت نتاجاً لوحشية الحرب العالمية الأولى، حيث سبق إبرامها، انعقاد مؤتمر دبلوماسي في جنيف عام (1929م)، أسفر عن اتفاقيتين هما:

أ- الاتفاقية الأولى المتعلقة بتحسين حال الجرحى، والمرضى العسكريين في الميدان.

ب- الاتفاقية الثانية الخاصة بمعاملة أسرى الحرب.

- اتفاقيات جنيف الأربع لعام (1949م):

- البروتوكولان الإضافيان لاتفاقيات جنيف، المؤرخان عام (1977م):

ثانياً: أصول القانون الدولي الإنساني عند القطب محمد بن يوسف اطفيش:

لا شك أن المستقرى لهذا القانون الذي اتضحت معالمه في نهاية هذا القرن، يستطيع أن يحدد بوضوح مبادئه التي تهدف إلى جعل الحروب أكثر إنسانية، والتي يمكن اقتضاها إجمالاً فيما يلي:

- منع أي ضرر جسيم يلحق بالبيئة، ومنع التدمير التعسفي للمباني والممتلكات.

- تقييد حرية الأطراف المتحاربة في استخدام الأسلحة، ووسائل الدمار.

- تجنب الأشخاص غير المنخرطين في النزاع المسلح (الأطفال، النساء، والشيخوخ).

ولايات القتال.

- ضرورة تدريب القادة العسكريين.

غير الأمر الملفت للانتباه في كتابات القطب (رحمه الله)، هو الإلمام بشكل عام بهذه المبادئ والأهداف، حيث ذكرها متناثرة في مؤلفاته يحسن بنا استقراؤها على نحو تتضح به أصول هذا القانون عند القطب، والذي سبق -قطعا- ما انتهى إليه القانون الدولي الإنساني من قواعد وأحكام.

1. قاعدة عدم جواز التدمير التعسفي للمباني والممتلكات، ومنع أي ضرر جسيم يلحق بالبيئة:

قال القطب (رحمه الله): ((وفي الأثر يجب على الإمام أن يتقدم على جنده ويعرفه ما يجوز لهم وما يحل لهم وبهاتهم فمن ركب بعد النهي ضمن في ماله وينبغي إذا أراد أن يرسل سرية أو جيشا أن يشار العلماء والذين يخافون الله فإذا عزم على ذلك أمر عليهم أميرا مرضيا وكتب لهم عهدا يعرفهم فيه ما يأتون وما يتقون ويشترط عليهم ألا يعتدوا أمره وما عمي عليهم فليكاتبه في جناية الجاني على نفسه لا على الإمام وإذا أرسل سرية أو جيشا فنهوا الأموال واحرقوا المنازل وسفكوا الدماء ولم يأمرهم بذلك فانه يأخذ بذلك من أحدثه وظهر بغى محدثه والإنكار عليه وعقابه...))⁽¹⁶⁾ إن القطب رحمه الله يؤكد على مبدأ من أهم المبادئ الأساسية للقانون الدولي الإنساني، هو مبدأ التمييز بين الأهداف العسكرية والأهداف غير العسكرية، الذي يؤكد على ضرورة التمييز بين نوعين من الأشخاص، ونوعين من الأعيان، ويقصد بالأشخاص المحاربين وغير المحاربين، ويقصد بالأعيان العسكرية، غير العسكرية فالممتلكات غير العسكرية شأنها شأن الأشخاص لا يمكن مهاجمتها ما دامت غير محصنة بوسائل الدفاع، ولا تشارك في المجهود الحربي وقد نصت المادة 48 من البروتوكول الأول على مايلي: "تعمل أطراف النزاع على التمييز بين السكان المدنيين والمقاتلين وبين الأعيان المدنية والأهداف العسكرية ومن ثم توجيه عملياتها ضد الأهداف العسكرية دون غيرها، وذلك من أجل تأمين احترام وحماية السكان المدنيين وأعيان المدينة"⁽¹⁷⁾. ومما يؤكد وضوح مبدأ التمييز بين المقاتلين وغيرهم قوله رحمه الله: (فإن الظاهر أنه حيث لا يعرف الذي لا يحل قتله، الكف عن القتال، لقوله تعالى: ((ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرة بغير إثم)) سورة الفتح، الآية 24.

2. تقييد حرية الأطراف المتحاربة في استخدام الأسلحة، ووسائل الدمار:

ويقول القطب رحمه الله في هذا المجال: ((ويقتل الرجل قاتل وليه بما أمكنه إلا النار والدخان والماء والاختناق وهكذا في القتال وقيل يجوز ذلك في القتال إلا بالنار))⁽¹⁸⁾.

انه تأكيد واضح على عدم جواز استخدام الأسلحة التي تسبب معاناة لا مبرر لها فكأن

القطب يشير إلى الأسلحة الكيميائية والبيولوجية والنوية وسائر الأسلحة السامة في زماننا وقد ورد في القانون الدولي الإنساني ما يشير إلى أن استخدام هذه الأسلحة يؤدي إلى تعرض أشخاص بعيدين عن جبهة القتال لآثارها⁽¹⁹⁾، وقد منع بيان مؤتمر بروكسل لعام (1874م)، صراحة استخدام الأسلحة السامة، أو المسمومة،⁽²⁰⁾.

وانعقد مؤتمر لاهاي، ونصت اتفاقيته الرابعة المؤرخة في (29) جويلية (1899م) على حظر الغازات الخانقة، وعدم استخدام المقذوفات التي هدفها الوحيد قذف غازات خانقة،⁽²¹⁾.

ثم نصت بعد ذلك معاهدة فرساي في (28) جوان (1919م)، في المادة (171) على حظر استعمال الغازات الخانقة، والسامة، وما شابهها، بعد انهزام ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، أمام الحلفاء، وحدث الأمر ذاته أيضا في معاهدة سانت جيرمان في ديسمبر (1919م)، بين النمسا، والحلفاء في المادة (135)، كما نصت معاهدة نويي في (27) نوفمبر (1919م) بين بلغاريا، والحلفاء في المادة (82)، على نفس الحظر، وكذلك معاهدة تريانون في جوان (1920م) بين المجر، والحلفاء في المادة (119)⁽²²⁾.

ويعد بروتوكول جنيف⁽²³⁾، المبرم في (17) يونيو، حزيران (1925م)، أهم إطار قانوني يحظر الأسلحة الكيميائية بشكل صريح، ومباشر، بعد الاستخدام المكثف للأسلحة الكيميائية في الحرب العالمية الأولى، وقد نص البروتوكول على أن: "استخدام الغازات الخانقة، أو السامة، أو غيرها من الغازات، وما يشبهها من السوائل، أو أدوات قد تمت أدانته من جانب الرأي العام بالعالم المتحضر

أما عن تحديد السلاح البيولوجي فهو يستند، على عدة نصوص دولية تناولت حظر أسلحة معينة في الحرب، كإعلان سان بيترسبورغ، لعام (1968م)، إذ تحظر فقرة منه استخدام نمط من الأسلحة قابلة للانفجار، أو محملة بمواد صاعقة، أو قابلة للالتهاج، وإعلان لاهاي الثاني المرفق باتفاقيات لاهاي، لعام (1899م)، والذي يحظر استخدام المقذوفات التي تهدف إلى نشر الغازات الخانقة، والمتلفة، ونصت المادة (23/أ)، من لائحة الحرب البرية الملحقة باتفاقيات، لاهاي لعامي (1899م)، و(1907م)، على هذا الحظر أيضا حينما قضت بتحريم استعمال السم، والأسلحة المسمومة، غير أن أهم مرجع إزاء حظر هذه الأسلحة، هو بروتوكول جنيف المنعقد في (17) يونيو، حزيران (1925م)، الذي تضمن مبدأ عدم استخدام هذا النوع من الأسلحة في النزاعات المسلحة، أضاف إلى ذلك قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم (2454-أ-)، (د-23)، لعام (1968م)، الذي حظر لأول مرة استعمال الأسلحة الكيميائية والبيولوجية في الحرب⁽²⁴⁾. وتعتبر معاهدة حظر، وتطوير، وإنتاج، وتخزين الأسلحة البيولوجية، والسامة، في عام (1972م)، والتي دخلت حيز التنفيذ في عام (1975م)⁽²⁵⁾. أهم مستند قانوني يعتمد عليه قانون

الدولي الإنساني في تحريم هذه الأسلحة والأمر نفسه ينطبق على الأسلحة النووية في معاهدة الحد من الانتشار النووي.

3. تجنب الأشخاص غير المنخرطين في النزاع المسلح (الأطفال، النساء، والشيخوخاء).
ولايات القتال:

قال القطب رحمه الله: ولا يقتل غير البالغ، ولا المرأة إلا التي قاتلت أو ارتدت، ومنع النكار قبلها مطلقاً، ولا الشيخ الهرم إلا إن كان مُدَبَّرَ أمر الحرب، وإن قاتل الصبي دُفِعَ وإن أدى دفعه إلى قتل فلا بأس⁽²⁶⁾، وهذا المبدأ أيضاً من المبادئ الجوهرية التي قام عليها القانون الدولي الإنساني حيث جاء في المادة 48 من البروتوكول الأول على مايلي: "تعمل أطراف النزاع على التمييز بين السكان المدنيين والمقاتلين وبين الأعيان المدنية والأهداف العسكرية ومن ثم توجيه عملياتها ضد الأهداف العسكرية دون غيرها، وذلك من أجل تأمين احترام وحماية السكان المدنيين وأعيان المدينة، ولا شك أن السكان المدنيين في زماننا هم من لا يقاتلون في العادة في وقد أشار القطب في كلامه إلى أن العلة من الاستهداف هي القتال بالفعل أو بالرأي.

4. ضرورة تدريب القادة العسكريين:

قال القطب رحمه الله في شرح ما قاله الإمام الثميني: (ولا يؤم وإن لدفاع ذو كبيرة ولا عبد أو طفل أو امرأة... أي لا يجعل إماماً لأنه يؤمن على دين الله عز وجل وآيات وجوب طاعة أولي الأمر وأحاديثه أدلة على أنه لا يجعل ذو كبيرة إماماً)⁽²⁷⁾ ثم يستدل رحمه الله بقول الشاعر الأفوه الأودي:

تبقى الأمور بأهل الرأي ما صلحت فإن تولت فبالأشرار تنقاد

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

وهو بهذا يحاول تأكيد فكرة أن القيادة خصوصاً في أمور الحرب لا توكل إلا لمن يعرفون حكم الله لأنهم أجدر وأقدر على تطبيق شرعه أثناء النزاع المسلح، وقد جاء في البروتوكولين الإضافيين لعام 1977 ما يشير إلى ضرورة تدريب القادة وإعداد العاملين المؤهلين بغية تسهيل تطبيق اتفاقيات القانون الدولي الإنساني.

الخاتمة

إن الناظر في كتابات القطب يلمس موسوعيته وإلمامه في مجالات عديدة ولاشك أن القانون الدولي الإنساني هو أحد هذه المجالات التي بدا فيها فكر القطب واضح المعالم، حيث تطابقت أفكاره وآراؤه مع قواعد القانون الدولي الإنساني، التي تبلورت على مدى قرن من الزمن، على نحو يبعث على العجب فجعل المبادئ التي وردت في قانون لاهاي للحرب البرية، وفي

اتفاقيات جنيف الأربع لسنة 1949، اختصرها القطب رحمه الله فيما ذكرنا من المبادئ والقواعد واني أهيب بالسادة الباحثين العمق أكثر في تراث القطب خصوصا ما تعلق منها بقواعد الحرب والاشتباك المسلح، لأنها تصلح أن تكون أطروحة تبين موسوعية القطب في هذا المجال.

الهوامش:

(1) د. اسماعيل عبد الرحمان، الأسس الأولية للقانون الإنساني الدولي، من كتاب القانون الدولي الإنساني، دار المستقبل العربي القاهرة، الطبعة الأولى، 2003م، ص 15.

(2) انظر:

Ramesh Thakur, Global norms and int. Humanitarian law , int, Review of red cross, I r c c, Geneva , 2000, Vol. 83, No. 841, P 19.

(3) د. فيصل شنتاوي، حقوق الإنسان والقانون الدولي الإنساني، دار حامد، عمان، 2001م، ص 190.

(4) نقلا عن د. محمد المجذوب، القانون الدولي العام، منشورات الحلبي الحقوقية، طبعة 2005م، ص

762.

(5) د. محمد نور فرحات، تاريخ القانون الدولي الإنساني والقانون الدولي لحقوق الإنسان، من كتاب دراسات

في القانون الدولي الإنساني، دار المستقبل العربي القاهرة، الطبعة الأولى، 2000م، ص 84.

(6) د. صلاح الدين عامر، مقدمة لدراسة قانون النزاعات المسلحة، دار الفكر العربي القاهرة، الطبعة الأولى،

سنة 1976م، ص 89، وما بعدها.

(7) د. عامر الزمالي، القانون الدولي الإنساني، تطوره ومحتواه وتحديات النزاعات المعاصرة، بحث مقدم

للمندوة التعليمية حول: القانون الدولي الإنساني والرقابة على التسليح في الصراعات المسلحة، المعهد الدولي

للدراسات العليا في العلوم الجنائية، سيراكوزا، إيطاليا 27 يونيو، 3 يوليو 1998م، ص 210.

(8) د. صلاح الدين عامر، مقدمة لدراسة قانون النزاعات المسلحة، مرجع سابق، ص 100.

(9) راجع المادة: 50، من بروتوكول جنيف الأول، لعام 1977م.

(10) راجع المادة: 52، من بروتوكول جنيف الأول، لعام 1977م.

(11) د. عامر الزمالي، القانون الدولي الإنساني تطوره ومحتواه... المرجع السابق، ص 213.

(12) يعد كل من (هنري دونان)، و(فرانسيس ليبير)، أصحاب الفكرة الأساسية التي انطلق منها مفهوم،

ومحتوى القانون الدولي الإنساني، لمزيد من التفصيل انظر:

–Gasser, hang-peter ; « International Humanitarian law », in « Introduction to International Humanitarian law »,International al committee of the Red Cross Region al Delegation New Delhi, First impression 1997, P4.

(13) Singh, Gurdip ; « Development of International Humanitarian law », in « Introduction To International Humanitarian Law », ICRC-Regional Delegation, New Delhi First impression 1997, P 114 – 115.

(14) Iyer, Krishna V.R ; « Humanitarian law – A halting History of Global Evolutio » in « Introduction to International Humanitarian law », ICRC- Regional Delegation new Delhi, First impression, 1997, P 87.

(15) لتفصيل أكثر عن هذه المراحل، راجع: د. صلاح الدين عامر، مقدمة الدراسة القانون الدولي العام، دار

النهضة العربية، القاهرة، طبعة 2003م، ص 959، وما بعدها.

- (16) راجع أحكام المادة 48 من البروتوكول الأول اتفاقية جنيف 1949.
- (17) محمد بن يوسف طفيش، شرح كتاب النيل، ط3، مكتبة الإرشاد، جدة، 1985م، ج14/ص390.
- (18) محمد بن يوسف طفيش، شرح كتاب النيل، مرجع سابق، ج14/ص489.
- (19) د. محمود شريف بسيوني، مدخل في القانون الإنساني الدولي، والرقابة الدولية على استخدام الأسلحة، بدون ناشر 1999م، ص 986.
- (20) المرجع نفسه، ص، 876.
- (21) عبد العزيز علي جميع، قانون الحرب، المكتبة الأنجلو المصرية، بدون طبعة، مصر 1952م، ص 169.
- (22) محمد خيرى بنونة، القانون الدولي للطاقة النووية، المرجع السابق، ص 192.
- (23) بروتوكول جنيف، حول حظر استخدام الغازات السامة، أو الخانقة، أو غير ذلك من الغازات، والوسائل البيكتريولوجية في الحروب، 17 يونيو 1925م، دخل حيز التنفيذ، في 08 فبراير 1928م، وكانت الوثيقة أساسا بروتوكولا لاتفاقية 1925م، للإشراف على التجارة الدولية في الأسلحة، والذخائر، وأدوات الحروب انظر: د.محمود شريف بسيوني، المرجع السابق، ص 876.
- (24) د.عمر سعد الله، المرجع السابق، ص261، 262.
- (25) د.محمود الشريف بسيوني، المرجع السابق، ص 1024-1025.
- (26) محمد بن يوسف طفيش، الذهب الخالص المنوه بالعلم القالض، ط2، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، 1998م، ص89.
- (27) محمد بن يوسف طفيش، شرح كتاب النيل، ط3، مكتبة الإرشاد، جدة، 1985م، ج14/ص329.